

الدولة العثمانية

دَوْلَةُ إِسْلَامِيَّةٍ مُفَرَّغَةٌ عَلَيْهَا

تأليف

أستاذ دكتور

عبد العزيز محمد الشناوي

الجزء الثالث



مكتبة الأنجلو المصرية

الدَّولة العُثمانيَّة

دولة إسلامية مفترى عليها

تأليف

أستاذ دكتور عبد العزيز محمد الشناوى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة

وأستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ السابق

بجامعة الأزهر بالقاهرة

الجزء الثالث

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

اسم الكتاب: الدولة العثمانية (الجزء الثالث)

اسم المؤلف: د/ عبد العزيز الشناوي

اسم الناشر: مكتبة الانجلو المصرية

اسم الطابع: مطبعة محمد عبد الكريم حسان

رقم الابداع: 13975 لسنة 2004

الترقيم الدولي: ISBN 977-05-2068-3

بسم الله الرحمن الرحيم

«وقل رب زدني علماً»

مقدمة الجزء الثالث

استكمل المؤلف فى هذا الجزء الثالث من سلسلة «الدولة العثمانية - دولة إسلامية مفترى عليها، مايدأه فى الجزئين السابقين من وضع الأمور فى نصابها الصحيح من حيث الإيجاب أو السلب .. مطبقاً بجدارة وتمكن مبدأ «مالله لله وماالقيصر لقيصر» .. فقد اختتم الجزء السابق يعرض أربعة فصول متتالية ، جمع خلالها كل ما قيل من آراء محايدة فى إنجازات وإخفاقات السلطان عبدالحميد الثانى .. وما هو يستكمل فى هذا الجزء معالم بعض الإصلاحات الرئيسية التى قام بها هذا السلطان كإنشاء جامعة إستانبول ودور المعلمين ، والبرنامج الإصلاحى للقضاء ، وكيف تتابعت قوانين هذا الإصلاح ، وإنشاء الخطوط الحديدية ، ووسائل المواصلات الأخرى ، وأسلاك البرق.

وفى الفصول الثانى والسادس والسابع ، يتناول المؤلف بحياد تام ، عرض كل التفسيرات التعسفية - من باب التشويه - للإنجازات التى استعرضها المؤلف فى الفصل الأول كإنشاء الجامعة الإسلامية وخطوط السكك الحديدية ، ومن أشهرها طريق ب. ب. ب. الحديدى وكافة العراقيل التى ذللت لإنشاء هذا الخط ، وقد أفرد المؤلف فيما بعد الفصلين الثامن والتاسع لعرض كل التفاصيل الخاصة بهذا الخط ومناقشة الأمور المتعلقة بالجناح الأسيوى من هذا المشروع ، والتوصيات والتسويات التى تم التوصل إليها بين الدول العثمانية وألمانيا وبريطانيا والروسيا وفرنسا .

ثم عالج المؤلف فى الفصلين الثالث والرابع مدى نجاح حركة الجامعة الإسلامية ، والدور الكبير الذى بذله عبد الرحمن الكواكبي فى دعم حركة هذه الجامعة وأثره فى تكوين فكر إسلامى جمعى ، وصلة هذا الفكر بالسوسيين ، مبيناً خلال ذلك دور هذا الفكر الإسلامى باعتباره إنجازاً عظيم القيمة يحسب لهذه الدولة .

ولأن الرصد التاريخى عملية بحثية تحتكم إلى أصول البحث العلمى الدقيق من حيث الالتزام والحيدة والموضوعية ووضع الأمور فى نصابها الصحيح ، عمد المؤلف فى الفصول الخمسة الأخيرة من هذا الجزء (من الفصل العاشر إلى الفصل الرابع عشر) إلى ذكر مثالب الدولة العثمانية والأخطاء التى وقعت فيها دون مبالغة أو تشويه كما عمد معظم الباحثين فى التأريخ لهذه الدولة . وكان من أهم هذه الأخطاء :

هبط مستوى معيشة الجماهير العربية ، وتباطؤ الدولة العثمانية في حسم الصراعات الدينية بين المسيحيين والمسلمين ، والصراعات الدموية مثلما في لبنان والأرمن .

إن التزام المؤلف في عرض كتابه بهذه الأمانة التي تحتمها قدسية الكلمة ونزاهة العرض ، ليجعل من هذه الجزء - كعينة من السلسلة - نموذجاً فريداً للبحث التاريخي الصادق الملتزم ، الذي يرغب في قراءته المتخصص ، وغير المتخصص ، لا لشيء ، وإنما لأنه يحترم ذهن وعقل هذا القارئ ، ويقدر قيمة الصدق في إحداث الأثر المرغوب ...

الناشر

فهرست الجزء الثالث

٤٢ - ٢١

الفصل الأول

معالم بعض الإصلاحات الرئيسية التي قام بها السلطان عبدالحميد الثاني

أخطار ومتاعب السنتين الأوليين من حكم عبدالحميد (٢١)
مؤرخان غربيان ينصفان عبدالحميد (٢٣) التعليم (٢٤) إنشاء جامعة
إستانبول (٢٥) إنشاء دور المعلمين (٢٦) تقرير ضريبة خاصة
للتعليم (٢٧) التعليم العسكى (٢٧) تأثير عبدالحميد بآراء كوجوك
سعيد (٢٨) الإصلاح القضائى (٣٠) المآخذ على النظام
القضائى (٣٠) إنشاء مكتبى حقوق شاهانى (٣٣) تطوير عدلية
نظارتى (٣٣) برنامج السلطان عبدالحميد للإصلاح
القضائى (٣٣) تتابع إصدار قوانين الإصلاح القضائى (٣٤)
اعتراض أوروبا على قوانين الإصلاح (٣٥) جهود أحمد جودت باشا
فى مجال الإصلاح القضائى (٣٥) الخطوط الحديدية (٣٧) وسائل
المواصلات الأخرى : أسلاك البرق (٤١) .

٧٠ - ٤٣

الفصل الثانى

تفسيرات تعسفية لبعض مشروعات

قام بها السلطان عبدالحميد الثانى (١)

ثلاثة مشروعات (٤٣) أولاً : حركة الجامعة الإسلامية
Pan Islamism (٤٣) دعوة نامق كمال (٤٤) دعوة جمال
الدين الأفغانى (٤٨) مقارنة بين نامق كمال وجمال الدين
الأفغانى (٥٥) أسباب احتضان عبد الحميد لفكرة الجامعة

الإسلامية (٥٦) اهتمام عبدالحميد بالإبقاء على الولايات العربية في حوزة الدولة وموقفه المتشدد من اتفاقية قناة السويس سنة ١٨٨٨ (٥٧) عبدالحميد والخلافة (٦٠) وسائل عبدالحميد في دعم فكرة الخلافة في العالم الإسلامي (٦١) وسائل عبدالحميد في دعم فكرة الخلافة في العالم العربي (٦٢) إصدار جريدة العروة الوثقى (٦٤) برنامج الجريدة (٦٤) عبدالحميد يدعو الأفغانى للإقامة في إستانبول (٦٦) من أخطاء عبدالحميد (٦٧) .

الفصل الثالث

مدى نجاح حركة الجامعة الإسلامية

مظاهر نجاح الحركة (٧١) استفادة الاتحاديين من حركة الجامعة إبان الحرب الطرابلسية (٧٥) تأييد إمام اليمن وأمير نجد (٧٥) تأييد الهند (٧٦) تأييد قطر والبحرين (٧٧) حرج موقف أوروبا (٧٨) استغلال الاتحاديين حركة الجامعة في الحرب العالمية الأولى (٧٨) تعثر حركة الجامعة الإسلامية (٧٩) انقضاء حركة الجامعة الإسلامية (٧٩) العامل الأول : الحركة الطورانية - Pan Tu ranianism (٧٩) العامل الثاني : وعود بريطانيا سنة ١٩٩٥ للحسين بن على أمير مكة وشريفها (٨١) العامل الثالث : موقف المعارضة الشديدة الذى اتخذه المسيحيون العرب في الولايات العربية للدولة العثمانية من حركة الجامعة الإسلامية (٨٢) القومية العربية سنة ١٨٧٥ كانت سراً (٨٣) تحليل موقف العازوريين من حركة الجامعة الإسلامية (٨٦) .

الفصل الرابع

الكواكبي ودعم حركة الجامعة الإسلامية العربية

الكواكبي ودعم حركة الجامعة (٨٩) الخليفة التاريخية في التفكير السياسي للكواكبي (٩٥) كتاب أم القرى (٩٧) نفور الكواكبي من العثمانيين (١٠٠) أسباب تفضيل الكواكبي عرب الجزيرة العربية (١٠١) التحامل على الدولة العثمانية (١٠٣) الخلافة التي يريدها الكواكبي (١٠٤) عود إلى نفور الكواكبي من العثمانيين (١٠٦) تقييم الكتاب (١٠٦) كتاب طبائع الاستبداد (١٠٨) عرض للفصول العثمانية في الكتاب (١١٠) بحوث الكتاب (١) ماهية الأمة أى الشعب ؟ (٢) ماهية الحكومة ؟ (٣) ماهية الحقوق العامة ؟ (٤) المساواة فى الحقوق العامة (٥) الحقوق الشخصية (٦) نوعية الحكومة (٧) ماهية وظائف الحكومة ؟ (٨) حقوق الحاكمين (٩) طاعة الأمة للحكومة (١٠) توزيع التكاليفات (١١) إعداد القوات المسلحة (١٢) المراقبة على الحكومة (١٣) حفظ الأمن العام (١٤) سيادة القانون (١٥) تأمين العدالة القضائية (١٦) حفظ الدين والآداب العامة (١٧) تحديد الأعمال بقوانين (١٨) كيف توضع القوانين ؟ (١٩) ماهية القانون وقوته ؟ (٢٠) توزيع الأعمال والوظائف (٢١) التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم (٢٢) الترقى فى العلوم والمعارف (٢٣) التوسع فى الزراعة والتصنيع والتجارة (٢٤) السعى فى العمران (٢٥) السعى فى رفع الاستبداد (١١٥) الأحوال التى يثور فيها غضب العامة على المستبد (١٢٢) تقييم الكتاب (١٢٤) مقارنة بين الكواكبي والأفغانى (١٢٦) .

١٣١ - ١٥٤

الفصل الخامس

حركة الجامعة الإسلامية والسنوسيون

السنوسيون يتعاطفون مع الدولة العثمانية (١٣١) العلاقات بين السلطان عبدالحميد والسنوسى (١٣٢) السنوسيون يستجيبون لوحدة الصف الإسلامى مع العثمانيين (١٣٤) السنوسيون يحززون انتصارات فى المراحل الأولى للحرب (١٣٧) ضباط الجيش والشرطة المصريون يشتركون فى محاربة البريطانيين (١٣٨) انضمام عبدالرحمن عزام إلى المجاهدين (١٤٠) نجاح الحملة بقيادة محمد صالح حرب (١٤٠) حملة السنوسى تحقق هدفاً مهماً من أهدافها (١٤١) إخفاق الحملة السنوسية على مصر (١٤٢) ، أوروبا تقف من حركة الجامعة الإسلامية موقفاً معارضاً (١٤٢) الجامعة الإسلامية من الأسباب العامة للثورة العربية (١٤٣) لورد كرومر يهاجم حركة الجامعة الإسلامية (١٤٦) تصاعد حركة الجامعة فى مصر إبان الحرب الطرابلسية (١٤٧) تفسيرات تعسفية ومهاجمة الحكومات والهيئات الأوروبية لحركة الجامعة الإسلامية (١٤٧) موقف سابق للروسيا اعترفت فيه بالسلطان كخليفة (١٥٠) ملك إيطاليا يعترف بالسلطان كخليفة (١٥١) لم تمت حركة الجامعة الإسلامية (١٥٤) .

١٥٥ - ١٦٧

الفصل السادس

تفسيرات تعسفية لبعض مشروعات

قام بها السلطان عبدالحميد الثانى

سكة حديد الحجاز (٢)

بواعث إنشاء الخط الحديدى (١٥٥) تمويل المشروع (١٥٦) تنفيذ المشروع (١٥٧) خدمات سكة حديد الحجاز للعالم الإسلامى (١٥٩) انطباعات السفير البريطانى عن سكة حديد الحجاز (١٦٠)

تفسيرات تعسفية لإنشاء سكة حديد الحجاز (١٦١) خطوط حديدية أخرى تم إنشاؤها في بلاد الشام على عهد عبدالحميد (١٦١) (١) الخط الحديدي من يافا إلى القدس سنة ١٨٨٨ (١٦٣) (٢) خط دمشق - بيروت (١٦٣) (٣) خط دمشق - مزيريب (١٦٤) (٤) خط دمشق - حلب (١٦٥) (٥) خط طرابلس الشام - حمص (١٦٥) - تخريب خط الحجاز بعد عبدالحميد (١٦٦) محاولات بحث خط الحجاز (١٦٦) .

١٦٩ - ١٩٧

الفصل السابع

تفسيرات تعسفية لمشروعات إصلاح قام بها السلطان عبدالحميد الثاني

طريق ب. ب. ب (٣)

B. B. B. Route

التقارب بين إسطنبول وبرلين وأهدافه (١٦٩) مظاهر التقارب بين إسطنبول وبرلين (١٧٢) ترحيب عبدالحميد بالتقارب بين إسطنبول وبرلين (١٧٢) طريق ب. ب. ب (١٧٣) براعة ألمانيا في تهديد مخاوف السلطان من أطماع الصهيونيين في فلسطين (١٧٤) أهداف ألمانيا من طريق ب. ب. ب (١٧٧) أهداف عبدالحميد من طريق ب. ب. ب (١٧٨) تفسيرات تعسفية لطريق ب. ب. ب (١٨٢) توقيع عقد الامتياز لإنشاء الخط الحديدي ب. ب. ب (١٨٤) المدن التي يمر بها الخط الحديدي الرئيسي (١٨٤) فروع الخط وامتداداته (١٨٥) مدة الامتياز (١٨٥) أراضي الشركة (١٨٥) ازدواجية الخط بعد بضع سنين (١٨٦) الإعفاء من الضرائب والرسوم الجمركية (١٨٦) تكوين شركة محاصة (١٨٦) النقل في أنهار المراق تحت إشراف نظارة البحرية (١٨٧) من امتيازات الشركة (١٨٧) فروع أخرى تخرج من الخط

الرئيسي (١٨٨) إجراءات أمنية (١٨٩) إلزام أصحاب الامتياز بإبداع ضمان مالي (١٨٩) حق الحكومة في سحب استغلال الخط (١٨٩) التزام مستخدمى وعمال الخط بارتداء الطربوش والزي الرسمي (١٩٠) بناء مرفأ فى بغداد والبصرة وساحل الخليج (١٩٠) حق الحكومة فى إقامة منشآت عسكرية دفاعية (١٩٠) الكشف عن الآثار (١٩١) أحكام جزائية (١٩١) الخط الحديدى بين إستانبول إلى الخليج وحدة لا تتجزأ (١٩١) التزام أصحاب الامتياز بإقامة مباني للمرافق العامة (١٩١) إقامة أعمدة تلفراف وأسلاك برق على طول الخط (١٩٢) تنظيم الخدمة البريدية (١٩٢) تنظيم عملية النقل البحرى بين صنفى البوسفور الآسيوية والأوروبية (١٩٢) الضمان الكيلومتري وكيفية سداده (١٩٣) تقسيم الأرباح بين الحكومة والشركة (١٩٥) تسيير قطارات سريعة (١٩٥) خط فرعى إلى ديار بكر (١٩٦) أحكام عامة (١٩٦) إنشاء خط فرعى مؤقت من ميناء إستانبول إلى حميدية (١٩٦) عدم منح الشركة مساحات شاسعة من الأراضى (١٩٦) مكافحة النهرب الضريبى والجمركى (١٩٧) مادة عسكرية هامة (١٩٧) .

١٩٩ - ٢٢٢

الفصل الثامن

مشروع الجناح الآسيوى لطريق ب. ب. ب الحديدى بين الدولة العثمانية وألمانيا وبريطانيا والروسيا وفرنسا

ترحيب يشويه التحفظ لبريطانيا بالمشروع (١٩٩) ظهور المعارضة البريطانية للمشروع واشتدادها (١٩٩) أسباب معارضة بريطانيا للمشروع (٢٠٠) صراع سياسى دولى على الكويت كمحطة نهائية للخط الحديدى (٢٠١) مميزات الكويت (٢٠١) الوضع السياسى للكويت (٢٠٢) المطامع الروسية فى الكويت (٢٠٥) الحاكم

العام للهند يقترح وضع الكويت تحت الحماية البريطانية (٢٠٦)
بريطانيا تفرض على الكويت معاهدة مانعة (٢٠٧) دراسة تحليلية
لاتفاقية ١٨٩٩ وأثرها على عدم إيصال خط حديدى إلى الكويت
(٢٠٨) اتفاقية ١٨٩٩ غير متكافئة (٢١٠) العلاقات بين الدولة
العثمانية والكويت وبريطانيا بعد عقد الاتفاقية (٢١٠) مبارك يقوم
بزيارة رسمية لوالى البصرة (٢١١) بعثة ألمانية تزور الكويت
(٢١٢) مبارك يرجو بريطانيا أن تعلن حمايتها السافرة على الكويت
(٢١٤) اتفاق مؤقت بين الحكومتين العثمانية والبريطانية (٢١٥)
تحذير من السلطان للشيخ مبارك (٢١٥) السلطان يعرض على الشيخ
مبارك الإقامة فى إستانبول (٢١٦) إجراءات بريطانيا لدعم نفوذها
فى الكويت (أ) الحاكم العام للهند يزور الكويت زيارة رسمية (٢١٦)
(ب) بريطانيا تعين وكيلأ سياسياً فى الكويت (٢١٧) (ج) بريطانيا
تمسح الكويت براً وبحراً (٢١٨) مبارك يثير عدة مرات موضوع
العلم الخاص بالكويت (٢١٨) الساحل الشمالى الفارسى للخليج يغدو
منطقة نفوذ بريطانى (٢١٩) بريطانيا تنال امتيازات أخرى فى
الكويت لمنع وصول الخط الحديدى إلى مياه الخليج (٢٢١) معارضة
الروسيا وفرنسا للمشروع (٢٢٢) .

الفصل التاسع

اتفاقيات بين خمس دول كبرى حول مشروع الجناح الآسيوى لطريق ب. ب. ب الحديدى

ألمانيا والدولة العثمانية تبذلان جهوداً دبلوماسية (٢٢٣)
مشروع الاتفاق على الجناح الآسيوى لطريق ب. ب. ب بين الدولة
العثمانية وبريطانيا (٢٩ من يوليو - تموز - ١٩١٣) (٢٢٤)
مشروع الاتفاق بين فرنسا وألمانيا (١٥ فبراير - شباط -
١٩١٤) (٢٢٦) اتفاق ألمانى بريطانى (يونيو - حزيران -

١٩١٤ (٢٣٠) تعديل جوهري للمشروع (٢٣٢) من نتائج
تعديل نهاية الخط (٢٣٣) ملاحظات على الخط الحديدي ومصره
وبدائله (٢٣٦) .

٢٤٧ - ٢٧١

الفصل العاشر

عيوب الدولة العثمانية (١)

هبوط مستوى معيشة الجماهير العربية

تحديد عناصر المسئولية (٢٤٧) مسئولية الدول الأوروبية
الاستعمارية (٢٤٧) مسئولية الدولة العثمانية (٢٤٩) انكماش موارد
خزائن حكومات الولايات العثمانية (٢٥٢) أولاً : الجزية السنوية
(٢٥٢) ثانياً : معونات إسطنبول (٢٥٣) ثالثاً : تزايد الإنفاق
العسكري (٢٥٣) رابعاً : كثرة قذوم القابجية والبطرية (٢٥٤)
خامساً : التكاليف المالية للباشا وحاشيته (٢٥٤) سادساً : زيادة
اعتمادات الحرمين الشريفين (٢٥٥) تقاعس الحكومة العثمانية عن
تنفيذ مشروعات عامة (٢٥٦) الفقر والثرأ مسألتان نسبيتان (٢٦١)
حقائق عن هبوط مستوى المعيشة في مصر (٢٦٢) صور من
تدخل السلطات العثمانية لرفع المعاناة عن الجماهير (٢٦٦) التكافل
الاجتماعي الإسلامي في مصر (٢٦٨) مصدر معاناة المصريين
(٢٧٠) .

٢٧٣ - ٢٧٨

الفصل الحادى عشر

عيوب الدولة العثمانية (٢)

تباطؤ الدولة في حسم المذابح الدينية

بين المسلمين والمسيحيين

دراسة تحليلية لظاهرة المذابح الدينية (٢٧٣) عدم الدقة
اللفظية في استخدام كلمة مذابح (٢٧٧) .

٢٧٩ - ٣١٢

الفصل الثاني عشر

عيوب الدولة العثمانية (٣)

مذابح لبنان وامتدادها إلى دمشق سنة ١٨٦٠

أبعاد مأساة مذابح لبنان ودمشق (٢٧٩) الجذور التاريخية لمذابح لبنان (٢٨٠) تجدد الاضطرابات الدامية في لبنان (٢٨١) النظام المقترح في المنشور (٢٨٢) المذابح الكبرى في لبنان ودمشق سنة (٢٨٥) أصداء الخط الهمايوني في الأوساط الإسلامية والمسيحية في الدولة (٢٨٧) إعلان قيام جمهورية الفلاحين (٢٨٨) الانفجار الثوري وانتشار المذابح (٢٨٩) انتقال المذابح إلى دمشق (٢٩٠) ردود الفعل في أوروبا (٢٩١) الدبلوماسية البريطانية تجاه مذابح لبنان (٢٩٢) إمعان بريطانيا في دبلوماسيتها، عقد بروتوكول انتفاء الأغراض الشخصية (٢٩٤) حدود التدخل الدولي كما أقرها بروتوكول باريس (٢٩٥) السلطان يوفد وزير خارجيته إلى بلاد الشام (٢٩٦) لجنة دولية في بيروت (٢٩٨) تيارات شتى في اللجنة الدولية ببيروت (٢٩٩) اتفاق دولي على مد أجل الاحتلال الفرنسي للبنان (٣٠٠) للمؤتمر الدولي في إسطنبول (٣٠١) القانون الأساسي لحكم جبل لبنان (٣٠٢) بروتوكول القانون الأساسي (٣٠٥) انسحاب القوات الفرنسية من لبنان (٣٠٦) دراسة تحليلية للقانون الأساسي لحكم جبل لبنان (٣٠٧) مذابح جدة (٣١٠).

٣١٣ - ٣٨٨

الفصل الثالث عشر

عيوب الدولة العثمانية (٤)

مذابح الأرمن وقضيتهم

الموقع الجغرافي والسطح والمناخ (٣١٣) ثرواتها المعدنية والصناعية والزراعية (٣١٤) التجارة (٣١٥) الفتح العثماني لأرمينية (٣١٥) حسن معاملة السلطان أبي الفتح للأرمن

(٣١٥) السلطان عبدالعزيز يمنح الأرمن حكماً ذاتياً محدوداً
 (٣١٧) تسلل المذهب الكاثوليكي إلى بعض قطاعات الأرمن
 (٣١٨) تسلل المذهب البروتستانتي إلى قطاعات أخرى متميزة من
 المجتمع الأرمني (٣٢٠) بقطة وطنية ذات صبغة ثقافية علمانية بين
 الأرمن (٣٢٠) ظهور الشقاق في صفوف الأرمن (٣٢١) مطالبة
 الأرمن بتحسين أوضاعهم السياسية (٣٢٢) أسباب ضعف الأرمن
 سياسياً (٣٢٣) أولاً : الانقسام الديني المذهبي بين الأرمن (٣٢٣)
 ثانياً : التفتتات السياسي لأرمنية (٣٢٤) ثالثاً : مجاورة الأرمن
 لعناصر مشاغبة في أرمنية العثمانية (٣٢٤) ظهور قضية الأرمن
 على الصعيد الدولي (٣٢٥) قضية الأرمن في معاهدة سان ستفانو
 (٣٢٥) قضية الأرمن في مؤتمر برلين الأوروبي لسنة (١٨٧٨)
 (٣٢٦) دراسة نقدية لقضية الأرمن في معاهدة برلين (٣٢٨)
 أزمة عدم ثقة بين العثمانيين والأرمن (٣٣٠) خطورة القضية
 الأرمنية (٣٣٣) النشاط الإرهابي الأرمني ضد المسلمين (٣٣٤)
 تعداد الأرمن في الولايات السبت سنة (١٨٨٢) (٣٣٥) تعداد الأرمن
 في الكازات الكبرى في شرقي الأناضول سنة (١٨٨٢) (٣٣٦)
 اتساع نطاق ذبح المسلمين (٣٣٧) جمعيتان إرهابيتان أرمنيتان لقتل
 المسلمين (٣٣٧) استمرار العمليات الإرهابية بين الأرمن والعثمانيين
 سنوات ذات عدد (٣٣٩) مذبحه منطقة ساسون (٣٤٠) إسراف
 الدعاية الأرمنية في تقدير عدد ضحايا الأرمن (٣٤٠) تشكيل
 لجنة دولية لتقصي الحقائق في مذابح الأرمن (٣٤١) مظاهرة
 صاخبة للأرمن في إستانبول سبتمبر ١٨٩٥ (٣٤٣) السلطان يعلن
 الأحكام العرفية (٣٤٣) الصهيونيون يعرضون على السلطان
 مساعدته في قضية الأرمن في مقابل حل قضية فلسطين (٣٤٤)
 مذابح وعمليات إرهابية يرتكبها الأرمن في إستانبول (أغسطس
 ١٨٩٦) (٣٤٥) (١) مهاجمة مقر البنك المركزي في حي السفارات
 (٣٤٥) (٢) الأرمن يهاجمون مقر الباب العالي والسوق

القديم (٣٤٦) (٣) الأرمن يحاولون اغتيال السلطان عبدالحميد (٣٤٦) انتقام السلطات العثمانية من الأرمن (٣٤٧) مطالب الأرمن في سنة (١٨٩٦) (٣٥٠) فشل مبادرة بريطانية للتدخل (٣٥١) تعزيز القوات الكردية والتركمانية لمواجهة اضطرابات الأرمن ومذابحهم (٣٥١) إيقاف مؤقت لنشاط جمعية داشناكس الإرهابية (٣٥٢) هدوء نسبي مؤقت (٣٥٣) هجرة جموع من الأرمن (٣٥٣) تعداد الأرمن في الدولة العثمانية منذ سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩١٤ (٣٥٤) الأرمن يطلقون آمالهم على جمعية سياسية عثمانية يرأسها أمير عثماني (٣٥٥) الأرمن ومؤتمر الأحرار العثمانيين في باريس سنة ١٩٠٢ (٣٥٥) تأليف حزب سياسي عثماني يتمشى برنامجه مع أهداف الأرمن (٣٥٨) البرنامج السياسي للحزب (٣٥٩) الأمير ينادى بقيام دولة عثمانية دستورية اتحادية ذات حكم غير مركزي (٣٦٠) إصرار الأرمن على قيام دولة مستقلة خارج نطاق الدولة العثمانية (٣٦٠) الأرمن الثوريون ومؤتمر باريس الثاني سنة (١٩٠٧) (٣٦١) حل حزب التشبث الشخصي وعدم المركزية الإدارية (٣٦٣) موقف الأرمن من الانقلاب الدستوري سنة ١٩٠٨ (٣٦٤) موقف الأرمن من الصدمات الثلاث المتعاقبات للنظام الجديد (٣٦٥) العثمانيون يجددون مذابح الأرمن عقب الانقلاب المضاد سنة ١٩٠٩ (٣٦٥) الأرمن يشتركون في حزب الحرية والائتلاف في أواخر سنة ١٩١١ (٣٦٨) مساعي الأرمن في مؤتمر لندن (١٩١٢-١٩١٣) للحصول على الاستقلال (٣٧٠) كسب سياسي تحقّقه روسيا لقضية الأرمن (٣٧٠) موقف الحكومات الأوروبية من مذابح الأرمن (٣٧٣) موقف ألمانيا (٣٧٤) موقف النمسا والمجر (٣٧٥) موقف روسيا (٣٧٦) موقف بريطانيا (٣٧٧) موقف فرنسا (٣٧٩) موقف إيطاليا (٣٧٩) مشكلتان عثمانيتان توضحان سلبية أوروبا من قضية الأرمن (٣٨٠) (١) مشكلة جزيرة كريت (٣٨٠) (٢) مشكلة مقدونيا (٣٨١) .

٣٨٩ - ٤٤٠

الفصل الرابع عشر

عيوب الدولة العثمانية (٥)

قضية الأرمن ومذابحهم (ب)

منذ بداية الحرب العالمية الأولى حتى الوقت الحاضر

الصراع بين العثمانيين والروس على أرمينية العثمانية (١٩١٤-١٩١٥) (٣٨٩) تعلق آمال الأرمن بالروسيا (٣٩٠) انتقام العثمانيين من الأرمن (٣٩٠) من أسباب انتصار الروس على العثمانيين في شرقي الأناضول سنة (١٩١٥) (٣٩١) الترحيل الإجباري للأرمن في شرقي الأناضول إلى العراق (٣٩١) مناقشة مسألة ذبح الأرمن سنة ١٩١٥ (٣٩٢) تعليق أحد خبراء الشرق الأوسط على مذابح الأرمن سنة (١٩١٥) (٣٩٤) ذبح المسلمين في قان وإنشاء دولة أرمنية فيها (٣٩٥) الروس يعاودون غزو شرقي الأناضول (٣٩٦) احتلال الروس شرقي الأناضول في سنتي (١٩١٦-١٩١٧) (٣٩٨) موقف الأرمن من الغزو الروسي لشرقي الأناضول (١٩١٦-١٩١٧) (٣٩٨) قلق الرأي العام العثماني الإسلامي وزيارة إمبراطور ألمانيا لإستانبول لرفع الروح المعنوية (٣٩٩) الثورة الروسية وأثرها على قضية الأرمن (٤٠٠) معاهدة برست ليتوفسك تقضى على آمال الأرمن (٤٠٢) العلاقة بين الدولة العثمانية وأرمن جمهورية عبر القوقاز (٤٠٣) الأرمن يقتلون الأتراك في جنوبي القوقاز وشرقي الأناضول (٤٠٣) العثمانيون يكتسحون قارص وأردهان وباطوم وأرضروم وقان (٤٠٤) الأرمن يرفضون مطالب العثمانيين في مؤتمر طرابيزون (٤٠٤) الأرمن يرفضون مطالب العثمانيين في مؤتمر باطوم (٤٠٥) الأرمن يستغيثون بألمانيا (٤٠٥) استسلام الدولة العثمانية للحلفاء (٤٠٦) قضية الأرمن في هدنة محروس (٤٠٨) شماعة الأرمن بالأتراك العثمانيين (٤٠٨) تحيز الحلفاء الصارخ للأرمن (٤٠٩) إخفاق مشروع تعيين الولايات

المتحدة دولة متقدبة على أرمينية (٤١١) بداية المقاومة العثمانية للأرمن عقب عقد الهدنة (٤١٢) قضية الأرمن في مؤتمر أرضروم أغسطس - آب - ١٩١٩ (٤١٤) قضية الأرمن في مؤتمر سيواس سبتمبر - أيلول - ١٩١٩ (٤١٦) الحلفاء يقررون في معاهدة سيفر إنشاء دولة حرة مستقلة للأرمن (٤١٧) الأرمن يشنون الحرب على الكماليين سنتي (١٩٢٠-١٩٢١) (٤١٩) بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تقترح في مؤتمر لندن (١٩٢٢) إنشاء دولة أرمينية مستقلة تقطع من الدولة العثمانية (٤٢٢) الاتجاه إلى وضع معاهدة جديدة بدلاً من سيفر (٤٢٣) إرهابيان أرمنيان يغتالان أحد قادة الجيوش العثمانية (٤٢٤) مؤتمر لوزان يناقش قضية الأرمن مع قضايا الأقليات (٤٢٨) إخفاق قضية الأرمن في مؤتمر لوزان (٤٢٨) موقف الأرمن من ثورة الأكراد سنة (١٩٢٥) (٤٣٠) الأرمن بعد مؤتمر لوزان (٤٣١) عودة إلى النشاط الإرهابي الأرمني (٤٣٢) الأرمن الأتراك ينددون بالإرهابيين الأرمن (٤٣٣) الأرمن الأتراك يشرحون حقيقة أوضاعهم في تركيا (٤٣٤) حادث مطار أنقرة (٤٣٤) عملية إرهابية أخرى (٤٣٨) مراحل قضية الأرمن (٤٣٩) .

الفصل الأول

معالم بعض الإصلاحات الرئيسية

التي قام بها السلطان عبدالحميد الثاني

أخطار ومتاعب السنتين الأوليين من حكم عبدالحميد :

أقترنت السنتان الأوليان من حكم السلطان عبدالحميد الثاني بهزائم عسكرية أليمة نزالت بالدولة التي واجهت تكتلات دولية أوروبية مسيحية ، لم تستطع الدولة لها دفعاً بعد الهزات العنيفة التي تعرض لها العرش السلطاني قبل توليه الحكم . وكانت الدولة تجتاز منذ أمد طويل سابق فترة من أخطر مراحل اضمحلالها ، يرى فريق من المؤرخين أنها تبدأ بمعاهدة كارلوفت Karlovit (٢٦ من يناير - كانون ثان - عام ١٦٩٩) ^(١) فكانت هذه المعاهدة استهلالاً سيئاً للقرن الثامن عشر في تاريخ الدولة . ونذكر في هذا للصدد جملة معبرة منسوبة إلى ضياء باشا^(٢) إذ قال : كانت الدولة العثمانية تسير في طريق الاضمحلال من سنة ١٥٩٢ إلى سنة ١٨٣٩ بسرعة عرية يجرها جوالان . ثم أخذت تندفع في طريق الانهيار من عام ١٨٣٩ إلى

(١) انظر على سبيل المثال :

Miller W.; op. cit., p. 1.

Lewis B., op. cit., p. 36.

(٢) كان ضياء باشا (١٨٢٥-١٨٨٠) أحد رواد ثلاثة أسهموا في حركة تطوير أدب اللغة التركية منذ منتصف القرن التاسع عشر بلققتباس الآراء والأساليب اللغوية والفكرية والاجتماعية الأوروبية في الأدب التركي والابتعاد عن الاقتباسات الفارسية والعربية . وكانت الثقافة الفرنسية هي المنهل الذي استقى منه أولئك الرواد الثلاثة هذا الاتجاه التركي الحديث . أما زميلاه فكانا إبراهيم شناسي (١٨٢٦-١٨٧١) ونامق كمال (١٨٤٠-١٨٨٨) .

وينتمي ضياء باشا إلى أسرة متوسطة الحال . كان والده كاتباً في جمرک جالطه في إسطنبول . والحق بمدرسة علوم النحو التي أنشأها السلطان محمود الثاني في جامع السليمانية . وبدأ منذ ذلك الوقت يتعلم اللغة الفرنسية ، وانتهم كل فرصة أتت له مثل إقامته في أوروبا سنوات ذات عد حتى أتقنها ، واستطاع ترجمة كتب فرنسية إلى اللغة التركية . وكان ضياء باشا من أنصار رشيد باشا . وبحكم هذه الصلة ومواقفه العلمية التي ظهرت منذ وقت مبكر ، واستطاع أن يظفر بمنصب السكرتير الثالث في القصر السلطاني . وكان يوغر صدر السلطان ضد كل من غالي باشا وفؤاد باشا منتقداً (سلوبهما في الحكم وإماليهما النهوض بالزراعة والتجارة وتصنيع البلاد والكشف عن المعادن . وبعد وفاة رشيد باشا استطاع غالي باشا إقصاءه عن القصر وتقلب في عدة وظائف . ولم عين في عام ١٨٦٧ حاكماً على جزيرة قبرص انتهت فرصة وجوده بها ، فترك منصبه سخطاً على الأوضاع السائدة في الدولة على عهد السلطان عبدالعزیز ، وسافر إلى أوروبا حيث عاش منفياً عن عام ١٨٦٧ حاكماً على جزيرة قبرص ، انتهت فرصة وجوده بها فترك منصبه سخطاً على الأوضاع السائدة في الدولة على عهد السلطان=

عام ١٨٦٩ بسرعة قطار سكة حديدية .

وقد نجم عن الهزائم التي لحقت بالدولة في مستهل حكم عبدالحميد الثاني أن فقدت شطراً لا يستهان به من ممتلكاتها في أوروبا وآسيا وإفريقية أمام الزحف الاستعماري الأوروبي حقيقة لا مراء فيها كما أوضحنا في الفصل السابق . أما وسائل القمع فكانت لها أسبابها وهي تتصل بالمحافظة على الأمن الخارجي والأمن الداخلي للدولة . فقد استغل خصوم السلطان فرصة وصول الجيش الروسي إلى ضواحي إستانبول ، وقاموا بمحاولات لعزل عبدالحميد في ٢٠ من مايو - آيار - عام ١٨٧٨ وتعيين مراد الخامس بدلاً منه . ولما باءت محاولاتهم بالفشل عمدوا إلى إحراق الباب العالي بما كان يضمه من وزارات وأوراق رسمية (٢) . وقد وقعت كل هذه الأحداث ، ولم يكن قد مضى على اعتلاء عبدالحميد العرش سوى عام وبعض عام . ومع ذلك فقد بلغ في وسائل القمع كثيراً كما بينا في الفصل الحادي والثلاثين .

وعلى الرغم من هذه الأخطار للجسام التي أهدت السلطان عبدالحميد الثاني من يمين ويسار ، مضى يولجه بعد ذلك حروباً خارجية متعاقبة وأزمات سياسية عنيفة متلاحقة تصاعدت بها أوروبا والشعوب المسيحية التي بقيت خاضعة للدولة . وكانت هذه وتلك - باستثناء ألمانيا - ماضية في سياسة التآمر على الدولة إلى نهاية الشوط . فضلاً عن معارضة داخلية نشطة ومنظمة في شكل جمعيات سرية وعلنية ، وعسكرية ومدنية ، اتخذت لها برامج سياسية ، ظاهرها المطالبة بإعادة الدستور وياطينها الإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد .

عبدالعزيز ، وسافر إلى أوروبا حيث عاش منفياً من عام ١٨٦٧ حتى عام ١٨٧٢ في باريس ثم لندن = وأخيراً استقر به المقام في جنيف . وكتب في خلال سنوات نفيه عدة بحوث هاجم فيها كلاً من غالي باشا وفؤاد باشا . ولما مات غالي باشا ، أذن له في العودة إلى إستانبول حيث عينه السلطان عبدالحميد الثاني في أواخر سنة ١٨٧٦ والياً على الشام ، ومنحه رتبة الباشوية ودرجة الوزير وثلاثة أطوار . وجران إلى ربه في أصفه ماينون - آيار - عام ١٨٨٠ .

وعلى الرغم من أنه كان متحفظاً في آرائه الدينية الإسلامية ، إلا أنه كان من أنصار تعلم اللغات الأوروبية واقتباس النظم السياسية التي تتماشى مع روح الإسلام . وقد أزعجت الحالة السياسية التي تدهورت إليها الدولة فزعج بنفسه في غمار السياسة . وكان من الأحرار ومن أقطاب الحركة القومية العثمانية .

عن آرائه السياسية ونشاطه في المجالات السياسية والأدبية ورحلاته واتصالاته بزعماء الحركة القومية العثمانية ، انظر كلاً من :

Lewis B.; op. cit., pp. 124, 136-140, 143, 148, 153, 159, 167, 172, 195, 429-431.

Stanford Shaw & Ezel Shaw; op. cit., p. 131 et 251.

هذا ، وتوجد في تاريخ الدولة العثمانية شخصية أخرى باسم يوسف ضياء باشا ، كان من عملاء السلطان عبدالحميد الثاني الذي كان يوفده في مهمات سياسية إلى أوروبا . (٢) سبق أن شرحنا هذه الأحداث شرحاً وافياً في هذه الدراسة ، ج٢ ، الفصل الثامن .

مؤرخان غربيان ينصفان عبدالحميد :

ولكن هذه الأخطار الخارجية والداخلية المتناهية في ظلامها وقسوتها وشدها لم تصرف السلطان عبدالحميد الثاني عن تنفيذ برامج إصلاحية شملت شتى المجالات للنهوض بالدولة من كبوتها . ولسنا هنا في مجال بسط كل هذه الإصلاحات . وكان من بين المؤرخين الغربيين الذين تناولوها بالشرح في السنوات القليلة الماضية مؤرخان أحدهما أمريكي وزوجته هما : ستانفورد ج. شو Stanford J. Shaw ، إيزيل كورال شو Ezel Kural Shaw ، وقد أُنِحت لها عديد الفرص للبحث عشرين عاماً في دور الوثائق الرسمية والأوراق الخاصة بكبار رجال الدولة في إستانبول وأنقرة وفي لندن وباريس وفيينا ومراكز البحوث في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية ، بفضل المساعدات المالية السخية التي قدمتها لهما مؤسسات فورد ، وروكفلر ، وجوجنهايم Guggenheim ومجلس بحوث العلوم الاجتماعية ومعهد البحوث الأمريكية في تركيا . وقد ظهر للجزء الأول مرة سنة ١٩٧٦ وطبع أربع مرات : في خلال الفترة من سنة ١٩٧٧ إلى ١٩٧٨ ، ويحمل اسم المؤلف الزوج فقط ، وجعل عنوانه ، إمبراطورية الغزاة . قيام واضمحلال الإمبراطورية العثمانية ، ١٢٨٠-١٨٠٨ ، أما الجزء الثاني فيحمل اسم المؤلف وزوجته . وقد طبع أول مرة عام ١٩٧٧ وجعل عنوانه : «الإصلاح ، والثورة ، والجمهورية . وقيام تركيا الحديثة ١٨٠٨-١٩٧٥» . وإن كان الجزءان يحملان عنواناً عاماً واحداً هو : «تاريخ الإمبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة» .

Stanford J. Shaw;

History of the Ottoman Empire and Modern Turkey.

Volume I Empire of the Gazis : The Rise and Decline of the Ottoman Empire.
1280 1808.

Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw : History of the Ottoman

Volume 2. : Reform, Revolution, and Republic. The Rise of Modern Turkey
1808-1975.

أما المؤرخ الآخر فهو إنجليزي وهو برنارد لويس Bernard Lewis وهو من الأساتذة الشوامخ المتخصصين في تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط بعامة والدولة العثمانية بخاصة . وقد للتقينا به كثيراً في هذه الدراسة واسم كتابه The Emergence of Modern Turkey ظهر تركيا الحديثة . وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩٦٠ ، ثم أعيدت طباعته سنة ١٩٦٨ كما ترجم إلى اللغة التركية . وقد استقى المادة العلمية لهذا الكتاب من وثائق «طوب قابي سراي» في إستانبول ومن المصادر التركية الأصلية . فجاء الكتابان بإضافات علمية ألقت

أضواء جديدة على تاريخ الدولة العثمانية ، وصححت مفاهيم خاطئة كانت ولا تزال عالقة في أذهان الجماهير . ونرجو أن تتاح الفرصة للجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سابقاً - أو أحد الباحثين في قابل الأيام لترجمة هذين السفرين إلى اللغة العربية .

وقد أفرد المؤرخ الأمريكي وزوجته والمؤرخ الإنجليزي حيزاً كبيراً من كتابيهما للإصلاحات المتعددة التي قام بها السلطان عبدالحميد الثاني طوال حكمه ، وأثبتت هذه الإصلاحات أنه كان مصلحاً قديراً ، وإدارياً فذاً ، ذا بصيرة نافذة ، ودراية واسعة بشئون الحكم . وقرر المؤرخ الأمريكي وزوجته أن إصلاحات عبدالحميد الثاني بلغت الأوج أو الذروة في مجال الإصلاحات الداخلية^(٤) ، ولسنا هنا في مجال عرض هذه الإصلاحات ، وحسبنا أن نشير إشارات عابرة إلى معالم بعض هذه الإصلاحات الرئيسية .

التعليم :

كان من أعظم الإصلاحات التي أدخلها السلطان عبدالحميد الثاني توسعه في نشر التعليم المدني بشتى مراحله ونوعياته . وقد ألزم المتحاملون عليه الصمت المطبق تجاه هذا الإصلاح ، وتجنبوا الإشارة إليه من قريب أو من بعيد التزاماً بخطتهم التي دأبوا عليها ، وهي أن تكون مهمتهم مقصورة على التشهير بعبدالحميد كعاهل للدولة العثمانية .

كان عبدالحميد يواجه أزمة في عدد المثقفين المدنيين ، الذين يصلحون لتولى الوظائف الفنية غير العسكرية ، لأن الدولة نشأت وظلت دولة عسكرية ، اهتمت اهتماماً بالغاً بإنشاء قوات مسلحة ضاربة وتدريب أفرادها ، وأغدقت عليهم كثيراً من الامتيازات المادية والأدبية والنفوذ والجاه ، لأنها كانت تعيهم في المناصب العسكرية والمدنية على حد سواء . ولذلك قيل عن الجيش العثماني إنه كانت له وظيفتان : الحرب والحكم . وسنتكلم عن هذا الموضوع عند تعرضنا لمعيوب الدولة ؛ لأنها أهملت إلى حد كبير التعليم المدني ، إلا في نطاق المعاهد والمدارس التابعة للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أو تشرف عليها إشرافاً مباشراً أو غير مباشر . وكانت هذه الدور التعليمية ذات صبغة دينية إسلامية وأقيم بعضها بالجهود الذاتية ، وكانت هناك مدارس «المال» ، وهي التي تقيمها الطوائف الدينية غير الإسلامية الخاضعة للدولة ، أو البعثات التنصيرية : الأمريكية والنمساوية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية . وكانت هذه تلك ترمي إلى تحقيق أهداف متباينة ، ولكنها تتفق جميعاً في هدف واحد هو أن يكون هدفها أبعد مايكون عن خدمة الدولة .

اهتم السلطان عبدالحميد بإيجاد توازن بين التعليم العسكرى والتعليم المدني ، فأنشأ كليات ومدارس عليا ومعاهد فنية لتخريج رصيد بشرى مدنى من ذوى الخبرة ، يسهمون فى النهوض بالدولة بمع اهتمامه فى الوقت ذاته بالتعليم العسكرى والمعاهد العسكرية واستقدام بعثات عسكرية من الدول الأوروبية ؛ خاصة ألمانيا لتطوير القوات المسلحة ، وتنظيم هذه القوات وتسليحها وتدريبها .

ومنذ سنة ١٨٧٧ - أى منذ السنة التالية لارتقائه العرش - أبدى السلطان عبدالحميد اهتماماً عريقاً بالمدرسة الملكية^(٥) ، وهى أول مدرسة مدنية صرفقة أنشأتها الدولة سنة ١٨٥٩ - على عهد السلطان عبدالحميد الأول - لتخريج موظفين مدنيين يعملون فى دواوين الحكومة . فأعاد عبدالحميد تنظيم هذه المدرسة وعهد إلى تطعيم خطة الدراسة بها بمناهج حديثة ، وفتح أبوابها للطلبة الوافدين من الأقاليم العثمانية ، بعد أن كان القبول فيها مقصوراً على أبناء إسطنبول . وقدم للطلبة المغربين تسهيلات عديدة للإقامة الكاملة فى داخل المدرسة على نفقة الدولة وشيد مباني جديدة ألحقها بالمدرسة ، وبعد أن كان عدد الدفعة الأولى التى تخرجت فى المدرسة سنة ١٨٦١ قد بلغ ٣٣ خريجاً ، وقفز هذا العدد فى سنة ١٨٨٥ إلى ٣٩٥ خريجاً كان من بينهم ٢٩٥ خريجاً من طلبة القسم الداخلى . وغدت هذه المدرسة مركزاً ثقافياً هاماً وأرضاً صالحة للأفكار الحديثة . وكان من بين أعضاء هيئة التدريس بها مراد بك ، وكان أحد الأعضاء البارزين فى جمعية الاتحاد والترقى^(٦) ، ومحمود أكرم (١٨٤٦-١٩١٣) وكان شاعراً وأديباً ممتازاً ومن تلاميذه : نامق كمال ، وعبدالرحمن شرف (١٨٣٥-١٩٢٥) وكان مؤرخاً . وقد تركوا جميعاً بصماتهم قوية فى الحياة الفكرية والسياسية فى تاريخ الدولة .

ومن المدارس العليا التى أنشأها السلطان عبد الحميد ، نذكر على سبيل المثال : المدرسة السلطانية للشئون المالية وقد افتتحت سنة ١٨٧٨ ، مدرسة الحقوق أو مكتب الحقوق الشاهانى وكان يعرف باسم مكتبة حقوقى شاهانى، وقد أنشأه فى السنة ذاتها ، والفنون الجميلة (١٨٧٩) ، والتجارة (١٨٨٢) ، والهندسة المدنية (١٨٨٤) ، والطب البيطرى (١٨٨٩) ، والشرطة (١٨٩١) ، والجمارك (١٨٩٢) ، ومدرسة طب جديدة يقوم التدريس والتدريب فيها طبقاً لأحدث وسائل العصر (١٨٩٨) . ولم يقل على عهده عدد المدارس العليا عن ثمانى عشرة مدرسة .

إنشاء جامعة إسطنبول :

وقد توج عبدالحميد جهوده فى الحق التعليمى بإنشاء جامعة إسطنبول . وعلى الرغم

(٥) يقصد بكلمة «الملكية» إنها غير عسكرية .

(٦) توفى سنة ١٩١٢ .

من أن عدداً من السلاطين قد سبقوه في التفكير في هذا المشروع منذ عام ١٨٤٥ ، على عهد السلطان عبد المجيد الأول ، إلا أن المشروع تعثر تنفيذه لأخطاء وقع فيها ولاة الأمور وقدذاك في تخطيط المشروع الجامعي . واستطاع السلطان عبدالحميد الثاني ، بعد إعداد مسبق علمي ومنظم ، أن ينشئ الجامعة وفتحت أبوابها للطلاب في اليوم الثاني عشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٠٠ بمناسبة مرور أربع وعشرين سنة على ارتقائه العرش ، وكانت تعرف باسم دار الفنون ثم أطلق عليها اسم جامعة إستانبول . وكانت تتبع «معارفي عمومي نظارتى» أى وزارة المعارف العمومية ، وكانت تضم أول أمرها أربع كليات هي : كلية العلوم العالية الدينية (كلية أصول الدين) ، وكلية العلوم الرياضية ، وكلية العلوم الطبيعية ، وكلية العلوم الأدبية (كلية الآداب) ، واعتبرت مدرستا الحقوق والطب كليتين ملحقتين بالجامعة . وحددت الدولة عدد الطلبة الذين يقبلون كل عام في كل كلية بين ٢٤ ، ٣٠ طالباً بشرط ألا يقل من الطالب عن ١٨ عاماً . وكانت الجامعة تمنح طلابها أجازة طوال شهر رمضان ، والأجازة السنوية بعد امتحانات نهاية العام الجامعي ، فضلاً عن العطلات الرسمية . وكانت الدراسة في كلية أصول الدين تشمل دراسات في القرآن الكريم والتفسير والحديث والفقه والفلسفة والسيرة النبوية . وفي كلية الآداب تضمنت الدراسة اللغات التركية والعربية والفارسية والفرنسية وآدابها والتاريخ العثماني وتاريخ العالم والجغرافية وعلم الآثار والفلسفة والمنطق والتربية . وهكذا أصبحت للدولة جامعة جديدة ، يعتبرها البعض أول جامعة حقيقية حديثة ، قامت على أسس جامعية صحيحة في العالم الإسلامي للحديث (٧) .

إنشاء دور المعلمين :

ولكى يمد السلطان عبدالحميد كليات الجامعة وسائر المدارس العليا والمعاهد الفنية بالطلاب توسع في إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية المدنية ، وكان يطلق عليها اسماً عاماً هو «المدارس الملكية» تمييزاً لها عن مثيلاتها التي تعد تلاميذها للالتحاق بالمعاهد العسكرية .

وترك المكاتب والمدارس الدينية التابعة للهيئة الدينية الإسلامية تؤدى رسالتها التعليمية كما فعل محمد على باشا في مصر حين ترك الأزهر يمضى في تدريس العلوم الدينية واللغة العربية وأوجد بجانب الأزهر المدارس الحديثة : المبتدئان والتجهيزية والخصوصية أى الابتدائية والثانوية والعالية ، فأوجد في مصر نظامين منفصلين لتعليم الناشئة . وأنشأ السلطان عبدالحميد عدداً كبيراً من المدارس الرشدية (٨) . وقد سميت بهذا الاسم لأن تلاميذها قد اقتصروا

(٧) انظر كلاً من :

Lewis B.; op.. cit., p. 182.

Stanford Shaw & Ezel Shaw; op. cit., p. 257.

(٨) انشئت أول منورسة رشدية سنة ١٨٤٧ في إستانبول .

من سن الرشد ، فكانت تقبل التلاميذ الذين تتراوح أعمارهم بين عشر سنوات وخمس عشرة سنة وكانت بمثابة مدارس متوسطة . وقد أنشأ عبدالحميد تسعاً وعشرين مدرسة من هذه المدارس في ولايات الدولة ، وسأ في منصقيات الدولة .

تقرير ضريبة خاصة للتعليم :

وفرض عبدالحميد سنة ١٨٨٤ ضريبة خاصة للتعليم . ويفضل حصيلة هذه الضريبة أنشأ عدداً من المدارس ، تتكون كل مدرسة منها من سبعة فصول في عواصم الولايات ، ومدارس من خمسة فصول في المنصقيات .

ومن أشهر المدارس الثانوية على عهد السلطان عبدالحميد : المدرسة السلطانية الثانوية في جالاطه سراي في إستانبول . كانت في أول أمرها مشروعاً فرنسياً عثمانياً ، وقامت الحكومة الفرنسية بتمويلها مالياً وتزويدها بالمدرسين ، وكانت الدراسة فيها تسير وفق خطة المرحلة الثانوية في فرنسا ، وتشمل : العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ، واللغات اليونانية واللاتينية والتركية والفرنسية ، وكانت الفرنسية هي لغة التدريس ، كما كانت مدرسة مدنية أي ليست ذات طابع ديني معين ومتميز ، وأقيم للتلاميذ العثمانيين مسجد في أحد أفنية المدرسة وكذلك كنيسة للمسيحيين ومعبد لليهود . وعمل السلطان عبدالحميد الثاني على إضفاء الطابع العثماني على هذه المدرسة ، فأمر بتشجيع الطلبة العثمانيين على الالتحاق بها بتقديم منح مالية لهم فزاد عددهم ، وعين عدداً من صفوة المدرسين العثمانيين بها إلى جانب المدرسين الفرنسيين واليونانيين والأرمن ، واستبعد من المناهج اللغة اللاتينية . وأصبحت المدرسة للمكان الفضل لتعليم أولاد الطبقة الحاكمة والعسكريين وأصحاب الأراضي والعائلات الكريمة في إستانبول .

وتطلبت المدارس الملكية بدورها إنشاء عدد من دور المعلمين ، وكانت أول دار للمعلمين في الدولة قد أنشئت سنة ١٨٤٨ على عهد السلطان عبدالمجيد الأول . وجاء في الإحصائية الرسمية التي نشرت بعد الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨ مباشرة أنه كان في الدولة ثمان وثلاثون كلية معلمين في إستانبول وحواضر الولايات والمنصقيات . وقد جعل السلطان عبدالمجيد الثاني شئون التعليم من اختصاص المجالس المحلية التعليمية ؛ لأنها أدركت حاجة الإقليم إلى نوع التعليم وتوافر المدرسين أو قلته . وهذا التصرف من الأمثلة التي تساق للدلالة ، على أن عبدالحميد لم يكن يعد دائماً إلى مركزية الحكم في إستانبول .

التعليم العسكري :

وقد ظفر التعليم العسكري بأوفى عناية من عبد الحميد ؛ إذ دعم الكليات الحربية التي كانت قائمة وأنشأ مدارس حربية في أدرنه ومناستير ودمشق وبغداد وغيرها ، وأنشأ مدرسة للبحرية العسكرية وأخرى للبحرية التجارية . وكانت الكليات للحربية العالية تضم ١٥,٣٥١

طالباً ، وتخرج في مدرسة الهندسة العسكرية ومدرسة الطب العسكري خريجون ، فاق عددهم عدد المتخرجين في كافة المدارس العليا المدنية . وبلغ التسامح الديني بالسلطان عبد الحميد أنه سمح لبعض غير المسلمين بالالتحاق بالكليات الحربية ، فكان في صفوف طلابها أحد عشر طالباً يهودياً وعشرون طالباً يونانياً واثنان من الأرمن . وبلغ من ازدهار الأكاديمية العسكرية العليا أن متوسط عدد خريجها كل عام بلغ ١٥١ ضابطاً ، وما يقرب من هذا العدد بالنسبة لخريجي مدرسة الطب العسكري ^(٩) .

وإلى جانب المدارس الرشدية المدنية ، كانت توجد مدارس رشدية عسكرية تؤهل تلاميذها للالتحاق بالكليات الحربية . وما وافق سنة ١٨٩٧ حتى قفز عدد المدارس الرشدية العسكرية إلى تسع وعشرين مدرسة ، كان منها ست مدارس في إسطنبول وواحدة في كل ولاية كبرى ، ومجموع تلاميذها جميعاً ٢٤٧ ٨ .

وأنشأ عبد الحميد مكتبات عامة عديدة ، وساعدت الطباعة على طبع آلاف الكتب وخطت الصحافة خطوات إلى الأمام ، وظهرت مجلة «ثروتى فنون» أى ثروة الفنون سنة ١٨٩١ ، أسسها أحمد إحسان ، واشترك في تحريرها صفوة من الكتاب الأتراك العثمانيين .

تأثر عبد الحميد بأراء كوجوك سعيد :

وجدير بالذكر أن عبد الحميد كان متأثراً في إصلاحاته التعليمية بالأراء التي بسطها الصدر الأعظم محمد سعيد باشا في مذكراته ، ويعرف باسم «كوجوك سعيد» ^(١٠) ، كانت بدايته متواضعة في الحكومة وتدرج في مناصبها حتى بلغ منصب الصدر الأعظم لأول مرة في اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٧٩ ، واستمر يشغل هذا المنصب معظم السنوات التالية حتى عام ١٨٨٥ ^(١١) ، وهو من أوائل السياسيين العثمانيين المحدثين الذين

(٩) نشر الأستاذ ستانفورد شو والأستاذة إيزل كورال شو إحصائيتين عن تقدم التعليم في الدولة العثمانية على عهد عبد الحميد . تضمنت الإحصائية الأولى أنواع المدارس في الدولة وعندما من سنة ١٨٧٦ حتى سنة ١٨٩٥ ، وشملت الإحصائية الثانية بياناً عن عدد تلاميذ المدارس وطلبة الكليات والمعاهد العليا سنة ١٨٩٥ ، وعدد المسلمين منهم وغير المسلمين .
انظر :

Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw; op. cit., Tables 22 & 23, p. 112-113.

(١٠) كوجوك كلمة تركية بمعنى صغير . انظر ثبت المصطلحات الترككية في نهاية هذه الدراسة .

(١١) عين محمد سعيد باشا صدر أعظم تسع مرات بعضها في العهد الحميدى ، وبعضها بعد الانقلاب الدستوري ، وبعضها بعد الانقلاب العسكري سنة ١٩٠٩ على النحو التالي :

(١) من ١٨ أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٧٩ حتى ٩ يونيو - حزيران - سنة ١٨٨٠ .

(٢) من ١٢ سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٨٠ حتى ٢ مايو - آيار - سنة ١٨٨٢ .

(٣) من ١٢ يوليئ - تموز - سنة ١٨٨٢ حتى ٣٠ يوليئ - تموز - سنة ١٨٨٢ . =

وضعوا مذكرات سياسية وقدمها للسلطان سنة ١٨٨٠ ، وأسهب في عرض الإصلاحات التي رآها ضرورية للدولة ، وكان من أهم وسائل الإصلاح في نظره النهوض بمرفق التعليم وتنظيم القضاء وإصلاح الشئون المالية . ولكن للتعليم في تقديره يأتي على رأس مشروعات الإصلاح ؛ بشرط أن يكون تعليماً هادفاً لتخريج المواطن الذي ينضم بالاستقامة الخلقية وحُب الوطن ، وما يندرج تحت هذين المبدأين من صفات عالية مثالية ، تنأى بأصحابها عن الانحراف والانفاق والتزوير وما إلى ذلك من مظاهر الفساد الذي أدى بدوره إلى اضمحلال الدولة . وذهب كوجوك سعيد إلى أنه مالم تعمل الحكومة على نشر هذا النوع من التعليم الهادف فلن يكون لديها رصيد بشري من رجال الحكم القديرين على تصريف الشئون الداخلية والخارجية للدولة ، ولن يكون لديها قضاء عدول يفهمون القانون نصاً وروحاً ويصدرون أحكاماً نزيهة ، وإن يكون لديها قادة عسكريون يخوضون المعارك بكفاية واستبسال وإنكار للذات ، وإن يكون لديها رجال متعمقون في شئون الاقتصاد ينتهجون سياسة مالية رشيدة ، ويعملون على زيادة الموارد المالية للدولة . وهذه الأهداف وغيرها لن يجمعها إلا تعليم راق ؛ لأنه ضروري من أجل حياة أفضل لمجتمع متحضر ، ومن أجل ردع الأعداء الأجانب ، ومن أجل مراقبة رعايا الدولة المسيحيين الذين تفتحت أذهانهم بواسطة العلم .

وشطر هذين المبدأين - إصلاح التعليم ونشره والإصلاح القضائي - رلى السلطان عبدالحميد وجهه ، وبذل كثيراً من وقته وجهده ، ولم ييخل في رصد الاعتمادات المالية الضخمة للإنفاق على هذين المرفقين .

هذه السياسة للتوسعية والإصلاحية التي انتهجها السلطان عبدالحميد في مجال التعليم المدني والعسكري تدل على رحابة أفقه العقلي وذهله المتقد ومضاء عزمته . وتزداد هذه الصفات وضوحاً وبروزاً إذا وضعنا في الاعتبار الأزمات السياسية العنيفة والمتلاحقة التي واجهتها الدولة إبان حكمه ، والحروب الخارجية التي سافقه أوروبا إليها ابتغاء تحطيم الدولة

(٤) من ٣ ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٨٢ حتى ٢٥ سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٨٥ .

(٥) من ٨ يونيو - حزيران - سنة ١٨٩٥ حتى أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٩٥ .

(٦) من ١٨ نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٠١ حتى ١٤ يناير - كانون ثان - سنة ١٩٠٢ .

(٧) من ٢٢ يوليو - تموز - سنة ١٩٠٨ حتى ٤ أغسطس - آب - سنة ١٩٠٨ .

(٨) من ٣٠ سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١١ حتى ٣٠ ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١١ .

(٩) من ٣١ ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١١ حتى ١٦ يناير - تموز - سنة ١٩١٢ .

انظر :

Stanford Shaw & Ezel Shaw; op. cit., vol. 2, p. 439.

وما يذكر أن محمد سعيد باشا كان يعزّز بالصالة انتسابه إلى الجنس التركي الصميم ، وكان من السياسيين الأوائل الذين تحمسوا لهذا الاتجاه في السياسة التركية . وقد توفي في سنة ١٩١٤ .

مادياً ومعنوياً ، فما وهن وما ضعف وما استكان ، بل كان عاقده العزم على النهوض بالدولة لتواكب مسيرة الحضارة الإنسانية مهما تجمعت أمامه الأخطار والعوائق . فسياسته التعليمية كانت من أهم العناصر التي جعلت من عبدالحميد حاكماً مستنيراً ، لا يقل عن أقرانه الحكام المستنيرين في الدول الأوروبية والشرقية .

الإصلاح القضائي :

كان نجاح السلطان عبدالحميد في مجال الإصلاح القضائي نجاحاً محدوداً إذا قورن بنجاحه في نشر التعليم ، لأنه أنشأ جامعة إستانبول ، وعديداً من المدارس ذات المراحل والخصصات المختلفة ، وفتحت أبوابها للطلاب الذين أقبلوا على الالتحاق بها من كل حذب وصوب . أما في الإصلاح القضائي فقد اصطدم بتعنت الدول الأوروبية معه . كان عبدالحميد شديد الرغبة في استمالة الدول لإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية ، الذي كان لا يزال معمولاً به في الدولة ، وتمتع في ظله الأجانب من رعايا تلك الدول والمقيمون في الدولة بالإعفاء من الخنوع للتشريعات العثمانية والقضاء العثماني إلى غير ذلك من إعفاءات شتى . وكان في برنامجه أيضاً أنه إذا تعذر عليه إلغاء هذا النظام الوبيل ، فلا أقل من الحد من مساوئه ، إذ كانت الامتيازات الأجنبية تقف حجر عثرة أمام كل إصلاح تشريعي أو قضائي أو مالي نزمع الدولة إلخاله . وهي فكرة قومية صائبة ولا غبار عليها ، سواء في شقها الأول أو في شقها الثاني . وكانت وسيلة عبدالحميد لتحقيق الإصلاح المنشود إصدار تنظيمات وتشريعات جديدة في مجال القضاء ، تجعله بمنأى عن كل نقد أو تجريح من الدول الأجنبية . وكان عبدالحميد متأثراً في إجراء الإصلاح القضائي بالآراء التي بسطها كوجوك سعيد في مذكراته ، وقال فيها إن الدين الإسلامي يهتم اهتماماً عميقاً جداً بإقرار العدالة ؛ مما جعل توفير العدالة لجميع الأفراد بغض النظر عن مراكزهم الاجتماعية أهم مبدأ يتميز به هذا الدين ، ولكن أهملت للحكومات العثمانية في الجهود السابقة القيام بواجبها نحو ضمان العدالة . وقد وصل هذا الإهمال إلى حد لا يمكن إنكاره . وطالب كوجوك سعيد في مذكراته بإعادة تنظيم المحاكم ومراجعة قانون الإجراءات القضائية ، كما دعا إلى إنشاء مدارس عليا متخصصة في دراسة القانون لتخريج أجيال جديدة من القضاة والمحامين ذوي ثقافة قانونية عميقة ومدرّبين علمياً وعملياً على ممارسة أعمالهم المصنفة بتطبيق القانون نصاً وروحاً في نزاهة ونكاه وأفق عقلي رحيب ، وفي استقلال يبيدهم عن مواطن الشبهات .

المآخذ على النظام القضائي :

والحق يقال إن الإصلاح القضائي لم يكن مطلباً طارئاً أو جديداً إبان حكم السلطان عبدالحميد الثاني ، فقد تعالت الأصوات من قبل ؛ خاصة منذ عهد التنظيمات ، بضرورة اتخاذ

إجراءات فورية لإصلاح ودعم الأجهزة القضائية فى الدولة والقضاء على العيوب التى شابتها، مثل وجود نوعيات شتى من المحاكم ذات اختصاصات متشابهة حينا ومتضاربة أحيانا . كانت هناك على الأقل خمسة أنماط من المحاكم :

(١) المحاكم النظامية : وتختص بالقضايا الجنائية والمدنية بين الرعايا العثمانيين ، وكانت هذه المحاكم على درجتين : محاكم نظامية ابتدائية ، ومحاكم نظامية استئنافية .

(٢) المحاكم القنصلية : وتنتظر فى القضايا الخاصة برعايا الدول الأجنبية والتى تتعلق بمنازعات تجارية وموضوعات أخرى غير جنائية طبقاً لنظام الامتيازات الأجنبية الذى كان معمولاً به وقتذاك .

(٣) المحاكم المختلطة التجارية : وتختص بالمنازعات التجارية التى تنشأ بين الرعايا العثمانيين ورعايا دول أجنبية ، أو بين رعايا غير عثمانيين ينتمون إلى جنسيات مختلفة .

(٤) المحاكم الشرعية للمسلمين : وتنتظر فى قضايا المسلمين والتى تتعلق بالزواج والطلاق وإثبات الوفاة والميراث ونفقة المطلقة وأجر الرضاع والمسكن ، وما إلى ذلك من أمور الأحوال الشخصية .

(٤) المحاكم المالية : وتنتظر فى قضايا الأحوال الشخصية لخبر المسلمين ، وكانت هذه المحاكم تتبع جهات مختلفة ، فالمحاكم النظامية والمحاكم المختلطة تتبع الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ورئيسها شيخ الإسلام . والمحاكم المالية كانت تتبع أولاً وزارة الخارجية ثم أصبحت تحت إشراف الصدر الأعظم . أما المحاكم القنصلية ويشترك فى عضويتها قنصل أو قناصل الدول ، التى يتبعها المتقاضون فكانت تحت إشراف وزارة الخارجية . وكانت كل جهة تشرف على نوع من المحاكم تطبق لوائح وقوانين ، تختلف عن الأخرى ، مما كان يزيد فى تعقيد الموقف وصعوبته .

وفضلاً عن هذا التعدد فى أنواع المحاكم والقوانين التى تطبقها والإجراءات القضائية التى تتبعها ، كانت هناك مآخذ على النظام القضائى .. كان القضاء فى المحاكم النظامية والمحاكم الشرعية لايتقاضون مرتبات سواء من الحكومة أو من للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة، وإنما كان يدفعها المتقاضون أمام هذه المحاكم فى صورة رسوم قضائية مقرر حينا ، ونسبية حينا آخر . وكان القضاء يحتجزون لأنفسهم نصيباً موفوراً منها . فكانت أنصبتهم من هذه الرسوم تشكل مرتباتهم . وكان المستفيدون من هذا النظام يدافعون عنه بقولهم إنه يجعل القضاء مستقلين استقلالاً مالياً عن الحكومة الأمر الذى يضمن حيديتهم ، بينما كان المعارضون المصلحون يحضرون هذا الزعم بقولهم إن الحكومة تملك أسباب التأثير على القضاء ؛ لأنها تمارس حق تعيينهم وترقيتهم ونقلهم بل وعزلهم من مناصبهم . وقد طالب رجال عهد

التنظيمات في عديد من المناسبات باستقلال القضاء عن الحكومة . ولكن ظل مجلس الدولة والمحاكم النظامية الاستئنافية في إستانبول تحت الإشراف المباشر للصدر الأعظم ، بينما كانت المحاكم في كل ولاية تحت إشراف واليها ومعاونيه . ويلاحظ أنه لم يجرؤ رجال الإصلاح في عهد التنظيمات على إصلاح لوائح المحاكم الشرعية ؛ خشية إثارة علماء الدين .

وكان التأخير في الفصل في القضايا وبخاصة أمام المحاكم النظامية بسبب تكسب القضايا أمامها لكثرتها وقلة عدد القضاة ظاهرة عامة ، عادت بالضرر على المتقاضين . وكان الضرر أكثر فداحة في القضايا الجنائية ، لأن المتهم المحكوم عليه بالسجن يظل فيه بضع سنين حتى يفصل في الاستئناف الذي رفعه .

وكان رجال الجيش هم الذين يتولون تنفيذ الأحكام القضائية سواء في إستانبول أو في الولايات أو في الصنوجيات . ولم يكن يسمح لرجال الشرطة بالتدخل في هذا المجال التنفيذي الذي يعد في سائر الدول من صميم أعمال الشرطة ، وكان الدولة العثمانية أرادت أن تمد طابعها العسكري إلى مرفق القضاء في تنفيذ أحكامه .

ولما تبرأ السلطان عبدالحميد الثاني العرش ، أصدر في اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٧٦ في مستهل حكمه «المشروطة» أي الدستور ، واعترف هذا الدستور بالعيوب التي شابت النظام القضائي في الدولة . ولذلك تضمن الدستور مبادئ عامة يسترشد بها أعضاء البرلمان عند اجتماعهم في وضع قوانين الإصلاح القضائي المنشود . وكان من بين هذه المبادئ المساواة التامة أمام القانون بين الأجناس المختلفة ، التي ينتسب إليها الرعايا العثمانيون ، ووجوب حماية حقوق كل فرد ، ولأن يقوم مدافعون قانونيون بمهمة الدفاع عن الفقراء المتقاضين أمام المحاكم ، وأن يكون رجال القضاء بمنأى عن سيطرة الحكومة عليهم . ولكن حدث أن أصدر السلطان عبدالحميد فرماناً في اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط سنة ١٨٧٨ بتعطيل الدستور ، وإيقاف جلسات مجلسي البرلمان على أثر تدهور الموقف الحربي تدهوراً خطيراً في الحرب ، التي خاضتها الدولة ضد روسيا منذ شهر أبريل - نيسان - سنة ١٨٧٧ ، ووصول القوات الروسية إلى ضواحي إستانبول في شهر يناير - كانون ثان - سنة ١٨٧٨ ، وأصبح الجانب الأوروبي من العاصمة مهدداً باجتياح القوات الروسية له بين عشية وضحاها ، ولما هذا في مجال عرض الأسباب التي حدثت بالسلطان إلى تعطيل الدستور ، فسوف نناقش هذا الموضوع في موطن قادم في هذه الدراسة ، عند شرح عيوب الدولة (١) .

(١) اشترطت روسيا لقبول طلب السلطان عقد هدنة شروطاً جائرة ، قبلها السلطان وعقدت هدنة أدرنة (٣٠ من يناير - كانون ثان - سنة ١٨٧٨ ثم فرضت عليه معاهدة سان ستيفانو (٣ من مارس - آذار - سنة ١٨٧٨) ثم نجحت الدول الأوروبية في فرض معاهدة برلين (١٣ من يوليو - تموز - سنة ١٨٧٨) على الدولة ، وكانت معاهدة غير متكافئة كسابقاتها سان ستيفانو . انظر في هذه الدراسة ج ٢ ، الفصل العاشر .

وبتعطيل الدستور أصبح الإصلاح القضائي أمراً منوطاً بالسلطان ولم يكن لديه من الوقت متسع للشروع في تنفيذ الإصلاح المنشود ، فتأخرت بداية هذا الإصلاح حتى سنة ١٨٧٨ . ويلاحظ أنه لم ترد في معاهدة برلين لسنة ١٨٧٨ أى إشارة لرغبة الدول الأوروبية الست الموقعة على هذه المعاهدة في إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية الذى كان يقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ الإصلاح القضائي ؛ مما يدل على سوء نية هذه الدول من الدولة العثمانية .

إنشاء مكاتبى حقوقى شاهانى :

استهل السلطان عبدالحميد الإصلاح القضائي سنة ١٨٧٨ بإنشاء «مكاتبى حقوق شاهانى» أى مدرسة الحقوق السلطانية ، باعتبارها اللجنة الأولى فى صرح القضاء فى بلاده لإعداد رجال قانون يتفهمون على دراسته دراسة علمية متعمقة وجادة . وقد نمت نمواً سريعاً هذه المدرسة التى ألحقت فى شهر أغسطس - آب - سنة ١٩٠٠ بجامعة إستانبول ، كما سبق أن ذكرنا . وازداد الإقبال على الالتحاق بها إلى حد كبير ، وكان يتخرج فيها كل عام زهاء مائة خريج . واستعانت الدولة بهم فى المحاكم النظامية التى توسعت الدولة فى إنشائها فى كافة الولايات العثمانية حتى النائية منها ؛ ليعملوا فى هذه المحاكم قضاة ينظرون فى القضايا المدنية ، فإذا أثبتوا كفايتهم القضائية نقلوا إلى الدوائر الجنائية فى المحاكم النظامية .

تطوير عدلية نظارتى :

وكانت «عدلية نظارتى» أى وزارة العدل قد أنشئت سنة ١٨٧٠ على عهد السلطان عبدالعزيز . وكان من بين الخطوات الأولى التى اتخذها السلطان عبدالحميد إعادة تنظيم هذه الوزارة ، فأصبحت لها ولاية على القضاة المدنيين والجنائى فى المحاكم النظامية ومحاكم الاستئناف فى مجلس الدولة ومحاكم الأحوال الشخصية لغير المسلمين - وهى محاكم المال - والمحاكم المختلطة التجارية . واستحدثت للمحاكم التى تنظر فى قضايا الأحوال الشخصية للمسلمين - وهى المحاكم الشرعية - فقد أقيمت الولاية عليها لشيخ الإسلام . وقسمت الوزارة إلى عدة إدارات ، تختص كل إدارة بنوعية معينة من المحاكم التى تنظر القضايا المدنية والجنائية والمحاكم المختلطة التجارية ومحاكم المال لغير المسلمين . وأصبح وزير العدل لأول مرة عضواً فى مجلس الوزراء ، وخول مع مستشاريه السلطة فى تطوير النظام التشريعى فى الدولة .

برنامج السلطان عبدالحميد للإصلاح القضائي :

وقد وضع السلطان عبدالحميد برنامجاً للإصلاح القضائي وطلب من وزارة العدل اتخاذ الإجراءات لوضع قوانين ولوائح جديدة فى ضوء المبادئ العامة لبرنامجه ، وكانت تشمل :

- (١) تنظيم المحاكم المدنية وتحديد اختصاصاتها .
 - (٢) إعداد قانون خاص بالإجراءات فى المحاكم الابتدائية .
 - (٣) إعداد قانون خاص بالإجراءات فى محاكم الاستئناف .
 - (٤) إعداد لائحة تنفيذ الأحكام القضائية وإعفاء رجال الجيش من مهمة تنفيذ هذه الأحكام، سواء فى إستانبول أو الولايات أو الصنحقيات ، على أن يعهد بهذه المهمة إلى موظفين آخرين .
 - (٥) تعيين مفتشين قضائيين فى كل ولاية .
 - (٦) تعيين مدعين عموميين فى محاكم الاستئناف بالولايات ، وتعيين مساعدين للمدعين العموميين فى المحاكم الابتدائية ؛ رغبة فى إزالة مخاوف أو شكاوى المتقاضين .
 - (٧) الفصل بين محاكم الاستئناف والمحاكم الابتدائية فى الولايات بتخصيص محاكم مدنية وأخرى جنائية ؛ وتعيين نواب لرؤساء محاكم الاستئناف فى الولايات .
- أنشأت الدولة عدداً من المحاكم النظامية وغطت بها كافة الولايات الدانية والقاصية ، ثم أنشأت محكمة سى تميز، أى محكمة التمييز ، وهى محكمة استئناف عليا كان مقرها فى إستانبول ، كما أنشأت محاكم تجارية فى المدن ذات النشاط التجارى المكثف .
- تتابع إصدار قوانين الإصلاح القضائى :**
- كانت الظاهرة العامة فى تاريخ الدولة العثمانية هى تتابع إصدار قوانين ولوائح فى السنوات القليلة التالية ، اعتباراً من سنة ١٨٧٩ متضمنة المبادئ التى انطوى عليها برنامج السلطان عبدالحميد فى الإصلاح القضائى . فصدرت فى اليوم الثالث والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - وفى اليوم الثانى عشر من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٧٩ قوانين تحدد الشروط ، التى يجب توافرها فى من يشغل مناصب القضاء بحيث لا يعين فيها إلا أصحاب المؤهلات العلمية . ونص فى هذه القوانين على أن يتقاضى القضاء مرتباتهم من خزانة الدولة ، وحددت الحالات التى يعين فيها عزل القضاء تحديداً دقيقاً مثل الانحراف فى شتى صوره وأشكاله أو إذا ثبت أنهم دون المستوى العلمى المطلوب . وصدر فى سنتى ١٨٨٠ و ١٨٨١ قانونان تحقيقاً لرغبة السلطان عبدالحميد ، وكان هذان القانونان يختصان بالإجراءات القضائية فى محاكم الجنايات والمحاكم الابتدائية ، ومن أهم ماتضمنه القانون الأول عدم تقديم أى منهم إلى المحاكمة إلا بعد تحقيق ابتدائى عادل ، لا يتدخل فيه موظفو الحكومة أو أى شخص آخر .
- وصدرت تبعاً عدة قوانين أخرى حدد بعضها واجبات المحامين ، ونص البعض الآخر على أن رجال الشرطة هم المسؤولون عن تنفيذ الأحكام القضائية ومنع رجال الجيش من

التدخل في تنفيذها . ونص البعض الثالث على منع القبض على المتهم أو تفتيشه أو تفتيش داره ، إلا بعد صدور إذن كتابي من المحقق بالقبض على المتهم وتفتيشه وإحضاره . ونص البعض الرابع من هذه القوانين على أن يكون المفتشون للقضاة من خريجي مدرسة الحقوق ، وأن يقوموا بدورات تفتيشية على المحاكم في الولايات لإجراء التفتيش على أعمال القضاة وإضمان تنفيذ القوانين الجديدة تنفيذاً سليماً .

وقد حققت هذه القوانين وغيرها مستوى رفيعاً من العدالة والنزاهة والنظام في البنيان القضائي لم تشهد له الدولة من قبل مثيلاً . وكان جميع المتقاضين في المحاكم المدنية على اختلاف درجاتها ، وكذلك جميع المتهمين أمام محاكم الجنايات متساوين أمام القانون ، بصرف النظر عن دياناتهم أو مذاهبهم أو مراكزهم الاجتماعية .

اعتراض أوروبا على قوانين الإصلاح :

وعلى الرغم من أن قوانين ولوائح الإصلاح القضائي ، التي وضعت بتوجيهات السلطان عبد الحميد قد كفلت لجميع أصحاب القضايا العدالة والمساواة والنزاهة .. اعترض الأجانب المقيمون في الدولة والأقليات غير الإسلامية على تلك القوانين واللوائح . كان يدفعهم التعصب الديني أو الرغبة في إعاقة أي إصلاح تروم للدولة إدخاله أو هذان السببان معاً ، فرفضوا أن يحاكموا أو تنظر قضاياهم أمام محاكم عثمانية ، واعتمدوا في رفضهم على دعامتين : نظام الامتيازات الأجنبية وتأيد حكومات الدول الأوروبية لهم . وقد ذهبت هذه الحكومات إلى حد بعيد ، فرفضت تطبيق القوانين واللوائح الجديدة على رعاياها المقيمين في الدولة ، وأصررت في عناد على أن يظل القضاء العثماني مشطوراً شطرين : قضاء مختلط يختص بقضايا الأجانب ، وقضاء «عثماني» ينظر في قضايا العثمانيين ؛ بحجة أن القضاء المسلمين لا يستطيعون الفصل بعدالة ونزاهة في قضايا غير المسلمين . والواقع أن مهمة الدول الأوروبية ، أو غالبيتها العظمى إذا استلكت ألمانيا ، كانت منذ مؤتمر برلين الأوروبي (١٨٧٨) ، تحطيم الدولة العثمانية معنوياً ومادياً وعسكرياً واقتصادياً . ولذلك .. فإن الإصلاح القضائي الذي تم على عهد السلطان عبد الحميد لم يثر ، من حيث شموله جميع المقيمين في الدولة ، النتائج المرجوة بسبب تعنت الحكومات الأوروبية .

جهود أحمد جودت باشا في مجال الإصلاح القضائي :

ومع ذلك فقد ظلت وزارة العدل تمارس نشاطها ولايتها ورقابتها على سائر المحاكم التي تنظر في قضايا العثمانيين ، ومدت مظلة العدالة إلى جميع العثمانيين . وقد برز في هذا المجال أحمد جودت باشا (١٨٢٢-١٨٩٥) وزير العدل ، وكان من خيرة الوزراء الذين شغلوا هذا المنصب ، وقد تولاة عدة مرات على فترات متقطعة . نظم دورات تدريبية دراسية لرجال

القضاء لزيادة تفقدهم ، وكان مقر هذه الدراسات في وزارة العدل . وأصدر مجموعة القوانين لتنظيم المحاكم النظامية الجنائية ووضع لوائح إجراءاتها القضائية . وكانت له الصادرة في وضع مجلة أحكام عدلية^(١) ، وقد ترك بصماته واضحة قوية في تاريخ الإصلاح القضائي في الدولة . وكان مشرعاً قديراً ومؤرخاً عملاقاً وباحثاً فذاً ، ويعد من الشخصيات البارزة في الحياة الفكرية في الدولة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر^(٢) .

(١) انظر ثبت المصطلحات التركية في نهاية هذه الدراسة .

(٢) ولد أحمد جودت في اليوم الثاني والعشرين من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٢٢ في لوفجه (وليك) في شمال بلغاريا . وتلقى تعليمه في إستانبول . ولم يقنع بالدراسات التقليدية ، بل درس الرياضيات العديدة . وصرف وقت فراغه في تعلم الفارسية وشرع في نظم الشعر . وحصل على الإجازة التي تؤهله للالتحاق بالسلك القضائي ، ولكنه لم يعين رسمياً في منصب قاض إلا في سنة ١٢٦٠هـ (١٨٤٤-١٨٤٥م) . كان وثيق الصلة بمصطفى رشيد باشا الصدر الأعظم . وفي سنة ١٨٥٠ عين ناظرًا لدار المعلمين في إستانبول وعضوًا في «مجلسي معارف» أي مجلس المعارف بصفته كبير كتاب سر الصدر الأعظم . وفي أثناء نظارته لدار المعلمين أدخل عدة إصلاحات على نظامها من حيث شروط التحاق الطلبة بها والإفناق عليهم وامتحاناتهم . وبقى على عهد السلطان عبدالحميد الأول إلى رتبة «السليمانية» ، ثم عين في فبراير - شباط - سنة ١٨٥٥ في منصب «وقعة نوبس» أي مؤرخ الدولة . ونقل في السنة التالية (١٨٥٦) حاكمًا لضاحية جالاطه في إستانبول ، واختير مؤرخ الدولة . ونقل في السنة التالية (١٨٥٦) حاكمًا لضاحية جالاطه في إستانبول ، واختير عضوًا في لجنة شكلت لوضع كتاب عن أحكام الشريعة الإسلامية في المعاملات التجارية . وألحق في سنة ١٨٥٧ بمجلس التنظيمات ، وتولى وضع كتاب قانون (قانوننامه) جنائي جديد ، شارك بصفته رئيسًا للجنة «أراضى سنية قومسيوني» ؛ أي لجنة الأراضي السنية في وضع قانوننامه عن الطابو ، وهي ضريبة زراعية .

وعهد إلى أحمد جودت القيام ببعثتين إداريتين متوكلًا فوق العادة . كانت الأولى في خريف سنة ١٨٦١ إلى إشقوبدر في ألبانيا ، والثانية في صيف ١٨٦٥ إلى قوزان في إقليم طوروس في شرقي الأناضول لتهدئة الخواطر في هاتين الجهتين بإدخال الإصلاحات المطلوبة . وقد بلغ من نجاحه في البعثة الأولى أنه أوفد في مارس - آذار - سنة ١٨٦٢ مفتشًا إلى إقليم البوسنة (في يوغوسلافيا حاليًا) وعين جودت بعد ذلك عضوًا في لجنة إصلاح «تقويم وقائع» وهي الجريدة الرسمية للحكومة العثمانية . ووقع عليه الاختيار في أبريل - نيسان - ١٨٧٣ وزيرًا للمعارف ، وأدخل في أثناء تقلده هذه الوزارة إصلاحات هامة على نظام «صبيان مكتبلي» أي المدارس الابتدائية للصبية . وعين في سنة ١٨٧٥ وزيرًا للعدل ، واستطاع أن ينقل تسمية المحاكم التجارية إلى وزارته بعد أن كانت تابعة لوزارة التجارة ، ثم أقبل من منصبه ولكنه ما لبث أن عين وزيرًا للمعارف مرة أخرى .

ولما ارتقى السلطان عبدالحميد العرش سنة ١٨٧٦ أعيد جودت إلى وزارة العدل . وبعد أن تم عزل مدحت باشا ، نقل جودت وزيرًا للداخلية ، وظل يشغل هذا المنصب حتى اقتربت الحرب الروسية العثمانية من نهايتها سنة ١٨٧٧ ، وكان من المعارضين لتورط الباب العالي في هذه الحرب . وتولى بعد ذلك وزارة الأوقاف ، ثم أقيم للمرة الثانية واليًّا على الشام حيث قضى تسعة أشهر ، اكتسب خلالها معرفة عميقة بهذه الولاية الهامة . واستدعي إلى إستانبول حيث أسندت إليه وزارة التجارة . ولما نهي الصدر الأعظم عن منصبه في أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٧٩ تولى جودت باشا رئاسة مجلس الوزراء عشرة أيام . وفي الوزارة الجديدة التي شكلت بعد ذلك برئاسة محمد سعيد باشا ، عين جودت وزيرًا للعدل للمرة الرابعة . =

الخطوط الحديدية :

كان التوسع في إنشاء الخطوط للحديدية على رأس المشروعات التي أولاهها السلطان عبد الحميد الثاني اهتماماً زائداً في برنامجه الإصلاحى . ولحق أن الدولة العثمانية عند ارتقاؤه

= وقضى في هذا المنصب ثلاث سنوات يسهم في الإصلاح القضائى . وانتهت ولاية جودت باشا الرابعة لوزارة العدل في اليوم الثلاثين من شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٨٨٢ بتعيين أحمد وفيق باشا صدراً أعظم ، وعاد جودت للمرة الخامسة والأخيرة لوزارة العدل في شهر يونيو - حزيران - سنة ١٨٨٦ وظل وزيراً لها هذه المرة أربع سنوات ، اختير خلالها عضواً من بين ثلاثة أعضاء في المجلس الخاص، الذى شكله السلطان عبد الحميد لمناقشة المشكلات السياسية ، كما رأس لجنة شكلت لوضع فرمان يشمل شتى التعديلات في نظم الحكم الخاصة بجزيرة كريت بعد إخضاع لفتنة سنة ١٨٨٩ . وأنهى جودت خدمته الحكومية باستقالته من الوزارة في مايو - أيار - سنة ١٨٩٠ لنشوب الخلاف بينه وبين محمد كامل باشا الصدر الأعظم . وقضى السنوات التى تبقّت له في حيات معتكفاً ، صارفاً اهتمامه إلى التأليف إلى أن أدركته الوفاة في الخامس والعشرين من شهر مايو - أيار - سنة ١٨٩٥ ، بعد مرض لم يمهله طويلاً ، في قصره يالى في بيك .

وكان جودت باشا يمثل مزيجاً عجيباً جمع بين التقدمية والمحافظاة ، نادى بالمزيد في تطوير أفهام المجتمع العثمانى واستنكر بشدة مظاهر الجهل والتعصب وحجب الذات بين الطبقة الحاكمة ، ثم عاد فكتشف في خريف حياته عن خيبة أمل في التنظيمات ، ونعى عليها مأخذ كثيرة . ولعل مره هذا التناقض إلى صدامه مع محدث باشا ، الذى كان يتهمك عليه لجهله اللغة الفرنسية ، ومن ثم عجزه عن معرفة الفكر الأوروبى .

وفضلاً عن إسهام جودت باشا في «مجلة أحكام عدلية» ، وهى مجموعة القوانين التى صدرت وكانت له المصادرة في وضعها ، ترك جودت تراثاً فكرياً رائعاً . وكانت الكتب التاريخية على رأس مؤلفاته ونذكر من بينها : جودت تاريخي أى تاريخ جودت تتأول فيه الفترة من سنة ١٧٧٤ حتى سنة ١٨٢٦ أى من عقد معاهدة كتشك كينارجى إلى إلغاء نظام الإنكشارية . ويقع في اثني عشر مجلداً قضى في وضعها ثلاثين عاماً . وأدخل تغييرات أساسية على هذا الكتاب في طبعته الأخيرة (ترتيب جديد) والتي تمت ما بين سنة ١٨٨٥ وستنتى ١٨٩١ - ١٨٩٢ فلصيح المجلد الأول كله مقفلة .

تذكر جودت : مجموعة من المذكرات كتبها عن الحوادث المعاصرة بوصفه مؤرخ الدولة (وقعة نوس) وسلم بعضها لظفه في هذا المنصب ، ولم يبق مما سلمه إلا أربع مذكرات .
معرضات : عبارة عن سلسلة من المذكرات الضافية رفعها إلى السلطان عبد الحميد بناء على طلبه . وتتأول فيها حوادث الفترة من سنة ١٨٣٩ حتى سنة ١٨٧٦ في خمسة أجزاء . وقد تحدث في الجزء الخامس والأخير عن مصير السلطان عبدالعزيز .

ونخرج من هذا العرض الموجز لتاريخ حياة أحمد جودت باشا بثلاث حقائق رئيسية :
أولاً : أنه عاش حياة عريضة حافلة بجلالات الأعمال . تقلد خمس وزارات ، هى : العدل ، والمعارف ، والداخلية ، والأوقاف ، والتجارة . ولكن كانت وزارة العدل هى مركز الجذب الأول له ، فعين وزيراً لها خمس مرات . وفى الوقت ذاته كان تعيينه المكوند وزيراً لهذه الوزارة دليلاً على ثقة الدولة في مقدرته التشريعية ، فضلاً عن رياسته «ديوان أحكام عدلية» وغيره من المجالس والهيئات التشريعية العليا .

ثانياً : شخصاً ومباشراً في الإصلاح القضائى .

ثالثاً : أنه أثرى المكتبة القانونية والمكتبة التاريخية بمؤلفاته .

العرش لم تكن لديها شبكة من الخطوط الحديدية تتناسب مع مركزها كدولة عظمى . ويؤخذ عليها في هذا الصدد أمران : الأمر الأول أنها بدأت متأخرة عن الدول الأوروبية في إدخال الخطوط الحديدية حتى سنة ١٨٦٥ على عهد السلطان عبدالعزيز . وفي سنة ١٨٦٩ تم إنشاء ٢٦ ميلاً في الدولة العثمانية ، وارتفع الرقم إلى ٥٦٢ كيلو متراً في سنة ١٨٧٣ ، ثم إلى ١١٣٧ في سنة ١٨٧٨ ، وكان أكثر هذه الخطوط في أوروبا . ولم يزل الولايات العثمانية في آسيا سوى ١٧٢ كيلو متراً^(١) ، ويلاحظ أن مصر - وكانت وقتذاك ولاية تتمتع بالحكم الذاتي تحت السيادة العثمانية - سبقت الدولة في إدخال الخطوط الحديدية . فقد شرعت على عهد الوالي عباس الأول (١٨٤٨-١٨٥٤) في إنشاء للخط الحديدي من الإسكندرية إلى القاهرة في عام ١٨٥١^(٢) . ومما يذكر في هذا الصدد أن السلطان عبدالعزيز سيطرت عليه دهشة بالغة حين سافر من الإسكندرية إلى القاهرة بالسكة الحديدية ، وكانت أول رحلة له في حياته يستقل فيها قطاراً ، في أثناء زيارته لمصر واستغرقت عشرة أيام ، ابتداء من اليوم السابع من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٨٦٣ إبان حكم إسماعيل . ولما وصل السلطان إلى محطة الإسكندرية ليستقل منها القطار إلى القاهرة شرح له المختصون نظام وقوف عربات القطار على القضبان الحديدية

(١) الدكتور عبدالكريم غرابية ، سورية في القرن التاسع عشر ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٥ .
(٢) عقدت الحكومة المصرية مع روبرت ستيفنسن Robert Stephenson ابن مخترع القاطرة البخارية جورج ستيفنسن اتفاقاً في ١٢ من شهر يوليو - تموز - ١٨٥١ ، لإنشاء الخط الحديدي من الإسكندرية إلى القاهرة . وقبل أن ينتهي ذلك العام كان العمل قد بدأ في إنشائه ، وقد تم المشروع وبلغ القاهرة عام ١٨٥٦ على عهد الوالي محمد سعيد باشا ، الذي كان قد بدأ في إنشاء خط حديدي ثان من القاهرة إلى السويس عبر الصحراء وقرع العمل منه في سنة ١٨٥٨ وعلى عهد سعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦٣) أنشئت الخطوط التالية أيضاً :

من طنطا إلى سمنود من سنة ١٨٥٧ إلى ١٨٥٩
من بنها إلى الزقازيق سنة ١٨٦٠
من بنها إلى ميت بره سنة ١٨٦١
وعلى عهد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) ، غطت الشبكة الحديدية أرجاء الوجه البحري ، كما مد الخط الحديدي من القاهرة إلى أسيوط (١٨٧٤) ، ومن القاهرة إلى سرائ القبة (١٨٦٥) وخط الجبل الأحمر (١٨٧٠) ومن المكس إلى محاجر النخيلة في السنة ذاتها ، ومن المعمورة إلى أبي قحير (١٨٧٦) ، ومن الواسطي إلى الفيوم (١٨٦٨) ثم إلى أبوكساء (١٨٦٩) ، ومن باب اللوق إلى حمامات حلوان ، ومد الخط الحديدي من وادي حلفا جنوباً مسافة ٥٧ كيلو متراً ، ثم أوقف العمل سنة ١٨٧٨ بسبب الأزمة المالية التي كانت تواجهها الحكومة المصرية . انظر :

Wiener L.; L'Egypte et ses Chemins de Fer. Bruxelles, 1932 pp. 641-644.

تجد في هذه الصفحات نص الاتفاق بين الحكومة المصرية وروبرت ستيفنسن .
وتجد عرضاً للشبكة الحديدية التي أنشئت في مصر منذ عهد عباس الأول ، حتى نهاية حكم الخديوي إسماعيل في :

عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٢-١٥ .

وطريقة سحب خمس عشرة عربة ثقيلة بواسطة القاطرة . وبعد أن ألقى السلطان نظرة سريعة على مبنى المحطة ونظامها الداخلي ، صعد إلى عربة الصالون التي خصصت له .

“Le 9 avril 1863, le Sultan partit pour le Caire. C'était la première fois qu'il voyageait en chemin de fer. Sa curiosité était fort éveillée. Arrivé à la gare, il se fit tout expliquer : la tenue des wagons sur les rails, leur mode d'attelage, la traction par la locomotive de ces quinze pesantes voitures. Puis, après avoir jeté un rapide coup d'oeil sur l'édifice de la gare et sa disposition intérieure, il monta dans son wagon-salon” (١)

والأمر الثاني أن الدولة لم تمد خطوطاً حديدية في ولاياتها العربية مثل بلاد الشام والعراق .. أما سكة حديد الحجاز فهي أكثر التصاقاً بحركة الجامعة الإسلامية ، ولذلك نرجئ الحديث عنها إلى موطن قادم في هذه الدراسة عند التعرض لموضوع هذه الحركة . وكان اهتمام الدولة منصّباً على مد خطوط حديدية في الأناضول وفي بعض ولاياتها الأوروبية وربط معظمها باستانبول ، ولما تولى عبدالحميد الثاني للعرش .. كان طول الخطوط الحديدية في الدولة لا يتجاوز بضعة مئات من الأميال . كان الخط الأول وقد ظفرت به شركة بريطانية يربط ثغر أزمير بمدينة Aydin (٢) عبر وادي مندريس Menderes ، وكان طوله ثمانين ميلاً ، وبدئ في استخدامه سنة ١٨٦٦ أي بعد تشغيل خط إسكندرية - القاهرة بعشر سنوات . وقيل في تبرير تأخير مده وتنفيذه إن الحكومة العثمانية كانت تواجه متاعب مالية عقب حرب القرم . وقد أسهم هذا الخط في النهوض اقتصادياً واجتماعياً بجنوبي غرب الأناضول ، وكان هناك خط حديدي آخر من حيدر باشا إلى Izmit ، وبلغ طوله ٥٨ ميلاً ، وانتهى العمل في إنشائه سنة ١٨٧٣ ، أما الخط الثالث فكان يصل بين أدرنة في أوروبا وإستانبول ، وبلغ طوله ١٩٨ ميلاً ، وكان يمثل المرحلة الأولى من الخط الحديدي السريع ، الذي اشتهر باسم اكسبريس الشرق The Orient Express (٣) .

وأبدى السلطان عبدالحميد الثاني اهتماماً زائداً بالتوسع في إنشاء للخطوط الحديدية ؛ إذ

(1) Douin G.; Histoire du Règne du Khédive Ismail, etc., op. cit., t. 1. pp. 12-13.

(٢) تقع في جنوب شرق أزمير .

(3) Lewis B.; op. cit., p. 184.

ويلاحظ أنه جاء حين من الزمن ، كانت الخطوط الحديدية في الدولة - باستثناء خط سهل أضنة ، تمتد في تراقيا وفي الأقاليم الغربية من الأناضول لربط السهول الخصبة بسواحل البحر ، أو لربط الولايات الأوروبية الغربية البعيدة التي كانت لاتزال تحت الحكم العثماني .

انظر :

Stanford Shaw & Ezel Shaw; op. cit., p. 227.

كان يرى فيها وسيلة فعالة وسريعة للتهوض بالدولة إلى مصاف الدول الأوروبية . وكانت الدولة لاتملك الأموال أو الخبرات الفنية لإنشاء الشبكة الحديدية التي كان يتطلع إليها ، فلجأ إلى عدد من الشركات الأجنبية للخاصة وكان معظمها من الشركات الألمانية . ونشط العمل في مد الخطوط الحديدية منذ عام ١٨٨٥ حتى بلغ طولها بضعة آلاف من الأميال ، بعد أن كان بضعة مئات . ومع ذلك .. فإن الأستاذ برنارد لويس يعلق على هذه الزيادة مقللاً أهميتها ، فقال إن الأرقام في هذه الحالة بالذات ليست ذات دلالة كبيرة ؛ لأن طول الخطوط الحديدية العثمانية بلغ في أوروبا وآسيا ٣,٨٨٢ ميلاً سنة ١٩١٣ ، أى بعد عزل عبدالحميد بأربع سنوات ، في حين أن بلجيكا وهى دولة أوروبية صغيرة كان لديها في ذلك العام شبكة خطوط حديدية أكثر طولاً من الشبكة الحديدية العثمانية الممتدة في قارتين ^(١) . ولكن الحادث الفريد والأول من نوعه أنه في يوم ١٢ من شهر أغسطس - آب - عام ١٨٨٨ غادر محطة قيينا أول قطار حديدى في طريقه إلى إستانبول ، وحطم بذلك أول حاجز كان يفصل بين الدولة ووسط أوروبا^(٢) . ونشطت للحركة على هذا الخط نشاطاً مستمراً وأدخلت عليه تحسينات سنة بعد أخرى ، وأصبحت هناك خدمة حديدية منتظمة وسريعة وسهلة بعد استخدام قطار دولى اشتهر باسم اكسبريس الشرق ، ويعتبر مشروع خط حديد بغداد . وهو المشروع الذى تشير إليه المراجع الأوروبية باسم خط ب. ب. ب من أهم الأحداث التاريخية في حكم السلطان عبدالحميد الثانى . وهو يقوم على إنشاء خط حديدى يبدأ من برلين ويمر بإستانبول (بيزنطة) ، وينتهى عند بغداد على أن يمد إلى البصرة ثم فيما بعد إلى أحد موانئ الخليج العربى . وقد منح السلطان عبدالحميد امتياز إنشاء هذا الخط وصيانته وإدارته إلى شركة ألمانية ، ولم يستكمل هذا المشروع حتى نهاية حكم عبدالحميد أو حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، على الرغم من أن أجزاء منه كانت موجودة بالفعل . وقد عارضته بريطانيا معارضة شديدة ، ونظرت إليه على أنه وسيلة لتسلس النفوذ الألمانى إلى الشرق العربى الآسيوى وللمسيطرة على منطقة الخليج العربى واستعرض له فى موطن قادم فى هذه الدراسة . والخلاصة أن طول الخطوط الحديدية فى الدولة قد زاد فى حكم السلطان عبدالحميد ، فبلغ ٥٨٨٣ كيلو متراً فى سنة ١٩٠٧-١٩٠٨ ؛ أى أكثر من ثلاثة أضعاف طولها ، عندما ارتقى العرش ^(٣) ، كما قفزت إيرادات الحكومة من السكك الحديدية قفزات رهيبية ^(٤) .

(1) Lewis B.; op. cit., p. 184.

(2) Loc. Cit.

(3) Stanford Shaw & Ezel Shaw; op. cit., p. 227.

(٤) كانت إيرادات الحكومة من مرفق السكك الحديدية فى سنة ١٨٨٧ - ١٨٨٨ قد بلغت ثمانين مليوناً ونصف مليون قرش ، ثم زادت فى سنة ١٩٠٧-١٩٠٨ إلى أكثر من سبعمائة وأربعين مليوناً من القروش؛ أى مايقرب من عشرة أمثال الإيراد السابق .
انظر : المرجع السابق .

وسائل المواصلات الأخرى :

أسلاك البرق :

عرفت الدولة استخدام البرق قبل حكم السلطان عبدالحميد الثانى بنحو ثلاثين عاماً . وكان استخدام البرق مقصوراً أول الأمر على الرسائل الحكومية . ويلاحظ أن خدمة الأغراض الحربية كان الهدف الأول من إدخال هذا الاختراع فى الدولة . وقام المهندسون الإنجليز والفرنسيون بمد الأسلاك البرقية فى الدولة فى أثناء حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦) ؛ لنقل أنباء العمليات الحربية برقية إلى إستانبول ومنها إلى العواصم الأوروبية . وسار مد الأسلاك البرقية على عهد السلطان عبدالعزيز سيراً وثيداً ، واستخدم فى خدمة الأمن العام وإبلاغ الحكومة المركزية فى إستانبول بأنباء الاضطرابات أو الثورات فى الولايات العثمانية ، حتى إذا تولى عبدالحميد الحكم دب النشاط فى إنشاء شبكة واسعة من أسلاك البرق . ولم يعد استخدام البرق مقصوراً على المصالح الحكومية ، بل دخل حياة الجماهير التى أقيمت على استخدامه فى شئونها الخاصة ؛ وأنشأت الدولة مدرستين لتعليم البرق نظرياً وعملياً ، وأوفدت سنة ١٨٨٣ بعثات علمية إلى باريس لدراسة استخدام أحدث أجهزة البرق ، وأصبحت الغالبية العظمى من موظفى البرق من العثمانيين بعد أن كانوا من الأوروبيين . ولم ينته للقرن التاسع عشر حتى كانت الدولة تغطيها شبكات برقية تتصل بإستانبول^(١) ، وزاد عدد رسائل البرق من مليون رسالة سنوياً إلى ثلاثة ملايين رسالة وزاد إيراد الحكومة من هذا المرفق الجديد .

وكالعادة هوجم السلطان عبدالحميد هجوماً عنيفاً لتوسعه فى مد أسلاك البرق . وتناهى المتحاملون عليه الفوائد الاقتصادية والاجتماعية التى عادت على الجماهير ، ونكروا تبريراً واحداً هو أنه أراد بفضل استخدام البرق أن يمارس حكماً استبدادياً مركزياً فيشرف على تصرفات حكام الولايات إشرافاً مباشراً . ومن ثم لم يظفروا إلى شبكة أسلاك البرق على أنها عمل إصلاحى ، يجعل الدولة تولى كعب الدول الكبرى فى مسيرتها الحضارية ، واعتبروا هذا المشروع مأخذاً عليه . ونشير هنا إلى اقتباس ذكره الأستاذ برنارد لويس نقلاً عن أحد الباحثين الإنجليز واسمه سير شارل إليوت Sir Charles Eliot فى كتاب نشره عام ١٩٠٠ ، وقد جاء فى هذا الاقتباس أن البرق كان هو أقوى وسيلة لحاكم طاغية يريد أن يراقب موظفيه . فلم يعد من الضروري ترك الحرية لحاكم ولاية ويثق فى أنه سيعود إلى إستانبول عدد استدعائه للحضور إليها لقطع رأسه وتفصل عن جسده ، إذا اتضح للسلطان أن مثل هذا القتل أمر مرغوب فيه . وبفضل البرق كان فى استطاعة السلطان أن يكشف أمره ويثق على تصرفاته وأن يزجره ، بل

(١) كان طول أسلاك البرق فى سنة ١٨٨٢ قد بلغ ٢٣,٣٨٠ كيلو متراً ، وفى سنة ١٩٠٤ قفز طولها إلى ٤٩,٧١٦ كيلو متراً .

ويستدعيه إلى العاصمة وأن يأمر مرؤسيه بوضع تقارير ضده ، ويقتصم السلطان من هذا الحكم القصاص الذي يبتغيه (١) .

والواقع أن هذا التفسير لنشاط السلطان عبدالحميد في إنشاء الشبكة البرقية في أنحاء الدولة يعد مثالا صارخا للتهجم عليه .

وإلى جانب هذه الإصلاحات التي شملت مجالات التعليم والقضاء والخطوط الحديدية والبرقية ، امتدت إصلاحات عبدالحميد إلى الخدمة البريدية وإنشاء الطرق البرية وإصلاح الموانئ ودعم خطوط الملاحة للبحرية التجارية في البحرين المتوسط والأحمر . وكانت السفن العثمانية تمد رحلاتها إلى منطقة الخليج العربي وشط العرب ونهر دجلة ، كما نفذ مشروعات مهمة لاستغلال المناجم والغابات ، وللنهوض بالزراعة والصناعة والتجارة الداخلية والخارجية .

* * *

(1) Charles Eliot; Turkey in Europe. 1900, pp. 158-159

الفصل الثانى

• تفسيرات تعسفية لبعض مشروعات

قام بها السلطان عبدالحميد الثانى (١)

ثلاثة مشروعات :

عرضنا فى الفصل السابق معالم بعض الإصلاحات الرئيسية التى قام بها السلطان عبدالحميد الثانى ، وقيمت مشروعات إصلاح حاول تنفيذها ، فنجح نجاحاً جزئياً فى بعضها ، ونجح نجاحاً كلياً فى تنفيذ البعض الآخر ، بينما لم يستطع استكمال البعض الثالث نظراً لكونه أقوى منه ومن الدولة . من النوع الأول كانت حركة الجامعة الإسلامية ، ومن النوع الثانى كانت سكة حديد الحجاز ، ومن النوع الثالث كان طريق ب. ب. ب. ، وعمل خصوم الدولة بعمامة وخصوم عبدالحميد بخاصة على تشويه هذه المشروعات ، وفسروها تفسيرات تعسفية أبعد ما تكون عن الحقيقة .. وسحاول تفصيلها تفصيلاً موضوعياً محايداً ، ملائمين بالترتيب الذى ذكرناه آنفاً .

أولاً : حركة الجامعة الإسلامية Pan-Islamism

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقعت أحداث دامية فى العالم الإسلامى ، جعلت المسلمين يشخصون بأبصارهم نحو الدولة العثمانية لحمايتهم وقيادتهم .. فإن القضاء على بقايا إمبراطورية المغول بعد الفتنة التى نشبت فى الهند (١٨٥٧-١٨٥٨) ضد الحكم البريطانى - ترك المسلمين هناك دون قيادة دنيوية عامة موحدة ، ودون أن ينكروا بالدعاء اسم الحاكم المسلم فى خطب المساجد أيام الجمعة وعيد الفطر وعيد الأضحى ، كما جرت بذلك التقاليد الدينية الإسلامية . وفى وسط آسيا غزا الروس طشقند وسمرقند سنة ١٨٦٨ ، وأخضعوا إمارة بخارى ، وهبطوا بها إلى مركز دولة تدور فى فلك الإمبراطورية الروسية . وكان للخانات الأتراك فى أواسط آسيا على وشك أن تبتلعهم موجات الغزو الروسى ، فاستجدوا بإخوانهم فى العقيدة ، وحدثت اتصالات بينهم وبين السلطان العثمانى عبدالعزیز ، ولكن لم تسفر عن نتيجة وجاءت الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨) بأهوالها وأخطارها وأزماتها الربية والسياسية فتوسيت أصوات المستغيثين بالدولة العثمانية . وفى إفريقيا ، سيطرت فرنسا حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ واحتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ، وفى سنة ١٨٩١ أعلنت ألمانيا حمايتها على دار السلام . واستفاضت الأنباء بالأساليب الوحشية التى

تعامل بها روسيا والدول البلقانية المستقلة حديثاً المسلمين من رعاياها . واختلطت هذه الأنباء بتقصص أخرى على شاكلتها عن الاضطهاد الذى يتعرض له المسلمون فى بلاد القرم والهند والجزائر وتونس . ووجهت الاتهامات إلى رجال التنظيمات بأنهم أعملوا شأن علماء الدين ، وأغفلوا أمر المثل العليا الإسلامية ، والتقاليد الإسلامية . وأنهم لم يعطوا إلا بمحاكاة الأوروبيين . وأصبح الرأى الشائع أن الدول الأوروبية الاستعمارية هى السبب فى الارتباكات المالية التى تعاني منها الدولة ، وفى إسراف الأجانب فى إساءة استخدام نظام الامتيازات الأجنبية لتحطيم الاقتصاد العثمانى ، وتقديم فروض مالية ذات فوائد ربوية مرتفعة بل فاحشة .

دعوة نامق كمال :

وكان الاتجاه الغالب فى للرأى العام العثمانى إزاء هذا الموقف المتدهور الذى يعاني منه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها لإيجاد نوع من الرابطة بين أجزاء العالم الإسلامى ، تقف فى وجه الزحف الأوروبى الاستعمارى المدمر . ويرزى فى هذا المجال نامق كمال (١٨٤٠-١٨٨٨) أحد أعلام الفكر العثمانى فى القرن التاسع عشر (١) .. حذر من الخطر الغربى

(١) يرد اسمه فى بعض المراجع العربية كمال محمد قايق (انظر الموسوعة العربية الميسرة) . وقد أثرتنا استخدام الاسم الاول لأنه أكثر نيوحاً . وقد ولد نامق كمال فى سنة ١٨٤٠ من أسرة أرستقراطية ، وكان والده يعمل فلكياً فى القصر السلطانى . وتعلم فى صباه اللغات العربية والفارسية والفرنسية فضلاً عن التركية . وعين فى مهنته حياته ، طيقاً لتقاليد عصره وطبقته ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، مترجماً فى قلم الترجمة فى ديوان الجمارك ، ثم نقل مترجماً فى الباب العالى .

وقامت صلات وثيقة بينه وبين إبراهيم شنازى (١٨٢١-١٨٧٦) أحد رواد الدراسات الأدبية التركية الحديثة ، وتعاون الاثنان فى إصدار جريدة «تصويرى أفكار» أى تنوير الأفكار . ولما نزح إبراهيم شنازى إلى فرنسا سنة ١٨٦٥ هرباً من السلطان عبدالعزيز ، استقل نامق بالعمل فى الجريدة . وكان عمله أول الأمر مقصوراً على الترجمة . ثم انصرف إلى كتابة مقالات سياسية رصينة تحت ضغط الأحداث الكبرى الخارجية التى كانت تشهد انتباه رجال السياسة والفكر ، مثل الثورة البولندية (١٨٦٣-١٨٦٤) ، والحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١-١٨٦٥) . وقد شجعت أمثال هذه الأحداث ذهنه وصقلت المقالات السياسية قلمه ، ثم انتقل فى مقالاته إلى معالجة موضوعات داخلية : مما أوقعه فى متاب مع السلطات العثمانية ، فهرب مع ضياء باشا (١٨٢٥-١٨٨٠) إلى أوروبا سنة ١٨٦٧ ، وأمضى فيها ثلاث سنوات فى لندن وباريس وفيينا . وعكف على نشر جرائد معارضة لاساليب الحكم التى يتبعها السلطان عبدالعزيز ، وعقد اجتماعاً فى باريس لتكوين جمعية سياسية سرية تتنافس حكم هذا السلطان ، وحضر هذا الاجتماع خمسة أعضاء آخرين كان من بينهم آية الله بك الذى أحضر معه نسخة من كتاب عن جمعية الكارونارى فى إيطاليا وكتاباً آخر عن جمعية سرية يولندية (انظر ماسبق فى هذه الدراسة ج٢ ، ص ١٠٠٤ ، حاشية رقم ٢ ص ١٠٠٤-١٠٠٦) ، كما درس القانون والاقتصاد ، وترجم عدداً من الكتب الفرنسية إلى اللغة التركية . وهكذا كانت حياته فى أوروبا حافلة بالانشايط السياسى والعلمى والأدبى .. يقول أحد الباحثين الأتراك المحدثين - وهو كويريل زاده محمد فؤاد - «وايس من شك فى أن نامق كمال هو الرجل الذى توطلت على يديه دعائم المدرسة الفكرية ، فقد كان فناناً عظيماً ، ومجاهداً جاداً ، وكتائباً كثيراً ، ووطنياً كبيراً . وكان الفن عنده وسيلة لإحداث نهضة فى البلاد ، فأمد الثورة الثقافية والسياسية لى تركيا =

الثقافي والاستعماري على العالم الإسلامي ، وطالب أن تأخذ الدولة العثمانية زمام المبادرة إلى حماية العالم الإسلامي . وكانت دعوته تتجه إلى الوسائل الثقافية أكثر من الأساليب السياسية . وكان من بين أسانيد أن الدولة العثمانية أقرب دولة إسلامية من حيث الموقع إلى أوروبا ، وأعظم الدول الإسلامية مكانة ، وأكثرها تعداداً ، وأوفرها ثراءً ، وأكبرها مساحة ، وأرقاها في شتى المجالات الحضارية ، ويشع من الدولة نور المعرفة لينتشر في أرجاء آسيا وإفريقية ، وأهم من ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، هي مقر الخلافة الإسلامية . وتأسيساً على هذه الأسانيد رأى نامق كمال أنه يجب على الدولة العثمانية أن تأخذ زمام المبادرة لحماية المسلمين استكمالاً لدورها القيادي والمصيري والقدرى ، وبذلك يوجد نوع من التوازن بين الشرق الإسلامي والغرب المعيشي .

واشتهر نامق كمال بين معاصريه بأنه داعية لمبدأين أساسيين ، هما : الحرية وحُب الوطن . وأبرز هذين المبدأين في عديد المقالات والروايات والأشعار للقارئ العثماني المسلم . وقد استمد عناصر هذين المبدأين من الثورة الفرنسية ، ولكن في صورة تتلاءم مع أحكام الشريعة الإسلامية الفراء ومع التقاليد الإسلامية . وكان مسلماً مخلصاً ظل طوال حياته شديد التعلق بالقيم الإسلامية ، ونعى على رجال التنظيمات إخفاقهم في المحافظة على أفضل التقاليد الإسلامية العريقة ، وأنهم كانوا يطالبون بإدخال أنظمة مستوردة من أوروبا . ودعا إلى قيام وحدة إسلامية تحت قيادة الدولة العثمانية لاقتباس بالحضارة الأوروبية بشرط موافقة هذه الحضارة مع التقاليد الإسلامية . وعلى الرغم من أنه كان مهووراً بالحضارة الأوروبية ، كان

عذخر من مقالاته السياسية ومسرحياته وقصصه وأشعاره الوطنية ومصنفاته التاريخية ومباحثه النقدية، بل ورسائله الخاصة ، ومن ثم كان له أعمق الأثر في هذا السبيل» (دائرة المعارف الإسلامية ، مادة : الأتراك) ، ولذنت له السلطات العثمانية في العودة إلى إستانبول سنة ١٨٧١ واستأنف نشاطه الصحفي . وفرغ سنة ١٨٧٢ من كتابة رواية عنوانها «الوطن» ، أثارت مشاعر الجماهير إعجاباً بها بقدر ما أزعجت السلطان عبدالعزیز ، وقسم الرواية بلتها تهديد خطير لحكمه ، فاصدر أمراً بسجنه في قبرص حيث قضى أكثر من ثلاث سنوات في ظلمات السجن . وكان ظهور هذه الرواية «وطن» حادثة سياسية خطيرة . وبعد عزل السلطان عبدالعزیز أمر السلطان عبدالحميد بإطلاق سراحه وعودته إلى إستانبول . وقد ترجمت روايته «الوطن» بعد ذلك إلى عدة لغات ، وبعد أن عاد نامق كمال إلى إستانبول ، أسهم في إعداد مواد الدستور ، ولكنه منع من ترشيح نفسه في الانتخابات العامة . ووقع خلاف بين السلطان عبدالحميد وبيته ، وقضى نامق كمال معظم السنوات المتبقية من حياته إما معتقلاً وإما منفياً إلى أن انبرك الموت سنة ١٨٨٨ .

عن حياة نامق كمال ونشاطه السياسي والفكري ، انظر كلاً من :

Lewis B.; op. cit., pp. 136, 138, 140-146, 148, 152, 167, 170, 181, 191, 195, 196, 243, 336, 358, 428 & 456.

Stanford d. Shaw & Ezel Kural Shaw; op. cit., vo. 2, pp. 129, 131, 154, 157, 165, 212, 251-254, 259, 562, 276, & 524.

يرى أن تخلف الشعوب والدول الإسلامية مسألة نسبية وليست مطلقة . كما كان يعتقد أن سبب هذا التخلف لا يرجع إلى أى عيب أصيل أو فطرى فى الإسلام ، بل إلى سيطرة الغرب على العالم الإسلامى الذى حرمة من كل فرصة للتقدم الذاتى .

وخلص رأياً إلى أن الدول الإسلامية يجب أن تدخل الأساليب الحديثة ، بشرط ألا تقلد أوروبا تقليداً أعمى أو استرقاقياً خسيماً ، وبشرط ألا تولى ظهرها لمعتقداتها الدينية ومبادئ الشريعة الإسلامية وتقاليدها العريقة . وأكد أن محاسن الحضارة الأوروبية قد اقتبست من الإسلام ، أو بما يمكن مقارنته بالإنجازات التى حققتها الحضارة الإسلامية فى مسيرتها عبر العصور التاريخية المتعاقبة . وإذا اقتبس المسلم شيئاً من الحضارة الأوروبية ، فإن هذا المسلم يعود فى حقيقة الأمر إلى الأخذ بتقاليد الإسلام العريقة .

وحدث أن قام رجال السياسة والصحافة فى أوروبا يريدون تصعيد التعصب الدينى ، الذى كان سائداً فى أرجاء أوروبا فى العصور الوسطى بإثارة حملات مسعورة ضد الإسلام إذا تعرضت جماعات قليلة العدد نسبياً من المسيحيين فى ولايات الدولة العثمانية للاضطهاد أو القتل ، ويتجاهلون المذاهب المروعة ، التى يتعرض لها رعايا الدولة المسلمون فى البلقان أو المسلمون للخاصة فى روسيا فى وسط آسيا .

وكان نامق كمال سباقاً فى الرد على هذا التعصب الأوروبى .. كان الفيلسوف الفرنسى إرنست رينان Ernest Renan فى تهجمه على الإسلام ، وصف هذا الدين أنه عدو للعلم والتقدم ^(١) ، فانبهر له نامق كمال يشرح مما حققه الإسلام فى جميع مجالات العلم والثقافة

(١) كان رينان قد ألقى محاضرة فى باريس ، نشرتها جريدة Les Débats الفرنسية ، ذهب فيها إلى أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها ، بما فيه من اعتقاد بالغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر . وقال إن المسلمين الذين اشتغلوا بالفلسفة تعرضوا للاضطهاد أو أحرقت كتبهم ، أو كانوا فى حماية خليفة أو أمير مؤمن فى الظاهر ، غير متدين فى الباطن ، ومع ذلك فما وصل إليه هؤلاء فى الفلسفة ليس له قيمة كبيرة ، فهو ليس إلا فلسفة لليونان مشوهة ، والفلسفة التى أخذها الأوروبيون عن المسلمين فى إسبانيا كانت فلسفة رتيبة الترجمة ، مشوهة الأصل ، لم تستند منها أوروبا الفائدة الحقة إلا بعد ترجمتها ترجمة جديدة من منابعها الأصلية . وقرر أن الإسلام حجب العقل عن التعامل فى حقائق الأشياء . وأن عقول المسلمين قاصرة ، وما يتصف به المسلم هو بفضه للعلوم ، واعتقاده أن البحث كفر وقلة عقل لافائدة فيه .

وهاجم رينان العرب هجوماً عنيفاً ، وكان يقصد بالعرب المسلمين . وقال إن المؤرخين يقعون فى خطأ بقولهم علوم العرب ، وفنون العرب ، وحضارة العرب ، وفلسفة العرب ؛ لأن هذه الإسهامات كانت نتاج أمم غير عربية أكثره بخصها على الخول فى الإسلام مثل الفرس ، وأمم أخرى مثل النسطوريين الحرائين . ويلاحظ أن جمال الدين الأفغانى رد أيضاً على رينان .

انتظر :

والحضارة في ظل الدول الإسلامية عبر عصور التاريخ منذ ظهور الإسلام . وقد ترجمت هذه المشاعر إلى حركة استهففت إيجاد صلات مع جميع المسلمين الذين يتعرضون للظلم ، ومن بينهم مسلمي الهند ومصر ، ووسط آسيا الذين تحت السيطرة الروسية والجزائر وتونس الذين تحت السيطرة الفرنسية ، بهدف تكوين اتحاد للمسلمين A Union of Muslims للإسهام في الدفاع عنهم^(١) .

ولم يكن نامق كمال أول مفكر تركي عثمانى يتكلم عن الحكومة البرلمانية في الدولة العثمانية وعن حقوق الإنسان ، ولكنه كان أول من ربط بين هاتين الفكرتين أو هذين المبدئين . فقد سبقه صادق رفعت باشا في شرح حق المواطن في الحرية ، وكان يرى أن السبيل الوحيد للمحافظة على الحرية هو نصيح الحاكم وتحذيره ، بل وزجره ، كي يلتزم بالعدالة أسلوباً في حكمه^(٢) . وتكلم أيضاً ضياء باشا عن الدستور والهيئات السياسية التي تقوم في الدولة مبنية على الدستور ، ولكنه لم يرف فيها إلا وسيلة لإصفاء المظهر الأوروبي على الدولة .. أما نامق كمال فكان يرى أن الواجب الأول على الحكومة هو تحقيق العدالة ، وكانت لديه فكرة واضحة عن الحقوق السياسية للمواطن ، وقال إن الواجبات الأولى على الحكومة احترام هذه الحقوق والمحافظة عليها . وأكد أن هذه الأفكار ، التي ترجع إلى الفكر السياسي في إنجلترا وفرنسا ، مطابقة لمبادئ الشريعة الإسلامية الغراء ، وأن جميع المفكرين قد تناولوا الحقوق السياسية من زوايا مختلفة وتحت عناوين شتى ، مثل : سيادة الشعب ، المساواة ، الفصل بين السلطات ، حرية المواطن ، حرية الفكر ، حرية الصحافة ، حق التملك ، حرمة المساكن ، وما إلى ذلك .

وذكر نامق كمال أن سيادة الشعب معناها أن للحكومة تستمد سلطانها من الشعب ، وأن هذه السيادة تسمى في الشريعة الإسلامية «البيعة» ، وأن هذه البيعة حق ينشأ بالضرورة من استقلال الفرد الذي يجب أن يقرر لكل إنسان ، والبيعة هي يمين الطاعة للخليفة الجديد ، وتعد استكمالاً للعقد القائم بين الحاكم الجديد ورعاياه ، ولكي تلتزم الحكومة بالعدالة في حكمها .. يجب أن تتبع نظام الشورى . واستند نامق كمال في وجوب تطبيق نظام الشورى إلى القرآن الكريم . وكان يذكر في كتاباته الآية التي أمر الله سبحانه وتعالى فيها رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يكون ليلاً متصاحماً مع المؤمنين ، وأن يستشيرهم في شتى المسائل تظميناً

(1) Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 259.

(٢) كان صادق رفعت باشا من رجال الإصلاح في الدولة على عهد التنظيمات ، تدرج في المناصب الحكومية . وعين وزيراً في السفارة العثمانية في فيينا سنة ١٨٢٧ . وكتب في سنة ١٨٤٤ إلى سير ستراتفورد كاننج Stratford Canning «... إننا نأخذ بنصائح أوروبا في المسائل السياسية . أما في الشؤون الدينية فنريد أن تكون حريتنا كاملة . وإن الشريعة الإسلامية هي أساس قوانيننا ، ومبدأ حكومتنا . راييس في مقدور صاحب العظمة السلطان أن يمس الشريعة» . وظهرت في كتاباته الأفكار الدستورية والآراء الحرة ، التي كان لها بعض الأثر على الإصلاحات ، التي قام بها السلطان عبد المجيد ومصطفى رشيد باشا .

لقربهم ولكى يستن به من بعده . فكان عليه الصلاة والسلام كثير المشاورة لهم . فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر^(١) وكان نامق كمال يستخدم فى كتاباته هذا البص القرأى ونصاً قرأناً آخر هو «وأمرهم شورى بينهم»^(٢) ، وأصبح استخدام هذين النصين القرآنيين الكريمين محبباً إلى نفوس الأتراك العثمانيين وغيرهم من الأحرار للمسلمين فى القرن التاسع عشر .

ويستقى نامق كمال نظريته فى السياسة والحكم من القرآن الكريم والشريعة الإسلامية ومن آراء مونتسكيو Montesquieu Charles (١٦٨٩-١٧٥٥) ، وروسو Rousseau Jear Jacques (١٧١٢-١٧٧٨) ، كما أن آراءه فى الممارسة الحكومية تعتمد على النظامين البرلمانيين فى إنجلترا وفرنسا، وبدأ فى نشر ترجمة تركية لكتاب Esprit des Loix «روح الشرائع» لمونتسكيو فى سنة ١٨٦٣ ، وقرر أن آراء هذا الفيلسوف الفرنسى مطابقة أو موائمة لمبادئ الشريعة الإسلامية ، وقال إن القوانين التى تكلم عنها مونتسكيو ليست إلا ترديداً للقوانين التى تنكم بالمعدلة والحكمة والتى جاءت بها الشريعة الإسلامية . وترجم أجزاء من كتاب آخر لمونتسكيو ، هو : Considérations sur les Causes de la Grandeur et de la Décadence des Romains.

«تأملات فى أسباب عظمة واضمحلال الرومان»^(٣) ، ونشرها فى جريدة المرأة وهى جريدة تركية ظهرت فى مارس - آذار - سنة ١٨٦٣ ، ومما يذكر أن طلبة الكلية الحربية فى إسطنبول كانوا يقرؤون سراً فى عتابر للنوم مؤلفات نامق كمال .

دعوة جمال الدين الأفغانى :

إذا كان نامق كمال قد ركز فى الوسط «التركي الصرف» نشاطه الهادف إلى قيام وحدة إسلامية تحت زعامة الدولة العثمانية .. فقد كانت هناك شخصية أخرى معاصرة له استهدفت قيام وحدة بين بلاد العالم الإسلامى تحت زعامة الدولة العثمانية ، وقد مدت هذه الشخصية نشاطها إلى أفاق رحبية فى عدة دول فى آسيا وإفريقية وأوروبا ، ونعنى بهذه الشخصية السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨-١٨٩٧)^(٤) .

(١) جزء من الآية القرآنية الكريمة رقم ١٥٩ فى سورة آل عمران .

(٢) جزء من الآية القرآنية الكريمة رقم ٣٨ فى سورة النورى .

(٣) من معاني كلمة Considérations : تأملات ، إنعام النظر ، بواعث .

(٤) ولد الأفغانى فى سنة ١٨٣٨ فى أسعد آباد من أعمال كابول عاصمة أفغانستان . وينتمى إلى أسرة عريقة ، ويحمل نسباً بالإمام الحسين بن على بن أبى طالب ، ولذلك لحق بإسمه لقب «السيد» .

وذهب الأفغانى إلى الهند حيث تزاحمت عليه الجماهير تسمع آراءه لتحريرها من السيطرة البريطانية . وكان مما قاله «يا أهل الهند ، وعزة الحق ، لو كنتم ، وتعداكم يصل إلى مئات الملايين ، ذباباً لأصم طينيتكم أذان بريطانيا العظمى ، وأجعل فى أذن كبيرها جلاستون وقرأ ، ولو انقلبتم ملايينكم سلاحف ، وخضتم البحر وأحطتم بجزر بريطانيا ، اسحبتموها إلى قاع البحر ، وعدمتم إلى الهند =

= أحراراً ، وارتاعت حكومة الهند منه ، فأمرته بمغادرة الهند فوراً . فسافر منها إلى مصر . وقد جاء الأفغاني إلى مصر لأول مرة منذ أوائل سنة ١٨٧٠ ، وأقام فيها أربعين يوماً ، وكان له فيها نشاط علمي محدود في الدار ، التي نزل فيها بحي خان الخليلى بالقرب من الأزهر . ثم غادر مصر إلى إستانبول حيث لقي من حكومة السلطان عبدالعزيز حفاوة وإكراماً . وكان موضع تقدير وإجلال الصدر الأعظم عالي باشا . ولم تـمض سنة أشهر حتى عينته الحكومة العثمانية عضواً في مجلس المعارف ، وادى واجبه خير مايكون الأداء ، وأشار بإصلاح مناهج التعليم . ولكن لم تـلق آراؤه تأييداً من شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي ، إذ رأى في تنفيذ هذه الآراء مايمس رزقه ، فاضمر له السوء . وحدث أن طالب مدير الفنون إلى الأفغاني في ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٧٩ أن يلقى بحثاً عن وسائل إنـهاض الصناعة في الدولة العثمانية . فلما لقاؤه في دار الفنون في جمع حاشد من ذوي المكانة والعلم نال استحسانهم . ولكن اتخذ شيخ الإسلام من بعض الآراء التي عرضها الأفغاني في بحثه مفعزاً للتليل منه بغير حق ، وألب عليه الوعاظ وأوعز إليهم أن يستخروا من آرائه في أحاديثهم في المساجد . ووقعت بلبلة في الرأي العام . وطلبت منه الحكومة الرحيل عن إستانبول بضعة أشهر حتى تسكن المخاطر ثم يعود إليها إن شاء . فارتحل في شهر مارس - آذار - سنة ١٨٧٩ للمرة الثانية إلى مصر حيث قرر له الخديو إسماعيل راتباً شهرياً قدره عشرة جنيهات ، ولم يكن تقرير هذا المرتب مقابل عمل ، بل رأى الخديو إسماعيل ووزيره رياض باشا - وهذه من حسناتهما - في الأفغاني عالماً فذاً يعرف الدين والدنيا ويوجد الفهم والقول ، وفي أثناء إقامته الثانية في مصر ، والتي امتدت ثمانية أعوام ونصف عام متصلة ، أثرى الأفغاني بآرائه ، كما هو موضح في متن هذا الفصل ، قطاع المستبشرين والمتفكرين ومن إليهم في المجتمع المصري في المجالات الدينية والاجتماعية والسياسية ، ففتنوا بها وأثروا بها في جماهير الشعب .

وعقب تولية الخديو توفيق الحكم في السادس والعشرين من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٨٧٩ ، أوعز إليه قنصل بريطانيا العام في مصر بإخراج الأفغاني منها ؛ لأن الإنجليز كانوا يقيمون على الأفغاني روح الثورة والسعة إلى الحرية والمستور . فأنصرت توفيق أمراً بنفيه من مصر . وكان ذلك بقرار من مجلس الوزراء منعقد بـرياسة الخديو ، ونقل إلى السويس حيث أقلعت به سفينة بريطانية في السادس والعشرين من شهر أغسطس - آب - سنة ١٨٧٩ إلى الهند حيث أقام في حيدر آباد ، وفيها ألف كتابه المشهور «رسالة في إبطال ملـهـب الدهريـة» أثبت فيها أن الدين أساس الحضارة ، وأن الكفر فساد العمران ، ورد على داروين Darwin وملـهـبه في النشوء والارتقاء وعلى أمثاله ممن نـهـجوا مـذهـبه . واستعرض في كتابه أيضاً مزايـا الإسلام على سائر الأديان . ولما اشتعلت الثورة العربية في مصر نقلته حكومة الهند إلى كلكتا ، وحدثت إقامته تحت مراقبة مشددة حتى انتهت الثورة واحتل الإنجليز مصر ، فسمحت له الحكومة البريطانية بالذهاب حيث شاء في غير الشرق ، فذهب إلى أوروبا سنة ١٨٨٢ ، وكانت لندن أول مدينة زارها ، وأقام فيها أياماً معدودات ثم انتقل إلى باريس ، وفيها أصدر جريدة «العروة الوثقى» بالتعاون مع الشيخ محمد عبده وميرزا محمد باقر . وسنشير إليها في شيء من التفصيل في متن هذه الدراسة . ولما احتجبت هذه الجريدة بقي الأفغاني في باريس بينما عاد الشيخ محمد عبده وميرزا باقر إلى بيروت . ولم يكف الأفغاني خلال إقامته في باريس ، وقد امتدت ثلاث سنوات ، عن كتابة المقالات في التنديد باعتداء الدول الأوروبية على العالم الإسلامي ، كما كان يرسل تلاميذه ومريديه في مصر وغيرها . وأخذ يتنقل بين باريس ولندن ، وفي فبراير - شباط - ذهب إلى فارس ثم إلى روسيا .

وكان من أسباب تـهابه إلى روسيا وفرة عند المسلمين فيها وسوء معاملة الحكومة الروسية لهم . وكان يحسب الأمل بانصـالـه بها أن تخفف من ظلمها لهم . وقد سعى عند القيصر في طبع المصحف =

ظفر الأفغانى^(١) بتعليم ذى مستوى رفيع . تعلم اللغات الأفغانية والعربية والفارسية والهندية والتركية ، ودرس علوم الدين والمنطق والفلسفة والتاريخ والرياضيات . وتعلم اللغة الفرنسية وهو كبير فى السن ثم أُنقِذها فى أثناء إقامته فى باريس . وشهد فى فجر حياته فى أفغانستان تصارع بريطانيا والروسيا على النفوذ فيها ، وخبر عن كُتُب تيارات السياسة الدولية تجاه العالم الإسلامى ، وطاف بالهند والحجاز ومصر وفارس والعراق والروسيا وأقام فى إستانبول ثم سافر إلى لندن وأقام فى باريس ، ولنتهى به المطاف فى إستانبول سنة ١٨٩٢ وعاش فيها إلى أن جاز إلى ريه فى سنة ١٨٩٧ .

وقد صقلته دراساته وأسفاره وتجاربه ، فغدا فيلسوفاً فذاً ، وزعيماً دينياً ، ومصلحاً اجتماعياً ، وسياسياً مرموقاً ، وصحفيّاً قديرًا ، وأطلق عليه «حكيم الشرق» .

جميع الكتب الدينية لمسلمى الروس ، فأنن له فى ذلك . وكان الأفغانى يعلم الدور الكبير للروسى فى سياسة الشرق بمناخستها السياسة البريطانية فى أواسط آسيا ، ولذلك كان يعرض الحكومة الروسية على سياسة بريطانيا ، وأذنت له حكومة القيصر فى نشر مقالات فى الجرائد الروسية بنقد فيها السياسة البريطانية .

وسافر إلى أوروبا على نية أن يزور معرض باريس العالمى سنة ١٨٨٩ . وفى أثناء سفره من الروسيا إلى باريس فى ميونيخ فى ألمانيا ، وقابل ناصر الدين شاه فارس الذى عرض عليه العودة إلى طهران ووعده بأن يمهّد له طريق الإصلاح الذى يقترحه . ولبنى الدعوة ووضع عدة مشروعات فى إصلاح الحكومة وإقامة العدل وتطبيق القوانين وتنظيم الحكم النيابى . ولكن سرعان ما اكفهر الجو بينه وبين الشاه ، إذ سعى الرجعيون بالواقعية بينهما ، وأدخلوا فى روح الشاه أن مشروعات الأفغانى تسلب نفوذه . واستأنه الأفغانى فى المسير إلى المقام المعروف باسم «مقام عبدالعظيم» وهو أحد حدة الأئمة . وكان هذا المقام يبعد عشرين كيلو متراً عن طهران وكان الفرس يعنون مقامه حرماً من دخله كان أمناً . واتخذ الأفغانى مركزاً لدعايته وخطب طلباً للإصلاح . كان العلماء والضباط ورجال السياسة ينهون إليه يستمعون لأرائه ويقومون بنشرها فى أرجاء البلاد . وأقام على ذلك أشهراً ، والبلاد يزداد غليانها ، ومركز الشاه والخاصية يزداد تازماً ، والمنشورات توزع ، والكتب الأغفال من الإعضاء تصل إلى الشاه تنلّره بالعدل أو العزل ، ويالحكم النيابى أو تالية غيره . فاعتزم الشاه نفيه من البلاد ، ووجه إليه قوة من الفرسان لتنزعه من فراشه وهو مريض وساقته إلى حود الدولة العثمانية ، ونزل بالبصرة ، حيث أقام فيها زمناً حتى أبل من مرضه ، ثم أرسل كتاباً إلى كبير المجتهدين فى فارس ، ميرزا محمد حسن الشيرازى ، عهده فيه مساوئ الشاه . وكان أن فسّخ الأخير العقد الخاص واحتكار شركة إنجليزية التبغ فى فارس .

وعاد الأفغانى فى سنة ١٨٩٢ إلى لندن حيث أقام ثمانية أشهر ، وأسهم فى إصدار مجلة شهرية تصدر باللغتين العربية والإنجليزية أسماها «ضياء الخافقين» حمل فيها حملات عنيفة على الشاه ناصر الدين ، وبخضع فيها حكومته وانتشار الرشوة ، وتعليب الأهالى ، وسوء الإدارة ، ودعا الشعب الفارسى إلى خلق الشاه . ثم سافر إلى إستانبول ، بدعوة مكرورة من السلطان عبدالحميد ، وتعددت اتصالاته مع السلطان على النحو الذى شرحناه فى متن الرئاسة حتى جاز إلى ريه سنة ١٨٩٧ .

(١) يريد بعض الباحثين رأياً يتلخص فى أنه كان فارسى المولد ، وأنه حجب هذه الحقيقة صمداً حتى يكون انتسابه إلى أفغانستان السنينة بدلاً من انتسابه إلى فارس الشيعة من عوامل نجاحه فى تحقيق رسالته فى البلدان ، التى مارس فيها نشاطه ، وكانت باستثناء فارس تدين بالمذهب السننى . وهذا الرأى غير مؤكّد ، ولعل خصومه هم الذين اختلقوه وروجوا له .

بدأ نشاطه في المجال العلمي التثقيفي ، وانتقل إلى المجالين الديني والاجتماعي وخاض غمار السياسة ، وانتهى به الأمر مبشراً وداعياً إلى قيام وحدة بين أجزاء العالم الإسلامي تلتزم بمبادئ الشريعة ، وتعيد مجد الإسلام ، وتقف في وجه الزحف الاستعماري الأوروبي على البلاد الإسلامية . وعرفت الوحدة التي دعا إليها باسم حركة الجامعة الإسلامية .

وكانت إقامة الأفغانى الثانية في مصر ، والتي كانت إقامة متصلة امتدت أكثر من ثمانى سنوات حتى أواخر شهر أغسطس - آب - سنة ١٨٧٩ (١) ، من أخصب سنوات حياته ، حفلت بنشاط علمي مكثف شمل النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية . وكان هذا النشاط ذا شقين : دراسة علمية منتظمة يلقها في داره في خان الخليلي بالقرب من الأزهر . وكان يتردد عليه طائفة من مجاوري الأزهر وبعض علمائه أمثال الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبدالكريم سلمان ، والشيخ إبراهيم اللقاني . وكان يلقى عليهم دروساً في المنطق والفلسفة والتصوف وأصول الفقه . والجدير بالملاحظة أنه لم يلق دروسه في الأزهر ، ولم يذهب إلى الأزهر إلا زائراً ، وكانت أغلب زيارته له تقع أيام الجمعة . أما الشق الثاني من نشاطه فكان أكبر أثراً وأعم نفعاً ، ويتمثل في لقاءات فكرية يتلقى أفكاره فيها زلتروه في بيته ، وعظماء الرجال عند زيارته لهم في بيوتهم ، والمفكرون والمثقفون عند تحلقهم حوله ، إذا جن الليل ، في مقهى «البوسطة» في ميدان العتبة الخضراء ، وجمهور للناس عند اجتماعهم به في المناسبات . وكان يحضر هذه اللقاءات محمود سامي البارودي ، وعبد السلام المويلحي ، وأخوه إبراهيم المويلحي ، ومن الشبان أمثال الشيخ محمد عبده ، وإبراهيم اللقاني ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، ومليح النقاش ، وأديب إسحاق ، وغيرهم . وكانت هذه اللقاءات أشبه بمدرسة غير نظامية ، صقل فيها الأفغانى استعداداتهم واتجاهاتهم ، وعمد إلى تغيير مجرى الأدب . فبعد أن كان الأدب يمدح الملوك والأمراء ، ويتغنى بأعمالهم مهما بلغ من مظالمهم ، جاء الأفغانى فعمل على تسخير الأدب في خدمة الشعب : يطالب بحقوقه ، وينفع الظلم عنه ، ويهاجم من اعتدى عليه ، ويبين للناس مواضع يؤسهم ، ويحرضهم على الخروج من الظلمات إلى النور ، ويطلب منهم الأيخشاو بأس الحاكم ، فليست قوته إلا بهم ، وأن يلحوا في طلب حقوقهم السلبية . فخرج الأفغانى على الناس بأدب جديد ، ينظر إلى الشعب أكثر مما ينظر إلى الحاكم ، وينشد الحرية ، ويخلع العبودية (٢) .

وآثر الأفغانى في لقاءاته الفكرية أن ينقل نشاطه إلى المجال السياسي . ونعى على العالم

(١) جاء الأفغانى إلى مصر مرتين . كانت المرة الأولى في أوائل سنة ١٨٧٠ ، وأقام فيها أربعين يوماً ، واتصل به عدد من مجاوري الأزهر ، تلقوا عليه بعض علوم الرياضة والفلسفة والكلام ، وقرأ لهم «شرح الأنظار» في البيت الذي نزل فيه يحيى خان الخليلي ، ثم غادر مصر إلى إستانبول .

(٢) أحمد أمين : زعماء الإصلاح إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٧٢-٧٤ .

الإسلامي تمزقه وتفككه حتى وقعت معظم أجزائه فريسة للاستعمار الأوروبي . وقرر في جراءة بالغة أن المجالس النيابية لا قيمة لها إذا كان أعضاؤها يأتفرون بأوامر الحكومة ويسايرون سياستها (١) . وقد ساعدت الأحداث التي كانت تمر بها مصر في أواخر حكم إسماعيل ، الأفغانى على خوض غمار السياسة . وكان إسماعيل يشجع نقد التدخل الأجنبى فى شئون مصر ، وإن لم يسمح بنقد شخصيته . وكون الأفغانى جماعة من الكهول والشبان حبيب إليهم الكتابة ، ورسم لهم خطتها ، وأوحى إليهم بالأفكار الجديدة التى يكتبون فيها ، وشجعهم على إصدار الجرائد . فكان أن أنشأ أديب إسحاق جريدة أسماها «مصر» ، ورسم له خطة السير بها . وكان الأفغانى يكتب بعض مقالاتها باسم مستعار هو «مظهر بن وضاح» ، ثم أوعز إليه بالانتقال إلى الإسكندرية ، وأنشأ بها صحيفة يومية أسماها «النجارة» . وكان الأفغانى يستكتب لها الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى بالإضافة إلى مايكتبه بقلمه من مقالات . وكان من نتائج نشاطه فى مدرسته غير النظامية أن ظهرت روح المعارضة واليقظة فى مجلس شورى اللواب على يد نواب نفخ فيهم الأفغانى من روحه . وكان من بينهم ، أو على رأسهم ، عبدالسلام بك المويلحى (باشا) الذى يعد من تلاميذه الأفاض (٢) .

دعا الأفغانى إلى إصلاح أوضاع المسلمين دينياً واجتماعياً وسياسياً . وإذ كان الإسلام تمزج فيه العقيدة الدينية بالنظم الاجتماعية والسياسية ، كانت دعوته شاملة لهذه النواحي الثلاث . وكان مثله الأعلى حال المسلمين على عهد الخلفاء الراشدين من حيث التمسك بأهداب الدين والصفات الخلقية والنظام المياسى . وكان مثله الأعلى أيضاً ، كما ذكرنا ، حكومة إسلامية واحدة تلزم بأحكام الشريعة الغراء . ولكنه كان يرى فى الوقت ذاته صعوبة خضوع شعوب الأمة الإسلامية لحاكم واحد ، فاكتفى بالدعوة إلى قيام روابط محكمة بينها ، ويكون لها هدف واحد ، وقوامها القرآن ، وأساسها العدالة والشورى ، واختيار خيرة الناس لتولى الأمور . وفى تصور الأفغانى ، تأخذ هذه الروابط المحكمة شكل حلف إسلامى بين الدول الإسلامية تترعمه أكبرها وأقواها ، وكثيراً ما كان يضرب المثل بالإمارات الألمانية فى توحدها سنة ١٨٧١ بعد تشتتها عصوراً وأحقاباً وأدهاراً .

كانت دعوة الأفغانى تستهدف العالم الإسلامى كله ، ولا تتعلق بإقليم إسلامى معين .

(١) تسمى هذه السياسة فى المصطلح السياسى الحديث بديمقراطية الموافقة أو ديمقراطية أمين . وهى تتحرك بإشارة من رئيس النولة أو غيره من مراكز القوى ، وليست هذه السياسة محفوفة بالضرر فحسب ، بل بالأخطار أيضاً ، ويطلق على عكس هذه السياسة : ديمقراطية المشاركة ، وفيها تشارك المجالس النيابية فى مناقشة القرارات وفى صنعه قبل أن يأخذ طريقه إلى التنفيذ . وفى ظل ديمقراطية المشاركة يتحرر المواطن من الخوف ، ولا تكون هناك عقوبة إلا بقانون ، وتمنع إجراءات الفصل والاعتقال والحراسة والمصادرة ، كما يجد كل مواطن غطاء يحمى رقبته . ولا يفرض على البلاد نظام الحزب الواحد .

(٢) عبدالرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، طبعة ثانية ، ص ١٣٥ .

واستهدفت تخليص المسلمين مما كانوا يعانون من جمود فكري وتخلف حضارى ، وجهالة فاشية ، وبعد عن تعاليم الإسلام الحق ، وضنك مالى ، وأزمات سياسية ، وتدخل أوروبى مستر حيناً ، وسافر أحياناً أخرى . فكان هدفه الأعلى أن يرفع الشعوب الإسلامية إلى مستوى الشعوب الأوروبية المتقدمة ، عن طريق نشر التعليم نشرًا واسعاً ، وتطبيق الدين الإسلامى تطبيقاً سليماً . ونادى بحرية الفكر وقيام حكم الشورى ممثلاً فى وجود دستور يحدد سلطات الحاكم ، فكان الأفغانى محبباً للحكم النيابى يرى فيه مدرسة للتعليم السياسى ، تمنع الاستبداد والظلم اللذين عانى منهما الشرق كثيراً وطويلاً ، كما كان يعتقد أن فى نظم الحكم الدستورى حاجزاً يحول دون سيطرة الغرب السياسية والاقتصادية على الشعوب الإسلامية . ولكنه كان يعتقد أنه لا بد من الثورة لتحقيق هذا الهدف . كان يريد أن يرى البلاد الإسلامية متحررة من السيادة الأجنبية تمهيداً لنهضتها الروحية والفكرية ، ثم تتحد فى ظل خليفة واحد تجمع كلها على الاعتراف به ، كما كان الأمر فى العصر الذهبى للإسلام . فكانت وحدة المسلمين هى السبيل فى رأى الأفغانى إلى تحقيق فكرة للجامعة الإسلامية ، فهى كفيلة بوقوف المسلمين صفاً متراصاً أمام الزحف الأوروبى الاستعمارى الذى كان يشند ضغطه وخطره على أرجاء العالم الإسلامى عاماً بعد عام . فالدين ، والتجمع الإسلامى وحرية الفكر ، ونظام الشورى ، والتصدى لأخطار الزحف الاستعمارى الأوروبى ، من المقومات الأساسية التى تركز عليها دعوة الأفغانى .

كانت فكرة الجامعة الإسلامية التى دعا إليها الأفغانى تقوم على دعامتين أساسيتين :

الدعامة الأولى : الحج إلى المسجد الحرام فى مكة المكرمة حيث الكعبة الشريفة وسائر البقاع الإسلامية المقدسة فى الحجاز . والحج ، فضلاً عن أنه ركن من أركان الإسلام ، تربية دينية تؤصل العقيدة الدينية فى نفوس المسلمين .

الدعامة الثانية : الخلافة وضرورة التمسك بها كنظام دينى ونظام سياسى ، وكانت آنذاك فى آل عثمان . وكان الالتفات حول الخلافة هو المظهر العلمى للوحدة التى تقوم عليها دعوة الأفغانى . وقد هزت هذه الدعوة العالم الإسلامى هزاً عنيفاً فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

وجاءت دعوة جمال الدين الأفغانى فى وقت مناسب للنمو والازدهار ، إذ كان عدد من أقاليم العالم الإسلامى فى القرن التاسع عشر يموج بحركات بحث وإحياء دينية كرد فعل للشايط الاستعمارى المكثف الذى مارسه الدول الأوروبية الكبرى على عدة أقاليم إسلامية ، وما صاحب اعتداءاتها العسكرية من إدخال أساليب الحضارة الأوروبية المسيحية إلى البلاد الإسلامية بصرف النظر عما إذا كانت هذه الأساليب تتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية أو

لا تتعارض معها . ولكنها في كلتا الحالتين بهرت أعين كثيرين من المسلمين فانساقوا وراءها .
ولذلك كان من أهداف تلك الحركات الدينية الإسلامية مقاومة الديارات الأوروبية التي اشدت
مساعدها في العالم الإسلامي في ذلك للقرن ، وهي ما أطلق عليها الباحثون westernization .
ونترجم هذا المصطلح بتصرف فنقول إنه الأخذ بالنظم والآراء والعادات الغربية وما إليها من
أساليب الحضارة الأوروبية المسيحية . فكانت تلك الحركات الدينية تستهدف البعد عن كل ماهو
أوروبي مسيحي ، وتريد تخليص الإسلام من الشوائب التي علفت به والرجوع به إلى بساطته
الأولى في صدر الإسلام . ومن بين تلك الحركات نذكر للحركة السلفية في شبه الجزيرة
العربية ، وانبثقت عنها الدولة السعودية الأولى أول الأمر ، والسوسية في شمالي إفريقيا ،
والمهدية في السودان . وإذا كانت بعض الحركات الدينية قد حاربت النفوذ العثماني ، إلا أنها
تركت آثاراً بعيدة في الحياة الدينية في العالم الإسلامي بعامة والعالم العربي بخاصة . وكان
شمالي إفريقية بيئة صالحة للطرق الصوفية والطوائف الإسلامية مثل القادرية ، والرفاعية ،
والشاذلية ، والمولوية ، والحيوسية ، والتيجانية ، والرحمانية ، والسوسية . وكان لبعضها برامج
سياسية استهدفت الرغبة في التخلص من النفوذ الأوروبي للمسيحي . ونذكر على سبيل المثال
الطريقة السوسية فقد كانت من أكثر الطرق نشاطاً إذ تأثرت بحركة الجامعة الإسلامية وعملت
على الدعاية لها في المنطقة .

واستغل الفرنسيون مقتل أعضاء بعثة فلانترز Lieutenant-Colonel Paul François Xavier Flatters في سنة ١٨٨١ ، وهي البعثة الفرنسية الاستكشافية التي ارتادت الصحراء
الكبرى ابتغاء نشر النفوذ السياسي والديني الأوروبي . وقد شنت أجهزة الإعلام الفرنسية
حملات عنيفة على أتباع الطريقة السوسية وحملتهم مسؤولية مقتل أعضاء بعثة فلانترز . وكان
هذا الحادث من أهم الأسانيد التي قدمها المستوطنون في الجزائر إلى جيل فرى رئيس الوزارة
الفرنسية وقتذاك مطالبين بالتعجيل باستيلاء فرنسا على تونس . وتلقف فرى بدوره هذا الحادث
فجعله من بين الذرائع التي انتحلتها لغزو تونس . وقد سبق أن ذكرنا أن العسكريين الفرنسيين
في الجزائر والمستوطنين الأوروبيين بها كان يغمروهم حماس دافق لاستيلاء فرنسا على تونس؛
خوفاً على الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر أن تمتد إليه تحركات إسلامية سواء من
تونس ، أو من مراكش ، أو منهما معاً .

وقد ظهرت حركة الجامعة الإسلامية في الوقت ذاته الذي ظهرت فيه حركة الجامعة
الصقلبية Pan - Slavism وحركة الجامعة الجرمانية Pan - Germanism في أوروبا . وقد
سبق أن تعرضنا في هذه الدراسة لخصائص وأهداف هاتين الحركتين الأوروبيتين^(١) . ولكن
كانت حركة الجامعة الإسلامية تتميز عن الحركتين الأخريين بأن الفكرة الموجهة لها لم تكن

فكرة تجميع العناصر الإسلامية التي تنتمي إلى جنس واحد أو تكلم لغة واحدة خاصة بها كالأتراك العثمانيين فقط أو العرب فقط أو الأكراد فقط . كما أن هذه الحركة لم تكن تستهدف تحقيق التفوق السياسى أو بسط السيطرة الإسلامية على شتى أرجاء الأرض ، بل كان هدفها تخليص العالم الإسلامى بعامه وأقاليم شمالى إفريقيا والشرقين الأدنى والأوسط بخاصة من السيطرة الأوروبية المالية والسياسية والعسكرية .

مقارنة بين نامق كمال والأفغانى :

كانت أوجه الشبه بينهما عديدة . كان نامق أحد أعلام الفكر الإسلامى العثمانى فى القرن التاسع عشر ، وقد توفى سنة ١٨٨٨ . وكان الأفغانى أحد أعلام الفكر فى العالم الإسلامى قاطبة فى القرن ذاته ، وقد قضى نحبه سنة ١٨٩٧ . وكلاهما كان سليل أسرة أرستقراطية فى مسقط رأسه . وكانت الفكرة الدينية الإسلامية متأصلة فى كليهما ، إذ طالبا فى دعوتيهما بالتمسك بأحكام الشريعة الإسلامية وتقاليد الإسلام . واشتغل كلاهما فى الصحافة ، عمل نامق كمال فى الصحافة التركية مثل جريدة «تصويرى أفكار» و «المرآة» ، واشتغل الأفغانى فى الصحافة العربية مثل جريدة «العروة الوثقى» وفى القسم العربى من مجلة «صبيان الخافقين» ، وطالب كلاهما بحكومة برلمانية وتحقيق العدالة والحرية ، وزاد نامق بأنه أول من ربط بين الحكومة البرلمانية وحقوق الإنسان ، وقرر أن سيادة الشعب تقابل فى الإسلام نظام البيعة ، وكلاهما رد على «ارنست رينان» الفيلسوف الفرنسى فى تهجمه على الإسلام ، وتعرض كلاهما للاضطهاد ، أمر السلطان عبدالعزيز بسجن نامق كمال فى قبرص مدة ناهزت ثلاث سنوات وقضى معظم سنوات حياته إما محقلاً وإما منفياً فى أوروبا . ولقى الأفغانى اضطهاداً وتكراراً وجحوداً وخذلاناً من ملوك الشرق وأمرائه . ومن الأمثلة التى تساق فى هذا الصدد إبعاده من الهند سنة ١٨٧٠ ، وترحيله من إستانبول سنة ١٨٧١ على عهد السلطان عبدالعزيز ، ونفيه من مصر سنة ١٨٧٩ على عهد الخديو توفيق ، ثم إبعاده من فارس بأمر من الشاه ناصر الدين . وكلاهما لجأ إلى أوروبا بعيداً عن التعرض لمزيد من الاضطهادات . وكان يرى كلاهما أن الغرب هو أساس الضعف بل البلاء الذى نزل بالشعوب الإسلامية ، وطالباً بضرورة وقف الزحف الأوروبى الاستعمارى على العالم الإسلامى .

وكانت وجه الاختلاف بينهما كثيرة ويقدر ما كانت نواحي الشبه بينهما متوافرة . وتنادى كل منهما إلى قيام وحدة إسلامية تجمع شتات المسلمين . ولكن طالب نامق كمال بأن تأخذ الدولة العثمانية زمام المبادرة ، لأسباب قوية سبق أن تعرضنا لها ، بتكوين اتحاد للمسلمين فى شتى أرجاء العالم يسهم فى النفع عنهم وفى حماية مصالحهم . أما الأفغانى فقد تنادى إلى قيام وحدة إسلامية تعم العالم الإسلامى بإحياء نظام الخلافة وإعادةتها إلى مكانتها اللائقة وهيبتهما اللتين كانتا لها فى صدر الإسلام ، ثم باستغلال الفرصة السنوية التى يتيحها أداء جموع

غفيرة من المسلمين للحج إلى مكة المكرمة ؛ حيث يجتمعون في صعيد واحد يتدارسون مشكلاتهم ووسائل إنقاذهم . وعدم التركيز على أن يكون الخليفة عثمانياً فيكون من أى بلد إسلامي ، إعمالاً للرأى الذى صرح به وهو أنه «لاجنسية للمسلمين إلا فى دينهم» ، وإن كان يميل فى بعض الأوقات إلى أن يكون الخليفة عثمانياً باعتباره سلطاناً للدولة العثمانية ، وهى أكبر دولة إسلامية فى العالم حينذاك . ويختلف الاثنان بعضهما عن بعض فى أن نامق كمال دعا إلى تجنب أخطار الغزو الفكرى الأوروبى كخطوة أولى للتصدي إلى التغفل الأوروبى ، المالى والسياسى والتدخل العسكرى فى البلاد الإسلامية . وكانت دعوة الأفغانى جامعة شاملة لكل هذه الجوانب . وكانت دعوة نامق كمال باللغة التركية فى نطاق الدولة العثمانية بعامة ، وفى الأوساط التركية بخاصة ، على الرغم من أنه درس اللغات العربية والفارسية والفرنسية ، بينما كانت دعوة الأفغانى باللغة العربية فى الأعم الأغلب وموجهة إلى العالم الإسلامى ، وكان هو الآخر قد تعلم اللغات الأفغانية والفارسية والهندية والتركية والفرنسية . وكان نشاط نامق كمال مقصوراً على إستانبول وبعض أقاليم من الأناضول وبعض دول أوروبا الغربية حيث أمضى بضع سنوات فى لندن وباريس وڤيينا . أما الأفغانى فامتد نشاطه من أفغانستان إلى الهند وفارس ومصر والروسيا وإستانبول ولندن وباريس . وكانت له مدرسة فكرية فى مصر كان يؤمها الكثيرون من العلماء وأقطاب رجال السياسة والحكم والحرب ولكنه كان مقلداً فى مؤلفاته ، ولعله اكتفى بأحاديثه فى السياسة والاجتماع وبخطبة ومقالاته الصحفية . أما نامق كمال فقد ترجم من الفرنسية إلى التركية كتاب «روح الشرائع» للفيلسوف الفرنسى مونتسكيو ، كما ترجم إلى التركية عدداً من الكتب الفرنسية ، وألف رواية «الوطن» التى كان لها دوى هائل فى الأوساط التركية .

لهذه الأسباب تمتع الأفغانى بشهرة واسعة فى أوساط المثقفين والجماهير ، بينما لم يظفر نامق كمال بمثل هذا الصيت . ويمكن القول أن الأفغانى كان عالمياً يمثل الزعيم السياسى الذى طبقت شهرته آفاق المجتمعات العربية والإسلامية ، بينما كان نامق كمال تركياً أشبه بأستاذ الجامعة حصر معظم وقته فى الكتابة ووضع المؤلفات وترجمة أمهات الكتب من الفرنسية إلى التركية . ولكن هذا النوع من النشاط لا يبيخ حقه فى أنه كان من الرواد الأوائل فى مجال العمل من أجل تحقيق وحدة إسلامية على نحو من الأنحاء تحت زعامة الدولة العثمانية .

أسباب احتضان عبدالحميد لفكرة الجامعة الإسلامية :

تلقف السلطان عبدالحميد الثانى فكرة الجامعة الإسلامية بعد أن هبأ لها الأذهان كل من نامق كمال فى الوسط «التركي الصرف» وجمال الدين الأفغانى فى نطاق العالمين العربى والإسلامى . وأخذ السلطان على عاتقه تنفيذ الفكرة عملياً ، فهو أقدر من

هذين الداعيتين على زعامتها وقبائنها ، بصفته عامل أكبر دولة إسلامية في العالم وخليفة المسلمين .

رأى عبدالحميد في الجامعة الإسلامية سياجاً يحمي الدولة من الأخطار التي كانت تحيط بها من كل جانب أمام أطماع الروسيا ، والنمسا والمجر ، وفرنسا ، وبريطانيا . وكان السلطان يعلم تماماً أن إيطاليا تروم الاستيلاء على ولاية طرابلس الغرب ومنصرفية بنى غازى كغليمة من ولايات الدولة على غرار ما فعلت الدول الكبرى . وكانت الدولة مهددة بنظرية جلاستون زعيم حزب الأحرار في إنجلترا ، والذي تنادى إلى وجوب طرد العثمانيين من أوروبا وتأييد الشعوب البلقانية المسيحية في نضالها للتحرر من حكم إسلامي مختلف في نظره هو الحكم الإسلامى العثمانى . وكان جلاستون يحمل الحقد والبغضاء للدولة العثمانية ، على أساس أنها دولة إسلامية تحكم شعوباً أوروبية مسيحية وتسمى معاملتها ، وكان إنجلياً يفيض تعصباً ضد الإسلام ، يمتك الأتراك العثمانيين مقتاً شديداً ، وكانوا في نظره «مشكلة المسيحية والكارثة التاريخية»^(١) ، واعتقد أن نهاية دولتهم آتية عن قريب ولاريب انحلالاتها وتقسيم ممتلكاتها بين الدول المسيحية . وقد ظلت آراؤه عالقة بأذهان الساسة من مواطنيه في حياته وبعد مماته في شهر مايو - آيار - سنة ١٨٩٨ عن تسع وثمانين سنة . وكان مؤتمر برلين الأوروبى (١٨٧٨) قد مزق الأقاليم العثمانية في أوروبا إرباً إرباً بين الدول الكبرى . وكان هذا المؤتمر هو الخطوة الأولى في احتضار الدولة بعد أن مرت بفترة اضطهاد استمرت أكثر من قرن من الزمان . أما فترة الاحتضار فقد استمرت أربعين سنة (١٨٧٨-١٩١٨) . ولذلك جاءت حركة الجامعة الإسلامية في وقت متأخر . ولكن علق عليها عبدالحميد أعذب الآمال في إنقاذ الدولة وإحيائها من جديد . ومن ناحية أخرى وجدت معظم الشعوب الإسلامية أن مصالحها تتطلب الوقوف وراء أقوى وأكبر دولة إسلامية ، ولتتمسك بحركة الجامعة الإسلامية ، أو على الأقل الترحيب بها والتطلع إليها وتأييدها .

اهتمام عبدالحميد بالإبقاء على الولايات العربية في حوزة الدولة :

وموقفه المتشدد من اتفاقية قناة السويس سنة ١٨٨٨ :

وكان من الطبيعى أن يهتم السلطان عبدالحميد ، أولاً وقبل كل شيء ، بأن يستبقى في حوزة الدولة ما تبقى لها من الأقاليم العربية بعد ضياع تونس سنة ١٨٨١ ومصر سنة ١٨٨٢ ، فلا يدع إقليمياً عربياً آخر يخرج عن السيادة العثمانية ، سواء بالاستقلال ، أو بالتهام دولة أجنبية له ، لأنه إذا حدث شيء من هذا القبيل ، كان ذلك ضربة شديدة

(١) نكتور محمد مصطفى صفوت ، مصر المعاصرة ، ص ٢٢ .

لحركة الجامعة الإسلامية . وكان من مظاهر جهوده في هذا السبيل أنه امتنع عن التوقيع على الاتفاقية الخاصة بتنظيم حرية المرور في قناة السويس وتأمين سلامتها وأمنها ، بعد أن كان قد تم إعداد هذه الاتفاقية في شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٧ ، وطالب بإدخال تعديلين على نصوصها . كان التعديل الأول عسكرياً يتمثل في وضع استثناء يدخل الحكومة العثمانية الحق في عدم الالتزام بالقيود العسكرية التي تستهدف تأمين حرية الملاحة في قناة السويس والتي وردت في مشروع الاتفاقية ، عندما يكون الأمر متعلقاً بالإجراءات التي ترى الحكومة العثمانية أنه من الضروري اتخاذها لحماية ممتلكاتها الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، وأخصها الحجاز واليمن ، وهما من الولايات العثمانية في ذلك الوقت ، لأنه لو قامت ثورة مثلاً في تلك البقاع إبان انشغال الدولة العثمانية في حرب مع دولة أخرى ، فإن تطبيق اتفاقية القناة على ماتخذته الحكومة العثمانية من تدابير لقمع هذه الثورة يعرقل مجهودها الحربي إلى حد كبير . وأما التعديل الثاني فكان سياسياً يُلخص في أن تكون رئاسة لجنة القناصل ، المكلفة بمراقبة تنفيذ الاتفاقية ، لمندوب عثمانى بدلاً من عميد الهيئة السياسية في مصر .

وبارت اتصالات عديدة ومكثفة بين باريس ولندن وإستانبول . وأوضح وادنجتون الفرنسي في لندن لاسالزبوري وزير الخارجية البريطانية أن السلطان عبدالحميد هو صاحب الفكرة في استثناء القوات العثمانية المسلحة من القيود العسكرية الواردة في مشروع الاتفاقية ، في حالة قيامها بالدفاع عن الحجاز واليمن ، فهو الذي أوحى بهذه الفكرة لرجال حكومته ، وهو يعتقد أن رفض فرنسا وبريطانيا لهذا الطلب أمر يمس مركزه وكرامته في الصميم . ولذلك فهو ، في رأى الحكومة الفرنسية ، لن يتنازل عن هذا الطلب .

وبعد أخذ ورد طويلين نزلت الحكومتان الفرنسية والبريطانية على رأى السلطان ، ووافقا على إدراج الاستثناء العسكري في صلب الاتفاقية . أما التعديل السياسي فقد توصلت الدول الثلاث إلى حل وسط ، تقرر بمقتضاه أن تكون للدولة العثمانية رئاسة الاجتماع السنوي لقناصل الدول في مصر تأكيداً للسيادة العثمانية على مصر ، إذ كان عبدالحميد يثق في الوعود المكرورة من الحكومة البريطانية بأن الاحتلال البريطاني لمصر إنما هو احتلال مؤقت ، كما نص في التعديل على أنه يجوز لمندوب عن خديو مصر أن يشترك أيضاً في هذا الاجتماع ويرأسه في حالة غياب المندوب العثماني . أما الاجتماعات الطارئة التي تحدث عند كل ظرف يهدد سلامة القناة أو حرية المرور فيها ، فتكون رياستها لعميد الهيئة السياسية ، استناداً إلى أن الاجتماعات الطارئة تكون ذات صفة عاجلة ، وإن يكون في الاستطاعة تأجيل عقد الاجتماعات الطارئة ريثما يحضر

مندوب مندوب عثمانى ليرأسها .

وتنفذاً لهذا الاتفاق الثلاثى، أدرجت فى نهاية المادة العاشرة فقرة تناولت التعديل العسكرى الذى طلبه السلطان . وجاءت الفترة المزيده على النحو التالى : وومن المتفق عليه أيضاً أن أحكام السواد الأربع المذكورة لاتعمق ، بأى حال ، التدابير التى ترى الحكومة الإمبراطورية العثمانية ضرورية اتخاذها ، بقواتها الخاصة ، لضمان الدفاع عن ممتلكاتها الأخرى الواقعة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر .

“ Il est également entendu que les prescriptions des quatre quatre articles dont il s'agit ne porteront, en aucun cas, obstacle aux mesures que le Gouvernement Impérial Ottoman croira nécessaire de prendre pour assurer, par ses propres forces, la défense de ses autres possessions situées sur la côte orientale de la mer Ronge”.

كما أعيدت صياغة المادة الثامنة لتتماشى مع الحل الوسط الذى توصلت إليه الدول الثلاث . وقد نجم عن مطالبة السلطان عبد الحميد بإدخال التعديلات العسكرى والسياسى أن تأخر التوقيع على الاتفاقية سنة كاملة ، فلم يوقع عليها مندوبو الدول التسع فى إستانبول إلا فى اليوم التاسع والعشرين من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٨ ، وتم تبادل وثائق التصديق عليها بهذه العاصمة - وقتذاك - فى اليوم الثامن والعشرين من شهر ديسمبر كانون أول - سنة ١٨٨٨ .

وقد حقق هذان التعديلات إلى حد بعيد أهداف السلطان عبد الحميد بانفراد الدولة العثمانية بمركز ممتاز فى مواد الاتفاقية ، كدولة صاحبة سيادة على مصر وإمبراطورية إسلامية على رأسها سلطان يعتبر نفسه خليفة للمسلمين ويتزعم حركة الجامعة الإسلامية ، فكان هذان التعديلات انتصاراً لا يستهان به لدبلوماسية السلطان عبد الحميد (١) .

وكان السلطان عبد الحميد ، فى احتضانه فكرة الجامعة الإسلامية ، أقرب إلى الأخذ بأراء الأفغانى من أراء نامق كمال الذى كان يرى فى تحقيق دعوته الاعتماد على الوسائل الثقافية أكثر من الاعتماد على الوسائل السياسية . ولذلك كان نشاط السلطان

(١) انظر تفصيلات عن هذين التعديلات فى :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى .

(١) الدبلوماسية الفرنسية تربط بين مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة ، مرجع سبق ذكره ، ص

ص ٨٤-٨١ .

(٢) تكتل الدول لتحويل قناة السويس نكابة فى بريطانيا ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٢-٢٨ .

موجهاً لتنفيذ الدعامتين الأساسيتين اللتين نادى بهما الأفغانى وسبق أن أشرنا إليهما وهما الحج والخلافة . أما الحج فقد أبرز عبدالحميد اهتمامه العلمى بمد سكة حديد الحجاز ، وسفرد لها مكاناً فى موطن قادم . ونقصر كلامنا هنا على الخلافة .

عبدالحميد والخلافة :

اهتم عبدالحميد اهتماماً بالغاً بأن يرد إلى الخلافة هيبتها التى كانت لها فى صدر الإسلام . ويلاحظ أن سلاطين الدولة العثمانية قبل عبدالحميد قد حملوا اللقب المزدوج وهو «ال خليفة - السلطان» مدة قرنين متتصلين من الزمان على الأقل ، وكانت الدول الأوروبية بصفة عامة تفر لهم بأنهم أصحاب الحق الشرعى فى هذا اللقب . وسرى بعد قليل أن روسيا وبريطانيا وإيطاليا كانت من بين هذه الدول التى اعترفت بالاختصاصات الدينية للسلطان العثمانى ، كخليفة على سكان الولايات العثمانية التى انسلخت عن الدولة انسلاخاً سافراً ورسمياً ، أو انسلاخاً مستتراً ومقتعاً باسم الاحتلال المؤقت .

ولكن عجز السلاطين العثمانيون عن الاحتفاظ بالمكانة السامية التى استقرت فى أذهان المسلمين عن الخلافة ، فغدت بمعنى السنين مجرد مظهر دينى للتكريم والتشريف . ويلاحظ ثانياً أن الدين والحكم كانا فى الإسلام يتصلان أوثق الاتصال فى نطاق واحد هو الخلافة ، وأن الخليفة فى العصور الأولى للإسلام كان هو الحاكم ، وأن كلمتى الخليفة والحاكم كانتا مترادفتين بعضهما لبعض فى أفئدة الجماهير ، فكانت الخلافة أقوى رابطة بين الدولة العثمانية والعالم الإسلامى .

ومن هنا جاء اهتمام عبدالحميد بإحياء الخلافة وإعادة مكانتها الأولى ليتخذ منها قوة دافعة توصله إلى أغراضه السياسية . ولذلك حرص على أن يقرن اسمه باللقاب الدينية التى يقرن بها اسم الخليفة مثل أمير المؤمنين ، خادم الحرمين الشريفين ، وغير ذلك . وكان يستهدف اكتساب الطاعة والولاء لعرشه باستمالة الملايين من العناصر الإسلامية غير التركية داخل دولته ، واكتساب الاحترام والهبة ، بل ربما أكثر من رعايا بريطانيا وفرنسا والروسيا والنمسا والمجر ، وبعبارة أخرى أراد عبدالحميد أن يغير مركزه كخليفة بالاسم إلى خليفة بالنفوذ ، وهو أمر يؤدى إلى دعم مركز الدولة تجاه الدول الأوروبية^(١) . وكان يطيب للسلطان عبدالحميد أن يكون لاسم «دار الخلافة» الصدارة على الاسمين الآخرين لعاصمة دولته ، وهما إستانبول والآستانة . وكان يطيب له أيضاً أن يستخدم العامة والخاصة بين الشعوب الإسلامية اسم دار الخلافة تعميقاً للفكرة الدينية فى حركة الجامعة الإسلامية ودعمها لها . ويلاحظ أن الدستور الذى أصدره عبدالحميد فى

(١) أنطونيوس جورج : يقظة العرب إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٧-١٣٨ .

الثالث والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٧٦ قد نصت مادته الثالثة على تأكيد قيام الخلافة الإسلامية الجلية، في بيت آل عثمان . وعلى الرغم من أنه عطل الدستور في اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - ١٨٧٨ ، ظل هذا النص الدستوري مرعياً لم يحاول أحد المساس به .

وسائل عبدالحميد في دعم فكرة الخلافة في العالم الإسلامي :

بدأ عبدالحميد حركة الجامعة الإسلامية بأن أصفى على حياته الخاصة جهاراً مظاهر الزهد والتعسف . واهتم اهتماماً خاصاً بممارسة الشعائر الدينية علانية . وكان أسلافه ، أو غالبيتهم من سلاطين الفترة الثانية ، ساديين في غيهم ، مستغرقين في الشراب والنسائيات ، لا يبالون ولا يرفعون ، فأمر عبدالحميد بقمع كل مظاهر الفجور في الحريم السلطاني قمعاً شديداً . وأحاط شخصه بطماء الدين . وأنشأ معهداً لتدريب الوعاظ وكان يبعث بهم فور تخرجهم في هذا المعهد إلى أدنى وأقصى بلاد الإسلام لينشروا الأنباء الحسنة عن الخليفة ويشيدوا بورعه ويشرحوا بحركة الجامعة الإسلامية ، وإعادة أمجاد الدولة الإسلامية في صدر الإسلام ، وساعين إلى توثيق الروابط بينها وبين الدولة تحت زعامته كخليفة للمسلمين ، وأعان الصحف لتقوم بدورها في نشر الدعاية له كخليفة . وأنشأ المجلات والنشرات الدورية لتوسيع مجال النشر في الحقل الإعلامي ، كما كان يوجه الدعوات إلى زعماء المسلمين وكبار رجال الفكر الإسلامي لزيارة إستانبول ويستضيفهم فيها رغبة في إيجاد صلات معهم لدعم نفوذه في الأوساط الإسلامية في أرجاء العالم الإسلامي ، وكان يحرص على أن يقرن لفظ الخليفة مع كلمة السلطان Le Calife-Sultan .

ويتوجبه من عبدالحميد وبإشراف المشير الغازي عثمان باشا (١) ، خصصت مبالغ وفيرة جداً لإصلاح المساجد داخل الدولة وخارجها تمكيناً لها من أداء رسالتها ، وزيدت مرتبات ومعاشات علماء الدين وموظفي المساجد ، وأقيمت معاهد ومدارس إسلامية لتتحف التشييبية العثمانية المسلمة على قدم المساواة مع أبناء الرعايا غير المسلمين في الدولة . وأصدر أوامره بزيادة الاهتمام بالأعياد الإسلامية وشئ المناسبات الدينية عند حلولها على مدار السنة ، وأدخلت المواد الدينية الإسلامية واللغة العربية على مناهج الدراسة في المدارس المدنية ، وشجع استخدام اللغة العربية في المجالات الثقافية والإدارية على الرغم من أن كوجوك محمد سعيد باشا الصدر الأعظم حاول أن يثنى عبدالحميد عن رغبته في جعل اللغة العربية في مركز مساو للغة التركية كلفة رسمية للدولة . ويتوجبه من السلطان منعت الحكومة إطلاق الترجمة الأوروبية للأسماء العربية

(1) Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 260.

والتركية على أسماء الشوارع والمباني العامة . وبدأ عبدالحميد يستعيد حقه كخليفة في تعيين الموظفين الدينيين في الولايات العثمانية السابقة والتي دخلت تحت حكم الدول الأوروبية كي يحتفظ بنفوذه الديني بين جماهير المسلمين في تلك الأقاليم ، فكان يختار بنفسه القضاة والمدرسين ، ومن إليهم من علماء الدين ، ويبحث بهم إلى مصر وقبرص وبلاد القرم والبوسنة والهرسك وبلغاريا ، وكان الباب العالي يحتج ويتدخل رسمياً إذا جاءت الأنباء بوقوع مظالم على المسلمين في هذه الأقاليم (١) .

وسائل عبدالحميد في دعم فكرة الخلافة في العالم العربي :

وتماشياً مع حركة الجامعة الإسلامية ، كان عبدالحميد حريصاً على استقطاب العرب نحوه ؛ إذ كان عدد العرب من رعاياه يبلغ عشرة ملايين ونصف مليون نسمة باستثناء مصر ، فقد كان يدرك أهمية العنصر العربي ودوره الحضاري والثقافي والديني . وكان يدرك بوجه خاص أن العرب هم هدف التوسع الأوروبي الاستعماري في هذه المرحلة ، والذين تتركز عليهم الإغراءات الساعية لفصلهم عن الدولة العثمانية تمهيداً لابتلاعهم (٢) .. غمر زعماءهم وكبراءهم بفيض من عطاياء ، وقدم مناصب رفيعة ، وكان بعضها مناصب شرفية ، وتوسع في منحهم الأوسمة والهدايا . وأمر باستدعاء كثيرين من المتعلمين العرب من سوريا ولبنان ليتقلدوا مناصب قيادية في الحكومة مع تفضيلهم على الرعايا العثمانيين البلقانيين (٣) ، وخصص أموالاً وفيرة لإصلاح وزخرفة المسجد الحرام في مكة المكرمة ، والمسجد النبوي في المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى في بيت المقدس ، وهي الأماكن الرئيسية لعبادة المسلمين ، وجميعها في حوزة العرب . واهتم بإنشاء مكاتب عامة في أمهات المدن الإسلامية في الولايات العربية ، ومن أشهرها المكتبة العثمانية أسسها عبدالحميد في المدينة المنورة في مبنى الدار ، التي يظن أن عثمان بن عفان لقي مصرعه فيها . وتقع بالقرب من باب جبريل بالجهة القبالية من المسجد النبوي الشريف ، وكانت هذه الدار قبل عهد عبدالحميد ولمدة طويلة تستخدم كمقر للحجاج ، واشتهرت باسم رباط العجم ، إذ كان ينزل فيها حبيب بخاري . وقد اشترها السلطان عبدالحميد ، وحولها إلى وقف ، وأطلق عليها اسم «الكتبة العثمانية» نسبة إلى الخليفة عثمان بن عفان ، أو نسبة إلى عثمان مؤسس الدولة العثمانية (٤) .

(١) Loc cit.

(٢) محمد جلال كشك : القومية والفكر الفكري . دار الإرشاد ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ ، ص ٢١٩ .

(٣) Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 260.

(٤) نكتور عبداللطيف عبدالله بن بعيش : مكاتب الخليفة المنورة في العهد العثماني . بحث منشور في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الملك عبدالعزيز بمكة المكرمة ، العدد الثالث ، السنة الثالثة ، ١٣٩٧-١٣٩٨ هـ ، ص ٧-١٤ .

واختار عبدالحميد جماعة من الضباط والجنود العرب ، وكون منهم فرقة كاملة من فرق حرسه الخاص . وعين بعض العرب في مناصب القصر السلطاني ، ووكّل إليهم القيام على شؤونه الخاصة ، كما عهد إليهم بالإشراف على كبار موظفيه المناوئين لميول الوطنيين العرب ، وتنظيم أعمالهم وتوجيهها . ونال بعض هؤلاء العرب من الخطوة عند السلطان ما دعا رجال الحاشية ، والطامعين في المناصب ، والوزراء ، بل والصدر الأعظم نفسه ، إلى التزلف إليهم واسترضائهم ، وانتباع الطريق التي لاتخيب في تحقيق الهدف ، وهي الحصول على تأييدهم وموافقتهم على جميع الأعمال المهمة قبل تنفيذها ، حتى لقد قيل إنه إذا كان الباب العالي ومناصب الوزارة قد ظلا مجالاً يصلح فيه الأتراك العثمانيون ويجولون ، فقد سقط القصر جميعه في أيدي العرب^(١) ، وهو قول حق . وكان من أشهر هؤلاء العرب عزت باشا العابد ، الذي شق طريقه إلى عبدالحميد ، وكان عربياً من الشام ، قضى ثلاثة عشر عاماً حتى تنحيتة عن موقعه سنة ١٩٠٨ في منصب السكرتير الثاني للسلطان ، وكان أقوى موظف في الدولة ، لا يفوقه في الثراء والدهاء والنفوذ إلا سيده السلطان . وعين عبدالحميد عنده كبيراً من رجالات العرب في شتى المناصب العليا في السلكن المدني والعسكري^(٢) . ولم تقف حدود توثيق صلاته بالعرب عند هذا الحد ، بل عمد إلى مصاهرتهم ، فزوج أميرتين من أسرته من شابين عربيين ، ولحق باسم كل منهما لقب «داماد» أي صهر السلطان ، ورفعهما إلى مرتبة الوزارة ، وهما الأميران عبدالمجيد ابن الشريف علي حيدر ، وصالح بك خير الدين التونسي^(٣) . وإلى جانب العنصر العربي قرب السلطان إليه عناصر من الشراكسة والأكراد والألبانيين .

(١) أنطونيوس جورج : يقظة العرب إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٩-١٤٠ .
(٢) نذكر من بينهم على سبيل المثال الشيخ أبي الهدي الصبائي من حلب ، والشيخ محمد ظافر من طرابلس الغرب ، والشيخ سعيد من حمص ، والشيخ أحمد أسعد القيصري من المدينة المنورة . وجميعهم من علماء الدين وشيوخ الطرق الصوفية .
وشفيق بك المؤيد وميته السلطان في ديوان الدين العمومية ، وشفيق بك الكرواني وقد عينه رئيساً للضبعية ، وسليم بك ، ونجيب بك ، وكلهم من سوريا ولبنان . وكان من ياورانه الفريقان محمد باشا ، ومحبي الدين باشا ابنا الأمير عبدالقادر الجزائري . وكان من أساتذة المدارس العسكرية والمدنية المشير أركان حرب شفيق باشا وأخوه الفريق وهيب باشا ، وهما من لبنان ، وشكرى باشا الأيوبي ناظر الأعمال العسكرية ، وهو من دمشق ، والأمير الأي طبيب يوسف الدامي (أستاذ علم التشريح ، وكان من لبنان ، والدكتور إلياس مطر من بيروت ، والأستاذ سليم باز ، وكان أستاذاً في مدرسة الحقوق ، وكان في لبنان ، انظر :

دكتور زين نود الدين زين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٦-٥٧ .
محمد جميل بيه : فلسفة التاريخ العثماني ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٧٩-١٨٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

إصدار جريدة العروة الوثقى :

ومما ساعد السلطان عبدالحميد الثانى على نشر حركة الجامعة الإسلامية فى العالم الإسلامى ، صدور جريدة عربية من باريس سنة ١٨٨٤ تدعو لهذه الحركة . ففى أثناء إقامة السيد جمال الدين الأفغانى فى العاصمة الفرنسية عقب سماح الحكومة البريطانية له بمغادرة الهند بعد إخماد الثورة العربية فى مصر ، استدعى إليه الشيخ محمد عبده ، وكان منفياً فى بيروت ، فاستجاب لدعوته . وهناك أصدر جريدة «العروة الوثقى» ، بتمويل مالى من جمعية إسلامية سرية تحمل ذات الاسم : العروة الوثقى ، كانت قد تألّفت لدعوة الأمة الإسلامية إلى الاتحاد والتضامن ومقاومة الاستعمار الأوروبى وتعريف المسلمين بالأخطار المحدقة بهم وإرشادهم إلى وسائل التغلب عليها . وكانت تضم جماعة من أقطاب العالم الإسلامى فى الهند ومصر والشام وشمالى إفريقيا وغيرها ، وكان لها فروع فى مختلف أرجاء البلاد الإسلامية . وكان كل فرع يجتمع للمذاكرة ، وفى نهاية كل اجتماع يتبرع الأعضاء بقدر من المال فى صندوق صغير له ثقب ضيق ، يضع فيه كل عضو خفية ماتيسر ، حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر . ولعل هذا الباب هو ماكان ينفق منه على الجريدة والقائمين بها ، فقد كانت ترسل جزءاً كبيراً من أعدادها بالجمان «ليتداولها الأمير والحقير ، والغنى والفقر ، ومن لم يصل إلينا اسمه ، فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ، ومحل إقامته على النهج الذى يريده»^(١) . وتوزع العمل فيها بين ثلاثة أشخاص : الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، وميرزا محمد باقر . كان للأول الأفكار والمعانى ، وللثانى التحرير والصياغة ، وللثالث تعريب ماينشر فى الصحف الأجنبية خاصة بالعالم الإسلامى . وقد صدر العدد الأول منها فى اليوم الخامس عشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠١ الموافق اليوم الثالث عشر من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٨٤ .

برنامج الجريدة :

وفى هذا العدد الأول لخصت «العروة الوثقى» تحت عنوان «الجريدة ومنهجها» أسلوبها فى معالجة قضايا شعوب الأمة الإسلامية فيما يلى :

- (١) بيان الواجبات على الشرقيين والى كان القريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك مافات والاحتراس من غوائل ماهاآت . ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل التى أقسدت حالهم ، ووعت عليهم طريقهم ، وإزاحة الغطاء عن الأروهام التى حلت بهم .

- (٢) إشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح وإزالة ما حل بها من اليأس .
- (٣) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به الدول الأجنبية العريضة الجانب .
- (٤) الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموماً ، والمسلمون خصوصاً ، من التهم ، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون في المدنية ماداموا متمسكين بأصول دينهم .
- (٥) إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .
- (٦) تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأمين المنافع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التي لاتميل إلى الحيف والإجحاف بحق الشرقيين .

وفي ضوء هذا البرنامج ، تناولت جريدة العروة الوثقى في مقالاتها شتى الموضوعات ، مثل : الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والمسألة المصرية والسودانية ، وطالبت بتحرير مصر والسودان من الاحتلال البريطاني ، كما تعرضت للمسألة الهندية . وعالجت هذه الموضوعات بحماسة بالغة محاولة تحريك الشعوب وإثارة مخاوفها من الاحتلال الأجنبي . وفي مقالات العروة الوثقى يوجد كثير من عبارات الأفغانى مثل «غناء الإسلام عن القومية» وقوله «لاجنسية للمسلمين إلا في دينهم» وقوله «علمنا وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم» ، وذاع شأن الجريدة في العالم الإسلامى ، ولقيت إقبالا شديداً في مختلف الأقطار .

والى جانب الجريدة استخدم الأفغانى وسيلة أخرى ، فكان يوفد إلى الأقطار المختلفة رسلاً متخفين مزودين بالتماليم التي لا يستطيع نشرها في جريدة العروة الوثقى ، فبعث برسول إلى موسكو ، وبعث برسول آخر إلى الحجاز ، وأرسل الشيخ محمد عبده ، وهو محكوم عليه بالنفى ، إلى مصر وتونس .

وأدركت الحكومة البريطانية خطر جريدة العروة الوثقى على سياستها ونفوذها في البلاد الشرقية ، وأشار بعض محررى الجرائد الإنجليزية على حكومتهم أن تمنع دخولها إلى الهند ومصر وغيرها ، وأخذت الحكومة البريطانية برأيهم وأوعزت إلى الحكومة المصرية بفرض غرامة على كل من يحوز هذه الجريدة . وكانت الغرامة تتراوح بين خمسة جنيهات وعشرين جنيهاً . وتوقفت الجريدة بعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً في ثمانية أشهر ، وكان آخر عدد ظهر منها يحمل تاريخ السادس والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ١٣٠١ الموافق اليوم السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٤ .

ولكن ماتت جريدة العروة الوثقى فإن أثرها لم يمت .. فقد تركت بصماتها قوية في نفوس الطبقة المستنيرة في البلاد الشرقية، وبصرتهم بسوء أوضاع أوطانهم مع الاحتلال الأوروبي وضرورة تكتلهم لوقف الزحف الاستعماري الأوروبي . فكانت أول شرارة في الشرق لإلهاب الشعور بالكراهية للحكم الأجنبي .

عبدالحميد يدعو الأفغانى للإقامة في إستانبول :

وفي أثناء إقامة الأفغانى في لندن سنة ٨٩٢ ، تلقى رسالة من رسمت باشا السفير العثماني في العاصمة البريطانية يدعوه ، بتكليف من السلطان عبدالحميد ، للذهاب إلى إستانبول ، فاعتذر أولاً ، ثم ورد إليه كتاب آخر من السفير بتكرار الدعوة باسم السلطان الذي وعده بأنه سيثاوره في الإصلاح . فاستجاب لطلبه وسافر إلى إستانبول في السنة ذاتها .

ويوضح من ملايسات هذه الدعوة أن عبدالحميد استهدف منها خدمة ودعم حركة الجامعة الإسلامية التي أصبحت سياسة عليا للدولة ، فأراد عبدالحميد باستضافته فيلسوف الإسلام أن يظهر للعالم الإسلامي أنه يربى العلم والعلماء من كافة أرجاء العالم الإسلامي ، كما أن أنباء قد ترامت إلى مسامع السلطان بأن الأفغانى قد التقى ، وهو في باريس ، ببعض أعضاء جمعية تركيا الفتاة ، فراقه برنامج الجمعية ، وشجع أعضائها ، وأطلق على جماعتهم اسماً آخر هو «الجمعية الصالحة» . وخشى عبدالحميد أن ينضم الأفغانى إلى الجمعية . وهناك سبب ثالث ، وإن كان جانبياً ، هو أن ناصر الدين شاه فارس قد طلب إلى السلطان أن يبذل وساطته لدى الأفغانى كي يكف عن حملات التشهير به .

وكان من بين الأسباب التي جعلت الأفغانى يستجيب لدعوة السلطان له رغبته في أن ينسق دعوته لقيام وحدة إسلامية مع حركة الجامعة الإسلامية التي يحتضنها السلطان ، ويضع مشروعات إصلاحية في نظم الدولة العثمانية ، ومن بينها إدخال حكم الشورى فيها .

وقد لقي الأفغانى رعاية وتكريماً من عبدالحميد ، وأنزله في قصر فخم في حي «نيشان طاش» ، وهو من أفخم أحياء إستانبول ، وخصص له عربة ، وخدماء ، وقرر له مرتباً شهرياً كبيراً . وتعددت المقابلات بينهما . وتحدث معه الأفغانى في أمر الحكم العثماني . ويقول في هذا الصدد «أما ما رأيته من يقظة السلطان ، وشدة حذره ، وإعداد العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا ، وحسن نواياه ، واستعداده للنهوض بالدولة ، الذي فيه نهضة للمسلمين عموماً ، فقد دفعني إلى مد يدي له ، فبإيعته بالخلافة والمك ، عالماً

علم اليقين أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شرك أوروبا ، ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها ، إلا ببقلطة وانتباه عمومهم وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم . وفي إحدى زياراته للسلطان الذي كان يجالسه كثيراً وطويلاً اقترح الأفغانى أن يقيم نظاماً سياسياً على غرار خديوية مصر ، في ولايات الدولة ، وأن تبقى كل خديوية خاضعة للخلافة ويأمر كل خديو بأمر السلطان ، وأن تكون الحاميات العسكرية فيها عثمانية تسرع لتلبية الأمر بالحقايق بجيوش السلطان ، وأن يكون رعاياه خاضعين للخلافة . فسأله السلطان دوماذا أبقيت أيها السيد لعرش آل عثمان ؟ ، فأجابه الأفغانى «ببقي عظمة مولاي السلطان ملك هؤلاء الملوك . فإذا قويت هذه الخديويات سرعان ما تنتظم فارس وأفغانستان والهند . ويصبح الإسلام قوة رهيبة يخشى الغرب جانبها وتهاد ثائرتة على الإسلام»^(١) . ويقال إن عبد الحميد عرض عليه منصب شيخ الإسلام فاعتذر عن عدم قبوله العرض إلا إذا عدل النظام من أساسه أولاً . وأصدر الأفغانى جريدة باللغة العربية اسمها «البیان» ، كانت تنهج منهاج «العروة الوثقى» ، ولقيت انتشاراً واسعاً في تونس ومراكش والعراق وسوريا والهند وغيرها من أقاليم العالم الإسلامي .

من أخطاء عبد الحميد :

وطلب السلطان أن يترك الأفغانى مهاجمة ناصر الدين ، شاه فارس ، فاستجاب لطلبه قائلاً «إني لأجلك قد عفوت عنه» . ولكن حدث أن اغتيل الشاه سنة ١٨٩٦ على يد فارسي من تلاميذ الأفغانى وممن كانوا يزورونه في إستانبول . وروى عن القاتل أنه لما طعن الشاه قال «خذما من يد جمال الدين» ، وروى عن الأفغانى أنه لما بلغه مصرع الشاه قال كلمات تدل على الإعجاب بالقاتل . فاشتدت الريبة في الأفغانى ، وحامت حوله شبهة التحريض على قتله ، ووقعت وحشة بين الأفغانى والسلطان الذي أمر بتشديد الرقابة عليه ، إذ خاف منه على حياته . وضاع كل أمل في التعاون بينهما على الإصلاح ، وعزم على مغادرة إستانبول إلى إنجلترا . وعلم السلطان بعزمه ، فأرسل إليه رسولا يستعطفه ألا يمس كرامته وألا يلمس حماية أجنبية . ونزل الأفغانى على رغبة السلطان . ومن الأخطاء التي تسجلها على هذا السلطان أنه لم ينجح في الاستفادة من مواهب الأفغانى على النحو الذي كان ينبغي في دعم حركة الجامعة الإسلامية والنهوض بالدولة ، مما أتاح لخصومه فرصة ذهبية للتشهير بالسلطان . كما تسجل عليه أيضاً أنه استمع لوشايات ودسائس خصوم الأفغانى ، وكان على رأسهم أبو الهدى الصيادى الذي نادى حظوة كبرى عند السلطان ، وكان يكره أن يظفر أحد غيره بثقته ، فأوغر عليه

صدر السلطان^(١) . وعلى كل حال ، حلت المشكلة نفسها بمرض الأفغانى بداء السرطان فى فمه ، وتدهورت صحته ، ولغظ أنفاسه الأخيرة فى صبيحة اليوم التاسع من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٩٧ بعد مرور بضعة أيام على عملية جراحية أجراها له كبير جراحى القصر السلطانى . وتأثرت الشائعات حول سبب وفاته ، ف قيل إنها كانت وفاة جنائية نتيجة إهمال مقصود فى إجراء الجراحة وفى معالجته ، وأن السلطان أوعز إلى كبير جراحية تلميحاً بأنه يريد التخلص من الأفغانى . وتهاوى هذه الشائعة وتصير هباء منثوراً أمام حقيقة معروفة للجميع ، وهى أنه ، على الرغم من تقدم الجراحة والطب خلال الثمانين عاماً التى انقضت على وفاة الأفغانى ، ندر من أصيب بمرض السرطان وشفى منه .

(١) لا يستطيع مؤرخ أن يكتب فى تاريخ الدولة العثمانية على عهد السلطان عبدالحميد الثانى ، دون أن يفرّد صفحات أبى الهدى الصيادى . كان سورياً من حلب ، فقير المال والصب . ولكنه كان أنفاً ، دفعته المقادير إلى إستانبول ، وكان ماهراً ذكياً ، وسيم المحيا ، ماضى العزيمة ، قديراً على التغلغل فى أعماق نفوس الناس ومعركة مواطن الضعف ونقط القوة فى كل منهم . استحوذ على عقل السلطان عبدالحميد ، وربط نسب زوراً وبهتاناً بأعلى نسب . وأدخل فى روع السلطان أنه قرشى ، ماشى ، علوى ، وهو فى الطريقة رفاعى ، له الأتباع الكثيرون . وكان لا يطيق أن يناقسه منافس لدى السلطان ، واستطاع أن ينتزع نقابة الأشراف فى ولاية حلب من أسرة عبدالرحمن الكواكى . وكان لا يعبأ بالمال ، يأتيه على كثرة فينفقه ويستدين ، لأنه أخرق اليد ، ولأن عز الجاه والسلطة عنده أقوى من المال . ذاع صيته فى مصر وبلاد الشام والعراق وتونس والجزائر وغيرها وازنح لنيه الأعيان والولاة ومن إليهم ينشدون منه حل مشكلاتهم .

وكانت له أمين تأتيه بكل الأخبار ، فيستغلها أمهر استغلال . لم يقف عند الدين والولاية والصوفية ، بل امتد نفوذه إلى المسائل السياسية والإدارية والعسكرية . يحلم ، فلا حد لحلمه ، ويبطش ، فلا حد لبطشه ، أطلقت عليه عبيد الانقلاب : «مستشار السلطان» حامى العثمانيين «سيد العرب» ، «شيخ الشيوخ» ، «العارف بالله» ، «مركز الخلافة الذى ترجع إليه فى خطوبها وتعمل عليه عنه اشتداد كروها» ، سعى إليه الأمراء والأعيان والعلماء والشعراء ، وكانوا عوناً له على كل ما أراد ، يبطش بهم حين يريد البطش ، ويؤلف بهم الكتب حين تستهويه شهوة العلم ، وينظم بهم القصائد حين يريد البطش ، ويؤلف بهم الكتب حين يريد أن يتظاهر بتأصل ملكة الشعر والأدب والسماحة فيه . ويقر فى أذهان معاصريه أن الحق لا يأتى إلا عن طريقه ، وأن الباطل لا يأتى إلا عن طريق غيره . وكان له دلال كبير على السلطان عبدالحميد فينزل على رأيه ويسارع إلى استرضائه . فكان له أثر كبير فى قرارات عديدة اتخذها السلطان ، وعادت بالضرر على الدولة .

ويقال إن من أسباب الصلة الوثيقة بين السلطان عبدالحميد وأبى الهدى الصيادى أن الأخير لما أحس بكرة خصومه وحساده ، خشى أن يعمره سوء من السلطان . فالتقى مع بعض المقربين إليه على ترويج شائعة تقول إنه يحتفظ بفتوى كان قد أصدرها شيخ الإسلام السابق المرحوم «عريانى زاده» بخط يده ، وفيها بخاتمته ، وهى تقضى بخلع السلطان عبدالحميد ، وأن أبى الهدى لن ينشرها إلا إذا أحس بالخطر على نفسه . ولما وصلت هذه الشائعة إلى السلطان ، استرضى أبى الهدى ، وكان لا يريد له طلباً =

= ولم يكن له عصياً . وما زاد في نفوذه اعتقاد السلطان عبدالحميد أن أبا الهدي كان أحد المشايخ الكبار للطريقة الصوفية الرفاعية ، وكان يطمع في تأييد الجماهير الإسلامية العربية له في حركة الجامعة الإسلامية .

تعرض لسبائسه جمال الدين الأفغاني ، وعبدالله النديم وأسرعة عبدالرحمن الكواكبي ولما عفا عبدالحميد عن عبدالله النديم وأذن له في الحضور إلى إستانبول ، عينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالي بمرتب خمسة وأربعين ديناراً مجيباً في الشهر مضافة إلى الخمسة والعشرين جنياً مصرياً التي كان يتقاضاها من مصر . ولكن ما لبث أن جاهر الصيادي بالعداوة . وكان عبدالله النديم لأذع اللسان ، فلم يتحرن أن يخاصمه ويتنازله ويطلق فيه قلمه ولسانه ، ويضع سبائسه ، وشفه بوضع تقارير ملفقة للسلطان ، واتخاذها الدين ستاراً لتنفيذ أغراضه ، وادعاءه الولاية . ووضع كتاباً أسماه «المسامير» لم ينشر في حياته . وأطلق على أبي الهدي أبا الضلال ، وأطلق على والده اسم «زنطوط» وقال عنه إنه كان يمارس الدعارة في أوسع نطاق . وقال عن والدته التي لقبها بأبم مطعون إنها تزوجت «شيطاناً مريداً» فتناكلاً قتلاً ، سراقاً ختلاً ، مجرمات عاتياً» وقد أدخل النديم في شخصيات كتابه ، في المسامر الأول ، الشيطان ، ووصفه في صورة الحزين الكئيب لأنه وجد منافساً له من بنى الإنسان ، هو الصيادي ، الذي فاقه في كيد ومكره ، وسلبه نفوذه ومطوته . كما صور الشيطان في صورة المستغيث من مكر وخداع الصيادي . وبلغ أبا الهدي أمر هذا الكتاب المخطوط ، فبلغ السلطان أن فيه هجاء له ، فامر بالبحث عنه لئلا يجرى ، ثم أمر بمصاحراته أينما وجد . وكان عبدالله النديم قد أعطى الكتاب لمن يسمى «جورج كوتشي» وهو من عائلة يونانية يتكلم أهلها العربية والتركية . وكان في أول أمره ضابطاً إدارياً بمدرسة الحقوق المصرية ، ثم اتصل بالأفغاني . واستطاع جورج كوتشي أن يحتفظ بالكتاب ، ويخفيه ، ويهرب به إلى مصر ، وتم طبعه فيها .

ولم يهدأ الصيادي بال حتى رد على كتاب «المسامير» بكتاب سماه «صوت الهزار وتبعي العدوة» دافع فيه عن نفسه ، وهاجم النديم بقوله «إنه نبي» الطبع ، لايرضى له خلاً إلا كل نبي يوالى الثام ، ويعادي الكرام ، ينجح إلى التيم ، وإن عاداه ، ويجرح قلب الكريم ، وإن والاه ..» ثم هاجم مصر والمصريين بقوله «إنها دار الفاسدين ، ودار حرية فجور ، وموضع فسق غير مستور ، ومقر فضائح تضيق لها الصدور» . وكان مما زاد حق الصيادي على النديم أنه مصري ، وكان قد أصدر واحد وعشرين عاماً من علماء الأزهر فتوى ذهيباً فيها إلى أن الصيادي كافر زنديق .

وحدث أن سافر خديو مصر عباس حلمي الثاني إلى إستانبول سنة ١٨٩٤ ، وكان يفكر في الزواج من إحدى أميرات الأسرة السلطانية . وعلم الصيادي بهذا المشروع وتدخل لدى السلطان لمعه ، وأدخل في روع السلطان خطر هذا الزواج على الدولة ، لأنه إذا أنجبت كريمة مولوداً ذكرًا فلا يستطيع أن يرشحه الإنجليز للخلافة التي تنتقل إلى مصر ، وتمنى من الدولة العثمانية ، ويذكر أحمد شفيق باشا في مذكراته أن عبدالحميد اقتنع بهذا الرأي ، وأن الصيادي نجح في منع هذا الزواج .

ومن خطورة الصيادي في الدس ، يذكر الأمير شكيب أرسلان في التعليقات التي أضافها إلى كتاب «حاضر العالم الإسلامي» الذي وضعه لوثروب ستودارد ، وعبره عجاج نويهض ، أن الأفغاني وعبدالله النديم كانا يتجولان في «الكاغذ خانة» ، وهو أحد التظاهرات المشهورة في إستانبول ، فصادفاً عباس حلمي ، وسلم بعضهم على بعض ، وتماشوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك . وعلم الصيادي بأمر هذه المقابلة ، فقدم تقريراً إلى السلطان قال فيه إن الأفغاني والنديم قد توعدا مع الخديو على الاجتماع به في «الكاغذ خانة» وهناك بيعاه تحت الشجرة على أن تكون الخلافة له . ويقول الأمير أرسلان - استناداً إلى =

.....

= قول الأفغانى - إن السلطان لم يحفل بهذه الوشاية ، ولكن يرى الراقمى إنها غيرت قلب السلطان على الأفغانى ، إذ شدد السلطان الرقابة عليه .

وقد أراح الموت كلاً من عبدالله النديم والأفغانى من مكائد الصيادى وبسائسه ، فلم تطل بهما الحياة . أصيب النديم بالسل الرئوى ، واشتدت عليه العلة ، وجاز إلى ربه فى العاشر من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٩٦ ، واحتفل بجنائزته احتفالاً كبيراً ، واشترك فيها الأفغانى الذى لحقه إلى الرقيق الأعلى بعد أشهر ذات عدد .

لقد كان أبو الهدى الصيادى وصمة فى تاريخ السلطان عبدالحميد ، الذى أفسح له صدره واستمع إلى وشاياته وبسائسه ، ورفع مكانةً علياً ، على الرغم من أن الصيادى كان عنواً لكل إصلاح ، وخصيماً لكل رجل حر ، كما كان له ضمايا كثيرون فى السجون ، وفى ذل الفقر ، وفى بؤس المنفى .

عن أبى الهدى الصيادى ، انظر النبعة أو الفقرات التى كتبها كل من :

أحمد أمين : زعماء الإصلاح إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦١-٣٦٢ .

لوثرروب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٢ .

إبراهيم المولىحى : ماهناك . القاهرة ، مطبعة التقدم ، ١٨٩٦ ، ص ٢١٤-٢١٥ ، ٢٢١-٢٢٢ .

أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن . جزآن ، مطبعة مصر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ،

١٩٢٤ ، ج ٢ ، ص ١١٢ ، ١٥٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٩٢-٣٩٣ .

عبدالله النديم : المسامير .

محمد أبو الهدى الصيادى : صوت الهزار ونحيق المطار .

تذكور عبدالنعم إبراهيم النسيقى : عبدالله النديم ، وبوره فى الحركة السياسية والاجتماعية . دار الكتاب الجامعى . القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٤٧-٢٥٧ .

مدى نجاح حركة الجامعة الإسلامية

مظاهر نجاح الحركة :

لقيت حركة الجامعة الإسلامية نجاحاً تأرجح صعوداً وهبوطاً ، قوة وضعفاً ، على عهد السلطان عبدالحميد الثاني وفي الفترة التي تلت عزله سنة ١٩٠٩ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، إذ اشتدت مظاهرها في الحرب العثمانية الإيطالية (١٩١١-١٩١٢) إبان الغزو الإيطالي لولاية طرابلس الغرب ومتصرفية برقة ، ثم طفت على السطح في بعض مراحل الحرب العالمية الأولى كما سنوضح ذلك في سياق هذا الفصل . ولذلك فمن الخطأ القول إن حركة الجامعة الإسلامية قد أخفقت إخفاقاً كلياً منذ أن تنادى إليها السلطان عبدالحميد ، حتى وضعت تلك الحرب العالمية أوزارها في أواخر سنة ١٩١٨ .

ومن المبادئ المقررة في مناهج البحث التاريخي ألا يصدر الباحث في الدراسات التاريخية أحكاماً عامة في مسائل يتعرض لها دون تقصي الحقائق من جميع جوانب المسألة التي يبحثها ، وألا ينساق وراء أحكام عامة سبق صدورها واستقرت في أذهان الأجيال المتعاقبة وأصبحت حقائق لا تقبل نقاشاً . مثل هذا الباحث الذي يزلق في أحد هذين المحظورين ، أو هما معاً ، يرمى بالجهالة أو المحاباة أو التحامل تبعاً للرأى الذي يصدره . ونبدأ هنا بعرض سريع لمظاهر النجاح الجزئي الذي حققه السلطان عبدالحميد في حركة الجامعة الإسلامية ، ثم نقتبعه بالأسباب التي أعاققت ترسيخها في الدولة العثمانية وسائر أنحاء العالم الإسلامي .

أولاً : كان روستان Roustin قنصل فرنسا العام في تونس يحذر حكومته من أخطار حركة الجامعة الإسلامية على فرنسا . وذكر أن مبعوثي السلطان يبدون نشاطاً واسعاً ومكثفاً في برقة وطرابلس ، وأبدى تخوفه من أن يكون لهذا النشاط أثر كبير في سير الحوادث في تونس ، في الوقت الذي يعد فيه جيل فرى Jules Ferry رئيس الوزارة الفرنسية «الحملة التأديبية» كما سماها فرى لغزو تونس . كما أبدى روستان تخوفه من أصداء حركة الجامعة الإسلامية على الجزائر وعلى مركز الفرنسيين فيها (١) .

ثانياً : أثير على بساط البحث في مؤتمر الآستانة الذي عقد في ٢٣ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٨٢ لبحث تطورات الثورة العربية ، موضوع إرسال قوات عثمانية إلى مصر لتهديد

(١) نكتو صلاح العقاد : المغرب العربي إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٨ .

الحالة فيها . وقد اعترض ، من حيث المبدأ ، الوفد الفرنسى على إرسال قوات عثمانية إلى مصر خشية ازدياد نفوذ الإسلام فى شمالى إفريقيا ، وبالتالي دعم حركة الجامعة الإسلامية ، وهما أمران يعلان على إضعاف مركز فرنسا فى الجزائر وتونس وحوض البحر المتوسط (١) ، كما دارت مناقشات ساخنة حول هذا الموضوع فى مجلس النواب الفرنسى بجلستى ٢ من شهر يونيو - حزيران - ١٨ من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٨٢ ، اشترك فيها جامبتا Gaumbta السياسى الفرنسى المشهور ، وعدد من أعضاء المجلس نددوا فيها بالتدخل العسكرى للدولة العثمانية ، إذ يتيح لها أن ت رابط بقواتها على ضفاف النيل والساحل الشمالى لمصر ، ووصفوه بأنه يحمل تهديدات لأمن وسلامة الممتلكات الفرنسية فى شمالى إفريقيا حيث يسكنها قوم يسهل تحريكهم بإذاعة أنباء تشيد بكريالهم وتمتدح آمالهم فى الحرية ولم يسأمو قط من ترديدها . كما نشرت المجلة السياسية والأدبية Revue Politique et Littéraire مقالاً فى هذه المعانى ، فى عهدها للصادر فى اليوم الخامس عشر من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٨٢ (٢) .

ثالثاً : يقاس مدى نجاح هذه لحركة بالاهتمام الواسع للنطاق فى كافة أرجاء العالم الإسلامى بأبناء الحرب العثمانية اليونانية التى نشبت فى سنة ١٨٩٧ ، كان مثل هذا الحادث يمر قبل حركة للجامعة الإسلامية دون أن يثير اهتماماً فى الرأى العام الإسلامى فى أنحاء العالم أما فى أعقاب هذه الحرب فقد أقيمت احتفالات فى نطاق واسع فى بلاد إسلامية خارج نطاق الدولة العثمانية ابتهاجاً بالانتصارات الإسلامية العثمانية ، ونظرت إليها على أنها انتصار للإسلام ، وتجسيد لقوته ، ومن ثم شجنت سكان هذه البلاد بزاد ضخ من الثقة بأنفسهم والاعتداد بإمكانياتهم للتخلص من السيطرة الأوروبية المسيحية ، فبعد احتفالات للنصر قامت للجامهير الإسلامية فى الهند ، وإندونيسيا ، وتركستان ومدغشقر ، وبلاد الجزائر ، وغيرها ، بانتفاضات وإضرابات تطالب التحرر من الحكم الأوروبى المسيحي الذى جثا عليها (٣) .

رابعاً : قام وإلهم الثانى إمبراطور ألمانيا بزيارة رسمية للسلطان عبدالحميد فى إستانبول فى خريف سنة ١٨٩٨ ، ثم اتجه إلى القدس قدسشق ، حيث وضع إكليلاً من الزهور على قبر صلاح الدين ، وأمر بصنع مصباح من الفضة للصريح هدية شخصية منه بوصفه أحد المعجبين إعجاباً شديداً بالبطل المسلم . وألقى خطبة مثيرة فى دمشق جاء فيها

(1) Sayed Kamel., La Conférence de Constantinople et la Question Egyptienne en 1882. Paris, 1913, pp. 188-191.

(2) Loc. cit.

(3) Lewis B., The Emergence etc.; op. cit., p. 343.

«فليطمئن صاحب العظمة السلطان ، وليطمئن معه الثلاثمائة مليون من المسلمين الذين يجولونه لأنه الخليفة ، إلى أنهم سيجدون في إمبراطور ألمانيا الصديق الدائم لهم» (١) . ولكن كانت زيارة هذا الإمبراطور قد استهدفت غرضاً رئيسياً هو الحصول على فرمان من السلطان ، عبد الحميد بإنشاء طريق ب. ب. ب. ، الحديدى (٢) ، فإن هذه الزيارة الرسمية جاء فى أثنائها اعتراف ، له وزنه السياسى ، من إمبراطور ألمانيا بصفته عاهل أقوى دولة فى أوروبا فى ذلك الوقت ، بحركة الجامعة الإسلامية . وكان من مظاهر هذا الاعتراف :

(١) تصريحه العلنى بأن السلطان عبد الحميد هو خليفة العالم الإسلامى ، بما كان يضمه هذا العالم وقتذاك من ثلاثمائة مليون مسلم .

(٢) إشادته بصلاح الدين ، فأعاد إلى أذهان المسلمين تكرى بطل من أبطال التاريخ الإسلامى رفع شأن الإسلام والمسلمين ، ودعم وحدة الصف الإسلامى ، وتصدى للجحافل الأوروبية للمسيحية فى الحروب الصليبية ، وانتصر عليها . وكان من برنامج حركة الجامعة الإسلامية إبراز الأمجاد ، التى حققها المسلمون فى عصور وحتهم .

وقد رحب السلطان عبد الحميد بما أعلنه إمبراطور ألمانيا من شعور طيب نحو السلطان الخليفة وبموثته للإسلام والمسلمين ، وتباهى بتصريحات وتصرفات إمبراطور ألمانيا من أجل المنافع التى تعود عليه منها واستغلها فى الدعوة لنفسه ، وفى ترسيخ حركة الجامعة الإسلامية ، واتخاذها وسيلة دبلوماسية يعتمد عليها . وقد أساءت بعض الدول الأوروبية الكبرى ، وبخاصة بريطانيا ، من للتصريحات التى أدلى بها إمبراطور ألمانيا فى أثناء زيارته ، فزعمت أن ألمانيا تريد أن تتخذ من حركة الجامعة الإسلامية مطية لنشر نفوذها فى الدولة العثمانية (٣) . وعلق موظف أمريكى ذو ميول صهيونية فاضحة على زيارة إمبراطور ألمانيا للسلطان عبد الحميد تعليقاً يفيض حقداً وسفاهة وتشبيهاً بعبد الحميد ، وجاء فى هذا التعليق «وقد تمت الزيارة فى وقت لم يكن أحد من الملوك يرضى أن يلوث نفسه بزيارة السلطان الأحمر» (٤) .

خامساً : كان من مظاهر النجاح الجزئى الذى حققته حركة الجامعة الإسلامية خشية حكومات الدول الأوروبية الكبرى - باستثناء ألمانيا - من هذه الحركة ، ونظرتها إليها نظرة معارضة جدية ، وهجومها اللطيف الذى شلته عليها فى مجلس العموم البريطانى وفى

(١) أنطونينوس جورج ، يقظة العرب إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٦-٧ .

(٢) سنتمرض لموضوع هذا الطريق فى فصل قائم .

(3) Pinon René; L'Europe et L'Emire Ottoman. Paris, 1917, p. 388.

(٤) محمد جلال كشك : القومية والفرز الفكرى ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ ، دار الإرشاد ببيروت ، ص ٢٢٢ .

الصحافة وفي شتى الهيئات في بريطانيا وفرنسا مما سبق لذا شرحه . ونضيف هنا أن الدول الأوروبية كانت تنظر إلى كل زائر مسلم إلى إسطنبول من خارج الدولة العثمانية، وإلى كل زائر علماني للمسلمين في ممتلكات هذه الدول الأوروبية نظرتها إلى جاسوس خطير يهدد سلامة هذه الممتلكات (١). ومما هو جدير بالذكر أن بريطانيا وفرنسا كانتا تخشيان أن تتبلى حكومة العهد الجديد في الدولة العثمانية بعد انقلاب سنة ١٩٠٨ ثم عزل عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ، حركة الجامعة الإسلامية . وكان أكثر ما كانتا تخشيانه من حركة الجامعة الإسلامية تصورهما أن ألمانيا كانت تمسك بخيوطها فتحررها لمعاكسة بريطانيا وفرنسا ؛ لأنه لم تكن في مستعمرات ألمانيا جماعات من المسلمين ، بينما كان معظم سكان المستعمرات البريطانية والفرنسية من أتباع الدين الإسلامي (٢).

ساساً : توقف الزحف الاستعماري الأوروبي العسكري على الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية بعد الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ حتى نهاية حكم عبد الحميد . وفي رأى الأستاذ شو Shaw أن هذا التوقف يرجع جزئياً على الأقل إلى نجاح السلطان عبد الحميد في استخدام حركة الجامعة الإسلامية ، سلاحاً يدفع به غائلة الغزو الأوروبي المسلح على ممتلكاته ، فتحولت المنافسات الدولية من تنافس حربي إلى تنافس اقتصادي طوال السنوات ، التي تبقت من الحكم الطويل للسلطان عبد الحميد .

“The fact that European aggression against the Ottomans mainly stopped after the British occupation of Egypt and that the imperialist rivalries of the Powers were diverted from military to economic competition during the remaining years of Abdulhamid's long reign can be attributed at least partly to the success of his use of Islam as a weapon to ward off the aggressors.”. (٣)

سابعاً : يقول المستشرق والمؤرخ الإنجليزي الأستاذ جب هاملتون Sir Gibb Hamilton إن المثال الأعلى للفكرة التي قامت عليها حركة الجامعة الإسلامية كان مغرباً جداً . واستطاعت هذه الحركة أن توقف شعوراً يعطى عليها في كل جزء من أجزاء العالم الإسلامي . وكان من نتائجها إيقاف الشعور بالوحدة الإسلامية من جديد وتقويته إلى

(1) Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 260.

(٢) توفيق على برو ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٨ نقلاً عن :

(3) Correspondance d'Orient, Revue Economique, Politique et Littéraire. Directeur George Sanné, Paris, No. 10 en date du 15 Février, 1909, p. 315.

حد لم يسبق له مثول حتى ذلك الوقت (١) .

استفادة الاتحاديين من حركة الجامعة إبان الحرب الطرابلسية :

كان من المتوقع ألا تصر حركة الجامعة الإسلامية بعد السلطان عبد الحميد ، إذ كانت مرتبطة بشخصيته ، فهو الذى بسط عليها رعايته وبذل الأموال والجهود فى سبيل نشرها ، واتخذ منها سياسة رسمية للدولة . ولكن لما وقع الانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ وتلاه الانقلاب العسكرى سنة ١٩٠٩ ، وتم عزله نتيجة لهذا الانقلاب لم تفقر حركة الجامعة الإسلامية ، بل استمرت قوية كامدة فى نفوس أفراد العالم الإسلامى ، بفضل قوة الدفع التى كانت تظهر بها أيام هذا السلطان ، فكانت هذه الحركة تطفو على السطح فى بعض الأزمات التى كان يشعر فيها رجال الاتحاد والترقى ، أنهم فى حاجة إلى استغلالها لدعهم مركزهم فى مواجهة عدوان استعمارى يواجهه النظام الجديد على ولاية عربية ابتغاء توحيد أو جمع صفوف أكبر عدد ممكن من أفراد العالم الإسلامى ، يقفون إلى جانب الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة واعتبار السلطان العثمانى محمد رشاد الخامس خليفة المسلمين . فما أن تعرضت ولايتا طرابلس الغرب و برقة للعدوان الإيطالى فى أواخر شهر سبتمبر - أيلول - سنة ٩١١ ، حتى ارتفعت الأصوات فى البلاد العربية والإسلامية ، تطالب بضرورة تقديم المساعدات إلى دولة الخلافة للوقوف فى وجه العدوان الأوروبى المسيحى المسلح السافر على بلاد إسلامية . ويلاحظ أن تلكم الولايتين العريقتين الإسلاميتين العثمانيتين كانتا آخر إقليم عربى إسلامى ظل حتى ذلك الوقت بمنأى عن الاستعمار الأوروبى فى شمالى إفريقيا . ومنذ سنة ١٩١١ أصبحت جميع أقاليم هذا الساحل الشمالى ، ابتداء من مراكش غرباً إلى مصر شرقاً ، موزعة بين فرنسا وبريطانيا ، وإسبانيا ، وإيطاليا .

تأييد إمام اليمن وأمير نجد :

وقد أخذ التأييد الإسلامى والعربى صوراً وأشكالاً شتى من تأييد أدبى إلى تأييد مادى . وكان من مظاهر التأييد الأدبى برقيات تلقفتها حكومة إسطنبول ، كان من بينها برقية أرسلها الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن - وكان قد تم عقد صلح دعان بينه وبين الدولة العثمانية سنة ١٩١١ - وجاء فى هذه البرقية بسم الله الرحمن الرحيم - علمت أن بعض الأجانب يهاجمون الحديدية وطرابلس الغرب ، فإننى مستعد للقيام بمائة ألف جندى تحت قيادتى بين محارب ومتطوع . وإننى أقدم نفسى فداء فى سبيل الله (٢) . كما أرسل عبدالعزيز آل سعود أمير نجد برقية مؤرخة فى الخامس من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩١١ إلى الصدر الأعظم

(١) جب هاملتون وآخرون : وجهة الإسلام . نظرة فى الحركات الحديثة فى العالم الإسلامى . ترجمة نكتور

محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص ٣١ .

(٢) سليم قبيص : تاريخ الحرب العثمانية الطرابلسية ، مطبعة التقدم ، القاهرة ، ١٩١٣ ج ١ : ص ٢٨ .

قال فيها «إن صداقتى لمقام الخلافة العظمى وخدمتى للحكومة السنية العثمانية معروفة لدى دولكم وعند كل رجال الحكومة . وإن مقاطعة نجد تفتخر اليوم من كل جوارحها أنها مقاطعة عثمانية . وقد ألقنا اعتداء الإيطاليين للطغاة أعداء العثمانيين على تراب وطننا العثماني الطاهر . وأنا ، وجميع القبائل التى تحت أمرى ، مستعدون للزحف فى ظل الأعلام العثمانية إلى حيث تأمرنا الدولة العثمانية . وها نحن ننظر هذه الأوامر بفارغ الصبر» (١) .

وتمثل التأييد الأدبي أيضاً فى مقالات ظهرت فى الصحافة العربية الإسلامية تندد بالعدوان الإيطالى ، وقصائد جانت بها قرائح الشعراء تثير الهممة فى نفوس المسلمين (٢) ، وتناشد الأترياء بذل الأموال لمساعدة المجاهدين وتطلب من الأشداء الإسهام فى الحرب لصد الغزاة الإيطاليين ، كما طافت فى شوارع المدن الإسلامية مظاهرات تدعو إلى مناصرة دولة الخلافة . ووصلت أمداء هذه المظاهرات إلى جزيرة مورسيوش فى المحيط الهندى ؛ إذ نظم المسلمون هناك مظاهرات شعبية تأييداً للسلطان العثماني خليفة المسلمين . أما التأييد المادى فتعددت وسائله ، وكان من بينها جمع التبرعات المالية والعينية للمجاهدين فى تلكم الولاياتين ، وتهريب الأسلحة والذخائر إليهم ، وتسلل المتطوعين لشد أزهرهم ، وتشكيل لجان الإغاثة لمساعدة المنكوبين وإنشاء مستشفيات ميدان ، وإقامة أسواق خيرية خصص إيرادها لجمع التبرعات ، وتأسست فى سنة ١٩١١ جمعية الهلال الأحمر المصرى برئاسة الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد . وقد شملت حركة موازنة للمجاهدين فى طرابلس الغرب وبرة كلا من مصر والهند وقطر والبحرين وغيرها . أما مصر فقد سبق أن ذكرنا طرفاً عن مساعداتها (٣) .

تأييد الهند :

أما عن الهند .. فقد أوضحت جريدة المؤيد فى مقال نشرته بعنوان «وقوف المسلمين مع طرابلس» موقف المسلمين فى الهند والبذل المالى الذى قدموه إلى المجاهدين . وقد جاء فى هذا المقال «افتتح حضرة الفاضل محمد إن شاء الله صاحب جريدة «وطن» التى تصدر فى لاهور الهند اكتباً إلى حضرة العلامة الشهير أمير على الهندى فى لوندرة لتوصيلها إلى محلها بواسطة ، والربيع يرسل إلى جمعية الهلال الأحمر العثمانية فى الآستانة ، والربيع الآخر إلى جمعية الهلال الأحمر المصرية فى القاهرة . وقد أرسل حضرته قبل الآن مائة جنيه إلى الأمير على والخمسين إلى الآستانة ، كما أرسل خمسين جنيهًا إنجليزيًا إلى جمعية الهلال الأحمر المصرية . وسنوالى إرسال مايجتمع لديه من الإعانات على هذا الترتيب . فنشكر لحضرته وإخواننا مسلمى الهند هذه الهممة للشعاء ، التى يبرهنون عليها فى كل فرصة وكلما سحت

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٢) كان من هؤلاء الشعراء : حافظ إبراهيم ، فؤاد الخطيب ، أحمد كاشف .

(٣) انظر فى هذه الدراسة ، ج ٢ ، الفصل السادس ، الحاشية رقم ١ .

الحاجة . بارك الله بهمهم وأجزل ثوابهم (١) .

تأييد قطر والبحرين :

أما عن قطر والبحرين .. فقد نشرت صحيفة المريد مقالاً بعنوان «موازنة العرب في ولاية قطر والبحرين لإخوانهم المجاهدين في طرابلس، أشادت فيه بشهامة المسلمين والعرب ووقوفهم إلى جانب الدولة العثمانية في حريها ضد الإيطاليين . ثم ذكر المقال أنه «ورد على سعادة رئيس الهلال الأحمر من سعادة الوجه الشيخ مقبل بن عبدالرحمن الذكرير رئيس لجنة الاكتتابات العامة في البحرين للكتاب التالي خاصاً بهذا الموضوع وبما جمعه لجنته وما ينتظر أن تجمعه :

بسم الله الرحمن الرحيم

«من البحرين ٢٨ ربيع آخر ١٣٣٠ - ١٧ أبريل ١٩١٢

«سلام واحترام لمقامكم العالي ، ثم نعرف جنابكم أنه قد وصلت من سمو الشيخ قاسم الثاني أمير قطر ورئس عشائرها عشرون ألف روية إعانة منه ومن جماعته أهالي قطر لمجاهدى طرابلس الغرب ، ويتاريخه صدرنا هذا المبلغ لرئيس اللجنة العليا سمو الأمير الجليل عمر طوسون باشا ، بعضه منا مباشرة ، والبعض بواسطة أولادنا عن طريق البصرة . وقد خصصنا من هذا المبلغ ثلاثة آلاف روية للهلال الأحمر وعرفنا دولة الأمير المولى إليه بذلك ، تجدون من باطن هذا حواله على الأمير المذكور . الرجا من سعادتكم استلامها وإفادتنا وإفادة سمو الشيخ قاسم الثاني بوصوله ليطمئن خاطر .

«ونحن الآن قد فتحنا باب الاكتتاب بهذه البلاد لإعانة مجاهدى طرابلس الغرب والمؤمل أن نحصل على مبلغ ثلاثين ألف روية ، وسنخصص منها جانباً للهلال الأحمر . ويحول الله تعالى نعيد جميع المبلغ إليكم إما عن طريق البصرة ، أو عن طريق الهند . ونسأل الله العلى الأعلى أن يوفق المسلمين إلى ما فيه صلاح أمورهم (٢) .

ولكن هذا التأييد بنوعيه الأدبي والمادى كان تأييداً شعبياً انبثق عن الشعوب الإسلامية والعربية ، ولم يكن تأييداً حكومياً ، لأن الغالبية العظمى من البلاد الإسلامية والعربية كانت قد وقعت تحت الاستعمار الأوروبى ، الذى حال بين حكوماتها وبين تقديم مساعدات حربية أو قوات مسلحة إلى طرابلس الغرب وبقية . وكان موقف الحكومة المصرية التى كانت تأتمر فى ذلك الوقت بأوامر لورد كيتشر ، المعتمد البريطانى فى مصر ، مثلاً صارخاً لتعنت الاستعمار

(١) جريدة المريد العدد ٦٦٥ ، الصادر فى ١٠ من أبريل - نيسان - سنة ١٩١٢ .

(٢) جريدة المريد العدد ٦٧٢ الصادر فى يوم الثلاثاء ٧ مايو - أيار - سنة ١٩١٢ .

الأوروبي حيال الدولة العثمانية . وقعت للحكومة المصرية بترك الشعب المصرى يعبر إلى حد ما عن عاطفته الإسلامية نحو إخوانه المجاهدين .

خرج موقف أوروبا :

ومع ذلك فقد توالى الاحتجاجات من الهيئات الشعبية الإسلامية فى الهند وغيرها حتى من الصين ؛ مما أزعج الدوائر السياسية فى بريطانيا وفرنسا من التعاطف الشعبى فى البلاد الإسلامية والعربية مع الدولة العثمانية . وقد عبر جبرائيل أنوتو Gabriel Hanotaux وزير خارجية فرنسا سابقاً عن هذا القلق بأن إيطاليا فى هجومها على طرابلس الغرب وبرقة قد جنت على الدول الأوروبية جنائية كبرى لا يعرف أحد مداها . وقد طلبت الحكومة البريطانية من الحكومة الإيطالية الإسراع بإنهاء الحرب مع الدولة العثمانية تجنباً لإثارة مزيد من مشاعر السخط فى أنحاء العالم الإسلامى ، الذى يخضع جزء كبير منه للحكم البريطانى . وكان أحد زعماء المسلمين فى الهند قد طالب الحكومة البريطانية بأن تكف عن سياستها العدائية نحو الدولة العثمانية ؛ تفادياً لفرقة ملايين من المسلمين (١) .

استغلال الاتحاديين حركة الجامعة فى الحرب العالمية الأولى :

لما زج رجال الاتحاد والترقى بالدولة العثمانية فى أتون الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، تمسحوا بحركة الجامعة الإسلامية فى الشهر الأول لدخول الدولة الحرب ، واستصدروا ثلاث فتاوى من الخليفة ومن شيخ الإسلام ومن كبار علماء الدين قالوا فيها إن الحرب التى تخوضها الدولة إنما هى حرب دينية تستهدف تحرير المسلمين المستعبدين والدفاع عن الدولة ، وإن النصارى من أعداء الإسلام يرومون تدمير الدولة وتحطيم الإسلام تأسيساً على أن الدولة العثمانية هى دولة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة ودرع الإسلام ، وقالوا فى هذه المنشورات إن الجهاد الدينى هو فرض عين على كل مسلم بالغ وقادر ، وطلبوا من المسلمين فى جميع بقاع الأرض الاشتراك فى الدفاع عن الإسلام وعن الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف . ثم قاموا بحرب منشورات دينية موجهة إلى مصر والسودان والهند وفارس وأفغانستان وغيرها ، وأوفدوا بعثات دينية إلى أرجاء العالم الإسلامى إلى غير ذلك من وسائل سبق أن تعرضنا لها (٢) .

وفى بعض مراحل الحرب العالمية الأولى ، اهتم الاتحاديون بإطلاق اسم حركة الجامعة الإسلامية على بعض التشكيلات العسكرية والخطط الحربية . وسنرجى التعرض لها إلى فصل

(١) لوثراب ستوبارد : حاضر العالم الإسلامى : ترجمة عجاج نويهض ، وتعليق الأمير شكيب أرسلان ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣١٢-٣١٣ .

(٢) انظر فى هذه الدراسة ج ١ ، الفصل الثالث .

قادم لأنها أكثر التصاقاً بحكم الطغاة العسكريين .

تعتبر حركة الجامعة الإسلامية :

توافرت عدة أسباب أعاققت حركة الجامعة الإسلامية عن ترسيخ جذورها في العالم الإسلامي وعن أن تمضي قدماً في مسيرتها .

ونذكر من هذه الأسباب :

أولاً : كان العالم الإسلامي في مجموعة في حالة نكس وتخلف وركود وجهالة . وكان من الصعوبة ، إن لم يكن في حكم الاستحالة ، أن يجمع قاداته وزعماءه على كلمة سواء للوقوف صفاً متراصاً واحداً أمام المؤامرات والأطماع الاستعمارية الأوروبية ، فضلاً عن نزعاتهم الشخصية والإقليمية وأحقادهم وخلافاتهم الطائفية .

ثانياً : لم تكن قد عرفت بعد وسائل الإعلام الحديثة والرهيبه معاً المستخدمة الآن (سنة ١٩٧٩) والتي تصل إلى الفياقي والقفار ، وتدخل كل بيت وكل كوخ . ولم يكن في مقدور الدعاة والوعاظ ومن إليهم من المبعوثين الذين أرسلهم عبدالحميد إلى أرجاء العالم الإسلامي في آسيا وإفريقية أن يصلوا إلى جميع للتجمعات الجماهيرية الإسلامية ، المنتشرة في أقاليم هاتين القارتين .

ثالثاً : كانت قبضة الدول الاستعمارية الأوروبية على الأقاليم الإسلامية للخاصة لها قوية ؛ بحيث لم تكن تسمح بحركات سياسية مناهضة لها ، أو حتى ازدهار تيارات فكرية تشجع هذا الاتجاه الوجدوى . وحسبنا دليلاً على ذلك أن بريطانيا ضيقّت الخناق على جريدة العروة الوثقى ، التي كان يصدرها في باريس جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، وميرزا محمد باقر الشهير بابراهيم جان معطر . ومنعت الحكومة البريطانية دخولها مصر والهند ، وتوقفت عن الظهور بعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً ، وانطفاً قيس كان يضىء العقول .

انقضاء حركة الجامعة الإسلامية :

بينما كانت حركة الجامعة تتعثر في مسيرتها جددت عدة عوامل أدت في النهاية إلى انقضاءها ، ومن بين هذه العوامل :

العامل الأول : الحركة الطورانية Pan Turanianism التي تعصب لها رجال الاتحاد والترقى واتخذوها دعامة من دعائم سياستهم بعد أن انتهى إليهم حكم الدولة . وكانت هذه الحركة تستمد أسسها من تجديد الإيمان بانتساب الشعب التركي العثماني إلى أصول طورانية ، فأدى ذلك إلى الاعتقاد بأن السبيل لبعث الجنس التركي هي في اتحاده من جديد بالشعوب ، التي تمت إليه بصلة القرى من السلالة

الطورانية . وكان أكثر هذه الشعوب تحت الحكم الروسى . وعلى الرغم من أن الاتحاديين لم يعتقدوا عقيدة «الوحدة الطورانية الشاملة» بكل ماينتج عنها من مشكلات تحرير تلك الشعوب وضمها ، أثرت الحركة الطورانية فى الاتحاديين والشعب التركى العثمانى فى مجموعه تأثيراً قوياً ، وانتشرت الدعوة إلى تجديد العنصرية التركية ، وإبرازها لروابط القرى بين الأتراك العثمانيين فى الدولة العثمانية وإخوانهم فى الجنس فى آسيا الوسطى ^(٢١) ، وأصبح الرأى الشائع لدى الأتراك العثمانيين هو أن الحركة الطورانية هى الملاذ الوحيد لخلاصهم وسعادتهم ، ومن ثم استهدفت الحركة الطورانية إحياء مجد الأتراك الأوائل وربط الأتراك العثمانيين بتراثهم الحضارى التركى الأصيل ، وتخليص الفكر التركى العثمانى من المؤثرات الخارجية التى دخلت عليه ، ولاسيما المؤثرات الفارسية والعربية .

وقد لقيت الحركة الطورانية ترحاباً عاماً ، وأصبحت لفظة «طوران» من أكثر الألفاظ مثالية واحتراماً وشعبية . وغدت تستخدم للتعبير عن أسمى معانى القومية التركية . وخصصت جريدة «طنين» التى كانت تنطق بلسان الحكومة بعد الحرب البلقانية ، صفحة أدبية تحت عنوان «مذكرات طورانى» ، وأصبحت المطاعم والمقاهى ومحلات الحلاقين تحمل هذا الاسم النموذجى الجديد ، كما غير كثير من أفراد الشعب التركى العثمانى أسماءهم وألقابهم لتصبح مسايرة للأفكار الطورانية الجديدة . وأعطت خالدة أديب ، وهى أشهر كاتبة تركية عثمانية فى ذلك الوقت ، هذا الاسم عنواناً لأحد مؤلفاتها الأدبية ^(٢٢) . ولم يكتف كثير من الأتراك العثمانيين بمقتهم لبقية القوميات الأخرى الداخلية فى الدولة ، وبخاصة القومية العربية ، واشتدت قبضة الاتحاديين على الولايات العربية . وازدادت هذه القبضة عنفاً نتيجة الحركة الطورانية فيما يعرف بحركة التتريك Turkification أى تتركى العرب والألبان وغيرهم من العناصر الخاضعة للدولة ^(٢٣) يجعل اللغة التركية اللغة الرسمية فى المحاكم والمدارس وسائر الدواوين الإقليمية . وفى رأى بعض المؤرخين والباحثين أثبت رجال الاتحاد والتتريك أنهم لم يكونوا أكفاء لحمل الرسالة التى ندبوا أنفسهم لها ، وهى تحقيق المساواة بين جميع عناصر الدولة ، فقد تخلوا عن هذا المبدأ وألقوه جانبا ، واستغلوا نفوذهم بأساليب استغزازية ثلثت على حماقتهم لترجيح المصلحة

(٢١) أنطونيوس چورج : يقظة العرب إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٢ .

(٢٢) توفيق على بىز : العرب والتتريك إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨٢ .

(٢٣) أنطونيوس چورج : يقظة العرب إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨١-١٨٢ .

التركية والإصرار بإخوانهم رعايا الدولة الآخرين وحكم الدولة على أساس السيادة الجنسية للعنصر التركي^(١)، أى بناء الدولة والمجتمع - على عودهم - على أساس القومية التركية دون بقية القوميات التى يجب أن تكون تابعة ، وتخضع للعنصر التركى خضوع التابع للمتبوع^(٢) . وبدت للعرب حقيقتان ، أولاهما أن الأتراك العثمانيين قد قطعوا صلاتهم باللغة العربية والتاريخ الإسلامى والتراث العربى للتحلق بتاريخ الأتراك العثمانيين وتراثهم القديم . وثانيتهما أن الحركة الطورانية ليست إلا دعوة سافرة لسيادة الجنس التركى فى الدولة ، وكجبت أو طمس النزعات القومية المتعددة فى الدولة . فكانت هذه الحركة الطورانية من أهم أسباب انصراف رعايا الدولة العرب المسلمين والألبان وغيرهم عن حركة الجامعة الإسلامية ، التى كانت تدعو إليها حكومة إستانبول .

العامل الثانى : قدمت بريطانيا منذ سنة ١٩١٥ الوعود إلى الحسين بن على أمير مكة وشريفها بتوحيد البلاد العربية الخاضعة للدولة العثمانية فى الشرق الآسيوى واستقلالها وإقامة خلافة عربية من بيت عربى صميم فى مقابل إعلانه الثورة على الدولة العثمانية . وانساق الشريف الحسين وراء هذه الوعود ، ونجح فى تحريك ثورة عربية . وعلى الرغم من أن بريطانيا خرجت منتصرة هى وحليفاتها من الحرب العالمية الأولى ، إلا أنها نكثت بوعودها ، وعملت على تفتيت العالم العربى بإقامة كيانات سياسية فى الشرق الآسيوى ، ووضعت بعضها تحت الانتداب البريطانى والبعض الآخر تحت الانتداب الفرنسى ، وأبقت على ممتلكاتها الإسلامية التى كانت لها قبل الحرب ، فجاء نصرها قاضياً على حركة الجامعة الإسلامية . والحق أن اختفاء السلطان عبدالحميد من حياة الدولة بعد عزله قد حرم حركة الجامعة من قيادته الواعية للدفاع لها فى مسيرتها ، فإن شخصيته ونظام الخلافة مقروناً بالسلطة ، مع الاهتمام بالتركيز على لقب «خليفة» واسم «دار الخلافة» على إستانبول أو الآستانة ، كل أولئك جعله موضع التقدير والإجلال بين الغالبية العظمى من الجماهير الإسلامية من رعاياه ومن خارج حدود دولته . وجدير بالذكر أن الخلافة - وهى عنصر هام من عناصر حركة الجامعة الإسلامية - قد تطلع إليها بعض الحكام المسلمين بعد أن ألغوا

(١) توفيق على بى : العرب والترك إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨٦ .

(٢) أنطونيويس جورج ، بقظة العرب إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٥ وما تجدر الإشارة إليه أن برنامج جمعية بيروت السرية قد صايف هوى وارتياحاً فى نفس الأستاذ أنطونيويس ، فاقاض فى الحديث عنها إقاضة لم تلحظها فى حديثه عن الجمعيات الأخرى ، العلنية والسرية ، فخص جمعية بيروت بثلاث عشرة صفحة (١٤٩-١٦١) .

كمال أتاتورك سنة ١٩٢٤ من تركيا . ونذكر من بين هؤلاء الحكام الحسين ابن علي ملك الحجاز سابقاً ، وأحمد فؤاد الأول ملك مصر ، وأغا خان زعيم الطائفة الإسماعيلية بالهند (باكستان) . غير أن طلع هؤلاء الحكام إلى الخلافة كان يبتقى عن مجرد نزعة شخصية ، ولم تأت تطلعاتهم إليها نتيجة حركة شعبية ، ولذلك لم يقدر لأي منهم النجاح .

العامل الثالث : كان العامل الثالث هو موقف المعارضة الشديدة لحركة الجامعة الإسلامية والذي اتخذه المسيحيون العرب في الولايات العربية في الدولة العثمانية ، إذ خشوا أن تتهدد الأخطار كياناتهم إذا قامت وحدة سياسية كبيرة تزداد فيها ضآلتهم العددية وسط أكثرية إسلامية ساحقة ، فتهمضم حقوقهم . وتأسيساً على هذه المخاوف تنادى المسيحيون العرب إلى حركة القومية العربية كبديل لحركة الجامعة الإسلامية . وقاموا بدور بارز في دعم حركة القومية العربية . وكانت الحكومة العثمانية قد فرصت ، منذ سنة ١٨٦٤ وما بعدها ، اللغة التركية لغة رسمية على نطاق واسع في بلاد الشام ، بسبب ازدياد الميل إلى سياسة المركزية الضيقة في حكم الولايات . وكان كبار الموظفين جميعاً من الأتراك العثمانيين ، وكان أكثرهم يجهلون اللغة العربية جهلاً تاماً . وكانت الشؤون الإدارية ، في المحاكم والدوائر الحكومية العامة للرئيسية ، تجرى باللغة التركية . وأصبحت معرفة هذه اللغة التي ظلت لغة غريبة على الرغم من القرون الطويلة من الحكم العثماني ، أمراً لا بد منه لإنجاز المهام الرسمية (١) . ثم مضت حكومة الاتحاديين في مطاردة اللغة العربية . وفي هذا الجو غير الصحي على المدى للطويل بالنسبة للغة العربية ، لم تجد هذه اللغة لها ملجأ سوى مراكز الإرساليات التنصيرية في بلاد الشام حيث كثرت هذه المراكز بسبب كثرة الطوائف المسيحية فيها وتعددتها . وقامت منافسة بين البعثات الكاثوليكية والبروتستانتية . ومدت كلاهما نشاطها من الحقل الديني المسيحي إلى الحقن التعليمي والثقافي سالعالم باللغة العربية كي تحرز نجاحاً في الأوساط العربية المسيحية والإسلامية . وهذا النشاط يفسر الدور الذي قام به المسيحيون في إحياء الدراسات العربية (٢) .

(١) أنطونيوس جورج : يقظة العرب الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٩ .

(٢) ليس صحيحاً أن جميع المسيحيين العرب كانوا يلتحقون بالمدارس التنصيرية الأجنبية ، كما أنه ليس صحيحاً أنه لم يلتحق بها أحد من المسلمين ، أو أنه لم تكن هناك مدارس مسيحية عربية . ولكن في المرحلة الأولى كانت غالبية تلاميذ المدارس الأجنبية من النصارى العرب ، لأن المسلمين العرب كانوا يخشون أن تؤثر هذه المدارس في أبنائهم وتحولهم عن دينهم . فاثروا أن يلحقهم بمدارس إسلامية =

ثم انتقلت حركة القومية العربية من طورها الأدبي إلى طور العمل السياسى . ويلاحظ أن حركة القومية العربية كانت قد بدأت وليداً بحبو سنة ١٨٧٥ - أى قيل أن يرتقى السلطان عبدالحميد الثانى العرش بعام وبعض عام ، وقبل أن تظهر حركة الجامعة الإسلامية - ففى تلك السنة تكونت جمعية بيروت السرية ، ألفها خمسة شبان عرب كانوا جميعاً من المسيحيين ، ومن خريجى الكلية البروتستانتية السورية ببيروت . ولكن لم يمر زمن طويل حتى أدرك أولئك الشبان النصارى أنهم إذا أرادوا بلوغ هدفهم ، ينبغي لهم أن يتعاونوا مع المسلمين . فلبأوا إلى إدخال بعض الرجاء المسلمين فى المحافل الماسونية فى بيروت ، وكان بعض الأعضاء فى جمعية بيروت السرية قد انضموا إلى عضوية هذه المحافل الماسونية ، ونجحوا فى استمالة عدد قليل من المسلمين إلى جمعيتهم ، وكانوا ينتمون إلى مختلف الطوائف ، ولكن كان هذا النجاح محدوداً . أما البرنامج السياسى للجمعية .. فقد جاء فى منشور ألصق سراً فى منتصف الليل على جدران الشوارع ليلة ٣١ من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٨٠ . وقد بدأ المنشور بالتنديد العنيف بمساوىء للحكم التركى ويهيب بالسكان العرب أن يطيحوا بها ، ثم انتقل إلى تحديد برنامج الجمعية ، وكان يمثل فى النقاط التالية :

- (١) منح سوريا الاستقلال متحدة مع جبل لبنان .
 - (٢) الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية فى البلاد .
 - (٣) إلغاء الرقابة ورفع القيود التى تحد من حرية التعبير ، ونشر التعليم .
 - (٤) استخدام القوات المجددة من أهل البلاد فى المهام العسكرية الداخلية فيها فقط .
- القومية العربية سنة ١٨٧٥ كانت سراياً :

ومما هو جدير بالذكر أن الأستاذ الدكتور زين نور الدين زين أستاذ تاريخ الشرق الأدنى الحديث بالجامعة الأمريكية ببيروت يؤكد أن حركة جمعية بيروت السرية مبالغ فيها جداً ، وأنه سمع من الدكتور فارس نمر باشا أحد أصحاب جريدة المقطم فى القاهرة ، وأحد أعضاء جمعية بيروت السرية ما يؤكد هذا رأى ، وهو أن فكرة القومية لم تكن قد وجدت طريقها سنة ١٨٧٥ والسنوات التالية لها إلى أذهان العامة . فقد كان ولاء الناس ، كما كانت جميع الروابط والعلاقات الاجتماعية ، يقوم على أساس دينى طائفى . كان الناس إما مسلمين وإما مسيحيين .

= تؤسبها الدولة أو جمعيات إسلامية على الرغم من أن مستوى التعليم فيها كان أقل من مثله فى المدارس الأجنبية . ولكن بمضى الوقت ثلاثت رويداً رويداً المخاوف التى كانت تتناب المائلات الإسلامية من إرسال أبنائها إلى مدارس الإرساليات التنصيرية نتيجة الاحتكاك المتصل بعوامل أخرى . فانتقلت الآراء التى يثرها النصارى فى البداية . أصبحت - فى بداية القرن العشرين - تجد تربة صالحة فنمو بين المسلمين ، وظهرت آثار هذا التحول صراعاً ، فبرزت قيادة الحركة العربية وكانت تقسم عدداً لا بأس به من الزعماء المسلمين .

والمسلم إما سنياً ، أو شيعياً ، والمسيحي إما مارونياً ، أو أرثوذكسياً ، أو كاثوليكياً ، أو إنجيلياً . وكانت الوحدة العربية في مثل هذا الجو وفي هذا الوقت المبكر أمراً يستحيل قيامه ^(١) . ولم يكن يخطر ببال الجماهير الإسلامية في الولايات العربية أن تعمل على تفويض أركان الخلافة ، لأن ذلك يعد تقويضاً لأركان الإسلام ذاته .

وأخيراً فإن مما ساعد طوائف المسيحيين العرب على القيام بدور بارز في حركة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تمتعهم بوضع متميز في المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية بين أفراد الطبقة المتوسطة العربية - البرجوازية العربية - في ظل نظام الامتيازات الأجنبية وحماية الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية لهم . فقاموا بدور الوسيط بين دول الغرب والعالم العربي ، واتصلوا أكثر من العرب المسلمين بالحضارة الغربية والتيارات الفكرية الأوروبية ^(٢) .

ومن خلال نظرتهم العدائية لحركة الجامعة الإسلامية تنادى المسيحيون العرب إلى تكوين دولتين : دولة عربية دينية إسلامية مستقلة تقوم في الحجاز ، وتكون عاصمتها مكة تحكمها أسرة عربية ، ويلقب حاكمها باسم الخليفة ، ويباشر سلطة روحية على جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وفي ذات الوقت يكون نفوذه السياسي مقصوراً على بلاد الحجاز . والدولة الثانية دولة عربية علمانية مستقلة ينضوي تحتها المسلمون والمسيحيون ، ويطلق عليها الإمبراطورية العربية ، وتضم سوريا ولبنان وفلسطين ، ويكون رئيسها أحد أفراد أسرة محمد علي في مصر تجنباً لما قد يحدث من نزاع بين قطاعات الجماهير العربية على اختيار الإمبراطور العربي أو السلطان العربي ، على أن تسير هذه الدولة على المبادئ الحضارية العصرية المستقاة من حضارة أوروبا الغربية . وقد تزعم هذه الدولة نجيب عازوري^(٣) الذي كان يعبر عن وجهة نظر القوميين للمسيحيين العرب في الشام : ونشر في

(١) دكتور زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية . الطبعة الثانية ، ١٩٧٢ ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ص ٥٩-٦١ .

(٢) دكتور محمد أنيس وآخرين : المجتمع العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٨-٢١٣ .

(٣) كان نجيب عازوري سورياً مسيحياً كاثوليكياً ، ذا ثقافة فرنسية واسعة وعميقة ، وكان ذا ميل فرنسي . وتذكر بعض المراجع عنه أنه من مواليد لبنان ومن أشد الموازنة عنفاً في تمصبه للمارونية وللكيان اللبناني المستقل . تولى منصب نائب متصرف القدس من سنة ١٨٩٩ حتى سنة ١٩٠٤ ، ويذكر أنه اختلف مع رئيسه متصرف القدس التركي ويسمى كاظم بك ، بسبب سوء تصرف الإدارة العثمانية ، كما زعم ، فاستقال من منصبه ، وقام بجولة استغرقت شهرين في مدن الشام . ولما إلتئام حزب سياسي جديد سماه «جمعية الوطن العربي» ويبدو أن السلطات العثمانية تنبعت إلى نشاطه ، فأسرع إلى مغادرة بلاد الشام والتجأ إلى فرنسا ، حيث نشر كتابه «ببقة الأمة العربية ..» وأسس «الاستقلال العربي» وهي مجلة شهرية بالفرنسية (١٩٠٧-١٩٠٨) ثم عاد إلى القاهرة حيث أقام حتى وفاته سنة ١٩١٦ . =

فرنسا سنة ١٩٠٥ كتابه بطرمان :

Réveil de la Nation Arabe en présence des intérêts et des rivalités des Puissances étrangères.

ويقظة الأمة العربية في وجود مصالح ومناقصات الدول الأجنبية. . وقرر في هذا الكتاب أن دعوته إلى إنشاء دولة عربية علمانية تستند إلى وجود قومية عربية لها مقوماتها الخاصة ، وذهب إلى أن إنشاء هذه الدولة وإنشاء الدولة العربية الدينية هما حل في مصلحة الجميع ، حل يرضى المسلمين الذين تهفون أنفسهم إلى نظام الخلافة الإسلامية الحقبة بعد انتزاعها من الأتراك العثمانيين ؛ لأن العرب أحق بالخلافة منهم . وقد استنكر تنصيب خليفة مثل السلطان عبدالحميد لأنه شخص مستهتر تخصبت يده بدماء آلاف القتلى ، وقال إن إنشاء الدولة العربية العلمانية يقضى على مخاوف المسيحيين في بلاد الشام على اختلاف مذاهبهم ، كاثوليك وبروتستانت وأرثوذكس ، وعلى مخاوف اليهود ، وكان يبلغ عددهم مائة ألف يهودى موزعين بين دمشق وحلب وللمدن الساحلية ، وإن كانت غالبيتهم متركزة في فلسطين ، وبذلك لاتخضع العناصر المسيحية واليهودية في الدولة العربية العثمانية للنظم الإسلامية . وندد عازورى بالسياسة العثمانية في الولايات العربية ، فأفرد فصلاً مستقلاً في كتابه لهذا الموضوع ، وذهب فيه إلى أن جميع الإصلاحات التي تظاهرت الدولة بإدخالها في الولايات العربية كانت عديمة الجدوى ، فمثلاً تقرر إلحاق بعض اللوالب المسيحيين في مجلس المبعوثان - مجلس اللوالب العثماني - ولكن كان هؤلاء الأعضاء يختارون عادة من بين الجواسيس . فإذا ثبت إخلاصهم للاتجاه العربى القومى أسقطت الحكومة عضويتهم ووضعتهم تحت رقابة المخابرات العثمانية .

ومضى عازورى يقول في كتابه إنه صدر قانون بالمساواة بين الرعايا العثمانيين دون تفرقة في الجنس أو الدين . ومع ذلك لم يحدث أن تولى عربى مسلم منصب شيخ الإسلام . وقد أخلت الحكومة العثمانية إخلالاً صارخاً بالمبادئ التي انطوى عليها هذا القانون . ولم يحدث أن وزيراً عربياً منح اختصاص وزارة معينة ، بل كان كلهم وزراء بلا وزارة . وكذلك لم يتولوا مناصب الولاة ، ولم يرقوا في الجيش إلى رتبة أعلى من رتبة قائمقام - عقيد - ، والأربعة أو الخمسة من العرب للذين يتمتعون بثقة السلطان عبدالحميد في تلك الآونة ، ليسوا سوى جواسيس ، ولا يحكم واحد منهم في شيء ، ولا يحضر مجلس الوزراء ، وهم لا يحتفطون

= انظر :

دكتور نور الدين حاطوم : المراحل التاريخية للقومية العربية . من مطبوعات معهد الدراسات العربية العليا ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٦-١٨ .

بمناصبهم إلا بفضل هدايا يقدمونها لياور السلطان وحاشيته من التدار والشراسة . وكان عازوري يرى أن أكبر خطر يهدد للدولة العثمانية بما تضمه من ولايات عربية إنما يأتي من جانب روسيا ومن التوسع الألماني في آسيا الصغرى . وأن الأمل في فرنسا وبريطانيا ، وفي فرنسا برجه خاص لما لها من تقاليد حرة ^(١) ، وهو يتجاهل احتلال هاتين الدولتين للجزائر وتونس ومصر . وهذا ما دعا أحد المفكرين العرب إلى مهاجمة عازوري ، واتهامه بأنه كان يعمل في باريس لحساب الاستعمار ويتفادى معه ويتمويله ويقبول منه النفوذ الفرنسي البريطاني وتسليم سيادته ^(٢) .

وقد قدم نجيب عازوري مذكرة مفتوحة إلى الدول الكبرى في سنة ١٩٠٥ ، ونشرها في صدر كتابه ، قال فيها إن القومية العربية حقيقة واقعة ، وإن الوعي العربي قد انتشر بين العرب ، وهم يريدون أن ينفصلوا عن تلك الشجرة البالية ، شجرة آل عثمان ، وأن يؤسسوا دولة مستقلة ، ثم قال :

«نحن نعهد باحترام المصالح الأجنبية وجميع الامتيازات التي منحها السلاطين العثمانيون ، ونحترم كذلك استقلال لبنان الداخلي ، والأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين ، وكذلك الكيانات العربية المستقلة في اليمن والخليج العربي . ونحن لانطالب الدول الكبرى بأية تضحيات أو بالتدخل المسلح ، وإنما نرجو فقط من الدول المستديرة في أوروبا وأمريكا الشمالية أن تزيد حركتنا بوقفها على الحياد وبأن تشجنا ، فنظهر للمشاركة الوجدانية معنا . ونحن نستطيع أن نستكمل أهدافنا على خير وجه بأنفسنا . فنحن مليونان من العرب يضطهدهم بضع مئات من الموظفين الأتراك العثمانيين والشراسة .. وكل من هؤلاء وأولئك مستعد لخيانة سيده . وسنرى أين أقوى ، وأين أبقى على الزمن، ^(٣) .

تحليل مواقف العازوريين من حركة الجامعة الإسلامية :

يطلق اسم «العازوريين» على طائفة من المسيحيين العرب في بلاد الشام ، والذين اعتنقوا آراء نجيب عازوري . وكان هؤلاء العازوريون يمثلون قطاعاً من قطاعات العرب القوميين المسيحيين في سوريا ولبنان . وفضلاً عن المغالطات الصارخة التي اتشحت بها آراؤه عن عبد الحميد وعن اضطهاده للمصر العربي في الدولة ، وهذا ما فندناه من قبل ، فقد استهدفت دعوة عازوري ثلاثة أغراض :

(٣) دكتور نور الدين حاطوم : محاضرات عن حركة القومية !! زبية . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٨ .

(٣) محمد جلال كشك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٢ .

(٣) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : الوحدة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠-٣٤ .

أولاً : مهاجمة حركة الجامعة الإسلامية وإخراج الدولة العثمانية والسلطان عبدالحميد من نطاقها وتعيين خليفة في مكة المكرمة يكون نفوذه السياسي محصوراً في إقليم ضيق هو الحجاز . ومن المعروف أن الدولة العثمانية كانت أكبر دولة إسلامية في العالم ، واتخذت من الجامعة الإسلامية سياسة عليا ، فإبعاد هذه الدولة عن حركة الجامعة يقضى - في تقديرهم - على الجامعة الإسلامية .

ثانياً : التفتيت السياسي للعالم العربى .. فهو في دعوته إلى قيام دولة عربية علمانية فصر كلامه على سوريا ولبنان وفلسطين . ولم يطالب بضم العراق أو اليمن ، أو إمارات الخليج العربى أو مصر أو شمالي إفريقيا إلى هذه الدولة ، لأنه كان في حكم الاستحالة إنشاء دولة عربية علمانية غربى خليج العقبة أو بمعنى أدق دولة تتخطى سيده وقناة السويس إلا بمواجهة استعمارية ضد فرنسا وبريطانيا ؛ لأن الدولة العثمانية كانت قد اخفقت من الجزائر وتونس ومصر . فكان هدف عازورى نقويض الدولة العثمانية في غربى آسيا ، لتعيد الطريق أمام فرنسا وبريطانيا اللتين كانتا تتطلعان إلى تقسيم منطقة الشرق العربى في غربى آسيا بينهما ، أما إفريقيا العربية فكان قد تم احتلالها بأكملها ماعدا ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بنى غازى ، وستعان في يد إيطاليا سننى ١٩١١-١٩١٢ .

ويقول الأستاذ ألبرت حوراني «تردد معظم الكتاب المسيحيين في التحدث عن أمة عربية ؛ إذ إنهم تخوفوا من أن تؤدى القومية العربية إلى نوع جديد من أنواع التسلط الإسلامى . ولم يكن في مقدورهم إزالة هذا التخوف إلا بإحدى طريقتين : الأولى - أن يجاروا الأكثرية ، شأن الأقليات أحيانا ، ولو أثار ذلك بعض الالتباس . والثانية أن يخليلوا مفهوماً للعروبة على غرار مفهومهم للبنان أو سوريا فيحملوا بأمة عربية منفصلة عن أساسها الدينى ، وتضم جميع المسلمين والمسيحيين دون أى تفرقة بينهم ، وتتمتع بحماية رعوية من قبل الدول الأوروبية ذات النظم الحرة . وهذه الطريقة الثانية هى التى اختارها نجيب عازورى ورفاقه ، وهم يرون أن حدود الأمة العربية تشمل البلدان الناطقة بالعناد في غربى آسيا ، دون مصر ولبنان شمالي إفريقيا التى كانت واقعة خارج نطاق اهتمامهم القومى العربى المسيحى (١) .

ثالثاً : جاء في المذكرة التى وجهها نجيب عازورى إلى الدول الكبرى في سنة ١٩٠٥ ونشرها في صدر كتابه أن العرب يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية ؛ لأنها دولة بالية وأنهم يرغبون تأسيس دولة عربية علمانية مستقلة تتعهد باحترام المصالح الأجنبية وجميع الامتيازات التى منحها الأتراك العثمانيون . وطلب إلى الدول الكبرى تأييد هذه الدولة المرتجاة

(١) محمد جلال كشك ، مقتبسات من أقوال ألبرت حوراني ، مرجع سبق ذكره ، ٣١٨ .

بإظهار المشاركة الوجدانية معها . وهذه أغراض يتعارض بعضها مع بعض أشد التعارض : تأسيس دولة عربية مستقلة تحافظ على نظام الامتيازات الأجنبية وتحترم المصالح الأجنبية . ومن المعروف أن الاستقلال يتعارض مع إنشاء دولة تربط نفسها بتعهدات خطيرة تعصف بهذا الاستقلال الذى يطالب بها عازورى . وقد ذكر أحد المفكرين العرب أن الاستقلال الذى دعا إليه عازورى هو استقلال عن الدولة العثمانية فقط ووضع الدولة العربية العلمانية تحت الحماية الأوروبية ^(١) . ولذلك كانت الظنون تحوم حول حركة عازورى ، فلم تلق هذه الحركة أصداء واسعة فى البلاد العربية فى يسر ؛ لأن نشاطها ومقرها كانا فى باريس ، وباللغة الفرنسية ، ولأن صاحبها كان داعية للدول الغربية ، ولاسيما فرنسا وبريطانيا ، ولم يخل كتابه من تعجيد لها فكان مجلبة للشك والشبهة ^(٢) . ويؤكد الأمير مصطفى الشهابى أن أحداً من الشباب العرب لم يهتم بكتابته ^(٣) . ولكنها تمثل اتجاه فئة معينة من فئات الشعب العربى المسيحى فى بلاد الشام تجاه حركة الجامعة الإسلامية . وقد أعاق تقدم حركة عازورى ، بالإضافة إلى العوامل السابقة ، عاملان : الأول - هو ارتباط الجماهير العربية المسلمة برابطة الإسلام . والثانى - هو أملهم بنجاح المساعى المشتركة مع أحرار الأتراك فى تغيير نظام الحكم المطلق الفردى الذى كان يمارسه السلطان عبدالحميد وإقامة حكومة دستورية ، يجد فيها العرب والترك أماناً من الظلم وضماناً لحقوقهم المشتركة فيها .

(١) محمد جلال كشك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٦ .

(٢) توفيق على بى : العرب والترك الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٤ .

(٣) الأمير مصطفى الشهابى : محاضرات عن القومية العربية . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية العليا ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٩٥ .

الكواكبي ودعم حركة الجامعة الإسلامية العربية

الكواكبي ودعم حركة الجامعة :

ولايفوتنا ، ونحن نتكلم عن مدى نجاح حركة الجامعة الإسلامية ، أن نشير إلى الدور الهام الذي قام به أحد كبار المفكرين العرب المسلمين ، وهو عبدالرحمن الكواكبي (١٨٥٤-١٩٠٢) ^(١) في ترسيخ فكرة الجامعة الإسلامية في أذهان الجماهير العربية الإسلامية في إفريقية وآسيا بصورة أخرى تختلف عن الحركة التي عمل لها السلطان عبدالحميد ، فمع اعتقاد الكوكبي العميق بضرورة قيام خلافة إسلامية ينضوي تحتها المسلمون على اختلاف جنسياتهم ، كان يرى أن يكون الخليفة عربي الأرومة واستبعاد عبدالحميد وآل عثمان من الخلافة ، وأن يكون للخليفة من قريش وأن يكون مقره أم القرى - مكة المكرمة - وأن يعاد تجديد بيعته مرة كل ثلاث سنوات ، وأن ترتبط به جميع السلطنات والإمارات الإسلامية ارتباطاً دينياً .. فكان الكواكبي في دعوته لحركة الجامعة الإسلامية يميز تمييزاً دقيقاً بين الشعب العربي والشعوب الإسلامية غير العربية . وقد استوحى هذا التمييز من دراساته وقراءاته التاريخية ^(٢)؛ فقد نزل الإسلام في شبه الجزيرة العربية . وقام العرب بنشر الدعوة إلى الإسلام في أرجاء

(١) وقع خلاف بين الباحثين العرب حول تحديد سنة مولد الكواكبي . وهل كانت سنة ١٨٤٨ ، أو ١٨٥٣ أو ١٨٥٤ ؟ يقرر ابنه الدكتور أسعد الكواكبي أن والده قام بتعديل سنة ميلاده ليتسنى له دخول الانتخابات العامة عن ولاية حلب ، فاضاف إلى سنة الحقيقي ست سنوات ، فجعل سنة ميلاده ١٨٤٨ بدلاً من سنة ١٨٥٤ ليصبح عمره مطابقاً لشروط نظام الانتخاب . وأصبحت الأوراق الرسمية التي تحمل تاريخ ميلاده المعدل هي التي أخذ بها الباحثون ، ومن بينهم الأستاذ السيد رشيد رضا - صاحب «المآثر» - فعربها حرقياً عن التركية . وكانت على نسختين مصبقتين : الأولى وقعها والوالى عثمان نوري باشا الأعرج ، والثانية الوزير رائف باشا وإلى حلب . أما الحديث عن ميلاده في سنة ١٨٤٩ فقله خطأ .

(٢) درج الكواكبي في حلب في بيت دين وحسب وعلم وجاء . أما الحسب فكانت تنحصر في أسرته نقابة الأشراف في هذه المدينة ، وهي مكانة لاينالها إلا من كانت له وشيجة نسب بأسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وينتهي نسبه إليها على بن أبي طالب كرم الله وجهه . وكانت لأسرته مدرسة في حلب تسمى للمدرسة الكواكبية . وكان والده وهو السيد - أحمد بهائي ابن محمد بن مسعود الكواكبي (١٨٢٩-١٨٨٢) مدرساً في الجامع الأموي بحلب والمدرسة الكواكبية فيها . تعلم ابنه عبدالرحمن في هذه المدرسة وكانت تسمير على طريقة الأزهر فيما يقرأ من كتب ، ومايتبع من منهاج ، ودرس عبدالرحمن فيها علوم اللغة والدين والفقه والتفسير ، ثم أكمل تثقيف نفسه بقراءة بعض العلوم الرياضية والطبيعية . وأحضر له والده من علمه اللغتين التركية والفارسية . وبعضى السفين أصبح ضليعاً في هاتين اللغتين إلى جانب اللغة العربية . وطالع بنفسه كثيراً في الكتب التاريخية ، وعنى بدراسة قوانين الدولة =

شبه الجزيرة وعلى نطاق واسع بتلقيّن تعاليمه وتفسير القرآن الكريم والدفاع عن الدعوة . واستقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد فتح مكة ، وفود القبائل العربية على اختلاف

العثمانية. ما اشدت ساعده حتى عرف عنه التمسك بالحق ونصرته ، والرفع عن الصفائر ، والاستقامة ، والنزاهة ، والشجاعة في ابداء الرأي مهما جرت شجاعتها عليه من سجن وضيق مال وتشريد . وعلى الرغم من انفتحه وعزمه كان نصيراً للفقراء والمهمشين ، حتى أطلق عليه أهل حلب دوال الضعفاء ، وامضى شبابه في وسط ثلثي رفيع حتى إذا بلغ الثلثة والعشرين من عمره اطل على الحياة العامة مؤثراً فيها عين محرراً غير رسمي في جريدة فرات ، وهي جريدة رسمية كانت تصدرها الحكومة اللتتين العربية والتركية . ولهدد الجريدة تاريخ عائل ، فقد أسسها أحمد جود باشا المؤرخ التركي سنة ١٨٦٧ حين كان والياً على حلب وجعل اسمها بتغيير الفرات وظلت تبصر بتحتين بهذا الاسم ، ثم حذفت كلمة شخير ، وأصبحت «فرات» فحسب . وظلت الجريدة أربعاً وأربعين سنة حتى سنة ١٩١١ . ولم يرض الكواكبي عاماً واحداً فيها حتى أصبح محرراً رئيسياً لهذه الجريدة بعرب شهري قدره ثمانمائة قرش . ثم أسس في سنة ١٨٧٨ بالاشتراك مع «هاشم الظاهر» جريدة سبأ «الشهباء» وهي أول جريدة عربية خالصة تشهدا ولاية حلب . وقد كشفت هذه الجريدة عن المكانة الهامة التي كان يتمتع بها الكواكبي في السياسة والأدب . وأقبلت الجماهير عليها إقبالا واسداً ، ولكن عاجلها بالتعطيل كامل باشا القبرصي وإلى حلب ، بعد أن صدر منها خمسة عشر عدداً . ولم يمتسلم الكواكبي لهذا المصير الذي انتهت إليه «الشهباء» ، فأسس في العام التالي ، ٩ ، جريدة «الاعتدال» وواصل فيها تقديم أفكاره ، وواصلت السلطات العثمانية اضطهادها له فأغلقتها والوالى جميل باشا ، لأن الكواكبي كان يطالب على صفحات جريدته بالإصلاح وخيرية قومه ، وأراد والوالى وقف هذه التيارات الفكرية ومنع انتشارها . وكان الكواكبي قد أمضى خمس سنوات في المصفاة الطلبية يكتب باللغتين العربية والتركية .

وتغيير جرى حياة الكواكبي ، فعين في اليوم التاسع من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٧٩ عضواً فخرياً - دون مرتب - في لجنتي المعارف والمالية في ولاية حلب ، ثم عين بعد عام واحد عضواً فخرياً في لجنة الأشغال العامة ، ثم محرراً للفتاوى ، ثم مأموراً للإجراء - أي رئيساً لقلم المحضرين - ثم عضواً فخرياً في لجنة امتحان المحامين ، ثم مديراً فخرياً للمطبعة الرسمية في ولاية حلب سنة ١٨٨١ ، ثم رئيساً فخرياً للجنة الأشغال العامة . ثم عضواً في محكمة التجارة بولاية حلب بقرار من وزارة العدل في إستانبول ، ثم عاد مأموراً للإجراء في حلب سنة ١٨٨٦ . وقد اكتسب في هذه المناصب تجارب واسعة ، وزادت ثقافته عمقا ، ووقف عن كُتب على مفاسد الحكم ، واشتهر بنزاهته ، وحبه لبنى وطنه ، وسمعه إلى الإصلاح . ويقرر نجاحه في حياته الحكومية كان بسخط السلطات العثمانية عليه . فقد نما إلى علم جميل باشا وإلى حلب أن جميع مانتشره صحف المعارضة في إستانبول ويبروت خاصاً به إنما هي مستمد من الكواكبي ، فأخذ يرصد حركاته ، ويسجل أسماء زائريه . فلم يتحمل هذه المراقبة ، واستقال في آخر سنة ١٨ من وظيفة مأمور الإجراء ومن منصب قاضي محكمة التجارة ، وفتح مكتباً للاستشارات القانونية كان يقدمها بالمجان للفقراء من جميع الأياف . وكان يكتب بأسلوبه باللغة التركية الشكاوى التي يقدم بها أصحاب المظالم إلى السلطات العليا في إستانبول ، كما كان يتردد عليه المحامون ليرشدهم فيما يستلحق عليهم فهمه من أحكام القوانين والنظم . ووقعت الوحشة بينه وجميل باشا والوالى العثماني الذي أمر بإيداعه السجن بتهمة التحريض على قتله ، وعلم السلطان عبدالحميد بحقيقة المأامرة ، فأمر بنقل جميل باشا والياً على الحجاز ، وإطلاق سراح الكواكبي . وتعيين عثمان باشا الأجر ، وكان مقعداً يحمل على كرسي - والياً على حلب سنة ١٨٨٦ . وفي سنة ١٨٩٢ عين الكواكبي رئيساً للبلدية في حلب ، وكان قد بلغ من العمر أربعين سنة . وقام بتنفيذ مشروعات إصلاحية عمرانية في حلب وأطرافها في بيرجك ، =

أنسابها ، وكان بعضها يلتصق إلى عرب الشمال ، وبعضها إلى عرب الجنوب ، لمبايعته وإعلان إسلامها ، وتغفل النفوذ الإسلامى فى بلاد اليمن وحضرموت وعمان فضلاً عن

= ومرعش ، وأورف ، وكانت تابعة لطب أنذاك . وأدخل مشروعات إنارة حلب وضواحيها بالكهرباء ، واستخراج المعادن ، وتجفيف المستنقعات . ثم عين الكواكبي سنة ١٨٩٢ رئيساً لغرفة التجارة مع رئاسة المصرف الزراعى واستقال من رئاسة غرفة التجارة ، وسافر إلى إستانبول قصد السياحة ، وانزوى فى أحد خاناتها . وكان هدفه الحقيقى الوقوف عن كُتَب على أساليب الحكم الفردى المطلق الذى كان يمارسه السلطان عبد الحميد ، والحو الذى كان يعيشه فى قصر يلدر . وطم الشيخ أبو الهدى الصيادى بما كان الكواكبي يبيته ، فبعث إليه مرحباً بقدومه وأمر بنقله إلى داره زيادة فى تكريمه . وبعد أن أقام فى إستانبول بضعة أشهر عاد إلى مسقط رأسه فى حلب حيث وقع عليه لاختيار - طبقاً لنظام الالتزام - بجمع إيرادات ومصروفات محصول الدخان . وأسس شركة تسهم فيها الجماعير بالاشتراك فيها لفرط ثقته به ، وتهافت الناس على شراء تبيغه لجوئته ورخصه . وكان الأمل قوياً فى أن تجنى الشركة أرباحاً وافيرة ، ولكن عاكسة الأثرا ، إذ قام الأرمن بمشاكلات ومذابح فى بلدة «الزيتون» ، فكدست هذه السلسلة . وخسر الكواكبي ، وشغبت عليه العامة من أعدائه . وفى سنة ١٨٩٤ جاء أمر من شيخ الإسلام فى إستانبول إلى قاضى حلب بتعيين الكواكبي فى وظيفة رئيس كتاب المحكمة الشرعية فى حلب . وظل فى هذا المنصب مدة تزيد عن السنتين ، ثم تآلب به الصناديق والقواء والأعداء ، فاتفق الوالى مع القاضى على تنحيته . وعين بعدها رئيساً للجنة البيع فى الأراضى الأميرية ، ثم رئيساً لغرفة التجارة فى حلب . وأظهر توفيقاً عن المال ، وكفاية فى الإدارة ، وفقاً للظلم ، ومحاربة للرشا . واهتم مركز الحكم الذين دأبوا على استغلال الجماعير للكسب غير المشروع ، فغضبوا لسلوكه وأجهوده فى سبيل تبصير أفراد الشعب بمظالمهم ، وحرصوا الأشرار عليه ، وشجعوا جماعة من الأرمن على اغتصاب أراضيه واعتوا عليه ببيعان من الوالى . فضاقته فى حلب واعتزم الهجرة منها إلى مصر تخلصاً من جو خائف لا يطاق .

وقبل سفره بيوم واحد زار صديقه كامل الفزى مودماً ، وأخبره أنه عاجز من غده على السفر إلى إستانبول . يقول الفزى «كنت عالماً بكتابته جمعية أم القرى» ، وقد شعرت منه العزم على طبعه ، فوقع فى نفسه أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره : إذ لا يمكنه أن يطبعه فى غيرها وحفرته من ذلك . وقتل له إياك يا أخى والسفر إلى مصر ، فإنك متى دخلتها ، تعد عليك الرجوع إلى وطنك ، لأنك تعد فى الحال من الطائفة المعروفة بإسم جون ترك - أى تركيا الفتاة - لا يتأخر وصمه بهذه السمعة قيد لحظة ، لما اشتهرت به وعرفت به من شدة العارضة وانتقاد الأحوال الحاضرة ، فقال لم أجزم إلا على السفر إلى إستانبول للفرض الذى ذكرت لك . ثم نغنى ومضى . وهكذا أخفى الكواكبي خير سفره إلى مصر حتى على أقرب صديق له . ويقال حلب فى سنة ١٨٩٩ وهو فى السابعة والأربعين من عمره وخلص نجياً من ظلم الوالى . ولم تكد تمضى بضعة عشر يوماً على مبارحته حلب ، حتى فوجئ الناس بجريدة المؤيد فى القاهرة لصاحبها السيد على يوسف تنشر له شذرات من كتابه «طبائع الاستبداد» ، وثارت ثائرة السلطان عبد الحميد الذى اعتقد أنه مقصود بها فامر بمنع دخولها البلاد العثمانية .

والقى الكواكبي فى مصر إخواناً من السوريين كانوا قد لجأوا إليها ، وأقام صلات وثيقة معهم ، وكانوا يعضون أسبوعاً كل يوم فى مقهى «ميلاند بار» بالقرب من حديقة الأتكية وسط القاهرة . وكانت تضم حلقتهم الشيخ رشيد رضا صاحب جريدة المنار ، والشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، ومحمد كرد على ، وإبراهيم سليم التجار ، وطاهر الجزائرى ، وعبد القادر المغربى ، ورفيق العظم ، وعبد الحميد الزهراوى وغيرهم من الشخصيات العربية ، وكانوا من أعلام الفكر فى الآداب والسياسة والصحافة ، نشروا المقالات عن كرامة الفرد العربى وعزته . =

أطراف العراق والشام وبذلك تحققت للعرب وحدة سياسية بزعامة النبي ، وتم للأمة العربية مكان ينقصها من أركان الوحدة الشاملة بعد أن اتحدت في العقيدة ، وفي النظم والتشريع والمثل والتقاليد . أما اللغة فقد تأصلت وحدتها بعد أن غلبت لغة القرآن ولهجة قريش على لهجة العرب كله - وبذلك برزت الأمة العربية في التاريخ أوفر ماتكون قوة ووحدة ونضوجاً ، ثم أخذت الأمة العربية تطل على تاريخ الشرق الأدنى وتنتهياً لتحمل أمانة تبليغ دعوة الإسلام لأمم الأرض قاطبة ، بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؛ فقامت بتحرير شعوب فارس

= وسكن الكواكبي في القاهرة في شارع مسجد الإمام الحسين ، بالقرب من الأزهر . واشتهر أمره عندما نشر كتابه «أم القرى» وقد ألفه حين كان بطب ، ويضه له والده «أسعد» ثم ذاع صيته حين نشر في جريدة «المؤيد» مقالات عن الاستبداد بغير توقيع . واشتبه على المثقفين أمره فظنوا أنه يأخذ حرقاً من روسو ، فلما عرفوا أنه صاحب هذه المقالات أجمعوا على أنه معجزة الكتاب السياسيين لعصره بمصر ، وتساعد إجابهم به وتقديرهم له .

ويقال إن الخديو عباس حلمي الثاني كان يتوق إلى الخلافة ، فاستدعى إليه الكواكبي ليقوم بالدعاية له لقاء مرتب شهري قدره خمسون جنيهاً مصرياً ، ويسمى لدى الحكام العرب والمسلمين كى يبايعوا الخديو عباساً بالخلافة . وقيل إن الكواكبي وافق على ذلك . فساح في أنحاء الشرق العربي والإسلامي سنة ١٩٠١ ، وقد جاوز التاسعة والأربعين من عمره . ويجدر أن تؤخذ هذه الرواية بتحفظ شديد ، لأنها تتعارض تعارضاً صارخاً مع ما تنادي إليه الكواكبي من قيام خلافة عربية في قريش وأن يكون مقر الخليفة في أم القرى ، ولأن مفكراً عربياً سياسياً من طراز الكواكبي لا يشتري بمال في سبيل تغيير آرائه ومبادئه . وقد زار الكواكبي في رحلته اليمن والحجاز ، وتحول إلى الهند ، وزار كراتشي ومبائى ، واتجه إلى شرق إفريقية وزار زنجبار والحبشة والسودان وعاد من رحلته إلى القاهرة يحمل حصيلة علمية وافرة عن البلاد التي زارها . وكانت في نيته رحلة أخرى يقوم بها إلى شمالي إفريقية ، ولكن عاجلته المنية بعد ثلاثة أشهر من عودته إلى مصر .

وفي مساء الخميس ١٤ من فبراير - شباط - سنة ١٩٠٢ جلس في المقهى على عادته مع رشيد رضا ، ومحمد كرد علي ، وإبراهيم سليم النجار ، وتناول القهوة ، وبعد نصف ساعة شعر بالأم مبرحة في أمعائه ، فنقله ابنه كاظم في عربة إلى داره ، وظل يقيء حتى انتصف الليل ، فاصيب بنوبة قلبية ، ثم هادت بعد ساعة ، وأحس ابنه بالخطر ، وذهب يستدعى أقرب طبيب . ولما عاذا وجهه قد فارق الحياة ، وكان قد سوى منها خمسين عاماً . وانتشر الخبر صباح الجمعة في القاهرة ، وأمر الخديو عباس أن يدفن الكواكبي على نفقته الخاصة ، وأن يعجل بدفنه ، وأوفد مندوباً عنه للاشتراك في تشييع الجنازة . ودفن في قرافة باب الوزير في سفح المقطم ، واحتفل له السيد علي يوسف صاحب جريدة «المؤيد» بثلاث ليال أحضر فيه القراء . ثم نقلت مصلحة التنظيم المصرية وفاته باحتفال يني إلى مقبرة خاصة ببعض عظماء الرجال . وتقع هذه المقبرة في نهاية شارع العلفي بمنطقة باب الوزير . وكتب اسمه وتاريخ وفاته وتاريخ نقل وفاته على لوح من المرمر ، ونقش عليه أيضاً بيتان من الشعر نظمهما حافظ إبراهيم شاعر النيل فيه ، وهما :

هنا رجل الدنيا ، هنا مهبط التنقي هنا خير مظلوم ، هنا خير كاتب

قفوا وأقروا أم الكتاب ، وسلموا عليه ، فهذا القبر قبر الكواكبي

وصدرت الصحف تنعاه للعالم العربي والإسلامي ، كجريدة اللواء ، والمؤيد ، والقاهرة ، والرقيب ، والأهرام ، والمقطم ومجلة الهلال ، ورثاه مصطفى صادق الرافعي بقصيدة طويلة .

والعراق والشام ومصر وشمالى إفريقيا من الحكم الفارسى والبيزنطى البغيض وتخليص هذه الشعوب من الضيق الشديد بالحريات الدينية المكبوتة ، وإنقاذ المعابد والكنائس والأديرة من ظلمة الاضطهاد ، ومن المسخط البالغ على الأوضاع الاقتصادية المتشحة وبث رسالة جديدة فى الإصلاح قوامها العدالة والحرية والإخاء والمساواة ، ولطمأنينة الرخاء ، وظفر الأهالى الذين آثروا البقاء على دينهم بما لم يظفروا به من قبل من حرية العقيدة والنفس والمال والتسامح ، وكان أن ظل العرب فى حركة جهاد طويلة ، وخاضت جموعهم القتال فى موجات بشرية متلاحقة من قلب شبه الجزيرة العربية ، ودخلوا أعنف المعارك التى شهدتها البشرية من أجل التحرير والعقيدة ، وضربوا أروع الأمثلة فى الدفاع عن المبادئ الإنسانية الشريفة . وكانت حكومة الدولة العربية الإسلامية تعتمد فى أول عهدها فى أداء رسالتها على العنصر العربى وحده ، فكان العرب هم وقود الحرب وعدة الجهاد . وفى خلال تلك المعارك الطويلة ، سقط كثير من الشهداء فوق كل بقعة من هذا الوطن الفسيح الممتد من الخليج إلى المحيط الأطلسى ، حتى غدت الدولة العربية الإسلامية تشمل الأندلس وشمالى إفريقيا ومصر والشام والعراق وفارس وشمالى الهند فضلاً عن شبه جزيرة العرب .

واستطاع العرب عقب هذا التوسع أن يحققوا وحدة شاملة طويلة العمر عميقة الأثر ، وأرسوا لهذه الوحدة نظام الخلافة الذى أصبح عند أهل البلاد جزءاً من إيمانهم وركناً من عقيدتهم ، وهو فى نظرهم نحوطة هالة من الشرعية والقداسة ، وقد شهدت الدولة العربية الإسلامية نظام الخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة ؛ إذ كان لابد من شغل الفراغ السياسى الذى ترتب على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأصبح نظام الخلافة ينظم للجماعة الإسلامية أمور دينها وأمور دنياها . وظفر نظام الخلافة بالولاء العميق بين العرب المسلمين فى شبه الجزيرة العربية ، كما فاز بولاء جموع العرب المهاجرين الذين انتساحوا فى الأرض واستقروا بها . وأصبح الناس فى جميع البلاد الإسلامية لا يتصورون إسلاماً بغير خلافة ولا يفهمون دولة إلا على هذا النحو . وفى الأوقات التى ظهرت فيها اتجاهات نحو الاستقلال الذاتى ظلت الخلافة تتمتع بالولاء العميق من جميع الناس ، فلم يسلب أحد من الخلافة سلطاتها الدينية . ولم يقطع الولاء العميق حول شخص الخليفة الذى ظل فى عصور اغتصاب سلطاته الدنيوية محتفظاً بامتيازاته من ذكر اسمه فى خطب أيام الجمعة والأعياد ، وكتابة اسمه على العمل ، وحضر الصلاة فى المقصورة . ولم تملطع العناصر التى استولت على النفوذ السياسى للخليفة فى فترات الضعف أن تزيع من لقب الخلافة قداسه ، أو تنزع منه ما يحظى به من ولاء عميق متأصل فى قلوب المسلمين كافة ، فكان نظام الخلافة من أهم أركان الوحدة السياسية التى أظلت البلاد العربية طيلة ستة قرون .

ولم تكن الوحدة التى عمت المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط وحده سياسية

فحسب، وإنما كانت وحدة ثقافية وفكرية أيضاً، وهي أبعد أثراً وأوفر أهمية من الوحدة السياسية نفسها. وقد اتخذت الوحدة الثقافية والفكرية أكثر من مظهر. وكان من مظاهرها اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، فقد انتشرت بدورها في المنطقة كلها بعد الفتح العربي على الرغم من وجود لغات قديمة ذات تقاليد وثقافات عريقة؛ إذ كانت اللغة الفارسية منتشرة إلى حد كبير في العراق، وكانت اللغة اليونانية منتشرة في بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب، هذا عد لغات محلية أخرى كالسريانية في بلاد الشام، والقبطية في مصر. ولم يحاول العرب فرض لغتهم على شعوب البلاد التي فتحوها، بل أبقوا عليها. فظلت الفارسية لغة الحكومة في العراق نحواً من أربعين سنة بعد الفتح العربي، كما ظلت اليونانية لغة الدواوين في كل من الشام ومصر وبلاد المغرب، وشهدت هذه البلاد صراعاً، ظاهراً أو مستتراً، بين اللغة العربية الواقذة وبين اللغات القديمة في البلاد المفتوحة. وخرجت اللغة العربية ظافرة من هذا الصراع؛ لأن السيطرة السياسية هي العامل الفعال في انتصار السيطرة اللغوية، وكانت اللغة العربية لغة دولة فنية، في حين كانت الفارسية لغة دولة زالت من الوجود، كما كانت اللغة اليونانية لغة دولة مغلوبة انكمشت رقعتها وفقدت نفوذها في بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا. هذا إلى ما كان لانتشار الإسلام من أثر واضح في تفوق اللغة العربية وسيادتها؛ لأن حركة الدخول في الإسلام أخذت تشدّ بمضى الوقت، فصار لزاماً على معتقبيه أن يتطوعوا باللغة العربية لفهم القرآن الكريم وأحكام الدين وإحياها شعائره. وهكذا وضح لانتصار اللغة العربية منذ القرن الثالث الهجري - القرن التاسع الميلادي - ففي ذلك الوقت دخلت أغلبية أهالي البلاد المفتوحة في الإسلام، وأصبحت العربية منذئذ لغة سكان المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط، حتى غير المسلمين من أهالي تلك البلاد، بدأوا يتخذون العربية أداة للمخاطبة بل للثقافة والعلم. فإذا أخذ أهل الذمة يولفون كتباً، فإنما كانوا يولفونها بالعربية مما أدى إلى اختفاء اللغات القديمة اختفاء كاد يكون تاماً.

وجاءت في أعقاب وحدة اللغة العربية ثقافة عربية موحدة، حين ازدهرت في ركاب العرب حضارة عربية نتيجة ماحققوه من أمن واستقرار في البلاد المفتوحة، ولم تلبث أن انتشرت الثقافة العربية؛ فأصبحت الأماكن التي استقر فيها العرب مراكز للعلم والمعرفة. وظهرت مدارس عربية في كل من الكوفة، والبصرة، ودمشق، والفسطاط، والقيروان. وأدى إسقاط القيود والحواجز بين أرجاء هذا الوطن العربي الكبير إلى تنقل العلماء بين أجزائه دون قيد، فانتشروا في أنحاءه يفسرون القرآن الكريم، ويردون الأحاديث الشريفة، ويبصرون الناس بالعقيدة الإسلامية. وشهدت البلاد نمو المدارس الإقليمية وتفوقها وكثرة علمائها وفقهائها وطلابها، وإقبال الأهالي على الإفادة منها إقبالاً عظيماً. وتجاوزت هذه المدارس دور التقليد إلى دور الأصالة والتجديد. وأخذت المدارس الإسلامية تتبادل الأفكار، وتتناقل المؤلفات

والكتب ، وأخذ الأمراء المحليون في العالم الإسلامي يتنافسون في فتح المدارس واستقدام العلماء والإغداق عليهم وتشجيع الحركة العلمية بكافة السبل . وكان مما ساعد على ازدهار هذه الحركة الفكرية تسامح العرب مع الثقافات القديمة وإقبالهم عليها وترجمة خير ما فيها إلى اللغة العربية ، وتلقيح الفكر العربي بثمار الفكر اليوناني والفارسي والهندي ، وغير ذلك من الثقافات التي اتصل بها العرب ، وأخذوا عنها ، وأضافوا إليها . وكان أن استطاعت الحضارة العربية أن تهضم هذه الثقافات ، وأن تطيعها بطابع عربي واضح . وعلى هذا النحو ظفر الوطن العربي الممتد من الخليج إلى المحيط بوحدة شاملة ، سياسية وحضارية واجتماعية وفكرية ^(١) .

هذا جانب رئيسي من خلفية التفكير السياسي لعبد الرحمن الكواكبي ، ولا نريد أن نستعرض في عرض الجوانب الخلفية الأخرى التي حفل بها تفكيره . فقد تكون هذه الجوانب على الرغم من أهميتها ، خارجة عن نطاق الموضوع الذي نبينه ، وقد تكون أكثر التصاقاً بدراسة تخصصية عن حياته وآثاره ، وقد أشرنا إليها إشارات سريعة في العاشية . ولكن حسبنا أن نذكر هنا أن نزوع الكواكبي المبكر إلى إصلاح الحكم العثماني في الولايات العربية والقضاء على فسادها ، ونقده لتصرفات الباشوات الذين كان يبعث بهم الباب العالي إلى حلب ، ودخوله في صراعات رهيبة معهم ، كل أولئك لم يكن وليد حرمان مادي شعر به الكواكبي في المجتمع الحلي الذي نشأ فيه ؛ فقد كان له من ثراء أسرته ، ومن مكانتها السامية ، ومن ثقافته الشرقية العميقة ، ومن اشتغاله بالصحافة سنوات طويلاً ، ومن شتى المناصب الحكومية التي تقلدها ، ومن النجاح الجزئي الذي أصابه في تنفيذ مشروعات تجارية وعمرانية ، ما جعل رزقه يأتيه رغداً من كل مكان . فإذا أضفنا إلى هذه العوامل ، التي كانت بلا شك من مقومات شخصيته رحلاته إلى البلاد الإسلامية والعربية في آسيا وإفريقية ، ووقوفه على أحوال المسلمين المتردية في كثير من بقاع الأرض ، وانتهاء المطاف به في القاهرة حيث نشر سفره للخالدین : أم القرى ، وطبائع الاستبداد ، وتوقيفه في تكوين مدرسة فكرية في القاهرة ، موطن الثقافة العربية في العالم ، واجتماعه بأعلام الفكر العربي والإسلامي في أمسية كل يوم في مقهى «سپلندد» .. فهذه العوامل كلها جعلت قيام نوع من التعايش السلمي بين الكواكبي والسلطات العثمانية وتنسيق دعوته مع سياستها أمراً من الصعوبة بمكان . ولذلك أملت هذه العوامل على الكواكبي أن يقف موقف المعارض للسياسة العثمانية ؛ فهو من الناحية الرسمية مسلم عثماني ، ومن الناحية العاطفية مسلم عربي ، شديد الاعتزاز بعرويته ، بعيد عن التعصب الديني

(١) اعتمدنا في الحديث من دور العرب في إنشاء الدولة العربية الإسلامية ، ونشر الإسلام ، والحضارة العربية الإسلامية في الوطن العربي الكبير ، الممتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي ، على مكتبه الأستاذ الدكتور حسن محمود تحت عنوان : التوسع العربي ونتائجه في تاريخنا القومي في كتاب : المجتمع العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧-٤٢ .

والمذهبي . ثم اكتمل نضجه العقلي في جبل يحلوه الحديث عن الخلافة بفصل الدعاية ، التي قام بها السلطان عبدالحميد من أجل حركة الجامعة الإسلامية ، وأصبحت كلمات الخلافة والجامعة الإسلامية هي «المودة» La Mode الشائعة على كل لسان . والكواكبي لا يريد أن يعيش في برج عاجي ، بعيداً عن مجتمعه ، بل يريد أن يجاربه معه ، يؤثر فيه ، ويتأثر به ، إعمالاً لحق الجماعة على الصفوة الممتازة . وكان الكواكبي يقف في الصف الأول من هذه النخبة يهدي الأمة الإسلامية سبيل الرشاد ، وهو يرى ضرورة قيام خلافة جديدة يحتمها الضعف الذي حاق بالمسلمين ، وكان يطلق على هذا الضعف تعبيراً مخففاً هو الفطور العام ، ومرد هذا الفطور هو الخلل الديني ، بشرط أن تكون الخلافة الجديدة خلافة عربية لحماً ودماً ، وبشرط أن تكون في قريش ، وبشرط أن يحكم للخليفة من مكة ، وبشرط أن يكون الخليفة مسموع الكلمة يجمع شتات المسلمين صفواً واحداً . وقد أفادت دعوة الكواكبي حركة الجامعة الإسلامية التي تنادى إليها السلطان عبدالحميد ، وأصرت بها في الوقت ذاته : أفادتها من حيث أنها تصاعدت بانتهاء الجماهير للخلافة كمبدأ ، وعمقت اهتمام هذه الجماهير بها كبؤرة تتجمع فيها القوى الإسلامية ، وأصرت بها لأنها استهوت قطاعات مهمة من سكان الولايات العربية ، وبخاصة قطاع المثقفين ، إلى فكرة جامعة عربية إسلامية ، وخليفة عربي قرشي هاشمي ، يتربع على كرسى الخلافة في أم القرى تأكيداً للمنزلة الخاصة التي نالها العرب في تاريخ الإسلام بسبب كفاحهم في نشر الدين الإسلامي وإنشاء حضارة عربية إسلامية ، ويفضل لغتهم ونسبهم من ناحية ، وبعد الحملات التي شنّها الكواكبي على الدولة العثمانية وسلاطينها ، الذين انصرفوا إلى معالجة المشكلات السياسية والعسكرية والإدارية التي أحاطت بهم من يمين ويسار ، وانصرفوا عن الخلافة من ناحية أخرى .

ونستقي النقاط الرئيسية للتفكير السياسي لدى الكواكبي في قيام خلافة عربية وإقصاء سلاطين الدولة العثمانية عنها ، من كتابه أم القرى ، وقبل أن نعرض عرضاً سريعاً لأهم موضوعات هذا الكتاب ، نبدي ملاحظتين :

أولاً : ألف الكواكبي هذا الكتاب وهو في حلب قبل أن يهاجر منها إلى مصر ، وكان قد بلغ من العمر سبعاً وأربعين سنة ، وكان قد اكتمل نضجه العقلي ووقف على مساوئ حكم الموظفين العثمانيين في ولاية حلب ، ولمس ما اتسمت به حياة الأهلين في هذه الولاية العربية الهامة من ظلم وضيق واستبداد .

ثانياً : إذا كان الكواكبي لم يدرس لغات أوروبية ، وكان تضلعه في اللغات مقصوراً على ثلاث منها ، كما سبق أن ذكرنا ، وهي العربية والتركية والفارسية .. فإنه عالج هذا النقص في تعلمه اللغات الأوروبية بإطلاعه الدائب على ما ترجم إلى التركية والعربية من روائع الفكر الأوروبي . فقد كان يتلقى بصورة رئيسية الصحف الصادرة في إستانبول

وبيروت، وفيها بحوث باللغتين التركية والعربية مستقاة من أرسخ المصادر الأوروبية ، كما كانت تتجمع لديه الكتب التركية المترجمة عن اللغات الأوروبية ، والتي كانت تصل إلى حلب خفية . وكان أحرار الأتراك في أوروبا يترجمون إلى التركية لبنى ومثلهم كثيراً من الكتب السياسية لأعلام للفكر الأروبي .

كتاب أم القرى

«أى ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية ، المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ .

كان هذا الكتاب أول كتاب طبع ، عقيب وصول الكواكبي إلى القاهرة حوالى سنة ١٩٠٠ م ، ألفه في حلب ونقحه عدة مرات عند طبعه . وقد تصور المؤلف أن مؤتمراً عقد في مكة المكرمة قبيل موسم الحج في ١٥ من شهر ذى القعدة سنة ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م) للدأول في شئون المسلمين ومناقشة أسباب تخلفهم ووسائل إنقاذهم . وعقد المؤتمر اثنتى عشرة جلسة صباحية غير للجلسة الختامية ، واستمر يعقد جلساته من وسط الشهر إلى سلخه . وقد أوفد كل قطر إسلامى تقريباً وبعض الأقاليم التى تعيش فيها جالية إسلامية كثيفة العدد ، عضواً يمثلها فى هذا المؤتمر . ولم يذكر الكواكبي أسماءهم واكتفى بكنية أطلقها على كل منهم . فكان يسمى العضو باسم بلده مثل الشامى ، القندسى ، اليمنى ، البصرى ، النجدى ، المكى ، للمدى ، التونسى ، الفارسى ، الإسكندرى ، المصرى ، التبريزى ، الأفغانى ، الهندى ، الصينى ، وما إلى ذلك . وسمى الكواكبي نفسه : للفراتى ^(١) ، وكان جميع الأعضاء يجيدون اللغة العربية . وتناسى الكواكبي الاختلاف فى المذاهب بين الأعضاء ، فلا سنى ولا شيعى ، أو حنبلى ، أو شافعى ، أو مالكى ، أو حنفى ، فالكل مسلمون .. وقد وقع اختيار أعضاء المؤتمر على العضو المكى ليكون رئيساً لهم ^(٢) .

وفى الجلسة الأولى أفاض رئيس المؤتمر فى الحديث عن ضرورة الانتصار للمدين والأخذ بنظام الشورى ، وأنهى باللائمة على حكام المسلمين والعلماء وجمهور المسلمين لتفريق كلمتهم ، وأوصى بالتأبع المذهب السلفى ، وهو مذهب الحنابلة الذى يأخذ به أهل شبه الجزيرة العربية ، وطلب من الأعضاء ألا يطرؤ اللأس إلى قلوبهم مما وصلت إليه الأمة الإسلامية من

(١) نسبة إلى نهر الفرات الذى يمر على مقربة من حلب ، قبل نهابه إلى أرض العراق ، وتكوينه مع نهر دجلة حوض الرافدين .

(٢) كان عدد أعضاء المؤتمر أربعة وعشرين عضواً ، منهم اثنا عشر عضواً عربياً يمثل عشرة منهم الولايات العربية الخاضعة للدولة العثمانية . وذلك جعل الكواكبي من معقلها أعضاء المؤتمر «الأصليين» فيه ، بينما اختار الآخرين «إضافتهم للمؤتمر» . فإذا أضيف إلى الأعضاء العرب العضو البيروتى ، الذى اعترف عن عدم الحضور ، أصبحوا ثلاثة عشر عضواً .

ضعف ، وأعلن أن بحوث المؤتمر يجب أن تدور أساساً حول أسباب تخلف الأمة الإسلامية وتشخيص دلائلها ووصف درائها ، ومقاومة البدع والشرك .

وفي الجلسة الثانية أثير موضوع التدهور الذي أصاب المسلمين . وقال الرئيس إن المسلمين أقل نشاطاً وانتظاماً من جيرانهم غير المسلمين حتى خيل للبعض أن الإسلام والنظام لا يجتمعان . ونقد العضو العدني العقيدة الجبرية ونعتها بأنها من للمخدرات المثبطات ، فأجابه القدسي أنها وجدت تنقيماً للمقهورين البائسين ، وقال إن ضعف المسلمين إنما مرده إلى تحول سياسة الحكام من الديمقراطية إلى الملكية المقيدة ثم الملكية المطلقة . وتدخل الترنسي فقال إن سبب البلاء هو تأصل الجهل في معظم أمراء المسلمين المترفين ، وأرجع الرومي ^(١) ضعف المسلمين إلى فقدان الحرية في التعليم وللخطابة والمطبوعات والبحوث العلمية ، فالحرية هي روح الدين ، ومنذ فقدت الحرية انتشرت الخرافات ، واعتاد المسلمون الاستعباد والهوان . وأصبحت المطالبة بالإصلاح مروءة عن الدين ، وصار كون الأمير مسلماً يغني عن كل شيء ، حتى عن العدل . وكان طاعته واجبة على المسلمين وإن كان يقتل نساءهم وأولادهم ويعرض بلادهم للخراب بمسلميها للدول الأجنبية . وقال الفاسي ^(٢) إن طاعة أولى الأمر واجبة ، ولكنها ليست طاعة مطلقة ، وإن السلطان الكافر العادل خير من السلطان المسلم للجائر ، وأشاد بالسياسة الحكيمة التي اتبعها كل من بسمارك وغازيبادي في جمع شتات الأمتين الألمانية والإيطالية ، وتعالى أن يرى في العرب رجالاً على طرازهما يجمعون كلمة للمسلمين .

وفي الجلسة الثالثة استأنف المؤتمر بحث موضوع ضعف المسلمين ، وتكلم الرومي عن ولاية الجهال المتعممين وتدخلهم في كل شيء مما يصدر الشرع ، فهم يزينون للحكام استقلالهم في الرأي وينبذ نظام الشورى ، فأجابه الكردي بقوله إن العلماء اقتصرُوا على العلوم الدينية وبعض الرياضيات ، وأغفلوا بقية العلوم الرياضية والطبيعية . وهذا هو سبب تفوق الدول الأوروبية ؛ فعلماء المسلمين يقتصرون على البحث في النوافل والكرامات والإسرائيليات . وقال العضو الأفغاني إن الحكومات أصبحت تجبى الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء ، وقال العضو الإنجليزي ^(٣) إن المسلمين إذا اتبعوا دينهم أمروا الفقر واستغفروا عن المبادئ المنبثقة عن الاشتراكية ، كما طالب بالمساواة في الحقوق . وقال الصبلي ^(٤) إن سبب ضعف المسلمين

(١) هو ممثل الأتراك العثمانيين ، وجمعها الروم ، وقد درج مؤرخو العرب أو غالبيتهم على إطلاق هذا الاسم عليهم ؛ انبثاقاً من نظرتهم إليهم على أنهم أعاجم .

(٢) نسبة إلى مدينة فاس في مراكش ، وكان الفاسي ممثلاً للمغرب العربي . وكانت مراكش يومئذ تعانى من التطفل الفرنسي الذي يمهّد لاحتلالها ، وهي منطقة لم يمت إليها الحكم العثماني إلا فترة قصيرة سبق أن أشرنا إليها .

(٣) كان يعمل الجالية الإسلامية في إنجلترا وجنوبي إفريقيا .

(٤) كانت في الصين جالية إسلامية تزيد عن الثلاثين مليوناً .

هو ميل الحكام إلى العلماء المنافقين الذين يزينون لهم وسائل الاستبداد .

وخصص المؤتمر جلسته الرابعة لموضوع «الدين والإسلام والشرك والتصوف» ، فدعا الدجدي إلى اتباع الصريح المحكم من القرآن ، والواضح الثابت في الأحاديث النبوية . وقرر أن آفة البشر الشرك بالله ؛ فالتاس يخلصون الله سبحانه وتعالى بتدبير الأمور الكلية والشئون العظام كخلق المخلوقات وتحديد آجالها وتوزيع الأرزاق بينها ، كأنهم يجلونه عن تدبير الأمور الجزئية ، ويتوهمون أن تحت أمره مقربين وأعواناً ووسائل من ملائكة وجن وأرواح ، وبشر وحيوانات ، وشجر وحجر ، وأنه جعل لهم دخلاً وتأثيراً في تدبير الأمور الجزئية إيقاعاً أو منعاً ، وأعطاهم شيئاً من القوة القدسية وعلم الغيب . وتوهمهم هذا ناشىء عن قياسهم ملكوت الله ؛ تعالى شأنه ، على إدارة الملوك في اختصاصهم بتدبير الأمور الهامة وتفويضهم مادون ذلك للأعوان ، فيسرفون في تعظيم من توهموا أنهم شركاء الله وأنداداً ، ويقالون في خضوعهم لهم ويدعونهم ويرفعون حاجاتهم إليهم . وعدد الإشرار بالله وفي الصفات ، وندد بالذين اتخذوا الدين لهواً ولعباً ، فخذوا ورقصوا ونفروا الدفوف ، وهم يظهرون للخشوع والعبادة ، وقال إن غالبية علماء الشافعية يحسبون الظن بغلاة الصوفية . فأجابه المصري مبيناً مذهب الشافعية من الإعجاب بالزاهدين والمتصوفة ، ولكن أهل شبه الجزيرة العربية أهل عصبية وصلابة رأى وعزيمة لا يمتساقون مع البدع ، وإنما يتمسكون بالدين الحنيف .

وأفراد المؤتمر جلسته الخامسة لبحث موضوع «الكتاب والسنة النبوية» ، وتكلم الإنجليز فذكر أنه اعتنق الإسلام مستهدياً بالقرآن الكريم وللسنة النبوية الشريفة ، وأنه كان من البروتستانت . وقد تحول البروتستانت عن المذهب الكاثوليكي لترجيحهم الاقتصار على الإنجيل ومجموعة الكتب المقدسة متوناً فقط ؛ أى بإهمال الشروح والتفسيرات ، وهم ينكرون الرئاسة الدينية والتوسل بالقدسين ، وقد وجد في الإسلام ضالته . وخلص من قوله متسائلاً ما الكتاب؟ وما السنة ؟ وكيف يلزم المسلم بالعمل بهما ؟ فأجاب الدجدي متوسعاً في تعريفهما وفي الكلام عن نواسخ الأحكام واختلاف بعض المسلمين في فهمها . وتكلم المصري عن مراتب الأحكام والعبادات ، واقترح وضع كتب مبسطة يسهل على عامة المسلمين استيعابها ، ثم تحدث اليميني عن حال الإسلام في اليمن .

وكان موضوع البحث في الجلسة السادسة «تفرق المسلمين إلى شيع ومذاهب» . وتكلم السندى ^(١) عن المسلمين في بلاده ، ونكر أنهم من أتباع الطريقة النقشبندية ، واعترف بأنها تنطوي على بدع ، وأنه لما جاء إلى المؤتمر عرف من زملائه أنها محرمة ، ولذلك فهر يعترم تبصير جماعة النقشبندية بأمور دينهم عند دعوته إلى بلاده ، وذكر أن سبب نشوء الطرق

(١) كان يمثل مسلمي حوض نهر السند في شبه القارة الهندية .

الصوفية وانتشارها يرجعان إلى تضيق علماء الدين على المسلمين أمر العبادات ؛ حتى أصبح المسلم لا يرى لنفسه مخرجاً إلا بالانضمام إلى الصوفية الذين يهونون عليه الدين كل تهوين . وعرض المكي - رئيس المؤتمر - لموضوع إقبال عامة المسلمين على التصوف ، حتى انتهى إلى دخول الفساد عليه وإضراره بالدين وبالمسلمين .

وفي الجلسة السابعة ناقش المؤتمر موضوع «مجل الأدواء والأدوية» ، وطلب للرئيس إلى الفرأتى أن يبدى رأيه فى أسباب ضعف المسلمين ، فاستعرض الفرأتى مجمل الآراء فى هذا الموضوع ، ولخصها فى ثلاثة أسباب : دينية وسياسية وأخلاقية ، وكان من بين الأسباب الدينية : خلع المنجمين والرمالين والسحرة والمشعوذين قلوب المسلمين بالمرهبات ، وإيهام الدجالين أن فى الدين أموراً سرية وأن العلم حجاب ، وتطرق الشرك الصريح والخفى إلى عقائد العامة ، وتكليف المسلم نفسه بما لم يكلفه به الله وتهاونه فيما هو مأمور به . ومن الأسباب السياسية : للحكم المطلق ، وحرمان الأمة من حرية القول والعمل ، وفقد للعدل والمساواة فى الحقوق بين طبقات الأمة ، وإعتبار العلم عطية يحسن بها الحكام على الأخصاء وترك خدمة الدين للجهلاء ، وإبعاد الحكام للنبلاء والأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار ، وإصرار الحكام على الاستبداد عناداً واستكباراً ، وانغماسهم فى الترف والشهوات وحبهم التجم للمال الوفير وتظاهرهم بمظاهر العظمة . أما الأسباب الأخلاقية ، فكان من بينها : الاستغراق فى الجهل والارتياح إليه ، والإخلاق إلى الفحور ترويحاً للنفس ، وفساد للتعليم والوعظ والخطابة والإرشاد ، وقدم التربية الدينية والأخلاقية ، وتفضيل الأرزاق بالجندية والعمل فى دواوين الحكومة على شتى المهن والحرف . وطلب ، علاجاً لهذه الأدواء ، بالحرية ونزع الاستبداد ، وإقصاء الحكام المستكبرين المترفين عن مواقعهم ، ومحاربة الجهل ، ونشر التعليم .

نفور الكواكبي من العثمانيين :

وعرج الكواكبي فى كلمته على مواطن الضعف فى الدولة العثمانية . فقال إنها أعظم دولة بهم شأنها عامة المسلمين ، وقد جاءها أكثر الخلل فى السياسة والإدارة فى الستين سنة الأخيرة (١) ؛ أى بعد أن اندفعت لتنظيم أمورها ، فعملت أصولها القديمة ، ولم تحسن لتقليد أو الإبداع ، فتشتت حالها ، ولا سيما فى العشرين سنة الأخيرة التى صاع فيها ثلاثا المملكة (٢) ، وخرب الثلاث الباقى وأشرف على الضياع لفقد الرجال وصرف السلطان قوة سلطنته كلها فى سبيل حفظ ذاته الشريفة وسبيل الإصرار على سياسة الانفراد (٣) ، ثم استعرض أسباب الضعف

(١) أى منذ حوالى سنة ١٨٤٠ .

(٢) كان الكواكبي يقصد مؤتمر برلين الأوروبى ، الذى عقد سنة ١٨٧٨ .

(٣) سياسة الانفراد معناها سياسة الحكم الفردى الذى كان يمارسه السلطان عبدالحميد الثانى ، وكان هذا الأسلوب فى الحكم يتنافى مع نظام الشورى .

السياسى والإدارى فى الدولة العثمانية ، وكان من بينها التمسك بالإدارة المركزية أسلوباً لحكم الولايات العثمانية ، مع بعد هذه الولايات عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الإدارة فى إستائبول على أحوال هذه الأطراف البعيدة وخصائص سكانها ، وتقويض بعض العائلات بحكم بعض الأقاليم ، كإمارة مكة المكرمة ، وإمارة العشائر الضخمة فى الحجاز والعراق ، وبعض هذه العائلات لاتحسن إدارة هذه الأقاليم ، وإن هدف الدولة من اتباع هذا النظام أن يكون الأمير منفوراً ممن روى عليهم ، مكروهاً عندهم ، فلا يتفقون معه ضد الدولة . ثم التزام الدولة بتعيين نوعية من الموظفين فى مناصب قيادية أخرى مثل مشيخة الإسلام وقيادة القوات المسلحة . ويحدث أن يكون هؤلاء الموظفون مكروهين بين العامة أو فى صفوف الجند ، والتميز الفاحش بين أجناس الرعية فى الغنائم والمغارم ، وعدم وجود رقابة واعية حازمة على إدارة بيت المال ؛ مما أدى إلى الإسراف وتبديد المال العام وتراكم القروض على الدولة توفيقها بلاداً ورقاباً وديماً وحقوقاً ، وإهمال تعليم المرأة مما أدى إلى نشوء أجيال من الشبان الملحنين دينياً وخلقياً . كما ندد الكواكبي بهضم الدولة حقوق رعاياها العرب فى شغل المناصب الرئيسية ، وبغض العرب ، وتمييزها الأسافل ، وانتشار الرشا وسائر أنواع الفساد .

وكان موضوع الجلسة الثامنة «حال النشء الخلقية» . وأعطيت الكلمة للفراتى ، فنكلم عن إهمال الأمة تنشئة شبانها تنشئة دينية صالحة وسليمة ؛ مما جعل الشبان يركنون إلى الخمول والكسل . وحمل على إهمال تعليم الفتاة فقال إن من أكبر أسباب انحلال أخلاق الحكام آتاهم من ناحية الأمهات ، والزوجات غير الصالحات ، ثم عاد لموضوع الشبان المسلمين فقال إن من أبرز عيوبهم نظرتهم إلى الأجانب نظرة الكمال ورغبتهم فى تقليدهم . ولاخير فى الشباب المتفرنج ؛ لأنه ينظر إلى الأجانب نظرتة إلى سيد متفوق .

وفى الجلسات التاسعة والعاشره والحادية عشرة ، قرىء ، فقرة فقرة ، قانون جمعية تعليم الموحدين ، وأبدى الأعضاء ملاحظاتهم عليه قبل إقراره . وخصصت الجلسة الثانية عشرة للمسائل الإدارية الخاصة بشروط عضوية الجمعية ، ومركزها ، وشعبها ، ومبانيها ، ومصادر تمويلها ، وأوجه نفقاتها ، وأعمالها ، وكان من بينها وضع المؤلفات والبحوث والمقالات ، كما تقرر نشر قانون الجمعية ، وترجمته إلى التركية والفارسية والأردية . واختارت الجمعية مركزها الرسمى فى مكة المكرمة ، وأن يكون شعارها «لانا عبد إلا الله» .

أسباب تفضيل الكواكبي عرب الجزيرة العربية :

وفى اجتماع الوداع ، وكان رابع أيام عيد الأضحى ، صدرت بعض قرارات سرية لاتذاع ، ولكن تلحق بمضابط المؤتمر ، وقد كتبها تحت عنوان «ذيل» ، وتهمنا مسألة مهمة فى موضوع القرارات السرية تخص شبه الجزيرة العربية ؛ لأن على أساسها قامت دعوة الكواكبي ،

فقد جاء فيها مانصه «إن الجمعية - أي جمعية تعليم الموحدين - بعد البحث الدقيق والنظر العميق في أحوال وخصال جميع الأقوام للمسلمين الموجودين ، وخصائص مواقفهم ، والظروف المحيطة بهم ، واستعداداتهم ، وجدت أن لجزيرة العرب ولأهلها ، بالنظر إلى السياسة الدينية ، مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر في غيرهم . بناء عليه ، رأت الجمعية أن حفظ الحياة الدينية متعينة عليهم لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقاً ، وأن انتظار ذلك من غيرهم عبث محض (١) ... ولما كانت الجمعية لا يعينها غير أمر النهضة الدينية ، رأت الجمعية من الضروري أن تربط آمالها بالجزيرة ومايلها ، وأهلها ومن يجاريهم ، وأن تبسط لأنظار الأمة ماهية خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً ؛ لأجل رفع التعصب السياسي أو الجنسي ، ولأجل إيضاح أسباب ميل الجمعية للعرب ، فنقول :

- (١) الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي .
- (٢) الجزيرة فيها الكعبة المعظمة .
- (٣) الجزيرة فيها المسجد النبوي وفيه الروضة المطهرة .
- (٤) الجزيرة أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى آسيا شرقاً ، وأقصى إفريقيا غرباً .
- (٥) الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسية وأديناً ومذاهب .
- (٦) الجزيرة بعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب .
- (٧) الجزيرة أفضل الأراضى لأن تكون ديار أحرار إبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظراً لفقرها الطبيعي (٢) .
- (٨) عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين ؛ لأنه مناسب لطبائعهم الأهلية أكثر من مناسبته لغيرهم .
- (٩) عرب الجزيرة أعلم المسلمين بقواعد الدين ، لأنهم أعرفهم فيه ، ومشهود لهم ، بأحاديث كثيرة ، بالتمانة في الإيمان .

(١) يطلق الأستاذ محمد عمارة على هذا النص بقوله إن جمعية تعليم الموحدين كانت ترى «طريق السلف» والحركات السلفية سبيلاً لحفظ «الحياة الدينية» وتجديدها . وكانت شبه الجزيرة العربية في ذلك الحين هامة بمد متعاظم للحركة السلفية .

انظر محمد عمارة : الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠٠ ، حاشية رقم ١ .

(٢) قبل اكتشاف البترول في جوف أراضيها .

- (١٠) عرب الجزيرة أقوى المسلمين عصبية وأشدّهم أنفة لما فيهم من خصائص البدوية.
- (١١) عرب الجزيرة أمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات والزوجات ، فلم تخل عزتهم .
- (١٢) عرب الجزيرة أحفظ الأقوام على جنسيتهم وعاداتهم ، فهم يخالطون ولا يختلطون.
- (١٣) عرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال وإيلاء الضيم .
- (١٤) العرب عموماً : لغتهم أغنى لغات المسلمين فى المعارف ، ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت .
- (١٥) العرب أقدم الأمم اتباعاً لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئة الاجتماعية .
- (١٦) العرب أعرق الأمم فى أصول الشورى فى الشئون العامة .
- (١٧) العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً فى الدين وقدره للمسلمين ؛ حيث كان بقية الأقوام قد لتبعوا هديهم ابتداء ، فلا يأتفون عن اتباعهم أخيراً (١) .

التحامل على الدولة العثمانية :

وأضاف الكواكبي فى نهاية كتابه أنه تلقى من العضو الهندى خطاباً جاء فيه أنه بعد مغادرته مكة المكرمة اجتمع «بأمير جليل فاضل من أعاضم نبلاء الأمة ورجال السياسة، وأعاره نسخة من مضابط جلسات المؤتمر وقانون تعليم الموحدين . وبعد أن درسها اجتمع به العضو الهندى وتطرق الحديث بينهما طويلاً عن الوثيقتين ورأيه فيهما . وقد ألحق الكواكبي بكتابه هذا الحديث الذى بحث به إليه العضو الهندى ، وأطلق عليه «لاحقة» ، وكان هذا الحديث، فى لجمته وسداه ، يرد على النقد الذى قد يوجه البعض إلى مناقشات المؤتمر وقانون جمعية أم القرى . وكان مما جاء فيه أنه إذا كان المؤتمر قد خص للجوانب الدينية فى حياة الأمة الإسلامية بأكبر قدر من مناقشاته واهتماماته ، فلأن علة الضعف أو القصور العام للمسلمين هى الخلل الدينى ، فإذا زالت العلة زال العلول . وكانت الملاحظة الثانية أن أعضاء المؤتمر علقوا أكبر آمالهم فى إعزاز الدين على العرب دون الدولة العثمانية ، مع أنها دولة راسخة الملك ، وأقوى القوة من حيث الرجال والعدة والذراء ، وهى بذلك أقدر على إعزاز الدين من العرب الضعاف من كل وجه ، وإن الأمة الإسلامية قد اعتادت سماع لقب خدمة الحرمين الشريفين قديماً ، ولقب الخلافة حديثاً منسوبين إلى السلطان العثمانى ، وإنها لن تستنكف عن الإذعان الدينى للسلطان ، ونكر أسماء بعض السلاطين العثمانيين الذين أسدوا أجل الخدمات

(١) ذكر الكواكبي تسعة أسباب أخرى ، ولكننا اكتفينا بذكر سبعة عشر سبباً . راجع بقية الأسباب فى كتاب

للدين الإسلامي مثل محمد الفاتح ، وسليم الأول ، وسليمان المشرع ، ومحمود الثاني ، والسلطان الحالي عبدالحميد الثاني ، فهم أجدر بالخلافة من غيرهم . وكانت الإجابة عن هذه الملاحظة الثانية أن السلطان العثماني يصلح لأن يكون عضداً عظيماً في إعزاز الدين ، ولكن إذا أراد أن يكون هو القائم به ، فلا يتم قطعياً ، لأن الدين شيء والملك شيء آخر ، والسلطان غير الدولة ^(١) . ولم يتحد الدين والسياسة في الإسلام تماماً إلا على عهد الخلفاء الراشدين وعمر ابن عبدالعزيز ، واتحدوا نوعاً ما في أيام الدولتين الأموية والعباسية ، ثم افترقت الخلافة عن الملك . ثم حمل حملة عنيفة على السلاطين العثمانيين فزعم أنهم قدموا الملك على الدين ، وسمحوا لبعض المنافقين أن يلحقوا في روعهم بأنهم متصلون نسباً بعثمان بن عفان رضى الله عنه ، ورفعوا نسبهم إلى أعالي قريش ، وأعطوهم حق الخلافة ، مرة بتنازل العباسيين عنها لهم ، وأخرى بالاستحقاق والوراثة ، وأونة بالعهد ، وأخرى بالبيعة العامة ، وحيناً بخدمة الحرمين الشريفين ، ووقفاً يحفظ المخلفات النبوية .

الخلافة التي يريدها الكواكبي :

وطالب الكواكبي ، على لسان الأمير الهندي ، بقيام جامعة دينية تحت لواء الخلافة ، ويبني هذا النظام على القواعد الأساسية الآتية :

- (١) إقامة خليفة عربي قرشي في مكة مستجمع للشرائط .
- (٢) يكون حكم الخليفة ، سياسة ، مقصوراً على إقليم الحجاز ، ومربوطاً بشورى خاصة حجازية .
- (٣) الخليفة ينيب عنه من يرأس هيئة شورى عامة إسلامية .
- (٤) تشكل هيئة الشورى العامة من نحو مائة عضو منتخبين ، مدعويين من قبل جميع السلطنات والإمارات الإسلامية ، وتكون وظائفها منحصرة في شؤون السياسة العامة الدينية فقط .
- (٥) تجتمع هيئة الشورى العامة مدة شهرين في كل سنة ، قبيل موسم الحج .
- (٦) يكون مركز هيئة الشورى العامة مكة عندما يصادف الحج موسم الشتاء ، والطائف في

(١) شرح الكواكبي عبارة الدين غير السياسة بقوله إنه لم يكن من غرض سلاطين الدولة العثمانية ، بل ولم يكن من شأنهم ، أن يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك . وعلى فرض إرادتهم تقديم الدين على الملك ، فلم يكن في مقهورهم اتباع هذه السياسة ، كما أن الظروف المحيطة بهم لاتساعدهم على انتهاج هذا الأسلوب في الحكم ، لأن دوائهم مؤلفة من اتباع بيانات ونحل شتى . أما عبارة السلطان غير الدولة فشرحها بقوله إن الهيئة التي تتشكل منها الدولة هي خليط من مختلف الأديان والجنسيات ، بينما السلطان العثماني رجل مسلم .

موسم الصيف .

(٧) تقترح هيئة الشورى العامة يوم افتتاح كل اجتماع على انتخاب نائب الرئيس ، ويعينه الخليفة .

(٨) تتعين وظائف هيئة الشورى العامة بقانون مخصوص تضعه هي ، ويصدق عليه من قبل السلطنات والإمارات .

(٩) ترتبطبيعة الخليفة بشرائط مخصوصة ملائمة للشرع ، وإذا تعدى شرطاً منها ترتفع بيعته ، وفي كل ثلاث سنوات يعاد تجديد البيعة .

(١٠) انتخاب الخليفة يكون منوطاً بهيئة الشورى العامة .

(١١) تبلغ قرارات هيئة الشورى العامة للخليفة ، وعليه مراقبة تنفيذها .

(١٢) لا يتدخل الخليفة في شيء من الشؤون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات قطعياً .

(١٣) للخليفة يصدق على توليات السلاطين والأمراء ، التي تجرى احتراماً للشرع على حسب أصولهم القديمة في وراثتهم للولاية .

(١٤) الخليفة لا يكون تحت أمره قوة عسكرية مطلقاً ، ويذكر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلاطين ، ولا يذكر في المسكوكات .

(١٥) يناط حفظ الأمن في الخطة الحجازية بقوة عسكرية ، تتألف من ألفين إلى ثلاثة آلاف من جنود مختلطة من قبل جميع السلطنات والإمارات .

(١٦) تكون القيادة العامة للجنود الحجازية منوطة بقائد من قبل إحدى الإمارات الصغيرة .

(١٧) يكون القائد تحت إمرة هيئة الشورى العامة مدة انعقادها .

(١٨) هيئة الشورى العامة تكون تحت حماية الجنود المختلطة (١) .

وفي رأى الكواكبي أنه بمثل هذا الترتيب المقترح تحل مشكلة الخلافة ، ويسهل عقد اتحاد إسلامي تضامني تعاوني ، يقتبس ترتيبه من قواعد الاتحاد الألماني والولايات المتحدة الأمريكية ، وبذلك تأمن الحكومات الموجودة على حياتها السياسية من الغوائل الداخلية والخارجية ، فتتفرغ للتهوض في شتى مجالات العلم وميادين العمران والثراء والقوة .

عودة إلى نفور الكواكبي من العثمانيين :

ثم أثار الكواكبي موضوعاً مهماً ، سبق له أن أشار إليه ، وهو أنه لا يجوز الانتكال على السلاطين العثمانيين العظام في أمر الخلافة ، علاوة على السلطنة ^(١) . وقد مهد لرأيه بقوله إنه يحب العثمانيين للطف شاكلتهم ، وتعظيمهم الشعائر الدينية ، ولكن النصيحة للذين تستلزم قول الحق . وفي رأيه أن سلاطين آل عثمان العظام أنفسهم ، إذا تدبروا ، لا يجدون وسيلة لتجديد حياتهم السياسية أفضل من اجتماعهم مع غيرهم على خليفة قرشي . ثم مضى محاولاً إبعاد ما كان يشعر به في قرارة نفسه من نفور من العثمانيين ، فقال إن أحد أعضاء المؤتمر قد سأل الكواكبي لما رآه يميل إلى التقيّب عن سياسة العثمانيين ، واستمالة أعضاء المؤتمر عليهم لا لهم : ألا ينبغي ستر أحوالهم والمدافعة عنهم ، لأنهم أعظم دولة إسلامية موجودة ؟ فأجابته الكواكبي بأن ذلك كان ممكناً لولا أن فيه تفريراً بالمسلمين ، وتركهم متكلين على دولة لم توفق في نفع الإسلام بشيء في عز شبابها (كذا) ، بل أضرت بالإسلام بمحو الخلافة العباسية المجمع عليها ، وتخريب ما بذاه للعرب ، وإفناء الأمة بفتوحاتها شرقي أوروبا ومدافعاتها ، وأنه لا يقصد بكشف الحقيقة وإظهارها غير إزالة الغرور والانتكال للمستوليين على جماهير المسلمين بسبب عدم التأمل .

وسرد أمثلة لاتستقيم مع الدراسة التاريخية الرزينة للدولة العثمانية ^(٢) ، وعلق هذه الأمثلة بقوله «أن العثمانيين أن يستيقظوا ويصبحوا من النادمين على ما فرطوا في القرون الخالية ، فيتركوا الخلافة لأهلها ، والدين لحماته ، وهم يحتفظون على بقية سلطنتهم ، ويكتفون بشرف خدمة نفس الحرمين وبذلك يتقون الله في الإسلام والمسلمين» . واختتم كلامه في هذا الصدد بأنه غير متعصب للعرب ، وإنما يرى ما لا بد أن يراه كل مدقق يتفحص الأمر : من أن الغيرة على الدين وأهله ، والاستعداد لتجديد عز الإسلام ، منحصران في أهل المعيشة البدوية من العرب .

تقييم الكتاب :

وكتاب أم القرى بحث مبتكر ، لأن مؤتمر مكة من نسج خيال الكواكبي وضعه في

(١) سجل الكواكبي هذا الموضوع في شكل حوار بين الأمير الهندي والعضو الهندي ، الذي أرسل خطاباً إلى الكواكبي يعرض تفاصيل هذا الحوار .

(٢) اتهم الكواكبي العثمانيين بقهر تركوا الأندلس مبادلة ، وتركوا الهند مساهلة ، وتركوا الممالك ذات المساحات الواسعة في آسيا للروس ، وتركوا قارة إفريقية الإسلامية للطامعين ، وتركوا المداخل في الصين كأيهم الأعميون ، وتركوا وفود الملتجئين يعونون خائبين ، وتركوا المستعصرين بهم عرصة للمنتقمين ، وتركوا ثلثي ملكهم طعمة للمتقلبين . ويلاحظ أن كل هذه الاتهامات غير صحيحة ، وهي قابلة للرد عليها وتقنيها .

أسلوب قصصى جذاب دل على قوة تفكيره وصدق غيرته على العالم الإسلامى ، وكشف عن معرفته للمذاهب الأوروبية والشرقية فى الدين والسياسة والعلم ، وتناول المشكلات التى لاتزال المجتمعات الإسلامية تحسها وتشكو منها وتختلف فيها ، وجعل مناقشات المؤتمر بحثاً علمية ، وكان هذا المؤتمر خطة لجامعة إسلامية قد انمقدت منذ أكثر من ثمانين عاماً ، وهو لم يستطع أن يجهر بأرائه فى بلدته حلب فجهر بها فى مصر . والأمر الذى يؤخذ عليه هو تعامله على الدولة العثمانية من غير مقتض . ولعل ما اکتوى به من اضطهاد باشوات حلب وديسانس أبى الهدى الصيادى وكبت حريات المواطنين العرب قد أوجد نفوراً عميقاً من العثمانيين اختزنه فى صدره ثم وجد متنفساً فى كتابه لهذا النفور ، وقد دل هذا الكتاب على أن الكواكبى لاقبل عن الفلاسفة الدينيين الأنفاذ فى الغرب من أمثال مارتن لوتثر وكلفن وغيرهما (١) : وإذا كان أفاطلون قد اشتهر بكتابه «الجمهورية» فى اليونان والعالم ، فإن الكواكبى لاقبل عنه شهرة بكتابه «أم القري» فى العالمين الإسلامى والعربى (٢) .

طابع الاستبداد :

لم يكذ الكواكبى يصل إلى مصر حتى تولى صديقه الشيخ رشيد رضا صاحب جريدة «المنار» تعريفه بالشيخ على يوسف صاحب صحيفة «المؤيد» ، وتمكنت بين الرجلين أواصر الصداقة والتقدير ، وانفقا على خطة فى نشر مقالات الكواكبى . وفى ذلت يوم صدرت «المؤيد» تحمل فصلاً كانت جديدة فى لهجتها وموضوعها ، إذ تناولت موضوع الاستبداد . وكان الكواكبى قد كتب مسودات هذه المقالات وهو فى حلب ، قبل أن يهاجر إلى مصر ، ثم نقحها ونفع بها إلى جريدة «المؤيد» . وكان هذا النشر موضع الغرابة فى مصر . وتساءل الناس عن صاحب هذه المقالات بنشرها فى جريدة «المؤيد» المعروفة باتصالها الوثيق بالدوائر العليا فى إسطنبول ويخديو مصر عباس حلمى الثانى . وتضاربت آراؤهم ، فمن قائل إنها بقلم الشيخ محمد عبده ، ثم انصرفوا عن هذا رأى ؛ لأن الجفاء كان مستحكماً بينه وصاحب «المؤيد» ، ومن قائل إنها مأخوذة من كتابات مونتسكيو أو روسو . فلما عرفوا أن كاتب هذه المقالات هو الكواكبى أكبروا فيه علمه وشجاعته وجرائته وصراحته ، ثم أشار عليه بعض أصدقائه بجمع هذه المقالات ونشرها فى كتاب تعميماً للفائدة . فأضاف إليها الكواكبى بعض زيادات وحولها إلى هيئة كتاب ، وجعل اسمه :

(١) عن مارتن لوتثر وكلفن ، انظر :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة

الرابعة ١٩٨٠ ، ص ٢٥٢-٤٤٦ ، ص ٤٩٢-٥١٦ على التوالى .

(٢) دكتور سامى الدهان ، عبدالرحمن الكواكبى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٧ .

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

وهي

كلمة حق وصيحة في وادٍ إن ذهبت اليوم مع الريح

فقد تذهب غداً بالأوتاد

محررها .

هو الرحالة : ك ...

وقد نشره سنة ١٩٠٠ ويقع في مقدمة وثمانى فصول (١) .

استهل الكتاب بتعريف الاستبداد بأنه صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شئون الرعية كما تشاء ، بلا حسبة حساب ولا عقاب محققين . ثم مضى الكواكبي يقول إن أشكال الحكومة المستبدة كثيرة ، فصفة الاستبداد تشمل حكومة للحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة (٢) أو الوراثة ، وتشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيد ، الوارث أو المنتخب ، متى كان غير محاسب ، وتشمل كذلك حكومة الجمع ، ولو كانت منتخبة ؛ لأن الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد ، وإنما قد يخففه نوعه ، وقد يكون أحكم وأكثر ضرراً من استبداد الفرد . وتشمل أيضاً الحكومة الدستورية التي تقوم على مبدأ فصل السلطات ، لأن مثل هذه الحكومة لا ترفع الاستبداد ولا تخففه ، ما لم يكن أعضاء السلطة التنفيذية مسؤولين أمام أعضاء المجالس النيابية ، وهؤلاء مسؤولون أمام الأمة التي تعرف أن تراقب وأن تتقاضى الحساب . وخرج

(١) منذ أن ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، أعيدت طبعته عدة مرات طباعاً للأصل الذي ظهرت به الطبعة الأولى ، حتى ظهرت بين أوراق عبدالرحمن الكواكبي نسخة من الطبعة الأولى منقحة بخط يده ، فقام ابنه الدكتور أسعد الكواكبي ، وهو أقرن أفراد الأسرة الكواكبية على قراءة خط والده ، بتوضيح ما غمض من معانيه .. وتولى الدكتور عبدالرحمن الكواكبي نشر النسخة لأول مرة سنة ١٩٥٧ ، وقام بحفظ المخطوط الأصلي في مكتبة الوثائق التاريخية التابعة لوزارة الثقافة بدمشق . ولما نفذت جميع نسخ الطبعة المنقحة ، نشر الدكتور عبدالرحمن الكواكبي الطبعة الثانية في شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٧٢ في دار القرآن الكريم ببيروت ، وتولى نشرها رياض كيايلى في دمشق . وقد تفصل الدكتور عبدالرحمن الكواكبي مشكوراً بإهدائنا نسخة من الطبعة الثانية . وكان معظم اعتمادنا في هذه الدراسة عليها ، ويلاحظ عليها أنها مقلدة التعليقات أو الشرح أو التحقيق ، على عكس كتاب الدكتور سامى النعنان أو كتاب الأستاذ محمد عمارة أو كتاب الأستاذ أحمد أمين .

(٢) أى الحاكم الذي تولى السلطة دون حق ، ويعون جدارة ، ويعون اختيار من لهم حق اختيار الإمام .

انظر : محمد عمارة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٨ ، هامش رقم ٢ .

الكراكبي من هذا التعريف بثلاث نتائج رئيسية ، وهى :

أولاً : إن الحكومة من أى نوع كانت ، لاتخرج عن وصف الاستبداد مالم تكن تحت المراقبة لاشديدة والمحاسبة التى لاتسامح فيها ، كما جرى فى صدر الإسلام فيما نقم على عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكما جرى على عهد الجمهورية الثالثة فى فرنسا فى فضيحة قناة بناما ، وفى قضية دريفوس الضابط اليهودى الفرنسى .

ثانياً : إن المستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرائتهم ، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم ، ويوهم من نفسه أنه الغاصب المتعدى ، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يمداه عن النطق بالحق والدعوى لمطالبتة .

ثالثاً : للمستبد عدو للحق ، عدو الحرية ، وقائتلها ، وهو يجادل بالباطل ليدحض به الحق . وعلى الأمة أن تعرف مقامها : هل هى خلقت خادمة للمستبد ؟ أم هى جاءت به ليخدمها فاستخدمها ؟ .

وتكلم الكراكبي فى الفصل الأول عن الاستبداد والدين ، ففند قول الفرنجة الذين زعموا أن الاستبداد السياسى متولد من الاستبداد الدينى ، وإن كانت هناك قلة منهم ترى أنه إذا لم يكن هناك توليد فلاشك أنهما أخوان أو صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة إلى التعاون على تذييل الإنسان . ومن هنا يستعين المستبدون بالدين بمقولة إن للكتب السماوية تدعو الناس إلى خشية قوة عظيمة لاتترك كنهها العقول ، تهدد الإنسان بكل مصيبة فى الحياة ، ويعذاب مديد أو خالد بعد الممات تهديداً ترتد منه الفرائص ، فتخور القوى وتستسلم للأروام ، ثم تفتح الكتب السماوية أبواباً للنجاة من تلك المخاوف عليها حجاب من البشر ، هم الأحبار والقسس والمشايخ ؛ مما أدى إلى التباس الأمر على العامة بين الإله المعبود والحاكم المستبد من حيث استحقاقه التعظيم والرفعة عن مساوماتهم له ومواخذته على تصرفاته ، فأصبحوا يعظمون الجبابة تعظيمهم لله .

وهذه الحال هى التى سهلت فى الأمم الغابرة دعوى بعض المستبدين الألوهية على مراتب مختلفة ، حسب استعداد أذهان الرعية ، حتى يقال إنه ما من مستبد سياسى إلا واتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله سبحانه وتعالى ، أو تعطيه مقاماً ذا صلة بالله . ومثل هذا الحاكم المستبد كان يتخذ بطانة من أهل الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الدين . وسفه الكراكبي رأى الزاعمين بأن القرآن جاء باستبداد مؤيد للاستبداد السياسى أو مؤيد به . وأكد أن القرآن الكريم جاء مشحوناً بتعاليم لإحياء العدل والمساواة وهدم الشرك هدماً كلياً ومحو الاستبداد محواً تاماً ، وفيه الآيات البينات على لسان بلقيس ملكة سبأ من عرب ، تتبع تخاطب أشراف قومها : يا أيها الملأ أفتخرى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ، قالوا نحن أولو قوة . وأولو بأس شديد ، والأمراليك ، فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا

أمره أهلها أدلة ، وكذلك يفعلون^(١) . فهذه القصة تعلم كيف ينبغي أن يستشير الملوك الملأ ، أي أشرف الرعية ، ألا يقطعوا أمراً إلا برأيهم ، وأن تحفظ القوة والبأس في يد الرعية ، وأن يخصص الملوك بالتنفيذ ويكرّموا بنسبة الأمر إليهم . ومن هذا الباب أيضاً ماورد في قصة موسى عليه السلام مع فرعون في قوله تعالى : « قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم لماذا تأمرون^(٢) » ، أي قال الأشراف بعضهم لبعض : ما رأيكم ؟ « قالوا خطاباً لفرعون ، وهو قرارهم ، « أوجه^(٣) وأخاه ، وأرسل في المدن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليهم^(٤) » ، كما وصف مناقشاتهم بقوله تعالى : « فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى^(٥) » أي أدت مناقشاتهم العلنية إلى النزاع فأجروا مناقشة سرية . وخلص الكوكبي من ذكر هذه الأمثلة إلى القول بأنه لا مجال لرمي الإسلام بالاستبداد بعد أمثال هذه الآيات البينات المفسرات للمراد من قوله تعالى : « وشارهم في الأمر^(٦) » ، وكذلك قوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم^(٧) » ، وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم^(٨) » ، أي أصحاب الشأن منكم ، وهم العلماء والرؤساء ، على ما اتفق عليه أكثر المفسرين . فجاء الإسلام مقررّاً لقواعد الحرية السياسية التي تتوسط بين الديمقراطية والشورى الأرستقراطية أي شورى الأشراف ، كما أنه لا يوجد في الإسلام نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل إقامة الدين . ومضى الكوكبي يقول إن الإسلام أوجد حكومة مثالية كحكومة الخلفاء الراشدين . فقد فهم هؤلاء الراشدون معنى القرآن وعملوا به واتخذوه إماماً ، وأنشأوا حكومة قننت بالمساواة حتى بينهم أنفسهم وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشغلها ، وغرسوا في المسلمين عواطف أخوية وتكافلاً اجتماعياً لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون في كنف أسرة واحدة . وأضاف الكوكبي إلى ذلك قوله إنه على الرغم من أن الإسلام قد رفع الأغلال ، وأباد التمايز ، ومحا الاستبداد ، سطا للمستبدون على الإسلام واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الأمة شيعاً ، وجعلوه آلة لأهوائهم وأدخلوا فيه مالبس منه . وأهل المسلمون مراقبة الحكام وسيطرتهم وضرربوا صفحاً عن مسايلهم ومواخلتهم ، الأمر الذي أوسع للحكام والمسلمين مجال الاستبداد وتجاوز الحدود . ولم يقف البلاء عند هذا الحد ، فقد اقتبس المسلمون مالبس في دينهم من احترام حكاهم احترام عبادة ، وطاعتهم طاعة عمياء ، وحاكوا مظاهر التقديسين

(١) سورة النمل : الآيات الكريمة من ٢٢ إلى ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف ، الآيتان الكريمتان ١٠٩ ، ١١٠ .

(٣) أي آخر أمرهما .

(٤) سورة الأعراف ، الآيتان الكريمتان ١١١ ، ١١٢ .

(٥) سورة طه ، الآية الكريمة ٦٢ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية الكريمة ١٥٩ .

(٧) سورة الشورى ، الآية الكريمة ٣٨ .

(٨) سورة النساء ، الآية الكريمة ٥٩ .

والدعاة المنصرين ، وقتلوا رجال الكهنوت في مراتبهم وتميزهم في ألبستهم وشعورهم ، وإمرار اليد على الصدر عند ذكر الصالحين على غرار مايفعل المسيحيون عند إمرار أيديهم على صدورهم إشارة للصليب . ورأى الكوليكبي أن هذه المقتبسات هي أمهات الاستبداد وسلاسل الاستعباد ، وهي التي أفسدت الدين وأشقت الإنسان ، وأبعدته عن جوهر القرآن وعظمة ما فيه من معجزة وإعجاز .

وفى الفصل الثانى تكلم عن «الاستبداد والعلم» .. فقال إن من أسباب الاستبداد هو الجهل فى الرعية . والحاكم المستبد يخشى العلوم التى توسع العقول وتعرف الإنسان مآل الإنسان وماهى حقوقه . والمستبد يستحق نفسه كلما صادف من هو أرقى منه علماً ، ولذلك يكره أن يرى وجه عالم ذكى ، فإذا اضطر إليه اختار المتصاغر للمتلئق .. فبين العلم والاستبداد حرب دائمة ، يسعى العلم فى نشر الحرية ، ويسعى الاستبداد فى إخمادها ، وفى الغالب يطارد الحكام المستبدون رجال العلم ، ويتكلمون بهم ، ويسخرون منهم ، ويضعونهم فى نهاية الصفوف كى يقضوا حياتهم على هامش الحياة ، والسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة بلاده ، وهذا هو السبب فى أن أكثر الأنبياء ، ومعظم العلماء الأعلام ، والأدباء النابهيين ، نقلوا فى البلاد وماتوا غرباء . وإن خير مايستدل به على صفة السياسة فى الأمم سطوة الملوك ، وفخامة القصور ، وعظمة اللحفلات ، ومراسم التشريعات . وكلما زاد المستبد ظلماً واعتصافاً زاد خوفه من رعيته ، ومن حاشيته ، وحتى من هواجسه وخيالاته .

وفى الفصل الثالث تحدث الكوليكبي عن «الاستبداد والمجد» ، وقال إن للمجد إحراز المرء مقام الحب والتقدير فى القلوب ، وهو أمر طبيعى يتوق إليه النبلاء وأصحاب النفوس الكبيرة . ولكن الاستبداد يحارب ويفالغ المجد ، ويقيم مكانه التمجيد ، والتمجد هو القرب من المستبد بوسام ، أو تشرف بلقب أو منصب دى جاء ونفذ . والتمجد شخص مخداع ، يظهر غير مايبطن ، يحرص على المغامم التى يظفر بها من الحاكم للمستبد . وفى سبيل حرصه يتحمل الإساءات والإهانات التى تقع عليه من قبل الحاكم المستبد ، بل يجتهد فى عدو للعدل ، وهذا مايقصده المستبد من إيجاد المتجدين والإكثار منهم ، فهم العصاة التى تساعد على ظلم الرعية ، منهم الوزراء ، والموظفون ، والقادة ، وهم يشاركونه فى امتصاص دم الأمة بأخذهم المطايا الكبيرة والمربقات العالية . والمستبد لايتصنع إلا الأسافل الأرزال ، ولايميل لغير المتملقين المنافقين كما هو شأن سيدهم المستبد الأكبر . ولذلك فإن كل رجال عهود الاستبداد لاخلق لهم ولاحمية ، ولايرجى منهم خير مطلقاً ، وإن كل مايتظاهرون به أحياناً من التذمر والتألم بقصدون به تزيير وخداع الأمة . فالمستبد فرد عاجز لا قوة فيه ولا حول له إلا بالمتجدين ، ولايخلص الأمة إلا العقلاء الأبرار الذين يشتررون لها السعادة بشقايتهم ، وللحياة بموتهم .

وفى الفصل الرابع عالج الكوليكبي موضوع «الاستبداد والمال» ، فوصف المال بأن القوة

مال ، والمقل مال ، والاقتصاد مال ، وكل ما ينتفع بثمرته الإنسان هو مال . وكل هذه الأسباب وثمراتها معرضة لإفساد الاستبداد ، وقال إن النظام الطبيعي في كل الحيوانات أن تتكسب الرزق من موارده الطبيعي ، وإن الإنسان يلمسه عند أخيه . وعاش الإنسان دهرًا طويلاً يأكل لحم الإنسان فعلاً ، إلى أن تمكن حكماء الصين والهند من إبطال أكل اللحم كلياً ، وإلى أن جاءت الشرائع الدينية الأولى بتخصيص مايؤكل من الإنسان بالقربان الذي يذبح للمعبود ، ثم أبقت القربان وجعلت الذبيح طعمة للديران حتى تدرج الإنسان إلى نسيان لذة لحم إخوانه . وقد استبدل الله على يد إبراهيم عليه السلام ، الحيوان بقربان البشر ، وابتع موسى وبقية الأنبياء عليهم السلام ، به جاء الإسلام . أما عيسى فإنه استعاض الخبز بالحيوان . وهكذا بطل أكل الإنسان لحم الإنسان . غير أن الاستبداد أحياناً سئ أكل البشر بشكل أدهى وأمر ، وذلك أنه جعل الأقوام طعمة للمستبددين ، فالأخيريون يذبحون البشر قصداً بمبضع الظلم ، ويمتصون دماء حياتهم باغتصاب أموالهم ، ويعصفون بأعمارهم باستغلالهم استغلالاً مشيناً ومهلكاً باستخدامهم وفق نظام السخرة في أعمالهم ، أو ينصب ثمرات أتعابهم .

وخلص الكواكبي من هذا القول إلى أنه لافرق بين الأولين والآخرين في نهب الأعمار إلا في الشكل ، وتمتع رجال السياسة والأديان ومن يلحق بهم بنصف مايكسب البشر ينفقونه في الرفاهية ، فيزينون للشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها أحياناً ، ولا يفكرون في ملايين من الفقراء الذين يعيشون في بيوتهم في الظلام . والاستبداد السياسي يتولد عنه الاستبداد المالي ، كلاهما قرين للآخر ، لصيق به . وفي ظل الاستبداد بدويعه ، تعيش طبقة مترفة عالية على المجتمع ، لاتعمل شيئاً ، ولكنها تتمتع بدخول عالية ، وتلحق بها جماعة من التجار الشرهين والمحتركين يعيشون فيترف ونعيم لايعرفهما سائر أفراد الشعب .

ويعبد الحكام المستبدون ورجال الأديان والتجار الشرهون المال والجمال ، فيجندون إلى جمع مزيد من الثروات ويحرمون الآخرين من الرزق . ولهذا قامت في بعض الدول جمعيات تكافح ضد الاستبداد المالي ، وتطالب بالتقارب في الأحوال المعيشية بين البشر لئلا يمتدح عار الاستبداد المالي وتقضى على الاحتكار ومزاحمة الضعفاء . ورد المستبدون فوضوا تشريعات لحماية احتكارهم والإبقاء على أوضاعهم المتميزة . ونجم عن ذلك اختلال في الملكية وتفاوت شديد في الدخول ومصادر الثروة ، وأصبح أناس يملكون الأراضي الواسعة ، وعاش الباقيون لايجدون أرضاً يفتاتون منها أو ينامون عليها . فإذا لم تستدرك حكومات الشرق هذا الخلل بقانون يحدد الملكية الزراعية والعقارية ويضع حدوداً للدخول العالية ، فإن الفقر يزداد ، ويطغى المحتركون ، وتفسد الأخلاق ، وتزداد وطأة الاستبداد ويبني النقي على الفقير ، ويجعله مستعبداً له ، ويسلبه أعز مالهديه . وهذا الاستبداد مجلبة للبلاء يخيف الفقراء ، ولايجرأون على طلب الحرية ، وبذلك يشغون بسيطرة الأغنياء على كل المقدسات .

وفى الفصل الخامس تحدث الكواكبي عن «الاستبداد والأخلاق» فرأى أن الاستبداد يفسد الأخلاق ، ويسوق إلى حقد الإنسان على قومه ، لأنهم عون للاستبداد عليه ، ويضعف حب الوطن ، لأن الفرد يجد أنه غير آمن على الاستقرار ، يود لو انتقل من وطنه ، ويضعف رباط الأسرة لأنه لا يطمئن على دوام علاقته معها ، ولا يملك أسير الاستبداد شيئاً يحرص على الاحتفاظ به ، لأنه إذا ملك مالا يعرف أن هذا المال معرض للسلب ، وأن شرفه معرض للإهانة . وهذه الحال تجعل الأسير لا ينوق لذة غير بعض الملذات البهيمية فيحرص عليها وإن كانت تيمسة ، لأنه لا يعرف غيرها من حياة أدبية رفيعة أو حياة اجتماعية راقية .

والاستبداد يسلب الراحة الفكرية فيضنى الأجسام فوق صنائها بالشقاء ، فمرض العقول على درجات متفاوتة في الناس ، ويرون آثار الأبهة والعظمة على المستبد وأعوانه فتبهير أبصرهم ، وينصاعون بين يديه كما تنصاع الأغنام بين أيدي الذئاب حيث هي تجرى على قدميها إلى حتفها . ولهذا كان الاستبداد يستولى على العقول الضعيفة للعامّة ، فضلاً عن الأجسام فيفسدها كما يريد ، ويتغلب على تلك الأذهان الضديلة فيشوق فيها الحقائق على الليديهيّات كما يهوى . ولا غرابة في تأثير ضعف الأجسام على الضعف في العقول ، فإن في المرضى وخفة عقولهم ، وذوى العاهات ونقص إدراكهم ، شاهداً بيناً كافياً يقاس عليه نقص عقول الأسراء البؤساء بالنسبة إلى الأحرار السعداء .

وقد تلاعب القياصرة والملوك في قلب الحقائق ، فعبثوا بالأديان وسخوها لخدمتهم تأييداً لاستبدادهم . وقد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكى المتظلم مفسد ، والنبية المدقق ملحد ، والخامل للمسكين صالح أمين ، وسار في ركاب المستبدين المؤرخون ، وأطلقوا عليهم شتى الألقاب ، مثل الفاتحين والعظماء والغالبين ، وأعلوا قدر من ساعد المستبدين ، وكذلك افتخار الأخلاف بأسلافهم المجرمين الذين كانوا من هؤلاء الأعوان الأشرار . ومضى الكواكبي يقول إن المستبدين يعلمون الناس الانقياد عن خوف وجبن ، وفي ظل الاستبداد يألف الناس اللغاف والرياء ، ويجدون في الأجندى ميزات لا يجدونها عند أبناء جلدتهم ، فينظرون إليه في ثقة واعتماد ويأمنون له . وقد عمل الأنبياء على إنقاذ الأمم من شقائهم بفك العقول من تعظيم غير الله ، ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة ، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته أى حريته في أفكاره ، وبذلك هدموا حصون الاستبداد ، وسدوا منابع الفساد . وتبع الأنبياء في سلوك هذا الطريق الحكماء السياسيون الأقدمون ، فحرروا الضمائر . وإن الشرقيين في حاضرهم بعيدون عن الجد والعزم ، ويرتاحون إلى اللهو والهزل طلباً لراحة الفكر ، يقنعون بالدعاء والتمنى ، ويطلبون بالوظائف . وماداموا كذلك فلينظروا ما حاق بالأمم المنقرضة ، ولينظروا مصيراً كمصيرهم .

وفى الفصل السادس ناقش موضوع «الاستبداد والتربية» ، واستهله الكواكبي بقوله إن الله خلق في الإنسان استعداداً للصالح واستعداداً للفساد ، فأبواه يصلحانه ، وأبواه يفسدانه ، أى إن

التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وقال إنه سبق أن ذكر في الفصول السابقة أن الاستبداد يؤثر على الأجسام فيورثها الأسقام ، ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق ، ويضغط على العقول ليمنع نماءها بالعلم ، وبناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج ، فكل ماتبيد التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته ، ولا يتم بناء وراءه هادم .

والإنسان لاحت لغايتيه رقياً وانحطاطاً ، فهو إن شاء الكمال بلغ فيه شأواً بعيداً ، وإن شاء التلبس بالذائل كان أحط من الشياطين ، على أن الإنسان أقرب للشر منه للخير . وكفى أن الله ماذكر الإنسان في القرآن ، إلا وقرن اسمه بوصف قبيح : كظلم ، وغرور ، وكفار ، وجبار ، وجهول ، وأثيم . وماذكر الله تعالى الإنسان في القرآن إلا وهجاه ، فقال : « قتل الإنسان ما أكفره » (١) و « إن الإنسان لكفور مبين » (٢) و « إن الإنسان لفي خسر » (٣) و « إن الإنسان ليطغى » (٤) و « خلق الإنسان عجولاً » (٥) و « خلق الإنسان من عجل » (٦) . وما وجد من مخلوقات الله من نازع الله في عظمته ، والمستبدون من الإنسان ينازعونه فيها ، والاستبداد يبقى على المتدين الذي يفتع بعبارات مجردة لاتنتهي عن فحشاء ولا منكر ، لفقد الإخلاص فيها .. فقد ألقت النفوس أن تلجأ إلى الكذب والرياء والخداع والنفاق في ظل الاستبداد ، فلأتأنف بعد ذلك من أن تستعمل هذه الطوائع مع الرب والأب والأم والقوم حتى مع النفس .

والحكومات العادلة تعنى بالنسل في زواجه وأولاده ومعايشه وآدابه ، فيعيش النسل بعملة ينعم بالرزق . ولكن الحكومات المستبدة تبعث الحيرة وتميت الآمال . ولذلك يتمسح أسرى الاستبداد بالدين ، يطلون النفس بسعادة أخروية ، ، ويسلون بها بمثبطات تهون من حياتهم الدنيلة ، فلا يثذبون مما يملكون ، ويهبون أولادهم عبيداً للسلطة ، لأنهم يائسون من إصلاحهم في ظل الاستبداد ، لا يجدون صحة ولا علماً ولا غذاءً ، وإنما يأفون الشقاء والتصديق والفقر ، ويرضونه أبناءهم بدمهم ، فتتخط الأمة إلى الأبد . وخلص الكوكبي من عرضه إلى أن التربية غير مقصودة ولا مقدورة في ظل الاستبداد إلا ماقد يكون بالخوف من القوة القاهرة . وهذا النوع يستلزم انخلاع القلوب لاتزكية النفوس . وقد أجمع علماء الاجتماع والأخلاق والتربية على أن الإقناع خير من الترغيب فضلاً عن الترهيب ، وأن التعليم مع الحرية بين المعلم والمتعلم أفضل من التعليم مع الوفاق ، وأن التعليم عن رغبة في التكملة أرسخ من العلم الحاصل طمعاً في المكافأة ، أو غيره من الأقران .

(١) سورة عيس ، الآية الكريمة ١٧ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية الكريمة ٩٥ .

(٣) سورة العصر ، الآية الكريمة ٢ .

(٤) سورة العلق ، الآية الكريمة ٦ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية الكريمة ١١ .

(٦) سورة الأنبياء ، الآية الكريمة ٣٧ .

وفى الفصل السابع ، ناقش موضوع «الاستبداد والترفى» ، فقال إن الترفى يكون فى الصحة والقوة والعلم والمال . والإنسان يصعد مدارج الرقى مالم يعترضه مانع يسلب إرادته كالعجز أو الاستبداد ؛ فالاستبداد يسير بالإنسان إلى الانحطاط ، فيشعر بمضى السنوات أنه كالحيوان لا يهتم بغير ملذاته البهيمية . فطى قادة الأمم أن يقنعوا الناس بأنهم خلقوا لغير المذلة والمسكنة .

وقد وضع الكواكبى عشرين خطبة مثالية فى إثارة الشعور وإيقاظ الهمم وإبعاد الشعب عن العبودية والاستبداد ، ثم انتقل إلى موضوع الأوروبيين فقال إن الاستعمار الأوروبى مهما طال أمده فى الشرق ، فهو لا يخرج عن كونه تاجراً يستنزف ثروات الشرق ولا يخدم العلم فيه ، ويحذر الأوروبيين من ظلمهم للشرق ويذكرهم بفضل الشرق عليهم . ووجه كلامه بعد ذلك إلى أهل الشرق فقال لهم اللوم على تصاغرهم وعلى تملقهم . وقال إن الاستبداد يبلغ فى الانحطاط بالأمة إلى الموت ، وعلى أفراد الأمة أن يقفوا سداً منيعاً فى وجه الاستبداد حين يعتقدون أنه ليست هناك قوة ، وليس هناك نفوذ لغير الشرع الذى هو حبل الله المتين .

وفى الفصل الثامن والأخير ، عالج موضوع «الاستبداد والتخلص منه» ، ولطه من أهم فصول الكتاب ، وسنخصه بشيء من التفصيل ، لأنه لب الكتاب وجوهه . فقال إن تقرير شكل الحكومة هو أقدم وأخطر مشكلة واجهها للبشر منذ عصور سحيقة فى التاريخ ، وهو المعترك الأكبر لأفكار الباحثين . ولم يهتدوا إلى طريق مثالى فى الحكم . وقد جال الغربيون فى هذا السبيل ، وقرروا بعض قواعد أساسية فى هذا الموضوع تصافر عليها العقل والتجرب إلى أن حصص فيها الحق ، فصارت من المقررات الإجماعية عند الأمم الراقية . ولا يقل من قيمتها أن هذه الأمم لاتزال منقسمة فى أحزاب سياسية اختلف أفراد الشعب حيالها شيعاً ، لأن اختلافهم هو فى وجه تطبيق تلك القواعد . وقد صارت تلك القواعد قضايا بديهية فى الغرب ، لكنها لاتزال مجهولة أو غريبة أو منفوراً منها لدى أهل الشرق ؛ لأنها عند الأكثرين منهم لم تطرق أسماعهم ، وعند البعض لم تثل التفاتهم ، وعند آخرين لم تحز قبولاً ، لأنهم ذوو غرض أو فى قلوبهم مرض ؛ وطرح الكواكبى على بساط البحث رموس بعض المباحث التى تتعلق بها الحياة السياسية ، ودعا إلى التدقيق فيها ، وكانت :

(١) مبحث ماهى الأمة أى الشعب :

هل هى ركام مخلوقات نامية أو جمعية عبيد لمالك مغلب ، وظيفتهم الطاعة والانقياد ولو كرهاً ، أو هى جمع بينهم روابط دين أو جنس أو لغة ، ووطن ، وحقوق مشتركة ، وجامعة اسلامية مختارة ، لكل فرد الحق فى إبداء رأيه ؟

(٢) مبحث ماهى الحكومة :

هل هى سلطة امتلاك فرد لجمع ، يتصرف فى رقابهم ، ويتمتع بثمار أعمالهم ، ويفعل

مايشاء بإرادته ، أم هى وكالة تقام بإرادة الأمة لأجل إدارة شئونها العامة ؟

(٣) مبحث ماهى الحقوق العامة :

هل هى حقوق آحاد الملوك ، ولكنها تضاف للأمم مجازاً ، أو بالعكس هى حقوق مجموع الأمة ، وتضاف للملوك مجازاً ، ولهم عليها ولاية الأمانة والإدارة مثل الأراضى والمعادن ، والأنهر والسواحل ، والقلاع والأساطيل والمعدات وولاية الحدود ، والأمن العام ، والمعابد ، وإقامة العدل والنظام ، وحفظ وصيانة الدين والآداب إلى غير ذلك مما يحق لكل فرد من الأمة أن يتمتع به ، وأن يطمئن عليه ؟

(٤) مبحث المساواة فى الحقوق العامة :

هل للحكومة للتصرف فى الحقوق العامة ، المادية والأدبية ، كما تشاء بذلاً وحرماناً ، أو تكون للحقوق مكفولة للجميع بالمساواة والشيوخ ، وتكون المغنم والمغارم العامة موزعة على الجميع بنسب عادلة ؟

(٥) مبحث الحقوق الشخصية :

هل الحكومة تملك السيطرة على الأعمال والأفكار ، أو يكون أفراد الأمة أحراراً فى الفكر مطلقاً ، وفى الفعل مالم يخالف القانون الاجتماعى ، لأنهم أدرى بمنافعهم الشخصية ، والحكومة لا تتدخل إلا فى الشئون العامة ؟

(٦) مبحث نوعية الحكومة :

هل الأصلح هى الملكية المطلقة من كل زمام ، أو الملكية المقيدة ، وما القيود ؟ أو الرئاسة الانتخابية الدائمة مع الحياة أو المؤقتة إلى أجل ؟ وهل ينال الحاكم الحكم بالوراثة ، أو العهد ، أو الغلبة ؟ وهل يكون ذلك مكا تشاء الصدفة أو مع ضرورة توفر شروط الكفاية ، وماهذه الشروط وكيف يمكن تحقيق وجودها ، وكيف يراقب استمرارها ، وكيف تستمر المراقبة عليها ؟

(٧) مبحث ماهى وظائف الحكومة :

هل هى إدارة شئون الأمة حسب الرأى والاجتهاد ، أو تكون مقيدة بقانون موافق لرغبات الأمة وإن خالف الأصلح . ولذا اختلفت للحكومة مع الأمة فى اعتبار الصالح والمضر فهل على الحكومة أن تغادر مقاعدها ؟

(٨) مبحث حقوق الحاكمين :

هل للحكومة أن تخصص بنفسها لنفسها منشاء من مراتب العظمة ورواتب المال ،

ويتحايى من تريد بما نشاء من حقوق الأمة وأموالها ؟ أو يكون التصرف فى ذلك كله إعطاءً ، وتحديدًا ، وملعاً ، منوطاً بالأمة ؟

(٩) مبحث طاعة الأمة للحكومة :

هل الإرادة للأمة ، وعلى الحكومة العمل ، أو الإرادة للحكومة ، وعلى الأمة الطاعة ، وهل للحكومة تكليف الأمة طاعة عمياء بلا فهم ولا اقتناع ، أو عليها الاعتناء بوسائل التفهيم لتأتى الطاعة بإخلاص وأمان ؟

(١٠) مبحث توزيع التكاليفات :

هل يكون وضع الضرائب مفوضاً لرأى الحكومة ، أو تقرر الأمة النفقات اللازمة وتعين موارد المال ، وترتب طرائق جبايته وحفظه ؟

(١١) مبحث إعداد القوات المسلحة :

هل يكون إعداد القوات المقاتلة بالتجنيد والتسليح استعداداً للدفاع مفوضاً لإرادة الحكومة إعمالاً ، أو إقلالاً ، أو إكثاراً ، أو استعمالاً على قهر الأمة ، أو يلزم أن يكون ذلك برأى الأمة وتحت أمرها ، بحيث تكون القوات المسلحة منفذة لرغبة الأمة لا لرغبة الحكومة ؟

(١٢) مبحث المراقبة على الحكومة :

هل تكون الحكومة غير معرضة للمعاملة عن تصرفاتها ، أو يكون للأمة حق السيطرة عليها لأن الشأن شأنها ، فلها أن تنيب عنها وكلاء لهم حق الاطلاع على كل شىء ، ويكون أهم وظائف النواب حفظ الحقوق الأساسية المقررة للأمة على الحكومة ؟

(١٣) مبحث حفظ الأمن العام :

هل يكون الشخص مكلفاً بحراسة نفسه ومتعلقاته ، أو تكون الحكومة مكلفة بحراسته مقيماً ومسافراً حتى من بعض طوارئ الطبيعة بالحيولة لا بالمجازاة والتعويض ؟

(١٤) مبحث سيادة القانون :

هل يكون للحكومة إيقاع عمل إكراهى على الأفراد برأيها ، أى دون الوسائط القانونية ، أو تكون السلطة محصورة فى القانون ، إلا فى ظروف مخصوصة ومؤقتة ؟

(١٥) مبحث تأمين العدالة القضائية :

هل يكون العدل مائتراه الحكومة ، أو مايراه القضاة المصون وجدانهم من كل مؤثر غير الشرع والحق ، ومن كل ضغط حتى ضغط الرأى العام ؟

(١٦) مبحث حفظ الدين والآداب العامة :

هل تكون للحكومة ولو الهيئة القضائية سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر ، أو تقتصر وظيفتها على استعمال الحكمة دون الزواجر في حفظ الجامعات الكبرى كالدين ، والجنسية ، واللغة ، والعادات ، والآداب العامة ، ولاتتدخل الحكومة في أمر الدين إلا إذا انتهكت حرمة ، وهل السياسة الإسلامية سياسة دينية ، أو كان ذلك في مبدأ ظهور الإسلام ، كالإدارة العرفية عقب الفتح ؟

(١٧) مبحث تعيين الأعمال بقوانين :

هل يكون في الحكومة ، من الحاكم إلى رجل الشرطة ، من يطلق له عنان التصرف برأيه وخبرته ، أو يلزم تعيين الوظائف ، كلياتها وجزئياتها ، بقوانين صريحة واضحة ، لاتسرع مخالفتها ولو لمصلحة مهمة ، إلا في حالات الخطر الكبير ؟

(١٨) مبحث كيف توضع القوانين :

هل يكون وضعها منوطاً برأى الحاكم الأكبر ، أو رأى جماعة ينتخبهم لذلك ، أو يضع القوانين جمع منتخب من قبل الكافة ؛ ليكونوا عارفين حتماً بحاجات قومهم ، وما يلائم طبائعهم ومواقفهم ومصالحهم ، ويكون حكمه عاماً أو مختلفاً على حسب تخالف العناصر والطبائع وتغير الموجبات والأزمان ؟

(١٩) مبحث ماهو القانون وقوته :

هل القانون هو أحكام يحث بها القوى على الضعيف ، أم أحكام منزعجة من روابط الناس بعضهم ببعض ، وملاحظ فيها طبائع أكثرية الأفراد ومن نصوص خالية من القموض والتعقيد ، وحكمها شامل كل الطبقات ، ولها سلطان نافذ قاهر مصون من مؤثرات الأغراض ، والشفاعة ، والشفقة ، وبذلك يكون القانون هو القانون الطبيعي للأمة ، فيكون محترماً عند الكافة ، مضمون الحماية من قبل كل أفراد الأمة ؟

(٢٠) مبحث توزيع الأعمال والوظائف :

هل يكون الحظ في ذلك مخصوصاً بأقارب الحاكم وعشيرته ومقربيه ، أو توزع كتوزيع الحقوق العامة على كافة القبائل والفصائل ، ولو مناوبة مع ملاحظات الأهمية والعدد ، بحيث يكون رجال الحكومة نموذجاً من الأمة ، أم هم الأمة مصغرة ، وعلى الأمة إيجاد الكفاية والأعداد ولو بالتعليم الإجباري ؟

(٢١) مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم :

هل يجمع بين سلطتين أو ثلاث في شخص واحد ، أو تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها باتقان ، ولا إتقان إلا بالتخصص ، وفي مجال التخصص ، كما جاء في الحكمة القرآنية «ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه»^(١) ، ولذلك لا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة .

(٢٢) مبحث الترقى في العلوم والمعارف :

هل يدرك للحكومة صلاحية الضغط على العقول حتى لا يقوى نفوذ الأمة عليها ، أو تحمل على توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائي عموماً بالنشويق أو الإجبار ، ويجعل الكمال منه سهلاً للمتناول ، وجعل التعليم والتعلم حراً مطلقاً ؟

(٢٣) مبحث التوسع في الزراعة والتصنيع والتجارة :

هل يدرك هذا النشاط المفقود في الأمة ، أو تلزم للحكومة بالاجتهاد في تسهيل مجارة الأمم المتقدمة ، لا سيما المزاحمة والمجاورة ؛ حتى لا تهلك الأمة بالحاجة إلى غيرها أو تضعف بالفقر ؟

(٢٤) مبحث السعى في العمران :

هل يدرك ذلك لإهمال الحكومة للميت لعزة نفس السكان ، أو لإنهماكهما فيه إسرافاً وتبذيراً ، أو تحمل على اتباع الاعتدال المتناسب مع للثروة العامة ؟

(٢٥) مبحث السعى في رفع الاستبداد :

هل ينتظر ذلك من الحكومة ذاتها ، أو نوال الحرية ورفع الاستبداد رفعا لا يدرك مجالاً لعودته من وظيفة عقلاء الأمة^(٢) .

ومن بين هذه الخمسة وعشرين مبحثاً لم يناقش الكواكبي سوى للمبحث الأخير ، وهو مبحث السعى في رفع الاستبداد ، فنذكر ثلاث قواعد رئيسية ، هي :

أولاً : الأمة التي لا يشعر جميع أفرادها أو غالبيتهم بالآلام الاستبداد لا تستحق الحرية .

ثانياً : الاستبداد لا يقاوم بالشدّة ، إنما يقاوم باللين والتدرج .

ثالثاً : يجب قبل مقاومة الاستبداد تهئية النظام السياسي الذي يحل محل الاستبداد .

(١) سورة الأحزاب ، الآية الكريمة ٤ .

(٢) لكتنر عبدالرحمن الكواكبي : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥-١٥١ .

وقال إن السعى في رفع الاستبداد وفقاً لهذه القواعد يبدو الأول وهلة أنه يستغرق أمداً بعيداً ؛ مما يبدد آمال الذين يرسفون في أغلال الاستبداد ، ويسر الحكام المستبدين ؛ ولذلك عمد الكواكبي إلى تذكير المستبدين بما أنذرهم به الكاتب الإيطالي الحر المشهور «فيكتور ألفيري» ، Victor Alfieri^(١) حيث قال «لايفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه ، فكم من جبار عنيد جند له مظلوم صغور ، ثم أضاف الكواكبي إلى هذه العبارة جملة من عنده وإني أقول كم من جبار قهار أخذه الله أخذ عزيز منتقم .

ناقش الكواكبي القاعدة الأولى ، وهي أن الأمة التي لاتشعر بآلام الاستبداد لاتستحق الحرية ، فقال إن الأمة إذا ضربت عليها الذلة والمسكنة وتوالت عليها القرون وهي في هذا الوضع اللذيل تصير كالبهائم ، أو دون البهائم ، لاتسأل عن الحرية ، ولاتلتصم العدالة ، ولاتعرف الاستقلال قيمة ، أو للنظام مزية ، ولاترى لها في الحياة وظيفة غير الخضوع الأعلى للغالب عليها ، أحسن أو أساء على حد سواء ، وقد تنغم على المستبد نادراً ، ولكن طلباً للانتقام من شخصه ، لا طلباً للخلاص من الاستبداد ، فلا تستفيد شيئاً ، إنما تستبدل مرضاً بمرض ، كمفص بصداع .

وربما تنال الأمة الحرية عقواً ، فلانستفيد منها شيئاً ، لأنها لاتعرف طعمها ، فلانتمم بالحفاظ عليها ، فلا تلبث الحرية أن تنقلب إلى فوضى . ولهذا قرر الحكماء أن الحرية التي تنفع الأمة هي التي تحصل عليها بعد الاستعداد لقبولها . وأما التي تنظر بها على أثر ثورة حمقاء فقلما تنفيد شيئاً ؛ لأن الثورة غالباً تكفي بقطع شجرة الاستبداد ولاتقتلع جذورها ، فلا تلبث أن تلتب وتعود وتعود أقوى مما كانت أولاً . فإذا وجد في الأمة السينة من تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها .. فعليه أولاً أن يبعث فيها الحياة بإعلامها أن حالتها سيئة ، وأن بالإمكان تحويل حالتها السيئة إلى حالة خير منها ، فإذا هي علمت هذه الحقيقة ، يبتدئ فيها الشعور بآلام الاستبداد ، ثم يتسع نطاق هذا الشعور رويداً رويداً حتى يشمل أكثر الأمة ، وينتهي بالتحمس ، ويبلغ لسان حالها منزلة رقيقة وصفها المعري :

إذا لم تقم بالعدل فينا حكومة فنحن على نغييرها قداراً

(١) هو شاعر وكاتب إيطالي مشهور (١٧٤٩-١٨٠٣) واد في أسنتي Asiti ، وهو كالكواكبي ينحدر من بيت شرف ونبل . ساح في أوروبا نحو سبع سنوات ، وألف كتاباً عن ماري ستيوارت Marie Stuart ، ووضع رواية اسمها ميروب Merope وهي رواية تراجيكية شعرية في خمسة فصول . ودرس مؤلفات فولتير ، وروسو ، ومونتسكيو ، وتشبع بأرائهم الحرة ، وعشق الحرية ، وذكره الاستبداد كراهية شديدة ، ووجه كتاباته للتغني بالحرية ومناهضة الاستبداد على لسان أبطال رواياته . وأخذ الكواكبي عن القواعد والكليات والأمثال التي ضربها لأوضاع الاستبداد والحرية في أوروبا ، ثم تمثلها بما يناسب البيئة الشرقية والعقيدة الإسلامية ، وأضاف إليها الكثير من آرائه بعقريه ملحوظة ، ومقترة على الطلق والإبداع ، كما كان فكر فيكتور ألفيري منيراً له في طرق هذه الموضوعات في كتابه ، وفتحاً له هذا الميدان من ميادين التأليف .

وهكذا يندفع كالسيل فكر الأمة في وإد ظاهر الحكمة ، ولا يتوقف حتى يبلغ منتهاه . ثم معنى الكواكبي يشرح طرق نشر وسائل الاستنارة بين الناشئة في الأمم المينة والسلوك الذي يتعين عليهم انتهاجه في هذا السبيل ، فقال إن الأمم المينة لا يندر فيها ذوو الشهامة ، إنما الأسف أن يندر فيها من يهتدى في أول نشأته إلى الطريق الذي يحصل به على المكانة التي تجعله مسموع الكلمة في قومه .

ونبه الناشئة أن من يأمن في نفسه استعداداً للمجد الحقيقي فليحرص على بعض وصايا ذكرها لهم ، وكان من بينها : أن يجتهد في تنمية معلوماته بصفة عامة ولا سيما في العلوم النافعة كالحقوق والسياسة والاقتصاد والتاريخ والجغرافية والإدارة الداخلية والإدارة الحربية ، فيكتسب من أصول وفروع هذه العلوم ما يمكنه إحرازه بالتلقي ، وإن تعذر قبال المطالعة مع التدقيق ، وأن يتقن أحد العلوم التي تكسبه في موقفه موقعاً محترماً وعلمياً متخصصاً كعلوم اللغة والدين ، أو الحقوق ، أو الطب ، وأن يحافظ على أدب وعادات قومه غاية المحافظة ، وأن يقلل اختلاطه مع الناس حتى مع رفقاته في المدرسة ؛ حفظاً للوقار ، وتحفظاً من الارتباط القوي مع أحد كيلا يسقط تبعاً لمعقود صاحب له ، وأن يتجنب كلياً مصاحبة المعقود عند الناس لاسيما للحكام ولو كان هذا الوقت بغير حق ، وأن يجتهد ما أمكنه في كتم مزيتة العلمية على الذين هم دونه في العلم لأجل أن يأمن عوامل حسدهم ، إنما عليه أن يظهرها لبعض من هم فوقه ، وأن يظهر الشفقة على الضعفاء والغيرة على الدين والإخلاص العميق للوطن ، وأن يتباعد ما أمكنه عن مقاربة المستبد وأعوانه إلا بمقدار ما يأمن به فطائع شرهم إذا كان معرضاً لذلك . فمن يبلغ سن الثلاثين ثم يتجاوزها ويكون حائزاً على الصفات المذكورة ، يكون قد أعد نفسه على أكمل وجه لإحراز ثقة قومه في وقت قصير عندما يريد . وبهذه الثقة يفعل ما لا تقوى عليه الجيوش والكتوز . وللخلاصة أن الراغب في إنهاء قومه ، عليه أن يهين نفسه ويؤن استعداداه ثم يعزم متوكلاً على الله في الدجاج .

وانتقل الكواكبي بعد ذلك إلى مناقشة القاعدة الثانية ، وهي أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة ، إنما يقاوم بالحكمة والتدريج ، فقال إن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقى الأمة في الإدراك والإحساس ، وهذا لا يأتى إلا بالتعليم وإثارة الحماس ، كما أن اقتناع الرأي العام وتوجيهه إلى غير ما ألفه ، لا يأتى إلا في زمن طويل ؛ لأن العوام مهما ارتقت مداركهم لا يسمعون باستبدال العافية بالشعريرة إلا بعد التروى المديد . وربما كانوا معززين في عدم الوثوق والمصارعة ، لأنهم ألفوا ألا يتوقعوا من الحكام المستبدين والأعوان والدعاة إلا الغش والخداع غالباً . وكثيراً ما ينتقم ضحايا الاستبداد من أعوان المستبد فقط ، ولا يسمون المستبد بسوء ؛ لأنهم يرون ظالمهم مباشرة هم الأعوان دون المستبد . وقضاً عن ذلك .. فالاستبداد محفوف بقوات ردة رهبة تدافع عن كيانه وجوده ، منها قوة الجنود ، لاسيما إذا كان هؤلاء

الجنود أغراباً عن البلاد ، وقوة المال ، وقوة الألفة على القسوة ، وقوة رجال الدين ، وقوة الإقطاعيين من أصحاب الثروات ، وقوة الأنصار من الأجانب . فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يقابل بعضا الرأي العام ، الذي هو في أول نشأته يكون أشبه بفوغاء . ومن طبيعة الرأي العام أنه إذا ثار في سنة خبا في سنة ، وإذا فار في يوم هذا في يوم ، ولذلك يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعداد المصحوبان بالحزم والإقدام . ولا تنبغي مقاومة الاستبداد بالعنف حتى لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً . وقد يبلغ الاستبداد بالعنف حتى لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً ، وقد يبلغ الاستبداد من الشدة درجة ابتداء ، حتى إذا سكنت ثورتها نوعاً وقضت وظيفتها في حصد المناققين ، حينئذ يستعملون الحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة ، وخير عدالة هي إقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد ولا علاقة لهم بالفتنة .

الأحوال التي يثور فيها غضب العامة على المستبد :

وقال الكواكبي إن العامة لا يثور غضبهم على الحاكم المستبد غالباً إلا عقب أحوال مخصوصة مهيجة فورية ، منها :

- (١) عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم .
- (٢) عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوباً ، ولا يستطيع إلقاء تبعة الهزيمة على خيانة قادة الجيش .
- (٣) إذا أقدم المستبد على إهانة الدين إهانة ، مصحوبة باستهزاء يثير ثائرة العامة .
- (٤) عقب تضيق شديد عام مقاضاة المال كثير لا يتيسر تقديمه ، حتى على أواسط الناس .
- (٥) في حالة مجاعة أو مصيبة عامة لا يرى الناس فيها مواساة ظاهرة من المستبد .
- (٦) عقب عمل للمستبد يستفز الغضب الفوري ، كتعرضه لأعراض السيدات ، أو حرمة الجنازات في الشرق ، وتعميره القانون أو الشرف الموروث في الغرب .
- (٧) عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الأمة عدواً لشرقيها ، وعندئذ يموج الناس في الطرقات ، وعلماً أصواتهم الفضاء ، وترتفع فتبلغ عنان السماء ، ينادون : الحق الحق ، الانتصار للحق ، للموت أو بلوغ الحق .

واستمر الكواكبي يقول إن المستبد مهما كان غيباً لا تخفى عليه تلك المزالق ، ومهما كان عنياً لا يغفل عن إتقانها ، كما أن هذه الأمور يعرفها أعوانه ووزراؤه . فإذا كان هناك فريق من هؤلاء يريدون للمستبد التهلكة يهرونه على الوقوع في إحداها ، يلصقونها به خلافاً لعادتهم في إبعادها عنه بالتصويه على الناس ، ولهذا يقال :

إن رئيس وزراء المستبد ، أو رئيس قواده ، أو رئيس الدين عنده ، هم أقدر الناس على الإيقاع به ، وهو يداريهم تحذراً من ذلك ، وإذا أراد إسقاط أحدهم فلا يوقعه إلا بقعة .

وأخذ الكواكبي يخطط للذين يريدون الإطاحة بالاستبداد ، فرسم لهم طرائق شتى لإثارة الخواطر على الحاكم المستبد : يزينون له الانغماس في الفسوق والشبهات حتى يستغرق هذا الانغماس وقته وتعمى أبصاره عن نشاطهم المعادي له ، ويغرونه برضاء الأمة عنه ، ويدفعونه إلى مزيد من الاستبداد بما تحمله هذه اللفظة من ظلم ومصادرة الأموال وانتهاك الحرمات واستخفاف بالدين ، ويحملونه على إساءة التقابير ، ويكتمون عنه الإرشاد ويغيرون له شتى المشكلات مع الدول الأخرى وحكامها . وهم يلجأون إلى هذه الوسائل وغيرها بالسر والبطء ، مستهدفين إيماده عن الانتباه إلى ما يببسون ؛ حتى لا يسد عليهم الطريق التي فيها يسلكون وينكل بهم تديكلاً رهيباً . أما أعوانه فلا وسيلة لإغفالهم عن إيقاظه غير تحريك أطعامهم المالية مع تركهم يذهبون ماشاءوا أن يذهبوا .

وانتقل الكواكبي إلى مناقشة للقاعدة الأخيرة ، وهي ضرورة تفكير المتصدين في تهيئة النظام السياسي الجديد الذي يحل محل الاستبداد بعد القضاء عليه إلى غير رجعة . فقال إن معرفة الهدف شرط ضروري للإقدام على كل عمل ، كما أن معرفة الهدف لا تنفذ شيئاً إذا جهل الطريق الموصل إليه والمعرفة الإجمالية للهدف للوسيلة أو الوسائل المؤدية إليه لا تنفي مطلقاً ، بل لابد من تعيين الهدف ورسم الخطة المؤدية إليه تعييناً واضحاً موافقاً لرأى الجميع أو لرأى الأكثرية .. فإذا كان الهدف والطريق إليه مبهمين غير واضحين في الأذهان ، يقع الخلاف في أثناء التنفيذ وتفسد الخطة ، وينتهي الأمر بوقوع فتنة وانتقام ، ولذلك .. فإنه من الضروري تعيين الهدف بصراحة وإخلاص وإشهاره بين الكافة والسعى في إقناعهم والحصول على أنفسهم . وقال إن سبب عدم نجاح على بن أبى طالب ومن وليه من أئمة البيت رضى الله عنهم لم يكن الغفلة ، بل كان مرد إخفاقهم إلى صعوبة المواصلات وعدم توفر وسائل الإعلام في ذلك الوقت . والمراد أنه من الضروري تقرير شكل الحكومة التي نحل محل الاستبداد توضيح أن هذا الأمر ليس هيناً ، وليس هو بأسهل من ترتيب المقاومة . ويجب ألا يكون بحث تقرير النظام السياسي الجديد مقصوراً على الخاصة ، بل لابد من تعميمه قدر الاستطاعة ليكون بعيداً عن الأهواء ومؤيداً من الرأى العام .

وخلاصة بحث الكواكبي أنه يلزم أولاً إشعار الأمة بالآم الاستبداد ، ثم يلزم جعلها على البحث في العوامل الأساسية المناسبة بحيث تكون موضع اهتمام كل طبقاتها ، ومن الأفضل للربث بضع سنين حتى تتضج الفكرة تماماً ، وتسيطر الرغبة في التغيير على أفراد الأمة . وحذر الكواكبي الأمة من أن يشعر المستبد بالخطة وخطرها فيلجأ إلى الحيلة المشددة ، أى إجراءات أمن عنيفة ، وينكل بالمجاهدين ، ويتساقط ضحايا الحرية وتقع فتنة شعواء . وحينئذ

إما أن تفتتح الفرصة دولة أخرى فستولى على البلاد وتجدد الاستبداد وتدخل الأمة في مرحلة أخرى من الرق السياسي ، وهذا ماوقع لأكثر الأمم الشرقية في القرون الأخيرة ، وإما أن يساعد للحظ بعدم وجود طامع أجنبي ، وتكون الأمة قد تأهلت للقيام بحكم نفسها بنفسها . وفي هذه الحال يطلب عقلاء الأمة من المستبد الإقلاع عن أسلوب الاستبداد واتباع القانون الأساسي الذي تطلبه الأمة ، ويكون أمام الحاكم المستبد أحد طريقين : إما الاستجابة طوعاً لرغبة الأمة ، وإما أن يصبر على العناد ويستخدم القوة ، فتقوم الأمة بخلعها وإنهاء حكمه ، وتصيح الأمة أمة لا يطعم فيها طامع ولا تغلب عن قلة . وطالب الكواكبي بأن يتبصر العقلاء ، والمساءلة دقيقة وصعبة . ولكن تصور الصعوبة لا يستلزم اليأس ، وإذا لم تحسن الأمة سياسة نفسها أنزلها الله لأمة أخرى تحكمها كما تفعل الشرائع بإقامة القيم على القاصر أو السفه ، وهذه حكمة . ومتى بلغت الأمة رشدها ، وعرفت للحرية قدرها استرجعت عزها ، وهذا عدل . وهكذا لا يظلم ربك أحداً ، إنما هو الإنسان يظلم نفسه ، كما أن الله سبحانه وتعالى لا يذل أمة عن قلة ، إنما هو الجهل يسبب كل علة . وهذا ينتهي كتاب طبائع الاستبداد .

تقييم الكتاب

الكتاب - كما سبق أن ذكرنا - مجموعة مقالات سياسية علمية نشرها في جريدة «المؤيد» عقب وصوله إلى مصر ، ثم حذف منها فصلاً ، وأضاف آخر ، وأدخل تصويراً في الفصول الأخرى في ضوء النقد الذي وجه إليه ، أو الملاحظات التي أبدت له ، أو طبقاً لما اقتضته الظروف ، ثم دفع بها إلى إحدى المطابع لطبعه ^(١) .

واستقى الكواكبي المادة العلمية للكتاب من مصادر ومراجع شتى ، وكما يقول «منها ما درسناه ، ومنها ما اقتبسناه» . وكان من بينها القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، وأمثلة العرب ، والكتب التاريخية العربية والتركية والمترجمة ، وأعمل فيها الفكر ، وأشرك فيها العاطفة . وذكر في الفصل الثالث من الكتاب جملة نسبها إلى «فيكتور ألفيري» ^(٢) ، مما دفع البعض إلى الاعتقاد بأن الكتاب مأخوذ من هذا الفيلسوف الإيطالي . ولكن من الواضح أن الكتاب ليس اقتباساً من هذا المفكر الإيطالي ^(٣) .

(١) لم يجد الكواكبي أحداً يطبع الكتاب سوى رجل فاضل سوري الأصل مصري الوطن اسمه إبراهيم فارس ، صاحب مكتبة الشرق .

(٢) انظر ماسبق ، الفصل الأول ، حاشية رقم (١) .

(٣) يتسائل الأستاذ أحمد أمين كيف قرأ الكواكبي مؤلفات فيكتور ألفيري ، وهو لا يتقن اللغة الإيطالية فضلاً عن أي لغة أوروبية أخرى ؟ وأجاب الدكتور النعمان عن هذا التساؤل بأن أحرار الأتراك كانوا يترجمون وهم في عواصم أوروبا كثيراً من كتب الأحرار إلى اللغة التركية . ولعل نسخة من كتبه قد أرسلت خفية إلى الكواكبي وهو في حلب ، بل لعل الإيطاليين وكانوا على صلة بالكواكبي في حلب وفي اليمن وغيرها =

ولم يضرب الكواكبي في كتابه الأمثلة صريحة على العثمانيين ، ولم يتطرق إلى السلطان عبدالحميد وكان معاصراً له . وقد كتب في تقديمه للكتاب : «وأنا لا أقصد في مباحثي ظالماً بعينه ، ولا حكومة أو أمة مخصصة ، إنما أردت بيان طبائع الاستبداد ومايفعل ، وتشخيص مصارع الاستعباد ومايقضيه ويمضيه على نفيه ... ولي هناك قصد آخر ، وهو التنبيه لمورد الداء الدفين ، عسى أن يعرف الذين قضوا نحبتهم ، أنهم هم المتسببون لما حل بهم ، فلايعتبون على الأغيار ولا على الأقدار ، إنما يعتبون على الجهل وفقد الهمم والتواكل ... وعسى الذين فيهم بقية رممق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات» (١).

ولذلك لم ييسط الكواكبي أحوال بلاد الشام أو العراق أو الحجاز أو بقية الولايات العثمانية ، ولكنه كان يحوم في كتابه حول العثمانيين ، تارة من قرب ، وتارة من بعد . ولم يكن من الصعوبة أن يستكشف الباحث بين ثنايا السطور أن العثمانيين هم المقصودون في معظم فصول الكتاب . ويلاحظ أن المظالم التي اكتوى الكواكبي بنارها على أيدي الولاة العثمانيين في حلب ودمشك والشيخ أبي الهدى الصيادي ، كانت ماثلة في ذهنه ، وهو يكتب فصول الكتاب .

ويقول الدكتور سامي الدهان تعليقاً على هذا الكتاب إن الكواكبي «قد سكب آراءه المشرقة وأفكاره العميقة في هذا الكتاب الصغير ، الذي يصلح دستوراً ونظاماً وقانوناً يسير على هديه كل من دخل ميادين الاجتماع والسياسة وللفكر .. فهو في كتابه رسم السياسة لأمته بصدق وإخلاص ، يفوق ماكتب ماكيا فيالي في الغرب ، بل إنه خلاصة لما قيل من آراء عند الغربيين قريب الشبه بكتب مونتسكيو ، وروسو» (٢).

وعلى الرغم من أن الكتاب كان يفيض إخلاصاً وغيرة على العالم العربي والإسلامي وأسفاً لتدهور أحواله ، وتلهفاً على رفع نير الاستبداد عن الشرق .. إلا أنه جاء نظرياً وخيالياً ويعيداً عن الواقع ، ولم يدعمه الكواكبي بمشاهداته لو ملأه بالشواهد وما رأى وسمع من

= قد وضعوا كتب هذا الفكر الإيطالي بين يديه ، وفيهم قتاتمل فخرين يعرفون العربية فترجموها له سعيًا في خدمة الكواكبي أو إثارة الشعوب العربية . وما يذكر أن الكواكبي سافر إلى كراتشي وبنابى على سفينة إيطالية حربية ، حملته بتوصية من وكيل إيطاليا السياسي في مسقط ، فطافت به سواحل العرب.

انظر كلاً من :

أحمد أمين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٤ .

لكتور سامي الدهان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠ ، ص ٤٥ .

(١) لكتور سامي الدهان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢-٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٢-٥٤ .

أحداث، وهو معروف بسعة الاطلاع .. فلو قرن النظريات بالشواهد لكان كتابه أكثر فائدة وأعم نفعاً،^(١).

بقيت مسألة أخيرة يصعب تفسيرها تفسيراً مقبولاً، فلم يكتب الكواكبي اسمه على كتابه «طبائع الاستبداد»، واكتفى بأن رمز له بهذه العبارة «الرحالة ك»، بينما كتب اسمه كاملاً على كتابه الآخر «أم القرى». وقد طبع الكتابان في فترتين متلاحقتين لم يفصلهما زمن طويل؛ لأن إقامته في مصر كانت زهاء سنتين، وقضى نحبه في سنة ١٩٠٢، وقد ذكر في تقديمه لكتابه أنه مضطر للاكتنام شأن الضعيف الصاعد بالأمر، المعطن رأيه تحت سماء الشرق، الراجي اكتفاء المطالبين بالقول عن قال،^(٢) وهذا الاعتراف خطير للغاية؛ إذ صور نفسه في صورة الرجل الضعيف الذي يصدح بما يؤمر به، مع أنه كان على النقيض من ذلك تماماً. ولم يفصح عن اسم الشخص الذي أصدر إليه الأمر بكتمان اسمه.

ومن المستبعد أن يكون حاكم مصر وقتذاك، وهو للخديو عباس حلمي، هو الذي أصدر إليه الأمر؛ لأنه كانت تربط بين الاثنين علاقات وثيقة. وكان الكواكبي يطلق عليه سمي عم النبي صلى الله عليه وسلم، ويطرى صفاته ومناقبه، ومما يزيد في التشكك من عبارة الكواكبي أنها وردت في كتاب الأستاذ محمد عمارة مجردة من هذا الوصف؛ إذ قال «وأنا المضطر للاكتنام حسب الزمان، الراجي لكفاء المطالبين للكرام بالقول عن قال»^(٣). وقيل في تفسير إغفال ذكر اسمه أنه أراد أن ينشر أفكاره بين الجماهير، دون أن يصطدم بالمخدوعين بالدولة العثمانية والذين كانوا يرون فيها أنها حامية لشعائر الإسلام وموضعاً لحماية الدين^(٤). وهذا الرأي يتعارض مع حقيقة ثابتة، وهي أنه هاجم في كتابه الآخر «أم القرى» الدولة للعثمانية هجوماً صريحاً، وحمل عليها حملات عنيفة، وليس بمعقول أنه أراد رواج كتاب «طبائع الاستبداد»، ورغب في أن يظل كتاب «أم القرى» حبيساً لاتصل إليه أيدي المتقنين.

مقارنة بين الكواكبي والأفغانى :

كان كلاهما سليل أسرة عريقة، وكان أحدهما عربياً، والآخر أفغانياً، أصابا من العلم نصيباً موفوراً .. درس كل منهما العلوم الدينية واللغات العربية والتركية والفارسية، وزاد الأفغانى بتعلمه اللغات الأفغانية والأردية والفرنسية. وطاف الأفغانى بأقاليم شرقية في آسيا وإفريقية وأقام في باريس ولندن وموسكو على فترات، بينما كانت رحلات الكواكبي مقصورة على الشرق الإسلامى. وكانت الفكرة الدينية الإسلامية جياشة في كل منهما. دعا كل منهما

(١) أحمد أمين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٦.

(٢) الدكتور عبدالرحمن الكواكبي، مرجع سبق ذكره، ص ٢.

(٣) محمد عمارة، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢٩.

(٤) الدكتور سامى الدمان، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢-٥٣.

إلى إصلاح أوضاع المسلمين دينياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً ، وقيام حكم الشورى ممثلاً في وجود دستور وهيئات نيابية تمثل الشعب . واتخذ كلاهما من مصر مستقراً للنشر الدعوة إلى حركة جامعة إسلامية مع فارق بينهما .

كان الأفغانى يعتبر العالم الإسلامى كله رقعة واحدة ، يجب أن تتوحد تحت ظل خليفة ما ، سواء كان هذا الخليفة عثمانياً ، أو أفغانياً ، أو مصرياً ، على أن يبلغ من المنزلة ما يجعله السيد المطاع بين المسلمين . بينما يميز الكواكبى تمييزاً دقيقاً بين الشعب العربى والشعوب المسلمة من غير العرب ، ويوضح الصلة الوثيقة بين العبقريّة العربية وروح الإسلام ، وبذلك يستعيد العرب مكانتهم اللاتقة بهم ودورهم فى تقرير مستقبل الإسلام ومصيره ، ويتوج الكواكبى هذه الأسانيد بتأييده تأييداً كاملاً فكرة الوحدة الإسلامية بمبايعة رجل عربى من قريش وإلغاء حق السلطان العثمانى فى لقب الخلافة . وهكذا سعى الكواكبى إلى جامعة إسلامية عربية قريبة مما سعى إليه الأفغانى . وإذا كانت دعوة الأخير قامت على دعائمين ، هما : استغلال فرصة الحج لتجميع المسلمين ، وإحياء نظام الخلافة .. فإن الكواكبى قد توغل فى شرح أدق التفاصيل عن الحج فى كتابه «أم القرى» ، للخلافة فى كتابه الآخر «طبائع الاستبداد» . وبخلاف كلا الرجلين السياسة من أوسع أبوابها : نادى الأفغانى بسياسة إسلامية ، وبسط آراءه فى مدرسته الفكرية على مريديه ، وولج ميادين الصحافة .. أما الكواكبى فنادى بسياسة عربية إسلامية ، واشتغل فى الصحافة حيناً من الدهر ، وتقلد تباعاً عدداً لا يستهان به من المناصب الحكومية الرسمية وشبه الرسمية ، ثم عمل بالتجارة ، ولما ضاقت به السبل أمام اضطهاد السلطات العثمانية ، ساح فى الأقطار الإسلامية والعربية ، وانتهى به المطاف فى القاهرة ، حيث نشر كتابيه «أم القرى» ، و«طبائع الاستبداد» ووضع بحثاً أخرى (١) ، أما الأفغانى فقد انتهى به المطاف فى إستانبول (٢) .

(١) من هذه البحوث ، وقد ذكرها ابنه الدكتور محمد أسعد :

صحائف قريش ، العظمة له ، مجموع أشعار .

انظر نبذة عنها فى كتاب الدكتور سامى الدمان ، من ص ٦٧-٦٨ .

(٢) يقول الأستاذ أحمد أمين إنه زار مع صديقه المرحوم الأستاذ عبدالصمد العبادى مدينة إستانبول سنة ١٩٢٨ بعد وفاة الأفغانى بإحدى وثلاثين سنة ، فرأيا زيارة قبره ، فسالا عنه الكثيرين فلم يعرفوه . ورأيا رجلاً أفغانياً يعمل خازناً مكتبة الشهيد على ، فوصف مكانه لهما . فذهب الصديقان ، أحمد أمين والعبادى ، عصر يوم الأحد الثامن من شهر يوليو - تموز - إلى «ماجقة» أو «متشكة» فوجدوا على رتبة عند مدخل البوسفور مقبرة قد انتشرت فيها المدافن .. ولهما شيخ المقبرة على مدفن الأفغانى . فعلموا أن قبره كان قد تشعبت ، ولم يكن به أحد ، وكانت تضيّع ضالعه ، ولم يفكر فيه أحد من أهالى الشرق الذين أنشئ قديم حياتهم ، إنما ذكره مستشرق أمريكى حضر إلى إستانبول سنة ١٩٢٦ ، ونقب عن قبره حتى وجده ، فبنى عليه تركيبة جميلة من الرخام ، وأحاطها بسور من حديد ، وكتب على أحد وجوه التركيبة اسم الأفغانى وستى ميلاده ووفاته ، وفى وجه آخر كتابة تركية ترجمت لهما كما يأتى «أنشأ هذا =

ويقول الأستاذ أحمد أمين في صدد المقارنة بينهما : كان الأفغانى يتقم على الدول الأوروبية الاستعمارية سياستها الغاشمة تجاه المسلمين فى أرجاء العالم الإسلامى ، وصعب جام غضبه على بريطانيا بالذات ، واستغرقت حملته عليها حيزاً كبيراً من صفحات جريدة «العروة الوثقى» . واكتوى الكوكبى بالسياسة العثمانية فكانت موضع نقده . ونظر الأفغانى إلى العوامل الخارجية التى أرهقت المسلمين من أمرهم عسراً ، فدعا المسلمين إلى مناهضتها . ونظر الكوكبى إلى أوضاع المسلمين فدعاهم إلى إصلاحها ؛ لأنهم إذا أصلحوها عجزت أوروبا عن أن تمبث بأقدارهم ، ولذلك كانت معالجة الأفغانى للمسائل معالجة ثائر ، تخرج من فمه الأقوال ناراً حامية ، ومعالجة الكوكبى ، معالجة طبيب ، يفحص المرض فى هدوء ، ويكتب الدواء فى أناة . الأفغانى غضوب ، والكوكبى مشفق . الأفغانى دأب إلى السيف ، والكوكبى دأب إلى المدرسة . ولعل هذا يرجع أيضاً إلى اختلاف المزاج ، فالأفغانى حاد الذكاء حاد الطبع ، والكوكبى رزين الذكاء هادئ الطبع . إذا وضعت أمامهما عقبة تخطاها الأفغانى قبل ، وتخطاها الكوكبى بعد ، ولكن من خير نقطة تتخطى ، فلا عجب أن كان للأفغانى دوى المدافع ، وكان للكوكبى صرير الماء يعمل فى بطنه حتى يفتت الصخر !^(١) .

ومن قبيل المصادقات أن أربعة من رجال الفكر والحكم استهوتهم مسألة الخلافة ، وتناولها كل منهم من وجهة نظره ، جاءت نهايتهم متقاربة زمناً بعضها من بعض . فقد قضى الأفغانى نحبه فى إستانبول سنة ١٨٩٧ ، وجاز الكوكبى إلى ربه فى القاهرة سنة ١٩٠٢ ، وأقصى السلطان عبدالحميد الثانى نهائياً عن الحياة السياسية عقب الانقلاب العسكرى سنة ١٩٠٩ ، وتم ترحيله فى مساء اليوم السابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - مع بعض حريمه وحاشية صغيرة العدد إلى سالونيك ، حيث سجن فى فيلا ألاتينى Alatinى الواقعة فى إحدى ضواحي المدينة وعاش بين أموات الأحياء ينتظر الموت فيبيطى عليه حتى وافاه الأجل المحترق فى سنة ١٩١٨ ، وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ، كتاباً مؤجلاً . أما نجيب عازورى فقد جاءه الموت فى القاهرة سنة ١٩١٦ ، أما عبدالله النديم فكان أسبقهم إلى الرحيل ، إذ لفظ أنفاسه الأخيرة فى إستانبول سنة ١٨٩٦ ، ولكنه اختلف عن زملائه ، فبينما تنادى الأفغانى إلى فكرة الجامعة الإسلامية لجمع شمل البلاد الإسلامية فى مواجهة التغفل الاستعمارى الأوروبى تأسيساً على أنه توجد قومية إسلامية تجمع بين المسلمين مهما اختلفت بلادهم وأنه «الاجنسية للمسلمين إلا فى دينهم» . كان النديم يرفض هذه الفكرة ؛ حيث إنها قائمة

= المزار الصديق الحميم للمسلمين فى أنحاء العالم ، الخبير الأمريكى المستر شارلز كرين Charles Crane سنة ١٩٢٦ » .

انظر كتاب الأستاذ أحمد أمين ، ص ١٢٣-١٢٤ .

(١) أحمد أمين ، زهاء الإصلاح إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠٠ .

على أساس ديني ، ويرى أهمية الشعوب الشرقية بغض النظر عن الدين ؛ لأن خطورة الاستعمار ليست مقصورة على مسلمي الشرق وحدهم ، وإنما تشمل كافة الشرقيين على اختلاف أديانهم ، فطالب باتحاد الأمم للشرقية من عرب وترك وعجم وشركس وأرمن وغيرهم ، وحذر من التنافر بين الشرقيين مطالباً بجمع الصفوف الشرقية الإسلامية وغير الإسلامية (١) .

* * *

(١) الدكتور عبد المنعم إبراهيم السنوسي الجميع ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٩-٢٤٢ .

(١) حركة الجامعة الإسلامية والسنوسيون

السنوسيون يتعاطفون مع الدولة العثمانية :

لم ينس السنوسيون موقف الدولة العثمانية الودى منهم ، وكانوا ينكرون بكل خير السيادة المتعاطفة التى انتهجها السلطان عبدالحميد الثانى نحوهم ؛ إذ لم يستمع لوشايات الدول الأوروبية الكبرى بشأنهم ، بل تركهم يمارسون نشاطهم الدينى والسياسى والحرى فى إفريقيا دون إثارة للعراقيل أمامهم . وأهم من ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، كان السنوسيون ، على خلاف بعض الحركات السلفية الأخرى ، يتميزون بولائهم للدولة العثمانية على أساس أنها أكبر دولة إسلامية فى العالم ومقر الخلافة الإسلامية . وكانوا ينظرون إلى الخلافة الإسلامية العثمانية على أنها ضرورة دينية وسياسية لربط بقاع العالم الإسلامى بعضها ببعض وتكثله فى وقت كان الاستعمار الأوروبى يزحف فى غير هودة على بلاد المسلمين . ولذلك لم يناصر السنوسيون الدولة العثمانية العداء ، ولم تجد الدولة حرجاً فى الاعتراف بالطريقة السنوسية طالما كانت تخضع للدولة وتعترف بالسلطان العثمانى خليفة للعالم الإسلامى .

وكانت هذه الطريقة تسهم إسهاماً فعالاً فى إقرار الأمن والنظام داخل برقة ؛ لأن نفوذ العثمانيين فى طرابلس وبرقة لم يكن يتجاوز الشريط الساحلى ، وفى الوقت ذاته كان كبير السنوسيين يتمتع بنفوذ وإجلال وتقدير عرب برقة ، وكان ذا نفوذ كبير بين الزعماء المسلمين على حدود مصر والسودان ويملك كثيراً من الأسلحة والعتاد (١) . ولم يكن اعتراف الدولة العثمانية بالطريقة السنوسية مقصوراً على أنها مجرد حركة دينية فقط ، بل كإمارة سياسية تساعد على استتباب الأمن بل واستيفاء الضرائب التى يقوم بجمعها الموظفون العثمانيون ، وأصبحت الإمارة السنوسية وكأنها حكومة داخل الحكومة . واستقر المقام بالسيد محمد بن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوسية فى داخل برقة حيث أنشأ الزاوية البيضاء ويطلق عليها أم الزوايا . وظفرت الإمارة السنوسية بقرمانات سلطانية أعفت أتباعها من دفع ضرائب الميرى ، ثم أعفت الزوايا (٢) من الضرائب سنة ١٨٥٥ على عهد السلطان عبدالمجيد الأول (٨٣٩-).

(١) جورج أنطونيس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٨ .

(٢) كانت الطريقة السنوسية تعنى بنشر الوعى الدينى الإسلامى ، بتتقية الدين الإسلامى من الشوائب التى طغت به وإعادة مجد الإسلام فى عصوره الأولى والنهوض بالمسلمين ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً . وكانت وسيلة الطريقة السنوسية الإكثار من الزوايا . وكانت تخدم عدة أغراض : فهى نور عبادة وتعليم وتلق بها أماكن تمارس فيها بعض الصناعات والحرف وكذلك متاجر . ويعمل فى كل منشآت الزاوية =

١٨٦١). ولما جاز إلى ربه السيد محمد بن علي السنوسي، اجتمعت كلمة عرب برقة على اختيار ابنه السيد محمد المهدي خليفة له، فأصبحت السنوسية من حيث الأمر الواقع de facto إمارة ورثية اعترفت بها الدولة العثمانية، واعترفت هي الأخرى بها وبخليفة السلطان العثماني. ورأى الأمير الجديد أن ينتقل من الزاوية البيضاء إلى مكان آخر في جوف الصحراء ووقع اختياره على واحة جغبوب، فانتقل إليها في ٧ من سبتمبر - أيلول سنة ١٨٥٩ ليجد فيها مجالاً فسيحاً لنشر الدعوة الدينية، وقد نجح من موقعه الجديد في أن ينشر الإسلام بين الزنوج والوثنيين في وادي والمناطق المتاخمة حتى تشاد وتبو، والطوارق.

ولم يكن اختيار جغبوب مقراً للزاوية الجديدة اعترافاً صمئياً ولا اعترافاً صريحاً بأن هذه الواحة جزء من برقة؛ لأن الفكرة السائدة وقتذاك هي أن جميع بلاد الإسلام تعتبر وحدة واحدة. وقد سبق أن تعرضنا لهذه المسألة في هذه الدراسة، وقلنا إن من مآثر الدولة العثمانية أنها أقامت بين الولايات العربية وحدة على الطبيعة، ينتقل المسلم من ولاية إلى أخرى ويمارس ماشاء من أوجه النشاط، دون أن يحصل على إذن مسبق من السلطات العثمانية في الرحيل. ومما يدعم في هذا الرأي أن الطريقة السنوسية أنشأت لها عديد الزوايا في معظم أقاليم شمالي إفريقية وفي العراق والحجاز وفي أقاليم أخرى، لم يكن يربطها ببرقة سوى رباط الدين الإسلامي. ولم تظهر فكرة تحديد الحدود إلا في زمن متأخر، بعد أن زحف الاستعمار الأوروبي على الولايات العربية للخاضعة للسيادة العثمانية في إفريقية وآسيا، قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها.

العلاقات بين السلطان عبد الحميد والسنوسيين :

ولما كان أتباع الطريقة السنوسية يضيّقون الخناق على أعضاء البعثات الاستكشافية الأوروبية التي كانت تتردّد مناطق شمالي إفريقية وغيرها، متسترة وراء أغراض علمية لتحقيق أهداف استعمارية وتصيرية واقتصادية لترويج منتجات بلادهم. وكان بعض أولئك الأتباع يقتلون هؤلاء الأوروبيين، فقد ضاقت الدول الأوروبية ذرعاً بنشاط السنوسيين، وكان من بين هذه الدول فرنسا؛ خاصة بعد أن احتلت الجزائر وبسطت حمايتها على تونس وتوغلت في قلب إفريقية حتى وصل نفوذها إلى وادي التي كانت قد خضعت للسنوسيين (١). وكان من

«أتباع الطريقة السنوسية. فلم تكن الزوايا، كما يتبادر إلى ذهن البعض، دوراً للتصوف يمتلك النازلون فيها العبادة والتقشف والزهد».

(١) كان من بين هذه البعثات بعثة كرامبل Crampel بحجة كشف المنطقة الواقعة بين حوض بحيرة تشاد وأويناخي رافد نهر الكونغو. وقد لقي جميع أعضاء البعثة مع رئيسها مصرعهم في مايو - أيار - سنة ١٨٩١ وأندرك السنوسيون أن هدف البعثة هو فتح الطريق أمام الفرنسيين في الجزائر إلى وسط إفريقية عبر الصحراء الكبرى. وتتابع إرسال حملات فرنسية بعد سنة ١٨٩١ إلى بحيرة تشاد، منها : بعثات =

بين هذه الدول أيضاً بريطانيا ، فإنها بعد أن احتلت مصر ، ثم أقامت حكماً ثنائياً شكلياً في السودان وقف السنوسيون في وجه مخططاتها الاستعمارية في غرب إفريقيا وشرقها ، وكانت ألمانيا تسعى لاستمالة السنوسيين لتحريك ثورة ضد فرنسا في الجهات التي استولت عليها في إفريقيا^(١) . وإذا كان محمد المهدي السنوسي قد رفض أن يكون أداة طيعة في يد دولة أوروبية ضد دولة أوروبية أخرى .. فإنه لم يقف موقفاً سلبياً من الزحف الاستعماري الأوروبي على البقية الباقية من الأمم الإسلامية في إفريقيا . فكان يشجع أتباع الطريقة السنوسية على الجهاد ضد المستعمرين الأوروبيين ، وكان في بعض الأحيان يفاخر واحة الكفرة ليكون على مقربة من ميادين القتال . ولكن نقطة الضعف في السنوسيين أنهم كانت تعوزهم الأسلحة الحديثة الفتاكة ، التي كان للمستعمرين الأوروبيون يملكون كميات وافرة منها لاستخدامها في حصد أرواح السنوسيين .

وعلى الرغم من التفوق الهائل في السلاح والخفايا وعدد المقاتلين الأوروبيين ، لم تلتجئ السنوسيين قنادة في حركة الكفاح الديني ؛ ولذلك سعت الدول الأوروبية بالوقية بينهم وبين السلطان عبدالحميد الثاني وأثارت مخاوفه منهم ، فصورته له مدى خطورتهم على الدولة بزعم أنهم ييغون الانفصال سياسياً عن الدولة العثمانية والانفصال دينياً من الخلافة العثمانية على أساس أن الخليفة ، وهو السلطان العثماني رجل تركي عثماني ، وأن الخليفة يجب أن يكون عربياً . وأرادت تصعيد الموقف بإثارة مزيد من مخاوف السلطان عبدالحميد الثاني ، فأبلغته الدول الأوروبية أن الشريف السنوسي يزعم إنشاء دولة عربية كبرى مستقلة على حدود مصر الغربية ابتداء من السوم وتمتد جنوباً إلى أواسط إفريقيا ، وأشارت على السلطان أن يستدعي الشريف السنوسي إلى إسطنبول ؛ حيث يفرض عليه إقامة جبرية اتقاء لخطره ، ولكن السلطان عبدالحميد رأى ألا يستمع إلى الدول الأوروبية بعد أن تلقى تقارير من رجال حكومته في برقة

= شوليه = Cholet ، فورنو Fournau ، ديبيسكي Dybowski ، ميستر Maistre ، كلوزيل Clozel .
انظر :

Dujarric G.; La Vie du Soltan Rabah, Paris, 1902, pp. 31-33.

Cocheris J.; La Situation Internationale de l'Egypte et du Soudan (Juridique et Politique), Paris, 1903, pp. 453-454.

Sanderson G.N.; England, Europe and the Upper Nile, 1882-1899.

Edinburgh, 1965, p. 122.

دكتور محمد سيد محمد : إمبراطورية رابع الزبير ، بحث منشور في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبدالعزيز بمكة المكرمة ، السنة الثانية ، ١٣٩٦-١٣٩٧هـ ، العدد الثاني ، ص ٤٥٥-٤٧٤ .

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٩ .

أن هذه الشائعات لا أساس لها من الصحة . ورأى أن من الحصافة السياسية عدم استعداد الولايات العربية المتبقية تحت حكم الدولة .

وكانت حركة الجامعة الإسلامية تشكل ركناً أساسياً في سياسته نحو العالم العربي والإسلامي ، وكانت الدولة في مسيس الحاجة إلى جمع صفوف شعوب الأمة الإسلامية تحت لواء الخلافة بدلاً من تنفيرها منها .

وقد شعر السيد محمد المهدي الأمير السُنوسي بهذه الدسائس تحيكها ضده الدول الأوروبية ، فقرر مغادرة جنجوب إلى مكان قصي هو واحة الكفرة سنة ١٨٩٥ وبنى فيها زاوية التاج ، ثم أوفد مندوباً عنه إلى السلطان عبدالحميد كي يؤكد إخلاص السيد محمد المهدي للسلطان والخليفة ، ويلتمس إصدار فرمانات جديدة تؤكد الامتيازات السابقة الممنوحة للأمراء السُنوسيين والتي صدرت بها فرمانات من قبل . فأجيب إلى طلبه . وبعد سنوات ذات عدد انتقل إلى رحاب الله السيد محمد المهدي في أول يونيه - حزيران - عام ١٩٠٢ بعيداً عن واحة الكفرة ونقل جثمانه إليها . ولما كان ابنه المسمى السيد محمد إدريس السُنوسي لا يزال قاصراً ، فقد أوصى والده قبل وفاته بزعامه السُنوسية لابن أخيه السيد أحمد الشريف السُنوسي على أن يكون في الوقت ذاته وصياً على القاصر . وتم الاحتفال في الكفرة في يوم ١٩ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٠٢ بتتصيب السيد أحمد الشريف على سجادة الإمامة بحضور كبار السُنوسيين ، وعلى عهده قامت الحرب العالمية الأولى .

السُنوسيون يستجيبون لنداء وحدة الصف الإسلامي مع العثمانيين :

وفي أوائل الحرب العالمية الأولى ، رأى السُنوسيون في برقة مؤازرة الدولة العثمانية استجابة لدواعي الجهاد الديني والتضامن الإسلامي ، بالهجوم على القوات البريطانية في مصر . وكان العثمانيون والإنجليز قد حاولوا اجتذاب السُنوسي الكبير ، وهو السيد أحمد الشريف السُنوسي إلى صف كل فريق منهم .. فأرسل العثمانيون بعثة برياسة نورى بك أخى أنور باشا وزير الحربية ومعه القائد العراقي جعفر العسكري ، وصحبه عدة من الضباط العثمانيين والألمان حملتهم غواصة ألمانية وحملت معها أيضاً أموالاً وفيرة وما استطاعت حمله من أسلحة . وظهرت هذه الغواصة في مياه خلية السلم سنة ١٩١٥ ، وكانت قادمة من ميناء بولا في الطرف الشمالي للبحر الأدرياتي^(١) . وأُنزلت الغواصة ركبها وأفرغت شحنتها في ميناء بردي سليمان ، في الطرف الغربي من خليج العلوم ، وتم اجتماع فورى بالقرب من الحدود الغربية للسلم بين السُنوسي الكبير ونورى بك الذى سلمه رسالة أخيه ، وفيها أن السلطان والخليفة الإسلامى محمد الخامس قد أعلن الجهاد الديني ضد المستعمرين الكفار ، وأنه قد أصدر فرماناً

(١) كان هذا الميناء هو القاعدة التى اتخذها الألمان لغواصاتهم فى البحر المتوسط .

بتعيين الشريف السنوسي الكبير نائبا له في شمالي إفريقيا ، وأنعم عليه برتبة الوزارة الأولى وهي رتبة رفيعة الشأن ، ومنحه حق إعطاء الرتب والأوسمة . وكان نورى بك قد أحضر معه عددا كبيرا من النياشين والأوسمة لتوزيعها على الرؤساء وعلية القوم . وطلب إليه إعداد حملة عسكرية تهاجم القوات البريطانية من حدود مصر الغربية ، تأسيساً على وحدة الصف الإسلامى وعلى أن الدولة العثمانية قامت فعلاً بمهاجمة مصر من حدودها الشرقية واجتازت القوات العثمانية شبه جزيرة سيناء وهاجمت قناة السويس فى مستهل شهر فبراير - عام ١٩١٥ ، وأعدت المحاولة فى العام التالى^(١) . كما وصل إلى برقة عدد من المصريين يطلبون من السنوسى الإسراع فى إعداد الحملة المرتجاة .

أما الإنجليز فكان من مظاهر مساعيهم لاجتذاب السنوسى الكبير إلى جانبهم ، أن أرسل سير هنرى ماكماهون Sir Henry McMahon المندوب السامى البريطانى فى مصر رسالة ودية مؤرخة فى ١٥ من يناير - كانون ثان - عام ١٩١٥ إلى السنوسى الكبير ، ناشده فيها أن يلتزم بموقف الحيطة فى الحرب التى انطلقت بين بريطانيا والدولة العثمانية . وكان مما جاء فى رسالته ، وإلى قطب دائرة أهل الفضل والكمال ، وخلاصة أرباب الحجى والجلال ، إمام المصلحين ، وقوة المرشدين ، الأستاذ الأعظم ، وللملاذ الأفخم ، السيد أحمد الشريف السنوسى أعزه الله ... ولما كانت علاقة هذا القطر (مصر) على الدوام ودية مع سيادتكم ، رأيت أن أبلغكم وصولى ، وأؤكد لكم أن العلاقات الودية التى كانت لكم ولأسلافكم الكرام مع الحكومة المصرية ستستمر فى هذا العهد الجديد ، كما كانت عليه من قبل من الود ... ووعده بأن

(١) اختلفت الآراء حول هدف المشروع العثمانى الألمانى فى تمريض السيد أحمد الشريف السنوسى على مهاجمة مصر من حدودها الغربية . فىرى بعض الباحثين أن الدولة العثمانية ، بعد أن نخلت الحرب منضمة إلى ألمانى ضد بريطانيا فى ٥ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩١٤ وضمت خطتها مع الخبراء العسكريين الألمان على أساس إخراج بريطانيا من مصر ، وإرجاع هذه الولاية المهمة إلى حظيرة الدولة وحرمان بريطانيا من الاستفادة من قناة السويس على أى نحو من الأنحاء . فوضعت الخطة الحربية على أساس التنسيق بين زحف يقوم به الجيش العثمانى على مصر من ناحية حدودها الشرقية فيدخل العرش ويحتاز شبه جزيرة سيناء ويهجر قناة السويس ويحتاج مصر ويخلصها من السيطرة البريطانية ، وفى الوقت ذاته تقريباً يقوم السنوسى الكبير بإعداد حملة تهاجم مصر من حدودها الغربية فتضطر بريطانيا إلى توزيع قواتها فى جبهتين : الجبهة الشرقية لمواجهة الجيش العثمانى القادم من بلاد الشام ، والجبهة الغربية لمواجهة حملة السنوسى القادمة من برقة بقيادته ، مما يسهل على المهاجمين أنتزاع النصر من بريطانيا . وهناك فريق آخر من الباحثين يذهب إلى أن الهدف الحقيقى لهاتين العمليتين الحربيتين إنما هو خدعة حربية استهدفت حمل بريطانيا على حزم أكبر عدد من القوات البريطانية فى مصر ، وبذلك يخف الضغط على الألمان والعثمانيين فى الميادين العربية الأخرى .

وقد دلت أحداث الحرب العالمية على أن رأى الفريق الثانى من الباحثين كان أدنى إلى الصواب .

بريطانيا ستؤازره في مساعدة ليبيا على حصولها على الاستقلال عن إيطاليا^(١)، ولكي يقيم الإنجليز الدليل على حسن نواياهم نحو السيد أحمد الشريف، سمحوا للسلطات المصرية في أن تستمر في صنع ملابس أفراد المقاومة الليبية وإرسالها إلى برقة. وهكذا قام سير هنري ماکماهون المددوب السامي البريطاني في مصر بدور معائن للدور الذي قام به مع الشريف الحسين بن علي أمير مكة في مراسلاته معه، والتي بدت في ١٤ من شهر يوليو - أذار - سنة ١٩١٦، من أجل تحريك ثورة عربية ضد الدولة العثمانية والانضمام إلى جانب بريطانيا وحليفاتها في الحرب العالمية الأولى في مقابل وعد بريطانيا باستقلال ووحدة الولايات العربية للخاضعة للحكم العثماني في آسيا، وتعيين الحسين خليفة على العالم الإسلامي بصفته منتقياً إلى بيت عربي أصيل هو أسرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه. وكان قيام ماکماهون بهذا الدور المزدوج أحد المظاهر العديدة لسياسة النفاق والتضليل والخديعة، التي انتهجتها بريطانيا مع العرب في الحرب العالمية الأولى. كما أرسل السلطان حسين كامل امتثالاً لرغبة سلطات الحماية البريطانية وفداً إلى برقة غادر القاهرة في سبتمبر - أيلول - عام ١٩١٥، وكان الوفد يحمل معه عدة خطابات شخصية إلى السنوسي الكبير، وكان من بينها طاب من السلطان حسين كامل الذي عينه الإنجليز سلطاناً على مصر بعد أن عزلوا الخديوي عباس حلمي الثاني.

(١) لم تكد تمر ثلاثة أشهر وعشرة أيام على كتابة وإرسال خطاب سير هنري ماکماهون حتى عقدت نول الوفاق الثلاثي - بريطانيا وفرنسا والروسيا - اتفاقاً سرياً مع إيطاليا في ٢٦ من أبريل - نيسان - عام ١٩١٥ عرف باسم اتفاق لندن السري Secret London Agreement وقد نصت المادة الثامنة من هذا الاتفاق على أنه في حالة انتصار بريطانيا وحليفاتها في الحرب العالمية الأولى، وفي مقابل تبادل المصالح الاستعمارية بين بريطانيا وفرنسا على حساب ألمانيا، يكون لإيطاليا حق تعديل حدود مستعمراتها الإفريقية في كل من ليبيا والصومال. ويصف أحد كبار المؤرخين الإنجليز هذا الاتفاق بأنه أحد الانحرافات والوصفات التي لوئت العدالة المثالية. ولما وضعت الحرب العالمية أوزارها برت بريطانيا بوعدها لإيطاليا. ودارت في سنة ١٩٢٠ محادثات سياسية بين لورد ملز عن بريطانيا وسيثور شالوبا عن إيطاليا للاتفاق على تعديل حدود الصومال الإيطالي على أساس تنازل بريطانيا عن جوبا، ثم في أمر تعديل الحدود المصرية الليبية على أساس تنازل مصر عن واحة جفيوب. وهكذا ظهرت هاتان الدولتان الاستعماريتان وكنتهما وصيتان على مصر وليبيا. وكان الهدف من عقد اتفاق لندن السري هو انتزاع إيطاليا من نواتي الوسط ألمانيا والنمسا والمجر واجتذابها إلى الوقوف بجانب بريطانيا وحليفاتها. وبالفعل أعلنت إيطاليا الحرب على النمسا في ٢ من مايو - أيار - عام ١٩١٥، وقد تمت اتصالات سياسية بين روما ولندن والقاهرة أسفرت في النهاية عن إخراج واحة جفيوب من الأراضى المصرية وضمها إلى ليبيا، التي كانت لاتزال تحت الاحتلال الإيطالي.

انظر نصوص اتفاق لندن السري في :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1920 Misc No. 7, Cmd 671

واتفاق تعديل الحدود المصرية الليبية في :

لكتور عبدالعزيز محمد الشنولى : العلاقات المصرية الليبية إلخ، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧-٩٤.

وقد أبدى حسن كامل النصح السنوسي الكبير بتجنب محاربة الإنجليز^(١).

ولكن كانت وحدة الصف الإسلامي التي هي أثر من آثار حركة الجامعة الإسلامية أقوى في نفس السنوسي الكبير من كافة الإغراءات التي بنها الإنجليز وعملواهم لديه . ومن ثم صحت عزمته على اتخاذ إجراءات معادين : تحريك ثورة عارمة ضد الإيطاليين في ليبيا في أغسطس - آب - عام ١٩١٥ ، وتلقى معونات حربية من الدولة العثمانية وألمانيا^(٢) . ويفصل هذه المعونات نجاح السنوسيون في إكراه الإيطاليين على الانسحاب من معظم المناطق الداخلية في ليبيا بحيث تركز الأخيرون في المناطق الساحلية في حماية الأسطول الإيطالي .

أما الإجراء الآخر فكان مهاجمة حدود مصر الغربية والتوغل داخل الأراضي المصرية ومنازلة القوات البريطانية المنتشرة في هذه المنطقة . وكان الجيش العثماني الرابع بقيادة أحمد جمال باشا^(٣) قد هاجم حدود مصر الشرقية ، واجتاز شبه جزيرة سيناء وحاول في ليلة ٣/٢ من شهر فبراير - شباط - عام ١٩١٥ عبور قناة السويس عند محطة طوس جنوبى الاسماعيلية . وكان العثمانيون قد أقاموا جسراً خفيفاً على قوارب من الألمنيوم لعبور القناة عليه ، ولكنهم أخفقوا في عبور القناة ، ثم حاول العثمانيون مهاجمة صحراء سيناء مرة ثانية في أغسطس - آب - عام ١٩١٦ وكان عددهم ثمانية عشر ألف مقاتل . فقاموا في ليلة ٤ من هذا الشهر بهجوم على المواقع الحربية بين قطية والرمانة في معركة فاصلة ، عرفت بواقعة الرمانة (أوزوماني) ، ولكنهم تعرضوا لهزيمة وارتدوا عن ميدان القتال ، ولم يفكروا بعد هذه الواقعة في معاودة الهجوم على قناة السويس ، ثم لم يلبثوا أن انسحبوا من شبه جزيرة سيناء وأخلوا رفح والعريش^(٤) .

السنوسيون يحربون انتصارات في المراحل الأولى للحرب :

أما السنوسيون فكانوا أوفر حظاً من العثمانيين في المراحل الأولى في منازلة البريطانيين ، عبر السيد أحمد الشريف السنوسي - السنوسي الكبير - للحدود المصرية في شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩١٥ مع خمسة آلاف من قوته النظامية وبعض القوات التركية ، واستولوا على السطوم وسيدى برانى وتوغلوا حتى بلغوا زاوية أم الوخم غربى مرسى مطروح . واعتصم البريطانيون في مرسى مطروح واتخذوها مقراً لقيادتهم . وحشدوا جيشاً بلغ عدد جنوده أول الأمر ثلاثين ألفاً ، كان بينهم عدد وافر من الهند . وزودوا الجيش بسيارات مدرعة وسلاح مدفعية قوى ، وأخلوا مدينة مرسى مطروح من ساكنيها سواء كانوا من أهلها أو من

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١٦٣-١٦٥ .

(2) Vernier Bernard ; La Politique Islamique de L'Allemagne. Paris, 1939, pp. 19-20.

(٣) كان أحمد جمال باشا عضواً بارزاً في جمعية الاتحاد والترقى ووزيراً البحرية في الوزارة العثمانية ، وعين قائداً للجيش العثماني الرابع . وكانت دمشق مقر قيادته ، ووقع عليه الاختيار لقيادة الحملة على سيناء وقناة السويس .

(٤) عبدالرحمن الرافعى : ثورة سنة ١٩١٩ ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٢٨-٢٩ .

الأغراب عنها مثل اليونانيين وغيرهم ، واستولى الجيش البريطاني على المتاجر الموجودة بها^(١) .

ضباط الجيش والشرطة المصريون يشتركون في محاربة البريطانيين :

كان هناك ضابط مصري باسل هو محمد صالح حرب^(٢) ، وكان وقتذاك برتبة يوزباشى - نقيب - ويشغل منصب قومندان مرسى مطروح والسلاويين .

وكان يغمره شعور دافق بالعاطفة الدينية الإسلامية ووحدة الصف الإسلامى .. استمال أفراد قبيلة أولاد على المنتشرين على حدود مصر الشمالية الغربية للانضمام إلى السلاويين ووضع قواته فى خدمتهم ، ولم يكتف بهما قد يتعرض له من محاكمة عسكرية بتهمة الخيانة العظمى أو العصيان . وكان مما زاده تصميماً على خطته موقف محافظ الصحراء الغربية الإنجليزي ، واسمه سيسل سنوبك Cecil Snow Bey من القوة المصرية السودانية التى كانت مرابطة فى سيدى برانى ويقبى ، إذ سحب للسيارات المدرعة من هنين المركزين إلى مرسى مطروح ، وترك المصريين والسودانيين الموجودين فيهما وشأنهم . وكانت حجة فى هذا التصرف أن هؤلاء الجنود مسلمون ، والأتراك والعرب مسلمون ، وفى وسعهم جميعاً أن يفعلوا مايشاءون بعضهم ضد بعض . وقد انضم محمد صالح حرب إلى المجاهدين فى ليلة ٢٥/٢٦ نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩١٥ .

(١) يكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ، العلاقات المصرية الليبية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٦ .
(٢) تدرج هذا الضابط فى مناصب الجيش المصرى حتى وصل إلى رتبة لواء وأتم عليه برتبة الباشوية ، ثم عين وزيراً للدفاع الوطنى فى وزارة على ماهر باشا ، التى تالتت فى ١٨ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٩ . وقد ظلت هذه الوزارة فى الحكم إلى أن أعلنت إيطاليا فى ١٠ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٤٠ الحرب على فرنسا وبريطانيا منضمة إلى ألمانيا وحليفاتها . وفى ١٢ من شهر يونيو عقد مجلسا النواب والشيوخ جلسة سرية لسماع بيان رئيس الوزارة عقب دخول إيطاليا الحرب . وافر المجلسان سياسة الوزارة ، وتلخص فى تجنب مصر ويلات الحرب مع الوفاء بتعهداتها وتقديم أكبر معونة لطيفتها بريطانيا فى دفاعها عن الحق والحرية فى حدود معاهدة ٢٢ أغسطس - آب - عام ١٩٣٦ ، وأن يكون موقف مصر موثقاً بفاعياً مع قطع العلاقات السياسية مع إيطاليا واعتقال معظم رعاياها . ولكن سرعان ما سادت العلاقات بين الحكومتين المصرية والبريطانية ؛ إذ نسبت الأخيرة إلى وزارة على ماهر وقصر عابدين ميولاً طيبة نحو إيطاليا وغيرهما من دول المحور . فوجهت الحكومة البريطانية بواسطة سفارتها فى القاهرة إلى فاروق ملك مصر تليفاً بمثابة إنذار بلكة لاسبيل إلى التعاون بينها وبين وزارة على ماهر باشا ، فقدم استقالة وزارته فى ٢٧ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٤٠ وكان الاتهام الذى وجه إلى الوزارة اتبهما مهنيًا : إنه تصامم بين ولايتين Clash between two loyalties ولا لمصر ولاء لبريطانيا . وكان تقديم الاستقالة إذعاناً للتبليغ البريطانى . وبعد هذا الحادث مقبلة لحدث ٤ فبراير - شباط - عام ١٩٤٢ .
انظر :

عبدالرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ، ج ٢ ، الطبعة الأولى ، ص ٧٠ ، ص ٨٢-٨٥ .

كانت القوة المصرية التي تحت إمرة محمد صالح حرب موزعة في ذلك الوقت بين مرسى مطروح والسلوم وسيدي براني وقرية ، وتقع عند واحة سيوة . وكانت قوته في مرسى مطروح يتراوح عددها بين خمسة وأربعين جندياً وخمسين جندياً ، عدا أربعة ضباط وكتاب أول القسم ويطلق عليه الباشكاتب .. خرج بهم جميعاً وسط السيارات المدرعة وكانوا جميعاً ما عدا ضابطاً واحداً يجهلون ما يبيته . أما البريطانيون فقد اعتقدوا أنه يعتزم القيام بجولة استطلاعية بصفته قومنداناً للمنطقة ، فلم تتلباهم الشكوك حول خروجه بقوته ، وأفسدوا له الطريق واتجه صوب السلوم ، ومر في طريقه بسد ومشايخ المنطقة يضمهم إليه . وعند الفجر وصل الجميع إلى دوار (أودور) عائلة العاصي من قبيلة القنيشات ، وهناك جمع محمد صالح حرب الرؤساء والضباط والمشايخ والعمد وخاطبهم قائلاً : «تقف الآن بين معسكرين : أحدهما معسكر الإنجليز أعداء الله والوطن الذين وضعونا تحت الحماية ، والآخر معسكر العرب والأتراك الذين يقولون إنهم جاءوا ليخلصونا . وقد أفتنى ضميري وواجبي الديني بعدم البقاء مع الإنجليز . وقد خرجت في سبيل الجهاد ضدهم ، فمن كان منكم يحرص على حياته أو تزامه أية مسؤوليات عائلية بالعودة إلى مرسى مطروح ، فإنني لا أحول بينه وبين العودة ، وإنما على شريطة أن يترك ما معه من سلاح ومؤونة» . فلم يرغب أحد في العودة إلى مرسى مطروح^(١) بل أيدوا جميعاً تصميمهم على البقاء إلى جانب رئيسهم القومندان المصري ويعيشون معاً ويموتون معاً ، وتعاهدوا على الجهاد إلى جانب الليبيين . ومن ثم بدأت الثورة علنية وانضوى تحت لوائها أفراد قبيلة أولاد علي ، وأمر محمد صالح حرب بإنشاء أول دور^(٢) للمجاهدين في وادي ماجد على مسافة عشرة كيلو مترات إلى الجنوب الغربي من مرسى مطروح . وانتشرت الثورة في أنحاء العقبية ، وهي المنطقة الممتدة من الحجاج غربي محطة فوكة إلى مريوط . وفوجئ البريطانيون بهذه الحركة الثورية ، ودارت معارك عنيفة بين القوات البريطانية من جهة والقوات السنوسية والمصرية والسودانية من جهة أخرى ، وحسبنا أن نذكر منها موقعة وادي ماجد الثانية في ديسمبر - كانون أول - عام ١٩١٥ ، وبعد هذه المعركة التي لقي فيها البريطانيون الهزيمة تقدم محمد صالح حرب مع الهجانة والقوات السنوسية والعربية إلى جهة الزرقاء في الجنوب الشرقي من مرسى مطروح . وتبادل الفريقان المتحاربان الهزيمة

(١) دكتور فؤاد شكرى : السنوسية بين دولة ، مرجع سبق ذكره ص ١٧٢ .

(٢) الدور وجمعها أنوار مصطلح تاريخي في الحياة السياسية الليبية ، معناه وحدة عسكرية وإدارية واقتصادية تمارس نفوذاً على المنطقة المحيطة بها . وكانت الدور يحكم اختصاصاتها المتشعبة تضم عدداً من رؤساء الموظفين ، كان من بينهم قائد عسكري لشنون القتال ، وقائمقام للمسائل المدنية ، وقاض لتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية ، فضلاً عن عدد من المساعدين لجمع الضرائب . وقد نظر الإيطاليون إليها بعد الاحتلال الإيطالي نظرة عدائية ، إذ كانت تهوى إليها أفئدة أهل البلاد فاهتموا ببطلها ثم استبدلوا بها نظام «الأنوار المختلطة» وهي فرق تحمسوا لإنشائها تتكون من جنود عرب وبيجانهم عدد من الإيطاليين المترسين بحياة الصحراء . ثم قرر الإيطاليون حل الأنوار المختلطة في أبريل - نيسان - عام ١٩١٢ بعد إعلان إلغاء اتفاقية الرحمة .

والانتصار . واتضح من سير العمليات الحربية أن الحملة الليبية التي اعتمد عليها محمد صالح حرب كقوة ضاربة رئيسية كانت تعوزها الذخائر والأسلحة والمؤن . وقد لقي المجاهدون هزيمة في معركة بير تونس ، وعقد السيد أحمد الشريف السنوسي مجلساً حربياً حضره نوري بك وجعفر العسكري وبعدد من الضباط العثمانيين ، كما شهد محمد صالح حرب نائباً عن الضباط المصريين وثلاثة من كبار المشايخ . وكان من رأى محمد صالح حرب ضرورة تغيير أسلوب الحرب باستخدام حرب العصابات وطريقة الكر والفر ، فیتجه المجاهدون إلى الواحات . أما الضباط العثمانيون .. فقد أصروا على الزحف نحو الدلتا متتبعين الشريط الساحلي ، وهو أسلوب عقيم يعرض القوات الزاحفة لقتال السفن والأسطول البريطاني . واستقر الرأي آخر الأمر على تقسيم القوة إلى فريقين : فريق يذهب إلى الجنوب وهدفه احتلال الواحات . وكان يتألف من ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي بقيادة محمد صالح حرب ، ويقتل الفريق الآخر في الشمال وعدد أفرادهم ستة آلاف جندي بقيادة جعفر العسكري ، ويقتل نوري بك قائداً عاماً على الجناحين ، على أن يظل مع جعفر العسكري في الشمال .

انضمام عبدالرحمن عزام إلى المجاهدين :

انسحبت قوة نوري وجعفر العسكري من بير تونس قاصدة بئر الكلاب شرقى سیدی براني ، وهناك فاجأها البريطانيون في معركة العقاقير في فبراير - شباط - عام ١٩١٦ ولتصروا انتصاراً حاسماً . وحضر هذه المعركة مجاهد مصري شاب ، هو الأستاذ عبدالرحمن عزام (١) ، وكان من آثار هذه المعركة أن تشتت شمل القوة الشمالية وطارد البريطانيون قلوبها وتوغلوا في برقة إلى ماوراء بئر واعر . دخل فريق من للبريطانيين السلم في ٢٤ من مارس - آذار - عام ١٩١٦ ، واستولوا على معسكر كان فريق من المجاهدين يربطون فيه .

نجاح الحملة بقيادة محمد صالح حرب :

أما القوة الثانية التي كانت تحت قيادة محمد صالح حرب .. فقد تحركت نحو سيوة ، وكان يرافقها السيد أحمد السنوسي واستولت على سيوة ، ثم اتجهت إلى الواحات البحرية والفرافرة والداخلة وانضم إليها جميع من كانوا بهذه الواحات من الموظفين المصريين . ونجحت القوة في الاستيلاء على كل هذه الواحات ، واستمرت حرب العصابات ضد البريطانيين طوال عام ١٩١٦ وأوائل العام التالي . وأنشأ البريطانيون في الواحات الخارجية مركزاً عسكرياً يرسلون منه طائرات استطلاعية لكشف مواقع تجمعات المجاهدين ، وأخذوا يشنون عليهم

(١) غدا عبدالرحمن عزام باشا من رجال السياسة المصريين ، الذين أبلا بلاءً حسناً في شتى مراحل القضية الليبية وجهاد الشعب الليبي من أجل تحريره من الاحتلال الإيطالي . وقد عين وزيراً للأوقاف في وزارة على ماهر باشا التي تشكلت في ١٨ من شهر أغسطس - آب - ١٩٢٩ ، ثم نقل في شهر ديسمبر - كانون أول - من السنة ذاته وزيراً للشئون الاجتماعية ، وقد انتهى حياته السياسية أميناً عاماً لجامعة الدول العربية . وكان له دور سياسي كبير في قضية فلسطين .

هجمات متلاحقة من الواحات الخارجة بعد أن وضع البريطانيون خططاً حربية شاملة استهدفت استرداد الواحات التي استولى عليها المجاهدون . وكانت هذه الخطط تقضى بطويق جيش المجاهدين ومركز قيادته العامة في الواحات الداخلة ، وبأت من الضروري الانسحاب بسرعة قبل أن تتم عملية التطويق . وجاء السيد أحمد الشريف السنوسي إلى الواحات الداخلة في أواخر عام ١٩١٦ ، وأقر رأى محمد صالح حرب في ضرورة الانسحاب من الواحات الداخلة في اتجاه الغرب ، نحو جنوب سيوة إلى واحة جغبوب .

حملة السنوسي تحقق هدفاً مهماً من أهدافها :

ومن الأسباب الرئيسية التي أيدت رأيهما أن حملة السنوسيين على الحدود الغربية لمصر قد حققت هدفاً هاماً من أهدافها ، وهو احتجاز قرات بريطانية كبيرة على حدود مصر الغربية وفي صحراء مصر وفي القطر المصري عامة ، في وقت كانت بريطانيا في أشد الحاجة إلى استخدامها في حملة الدردنيل سنة ١٩١٥ ، وقد باعته هذه الحملة بالفشل وخسرت بريطانيا سمعتها الحربية إذ بلغت خسائرها ١٢٠,٠٠٠ من القتلى والجرحى (١) ، كما أن الأنباء قد بلغت المجاهدين بفشل الدولة العثمانية في هجومها على الحدود الشرقية لمصر وعبور قناة السويس . فأنت هذه العوامل مجتمعة إلى تخفيف الغضاظة ، التي كان يشعر بها محمد صالح حرب عندما اتخذ قرار الانسحاب .

وقد واجه محمد صالح حرب صعوبات شتى في الانسحاب؛ إذ لم يكن لدى الجيش العدد الكافي من الجبال بعد أن فقد عدداً لا يستهان به منها ، وكان عدد كبير من الجنود قد أصيبوا بحمى الملاريا . وكان للجيش تعوزه الأوعية لنقل الماء ، كما كان من الضروري أن يتم الانسحاب في غفلة عن البريطانيين حتى لا يقوموا بهجوم على الجيش المنسحب؛ إذ كان لدى البريطانيين عدد وافر من السيارات المدرعة التي تستطيع تعقب المجاهدين في أثناء انسحابهم . ولذلك كان محمد صالح حرب يلجأ في انسحاب قواته إلى الاعتصام بالثلال الرملية المنحدرة التي يتعذر على السيارات المدرعة الاقتراب منها . وقد نجح محمد صالح حرب في التغلب على هذه الصعوبات ، وأرسل منها قواته إلى جغبوب في أوائل عام ١٩١٧ . ولم يكد يستقر به المقام أسبوعاً في جغبوب ، حتى تلقى خطاباً من السيد محمد إدريس قال فيه إنه جاء إنذار من البريطانيين يقولون فيه إنه إذا لم يرحل السيد أحمد الشريف ومحمد صالح حرب جغبوب في خلال أيام محدودة .. فإنهم سيضطرون إلى تدمير جغبوب وتحطيم مقام السيد محمد بن على السنوسي المشيد بها ، وإنهم احتراماً منهم لقداصة هذه البقعة ، رأوا أن يوسطوا السيد محمد إدريس حتى يمنع هذه الكارثة الخطيرة التي ستترتب على وجود السيد أحمد الشريف ومحمد صالح حرب بجغبوب ، بأن يعمل على ترحيل قوات المجاهدين منها . وقد خشى السيد أحمد

(١) انظر في هذه الدراسة الجزء الأول ، الفصل الثامن .

الشریف أن ینفذ البریطانیون وعیدهم بتدمیر مقام جدہ ، فقرر مغادرة جنوب إلى وأحتی جالو وأوجله . وانتهی الانسحاب بالسنوسییین عند الجفرة ، وهناك تلقى محمد صالح حرب رسالة من القائد العام نورى بك یرجوه فیها إقناع السید أحمد الشریف السنوسى بأن یزل بالجیش إلى ساحل البحر فی جهة «سرت» أو «سلطان» لمحاربة الإيطالیین . وكان معنی هذه الرسالة أن السنوسییین تحولوا عن محاربة البریطانیین إلى منازلة الإيطالیین . فتحرك الجمع إلى الشمال ووصلوا إلى «سلطان» وعسکروا فی جهة العقيلة ، وكان محمد صالح حرب یتردد بین العقيلة ومصراته للتحديث مع عبدالرحمن عزام ورمضان شتیوى، فی شأن إمداد معسکرات المجاهدين فی العقيلة بالمؤن والأسلحة (١) .

إخفاق الحملة السنوسية على مصر :

بقى السید أحمد الشریف فی العقيلة حتى شهر أغسطس - آب - سنة ١٩١٨ ، وعندئذ تلقى دعوة من إستانبول لحضور حفل تتويج السلطان وللخليفة العثماني الجديد محمد السادس . فغادر محمد صالح حرب ومعه السید أحمد الشریف برقة على الغواصة الألمانية نفسها التي أحضرت الدعوة . وكانت مغادرتهم الأراضي الليبية إيذاناً بانتهاء الحملة السنوسية ، وقد بدأت بمجىء غواصة ألمانية وانتهت بمجىء غواصة ألمانية . وتنازل السید أحمد الشریف السنوسى عن القيادة السياسية والعسكرية فی برقة إلى للسید محمد إدريس المهدي السنوسى، مع احتفاظه لنفسه بالزعامة الدينية .

أوروبا تقف من حركة الجامعة الإسلامية موقفاً معارضاً :

كان أمراً طبيعياً أن تتخذ الدول الأوروبية الاستعمارية التي تحكم رعايا مسلمين فی مستعمراتها أو فی أقالیم تحتلها أو مناطق تمارس فیها نفوذاً متفقاً موقفاً معارضاً لحركة الجامعة الإسلامية حفاظاً على الأوضاع القائمة فی هذه البقاع . ومن ثم عملت على تشويه هذه الحركة فی أذهان المسلمين الخاضعين لها، وإثارة مخاوفهم من أهداف السلطان عبدالحميد من هذه الحركة، وأوضح عملاء الحكومات الأوروبية لهؤلاء المسلمين أنهم یعمون بحكم أوروبى مستتير، یحرص على رفع مستواهم الحضارى ویتمتعون فی ظلالة بحياة آمنة هادئة عادلة . وفی غمار الدعاية المضادة لحركة الجامعة الإسلامية، أبدى هؤلاء العملاء تخوفهم على المسلمين إذا استجابوا لدعوة السلطان عبدالحميد الثانى أن یعرضوا لحكم استبدادى یقسم بشتی أنواع المظالم ، وأن عبدالحميد - وهو السلطان الأحمر فی زعمهم - سوف یخصب أراضي هؤلاء المسلمين بدماء الأبرياء على غرار ما یفعل فی دولته .

وانبرى رجال السياسة فی أوروبا ممن لهم شأن فی تاریخ الاستعمار ، مثل آنوتو Han-

(١) لكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ، العلاقات المصرية الليبية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨١-٨٤ .

G. otaux فى فرنسا ، ولورد جراى Grey E. فى إنجلترا إلى مهاجمة حركة الجامعة الإسلامية واعتبارها بؤرة للتعصب الدينى ، وأنها لا تستهدف سوى قوات الدول المسيحية ونفوذها فى العالم الإسلامى، ودعوا الحكومات والشعوب الأوروبية إلى مراقبتها مراقبة دقيقة والحذر منها (١). وقد حدث أن هاجم لورد إدوارد جراى وزير خارجية بريطانيا فى وزارة كامبل بانرمان (٢) Campbell Bannerman حركة الجامعة الإسلامية فى مجلس العموم البريطانى وقال عنها إنها ليست إلا بؤرة للتعصب الدينى .. فتصدى له الأمير صباح الدين بالرد عليه . وعلى الرغم من أنه كان من الخصوم السياسيين للسلطان عبد الحميد وأنه كان يمت بصلة المصاهرة لأسرة السلطان (٣) ، فقد كتب تعليقاً على بيان وزير خارجية بريطانيا نشرته جريدة التايمز Times فى عددها الصادر فى اليوم الثالث عشر من شهر أغسطس - آب - سنة ١٩٠٦ ، وجاء فى هذا التعليق أن حركة الجامعة الإسلامية ليست أسطورة من الأساطير ، وإنما هى نتاج رد الفعل لدى حكومات وشعوب دول الشرق لسياسة الحكومات الأوروبية التى لم تكن تصرفاتها تحمل دليلاً للطابع السلمى والحضارى ، وإنما كانت تستهدف بسط سيطرتها على الشرق واستغلال موارده البشرية والاقتصادية لمصلحة أوروبا .

الجامعة الإسلامية من الأسباب العامة للثورة العربية :

ويرى بعض الباحثين أن حركة الجامعة الإسلامية كانت على رأس الأسباب العامة التى أدت إلى اشتعال الثورة العربية فى مصر سنة ١٨٨١ (٤) ؛ فقد رأى المصريون التدخل الأوروبى فى شئون بلادهم فى أسوأ صوره مثل إرسال بعثة ستيفن كيث Stephen Cave الإنجليزية فى ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٧٦ لفحص المالية المصرية ، وإنشاء صندوق للدين (٢ من مايو - أيار - سنة ١٨٧٦) ، ومجلس أعلى مختلط لشئون الموازنة المالية للحكومة (١١ من الشهر ذاته) ، وفرض الرقابة الثلاثية (١٨ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٧٦) ، وإنشاء لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية وميناء الإسكندرية (فى ذات التاريخ) ، وتشكيل لجنة تحقيق عليا أوروبية (٢٧ من مايو - أيار - عام ١٨٧٨) ، وتأسيس وزارة مختلطة أوروبية مصرية (٢٨ من أغسطس - آب - عام ١٨٧٨) ، وخلع الخديو اسماعيل (فى ٢٦ من يونيو - حزيران عام ١٨٧٩) بناء على تدخل ألمانيا وبريطانيا وفرنسا ، وتدقيق الموظفين الأوروبيين

(١) توفيق على بىو ، العرب والترك إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤ .

(٢) شكلت هذه الوزارة فى ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٠٥ وظلت فى الحكم حتى إبريل - نيسان - سنة ١٩٠٨ وخلفتها وزارة أسكويث Asquith .

(٣) أن الأمير صباح الدين ابن الداماد محمود، الذى هو ابن الأميرال خليل باشا، زوج أخت السلطان محمود الثانى، وسائقى بالأمير صباح الدين عند الكلام على تدخل العسكريين فى السياسة .

(٤) الدكتور محمد مصطفى صفوت : الاحتلال إلخ . مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .

على وزارات الحكومة ومصالحها . وكان اهتمام هذه الهيئات الأوروبية منصباً على مراعاة مصالح الأجانب والدائنين الأجانب دون أى اعتبار لمصالح المصريين ، ومذكرة فرنسا وبريطانيا إلى مصر فى ٧ من يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٢ ، ومجىء الأسطولين البريطانى والفرنسى إلى مصر فى صورة مظاهرة بحرية ، وإرسال مذكرة أخرى فرنسية بريطانية فى أعقاب وصول الأسطولين لإسقاط وزارة البارودى وإخراج عرابى باشا من مصر (٢٥ من أبريل - نيسان - عام ١٨٨٢) ، ودور الإنجليز فى تدبير مذبحه الإسكندرية واشترائهم فى الأجانب فى أحداثها (١١ من يونيو - حزيران - عام ١٨٨٢) . وقد تصافرت كل هذه الصور المتلاحقة من التدخل الأوروبى المتنوع فى شئون مصر، فبعثت فى نفوس المصريين الأمل فى أن تكون الجامعة الإسلامية المرفأ الآمن الذى يقى بلادهم شرور التدخل الأوروبى .

ومن العوامل التى شددت المصريين إلى حركة الجامعة الإسلامية :

أولاً : أن جمال الدين الأفغانى أقام فى مصر إقامة مستمرة امتدت أكثر من ثمانى سنوات ، حيث مارس نشاطاً علمياً مكثفاً شمل النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية على النحو الذى فصلناه من قبل ، ونشر وعياً عميقاً فى أوساط المثقفين وضباط الجيش ورجال السياسة وغيرهم ، ونجح فى زيادة تبصيرهم بخطورة التدخل الأوروبى فى شئون مصر .

ثانياً : أن المصريين لم يكونوا متعاطفين مع الخديو إسماعيل فى السنوات الأخيرة من حكمه الطويل (١٨٦٣-١٨٧٩) ، وكانوا يرون أنه السبب الأول فى الكوارث التى حلت بالبلاد .

ثالثاً : أن المصريين كانوا ينقمون على خلفه الخديو توفيق رضوخه المستمر للتدخل الأوروبى ، فأصبح أداة طيعة لينة فى أيدي الدول الأوروبية الكبرى ، حفاظاً على منصبه وخوفاً من أن يتعرض لما تعرض له والده من العزل .

رابعاً : أن الدولة العثمانية قد أثبتت الوجود العثمانى ، فى مصر من الناحية الشكلية على الأقل ، حين أرسل السلطان عبدالحميد الثانى وفد إلى مصر .. كان الوفد الأول برئاسة على نظامى باشا . وقد وصل مع أعضاء الوفد إلى مصر فى ٦ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٨١ ، وكان من بين الذين زارهم الوفد وزير الحربية وكبار ضباط الجيش وشيخ الأزهر ونقيب الأشراف وكبار العلماء . وغادر الوفد الإسكندرية فى ١٩ من ذات الشهر عائداً إلى إسطنبول . وكان الوفد الثانى برئاسة مصطفى درويش باشا ، ووصل فى ٧ من يونيو - حزيران عام ١٨٨٢ ، وغادر الإسكندرية فى ١٩ من يوليو - تموز - عام ١٨٨٢ بعد احتلال الإنجليز لها .

خاصاً : أن المجتمعات فى مصر كانت لاتزال غالبيتها مجتمعات دينية اسلامية ، كشفت عن معندنا الدينى الاصيل ايان الحرب العثمانية الإيطالية (١٩١١-١٩١٢) .

ويلاحظ أنه لما استولت فرنسا على تونس عام ١٨٨١ ، أدرك الشعب المصرى بفطرته السلمية أن دور مصر آت لاريب فيه .. يقول أحمد عرابى باشا فى مذكراته ووخشنا من مطامع إنجلترا التى كانت ترمى إلى النهام وادى النيل ، أسوة بما فعلته فرنسا بتونس حتى يتم التوازن الدولى الذى تدعيه فى أوروبا . وقد تحققت مخاوف المصريين فلم يمض عام وبعض عام حتى تم احتلال بريطانيا لمصر ، وعمدت بريطانيا إلى تهدئة مخاوف المصريين فأكثر من تصريحاتها الرسمية بأن احتلالها إنما هو احتلال مؤقت ، يزول بعودة النظام والهدوء إلى ربوع البلاد . ومع ذلك ظل للمصريين يشخصون بأبصارهم إلى دار الخلافة فى إسطنبول ، ويملقون أمالاً كباراً على تدخل السلطان والخليفة عبدالحميد الثانى . وتحت ضغطه والحاحه وحدث تغيير وزارى فى بريطانيا (١) تم فى ٢٢ من مايو - آيار - عام ١٨٨٧ ، عقد اتفاقية الأساتنة وتقرر بمقتضاها جلاء القوات البريطانية عن مصر بعد ثلاث سنوات من إبرام الاتفاقية أى فى سنة ١٨٩٠ ، إلا إذا اتضح فى ذلك الحين احتمال خطر داخلى أو خارجى يستلزم تأجيل موعد الجلاء .. ففى هذه الحالة يؤجل جلاء القوات البريطانية إلى أن يزول هذا الخطر . وتبقى لبريطانيا رقابة عامة على الجيش المصرى لمدة عامين بعد الجلاء ، وخولت بريطانيا لنفسها الحق فى احتلال مصر بالاشتراك مع الدولة العثمانية فى حالة اضطراب الأمن والنظام فيها . وإذا كان لدى الدولة العثمانية مانع يحول دون إرسال قواتها إلى مصر .. فإنها توفد مندوباً يبقى فى مصر طوال فترة الاحتلال البريطانى (٢) ، ورفض عبدالحميد التصديق على المعاهدة تحت تهديد فرنسا والروسيا ، وبذلك فكت المعاهدة أثرها القانونى واعتبرت كأن لم تكن (٣) .

(١) كانت وزارة جلاستون الثانية التى تم على عهدا الاحتلال البريطانى لمصر قد استقالت فى يونيو - حزيران - عام ١٨٨٥ ، وأجريت انتخابات عامة فاز فيها حزب المحافظين ، الذى آلف وزارة برئاسة لورد سالزبرى فى الشهر ذاته . وكان أول عمل له فى المسألة المصرية إيفاده سير هنرى درمند ولف Sir Hen-ry Drummond Wolf إلى إسطنبول لمفاوضة الحكومة العثمانية فى شأن الجلاء عن مصر وتحديد موعده .

(٢) انظر النص الرسمى لهذه الاتفاقية فى الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٧ لسنة ١٨٨٧ وثيقة رقم ٨٨ من سير هنرى درمندوف إلى سالزبرى والمؤرخة فى ٢٤ من مايو - آيار - سنة ١٨٨٧ .
Convention between Great Britain and Turkey respecting Egypt; Signed at Constantinople, May 22, 1878.

(٣) انظر تفاصيل ضغط فرنسا والروسيا على السلطان وأهدافهما من إحباط الاتفاقية فى : دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : الدبلوماسية الفرنسية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٧-٦٦ .

لورد كرومر يهاجم حركة الجامعة الإسلامية :

وإنبثاقاً عن هذا الموقف المعارض بل العدائى ، هاجم لورد كرومر المعتمد البريطاني فى مصر (١) حركة الجامعة الإسلامية هجوماً عنيفاً ، فى تقريره السنوى عن مصر لسنة ١٩٠٦ ، والذي رفعه إلى وزارة الخارجية البريطانية ، فقال عنها إنها حركة ترمى إلى تحدى الدول المسيحية ، وإنها حركة قائمة على بث البغضاء والتشاحن الجنسى والدينى . واستطرد فقال إنها حركة تقوم على إحياء للنظم والمبادئ التى وضعت منذ أكثر من ألف عام لإرشاد وتوجيه مجتمعات بدائية ، وهى مبادئ تنطوى على الاعتراف بالاسترقاق . وإن هذه المبادئ لم تعد ملائمة للوقت الحاضر أو مناسبة للآراء الحديثة ، فضلاً عن أنها تركز القانون المدنى والجنائى والدينى فى قالب واحد؛ مما أدى إلى جمود وتخلف جميع البلاد التى اعتنق أهلها الدين الإسلامى (٢) .

كانت هذه الآراء التى يسطها لورد كرومر تتم عن تعصبه الدينى الصارخ وضيق أفقه العقلى ، وعدم فهمه للتيارات الدينية والفكرية التى كانت تسود العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، كما تدل على تأصل نزعة الاستعمارية فى تفكيره ، وكراهيته الشديدة لكل للمحاولات التى تنف فى وجه الزحف الاستعماري الأوروبى على العالم الإسلامى .. فكان كرومر فى هذا الصدد على شاكلة غالبية المستشرقين ، الذين اتخذوا من العلم ستاراً للتهجم على الدين الإسلامى والمسلمين . وكان كرومر فى رأى المؤرخين الإنجليز من بذاة الإمبراطورية البريطانية وأحد أعلام الإنجليز فى مجالات الاستعمار والحرب والحكم والسياسة والاقتصاد ، وذهب هذا الفريق من المؤرخين إلى أن على أوروبا أن تفخر بكرومر ، لأنه أدى رسالة الحضارة الأوروبية خير أداء فى الشرق ومصر (٣) ؟ وقد تصدى الأستاذ محمد عبده للرد على لورد كرومر منادياً عن الدولة العثمانية وعن السلطان عبدالحميد وعن حركة الجامعة الإسلامية ، فقرر فى مقال نشرته جريدة المنار أن الدولة العثمانية هى أكبر دول الإسلام ، وأن عبدالحميد هو أعظم سلاطين المسلمين ، ونفى عن حركة الجامعة الإسلامية صفة التعصب الدينى (٤) . كما هاجم المستشرق البريطانى الأستاذ مارجليوث Margliouth حركة الجامعة الإسلامية هجوماً عنيفاً فى محاضرة ألقاها فى الجمعية الآسيوية فى لندن سنة ١٩١٢ ، وأرجع

(١) هو أول معتمد بريطانى فى مصر ، وكانت وظيفته قنصلاً عاماً ووزيراً مفوضاً & Consul General Minister Plenipotentiary مصر لشغل هذا المنصب فى ١١ من سبتمبر - أيلول - عام ١٨٨٢ ، وظل شاغلاً له أربعاً وعشرين سنة حتى أبريل - نيسان - عام ١٩٠٧ ، وكان اسمه سير إلفن بارنج Sir Eln Baring ثم عرف باسم لورد كرومر .

(٢) الدكتور محمد مصطفى صفوت : الاحتلال إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧ ، حاشية رقم ١ .

(٣) يرى الفرنسيون فى معاصره كامير Cambon المقيم الفرنسى العام فى تونس شبيهاً له .

(٤) المنار ، المجلد العاشر ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

إلى الإسلام التخلف والجمود وسوء الحكم، وانعدام الأمن في البلاد الإسلامية التي لا تتمتع بالحماية الأوروبية^(١).

تصاعد حركة الجامعة في مصر إبان الحرب الطرابلسية :

ظلت بريطانيا على معارضتها لحركة الجامعة الإسلامية حتى بعد عزل السلطان عبدالحميد الثاني ؛ إذ لما قامت الحرب العثمانية الإيطالية سنة ١٩١١ بسبب هجوم القوات الإيطالية على طرابلس ، وكانت من الممتلكات العثمانية ، أراد الاتحاديون الذين كانوا يحكمون الدولة من الناحية الفعلية الاستفادة من حركة الجامعة الإسلامية بتأليب الولايات الإسلامية ضد إيطاليا . ولكن الرأي العام في مصر كان أسبق من حكومة إستانبول في هذا الصدد؛ إذ كانت قطاعات كبيرة منه وعلى مختلف المستويات يغمرها حماس دافق بتأثير حركة الجامعة الإسلامية لتقديم المساعدات العسكرية والمالية والطبية إلى إخوانهم المجاهدين في برقة وطرابلس، ولذين كانت تربطهم بمصر روابط الدين واللغة والجوار والتبعية للدولة العثمانية . وتشكلت لجان من كبار المصريين جمعت مساعدات مالية سخية من الشعب المصري، على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه من قبل في هذه الدراسة ، ولكن لورد هيررت كنتشر، المعتمد البريطاني في مصر، بذل كل جهوده لمنع تقديم المساعدات المصرية للمجاهدين في طرابلس وبرقة^(٢) ، وكان يقتفى في تصرفاته خطوات لورد كرومر ، ويعبر من الناحية العملية عن موقف الحكومة البريطانية من حركة الجامعة الإسلامية .

(ج) تفسيرات تصفية ومهاجمة الحكومات والهيئات الأوروبية لحركة الجامعة الإسلامية :

وقد فسر المتحاملون على الدولة بعامة ، وعلى السلطان عبدالحميد الثاني بخاصة ، حركة الجامعة الإسلامية تفسيرات تصفية شتى ، كان منها :

أولاً : أراد السلطان عبدالحميد اتخاذها وسيلة لدعم الحكم الفردي المطلق، الذي كان يمارسه في تصريف شئون الدولة؛ لأن توطيد مركزه كخليفة في جميع أرجاء العالم الإسلامي كان يضافى عليه حصانة، تجعله بمنأى عن كل نقد أو تهريج لشخصه أو لأسلوبه في الحكم.

ثانياً : كان في استطاعة السلطان في وضعه الجديد أن يكون أكثر نجاحاً في مطاردة أنصار الحركة الدستورية، التي كانت تفرس لها جنوراً عميقة في الحياة السياسية في الدولة ، وأن يرمى أولئك الأنصار بالمروق والعصيان .

(١) نكتور زكي صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٩-٦٠ .

(٢) سبق أن تعرضنا لوقوف الشعب المصري إبان الحرب العثمانية الإيطالية . انظر في هذه الدراسة ، ج ٢ ، الفصل السادس ، حاشية رقم ١ .

ثالثاً : إن حركة الجامعة الإسلامية كانت ترضى فى آن غرور السلطان عبد الحميد، وطموحه إلى المجد الذى كان يشتهي .

وهذه التفسيرات تدهشنا عدة حقائق ، فإن رجال الاتحاد والترقى الذين حكموا الدولة بعد الانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ ثم انفردوا بحكمها بعد ذلك فى معظم السنوات حتى سنة ١٩١٨ تمسكوا بحركة الجامعة الإسلامية أسلوباً لهم فى الشئون الخارجية وللحرية بوجه خاص . ونذكر هنا بعض الأمثلة للتدليل على هذا الأسلوب الذى اتبعوه :

أولاً : ماحدث إبان الحملة الإيطالية على ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بنى غازى ، وفى أثناء الحرب العالمية الأولى .. فقد اهتموا اهتماماً زائداً بحشد الصفوف الإسلامية فى الدولة وخارج الدولة، للوقوف إلى جانبها ضد إيطاليا إبان العدوان الإيطالى على هذين الإقليمين .

ثانياً : قبيل دخول الدولة العثمانية للحرب العالمية الأولى رسمياً فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٤ ، أمر أنور باشا وزير الحربية (١) بإنشاء تنظيم خاص عرف باسم تشكيلات مخصوصة، بقيادة سليمان باشا العسكرى ، وكانت مزيجاً من الخدمة العسكرية السرية ونظام حرب العصابات، اشتمكت فى الضال الذى قام به الأحرار فى مقدونيا وليبيا (٢) ، وللقوقاز . وكان أعضاء بارزون من خاصة حزب الاتحاد والترقى مثل الدكتور بهاء الدين شاكى ومحدث شكرى من بين أعضاء المكتب السياسى لهذا التنظيم، وكانت للتصريحات التى تصدر من مركز قيادة أنور باشا تقوم فى معظمها على موضوعات الجامعة الإسلامية .

ثالثاً : أعلنت الدولة ، فى ثلاث مراحل خلال الأيام الأولى لدخولها الحرب العالمية الأولى ، الدعوة فى الجهاد الدينى : المرحلة الأولى حين أصدر شيخ الإسلام من إسطنبول فى اليوم السابع من شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٤ فتوى، أعلن فيها أن الاشتراك فى هذه الحرب إلى جانب الدولة العثمانية إنما هو فرض عين على كل مسلم بالغ قادر فى جميع أنحاء العالم، بما فيهم للذين يخضعون لحكم بريطانيا أو فرنسا أو روسيا ، وقد وصفت الفتوى كل دولة من هذه الدول بأنها عدوة الإسلام . والمرحلة الثانية حينما أصدر السلطان محمد الخامس بلاغاً لرجال الجيش والأسطول ، فى اليوم الحادى عشر

(١) عين أنور باشا وزيراً للحربية فى وزارة محمد سعيد حليم باشا (١٨٦٣-١٩٢١) أحد أفراد أسرة محمد على فى مصر ، عقب اغتيال محمود شوكت باشا الصدر الأعظم فى اليوم الحادى عشر من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٩١٢ ، وكانت الوزارتان - وزارة شوكت حليم - تنتميان إلى حزب الاتحاد والترقى .

(٢) أطلقت على إقليمى طرابلس الغرب وبرقة لفظاً ليبياً وهى كلمة إيطالية منذ أن استولى الفاشست على الحكم فى إيطاليا سنة ١٩٢٢ ، وكانت برقة تسمى قديماً «سيريناىكا» Cyrenaica .

من الشهر ذاته ، حض فيه على الحرب من أجل تحرير المسلمين المستعبدين ، والدفاع عن الدولة المهددة .

وجاءت المرحلة الثالثة في اليوم الثالث والعشرين حينما صدر بيان للعالم الإسلامي وقع عليه شيخ الإسلام وثمانية وعشرون عالماً من ذوى المناصب الدينية الكبرى ، وقد أذن السلطان في نشره . ونص الإذن «إنا نأمر بأن يوزع هذا البيان على جميع الأقطار الإسلامية» . وقد أهاب البيان بجميع مسلمي العالم - سواء كانوا من رعايا بريطانيا وحليفاتها أو لم يكونوا - أن يطيعوا كتاب الله وأوامره كما فسرته الفتوى الشريفة ، وأن يشتركوا في الدفاع عن الإسلام والأماكن المقدسة . وقد سبق أن تعرضنا في هذه الدراسة بالتحليل والتعليق على هذه الفتاوى الثلاث ، وعلى حرب المنشورات الدينية ، التي خطط لها رجال الاتحاد والترقي بالاشتراك مع الخبراء والمستشرقين الألمان ، وعلى إيفاد البعث الدينية إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامي^(١) .

رابعاً : لما قام جمال باشا قائد الجيش الرابع بحملته الأولى على قناة السويس في شهر فبراير - شباط - سنة ١٩١٥ ، أطلق رجال الاتحاد والترقي على هذه الحملة ، الخطة الحربية الإسلامية ، ولم يطلقوا عليها الخطة الحربية العثمانية .

خامساً : لما أعلن الشريف الحسين بن علي الثورة على الدولة العثمانية في اليوم الخامس من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٩١٦ ، احتلت قولته جدة ، ومكة المكرمة ، والليث^(٢) ، والطائف ، ورايح ، وديبع ، وقنفدة^(٣) ، وغيرها من المدن والمحطات التي تساقطت في أيدي قوات الشريف ، ولكن املتكت المدينة المنورة على القوات العربية . وظلت القوت العثمانية مرابطة في المدينة المنورة ملتبقي من سنوات الحرب العالمية الأولى ، ورفض أنور باشا وزير الحربية أن يصدر أمراً إلى عمر محيي الدين نوركان باشا قائد القوت العثمانية في المدينة المنورة بتسليمها . وكانت هذه القوات تتألف من اثنتي عشرة كتيبة ، على الرغم من أنه كان يعلم أن العرب قد قاموا ، بتوجيه واشتراك توماس إدوارد لورانس Lawrence T.E عميل المخابرات الحربية البريطانية ، بنصف سكة حديد الحجاز وتخريب القاطرات الحديدية ؛ بحجة عدم تمكين العثمانيين من استخدامها في إرسال نجذات ومعدات عسكرية إلى الحجاز للقضاء على ثورة الشريف . وكانت وجهة نظر أنور باشا أن الدولة قد فقدت مكة المكرمة فلا أقل من أن تحتفظ بالمدينة المنورة . والاحتفاظ بإحدى المدينتين المقدستين خير من ضياعهما معاً من أيدي الدولة ، ومما

(١) انظر في هذه الدراسة ج ١ ، الفصل الثالث .

(٢) الليث ميناء صغير على ساحل البحر الأحمر ، بين الحجاز واليمن .

(٣) القنفذة ميناء يقع على ساحل البحر الأحمر ، بين جدة وجيزان .

يذكر أن القائد العثماني في المدينة المنورة لم يعلم بنبأ عقد هدنة محروس إلا بعد شهرين ونصف شهر من إبرامها .. فقد سلم هو وكتائبه في اليوم العاشر من شهر يناير - كانون ثان - سنة ١٩١٩ ، مع أن الهدنة كانت قد عقدت في اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩١٨ .

نخلص من هذا العرض السريع إلى أنه إذا كان السلطان عبدالحميد الثاني قد أراد أن يتخذ من حركة الجامعة الإسلامية أداة لدعم الحكم الفردي المطلق وتحقيق مصالح شخصية له ، كان من الواجب على وراثته في حكم الدولة ، وهم رجال الاتحاد والشرقي ، أن يتخلوا عن حركة الجامعة الإسلامية .

موقف سابق للروسيا اعترفت فيه بالسلطان كخليفة :

وجدير بالذكر أن الدولة العثمانية كانت قد تنازلت عن سيادتها على إقليم القرم في شمالي البحر الأسود وتمكنه طوائف إسلامية ، كما تنازلت للروسيا عن أقاليم أخرى تغطيها شعوب مسيحية ، في معاهدة كيثك كينارجي ، التي فرضتها روسيا على الدولة في الحادي والعشرين من شهر يوليو - تموز عام ١٧٧٤^(١) . وعلى الرغم من الهزائم العسكرية الأليمة التي نزلت بالقوات العثمانية في حرب استطلت ست سنوات وانتهت بهذه المعاهدة الجائرة ، اعترفت روسيا في هذه المعاهدة بالولاية الدينية للسلطان العثماني على مسلمي القرم . وقد اعترفت الدولتان الموقعتان عليها باستقلالهما استقلالاً تاماً ، وبأن يكونوا تابعين لدولة أجنبية أخرى على أي نحو من الأنحاء^(٢) . وقد نصت المادة الثلاثة على مايلي : «وحيث إن طائفة خانات القرم من أهل الإسلام ، وكون ثلثي السلطانية الموسومة بالعدالة هي إمام المسلمين وخليفة الموحدين .. فإنها توجب على هذه الطائفة أن تنظم أمورها المذهبية من طرفي الهمايوني^(٣) بمقتضى الشريعة الإسلامية ...»^(٤) ، وجاء النص الإنجليزي للصفة الدينية للسلطان العثماني بأنه خليفة المسلمين على النحو التالي :

(١) سبق أن تعرضنا لهذه المعاهدة بالدراسة في موضوع الحقوق الملاحية ، التي تقررت للروسيا في البحر الأسود والخصايق والوجود العسكري البري والبحري ، الذي تقرّر لها في هذا البحر على حساب مصالح الدولة العثمانية ، انظر الجزء الأول ، الفصل الثامن .

(٢) نصت المادة الثالثة أيضاً على أن يحكمهم خانات من نسل آل جنكيز خان ، ينتخبهم جميع طوائف التتار ، ويحكمون هذه الطوائف طبقاً لقوانينهم وتقاليدهم وعاداتهم ، كما نصت المادة ذاتها على ألا تتدخل الدولتان العثمانية والروسية في انتخابات الخانات أو في شئون حكمهم ، وأن يكون حكمهم نافذاً في الأمور الداخلية والخارجية بصفتها دولة مستقلة كسائر الدول المستقلة الأخرى .

(٣) أي السلطاني .

(٤) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٧-١٨٢ .

(١) "in his capacity of Grand Calif of Mohamedanism"

أى بصفته الخليفة الأعظم للإسلام ، والمعنى المستفاد من هذا النص أن الروسي - وهي في أوج انتصارها الحربي على الدولة العثمانية - قد اعترفت في معاهدة كيتك كينارجي - قبل أكثر من مائة سنة من حركة الجامعة الإسلامية - بولاية السلطان الدينية على مسلمين كانوا في إقليم عثماني ثم انسحق عن الدولة . وكان اعتراف الروسي بهذه الولاية الدينية مبنياً على أن صفة السلطان كخليفة للعالم الإسلامي لا تزال لصيقة به ومعترفاً بها في المجال الدولي ، فلم يكن أمراً شاذاً أن يعمل السلطان عبدالحميد الثاني على إبراز صفة خليفة أمام أوروبا ليقوى مركز الدولة في وقت عصيب ، كانت تواجه فيه حشداً من الدول العظمى ، تتآمر عليها تسابقاً على التهام بقية الأقاليم العثمانية .

وعلى مبلغ علمنا ، لم يرد نص مشابه لهذا النص في المعاهدات التي عقدت في القرن التاسع عشر بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية ، وتنازلت فيها لهذه الدول عن بعض أقاليمها أو منحت ، تحت ضغط هذه الدول ومؤامراتها الاستعمارية ، بعض الولايات العثمانية استقلالها . فمعاهدة برلين - على سبيل المثال - التي عقدت في اليوم الثالث عشر من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٧٨ قد نصت على أوضاع المسلمين في الولايات التي ظفرت باستقلالها التام أو الذاتي مثل رومانيا والجبل الأسود والصرب وبلغاريا (المواد ٥ ، ١٢ - ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٦٢ من المعاهدة المذكورة) ، ولكن لم يرد فيها أبداً نص على ولاية دينية يباشرها السلطان العثماني ، بصفته خليفة على رعاياه المسلمين (السابقين) في الولايات التي انسحقت عن الدولة .

ملك إيطاليا يعترف بالسلطان كخليفة :

ثم جاء القرن العشرون ، وقبل أن تلتفت الدولة أنفاسها الأخيرة بسنوات ذات عدد ، عقدت في اليوم الخامس عشر من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩١٢ معاهدة أوشي Ushi - بالقرب من لوزان (٢) - مع إيطاليا عقب الاحتلال الإيطالي لولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بنى غازي . وقد جاءت الصياغة اللفظية لمواد هذه المعاهدة في منتهى البراعة الدبلوماسية ، فلم يرد فيها أبداً إشارة لفرض الاحتلال الإيطالي على هذين الإقليمين ، ولكن كان معنى موافقة الحكومة العثمانية على سحب ضباطها وجنودها بأسلحتهم وعداتهم وكذلك موظفيها

(1) Hurewitz J.C., op. cit., pp. 54..61.

(٢) ولهذا السبب تطلق بعض المراجع على هذه المعاهدة اسم معاهدة لوزان بدلاً من معاهدة أوشي ، ويلاحظ أن المتدوين العثمانيين والإيطاليين قد وقعوا في هذا التاريخ على المعاهدة بالأحرف الأولى من أسمائهم . وفي اليوم الثامن عشر من الشهر ذاته تم التوقيع على المعاهدة بصفة نهائية ، وكان عقد هذه المعاهدة على عهد وزارة مختار باشا الغازي .

المدنيين منهما، هو أنها تنازلت في صمت *sub silentio* عنهما لإيطاليا^(١). وفقدت الدولة العثمانية آخر ممتلكاتها العربية في شمالي إفريقيا، وأصبحت هذه المنطقة تقاسمها كل من فرنسا (في الجزائر وتونس)، وبريطانيا (في مصر)، وإيطاليا (في ليبيا).

ويهمنا أن نذكر أن السلطان محمد الخامس (١٩٠٩-١٩١٨) الذي خلف السلطان عبدالحميد الثاني أصدر فرماناً في عام ١٩١٢، بعد ملحقات لمعاهدة أوغلي ووجهه إلى أهالي طرابلس الغرب ویرقة، ذكر فيه أن حكمته قد لقيت صعوبات في تزويدهم بالعتاد الحربي للدفاع عن بلادهم، وحرصاً منها على كفاءة مستقبل طيب لهم، ورغبة منها في تجنب الاستمرار في عمليات حربية تعرضهم هم وعائلاتهم لخطر الإبادة، كما تعرض الدولة العثمانية لعواقب وخيمة، ونظراً لضرورة إعادة حالتي السلم والرخاء إلى بلادهم، منحهم السلطان حرية تامة مطلقة بمقتضى قوانين الدولة العثمانية. وأبلغهم في فرمان ذاته أنه عين من لدنه شمس الدين بك كممثل له لديهم مع منحه لقب «نائب السلطان»، وأنه عهد إليه بحماية المصالح العثمانية في بلادهم، وأنه عينه لمدة خمس سنوات، واحتفظ السلطان لنفسه بحق تجديد تعيينه فترة ثانية بعد انقضاء الفترة الأولى، وفي تعيين خلف له، وذكر السلطان أن هدفه هو أن تظل أحكام الشريعة الإسلامية للغراء سارية ومعمولاً بها، ولذلك فإنه يحتفظ لنفسه بحق تعيين قاضى القضاة الذي يعين بعد وصوله إليهم نواباً له من العلماء المحليين حتى يؤكدوا العمل بتعاليم الشريعة، وذكر أن مخصصات قاضى القضاة ستفخ من طرف السلطان،

(١) وقد تضمنت المعاهدة إنهاء الحرب بين الدولتين، ووافقت الحكومة الإيطالية على الجلاء عن الجزر التي احتلتها في بحر إيجه، وتبادل الأسرى، والعفو العام عن المشترك من الطرابلسيين أو البرقاويين أو سكان جزر بحر إيجه ضد إيطاليا، كما تعهدت الحكومة الإيطالية بعقد معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية، وقبولها رفع الرسوم الجمركية من البضائع في الدولة العثمانية من ١١٪ إلى ٨٥٪، وإلغاء مكاتب البريد الإيطالية في السلطنة حالاً تخليها الدول التي لها مثل هذه المكاتب في أراضي الدولة. وتعهدت إيطاليا أيضاً بتأييد الحكومة العثمانية في ملفوساتها مع الدول الأخرى لإلغاء الامتيازات الأجنبية، وتعهدت بأن تدفع سنوياً في صندوق الدين العثماني حصة كل من طرابلس الغرب ویرقة تجاه الصندوق. انظر النصص الكاملة لهذه المعاهدة في كل من:

Djuvara, T.G.; Cent Projets de Partage de la Turquie. 1281-1913. Paris, Felix Alcan, 1914, pp. 28-530.

Dictionnaire Diplomatique. Paris (sans date), Vol, II, p. 981.

الظاهر أحمد الزاوي: جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٩٩-١٠٤.
وكان لهذه المعاهدة أثر سيء في نفوس أهالي، إذ ثبطت من عزائمهم في الاستمرار في مقاومة الغزو الإيطالي لبلادهم بعد أن حرما من معاونة الضباط والجنود الأتراك العثمانيين، ومن تشاورهم التي كانت لديهم، ومن المساعدات المالية التي كانت ترسلها الدولة لهم في حدود مائة ألف جنيه كل شهر؛ ومن شحنات الأسلحة التي كانت ترسل إليهم من قبل الدولة بطريق البحر.

أما مرتبات القضاة للشرعيين فستدفع من الإيرادات المحلية (١). ومن المعاني المستفادة من هذا فرمان أن السلطان أراد أن يجعل من نائبه ومن قاضي القضاة ، وهما موظفان عثمانيان ، يعينه السلطان ويتقاضيان مخصصاتهما المالية من خزانة الحكومة العثمانية ، منفذين لأحكام الشريعة الإسلامية الغراء بالاستعانة بقضاة الشرع من أبناء البلاد .

وقد أكد هذا المعنى بل زاد عليه فيكتور عمانوئيل الثالث ملك إيطاليا (١٩٠٠-١٩٤٦) ، فقد أصدر منشوراً عد ملحقاً ثانياً لمعاهدة أوشي ، ووجهه أيضاً إلى أهالي طرابلس الغرب ويرقة ، ذكر فيه أنه وعملاً بالقانون رقم ٣٨ والصادر في اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير - شباط - سنة ١٩١٢ ، والذي يجعل طرابلس الغرب ويرقة خاضعتين خضوعاً تاماً مطلقاً لسيادة الملكية الإيطالية ... ورغبة في التعجيل بإعادة السلم إلى هاتين المقاطعتين ... فإن ملك إيطاليا يمنح عفوه عن المحاربين من العرب وعفوه عن جرائم الحرب ، ثم ذكر أن حريتهم مكفولة في إقامة شعائهم الدينية ، وفي المواظبة على ذكر اسم السلطان والدعاء له من المنابر في الصلوات العامة بصفته خليفة المسلمين ، وأنه يعترف بالنيابة عنه للشخص الذي يعينه لذلك ويدفع مخصصاته من الإيرادات المحلية (٢) .

والدراسة التحليلية لمنشور ملك إيطاليا تدل على أن الحكومة الإيطالية - مع تمسكها بالسيادة الملكية الإيطالية على طرابلس الغرب ويرقة وإعلان هذه السيادة رسمياً لسكان هذين الإقليمين في منشورها لهم وهو ماتحاشت معاهدة أوشي الإشارة إليه - اعترفت بالصفة الدينية للسلطان العثماني كخليفة للمسلمين ، وما يترتب على هذا الاعتراف من بعض النتائج ، فأذنت للسكان في الاستمرار في ذكر اسم السلطان والدعاء له من المنابر في الصلوات العامة ، كما قررت أنها ستقوم بدفع مخصصات الشخص الذي يعينه السلطان الخليفة كنائب عنه (٣) .

(١) دكتور جلال الدين مصطفى يحيى : المغرب الكبير ، المصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٨٢٩ .

(٢) تعليق على برد ، العرب والترك إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠٦ .

(٣) قسّر سكان ولاية طرابلس الغرب الملحق الأول لمعاهدة أوشي ، وهو فرمان السلطان محمد الخامس أن بلادهم أصبحت مستقلة ورفضوا منشور فيكتور عمانوئيل الثالث ملك إيطاليا ، واعتقدوا عدة اجتماعات برئاسة الشيخ سليمان الباروني ، ثم أعلنوا استقلالهم ، وأنشأوا جمهورية برئاسة هذا الشيخ الذي جعل مهمته الأولى طرد الإيطاليين من طرابلس . وبدأ في إعداد قوات الدرك . وحدث أن حصل نائب السلطان بعد ذلك وتباحث معه ، واستخلص منه الشيخ الباروني الحقيقة المفزعة ، وهي أن الدولة العثمانية قد تنازلت لإيطاليا عن طرابلس الغرب ويرقة ، فترك مواقعهم كثير من الضباط الذين بقوا للإسهام في الدفاع عن طرابلس وغادروا الإقليم . بعد أن فقدوا الأمل في القيام بمقاومة جديّة نظراً لافتقارهم إلى السلاح والمال . واضطر الشيخ الباروني إلى أن يدخل في محادثات مع بعض القادة العسكريين الإيطاليين ، وأمر الشيخ الباروني الحكومة الإيطالية غير مستعدة على أي نحو من الأنحاء لمناقشة أي اقتراح عن الاستقلال =

لم تمت حركة الجامعة الإسلامية :

ويتعين علينا ، ونحن نختم الحديث عن مدى نجاح حركة الجامعة الإسلامية أن نذكر أن فكرة الجامعة الإسلامية لم تمت .. فقد بطت من جديد بشكل رسمي وعلمي ومنظم ، حين أنشأت جمهورية مصر العربية سنة ١٩٨٠ جامعة الشعوب الإسلامية والعربية كصيغة جديدة لبناء تضامن إسلامي وعربي ، يستطيع مواجهة التحديات العدوانية التي تفرق الأمة الإسلامية والعربية ، وقد حدد الرئيس محمد أنور السادات صاحب الدعوة لإنشاء هذه الجامعة وأهدافها فيما يلي : أن تنهض بمتابعة القضايا والأحداث الإسلامية والعربية ، والدعوة إلى مواقف عملية مدروسة ، والعمل بجميع الوسائل المتاحة لتسوية الخلافات والصراعات ، وبناء الروابط الأخوية لإبراز كيان الأمة العربية والإسلامية كقوة عالمية ، ووضع خطة متكاملة للتعاون الإسلامي والعربي ، مع توجيه العناية إلى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ومواجهة التيارات التي عبثت بجوهر الدين من تعصب وإلحاد ، وإحياء التراث الإسلامي ، وتأليف اتحاد للشباب المسلم ، واتحاد للعمل الإسلامي ، وإقامة مصرف عربي إسلامي .

وقد كان انطلاق هذه الدعوة من مصر تأكيداً لدورها التاريخي في حماية الإسلام ، فهي موطن الأزهر ، ومنازل العالم الإسلامي ، وعاصمة الثقافة الإسلامية لأكثر من ألف عام .



= الداخلي ، فنتقدم بمشروع جديد يشتمل على بعض منافع عامة لأوضاع المحاربين الطرابلسيين ، وبما لم يجد استجابة ، رحل إلى إستانبول حيث رجب به رجال الباب العالي ومنحه السلطان رتبة الباشوية ، وعينه عضواً في مجلس الأعيان مدى الحياة وظل مقيماً في إستانبول حتى قيام الحرب العالمية الأولى .
أما في بركة فقد سلم أنور بك (أنور باشا) قائد العمليات الحربية في بركة القيادة إلى أحد كبار الضباط المصريين ، وهو عزيز على المصري الذي بقي فيها مع عدد من الضباط العرب ، صمموا على الاستمرار في المقاومة على الرغم من تعليمات وزارة الحربية العثمانية إلى قادة الجيش وضباطه بوقف الحرب والعودة فوراً مع جنودهم إلى إستانبول لمواجهة حرب البلقان . وقام أنور بك - قبل سفره إلى إستانبول في طريقه إلى بلغاريا - بزيارة السيد أحمد الشريف السنوسي ، شيخ الطريقة السنوسية في واحة جفوب ، في السيارة الوحيدة التي كانت القوات العثمانية تمتلكها في بركة . وكان السيد أحمد الشريف السنوسي قد انتقل من واحة الكفرة إلى واحة جفوب في شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٢ وأعلن عدم موافقته على الصلح مع إيطاليا ، وأنه سيواصل الحرب بصفتة مستولاً عن المسلمين وبلاد المسلمين . وقد ذكر له أنور بك في هذه المقابلة أنه يعتبر السيد أحمد الشريف السنوسي الممثل للسلطان العثماني محمد الخامس في بركة . ويعد هذه الزيارة أصبحت جميع المراسلات الرسمية ، التي تصدر عن القيادة العامة للسنوسي تحمل خاتم «الحكومة السنوسية» ، وأصبحت هذه الطريقة تعتبر نفسها مركز حكومة لولة شبه مستقلة ، وواصلت مقاومتها للقوات الإيطالية .

انظر :

دكتور جلال الدين مصطفى يحيى : المغرب الكبير إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٣٠-٨٣٢ .

تفسيرات تعسفية لبعض مشروعات

قام بها السلطان عبدالحميد الثانى

سكة حديد الحجاز (٢)

بواعث إنشاء الخط الحديدى :

من أروع منجزات السلطان عبدالحميد الثانى إنشاء سكة حديد الحجاز من دمشق إلى المدينة المنورة، فى العقد الأول من القرن العشرين ، وبذلك شهدت الأرضى المقدسة الإسلامية فى الحجاز لأول مرة فى التاريخ خطاً حديدياً يتيح لها الانفتاح على العالم الخارجى، بعد أن كانت وسيلة اتصالها به مقصورة على قوافل الجمال يستخدمها الحبيج والتجار، وغيرهم إما إلى ميناء جدة أو ميناء ينبع ليستقلوا السفن ، ولما تنقلهم الجمال إلى حيث يقصدون .

وقد ابتغى عبدالحميد من إنشاء الخط الحديدى إلى الحجاز هدفين مزدوجين متلاحمين بحيث يصعب الفصل بينهما : كان أولهما خدمة الحاج بإيجاد وسيلة سفر عصرية يتوفر فيها الأمن والسرعة والراحة ؛ إذ كان المسافرون يتعرضون لشتى الأخطار من هجوم قبائل البدو فى الطريق يسلبون أموالهم وأمتعتهم ويهتكون أعراضهم ، وفى معظم الأحوال يقتلونهم ، كما كانوا يلاقون المشقات بسبب طول المسافة فى الصحراء من ناحية ، وطول الوقت الذى يستغرقه سفر القوافل من حيث ملعن الجمال وإقامتها من ناحية أخرى . أما الهدف الثانى فكان دعم حركة الجامعة الإسلامية ، وقد سبق أن ذكرنا أن هذه الحركة قامت على دعائمين : الخلافة والحج إلى الأماكن المقدسة فى الحجاز . والحج ، فضلاً عن أنه ركن من أركان الإسلام هو بمثابة مؤتمر إسلامى سنوى موسع يلتقى فيه المسلمون ، وقد جاءوا من كل فج عميق ، بحيث يتعارفون ويتباثرون العواطف الدينية ويتباحثون فى الشؤون الإسلامية . وأراد عبدالحميد أن يتخذ من الحج وسيلة عملية كى يلفك المسلمون - سواء من رعايا دولته أو من خارج حدودها - حول الخلافة التى كانت فى ذلك الوقت فى آل عثمان ، وقد اتخذ عبدالحميد من حركة الجامعة الإسلامية سياسة عليا للدولة ، ومن ثم صحت عزمته على إنشاء الخط الحديدى إلى الحجاز وربطه فى أذهان المسلمين قاطبة بهذه الحركة تجسداً لها ، فيظهر عبدالحميد أمام العالم الإسلامى بمظهر الخليفة الذى تحدوه أنبل المواطف نحو إخوانه فى الدين . وكان إنشاء الخط للحديدى بمثابة هدية ثمينة وعملية يعم خيرها معظم المسلمين ، وبذلك يستقطب عبدالحميد

المسلمين نحو حركة الجامعة الإسلامية ونحوه كخليفة، يمنع الأخطار ويذلل الصعاب أمام جانب كبير من الحجاج (١) .

تمويل المشروع :

وأراد عبدالحميد بحلته السياسية أن يضفي على المشروع الطابع العالمي الإسلامي، بدلاً من أن يأخذ المشروع طابعاً عثمانياً بحتاً . فوجه عزت باشا العابد السكرتير الثاني للسلطان - وهو عربي من بلاد الشام - نداء إلى العالم الإسلامي شرح فيه الدافع الديني الذي ألهم خليفة المسلمين تحقيق هذا الحلم الجميل الذي داعب أفئدة المسلمين ، وأهاب بهم أن يتبرعوا بأموال إسهاماً منهم في نفقات المشروع ، وأكد لهم أن تبرعاتهم لن تنضب أدراج الرياح ؛ لأن مشروع سكة حديد الحجاز مشروع ديني ، يتقرب به المتبرعون إلى الله زلفى ، ويدلون ثواباً من عند الله ، ويظفرون برحمته «إن رحمة الله قريب من المحسنين» . وكان هذا التصرف - فضلاً عن ذلك - محاولة بارعة من عبد الحميد كي يخفف عن ميزانية الدولة أعباء ثقلاً . ولقى هذا النداء استجابة تلقائية من مسلمي العالم مدفوعين بعاطفتهم الدينية ، وانتهالت التبرعات على «دار الخلافة» ، كما أن اتساع نطاق التبرعات كان مظهرًا عملياً للنجاح الذي أصابته حركة للجامعة الإسلامية .

افتتح السلطان عبدالحميد التبرعات بمبلغ ٣٢٠ ألف ليرة عثمانية من ماله الخاص ، وتبرع شاه فارس (إيران) بخمسين ألف ليرة ، وأرسل عباس حلمي الثاني خديو مصر كميات من مواد البناء ، وتألقت لجان في سائر الأقطار الإسلامية لجمع التبرعات ، ونقلت مخصصات دائرة الحج ومقدارها ١٥٠ ألف ليرة في السنة إلى ميزانية الخط . ثم لجأت الحكومة إلى استنباط وسائل أخرى لزيادة مصادر تمويل المشروع ، فأصدرت باسم الخط طوابع تمغة لإلصاقها على جميع الطلبات والاستدعاءات للحكومية والمعاملات التجارية ، وفرضت ضرائب جديدة وجهت حصيلتها للمشروع . وكان من بين هذه الضرائب المسققات (٢) . وجعلت شارات وأسمه برسم البيع لصالح المشروع ، ثم صدرت الأوامر بأن يسهم فيه موظفو الدولة - المدنيين والعسكريون - بما يوازي ١٠٪ من مرتباتهم ، كما قامت إدارة الخط بجمع جلود الأنصاف وبيعها وتحويل أثمانها إلى ميزانية الخط (٣) ، ويلاحظ أن سكة حديد الحجاز كانت الخط الحديدي الوحيد، الذي أنشئ برأس مال إسلامي في بلاد الشام؛ حيث أنشئت الخطوط الأخرى برءوس أموال فرنسية وبلجيكية وبريطانية وألمانية .

(١) نكتور زكي صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٢-٥٦٢ .

(٢) عبدالعزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤-١٩١٤) الناشر دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٨٣ .

(٣) فردريك بيك : تاريخ شرقى الأردن وقبائلها ، ترجمة بهاء الدين طوقان ، القدس ، ١٩٣٥ ، ص ١٩١ .

تنفيذ المشروع :

أصدر السلطان في مايو - أيار - سنة ١٩٠٠ ،إدارة شاهانية، بإنشاء لجنتين للإشراف على تنفيذ الخط الحديدي من دمشق إلى المدينة المنورة ثم إلى مكة المكرمة : كانت اللجنة الأولى برئاسة عزت باشا العابد ومقرها في إستانبول ، واللجنة الأخرى للتنفيذ برئاسة والي الشام ، ومقرها في دمشق . وقام مهندس تركي عثمانى يسمى مختار بك بمسح المنطقة التي يمر بها الخط الحديدي بين دمشق والمدينة المنورة ، وقد تتبع هذا الخط بصفة عامة الطريق القديم الذي كانت تسلكه قوافل للحجاج ، ولم يحد عنه إلا في بعض المناطق الوعرة .

وقد احتفل بالبداية في تنفيذ المشروع في شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٠٠ ، وابتدأ العمل في منطقة المزيريب من أعمال حوران ببلاد الشام . ولم تكد تبدأ الحكومة في مد الخط من مزيريب حتى ظهرت منافسة شديدة بين إدارة سكة حديد الحجاز وإدارة الخط الحديدي دمشق - مزيريب ، وشعرت الحكومة العثمانية إزاء هذه المنافسة بضرورة إكمال الخط الحجازي بدمشق ؛ ولذلك قررت إنشاء خط درعا - دمشق وباشرت العمل من دمشق ومزيريب دفعة واحدة (١) ، وعهدت الحكومة إلى مهندسين ألمان بإنشاء الخط ، ولكنها إن تسمح إلا للمهندسين المسلمين بالعمل في مد الخط في المنطقة الواقعة بين العلا والمدينة المنورة .

وصادف تنفيذ المشروع عقبات كثيرة : كان على رأسها نقص ماء الشرب ، وأمكن التغلب جزئياً على هذه العقبة بحفر آبار وإدراجها بمضخات بخارية أو طواحين هوائية ، وجلبت الماء في صهاريج تسير على أجزاء للخط التي يكون قد فرغ من مد قضبانها . وكان من بين العقبات أيضاً ارتفاع الأرض في بعض المناطق وشدة انحدارها في مناطق أخرى ، واستعانت الحكومة العثمانية بالعمال الإيطاليين واليونانيين وسكان إقليم الجبل الأسود لتنفيذ العمليات الفنية الدقيقة ، مثل إنشاء الجسور ومباني المصارف والأنفاق . واستخدمت قوات من جنود الجيش الخامس الهمايوني - الرابع فيما بعد - وقد بلغ عددهم زهاء ستة آلاف جندي ومائتي مهندس كانوا يعملون جميعاً بصفة دائمة ، وقررت لهم الحكومة علاوة إضافية نظير عملهم الذي اشتهل - فيما اشتهل عليه - بتعبيد الطريق ونقل القضبان الحديدية والعوارض الخشبية وتثبيتها

(١) كان مبحث باشا ، في أثناء ولايته على سورية ، قد اقترح على الباب العالي في شهر يناير - كانون ثان - سنة ١٨٧٨ إنشاء خط حديدي يربط دمشق بحوران لتمكين سكان لواء حوران من تصريف محصولاتهم الزراعية ، ولتيسير إدارة شؤون اللواء على الحكومة وتوطيد الأمن . ولكن الأخطار الخارجية التي كانت تواجهها الدولة في ذلك الوقت ، حالت دون الاستجابة لتنفيذ هذا الاقتراح . ثم منحت الامتياز إلى يوسف مطران الذي اشترك مع شركة فرنسية سميت فيما بعد «شركة دمشق - حماة وتعميداتها» ، وبني في استغلال الخط في أواسط سنة ١٨٩٤ ، وهي بعد تكملة لخط دمشق - بيروت .

فى مواقعها . ومما يجدر ذكره أن ظاهرة استخدام جنود الجيش فى مد قضبان الخطوط الحديدية لم تكن جديدة فى ولايات الدولة العثمانية ، وقد شهدت مصر هذه الظاهرة فى مد قضبان الشبكة الحديدية خلال القرن التاسع عشر منذ حكم عباس الأول وطوال حكم سعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس حلمى الثانى .

وتميزت عمليات مد للخط الحديدى من دمشق إلى المدينة المنورة بنشاط مكثف، لم يعرفه تاريخ إنشاء الخطوط الحديدية فى الدولة من قبل ؛ إذ وصل متوسط المعدل السنوى لمد الخط ١٨٢ كيلو متراً، وهو معدل مرتفع وبخاصة إذا وضع فى الاعتبار أخطار وصعاب المنطقة التى يمر فيها الخط (١) . وقد استوردت جميع المعدات اللازمة للمشروع من الخارج فيما عدا بعض عربات صنعت فى دار الصناعة البحرية العثمانية ، واشترت القضبان والعوارض الخشبية من البيوت التجارية الألمانية والبلجيكية والأمريكية . وفى خريف ١٩٠٨ كان العمل قد تم فى إنشاء الخط من دمشق حتى المدينة المنورة ، وهى مسافة تبلغ ١٣٢٠ كيلو متراً .

وقد وصل أول قطار إلى المدينة المنورة فى اليوم الثالث والعشرين من شهر أغسطس - آب - سنة ١٩٠٨ ، وأقيم احتفال رسمى فى أول شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٠٨ المصادف لعيد جلوس السلطان عبد الحميد الثانى (٢) ، فكان إنشاء الخط الحديدى بملحقاته قد استغرق زهاء سبع سنوات ، وبغلت التكاليف الإجمالية لإنشائه ثلاثة ملايين من الجنيهات الإنجليزية ، ووصلت للتجربات مليوناً من الجنيهات؛ أى ما يوازى ثلث نفقات المشروع وتحملت خزانة الحكومة ثلثى تكاليف المشروع .

وأقيمت محطات على طول الخط وكان يفصل بين كل محطة وأخرى زهاء عشرين كيلو متراً ، وكانت المحطات تستخدم أيضاً قلاعاً لحراسة الخط الحديدى وأسلاك البرق ومكاتب الموظفين ومسكنهم من غارات البدو ، (٣) .

(١) كانت مراكز تعيين المنشآت الحديدية فى :

- الزرقاء وتبعد ٢٠٣ كيلو متراً عن دمشق . وقد وصل الخط الحديدى إليها سنة ١٩٠٢ .
- قطرانة وتبعد ٣٢٦ كيلو متراً عن دمشق . وقد وصل الخط الحديدى إليها سنة ١٩٠٣ .
- معان وتبعد ٤٥٩ كيلو متراً عن دمشق . وقد وصل الخط الحديدى إليها سنة ١٩٠٤ .
- ذات الحج وتبعد ٦١٠ كيلو متراً عن دمشق . وقد وصل الخط الحديدى إليها سنة ١٩٠٦ .
- العلا وتبعد ٩٣٣ كيلو متراً عن دمشق . وقد وصل الخط الحديدى إليها سنة ١٩٠٧ .
- المدينة المنورة وتبعد ١٣٢٠ كيلو متراً عن دمشق . وقد وصل الخط الحديدى إليها سنة ١٩٠٨ .

(٢) عبدالعزيز محمد عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٤ .

(٣) بحث بعنوان «الحجاز ، سكة حديد» بقلم Zeidi H. فى دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية .

ومن هذا الخط الحديدى انظر أيضاً :

الفتح : صحيفة إسلامية أسبوعية، صاحبها ومحررها محب الدين الخطيب ، تصدر فى القاهرة - العدد=

وكان من بين المحطات الرئيسية لسكة حديد الحجاز : دمشق ، درعا ، الزرقاء ، عمان ، قمرانة ، معان ، تبوك ، قلعة المعظم ، مدائن صالح ، العلا ، المدينة المنورة ، وكانت الحكومة العثمانية قد مدت خطاً حديدياً من حيفا إلى درعا ، واعتبر مكملاً لسكة حديد الحجاز . وقد تم مد هذا الخط الذى يطلق عليه قطاع حيفا - درعا سنة ١٩٠٥ على عهد السلطان عبدالحميد أيضاً ، وبلغ طول هذا الخط مائة وستة كيلو مترات ، وقد أسهم فى نمو مدينة حيفا وميزانها نمواً عظيماً .

خدمات سكة حديد الحجاز للعالم الإسلامى :

أسدى تنفيذ المشروع أجل للخدمات للعالم الإسلامى من النواحي الدينية والاقتصادية والسياسية والفكرية .. فمن الناحية الدينية أثار هذا المشروع للحماس الدينى فى أرجاء العالم الإسلامى ، رأى المسلمون فيه تطويراً لوسائل الحج وتيسيراً لأداء أحد أركان الإسلام . واستغنى حجاج الأناسول وبلاد الشام بما فيههم الأكراد عن استخدام قوافل الجمال إلى حد بعيد ؛ إذ لم يمكن الاستغناء عنها استغناء كلياً ، وإنما بقيت قوافل الحجاج بدافع التمسك بالسنة الدينية القديمة ، إلى جانب سكة حديد الحجاز وخطوط الملاحة البحرية إلى جدة أو ينبع ... ولذلك كان هناك حجاج يفضلون السفر براً إلى الحجاز طمعاً فى مزيد من الثواب من عند الله . ويهنا أن نذكر هنا أن حجاج الأناسول وبلاد الشام كانوا ، قبل إنشاء سكة حديد الحجاز ، ينتظمون فى قافلة الشام ، وهى كبرى قوافل الحج الرئيسية الأربع فى الدولة العثمانية . وكان عدد الحجاج فيها يصل إلى ستة عشر ألف حاج سنوياً ، وكانت قافلة الحج الشامي تقطع المسافة من دمشق إلى المدينة المنورة ، فى مدة لا تقل عن ثلاثين يوماً . وقد تصل مدة السفر فى بعض السنوات إلى أربعين يوماً إذا واجهت القافلة أخطاراً من هجوم متكرر عليها من قبائل البدو ، وتضطر القافلة إلى تغيير مسارها . ويفضل للخط الحديدى أصبح الحجاج يقطعون تلك المسافة فى خمسة أيام . وكان الوقت الذى يستغرقه القطار فى التحرك من دمشق إلى المدينة اثنتين وستين ساعة فقط . أما بقية الوقت .. فكان يضيع فى وقوف القطار فى المحطات وتغيير القاطرات وتجنب السير ليلاً فى الليالى غير القمرية ، أخذاً بأسباب الحذر من هجوم قبائل البدو على عربات القطار ، وكانت أجرة المسافر فى الدرجة الثالثة تصل إلى ما يوازي ثلاثة جنيهات إنجليزية تقريباً .

ومن الناحية الاقتصادية .. انفتحت المراكز والمدن الحجازية التى يمر بها الخط الحديدى على بلاد الشام ، وهى من أغنى بلاد الدولة العثمانية فى الشرق العربى الآسيوى ،

كما انفتح إقليم الحجاز على الأناضول وإستانبول ، وأصبحت المدينة المنورة زهرة بلاد الحجاز وأقيمت فيها المباني الكبيرة تطل على ميدان المحطة .

ومن الناحية السياسية .. ظهرت الدولة العثمانية دولة عصرية متطورة تمد الخطوط الحديدية في قلب الصحارى القاحلة لإنشاء المواصلات السريعة الآمنة ، بعد أن كان يرميها خصومها ، رجال الاستعمار الأوروبى وللصهيونيين ، بالجمود والتخلف ، وأنها فرضت على العالم العربى ستاراً كثيفاً من العزلة والفقر . ومن الناحية الفكرية .. ساعد الخط الحديدى على سرعة نقل الصحف والمطبوعات إلى أقاليم شبه الجزيرة العربية؛ الأمر الذى أدى إلى تبادل الأفكار بين أرجاء العالم العربى الآسيوى .

انطباعات السفير البريطانى عن سكة حديد الحجاز

لقد وصف السفير البريطانى فى إستانبول انطباعاته عن مشروع سكة حديد الحجاز ، وكان العمل فى تنفيذه يقترب من نهايته عند المدينة المنورة ، وقد جاء هذا الوصف فى تقريره السنوى الذى أرسله إلى وزارة الخارجية البريطانية عن سنة ١٩٠٧ . ولم يكن هذا السفير متعاطفاً مع السلطان عبد الحميد ، بل كان يحقد عليه لانهيائه إلى جانب ألمانيا؛ الأمر الذى نال من مكانة بريطانيا فى الدولة العثمانية . ولكنه أوفى للسلطان حقاً ؛ إذ أشاد بسياسته الإسلامية وسكة حديد الحجاز ، فكانت لهذه الآراء وزنها لسببين : أولهما أنها صدرت عن سفير دولة كبرى كان معاصراً لمرحلة مد الخط الحديدى ، وثانيهما أنه كان ناقماً على سياسة السلطان . والفضل هو ما شهد به الخصوم ، فذكر السفير فى تقريره ، أن السلطان عبد الحميد الثانى قد أبدى ، خلال السنوات العشر الأخيرة ، سياسة ماهرة حدث به إلى أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون مسلم بمظهر الخليفة والزعيم الروحى للإسلام ، وأن يبيت فى نفوس رعاياه الحماسة والاستجابة لشعوره الدينى، حين مد سكة حديد الحجاز التى ستيسر لكل مسلم فى المستقبل القريب سبل الحج إلى الأماكن المقدسة فى مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) ، فنتيح لهم التمتع فى الآخرة بمسرات الجنة ومباهجها . وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة العمياء، إلى حد لم يسبق له مثيل^(١) .

وكان من المقرر أن تستكمل الحكومة العثمانية مشروع الخط الحديدى بمدّه من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ثم إلى ميناء جدة (٢) ، ولكن أخذت الأحداث الداخلية والخارجية تترى بعضها فى أثر بعض ؛ فالانقلاب الدستورى وقع قبيل إتمام الخط إلى المدينة المنورة ، ثم

(١) أنطونيوس جورج : بقطة العرب إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٢-١٤٤ ، نقلا عن الوثائق البريطانية عن أسباب العرب العالمية الأولى ، المجلد الخامس ، ص ٤٣ .

(٢) كانت قد مسحت المنطقة، التى كان مقرراً أن يمتد فيها الخط الحديدى من جدة إلى مكة المكرمة، سنة ١٩١١ .

الانقلاب العسكرى وماتجم عنه من عزل السلطان عبدالحميد ، والصراع على كراسى الحكم الذى احتدم بين ضباط الثور ورجال السياسة ، وضياح ولايتى البوسنة والهرسك ، ووقوع العدوان الإيطالى على طرابلس الغرب وبرقة ، ونشوب حربى البلقان الأولى والثانية ، فكل هذه الأحداث أو الكوارث صرفت حكومة إطفاء العسكريين عن استكمال سكة حديد الحجاز ، ويعزو أحد الباحثين العرب توقف مد الخط الحديدى عند المدينة المنورة إلى موقف الحسين بن على أمير مكة وشريفها وقذالك .. فقد اتخذ موقفاً سلبياً من المشروع ، بل عرقل مساعى إتمامه ليكتسب ولاء بعض القبائل ، كبنى حرب ، التى كانت تتعيش من مهاجمة قوافل الحجاز وسلب أموالهم (١) .

تفسيرات تفسلية لإنشاء سكة حديد الحجاز :

أذاع خطوم عبدالحميد أنه أراد أن يتخذ من إنشاء الخط الحديدى إلى الحجاز وسيلة عملية سريعة لقمع أى ثورة قد تقوم فى الحجاز ؛ إذ يكون فى مقدوره أن يرسل فى وقت قصير نجدات أو تعزيزات عسكرية إلى أماكن الاضطرابات فتقتضى عليها قضاء سريعاً . وخلص القائلون بهذا رأى إلى أن عبدالحميد استهدف إحكام سيطرته العسكرية ، ودعم قبضته السياسية على ولاية الحجاز ، ومن ثم اثبتن تفكيره أو خياله - أو هما معاً - عن مشروع ظاهره الرحمة بالهجاج والحدب عليهم ، وباطنه التكتيل بسان الحجاز إذا شقوا عصا الطاعة عليه .

وقد نقل أحد الباحثين العرب رأياً منسوباً لأحد رؤساء التحرير فى جريدة التايمز The Times ، التى تصدر فى لندن عندما كان هذا الصحفى يحال الأهداف البعيدة التى رعى إليها عبدالحميد ، بمناسبة حفل افتتاح الخط الحديدى ، الذى أقيم فى المدينة المنورة فى شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٠٨ ؛ فقال : كان عبدالحميد يرى أن إنشاء هذا الخط من شأنه أن يعزز المنصب الذى كان يدعيه لنفسه من أنه الزعيم الروحى للمسلمين . وكان يخامرهم شعور قوى فى نفسه أن لإنشاء هذا الخط للحديدى قيمة حربية عظيمة ، لاسيما إذا اتصل هذا الخط بالخطوط الحديدية المؤدية إلى بلاد الأناضول . وهذا الخط يمتد موازياً للحدود المصرية ، وعلى مقربة منها ، ولذا سيكون وسيلة نقل سريعة للجيش التركية المتجهة نحو الولايات فى الجزيرة العربية .. تلك الولايات التى لم تخضع للحكم العثمانى خضوعاً تاماً (٢) .

ولكى يحكم خصوم السلطان حلقات هذا الادعاء ، قرروا أن عبدالحميد كان معتزماً

(١) أنيس صايغ : الهاشميين والثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩ .

(٢) دكتور زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٧-٥٨ ، وقد نشر هذا التحليل فى :

بصفة جدية مد الخط الحديدي من مكة المكرمة إلى اليمن^(١) ، وهي الولاية العثمانية المتمردة التي أرهقت العثمانيين من أمرهم عسراً ، وأطلق عليها «مقبرة الأعاجم» إشارة لكثرة عدد قتلى الجنود العثمانيين في أراضيها .

وليس من السهولة الأخذ بهذا التفسير لعدة أسباب ، منها : أن عبد الحميد لم يستمر في الحكم بعد استكمال مد الخط الحديدي إلى المدينة المنورة إلا أشهراً ذات عدد ، وبالتالي لم تكن هناك فرصة أمام المراقبين السياسيين والعسكريين المعاصرين ، ليوقفوا على حقيقة أهداف عبد الحميد . والمؤرخ لا يتكلم عن الغيب ، ولا يتنبأ بما كان يحدث لو أن الحكم قد طال بالسلطان ، يضاف إلى هذا السبب سبب آخر ، هو أن عبد الحميد شرع في إنشاء هذا الخط الحديدي في مطلع سنة ١٩٠١ ، بعد أن نجح في إدخال تعديل جوهري على مشروع اتفاقية حرية مرور السفن في قناة السويس ، وتقرر بمقتضى هذا التعديل إعفاء السفن والقوات العثمانية من الخضوع للقيود العسكرية المفروضة على سائر الدول في حالة قيام الحكومة العثمانية باتخاذ إجراءات لضمان الدفاع عن ممتلكاتها الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر . وقد جاء في المذكرات الدبلوماسية التي تبولت بين باريس ولندن والأسنابيه بشأن هذا التعديل أن المقصود بالممتلكات العثمانية هو إقليم الحجاز وولاية اليمن . وبعد موافقة الدول على هذا التعديل وقعت في الأسنابيه الاتفاقية الخاصة بحرية المرور في قناة السويس في ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٨^(٢) ، وطبقاً لهذه المعاهدة الدولية الجماعية .. أصبح عبد الحميد ينفرد بميزة عسكرية على سائر الدول في مرور قواته وأسلحتها وذخائرها وسفنها في قناة السويس ، دون أن تنتظر - على سبيل المثال - انقضاء فترة زمنية محددة على إحار سفينة معادية من أحد مخرجي القناة ، وذلك إذا كان الأمر متعلقاً بإخماد ثورة في الحجاز أو في اليمن أو في كليهما معاً . وتأسيساً على هذه الحقيقة .. لم يكن عبد الحميد في حاجة إلى تنفيذ مشروع سكة حديد الحجاز ، إذا كان قد استهدف منه سحق ثورة في هذين الإقليمين ، لأنه مشروع باهظ التكاليف في إنشائه وفي صيانتها بل وفي حراسته من هجمات قبائل البدو . ولأرباب إرسال قوات عثمانية بحراً إلى مسرح العمليات يكون أفضل من إرسالها بالسكة الحديدية من حيث السرعة وراحة الجنود قبل أن يباشروا مهمتهم القتالية ، وفي ظل وضعهم المتميز في عبور قناة السويس .

(١) علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة المنورة . شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر ، جدة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٤ .
وانظر أيضاً :

محمد حمد عبد اللطيف الجعفرى : سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الإسلامية ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث تحت إشرافنا ، ١٩٧٨ ، ص ٧٧-٧٨ .

(٢) سبق أن تعرضنا في هذه الدراسة لهذا التعديل العسكري ، مع تعديل سياسى ثان . انظر ج ٢ ، الفصل العاشر .

إن ذلك التفسير التعسفى لإنشاء سكة حديد الحجاز لم يكن عفو الخاطر ، وإنما جاء ليحقق هدفاً رئيسياً لخصوم السلطان عبدالحميد ، وهو تشويه سمعته واهتزاز صورته فى أذهان الأجيال المتعاقبة بأنه كان حاكماً أفاقاً مضللاً ، يبتز أموال المسلمين فى صورة تبرعات لدعم مركزه العسكرى والسياسى فى الحجاز واليمن . وقد وقف المؤرخون والباحثون العرب إزاء ذلك التفسير التعسفى موقفين مختلفين تماماً .. لكننى بعضهم بذكر ذلك التفسير دون أن يناقشه ^(١) ، بينما أكده البعض الآخر ^(٢) ، فانتقل هذا الفريق الأخير من مرحلة التردد إلى مرحلة التأكيد ، وكان معظمهم ممن تلقوا تعليمهم فى مدارس الإرساليات للتصيرية .

ومادنا فى صدد مناقشة موضوعية للتفسيرات لإنشاء سكة حديد الحجاز ، فهناك عامل آخر يتصل اتصالاً وثيقاً بهذا الموضوع ، هو أن الخط الحديدى للحجاز لم يكن أول خط حديدى يمد فى بلاد الشام ، أو بعبارة أكثر دقة تمد مرحلته الأولى فى بلاد الشام .. فقد سبقته عدة خطوط حديدية أنشئت واستخدمت فى أثناء حكم السلطان عبدالحميد الثانى ، وقبل الشروع فى إنشاء سكة حديد الحجاز ، مما يمد عاملاً جديداً فى محض التفسيرات التعسفية ، ويدل على أن ربط أجزاء الولاية الواحدة بشبكة مواصلات حديدية ، وربط الولايات العثمانية بعضها ببعض بخطوط حديدية كانا سياسة عليا للدولة العثمانية على عهد السلطان عبدالحميد ، كما أن ولايتى سورية والحجاز لم تشهدا خطوطاً حديدية إلا منذ عهد السلطان عبدالحميد الثانى .

كان من بين تلك الخطوط الحديدية :

(١) الخط الحليدى من يافا إلى القدس سنة ٨٨٨ :

كان هذا الخط هو أول خط حديدى مد فى بلاد الشام قاطبة ، واستهدف عبدالحميد من إنشائه خدمة الحاج المسيحيين القادمين من أوروبا بحراً إلى يافا . وقد ملحت الحكومة العثمانية امتياز الخط إلى يوسف نافون أفندى فى ٢٨ من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٨ ، ومالبث أن باع الأخير امتياز الخط إلى شركة فرنسية بمبلغ مليون قرنة فى ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٨٩ ، وافتتح للخط فى ١٤ من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٩٢ وبلغ طوله ٨٧ كيلومتراً ^(٣) .

(٢) خط دمشق - بيروت :

أصدرت الحكومة العثمانية فى ١٨ من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٨٩٠ امتيازاً ليوسف أفندى مطران لإنشاء واستغلال هذا الخط ، ولكنه لم يقدم رسومات المشروع خلال المدة

(١) دكتور محمد بليغ شريف ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧ .

(٢) أنطونى جوردج ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٢ .

(٣) محمد كرد على : خطط الشام ج ٥ ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .

المحددة له . ورأت الحكومة العثمانية أنه بإخلاله بتعهده قد أسقط حقه في الامتياز ، ومنحت الامتياز إلى حسن بيهم في يونيو - حزيران - سنة ١٨٩١ ، وأطلق على شركته اسم الشركة المساهمة العثمانية لخط بيروت - دمشق الاقتصادي^(١) .

ولكن استطاع يوسف مطران أن يستعيد امتيازه ، وأن يؤسس شركة بلجيكية برأس مال قدره أربعة ملايين من الفرنكات الذهبية ، قسمت على ثمانية آلاف سهم ، كان سعر الإصدار لكل سهم منها خمسمائة فرنك ، ثم رأت الحكومة العثمانية إدماج الشركتين معاً ، وبخاصة بعد أن ظفرت شركة إنجليزية بامتياز مد خط حديدي من حيفا إلى دمشق . وكان رائد الحكومة العثمانية من هذا الإنماج هو تجنب الخطر المحتمل وقوعه من الامتياز الأخير ، وسميت الشركة الجديدة باسم «شركة الخطوط الحديدية العثمانية الاقتصادية لبيروت - دمشق - حوران في سورية» ، وأصدر السلطان عبدالحميد فرماناً بذلك في ١٢ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٨٩١ ، وحدد الفرمان مدة امتياز الشركة بتسع وتسعين سنة . وبلغ طول خط دمشق - بيروت ١٤٧ كيلو متراً ، وكان قطار الركاب يقطع المسافة بين العاصمتين عند أول إنشاء الخط في تسع ساعات ، بينما كان قطار البضائع يقطعها في إحدى عشرة ساعة . وفي سنة ١٨٩٥ استقدم أحد الخبراء الأجانب من أجل زيادة سرعة القطارات ، فأصبحت تقطع المسافة في ست ساعات . ومن محطات هذا الخط : بيروت ، الحدث ، بعبداء ، جمهور ، عاريا ، عاليه ، بحدمون ، صوفر ، المريجات ، المعقة ، رياق ، سرغايا ، اللزيداني ، سوق وادي بردى ، دير قانون ، عين النجيلة ، الهامة ، دمر ، دمشق^(٢) .

(٣) خط دمشق - مزيريب :

أشرنا إلى هذا الخط عندما تكلمنا عن تنفيذ سكة حديد الحجاز ، وقلنا إنه لما شرعت الحكومة العثمانية في مدها ادعت إدارة خط دمشق - مزيريب وقوع ضرر مادي لها بسبب إنشاء خط الحجاز الحديدي لأنه مواز لخطها ، وعرضت الشركة على الحكومة العثمانية ستة ملايين ونصف مليون فرنك للتخلي عن مشروع سكة حديد الحجاز ، ولكن الحكومة رفضت هذا الطلب ، لأن إنشاء الخط للحجازي كان يتصل بأهداف السياسة العليا للدولة على عهد السلطان عبدالحميد . وقد حاول السلطان من جانبه شراء خط دمشق - مزيريب ، وقدرت الحكومة تكاليفه بمبلغ ١٥٠,٠٠٠ ليرة عثمانية . وقامت الحكومة بمفاوضة الشركة لشراء الخ . ورفضت الشركة بدورها عرض الحكومة . ولما تعذر الاتفاق ، قامت الحكومة بمنح الشركة امتياز خط حلب مع الضمانة الكيلومترية لاسترضاء الشركة ، ولم يحقق هذا الخط عائداً مجزياً من الأرباح ، خاصة بعد أن بدئ في استغلال سكة حديد الحجاز . وفي أثناء الحرب العالمية

(١) عبدالعزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٦ .

(٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٨-١٧٩ .

الأولى أمر أحمد جمال باشا قائد الجيش العثمانى الرابع باقتلاع قضبان خط دمشق - مزيريب من أجل إتمام الخطوط الحديدية فى فلسطين؛ استعداداً للحملة على قناة السويس . ولم تقم الشركة الفرنسية بإصلاح الخط بعد انتهاء الحرب .

(٤) خط دمشق - حلب :

ظفر يوسف مطران أيضاً بامتياز هذا الخط فى ٣١ من شهر مايو - آيار - سنة ١٨٩٣ ، وكانت مدة الامتياز تسعاً وتسعين سنة . وقد ورد فى شروط العقولة أن هذا الخط يستهدف أغراضاً عسكرية بحتة ، وأوجب على صاحب الامتياز أن يفتح تعليمات نظارة الحرب ، وقد شكلت الحكومة لجنة عسكرية لوضع شروط الامتياز ، كما تم إنشاء هذا الخط على مرحلتين :

الأولى بين رياق وحماه وبلغ طولها ١٨٩ كيلو متراً ، وافتتحت رسمياً فى ٧ من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٩٠٣ .

الثانية بين حماه وحلب وبلغ طولها ١٤٣ كيلو متراً ، وبدئ فى تسيير القطارات فى هذه المرحلة سنة ١٩٠٦ .

وكان من المقرر مد للخط من حلب إلى بيرة جك الواقعة على الضفة الشرقية لنهر الفرات ، غير أن صدور عقد الامتياز فى ٥ من شهر مارس - آذار - سنة ١٩٠٣ بإنشاء سكة حديد بغداد ، واللص فى العقد على إنشاء فرع يخرج من الخط الرئيسى إلى بيرة جك (المادة ١٢) حال دون مد خط دمشق - حلب إلى بيرة جك .

(٥) خط طرابلس الشام - حمص :

افتتح هذا الخط فى ١٩ من شهر مايو - آيار - سنة ١٩١١ ، بعد عزل السلطان عبدالحميد بسنتين ، وبلغ طوله مائة واثنين من الكيلو مترات . وكانت محطاته الرئيسية: طرابلس الشام ، تلكاخ ، حمص . وكان رأس مال الخط فرنسياً . وتشجعاً على مد هذا الخط وتشغيله ، قررت الحكومة العثمانية أن تطبق على هذا الخط النظام المتبع مع شركات الخطوط الحديدية ، وهو الضمانات الكيلومترية لسد العجز فى حالة نقص الإيراد الفعلى السنوى عن الإيراد المقدّر لكل كيلو متر . ولما كان هذا الخط يربط مدينة حمص بساحل البحر المتوسط .. فقد أتاح لها قدراً كبيراً جداً من الانفتاح ، وفتح أمامها أبواب الاستيراد والتصدير .

ولا يمكن القول بأن اهتمام السلطان عبدالحميد الثانى بإنشاء الخطوط الحديدية فى بلاد الشام كان مرده إلى رغبته فى نقل قوات عسكرية بالقطارات الحديدية وعلى وجه السرعة إلى أماكن الاضطرابات أو للفرات ؛ لأن هذا القول معناه إلغاء العقول وتوقف التقدم وربط كل إصلاح عمرانى ، بهدف عسكرى هو سحق ثورات قد تنشب وقد لا تنشب . ومعنى ذلك أيضاً

أنه إذا امتنع عبدالحميد عن إدخال السكك الحديدية في البلاد العربية.. رماه خصومه بالجمود والرجعية والتخلف ، وإذا أدخل بلاده عصر البخار في وسائل النقل باستخدام السكك الحديدية، اتهمه المتحاملون عليه برغبته في خلق الحريات والتفكيك بالأحرار ودعاة الإصلاح^(١) .

تخريب الخط بعد عبدالحميد :

استمرت سكة حديد الحجاز تعمل بين دمشق والمدينة المنورة في نقل الحجاج والتجار زهاء تسع سنوات؛ حتى قامت الثورة العربية بزعامة الشريف الحسين بن علي أمير مكة في الخامس من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٩١٦ على الدولة العثمانية . ولجأت قيادة الثورة الهاشمية - تنفيذاً لرأى لورانس (توماس إدوارد) عميل الاستعمار - إلى القيام بأعمال تخريبية تحت إشرافه بنسف جسور الخط الحديدى، وانتزاع قضبانها في عدة أجزاء في المنطقة الواقعة بين معان والمدينة المنورة . وكانت الذريعة التي انتحلها لتنفيذ هذا العمل التخريبي تتمثل في احتمال قيام أحمد جمال باشا قائد الجيش العثماني الرابع، باستغلال سكة حديد الحجاز في نقل قواته لضرب الثورة العربية في عقر دارها^(٢) .

محاولات بعث الخط :

ويلاحظ أن هذا الخط الحديدى كان يمر في أراضي دولة واحدة هي الدولة العثمانية ، فأصبح عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى يمر في أراضي أربع دول؛ نتيجة لتغيير الخريطة

(١) المرجع السابق ، الجزء ذاته ، ص ١٨١ .

وعبدالعزيز محمد عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٧٧-٢٧٨ .

(2) Lawrence T.E. Seven Pillars of Wisdom. New York, 1938, pp. 198-203, 207-211.

وانظر أيضاً كلام من :

دراسة تحليلية لشخصية لورانس بقلم أنيس صايغ ، منشورة في مجلة حوار اللبنانية ، العدد الخامس من السنة الأولى ، يوايهو - أغسطس (تموز - آب) سنة ١٩٦٢ .

Lawrence, the End of a Legend

لورانس نهاية أسطورة

وهو مقال نشر في Sunday Times Weekly Review

31 August, 1969. pp. 21-22

ولهذا المقال عرض لبعض آراء عن لورانس في كتاب وضعه

Philip Knightley and Colin Simpson

باسم :

The Secret Lives of Lawrence of Arabia.

دكتور فليب حتى : تاريخ سموية ولبنان والمسلمين . ترجمة كمال اليازجي ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣٤٩ .

السياسية للشرق العربي الآسيوي وتفقيته إلى عدة دول وكيانات سياسية .. فكان القسم الأول من الخط الحديدي من دمشق إلى درعا تابعاً لحكومة فيصل في سوريا ، ثم لفرنسا بصفتها دولة الانتداب ، وكان القسم الثاني يتبع فلسطين ، والقسم الثالث يتبع حكومة شرق الأردن وكل منهما يتبع بريطانيا ، والقسم الرابع والأخير من معان إلى المدينة المنورة يتبع حكومة المملكة العربية السعودية . وقد تأيد هذا التقسيم بقرار الحكيم الصادر في ١٨ أبريل - نيسان - سنة ١٩٢٥ ، على يد الأستاذ السويسري أوجين بورل . Eugène Borel E. ، الذي عينته عصبة الأمم . وقد بذلت بريطانيا وفرنسا - وهما دولتا الانتداب - جهوداً منذ سنة ١٩٢٣ لإعادة تسيير القطارات في القسم التابع للسعودية بين المدينة المنورة ومعان ، فقد كانت الأقسام الثلاثة الأخرى لهذا الخط يدير فيها العمل بانتظام ، وقد عرقل نشوب الحرب العالمية الثانية جهود إعادة تشغيل الخط . وأخيراً في سنة ١٩٦٦ ، أبرم عقد مع بيوت تجارية بريطانية لإعادة تشييد القطاع بين المدينة المنورة ومعان ^(١) ، ولكنه لم يوضع موضع التنفيذ .

* * *

(١) Zaidi H. بحث منشور في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية، تحت عنوان المجاز ، سكة حديد ، وقد سبقت الإشارة إليه .

الفصل السابع

تفسيرات تعسفية لبعض مشروعات إصلاح

قام بها السلطان عبد الحميد

طريق ب. ب. ب (٣)

B. B. B Route

التقارب بين إستانبول وبرلين وأهدافه :

قامت الإمبراطورية الألمانية سنة ١٨٧١ بعد إنضمام الاتحاد الألماني بقوة الدم والحديد، وانصرفت أول الأمر إلى تنظيم شئونها الداخلية وبناء قواتها المسلحة البرية والبحرية ، فضلاً عن الأسطول التجارى كوسيلة للنهوض بالتجارة الخارجية .. فكان يشق عباب المحيط الأطلسي ويرفأ إلى موانئ إفريقيا وغيرها، ويتاجر مع الليفانت والشرق الأوسط (١) ، كما عكفت على تنفيذ مشروعات التصنيع وتركزت فى الصناعات الكيماوية والكهربائية ، وأرست قواعد التقدم الاجتماعى ؛ فوضعت قانون التأمين الإجبارى ضد المرض عام ١٨٨٣ ، وضد الحوادث عام ١٨٨٤ ، وضد الشيخوخة سنة ١٨٨٩ ، فكانت ألمانيا دولة زائدة مبتدعة فى هذا المجال وسبقت إنجلترا فيه (٢) .

وبينما كانت عمليات البناء الداخلى قائمة على قدم وساق .. وجهت ألمانيا أنظارها إلى الدولة العثمانية ؛ كى تنشئ لها فيها مركزاً متميزاً فى المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية ، فالدولة العثمانية ذات موقع حرى هام ، وهى قريبة من ألمانيا ، وغنية بمواردها الأولية اللازمة للصناعات الألمانية المتزايدة . وفى الاستطاعة اتخاذها أسواقاً رائجة للمنتجات الألمانية ، وفى مقدور ألمانيا أيضاً اتخاذ الدولة العثمانية مركزاً لتجارة النفوذ بين البريطانى والفرنسى فى الليفانت والشرق الأوسط، وضرب سيطرة بريطانيا وفرنسا معاً على قناة السويس .

كان هذا الاتجاه الألمانى انقلاباً فى السياسة العليا لألمانيا تجاه الدولة العثمانية ؛ إذ إن

(١) تضاعفت حمولة سفن ألمانيا فى العشرين سنة التى تخللت سنتى ١٨٧٠ ، ١٨٩٠ سبعة أمثالها .

(٢) وضعت بريطانيا قوانين على غرارها عام ١٩١١ على يد لويد جورج، عندما كان وزيراً للمالىة فى وزارة أسكوت H.H. Asquith ، وكانت هذه الوزارة قد شكلت فى أغسطس - آب - عام ١٩٠٨ ، وظلت فى الحكم إلى ما بعد قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .

المستشار الألماني بسمارك لم يكن يشعر بتقدير للدولة العثمانية ، وتعزى إليه هذه العبارة «إن الدولة العثمانية بما تضمه من شعوب مسيحية وشعوب إسلامية لا تستحق أن يراق من أجلها دم جندي بروسي واحد ، وكان بسمارك صاحب النظرية السياسية التي يطلق عليها حيناً سياسة المصالحة La Conciliation وحيناً آخر سياسة التعويض La Compensation فعندما تفاقمت أزمة المسألة الشرقية منذ سنة ١٨٧٥ ، طرح نظريته الهادفة إلى درء خطر الحرب عن أوروبا . وكانت وسيلته لمنع اشتعال الحرب تتمثل في تفتيت الدولة العثمانية ، وتوزيع أجزائها لا يستهان بها من ممتلكاتها بين الدول الأوروبية الكبرى الأربع ، وهى : بريطانيا ، وفرنسا ، والنمسا والمجر ، والروسيا . وكان بسمارك يخشى أن تؤدي المناقصة بين هذه الدول إلى اشتعال حرب أوروبية عامة قد تضطر ألمانيا إلى دخولها ، وقد تعصف بالمكاسب التي سبق أن أحرزتها وتوجتها بقيام الاتحاد الألماني سنة ١٨٧١ ، وكان من سياسة المصالحة أو التعويض :

أولاً : أن تستولى بريطانيا على مصر بما فيها قناة السويس .

ثانياً : أن تسيطر روسيا على المضائق – البوسفور وبحر مرمرة والدرينيل – وتشرف على إستانبول .

ثالثاً : أن تستأثر النمسا بالولايتين العثمانيتين البوسنة والهرسك في غربى البلقان .

رابعاً : أن تأخذ فرنسا سورية ولبنان .

واستطاع بسمارك ، في أثناء رئاسته لمؤتمر برلين الأوروبي سنة ١٨٧٨ ، أن يحقق نظريته تحقيقاً تاماً فيما يختص بالبند الثالث ، وأن يشجع فرنسا على احتلال تونس بدلاً من سورية ولبنان ، منضمّاً في هذا التشجيع إلى سالزبورى وزير خارجية بريطانيا وأحد أعضاء الوفد البريطناني في المؤتمر ، واستطاع بسمارك أن يترك الروسيا تحقق مكاسب إقليمية كبيرة إشباعاً لدهمها الاستعماري ، وقد سبق أن شرحنا هذه المكاسب من قبل . أما بريطانيا فقد عملت لحسابها الخاص ، واستطاعت قبيل انعقاد المؤتمر أن تكتزح من الدولة العثمانية جزيرة قبرص كخطوة تمهيدية لاحتلال مصر بعد سنوات ذات عدد ، وعلى ذلك.. لم تكن سياسة بسمارك تقوم في معظم السنوات على التعاطف مع الدولة العثمانية .

وقد بدأ تطور في علاقات ألمانيا بالدولة العثمانية منذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر نمشياً مع تطور السياسة العليا لألمانيا في ذلك الوقت بعد أن نعت البحرية الألمانية نمواً هائلاً ، وبعد أن تقدمت الصناعة الألمانية تقدماً مذهلاً ، وبعد أن زاد تعداد سكان ألمانيا زيادة ، دعت الرأي العام إلى المطالبة بإيجاد أسواق جديدة لتصريف المصنوعات الألمانية والبحث عن موارد جديدة للمواد الخام ، وانتهاج سياسة نشطة في كل بقعة من بقاع العالم ، وبلغ من ضغط الرأي العام حداً لم يكن في مقدور الرجل السياسى مهما سما مركزه في أعين مواطنيه أن يصمد أمامه

طويلاً ، ومن ثم أخذ بسمارك يوجه ألمانيا في طريق خارجي معترذاً بأن للضرورة أحكاماً^(١) ، وبدأت ألمانيا منذ سنة ١٨٨٣ ما يمكن تسميته سياسة الانفتاح نحو الدولة العثمانية ، واستجابات لطلب الحكومة العثمانية ، فأرسلت في تلك السنة إلى استانبول بعثة عسكرية تتولى تنظيم الجيش العثماني^(٢) ، وكان يرأس هذه البعثة الكولونيل فون درجولتس Von Der Goltz وكان على حظ موفور من الكفاية الممتازة والإخلاص في العمل . وقد بذل أقصى جهده في النهوض بالجيش العثماني تدريباً وتسليحاً وتطويراً لخطط التعليم في المعاهد العسكرية العثمانية خلال الثلاث عشرة سنة التالية . وحرصت البعثة على أن تكون الأسلحة والذخائر في القوات العثمانية المسلحة من نتاج المصانع الألمانية ، ولكن لم تكن جهود البعثة مقصورة على المجالات العسكرية ، بل أخذ بعض أعضائها ، بتوجيه من بسمارك المستشار الألماني ، يعنون بعدة مسائل أخرى ، ويوافقون للحكومة الألمانية بتقارير ضافية عن الأحوال السائدة في الدولة ومايتوقعون حدوثه في قابل الأيام .. وهكذا شاهدت السنوات الأخيرة من عهد بسمارك بداية النفوذ الألماني في الدولة العثمانية .

ولكن حدث انقلاب جذري في سياسة ألمانيا تجاه الدولة العثمانية باعلاء ولهم الثاني عرش ألمانيا سنة ١٨٨٨ ، ولم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره ، واشتد النزاع بين بسمارك والإمبراطور الشاب الذي ساءه أن يرى بسمارك يسيطر على شئون الدولة ، فلم يكن يبرم أمر إلا بإذنه . وكان أرض ألمانيا قد ضاقت بما رحيب فلم تنسج لحاكمين اثنين مستبدين ، وأعلن الإمبراطور الجديد أنه ليس هناك غير سيد واحد في هذه الدولة ، هو أنا ، وقطع علاقاته بمؤسس الإمبراطورية الألمانية بسمارك ، الذي اضطر في اليوم العشرين من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٩٠ إلى الاستقالة ، وكانت أقرب إلى الإقالة منها إلى الاستقالة ، واعتزل السياسة . وهكذا أقصى هذا الريان الماهر الذي ظل قرابة عشرين عاماً يدير دفة ألمانيا خلال العواصف والأنواء ، وقد حل محله في منصب مستشار ألمانيا جورج ليوفون كابريفي C. George Leo von Caprivi (١٨٩٠-١٨٩٤) .

ومما يذكر أنه تعاقب من بعد الأخير على منصب المستشار الألماني ستة مستشارين كان آخرهم ماكس فون بادن Max von Baden الذي شغل منصبه عاماً أو بعض عام ثم استسلمت ألمانيا سنة ١٩١٨ لبريطانيا وحليفاتها . وكان هؤلاء المستشارون السبعة مجرد أرقام بجانب الإمبراطور ولهم الثاني ، الذي أصبحت كلمته هي العليا في الشؤون الداخلية والخارجية لألمانيا من سنة ١٨٩٠ حتى سنة ١٩١٨ .

(1) Fisher H. A. L.; A History of Europe, op. cit., p. 1051.

(٢) نجح السفير الألماني في إقناع السلطان عبدالحميد باستخدام البعثة
Earle E. M.; op. cit., p. 38.

مظاهر التقارب بين إستانبول وبرلين :

ويهما أن ننكر أن سياسة التقارب نحو الدولة العثمانية أخذت دفعة قوية جداً باعتراف ولهم الثاني العرش (١٨٨٨-١٩١٨) ، فزار الدولة العثمانية مرتين كانت المرة الأولى في سنة ١٨٨٩ ، أى في السنة التالية لتوليته الحكم ، وكانت الزيارة الثانية في سنة ١٨٩٨ . وكان هذا الإمبراطور يعتقد اعتقاداً راسخاً ضرورة تنمية العلاقات الثلاثية بين الدولتين في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والعمرانية والعلمية ، بما فيها تنشيط البعثات الألمانية للكشف من الآثار في المناطق العثمانية ، وقد عرفت سياسة التقارب نحو الدولة العثمانية باسم الاتجاه نحو الشرق Drang Nach Osten .

شجعت الحكومة الألمانية تدفق رموس الأموال الألمانية على الدولة العثمانية وزيادة حجم التبادل التجاري بين الدولتين ، وأوفدت مندوبين للشركات الألمانية التجارية إلى إستانبول ، وأسست بنوكاً كبرى ، وأنشأت جماعة من أصحاب رموس الأموال الألمانية خطأ للملاحاة البحرية بين هامبورج وإستانبول سنة ١٨٨٩ ، أطلق عليه «خط التليفانت الألمانية» ، Deutsche Levante Linie لدعم تجارة ألمانيا في الدولة ^(١) . واحتل رأس المال الألماني منذ سنة ١٨٨٨ المكانة الأولى في الدولة ، وأقصيت عن مركز الصدارة فيها رموس الأموال البريطانية والفرنسية .

ترحيب عبد الحميد بالتقارب بين إستانبول وبرلين :

رحب السلطان عبد الحميد الثاني بسياسة التقارب بين الدولة العثمانية وألمانيا وكانت تحو هذا السلطان رغبة قوية في الحد من نفوذ بريطانيا وفرنسا في الدولة ، وكانتا تتسابقان على انتزاع ولاياتها منها : فاحتلت بريطانيا جزيرة قبرص عام ١٨٧٨ ثم مصر عام ١٨٨٢ ، ووصفت احتلالها لها بأنه احتلال مؤقت يزول بزوال أسبابه ، وأبنت بريطانيا أيضاً ضم الولاية العثمانية «روم إيلى شرقى» إلى بلغاريا سنة ١٨٨٥ بعد سبع سنوات من انقضاء مؤتمر برلين الأوروبي وخلافاً لما قرره هذا المؤتمر ، كما بسطت فرنسا حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ ، ومن قبل كانت قد احتلت إقليم الجزائر في شمالي إفريقيا سنة ١٨٨١ ، ومن قبل كانت قد احتلت إقليم الجزائر في شمالي إفريقيا سنة ١٨٣٠ ، وكانت لها إدعاءات في بلاد الشام . ونظر أيضاً عبد الحميد إلى موقف هاتين الدولتين من مذابح الأرمن على أنه موقف غير ودى من

(١) كانت صادرات ألمانيا إلى الدولة العثمانية حتى عام ١٨٨٨ تعادل ١١ مليون مارك كل سنة ، ثم قفزت قيمة هذه الصادرات سنة ١٩٠٥ إلى قرابة ٧١ مليون مارك ، وارتفعت صادرات الدولة العثمانية إلى ألمانيا خلال هذه الفترة من ٢,٥ مليون مارك إلى ٥١ مليون مارك .

الدولة، فأراد عبد الحميد إيجاد قوة ميساسية كبيرة صديقة، ولكن لا تكون حليفة للدولة، بمعنى ألا يدخل معها فى تحالف عسكرى، وهذه من حسنات السلطان وتدل على بعد نظره وحصافته على عكس الطغاة العسكرين، الذين حكموا الدولة بعد عزله ثم ربطوا الدولة، نتيجة حماقتهم وجهلهم بمبادئ السياسة وأصول الحكم، بحلف عسكرى مع ألمانيا فى الثانى من شهر أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ جر عليها الكوارث، ولكن كان عبد الحميد يريد أن يوازن بنفوذ ألمانيا نفوذ الدولتين العظميين. كما كان من دوافع ترحيب عبد الحميد بسياسة التقارب تحقيق الفوائد العسكرية والاقتصادية والعمرانية لبلاده، وقد ولى عبد الحميد وجهه شطر ألمانيا يرسل إليها الطلبة العسكرين ليستكملوا دراساتهم فى معاهدها العسكرية، ويوفد الضباط العثمانيين إلى ألمانيا ليحضروا دورات تدريبية ويشهدوا عديد المناورات التى كان يقوم بها الجيش الألمانى، واستورد من ألمانيا أسلحة وذخائر أوصى بصنعها فى مصانعها. فكانت شركة «كروب - جرمانيا، Krupp Germania لبناء السفن تزود الأسطول العثمانى بحاجته من سفن الطوربيد والأسلحة الكبيرة، وكانت شركة «لودفيج لوف» Ludwig Loewe تمد الجيش العثمانى بالأسلحة الصغيرة، وكانت شركة «كروب إسن» Krupp Essen تشارك شركة «أرمسترونج، Armstrong الإنجليزية فى تقديم المدافع للجيش العثمانى^(١)، وأمضى الفريق محمود شركت باشا شطراً كبيراً من حياته العسكرية فى ألمانيا مراقباً لشحنات الأسلحة^(٢)، وأخذ الجيش العثمانى صبغة ألمانية.

طريق ب. ب. ب. :

كانت سياسة «الاتجاه نحو الشرق» تمثل ركناً أساسياً فى السياسة العليا لألمانيا، وكان من أهم المشروعات الألمانية التى انبثقت عن هذه السياسة. واستحوذت على تفكير هذا الإمبراطور ووقته واهتمامه إنشاء طريق للمواصلات للحديدية بين أوروبا والشرقين الأدنى والأوسط حتى الخليج العربى، وبذلك يمكن تحويل جانب كبير من التجارة العالمية من طريق قناة السويس إلى الطريق الجديد، فضلاً عن مزايا تحققها الدولتان العثمانية والألمانية سنكلم عنها فيما بعد. ويقوم هذا المشروع على مد خط حديدى يربط ألمانيا بإستانبول ثم إلى أنقرة وقونية فى آسيا الصغرى، ثم إلى شمالى الشام ثم يمتد شرقاً إلى الموصل فى العراق، ثم جنوباً إلى بغداد، على أن يمد إلى البصرة ثم إلى موقع ما على الخليج العربى تتفق عليه الدولتان فيما بعد.

وقد أطلق على مشروع هذا الخط الحديدى من قبيل الاختصار طريق ب. ب. ب. B. B. Route لأنه يبدأ من برلين ويمر ببيرنطة ثم بغداد. وقد اختيرت كلمة بيرنطة بدلاً من

(١) الدكتور السيد رجب حراز، الدولة العثمانية إلغ، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٠-١٩١.

(٢) توفيق على يور، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٨.

إستانبول أو الآستانة أو القسطنطينية حتى تبدأ أسماء هذه المحطات الثلاث الرئيسية بحرف الباء، كما يطلق على هذا الخط في بعض المراجع سكة حديد بغداد The Baghdad Railway وهي تسمية غير دقيقة ، وسنطلق عليها في هذه الدراسة الجناح الآسيوي لطريق ب. ب. ب الحديدي .

وكان الجزء الأول من هذا الخط للحديدي موجوداً وقائماً بالفعل ؛ بفضل الجهود التي بذلها الخبير الألماني المهندس فون پرسل Von Pressel في إنشاء شبكة حديدية في البلقان . وقد تم بناؤها وافتتحت لنقل المسافرين والمتاجر في صيف ١٨٨٨ ، وكانت هذه الشبكة تمتد من حدود النمسا والمجر عبر شبه جزيرة البلقان إلى إستانبول . وترتبط في الوقت ذاته بالخطوط الحديدية في مملكة النمسا والمجر وغيرها من الدول الأوروبية ؛ فأصبحت إستانبول تتصل اتصالاً مباشراً ببغينا وبرلين وباريس ولندن عن طريق كاليه (١) .

وبقيت المرحلة الآسيوية من المشروع الألماني ، وهو مد الخط للحديدي في آسيا الصغرى وشمالى الشام ويخترق العراق . أما الخط للحديدي في آسيا الصغرى .. فكانت إحدى الشركات الألمانية قد قامت بإنشاء خط يبدأ من حيدر باشا على الساحل الآسيوي للبوسفور إلى أنقرة عام ١٨٩٣ ، ثم إلى قونية عام ١٨٩٦ ، وبقيت المرحلة الأخيرة .

وقد بلغ من اهتمام الإمبراطور ولهم الثاني بهذا المشروع الألماني أنه زار الدولة العثمانية للمرة الثانية ، وتمت هذه الزيارة في شهرى أكتوبر ونوفمبر - تشرين أول وثن - سنة ١٨٩٨ بعد اتصالات دبلوماسية بين برلين وإستانبول ، استطلأ أمدها أربع سنوات تمهيداً لها وتحديد برنامجها وأهدافها ونجح الإمبراطور خلالها في الحصول على الامتياز المنشود ؛ إذ أصدر السلطان فرماناً تمهيدياً بالموافقة على تنفيذ هذا المشروع . وكان الإمبراطور قد ضغط على البنك الألماني Deutsche Bank لتمويل المشروع ، على أساس أن هذا الخط الحديدي يمثل مصلحة قومية ألمانية عليا .

براعة ألمانيا في تهديد مخاوف السلطان من أطماع الصهيونيين في فلسطين :

وقد سبقت هذه الزيارة ثم صحبتها ثم لحقتها حملة إعلامية ألمانية وأخرى عثمانية واسعة النطاق ، كان من بين أهدافها ربط ألمانيا بالعالم الإسلامى . فقد قام ولهم الثاني بأعجب مظاهرة في حياته ؛ فبعد انتهاء زيارته الرسمية للسلطان عبد الحميد في إستانبول ذهب إلى فلسطين وزار بيت المقدس . واستطاع نيدرور هرتزل Theodor Herzl رئيس المنظمة

الصهيونية العالمية (١) Z.W.O (٢) ، ومعه وقد صهيوني قوامه أربعة أعضاء ألمان مقابلة الإمبراطور ابتغاء الحصول على تصريح منه بتأييد الحركة الصهيونية وأهدافها في فلسطين .

وقد قابلهم الإمبراطور وهو مملط ظهر جواده ، بينما كان هرتزل وأعضاء الوفد الصهيوني وقفاً في خشوع وذلة على مقربة من حصانه ، كما يبدو هذا المنظر من الصورة التي ظهرت في دائرة المعارف اليهودية . وقد أدلى الإمبراطور بتصريح ورد نصه في دائرة المعارف اليهودية وجاء مخيباً للآمال ، التي كان يطبقها الصهيونيون على إمبراطور ألمانيا . فقد جاء في هذا التصريح أن إمبراطور ألمانيا يؤيد كل الجهود التي يبذلها اليهود للاندماج بالزراعة في فلسطين؛ من أجل رفاهية الدولة العثمانية وتقدمها، طالما كان اليهود يحترمون السيادة العثمانية على فلسطين ويدينون بالولاء للسلطان العثماني .

وهو تصريح يتسم بالطابع الدبلوماسي ، وليس فيه أي كسب للقضية الصهيونية .. فقد كان حديث الإمبراطور مقصوراً على المجال الزراعي في فلسطين، يبذل فيه اليهود نشاطهم بشرط أن يدينوا بالولاء للسلطان العثماني . ولم يشر ولهم الثاني من قريب أو من بعيد إلى قيام دولة يهودية في فلسطين أو إلى جعل فلسطين إقليماً يهودياً يتمتع بالاستقلال الذاتي في نطاق الدولة العثمانية . ويقول مؤرخ حياة هرتزل تفسيراً لهذه الإجابة إن إمبراطور ألمانيا في أثناء إقامته في إسطنبول قد سبرغور السلطان عبد الحميد بخصوص الحركة الصهيونية، وكانت ألمانيا تعطف على هذه الحركة . ولما سأل الإمبراطور أن السلطان لم يكن مرتاحاً إلى أهداف الحركة الصهيونية ، بل كان يتوجس خيفة منها، وأن السلطان كان يخشى أن تصبح فلسطين «لبناناً آخر»، وأن تقوم ألمانيا في فلسطين بالدور ذاته الذي قامت به فرنسا في لبنان (٣) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن مقابلة هرتزل لإمبراطور ألمانيا في بيت المقدس لم تكن المقابلة الأولى في أثناء زيارة الإمبراطور للدولة العثمانية ، فقد حدث أن وقف هرتزل على برنامج زيارة الإمبراطور الألماني للسلطان العثمانية ، وسافر إلى إسطنبول بحجة إجراء اتصالات مع رجال الباب العالي . ويدل تاريخ هرتزل على براعته في إنشاء علاقات مع

(١) تصفه دائرة المعارف اليهودية بأنه زعيم الصهيونية السياسية .

انظر : =

The Jewish Encyclopedia. New York and London. 1924 , 23 vols, vol. VI p. 370.

(٢) تستعمل هذه الحروف الثلاثة من قبيل الاختصار بدلاً لهذه العبارة .

Zionist World Organization

(٣) انظر كلاً من :

Bein Herzal A Bein; Theodor Herzal, Translated by Samuel Phialdelphia 1945, p. p.

308-309

The Jewish Encycl op. cit., vol, XII p. 677

الشخصيات ذات الصلات الوثيقة بالرؤساء حتى يسهل عليه مقابلتهم ، ونجح هرتزل في أن يظهر بمقابلة الإمبراطور الألماني في إستانبول ، ويبدو من تسلسل الأحداث أن ولهم الثاني كان مستمعاً أكثر منه متحدثاً في أثناء مقابله لهرتزل ، وأنه أثر أن يتريث فلا يدلي برأى أو يعلن تصريحاً عن موقف بلاده من الحركة الصهيونية قبل أن يتحدث مع السلطان عبدالحميد في هذا الصدد تنسيقاً لمسياسة الدولتين تجاه هذه المسألة .. وهذا ما فعله الإمبراطور . فلما سافر إلى بيت المقدس كان قد سبقه إليها هرتزل مع وفد الصهانية ، تحوهم أعذب الآمال لمقابلة الإمبراطور ، وليقفوا منه على مدار بين السلطان العثماني والإمبراطور الألماني وأملاً في الحصول على تصريح من الإمبراطور بتأييد للحركة الصهيونية . ولقى أعضاء الوفد الصهيوني مساعدة من بعض رجال الحاشية الإمبراطورية الألمانية لتنظيم أمر المقابلة ، وحدد الإمبراطور اليوم الثاني من شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٨٩٨ ، موعداً لمقابلة الوفد في بيت المقدس على النحو الذي ذكرناه من قبل ، وكانت مقابلة مهينة وغير مثمرة .

وكان تقدير الإمبراطور الألماني للموقف أنه إذا مضت ألمانيا في تأييد الحركة الصهيونية ، أثارت شكوك السلطان ونسفت الجهود التي بذلتها منذ سنة ١٨٨٣ في سبيل إقترابها من إستانبول ، وبعبارة أخرى خلص الإمبراطور رأياً إلى أن صداقة الدولة العثمانية أئمن لألمانيا من صداقة الحركة الصهيونية ؛ لأنه كان حريصاً الحرص كله على تدعيم صلاته بالدولة العثمانية وبرعاياها المسلمين بخاصة وبالعالم الإسلامي بعامه ، خدمة للمصالح الألمانية^(١) .

ومن بيت المقدس سافر إمبراطور ألمانيا إلى دمشق ، حيث ألقى خطبة سياسية مثيرة استهدف منها كسب العالم الإسلامي في كافة أنحاء العالم إلى جانب ألمانيا ، وقرر فيها أن السلطان العثماني هو خليفة المسلمين ، وأن إمبراطور ألمانيا هو الصديق الدائم للسلطان ولجميع المسلمين الذين كان يبلغ عددهم في ذلك الوقت ثلاثمائة مليون مسلم ، وأظهر تقديراً عميقاً لأبطال الإسلام مثل صلاح الدين الأيوبي ، على النحو الذي شرحناه من قبل في موضوع

(١) غادر هرتزل بيت المقدس عائداً إلى أوروبا ومعه الوفد الصهيوني المرافق ، بعد أن أخفق مخططة في الحصول على تصريح على من إمبراطور ألمانيا بمساندة الحركة الصهيونية يكون عوناً لها في نضالها . وفترت العلاقات بين أقطاب الحركة الصهيونية والحكومة الألمانية منذ عام ١٨٩٨ حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، على الرغم من أن المنظمة للصهيونية العالية كانت مطعنة بالانحياز الألماني ، إذ كانت تضم شخصيات ألمانية وشخصيات روسية تربست في جامعات ألمانيا وتأثرت بالثقافة الألمانية ، وأقامت في ألمانيا سنوات طوال ، وعلى الرغم أيضاً من أن اللجنة التنفيذية الصهيونية اتخذت فيينا مقراً لها ، ثم انتقلت إلى كولوني (كلونييا) في ألمانيا ثم إلى برلين سنة ١٩١١ .

انظر :

دكتور حسن صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية إلخ مرجع سبق ذكره ، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا ، ج ١ ، ص ٧٧-٨٠ .

حركة الجامعة الإسلامية . وكانت جميع تحركات إمبراطور ألمانيا وتصريحاته وخطبه نذاع وتنتشر فى أوسع نطاق . وعاد الإمبراطور إلى برلين يحف به التمجيد والثناء ، اللذان أغدقتهما عليه صحافة العالم الإسلامى ، ووقفت الدولتان الكبيرتان فى غربى أوروبا - بريطانيا وفرنسا - متجهمتين لهذا التقارب الشديد الذى حدث بين السلطان عبدالحميد الثانى وإمبراطور ألمانيا ولهملهم الثانى . وخشيت كل منهما على مصالحهما المتشعبة فى الدولة العثمانية ، التى كانت تسيطر على مناطق حساسة وذات أهمية كبرى فى الشرق العربى الآسيوى . وكان مما أفلقهما أيضاً تقرب إمبراطور ألمانيا إلى مسلمى العالم ، الذين كان من بينهم أعداد كبيرة من سكان المستعمرات ومناطق النفوذ البريطانية والفرنسية .

أهداف ألمانيا من طريق ب. ب. ب :

وقد استهدفت السياسة الألمانية من هذا الخط تحقيق عدة أغراض ، نذكر من بينها :

أولاً : اتخاذ ألمانيا من التمسك الاقتصادى فى الدولة العثمانية وسيلة لجعل ألمانيا قوة استعمارية عالمية فى منطقة الشرق الأوسط ، وهى منطقة شاسعة الأرجاء ذات أهمية عسكرية بالغة .. كان طريق ب. ب. ب. أهم وأبرز ما يجسد تسلسلها الاقتصادى .

ثانياً : إسهام الخط الحديدى فى نمو واتساع وإزدياد نفوذ مصلحة الدين العثمانى العام ، والتى كان يستأثر بالسيطرة عليها رجال البنوك والمؤسسات الاقتصادية مثل البنك الألمانى وشركة سكة حديد الأناضول ، وكانت مصلحة الدين العثمانى العام هى الأداة الحقيقية والفعالة للاستعمار المالى الأوروبى فى الدولة العثمانية .

ثالثاً : تحويل المناطق التى يمر بها خط ب. ب. ب. فى الدولة العثمانية إلى مناطق لإنتاج المواد الخام والمحاصيل الزراعية التى تستخدم فى الصناعة الألمانية ، ووضع هذه المواد والمحصولات فى خدمة الاقتصاد القومى الألمانى .

رابعاً : استغلال نفوذها السياسى فى الدولة العثمانية بوضع خطط تستهدف تحقيق الاستخدام الأفضل والأفضل للخط الحديدى فى الأغراض الحربية من ناحية ، ولزيادة إمكانات إنتاج المواد الخام والمحاصيل الزراعية وسرعة نقلها إلى ألمانيا من ناحية أخرى . كان من بين هذه الخطط إرساء نظام للحكم السياسى غير المباشر وللأنظمة الاقتصادية فى المناطق التى يمر بها الخط الحديدى فى الدولة العثمانية . وقد وضع الخبراء الألمان فى الشؤون الزراعية والعسكرية والسياسية مشروعات استيطان ألمانى .. كان بعضها ذا طابع استيطانى مركز ، وتشرف الأجهزة الألمانية المتخصصة على تنفيذ هذه المشروعات بشتى أنواعها .

خامساً : تحويل جزء لا يستهان به من تجارة الشرق من طريق قناة السويس إلى طريق ب. ب. ب. (١) .

وفي تقدير ولهم الثاني ، كان تنفيذ مشروع طريق ب. ب. ب. يؤدي إلى امتداد نفوذ ألمانيا امتداداً متصلاً عبر البلقان والأناضول وأقاليم متعددة في الشرق العربي الآسيوي إلى الخليج العربي . وفي تقديره أيضاً أن النفوذ الألماني يتفوق كان تنفيذ مشروع طريق ب. ب. ب. يؤدي إلى امتداد نفوذ ألمانيا امتداداً متصلاً عبر البلقان والأناضول وأقاليم متعددة في الشرق العربي الآسيوي إلى الخليج العربي ، وفي تقديره أيضاً أن النفوذ الألماني يتفوق على نفوذ أوروبي آخر منافس ، كالنفوذ البريطاني أو الفرنسي أو الروسي ؛ لأنه نفوذ متصل متماسك من بداية الخط الحديدي إلى نهايته ، ومتفوق عليه أيضاً لأنه يعمل بدأ بيد مع الحكومة الشرعية في الدولة العثمانية ، ولا يستهدف هدمها أو الدخول في علاقات خاصة مع طوائف من رعاياها كالأكراد أو الأرمن أو الموارنة أو اللوز أو غيرهم (٢) .

أهداف عبد الحميد من طريق ب. ب. ب. :

والحق أن السلطان عبد الحميد أراد أن يتيح لدولته انفتاحاً على ألمانيا ، وهي دولة بهرت أنظار المعاصرين بوثبتها السريعة ، التي جعلتها تتبوأ مكاناً علياً بين الدول الأوروبية الكبرى وتحقق تقدماً مذهلاً في مجالات المواصلات والتصنيع والتجارة وغير ذلك من شئون الاقتصاد ، فضلاً عن تفوقها في المجالات العسكرية .. فأراد عبد الحميد أن يستفيد من الخبرات الألمانية ورءوس الأموال الألمانية بإدخال إصلاحات حقيقية وملموسة ، يشعر بها رعايا الدولة وساسة أوروبا ويدرك الجميع أن الدولة دخلت حقبة عصر الإصلاحات والمشروعات الإنتاجية . والواقع أن مصر كانت أسبق من الدولة العثمانية في دخول هذا العصر منذ حكم محمد علي وخلفائه ، وكانت قد تعاقبت في القرن التاسع عشر بالذات أنباء وعود وتصريحات

(١) من بين المراجع التي اعتمدنا عليها بصفة أساسية بحث يعد من أحدث البحوث التاريخية الرصينة، وضعه هلموت متزجر Helmut Mejcher. Tubingen ، استقى مائه العلمية من الوثائق والمراجع الألمانية ، واسم هذا البحث :

Some Aspects of the German Baghdad Railway Policy,

نشرته مجلة المشرق العربي، التي تصدرها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب في بغداد ، العراق العدد الأول ١٩٧٥ ، ص ١-٢٥ (القسم غير العربي) .
ومن الخط الحديدي ب. ب. ب. انظر كل من :

Earle E.M.: Turkey, the Great Powers and the Bagdad Railway. New York. 1923.

Wolf J.B.: The Diplomatic Histoty of the Bagdad Railway 1936, Chap, 7.

Howard H.N.; The Partition. of Turkey. chap. 2.

Ragey L.: La Question de chemin de fer de Bagdad, 1893-1914.

(٢) محمد شفيق غريال : منهاج مفصل إلغ ، مرجع سبق ذكره ص ١١٢ .

رسمية وصدر أكثر من «خطى شريف» عن بعض سلاطين هذا القرن بإدخال إصلاحات جزرية في الدولة ؛ كي تواكب مسيرة التقدم والحضارة في الدول الأوروبية ، ونعوض ما فاتها من سنوات الركود والتخلف ، ولكن ظل معظم ما جاء في هذه القرارات والوعود جبراً على ورق .

وكان عبدالحميد يدرك حقيقة الوزن السياسي والثققل العسكري لألمانيا في أوروبا كدولة صديقة له .. فقد كان عقد مؤتمر برلين في الثالث عشر من شهر يونيو- حزيران - عام ١٨٧٨ اعترافاً من الدول الأوروبية التي اشتركت فيه ، وهي : بريطانيا ، وفرنسا ، والروسيا ، وإيطاليا ، والدولة العثمانية ، فضلاً عن ألمانيا (١) ، بالزعامة السياسية لألمانيا في أوروبا ، وكان بسمارك أظهر وأبرز شخصية في المؤتمر . كان يرأس الجلسات طبقاً لقواعد القانون الدولي العام (٢) ، ويدير المناقشات ، ويضع حداً للمحاولات العقيمة ، ويتهدد المؤتمرين بترك المؤتمر إذا لم يصغ السياسة إلى أوامره (٣) . ولكن كان عبدالحميد وثقاً في الوقت ذاته بقدرته على دفع جميع المخاطر التي قد تنشأ عن رغبة ألمانيا أو مطامعها في السيطرة السياسية على الدولة العثمانية ، وهذه حقيقة يقرها أحد الباحثين العرب للنصارى المتحاملين على السلطان عبدالحميد (٤) .

وأدرك عبدالحميد أن تنفيذ مشروع طريق ب. ب. ب. يعود بفوائد جمة على الدولة من النواحي الاقتصادية والعمرانية والعسكرية والسياسية .. ففي المجالات الاقتصادية والعمرانية يؤدي الخط الحديدي إلى نمو المدن التي يمر بها ، وإزدهار التجارة الداخلية والخارجية ، وريط أجزاء الدولة بعضها ببعض ، واستغلال الموارد الطبيعية في المناطق الشاسعة التي يمر بها ، وإيجاد موارد مالية جديدة لخزينة الحكومة بحصولها على نسبة مقررة من إيراد هذا الخط؛ مما يلجم عنه بعضى الزمن وقف التدهور المالى الذى كانت تعاني منه الدولة ، وكان يمثل في ضخامة القروض الأجنبية وفي فرض رقابة دولية على مالية الدولة . وكان المشروع يتضمن أيضاً مد أسلاك لخطين من خطوط البرق على امتداد قضبان السكة الحديدية لخدمة أغراض الحكومة ، إلى غير ذلك من فوائد ، سنقف عليها عند الكلام على عقد الامتياز الذى أصدرته الحكومة لإحدى الشركات الألمانية بمد الخط الحديدي .

أما من الناحية العسكرية .. فإن إنشاء طريق ب. ب. ب. يؤدي إلى دعم مركز الدولة عسكرياً تجاه كل من فارس وروسيا . كانت علاقات الدولة العثمانية بفارس - وهما دولتان إسلاميتان غير عربيتين - علاقات غير مستقرة وغير هادئة ، وكان للعراق مسرحاً لصراع

(١) كان ممثلو الدول البلقانية يجتمعون في استراحة المؤتمر حيناً وفي بوفيه المؤتمر حيناً آخر .

(٢) تقتضى مبادئ القانون الدولي العام أن يرأس المؤتمر رئيس الدول المضيفة أو ممثلها في المؤتمر .

(٣) الدكتور محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥ .

(٤) أنطونيوس جودج ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٧ .

قديم متأصل بينهما منذ القرن السادس عشر حتى القرن العشرين^(١)، وكان كلما اشتد مساعد الفرس، تطلّعوا إلى انتزاع العراق من العثمانيين لتحقيق أطماع توسعية إقليمية ومذهبية. وكان لسكان العراق دور كبير في احتدام حدة الصراع بين الدولتين؛ فالشيعة في العراق كانوا متعاطفين مع الدولة الفارسية لاتفاقهم معها في وحدة المذهب الديني، بينما نظر العراقيون السنيون إلى العثمانيين على أنهم حماة المذهب السنّي في العالم الإسلامي. وكذلك كان الحال بالنسبة لأكراد العراق في الشمال.. كان معظمهم سنيين، ولكن كان بينهم أكراد يعتقدون للمذهب الشيعي، وتأرجح ولاء الشيعة في العراق بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية. وفي طغيان اللعنتين المذهبية والجنسية انصرف اهتمام هاتين الدولتين للكبيرتين إلى محاربة ازدواجية الولاء بإخضاع القبائل والعشائر العربية في جنوب العراق^(٢)، والكرديّة في شماليه، لمبادأة اسمية. ودخلت عناصر أجنبية في النزاع وتمثلت في بريطانيا والروسيا ابتغاء الاستئثار بالنفوذ الأول في الشرق الإسلامي، وكانت بريطانيا، كما مر بنا^(٣)، قد نجحت في استصدار فرمان من السلطان العثماني سنة ١٨٣٤ يخول لها الحق في إنشاء خطوط ملاحية بخارية بريطانية في أنهار العراق لتصل بخارجها، وحاول السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٨٨٣ منع الملاحية البريطانية في نهر دجلة.

(١) استمر الصراع بين العراق وإيران إلى الوقت الحاضر (١٩٨٠-١٩٨١)، فقد انبثقت حرب شاملة بينهما في اليوم العشرين من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٨٠، وكانت مطالبة العراق بشط العرب وإقليم عربستان وغيرهما تستند إلى أن هذه الأقاليم كانت تابعة لإيران الحكم العثماني، وإلى أن العراق يعد أحد ورثة الدولة العثمانية طبقاً لقواعد القانون الدولي العام. ولكن هناك دوافع خفية أكثر عمقاً من الأسباب المعلنة لقيام هذه الحرب، وباست هذه الدراسة مجالاً لبسطها. وقد امتد القتال منذ اليوم الصادي والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - على طول خط الحدود الفاصلة بين العراق وإيران من الخليج حتى حدود تركيا، واشتركت فيه القوات الجوية والبحرية والبحرية للدولتين المتحاربتين.

(٢) من بين هذه القبائل قبيلة عربية استقرت في المنطقة الواقعة شرقي شط العرب. وكانت إمارة عربية عرفت بإسم إمارة عربستان، وكان مقر حكمها مدينة المجرمة، وتشرف على مخرج نهر كارون عند التقائه بشط العرب.

وخضعت هذه الإمارة عند إنشائها للسيادة الاسمية للدولة العثمانية. وحاول نجيب باشا وإلى بغداد في الأربعينيات من القرن التاسع عشر إخضاع هذه الإمارة للسلطة الفعلية الباب العالي، ولكنه أخفق في محاولته، وحول الأمراء فيها تبعيتهم إلى الدولة الفارسية. وأصبحت إمارة عربستان تسمى خوزستان منذ أن قضى الشاه رضا بهلوي سنة ١٩٢٥ على الاستقلال الذاتي لهذه الإمارة، وعملت حكومة الشاه على صلبها بالصيغة الإيرانية، وتوطين العائلات الإيرانية فيها وطمس اللغة العربية ونشر اللغة الفارسية، واضطهاد الأقلية العربية وحرمانها من حقوقها السياسية، وغير ذلك من وسائل القمع والكبت والاضطهاد. انظر دكتور نور الدين حاطوم، محاضرات عن حركة القومية العربية. من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٦٤-٦٧.

(٢) انظر في هذه الدراسة الجزء الثاني، الفصل الثاني.

وأوجست الروسية خيفة من النشاط البريطاني في ميادين الملاحة البخارية في أنهار العراق ، ورأت الروسية أن هذا النشاط قد يكون خطوة لتفعل النفوذ البريطاني من نهر كارون إلى داخل فارس ، فتصدت لمنع سقوط إقليم عرستان في يد العثمانيين . وتدهورت العلاقات بين الدولتين العثمانية والفارسية في الأربعينيات من القرن التاسع عشر ، ووقعت مناقشات بل ومصائدات بين الدولتين في عرستان والسليمانية وغيرها ، وتجنباً لاندلاع حرب شاملة بينهما ، وماقد تجره من مواجهة عسكرية بين بريطانيا والروسيا ، اقترحت بريطانيا تشكيل لجنة دولية من الإنجليز والروس والعثمانيين والفرس لوضع خط الحدود بين فارس والعراق . وفي أعمال هذه اللجنة وضح التناص الدولي بين بريطانيا والروسيا ، فوقت الأولى إلى جانب المطالب العثمانية في العراق ، بينما تبنت الثانية المطالب الفارسية .

أما بالنسبة للروسيا .. فقد دأبت على إثارة الأزمات وتصعيدها في وجه الدولة العثمانية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً سواء بين الشعوب البلقانية في أوروبا ، أو بين أرمن آسيا الصغرى أو بين الشيعة والأكراد في العراق .

وكانت بريطانيا تعتقد أن الحرب العثمانية الفارسية التي اشتعلت سنة ١٨٢٠ ، واستمرت حتى سنة ١٨٢٣ كانت نتيجة تحريض الروسيا لفارس على إشعال الحرب ضد الدولة العثمانية . وقد سبق أن ذكرنا أن زمام المبادرة في الهجوم على العراق كان في يد فارس ، لأنها كانت تتطلع دائماً إلى استرداده ، بينما لم تكن لدى العثمانيين رغبة في التوسع الإقليمي على حساب فارس . وفضلاً عن ذلك تطلعت الروسيا إلى إنشاء ميناء بحري لها في منطقة الخليج العربي ليكون هذا الميناء نواة للنفوذ الروسي ، يتصل منه إلى العراق تمهيداً لاجتياح هذا الإقليم العربي . وقد وفتت بريطانيا بكل عنف ضد هذا التطلع الروسي ، كما عارضت بريطانيا رغبة فرنسا في إنشاء محطة بحرية لها في مسقط تكون مستودعاً للفحم . ولم يكن الدافع لبريطانيا على معارضة أطماع الروسيا وفرنسا في منطقة الخليج هو الدفاع عن الدولة العثمانية . ولكن كان هذا الدافع انبثاقاً عن السياسة العليا لبريطانيا ، وهي انفرادها دون غيرها من الدول بالسيادة السياسية والسيطرة العسكرية على منطقة الخليج ، وقد وفتت بكل حزم ضد ألمانيا عندما تبينت لها الأهداف البعيدة عن مشروع طريق ب. ب. ب.

نخلص من هذا العرض السريع إلى أن السلطان عبدالحميد الثاني عند إقراره تنفيذ مشروع خط ب. ب. ب. ، كان يواجه موقفاً عصبياً في العراق من رواسب السنوات السابقة لحكمه بسبب تأرجح الولاء وتذبذبه ، أو بسبب ازدواجية الولاء بين شيعة العراق وعددهم يقرب من نصف تعداد العراقيين وأكراد العراق ، وتربط الروسيا لتصعيد حدة النزاع بين هاتين الطائفتين في الدولة ، وتطلع بريطانيا إلى دعم نفوذها في العراق ، فاستهدف السلطان من هذا المشروع توطيد دعائم الحكم العثماني في العراق ، وعدم تعريض هذا الإقليم إلى عمليات تفتيت

ويتر بين الطوائف المذهبية والعنصرية . ولا تثير عليه في ذلك ؛ لأن المحافظة على سلامة وأمن الممتلكات العثمانية في مقدمة واجبات السلطان ، ويجب أن نضع في الاعتبار أن ظروف العالم الآن وهو يقترب من نهاية القرن العشرين ، كانت تختلف اختلافاً تاماً عن ظروفه في القرن التاسع عشر . وقد سبق أن ذكرنا مراراً في هذه الدراسة أنه يجب للحكم على حادث معين وقع في عصر سابق أن ننظر إلى الظروف ، التي كانت سائدة في ذلك العصر ، ولا نقيسه بمعايير عصور لاحقة .

تفسيرات تصفية لطريق ب. ب. ب :

ومع ذلك فسر الباحثون المتحاملون اهتمام السلطان عبد الحميد الثاني بإنشاء طريق ب. ب. ب. الحديدى تفسيراً تعسفياً ، فقالوا إن عبد الحميد رأى في هذا المشروع وسيلة عصرية لسحق أى ثورة قد تنشب في ممتلكات الدولة في غربي آسيا ، وبذلك يسهم هذا الخط الحديدى في دعم الحكم العثماني في الولايات العربية وغيرها ؛ إذ كان يخشى اندلاع ثورات ، وأنه بالغ في تصور المخاوف من هذه الثورات حتى استبدت به . ونسب أولئك الباحثون إلى المستشارين المقربين إلى السلطان مثل عزت باشا العابد وغيره أنهم كانوا يبنون هذه المخاوف في نفسه ويستغلونها ؛ حتى اقتنع السلطان بأن إنشاء طريق ب. ب. ب. الحديدى يضاعف من قدرة حكومته على تعبئة قوات عسكرية ونقلها بسرعة لسحق الثورات الداخلية . وبذلك يغدو عرشه بمنأى عن أى اهتزازات قد تعصف به ، ويشبه هذا التفسير في جملته وتفصيله التفسير الذى ذكره البعض عن سكة حديد الحجاز مع اختلاف الأقاليم والمناطق ، التى يخدمها كل من الخطين للحديديين .

ويغفل الباحثون المرجفون عن حقيقة مهمة ، هي أن طريق ب. ب. ب. الحديدى هو مشروع ألماني دماً وإحماً ، جاء وليد تفكير الإمبراطور الألماني ولهملر الثاني ومتماشياً مع السياسة العليا للإمبراطورية الألمانية ، التى كانت تخوض وقتذاك بصفتها إحدى دول التحالف الثلاثى تنافساً دولياً حاداً ضد دول الوفاق الثلاثى . وسرعان ما تطور هذا التنافس إلى صراع حرسى رهيب فى الحرب العالمية الأولى ، وهو صراع لم تشهد له الإنسانية فى صراوته من قبل مثيلاً . وكان من بين ميادين هذا التنافس الدولى قناة السويس ومنطقة الخليج العربى ، التى كانت بريطانيا تنظر إليها على أنها البوابة الكبرى المؤدية إلى الهند ، وكان طريق ب. ب. ب. الحديدى يحقق لألمانيا السيطرة على منطقة الخليج ، ويقطع إلى حد كبير من أهميته قناة السويس ويسلب منها نقل المسافرين والبريد والبضائع الخفيفة ، ويهبط بالدخل السنوى لبريطانيا من أرباح أسهمها فى قناة السويس .

وقد ظفر هذا المشروع بالاهتمام الشخصى العميق من الإمبراطور الألماني وسعى لدى

السلطان عبدالحميد لاستصدار فرمان لتلقيذه ، وكان قد حدث تقارب بين ألمانيا والدولة العثمانية في شتى المجالات وسبق أن أشرنا إليها . ولم يشأ عبدالحميد أن يدع هذه الفرصة تمر دون أن يستغلها لصالح دولته ، فهو يريد أن يحقق انفتاحاً رحيباً للدولة على ألمانيا بصفتها دولة أوروبية عظمى بهرت أنظار العالم بتقدمها المذهل في شتى المجالات في سنوات ذات عدد . وتميزت على سائر الدول بأنها صديقة للدولة العثمانية ، تدهبها للسلطان ، وتعترف به خليفة للمسلمين ، وتؤيده وتؤيد المسلمين في أرجاء العالم ، وقد أثبتت الأحداث التي مرت منذ قيام الاتحاد الألماني سنة ١٨٧١ أن ألمانيا دولة ليست لها أطماع إقليمية في الدولة العثمانية على عكس مجموعة ضخمة من دول أوروبية ، هي : بريطانيا ، وفرنسا ، والروسيا ، والنمسا والمجر ، وغيرها .

لقد تعرضت الدولة العثمانية في مجال المواصلات العامة لنقد مرير في صورتين مختلفتين لمصريين متبايعين .. فقول بادي ذي بدء إن الدولة العثمانية قد أهملت حتى منتصف القرن التاسع عشر إيجاد أو تشجيع قيام وسائل مواصلات عصرية بين الولايات العربية التي خضعت لها ، وبذلك فرضت على العالم العربي عزلة استطالت عدة قرون ، عاش العرب خلالها على هامش الحياة لا يواكبون الحضارة العالمية في مسيرتها ولا يدرون عن العالم الخارجى شيئاً ، ولانكاد ندرى أوروبا عنهم شيئاً . وكانت الدولة العثمانية هي الهدف الأول من هذا التشهير ، وقد سبق أن فندناه وأوضحنا ما فيه من تحامل على الدولة .

وتعرضت الدولة بعد ذلك للنقد شديد ، حين أنشأت شبكة من الخطوط الحديدية سواء لربط أجزاء بلاد الشام بعضها ببعض أو لربط الولايات العربية في غربي آسيا بعضها ببعض مثل الشام والحجاز والعراق . وكان النقد في هذه المرة موجهاً إلى السلطان عبدالحميد بالذات لأنه - في زعم المتحاملين عليه - أراد أن يتخذ من الخطوط الحديدية وسيلة عصرية لإحكام قبضته على الولايات العربية في الدولة بنقل القوات العثمانية المسلحة في سرعة إلى أماكن الاضطرابات أو الانتفاضات أو الثورات . وتأسيساً على هذا الزعم لم يستهدف السلطان عبدالحميد من مد الخطوط الحديدية إدخال بلاده عصر البخار ، الذي دخلته أوروبا من قبل باستخدام السكك الحديدية ، ولكنه أراد تحقيق غرض آخر هو سحق الثورات . ومع ذلك فنحن نفترض أن هذا الزعم صحيح .. فإن من الواجبات الأولى للحاكم - في ظروف ذلك العصر - أن يعمل على المحافظة على ممتلكات دولته ، وقد فعلت ذلك بريطانيا وفرنسا والروسيا والنمسا والمجر وغيرها . ولم يكن مطلوباً من عبد الحميد أن يعمل على تقنين دولته وتصفيته ممتلكاتها .

توقيع عقد الامتياز لإنشاء الخط الحديدي ب.ب.ب :

وقعت اتفاقية بالحروف الأولى بين الباب العالي وأصحاب الامتياز في سنة ١٨٩٩ ، ثم بعد مفاوضات طويلة وشاقة، تم التوقيع في إستانبول في اليوم الخامس من شهر مارس - آذار - سنة ١٩٠٣ على عقد امتياز، تمهدت فيه شركة سكة حديد الأناضول العثمانية The Ottoman Anatolian Railway Company ، وهي شركة ألمانية اتخذت لنفسها هذا الاسم ، بمد وتشغيل خط حديدي، يمتد من قونية إلى بغداد والبصرة والخليج العربي في موقع يتفق على تحديده فيما بعد الطرفان المتعاقدان ، وهما الحكومة العثمانية وأصحاب الامتياز . وقد سبق أن ذكرنا أن تلك الشركة الألمانية كانت قد مدت المرحلة الأولى لهذا الخط في الأناضول من حيدر باشا على الساحل الآسيوي للبوشرور إلى أنقرة سنة ١٨٩٣ ، ثم إلى قونية سنة ١٨٩٦ ، وبقيت للمراحل الأخيرة من قونية إلى بغداد والبصرة ومنطقة الخليج . وقد ناب عن الحكومة العثمانية في التوقيع على عقد الامتياز ذهلي باشا وزير التجارة والأشغال العمومية ، وناب عن الشركة ثلاثة من مديريها ^(١) ، وجاء العقد ضافياً يتكون من ست وأربعين مادة ^(٢) ، ونص في المادة الأولى على أن يمر الخط للحديدي بالمدن الآتية أو بأقرب مسافة منها ، وهي :

Eregli	إرجلي	،	Karaman	قرمان
Adana	أضنه	،	Kardash-Belli	كرداش - بلي
Osmanieh	عثمانية	،	Hamidieh	حميدية
Kazanali	كازانالي	،	Bagtcheb	باجتشب
Tel-Habesh	تل حبيش	،	Killis	كيليس
Ras-ul-Ain	رأس العين	،	Harran	حران
Avniat	عونيات	،	Nisibin	نزيب
Tekrit	تكريت	،	Mosul	الموصل
Bagdad	بغداد	،	Sadidjeh	صانديجه
Nedjef	النجف	،	Kerbela	كربلاء
Busra	البصرة	،	Zabeir	زبير

(١) يتضح من أسماء هؤلاء المديرين الثلاثة أن الشركة لم تكن عثمانية لهماً وبهاً .

(أ) جوينر آرثر Gwinner Arthur رئيس مجلس المديرين بالشركة .

(ب) الدكتور كورت زاندر Dr. Kurt Zander مدير عام الشركة .

(ج) هيجوينين إدوارد Huguenin Edouard المدير العام المساعد بالشركة .

(٢) النص الكامل لهذا العقد منشور في كل من :

فروع الخط وامتداداته :

ونص في المادة الأولى ذاتها على أن تقوم الشركة بمد وتشغيل الفروع الأربعة الآتية :

(١) من تل حبيش إلى حلب .

(٢) من نقطة مجاورة على الخط الرئيسى يتفق عليها فيما بعد إلى أورفا Urfa . وجاء فيما يختص بهذا الفرع أن الحكومة العثمانية ان تمنح أى ضمان فى أى صورة لإنشائه ، ويبلغ طوله ثلاثين كيلو متراً ، وإن تسهم فى مصاريف تشغيله ، وستكون الإيرادات الإجمالية لهذا الفرع من حق الشركة صاحبة الامتياز .

(٣) من صاددجه Sadidjeh إلى خانين Khanikin .

(٤) من زبير Zobeir إلى موقع على الخليج العربى (الفارسى) ، يتم الاتفاق عليه بين الحكومة العثمانية وأصحاب الامتياز ، كما ذكرنا .

وتقرر أن يتبع للخط الحديدي الرئيسى وفروعه طريقاً توافق عليه الحكومة العثمانية .

مدة الامتياز :

وتقرر أن تكون مدة الامتياز الممنوح للشركة لاستغلال الخط تسعة وتسعين عاماً (المادة ٢) ، وأن يقسم الخط إلى أقسام ، طول كل قسم مائتا كيلو متر ، ويبدأ تشغيل كل قسم عقب الفراغ من إعداده مباشرة ، وأن تنتهى الشركة من مد الخط الحديدي كله مع فروعها فى مدة أقصاها ثمانى سنوات (٣ ، ٤) ، وأن تراقب وزارة الأشغال العمومية عمليات إنشاء الخط واستغلاله والمحافظة على منشأته فى أثناء فترة استغلال الخط ، ويودع أصحاب الامتياز كل عام تحت أمر وزارة الأشغال العمومية مبلغاً ، حدد بمائتين وسبعين قرشاً ذهبياً عن كل كيلو متر . ويدفع هذا المبلغ شهرياً من التاريخ المحدد لبدء إنشاء الخط حتى نهاية مدة انتهاء العقد . ويكون هذا المبلغ فى مقابل المراقبة التى تقوم بها وزارة الأشغال . (م ٥) .

أراضى الشركة :

وجاء فى المادة السادسة أنه لما كان مشروع هذا الخط الحديدي يعتبر من المشروعات ذات المنفعة العامة ، فلأصحاب الامتياز أن يستولوا على الأراضى اللازمة لمد القضبان الحديدية عليها ، وإقامة المنشآت التى تتصل بالخط وهذه الأراضى على نوعين : النوع الأول أراض مملوكة لأفراد ، فيقوم ، أصحاب الامتياز بشرائها من أصحابها . وإذا تعذر الاتفاق بين أصحاب الامتياز وأصحاب الأراضى على ثمن البيع ، تقوم الحكومة العثمانية بنزع ملكية هذه الأراضى طبقاً لقانون نزع الملكية للمعمول به فى الدولة وتسلمها إلى أصحاب الامتياز بعد استيفاء ثمنها منهم وتسليم هذا الثمن إلى أصحاب الأراضى . أما الأراضى التى يرى أصحاب

الامتياز أن يشغلها المشروع شغلاً مؤقتاً خلال مدد القضببان الحديدية .. فتقوم السلطات المحلية بتسليمها لأصحاب الامتياز بشرط أن يدفعوا تعويضاً لأصحاب هذه الأراضي في مقابل شغلها بصفة مؤقتة . أما النوع الثاني من الأراضي فهو الأراضي الحكومية التي يطلق عليها «أراضي أميرية خالية» ، فتسلم لأصحاب الامتياز دون مقابل ، وإذا وجدت أراضٍ من هذا النوع في منطقة عرضها خمسة عشر كيلو متراً على جانبي القضببان الحديدية ، وكانت هذه الأراضي تحوى محاجر أو حصص (زلاط) مما يستخدم في عمل المفرقات .. فيجوز لأصحاب الامتياز أن يستغلوا هذه الأراضي دون مقابل في أثناء فترة إنشاء الخط ؛ بشرط أن تغلق هذه الأماكن عند انتهاء العمل في مد الخط الحديدى . وإذا أراد أصحاب الامتياز استغلال هذه المحاجر وأماكن الحصص في فترة استغلال الخط .. فإنهم يخضعون للوائح المعمول بها في هذا الشأن ، وعليهم دفع الرسوم المقررة .

ازدواجية الخط بعد بضع سنين :

ونصت المادة السابعة على أن ينشئ أصحاب الامتياز الخط الحديدى أول الأمر خطأ مفرداً أى لا يكون خطأ مزدوجاً ، ولكن تأخذ للشركة منذ المرحلة الأولى الأراضي اللازمة لازدواج هذا الخط . وبمجرد أن تصل الإيرادات الإجمالية للخط ثلاثين ألف فرنك سنوياً .. فإن للحكومة العثمانية الحق في أن تطلب من أصحاب الامتياز أن ينشئوا الخط الموازى له ، أى العمل على ازدواجه ، ويكون إنشاء الخط الثانى على نفقة أصحاب الامتياز .

الإعفاء من الضرائب والرسوم الجمركية :

وتقرر أن يعفى من الضرائب الداخلية ومن الرسوم الجمركية مايشتره أصحاب الامتياز من أدوات مصنوعة ومستلزمات إنشاء الخط الحديدى واستغلاله مثل الأخشاب والحديد والآلات وعربات نقل الأتربة والأحجار وعربات نقل للركاب ، وكذلك يتمتع أصحاب الامتياز بالإعفاء الجمركى على مقادير الفحم الذى يستوردونه من الخارج لتشغيل القاطرات البخارية . ويستمر هذا الإعفاء معمولاً به حتى تصل الإيرادات الإجمالية للخط الرئيسى وفروعه إلى ١٥,٥٠٠ فرنك عن كل كيلو متر ، وألا تفرض ضرائب طوال فترة استغلال الخط على الأراضي ، أو رأس المال أو إيراد الخط ، وأن يعفى أصحاب الامتياز من رسم التلغمة إلا فيما يختص بمعاملتهم الشخصية .

تكوين شركة محاصة :

وتقرر أيضاً في المادة الثامنة أن أصحاب الامتياز بتكوين شركة محاصة^(١) عثمانية an

(١) شركة المحاصة Joint Stock Company هي شركة مستقرة، ليست لها شخصية معنوية، تتعقد بين شخصين أو أكثر لاقتسام الأرباح والخسائر الناشئة عن عمل تجارى واحد، أو أكثر يقوم به أحد الشركاء =

Ottoman joint-stock company باسم الشركة العثمانية الإمبراطورية لسكة حديد بغداد The Imperial Ottoman Baghdad Railway Company تحمل محل شركة سكة حديد الأناضول العثمانية في كل مايتصل بالخط للحديدي الجديد وفروعه من قونيه إلى الساحل العربي للخليج . وتتعهد شركة سكة حديد الأناضول العثمانية بألا تكتازل مطلقاً أو تحول لأى شركة أخرى لخط الحديدي القائم من قبل، والذي يمتد من حيدر باشا على الساحل الآسيوي للبورفور إلى أنقرة وقونيه . (٨م) .

النقل في أنهار العراق تحت إشراف نظارة البحرية :

ونصت المادة التاسعة على أن تنقل مواد البناء وغيرها من المواد اللازمة لإنشاء الخط الحديدي وفروعه ، كما ينتقل مستخدمو الشركة وعمالها في أثناء فترة إنشاء الخط ، تحت إشراف وزارة البحرية العثمانية في شط العرب ونهرى دجلة والفرات في سفن بخارية أو شراعية، أو أى نوع من أنواع السفن تحصل عليها أو تستأجرها الشركة ، وأن تعفى المواد التي تنقل من الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب (٩م) .

من امتيازات الشركة :

وأجيز لأصحاب الامتياز أن يقوموا بقطع وتجهيز (توضيب) كافة أنواع الأخشاب اللازمة لإنشاء وتشغيل الخط ، على أن تتم هذه العملية في الغابات القائمة في المناطق

= باسمه الخاص .

ولشركة المحاصة تطبيقات عملية كثيرة : كإن يتفق شخص يرغب في الاستئثار، وإخفاء اسمه عن الجمهور مع شخص آخر على القيام بعمل معين ، وكان يتفق شخصان أو أكثر على شراء محصول في موسم معين وبيعه وتوزيع الربح أو الضارة فيما بينهم ، وكان يتفق مهندس معمارى مع مقاول على تشييد المبانى وإصلاحها ، واقتسام ماقد ينشأ عن ذلك من ربح أو خسارة ، وكان يتفق بضعة بنوك على تأليف نقابة مالية تكتب في جميع الأوراق المالية التي تصدرها إحدى الشركات، ثم تقوم بتوزيعها بين الجمهور وتقسيم الأرباح والخسائر التي تسفر عنها العملية .

ولشركة المحاصة خصائص، منها أنها شركة مستترة ليس لها وجود ظاهر أمام الغير، بحيث يكون وجودها مقصوراً على الشركاء ، ويمثل مظهرها في اقتسام الأرباح والخسائر فيما بينهم ، ولا تتمتع بشخصية معنوية مستقلة من أشخاص الشركاء فيها . ويتفرع عن انتقاء الشخصية المعنوية أنه ليس لشركة المحاصة موطن أو جنسية خاصة ، وهى تعتبر من شركات الأشخاص؛ إذ تتكون من أشخاص يعرف بعضهم بعضاً ويتوافر الثقة بينهم . ولايجوز للشريك فيها أن يتنازل عن حصته دون إجازة بقية الشركاء . كما أن وفاة أحد الشركاء أو الحجر عليه أو إعساره أو إفلاسه أو انمحابه ، يترتب عليها انقضاء الشركة، مالم يقض عقد الشركة بخلاف ذلك .

انظر :

دكتور مصطفى كمال طه : القانون التجارى . الناشر مؤسسة الثقافة الجامعية ، إسكندرية ، ١٩٨٠ ،

ص ٢٣٥-٢٤٠ .

المجاورة والمملوكة للدولة طبقاً للوائح المعمول بها في هذا الصدد (م ١٠) . وتقرر أيضاً تشكيل لجنة فنية تقوم بفحص كل قسم من الخط يتم إنشاؤه ، وإذا جاء تقرير اللجنة مقررأ أن ماتم إنجازه جاء مطابقاً للمواصفات الموضوعة فإن وزارة الأشغال العمومية تخطر أصحاب الامتياز رسمياً بموافقتها النهائية ، على أن تنفيذ القسم المشار إليه جاء سليماً وخالياً من العيوب أو المآخذ الفنية وغيرها (م ١١) .

فروع أخرى تخرج من الخط الرئيسي :

وإذا قررت الحكومة العثمانية إنشاء فروع تربط للخط الحديدي الرئيسي بالبحر المتوسط في نقطة تقع بين مارسين في الجنوب الشرقي للأناضول وطرابلس الشام .. فإنها تمنح إنشاء هذه الفروع لأصحاب الامتياز دون غيرهم بشرط المحافظة على الحقوق ، التي سبق منحها لشركة سكة حديد دمشق - حماه وامتداداتها^(١) . ومع ذلك إذا كان أصحاب الامتياز ، في خلال مدة أقصاها سنة من تاريخ إبلاغهم بقرار الحكومة العثمانية ، لايقبلون إنشاء الفروع الجديدة طبقاً للشروط الواردة في هذا العقد ، أو إذا وافقوا على إنشاء هذه الفروع ثم لم يستطيعوا تنفيذ الأعمال المنوطة بهم في خلال الفترة المتفق عليها مع الحكومة العثمانية .. فإن أصحاب الامتياز يفقدون كل حقوقهم في إنشاء الفروع المذكورة ، ويكون للحكومة العثمانية الحق في منح الامتياز إلى طرف ثالث .

وفضلاً عن ذلك يكون لأصحاب الامتياز حق الأفضلية في إنشاء سبعة فروع ، هي :

- (١) فرع يتجه إلى مرعش Marash .
- (٢) فرع يتجه إلى عنتاب Aintab .
- (٣) فرع يتجه إلى بيرجك (بيره جك) Birijik .
- (٤) فرع يتجه إلى ماردين Mardin .

(١) هي شركة فرنسية اسمها الرسمي (شركة دمشق - حماه وتمديداتها) ، وقد صدر فرمان في ٣١ من شهر مايو - أيار - سنة ١٨٩٣ بمنح يوسف مطران أفندي امتياز إنشاء خط حديدي من دمشق إلى حلب واستغلاله لمدة تسع وتسعين سنة ، وتم إنشاء هذا الخط على مرحلتين : الأولى بين رياق - حماه ، وبلغ طولها ١٨٩ كيلو متراً ، وافتتحت في سنة ١٩٠٦ ، وكان من المقرر مد هذا الخط من حلب إلى بيره جك غير أن صدور فرمان بمنح امتياز خط ب. ب. ب. إلى شركة سكة حديد الأناضول العثمانية ، حال نون مد الخط الأول إلى الشمال .

انظر كلاً من :

محمد كرد علي : خطط الشام ، مرجع سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ١٨٢-١٨٤ .
عبدالعزیز محمد عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٩-٢٨٠ .

- (٥) فرع يتجه إلى إربل . Erbil
(٦) فرع يتجه إلى طوز كراماتي Tuz-Karmati
(٧) فرع يتجه إلى حيت . Hit

ويظل نافذاً حتى أفضلية أصحاب الامتياز في إنشاء هذه الفروع السبعة، إذا تحقق شرط واحد ، هو أنه إذا قررت الحكومة العثمانية بصفة نهائية منح امتياز إنشاء فرع من هذه الفروع لطرف ثالث .. فإن أصحاب الامتياز يكونون ملزمين ، في خلال مدة تسعة أشهر تبدأ من تاريخ إبلاغهم بقرار وزارة التجارة والأشغال العمومية ، بأن يخطرخوا الحكومة العثمانية برغبتهم في أن يقوموا هم بإنشاء الفرع بالشروط نفسها التي قبلها الطرف الثالث . (١٢م) .

إجراءات أمنية :

وتلتزم الشركة بأن تخصص ، فيما يختص بأعمال الشرطة وبأمن الخط الحديدي ، للقوانين واللوائح المعمول بها في ذلك الوقت في الدولة العثمانية أو التي تصدر مستقبلاً . وتتعهد الحكومة العثمانية باتخاذ جميع الإجراءات الضرورية للمحافظة على النظام على طول الخط وفي ورش الشركة . وإذا حدث تعطل لحركة مرور القطارات - سواء على طول الخط أو على جزء منه ، وكان هذا التعطل نتيجة خطأ من جانب الشركة - فإن الحكومة العثمانية تتخذ كل الإجراءات الضرورية على نفقة الشركة لإعادة سير القطارات . (١٥م) .

إلزام أصحاب الامتياز بإيداع ضمان مالي :

وتلتزم الشركة - ضماناً لقيامها بالوفاء بتعهداتها - بأن تودع في أحد بنوك إستانبول بعد أن توافق عليه الحكومة العثمانية مبلغ ٣٠,٠٠٠ جنيه عثماني إما نقداً وإما في صورة سندات حكومية أو سندات شركة محاصة عثمانية أو سندات مضمونة من الدولة ، بالسعر الجاري . ويكون الإيداع في خلال ثلاثة أشهر من تاريخ تلقي الشركة إخطاراً رسمياً بصدد الفرمان بمنحها الامتياز ، وإذا تم الإيداع في صورة صكوك .. فإن البنك الذي تم لديه الإيداع يحصل على تعهد من الشركة بتغطية الفروق المالية في حالة هبوط أسعار السندات . وإذا لم تقدم الشركة الضمان المالي في خلال الأشهر الثلاثة السابق تحديدها ، فإنها تفقد جميع حقوقها في الامتياز ، دون أن ترسل لها الحكومة العثمانية إخطاراً بسقوط كافة حقوقها . (١٨م) .

حق الحكومة في سحب امتياز استغلال الخط :

وتقرر أن يكون للحكومة العثمانية الحق في أن تسحب في أي وقت امتياز استغلال الخط من قوينيه إلى البصرة وقروعه، بشرط أن تدفع للشركة عن المدة المتبقية من الامتياز مبلغاً سنوياً يوازي ٥٠٪ من متوسط الإيرادات الإجمالية عن السنوات الخمس السابقة للسنة، التي يتم

فيها سحب الامتياز وبشرط ألا يقل المبلغ السنوي عن ١٢,٠٠٠ قرينك عن كل كيلو متر (١٩م). وفي نهاية مدة الامتياز لكل قسم من أقسام الخط الحديدي، تمارس الحكومة العثمانية جميع حقوق الشركة صاحبة الامتياز على الطريق الحديدي وكل مايتصل به . وتسلم إلى الحكومة العثمانية الخطوط وكل شيء يتصل بها خالية من الديون ومن المسؤولية، وتقوم الحكومة بشراء أنواع المهمات المثبتة والمخازن ؛ طبقاً للمادة العشرين من الجداول الملحقه . (٢٠م) .

الالتزام مستخدمى وعمال الخط بارتداء الطربوش والزى الرسمي :

ويلتزم الموظفون والمستخدمون فى مرفق الخط الحديدي بارتداء الزى الرسمي الذى توافق عليه الحكومة العثمانية ، ويلتزمون جميعاً أيضاً بارتداء الطربوش فوق رؤوسهم . وعلى الشركة صاحبة الامتياز أن تختارهم من بين الرعايا العثمانيين كلما كان ذلك ممكناً . وبعد مضى خمس سنوات من تاريخ افتتاح كل قسم من أقسام الخط لسير القطارات .. عليه يجب أن يكون جميع الموظفين والمستخدمين والعمال، الذين يشغلون فى الأعمال التنفيذية من الرعايا العثمانيين ، ويستثنى من هذا الشرط كبار الموظفين . (٢١م) .

وخول الحق للشركة صاحبة الامتياز فى أن تستغل المناجم التى تكتشفها فى منطقة تقع فى مسافة ٢٠ كيلو متراً على كل جانب من جانبي الخط الحديدي، بشرط أن تخضع الشركة للقوانين واللوائح المتعلقة بهذا الشأن، مع ملاحظة أن هذا الحق لايعطى للشركة امتيازاً أو احتكاراً. (٢٢م) .

بناء مرفأ فى بغداد والبصرة وساحل الخليج :

وللشركة الحق فى أن تبني على نفقتها مرفأ فى كل من بغداد ، والبصرة ، وموقع على الساحل العربى للخليج لتحدد بنهاية الفرع الحديدي، الذى يخرج من الزبير على الخط الرئيسى ، على أن يشمل كل مرفأ التجهيزات الضرورية التى تسمح برسو السفن بجانب الأرصفة وعلى طولها من أجل عمليات الشحن والتفريغ وتخزين البضائع . وهذه المرفأء الثلاثة تشكل جزءاً لايفصل عن الخط الحديدي . وتضاف صافى الإيرادات التى تجمع من هذه المرفأء الثلاثة إلى الإيرادات الإجمالية للخط الحديدي ، وعند نهاية مدة الامتياز تصبح هذه المرفأء الثلاثة وجميع متعلقاتها ملكاً للدولة دون مقابل . (٢٣م) .

حق الحكومة فى إقامة منشآت عسكرية دفاعية :

ومن أهم المبادئ التى وردت فى عقد الامتياز تقرير الحق المطلق للحكومة العثمانية فى أن تقيم أو تشيد على نفقتها حصوناً وغيرها من المنشآت العسكرية الدفاعية فى نقط أو مواقع على الخط الحديدي الرئيسى وفروعه ، كلما رأت الحكومة ضرورة لذلك . (٢٤م) .

الكشف عن الآثار :

أما فيما يخص بالأعمال الفنية والآثار التي تكتشف في أثناء إنشاء الخط الحديدي .. فإنها تخضع للوائح الخاصة بذلك ، وتعفى الشركة صاحبة الامتياز من الإجراء الشكلي بتقديم طلب إلى السلطات العثمانية للحصول على ترخيص البحث والتنقيب . ومؤدى هذا النص أن للشركة أن تمارس عمليات الكشف عن الآثار ، دون أن يكون لديها إذن خاص بمزاولة مثل هذا النشاط الثقافي ، الذى هو خارج عن صميم اختصاصها الأصلي وهو إنشاء خط حديدي وتشغيله (٢٧م) . وتعد هذه المادة من اللغزات التي تتصل منها الشركة بطريقة قانونية لممارسة أنشطة أخرى ذات طابع ثقافي ، وجدير بالذكر أن بعثة ألمانية بدأت سنة ١٨٩٨ في التنقيب عن الآثار في منطقة بابل في العراق (١) .

أحكام جزائية :

والتزمت الشركة بتقديم بيان شهرى بجميع إيراداتها إلى وزارة الأشغال العمومية (٢٨م) ، وتضمنت المادة التالية أحكاماً جزائية إذا أخلت الشركة بتنفيذ تعهداتها في قسم أو أكثر من أقسام الخط الحديدي . وكان طول كل قسم - كما سبق أن ذكرنا - مائتي كيلو متراً ، وقد خولتها مادة ذات مهلة زمنية للوفاء بالتزاماتها . وحددت هذه المهلة بثمانى عشرة شهراً تبدأ من تاريخ إبلاغ الحكومة العثمانية لها بتقصيرها في أعمالها ، فإذا انقضت المهلة دون أن تتخذ الشركة الإجراءات الضرورية للالتزام بتعهداتها .. فإنها تفقد حقوقها في الامتياز في كل قسم قصرت في الوفاء بالتزاماتها فيه .

الخط الحديدي من إستانبول إلى الخليج وحدة لا تتجزأ :

وردد في ذات المادة مبدأ هام هو أنه طالما لم يتم العمل في جميع أقسام الخط الحديدي الرئيسى من قونيه إلى بغداد .. فإن الشركة لا تقوم بتشغيل أجزاء الخط ، التي تكون قد فرغت من إنشائها بين بغداد والبصرة . ومعنى هذا أن الحكومة العثمانية كانت تنظر إلى الخط الحديدي كله من إستانبول إلى البصرة ثم الخليج كوحدة لا تتجزأ ، فلا يبدأ تشغيل الخط في مرحلته الأخيرة إلا بعد إتمام للخط كله .

التزام أصحاب الامتياز بإقامة مبان للمرافق العامة :

وتقرر أن يبنى أصحاب الامتياز دون مقابل مبان ، تشمل مكاتب لموظفى السكة الحديدية والجمارك والبريد ولضباط الشرطة ، وأن تقام هذه المباني في مواقع تختارها الحكومة العثمانية (٣٠م) .

(١) لوريمر . مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٥٥٢ .

إقامة أعمدة تغراف وأسلاك برق على طول الخط :

ونص على أن يقيم أصحاب الامتياز على نفقتهم وعلى طول للخط الحديدي أعمدة لأسلاك البرق . وألا يستخدم هذا الخط البرقي في الاتصالات الشخصية، التي لا تتصل بتشغيل الخط الحديدي ، وتقرر أن تحتفظ الحكومة العثمانية بحق مراقبة الرسائل البرقية التي تتم عبر أسلاك الشركة ، وأن يقوم بهذه المراقبة جميع الأوقات مفتشون تعيينهم وزارة البريد والتغرافات . ونص أيضاً على حق الحكومة في استخدام الأعمدة الخاصة بالخط الحديدي لإنشاء خط برقي أو خطين برقيين عند الضرورة . وتمكيناً للحكومة من استخدام هذا الحق ، يتعين على أصحاب الامتياز أن يقيموا أعمدة مدينة بحيث تتحمل الخطين الإضافيين من الأسلاك بجانب أسلاك الشركة . ويكون للحكومة أيضاً الحق عند الحاجة في أن تقيم على نفقتها أعمدة أخرى لأسلاك البرق على طول للخط ، وإذا حدث قطع أو عطل في خط البرق الحكومي .. فيكون للحكومة العثمانية الحق في وضع موظفين فنيين في شئون البرق ، في المحطات لإرسال البرقيات الرسمية المهمة وللحاجة بواسطة خطوط البرق التابعة لأصحاب الامتياز ، على أن يوضع في الاعتبار أن استخدام الحق الأخير لايجب عله أبداً تعطيل خدمة القطارات الحديدية (٣١م) .

تنظيم الخدمة البريدية :

وأعطيت الشركة الحق في أن تنقل بوسائل النقل الخاصة بها ، ودون أن تدفع أى رسوم بريدية لمصلحة البريد الحكومية ، المراسلات والركائب الخاصة بخدمة الخط الحديدي دون غيرها من الخدمات ، ولكن بشرط أن تخضع المراسلات والركائب لمراقبة موظفي إدارة البريد طبقاً للقواعد المتبعة . أما الخطابات الشخصية المتعلقة بموظفي ومستخدمى الشركة .. فنؤخذ عليها رسوم البريد المقررة . وللشركة أن تحمل فقط خطابات شخصية من هذا النوع على خطوطها الحديدية ، ولكن عليها أن تخضع في هذا الصدد للشرط الواردة في لوائح نقل البريد في داخل أراضي الدولة العثمانية . وتقرر أيضاً أن تنقل الشركة مجاناً الفحم وزيت تشحيم الآلات ومائر المهمات، التي تحتاج إليها من أجل بناء أو صيانة أو تشغيل الخطوط الحديدية . (٣٢م)

تنظيم عملية النقل البحرى بين ضفتى البوسفور الآسيوية والأوروبية :

ونص على أن تتولى الحكومة العثمانية تنظيم خدمة الخط، الذى يربط محطة حيدر باشا على الساحل الآسيوى للبوسفور بكل من سركدجى Sirkedgi وكوبرى كاركوى Kara-keni على الساحل الأوروبى للبوسفور، على أن تقوم «المصلحة المخصوصة» بهذه الخدمة بواسطة ثلاثة قوارب جديدة، لاتقل سرعتها عن أربعة عشر ميلاً فى الساعة . فإذا لم تقم

المصلحة المخصوصة، - في خلال سنة من تاريخ تبادل وثائق هذا العقد بتنظيم الخدمة وفقاً للشروط المذكورة آنفاً .. فإن الشركة يكرن لها الحق في نقل الركاب والبضائع بين الموقعين المذكورين، بشرط أن تختار طاقم قواربها من الضباط المتقاعدين ورجال الأسطول العثماني، أو من طلبة المدرسة البحرية الذين يصلحون لهذا العمل، وتقوم قوارب الشركة بمهمتها بدلاً من المصلحة المخصوصة، حين تكون الشركة قائمة فعلاً وبمفردها وبدون غيرها بمهمة النقل المذكورة . وتدفع الشركة للمصلحة المخصوصة كل عام مبلغاً يوازي ٥٠٪ من الإيرادات الإجمالية الناجمة عن نقل الركاب والبضائع بين الموقعين المذكورين آنفاً .

ويخصم من هذه الإيرادات الإجمالية:

(١) مصاريف التشغيل .

(٢) قسط سنوي يوازي ٨,٣٠٪ من رأس المال المخصص لشراء القوارب .

وبعد خصم هذين المبلغين ينقل الإيراد المتبقى إلى الإيرادات الإجمالية للخطوط الحديدية الجديدة المشمولة بضمان الحكومة (م٣٣) .

وتقرر أن تنظر المحاكم العثمانية في أي نزاع ينشأ بين الحكومة والشركة أو بين الشركة والأفراد العاديين بسبب تنفيذ هذا العقد أو تفسير مواده ، وتقرر أيضاً أن تكون مراسلات الشركة مع المصالح الحكومية باللغة التركية تأسيساً على أن الشركة عثمانية الجنسية ، وأن اللغة التركية هي اللغة الرسمية للحكومة الإمبراطورية العثمانية (م٣٤) .

ضمان مالي حكومي لأصحاب الإمتياز :

الضمان الكيلومتري وكيفية سداذه :

وتضمن الحكومة العثمانية لأصحاب الامتياز مبلغاً سنوياً ، قدره أحد عشر ألف فرنك عن كل كيلو متر من الخط الحديدي تم مده وتم تشغيله ، وكذلك مبلغ أربعة آلاف وخمسمائة فرنك في السنة كمصاريف تشغيل عن كل كيلو متر من الخط الحديدي يصير تشغيله .

وتواجه الحكومة العثمانية التزامها بالمبلغ الأول بعقد قرض بفائدة ٤ ٪ في السنة، ويستهلك في أثناء فترة الامتياز عن طريق قسط استهلاك سنوي محددة نسبته المئوية في عقد الامتياز ، وعلى ذلك يكون لأصحاب الامتياز الحق في مبلغ اسمي، يصل إلى ٢٦٩,١١٠ فرنكاً و ٦٥ سنتيماً من هذا القرض الحكومي عن كل كيلو متر تم مده وتم تشغيله . ولا يكون لأصحاب الامتياز الحق بعد ذلك في طلب مبالغ أخرى بهذا الخصوص من الحكومة العثمانية ، ومع ذلك فقد تقرر أن تحتفظ هذه الحكومة بحقها في أن تجري تعديلاً في أي وقت على نظام دفع الأقساط السنوية المقدرة على أساس الكيلو مترات، التي تم مدها وتشغيلها والمنصوص عليه في

الفقرة الأولى من هذه المادة (٣٥) . وعندما تنشط حركة سير القطارات وتزداد الإيرادات، ويصبح المركز المالي لأصحاب الامتياز من القوة بحيث يسمح لهم بإصدار سندات خاصة بهم تحمل محل السندات التي أصدرتها لهم الحكومة العثمانية .. فإنهم يتخذون الإجراءات لعقد اتفاق مع الحكومة العثمانية يستهدف تحقيق هذا الترتيب الجديد .

وعن القسم الأول من الخط الحديدي ، وطوله ٢٠٠ كيلو متر ، بعد قونه .. فإن القيمة الاسمية للصكوك التي تصدرها الحكومة العثمانية لأصحاب الامتياز تحدد بمبلغ ٥٤ مليون فرنك . وبمجرد صدور مرافقة الحكومة العثمانية بصفة نهائية على هذا القسم ، وتم تحديد طوله .. فإن القيمة الاسمية للصكوك المستحقة لأصحاب الامتياز عن هذا القسم تحتسب بسعر ٢٦٩، ١١٠ فرنكا و ٦٥ سنتيما بالضبط عن كل كيلو متر ، وإذا كانت هناك أى زيادة عن هذا المبلغ ، فحسب على أساس سعر الإصدار مضافاً إليها فائدة ٤ ٪ تحسب حتى تاريخ السداد ، ويدفع أصحاب الامتياز هذا المبلغ نقداً في خزانة الحكومة للعثمانية .

وتقرر في المادة ذاتها أيضاً أن تضمن شركة سكة حديد الأناضول العثمانية للحكومة إنشاء القسم الأول المذكور آنفاً وطوله ٢٠٠ كليو متراً ، ويظل هذا الضمان قائماً إلى أن ينتهي العمل تماماً في هذا القسم . وإذا رأت الحكومة العثمانية أنه من الضروري أن تطلب من شركة سكة حديد الأناضول ضماناً لأقسام أخرى من الخط الحديدي .. فإن الشركة تقبل تقديم هذا الضمان .

أما عن المبلغ الثاني الذي تلزم الحكومة العثمانية بدفعه سويلاً لأصحاب الامتياز ، وهو ٤،٥٠٠ فرنك بمطالبة مصاريف تشغيل عن كل كيلو متر يتم استخدامه ، فالحكومة تضمن تقديمه لأصحاب الامتياز طبقاً لاتفاق خاص يبرم لكل قسم من أقسام الخط ، في الوقت ذاته ، مع الاتفاق الذي يعقد لتنظيم دفع القسط السنوي وهو ١١،٠٠٠ فرنك عن كل كيلو متر .

وفيما يتعلق بالقسم الأول من الخط ، والواقع بعد قونه وبالبلغ طوله ٢٠٠ كيلو متراً ، فإن مبلغ ٤،٥٠٠ فرنك الذي تلزم الحكومة العثمانية بدفعه سويلاً عن كل كيلو متر كمصاريف تشغيل ، يكفل سداده من الزيادة أو الفائض الناتج عن الضمانات ، التي خصصت من قبل لشركة حديد الأناضول العثمانية .

أما دفع فوائد السندات التي تصدرها الحكومة العثمانية من أجل المبلغ ، الذي تتعهد بأدائه سويلاً وهو ١١،٠٠٠ فرنك عن كل كيلو متر يتم مده ويتم تشغيله .. فإن سداد هذه الفوائد مكفول من الأبواب الخاصة في الميزانية ، التي يتفق عليها مع الحكومة العثمانية ، قبل أن يبدأ العمل في كل قسم من أقسام الخط الحديدي .

وتضمن شركة سكة حديد بغداد - لحملة السندات الخط من قونه إلى الخليج (الفارسي) وفروعه وسائر عرياته المتحركة ، ويكون هذا الضمان من جانب الشركة ضماناً ثابتاً ودائماً

بحيث لا تتنازل عنه أو تلغيه . كما تخصص الشركة للفرض نفسه نصيبها في إيراد هذا الخط بعد دفع مصاريف التشغيل ، ولكن لا يحق لحملة السندات أن يندخلوا في إدارة الشركة .

وتقوم الشركة سنوياً بدفع نصيبها في إيراد الخط - بعد خصم مصاريف التشغيل - إلى مصلحة الدين العام العثماني لحساب السندات . وترد الحكومة العثمانية للشركة أى مبالغ تكون الشركة قد دفعتها تحت هذا البند ، وسوف تخصص الحكومة العثمانية لحاملي سندات نصيبهم من إجمالى أرباح هذا الخط .

تقسيم الأرباح بين الحكومة والشركة :

إذا زاد الإيراد الإجمالى للخط الحديدى على ٤,٥٠٠ فرنك عن كل كيلو متر، ولم يتجاوز ١٠,٠٠٠ فرنك.. فإن المبلغ الزائد على ٤,٥٠٠ فرنك يذهب كله إلى الحكومة العثمانية .

وإذا تجاوز الإيراد الإجمالى عشرة آلاف فرنك عن كل كيلو متر ، فإن الجزء الأول من هذا الإيراد ، وهو لغاية عشرة آلاف فرنك ، يقسم دائماً بين الحكومة والشركة على النحو الذى سبق توضيحه . أما الزيادة التى تتجاوز عشرة آلاف فرنك، فتأخذ الحكومة العثمانية منها ٦٠٪ وتأخذ الشركة ٤٠٪ .

وإذا لم يصل الإيراد الإجمالى للخط الحديدى إلى ٤,٥٠٠ فرنك فى السنة عن كل كيلو متر ، تسدد الحكومة العثمانية هذا النقص أو العجز ؛ بمعنى أنها تدفع إلى أصحاب الامتياز مبلغاً ، يرتفع بالإيراد الإجمالى إلى ٤,٥٠٠ فرنك عن كل كيلو متر .

تسيير قطارات سريعة :

يتولى أصحاب الامتياز على نفقتهم تنفيذ كل التحسينات فى الخطوط الحديدية ، التى تم إنشاؤها من قبل وتمتد من حيدر باشا إلى أنقرة وإسكى شهر إلى قونية ، وهى تحسينات تستهدف تشغيل وخدمة قطار سريع - إكسبريس ، ولكن لا تتجاوز النفقات ثمانية ملايين من الفرنكات .

وفى مقابل هذه النفقات، ومن أجل مواجهة الأعباء الاستثنائية الجديدة الناجمة عن مصاريف تشغيل قطارات سريعة - إكسبريس .. تخصص الحكومة العثمانية لأصحاب الامتياز المبلغين الآتيين، ويتم سدادهما على النحو التالى :

(١) قسط سنوى يبلغ ٣٥٠,٠٠٠ فرنك لمدة ثلاثين سنة كفائدة ومال استهلاك بالنسبة لرأس المال المذكور وقدره ثمانية ملايين من الفرنكات ، ويدفع هذا القسط السنوى عند الشروع فى أعمال التحسينات .

(٢) قسط سنوى يبلغ مقداره ثلاثمائة وخمسين ألف فرنك من أجل إدخال القطارات السريعة . ولايستحق هذا القسط الدفع إلا إذا وصل الخط الحديدى الرئيسى إلى حلب ، وتدفع الأقساط السنوية المنصوص عليها فى هذه المادة (٣٧) إلى شركة سكة حديد الأناضول الثمانيانية .

خط فرعى إلى ديار بكر :

وتقرر أن يتولى أصحاب الامتياز إنشاء وتشغيل خط فرعى يبدأ من خط قونية - البصرة وينتهى فى ديار بكر ، وأن يقوموا بهذا العمل حالما تطلب منهم الحكومة العثمانية تنفيذه ، وبالشروط الواردة نفسها فى هذا الاتفاق (٣٨م) .

وتقرر أن تكون مدينة حلب هى مركز الاتصال بين خط دمشق - حماه ، وامتداداته والخط الحديدى موضوع هذا الاتفاق (٣٩م) .

أحكام عامة :

وتقرر أن يعرض أصحاب الامتياز على وزارة الأشغال العمومية فى خلال شهر يناير - كانون ثان - من كل عام كشفاً بالإيرادات، بعد أن تكون قد راجعته ووافقت عليه اللجنة الحكومية . ويكون هذا الكشف هو الأساس الذى تحدد عليه المبالغ التى تخص الحكومة العثمانية، والمبالغ التى تخص الشركة طبقاً للمادة ٣٥ من هذا العقد .

وبمجرد أن يتحدد نصيب الحكومة العثمانية من هذه الإيرادات، تقوم شركة سكة حديد بغداد بإيداع هذا النصيب فى مصلحة الدين العام العثمانى لحساب السندات، التى تصدرها الحكومة .

إنشاء خط فرعى مؤقت من ميناء إستانبول إلى حميدية :

ويكون لأصحاب الامتياز الحق فى إنشاء خط فرعى مؤقت بين ميناء إستانبول وحميدية لاستخدام هذا الفرع فى نقل المواد، التى يحتاج إليها فى إنشاء الخطوط الحديدية . وبعد الفراغ نهائياً من مد جميع الخطوط الحديدية المنصوص عليها فى هذا العقد... يتعين على أصحاب الامتياز رفع القضبان الحديدية المتصلة بهذا الخط الفرعى المؤقت، إذا تقدمت الحكومة العثمانية بمثل هذا الطلب . ومن المتفق عليه أنه أثناء التشغيل المؤقت لهذا الخط الفرعى، لاتدفع الحكومة العثمانية قسطاً سنوياً أو نفقات تشغيل عن استخدام هذا الخط الفرعى (٤١م) .

عدم منح الشركة مساحات شاسعة من الأراضى :

وحرصت الحكومة العثمانية على عدم منح الشركة مساحات شاسعة من الأراضى بحجة الحاجة إليها فى مد للخطوط الحديدية وإقامة المحطات والمخازن ومكاتب للموظفين

ومساكن لهم وغير ذلك من منشآت؛ حتى لا تستغل مثل هذه المساحات الواسعة من الأرضى فى قابل الأيام فى الضغط على الحكومة العثمانية لبيعها لها بأسعار مرتفعة خيالية أو لانتزاع امتيازات مجحفة بحقوق الدولة، كما حدث فى عقدى الامتياز، اللذين أصدرهما محمد سعيد باشا والى مصر إلى فرديناند دى لسبس فى سلتى ١٨٥٤، ١٨٥٦ لتأسيس شركة تقوم بحفر واستغلال قناة السويس لمدة تصل إلى تسع وتسعين سنة .. ولذلك نصت المادة الثانية والأربعون من عقد الامتياز الذى أصدرته الحكومة العثمانية على أن الأرضى والمهاجر التى تنزع ملكيتها طبقاً للمادة السادسة من هذا العقد، تكون مساحتها محدودة إلى حد الضرورة لما يتطلبه إنشاء الخط الحديدى وما يتصل به ، بمعنى أن الأرضى لن تكون ذات مساحة أكثر مما تتطلبه الحاجة الفعلية للعمل ، ويتم إجراءات نزع الملكية تحت إشراف وزارة الأشغال العمومية (٤٢م) .

مكافحة التهريب الضريبى والجمركى :

واحتاطت الحكومة العثمانية لمنع التهريب من دفع الضرائب والرسوم الجمركية تحت ستار الإعفاءات الضريبية والجمركية المقررة على المهمات، التى تستوردها الشركة من الخارج لاستخدامها فى إنشاء الخطوط الحديدية طبقاً للمادة الثامنة من عقد الامتياز .. ولذلك ورد نص لاحق على إخضاع هذه المهمات عند دخولها لتفتيش موظفى مصلحة الجمارك (٤٣م) .

وتقرر أن يعرض أصحاب الامتياز على وزارة الأشغال العمومية الرسوم الخاصة بالمخازن والمستودعات التى تقام فى أفنية المحطات وأن يتألفوا موافقة الوزارة عليها ، وأن يكون استخدام هذه المخازن والمستودعات مقصوراً على تخزين البضائع التى تنقل بعد حين (٤٤م) .

مادة عسكرية هامة :

وتضمن عقد الامتياز مادة عسكرية هامة، جاء فيها أنه يجب على أصحاب الامتياز أن يشيدوا على نفقتهم وبكاليف إجمالية لا تزيد عن أربعة ملايين من الفرنكات محطات عسكرية ترى وزارة الحربية أنه من الضرورى إقامتها . ويعقد اتفاق بين أصحاب الامتياز ووزارة الحربية، يحدد فيه عدد ومواقع وأنظمة هذه المحطات، وكل شيء يتصل بها (٤٥م) .

The concessionnaires must erect, at their own expense and up to a total outlay of 4.000.000 fr., such military stations as may be deemed necessary by the Ministry of War. The number, the site, and arrangements of these military stations and everything appertaining thereto shall be settled by agreement between the concessionnaires and the Ministry of War.

الفصل الثامن

مشروع الجناح الآسيوى لطريق ب. ب. ب الحديدى بين الدولة العثمانية وألمانيا وبريطانيا والروسيا وفرنسا

ترحيب بشويه التحفظ لبريطانيا بالمشروع :

بصدور عقد الامتياز سنة ١٩٠٣ لشركة ألمانية لإنشاء سكة حديد تمتد فى الأناضول وشمالى الشام وتجتاز العراق طولاً لتنتهى عند الخليج العربى كسبت ألمانيا الجولة الأولى . ولكن الرأى العام فى بريطانيا أول الأمر كان معارضاً للمشروع أو متخوفاً من انتشار النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانية . وكان من المسلم به أن هذا النفوذ سيزداد عمقاً واتساعاً بمد الخط الحديدى فى الأناضول وشمالى بلاد الشام والعراق بطوله حتى الخليج العربى . ولعل الرأى العام البريطانى لم يكن قد وقف إلى ذلك الوقت على مايمكن أن يصل إلى حجم هذا النفوذ فى قابل الأيام ، بل على النقيض من ذلك كله كان الرأى العام البريطانى يرى أن النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانية كئيل بوقف التوسع الروسى فى منطقة الشرق الأوسط ، على حساب الممتلكات العثمانية .

ظهور المعارضة البريطانية للمشروع واشتدادها :

ومالبث أن استبان رويداً رويداً لعدد كبير من الهيئات فى بريطانيا أن طريق ب. ب. ب. الحديدى المزمع إنشاؤه ، يحمل فى طياته مناقسة خطيرة لقناة السويس ، ويصيب مصالح بريطانيا بأضرار فادحة فى منطقة الشرقين الأدنى والأوسط . وكان من بين هذه الهيئات شركات الملاحة البحرية وغرف التجارة والصحافة وغيرها . رأى أصحاب شركات الملاحة أن الخط الحديدى سوف يمتص جانباً كبيراً من التجارة التى تنقل عبر قناة السويس . وإذا كانت هذه القناة ستظل الشريان الرئيسى لنقل البضائع ذات الوزن الثقيل أو للحجم الكبير .. فإن الطريق الحديدى سيجذب إليه المسافرين والبريد والبضائع ذات الوزن الخفيف ، ولتى يراد شحنها سريعاً ، وبالتالى .. فإن مد لخط الحديدى يقلل من نشاط حركة الملاحة فى قناة السويس ، مما يودى إلى هبوط إيرادات شركات الملاحة . ومن ناحية أخرى تتأثر موازنة الحكومة البريطانية ؛ لأنه تدخل فى عناصر هذه الموازنة أرباح أسهمها فى شركة قناة السويس . وكانت الحكومة تمكّ عدداً ضخماً للغاية من الأسهم اشترتها من الحكومة المصرية سنة ١٨٧٥ على عهد للخديو إسماعيل ، وكان أعضاء الغرف التجارية فى بريطانيا يخشون مزاحمة

البضائع الألمانية لمثيلاتها المصنوعة فى إنجلترا ؛ لأن أصحاب الامتياز الألمان فى الخط الحديدى قد يقررون أجوراً منخفضة لشحن منتجات بلادهم بالطريق الحديدى ، فى الوقت الذى لا تنظر فيه المنتجات البريطانية بمثل هذا التخفيض ؛ مما يعرض المصالح الاقتصادية البريطانية لأضرار فادحة . وكان مرور لخط الحديدى فى العراق ، من شماليه إلى جنوبيه ، مؤنناً بزوال النفوذ البريطانى المتفوق فى هذا الإقليم أو على أحسن الفروض الحد من هذا النفوذ . وعلى سبيل المثال كانت هناك شركة بريطانية تتولى عمليات النقل البخارى فى نهر دجلة ، وكان مصيرها العاجل أو الآجل هو الإفلاس أمام منافسة لخط الحديدى .

أسباب معارضة بريطانيا للمشروع :

أما الحكومة البريطانية فكان أشد ما أزعجها من مشروع الجناح الآسيوى لطريق ب. ب. الحديدى ، هو امتداد هذا الخط إلى ساحل الخليج ، إذ كان هذا الامتداد يتيح لألمانيا فرصة ذهبية للوصول إلى البحر وإنشاء ميناء بحرى ، يتحول بعضى الوقت إلى قاعدة بحرية ألمانية فى منطقة للخليج . وكانت بريطانيا تنظر إلى الخليج على أنه البوابة البحرية للهند من ناحية ، وللعراق من ناحية أخرى ؛ مما يقضى على سيطرتها الانفرادية على الخليج ، ويؤدى إلى اهتزاز نفوذها العسكرى والسياسى والتجارى فى الهند ، وتضاؤل نفوذها المتفوق فى العراق ، وتهديد مركزها فى قناة السويس . وسيطر على رجال السياسة والاقتصاد فى بريطانيا الاعتقاد أن ألمانيا لن تنفع بإيصال الخط الحديدى المقترح إلى مياه الخليج ، بل ستكون الخطوة التالية أو التكميلية ، التى ستقدم عليها ألمانيا فى قابل الأيام هى إنشاء خط للملاحة البحرية الألمانية ، يبدأ من نهاية الخط فى الكويت إلى بمباى فى الهند بهدف احتكار التجارة وشحن بضائع ونقل المسافرين من الهند على السفن الألمانية إلى الكويت ، ثم بالطريق الحديدى إلى الشرق الأوسط وأوروبا . وسيكون من الصعب على السفن التجارية البريطانية منافسة السفن الألمانية فى هذا المجال لأن الأخيرة ستجد تأييداً من شركة سكة حديد الأناضول صاحبة الامتياز بإنشاء الطريق الحديدى . ومما ساعد على ترسيخ هذا الاعتقاد فى أنهما البريطانيين أن السفن الألمانية كانت تبدى نشاطاً متزايداً فى عمليات النقل التجارى فى مياه الخليج .. فقد أنشأت شركة الونكهاوز سنة ١٩٠١ خطاً ملاحياً من هامبورج ، ويمر بعدن إلى مسقط وسائر موانئ الخليج ، كما أنشأت شركة ملاحية هامبورج عدة خطوط تجارية بين ألمانيا ومختلف موانئ الخليج وعينت مندوبين لها فى جزر البحرين^(١) . كما كثر تردد السفن الحربية الألمانية على بعض موانئ الخليج ومنها الكويت فى أثناء رحلاتها بين ألمانيا والصين والإقيانوسية . وعلى ذلك لم تعد الروسية ، بل أصبحت ألمانيا هى مصدر الخطر العظيم الذى يهدد مصالح الإمبراطورية البريطانية . فظهرت إلى المشروع من هذه الزاوية نظرة قلق شديد ، فالخط الحديدى سيكون

(1) Wolf John B., Diplomatic History of the Baghdad Railway.

تحت سيطرة الدولة العثمانية وألمانيا ، وسوف تتحكم فيه هاتان الدولتان . وكانت بريطانيا تنظر إلى نفوذ الدولة العثمانية في الكويت والأحساء ومصب شط العرب والعراق على أنه نفوذ غير ذي خطر . ولكنها لما وجدت أن ألمانيا تقترب من هذه المناطق في مشروع الخط الحديدي بدأ شبح الخطر يتجسد لها ^(١) ، كان أكثر من تسعين في المائة من السفن التي تدخل شط العرب تحمل العلم البريطاني . وكان نحو ستين في المائة من مبادلاتها التجارية يتم معها ، وفضلاً عن ذلك كانت القنصلية البريطانية في بغداد قد اكتسبت مكانة خاصة ووضعا ممتازا لا مثيل لهما في سائر القنصليات .. كانت لها حامية عسكرية تتألف من خمسة وعشرين جندياً وضابطاً ، وكانت ترسو أمام دار القنصلية في نهر دجلة سفينة خاصة بها مسلحة ، وعليها خمسة وعشرون بحاراً وضابطاً .. فكانت بريطانيا قد اكتسبت في هذه الجهات نفوذاً سياسياً واقتصادياً كبيراً جداً ، وكان هذا النفوذ يزداد ويقوى بمضى الأيام ^(٢) .

صراع سياسي دولي على الكويت كمحطة نهائية للخط الحديدي :

برز اسم الكويت في السياسة العالمية منذ أخذ القرن التاسع عشر يلفظ أنفاسه الأخيرة؛ بسبب مشروع الجناح الآسيوي لطريق ب. ب. ب. الحديدي ، وأصبحت الكويت محوراً لصراع سياسي احتدم بين الحكومات العثمانية والبريطانية والألمانية والروسية والفرنسية . وقد أجمع المختصون من كافة الجنسيات على أن الكويت هي المكان الوحيد المناسب لتكون المحطة النهائية للخط الحديدي ، إذا أريد مده إلى مياه الخليج . وكثر ذكر الكويت في الوثائق المتعلقة بذلك الفترة كثرة غزيرة ملفقة لنظر الباحثين ، بحيث أصبح في حكم الاستحالة للتعرض لموضوع الجناح الآسيوي لطريق ب. ب. ب. الحديدي ، دون الإشارة إلى بعض المظاهر الرئيسية والبارزة في هذا الصراع .

مميزات الكويت :

تتمتع الكويت بمركز جغرافي له أهميته ، فهي تقع على رأس الخليج العربي . وقريبة من البصرة إما يناهز ٨٠ ميلاً ، وتقع على الساحل الجنوبي لخليج صغير يبلغ طوله عشرين ميلاً وعرضه خمسة أميال ، وتحيطه جزيرتان صغيرتان ، جعلتا منه ميناء طبيعياً صالحاً لرسو السفن ؛ إذ كان عمقه يتراوح ما بين أربعة وعشرين وست وخمسين قدماً . وعلى الرغم من أن تعداد الكويت كان في مطلع القرن العشرين زهاء ١٥,٠٠٠ نسمة ، فقد تمت منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وغدت لها أهمية تجارية في منطقة الخليج حتى أطلق عليها «مارسيليا الشرق» ^(٣) .

(١) نكتور بليغ الشريف : دراسات في النهضة العربية الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٥-٢٦٨ .

(٢) سامح المصري : البلاد العربية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٥ .

(٣) نكتور سيد رجب حراز ، دولة العثمانية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧١ .

لأصحاب هذه السفن ألا يفرض عليهم ضرائب أو رسوماً جمركية (١) . وقد قبل عبدالله ابن صباح شيخ الكويت (١٨٦٦-١٨٩٢) لقب «قائمقام» الممنوح له من عبدالعزيز سلطان الدولة العثمانية سنة ١٨٧١ ، كما اشترك في الحملة التي نظمها محدث باشا ضد الدولة السعودية في الأحساء ونجد ، وقد ظفر عبدالله بتقدير الدولة العثمانية بسبب المساعدات التي قدمها لحملة نافذ باشا على الأحساء ، ثم لمعاونته السلطات العثمانية على إخماد معظم الثورات التي اندلعت ضد الحكم العثماني في القطيف والأحساء فمحتة الدولة أراض واسعة على شاطئ الفرات بالقرب من الفار (٢) . وفي سنة ١٨٧٥ رفعت مدينة البصرة من درجة «متصرفية» إلى ولاية مستقلة عن ولاية بغداد ، وأصبحت الولاية الجديدة تضم صنجق الكويت ومتصرفية الأحساء ، وتمتد إلى مدينة البليضاء في شبه جزيرة قطر . ولما توفي الشيخ عبدالله آل صباح سنة ١٨٩٢ خلفه أخوه محمد ولم يمتد حكمه أكثر من أربع سنوات ، إذ تعرض في ١٧ من شهر مايو - آيار - سنة ١٨٩٦ لحادث اغتيال من أخيه الشيخ مبارك آل صباح ، الذي قتل أيضاً شقيقاً له اسمه جراح ، واستولى على السلطة دون حصوله على موافقة السلطان عبدالحميد الثاني . وأدرك مبارك أن مركزه محفوف بالأخطار . فقد سعى أبناء الشيخ القتل وأصهاره لدى حمدي باشا وإلى البصرة يحرصونه على إرسال حملة عسكرية لعزل الشيخ مبارك ، وشكّن أحد أبناء القتل من الاستيلاء على الحكم . ووقف مبارك على هذا التآمر ، فتوود إلى رجب باشا وإلى بغداد بالهدايا محاولاً استمالته إلى جانبه . ونجحت محاولة مبارك ، إذ كتب رجب باشا إلى الباب العالي يقول إن ماحدث في الكويت لا يستحق إرسال حملة عسكرية إليها ، لأن مقتل محمد وجراح ليس إلا حادثاً عادياً مألوفاً بين البدو ، وكان السلطان عبدالحميد الثاني كريماً مع الشيخ مبارك آل صباح ، فتناسى الجريمة التي أقدم عليها بقتل شقيقه وأخيه ، وتناسى أنه اغتصب السلطة وأقام نفسه حاكماً على الكويت ، دون أن يحصل على موافقة السلطان على تعيينه في هذا المنصب . وتلقى في شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٩٧ محسن باشا الذي خلف حمدي باشا والياً على البصرة في خريف ذلك العام برفقة من الباب العالي ، تفيد صدور «إرادة» سلطانية ، بتعيين الشيخ مبارك آل صباح حاكماً على الكويت ، وأن يكون لقبه «قائمقام» وأن يكون تابعاً لوالى البصرة ، وأن يرفع العلم العثماني على أراضى الكويت .

نخرج من هذا العرض السريع للوضع السياسي للكويت بحقيقة مهمة لا تغفل جداً ، هي أن الشيخ مبارك آل صباح تولى حكم الكويت وهي خاضعة للسيادة العثمانية ، وأنه وافق على هذه السيادة ، ووافق على لقب «قائمقام» الممنوح له من السلطان عبدالحميد الثاني ، لأن

(١) نكتور جمال زكريا قاسم : الخليج العربي إلخ (١٨٤٠-١٩١٤) مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٦ .

(٢) نكتور عبدالعزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث إلخ ، ص ٤٠٤-٤٠٦ ، ٤١٢-٤٣٦ .

ونكتور السيد رجب حراز ، الدولة العثمانية إلخ ، ص ١٧١ .

الشيخ مبارك هو الذى أرسى قواعد السياسة التى سار عليها هو وخلفاؤه من بعده ، وهى الاتجاه إلى بريطانيا كلما أهدق بالكوييت خطر من الدولة العثمانية أو من البلدان المجاورة .. فقد طلب مبارك أكثر من مرة فى سنوات ٢٨٩٦ ، ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ من بريطانيا وضع بلاده تحت الحماية البريطانية ، وكانت بريطانيا تعتذر فى كل مرة ؛ لأن السياسة البريطانية لا تخطو خطوة إلا فى ضوء مصالحها . وكانت لا تريد أن تزج بنفسها فى منازعات عائلية أو مشكلات محلية ، ولأن التنافس الدولى على الكوييت لم يكن قد ظهر بعد . فلما تجسم هذا التنافس أمام مشروعات الروسيا وألمانيا وتهددت المصالح البريطانية ، سارعت بريطانيا إلى عقد معاهدة مانعة مع مبارك سنة ١٨٩٩ ، وأصبحت بها الكوييت تحت حماية بريطانية مستترة . ولم يقع مبارك بهذا النوع من الحماية فطلب فى سنة ١٩٠١ إعلان هذه الحماية سافرة . واعتذرت الحكومة البريطانية عن عدم الاستجابة لطلبه نظراً لما يثيره مثل هذا الإعلان من مشكلات لها مع الدولة العثمانية ومع غيرها من الدول المهتمة بمنطقة الخليج . وإذا كان مبارك قد أظهر فى بعض الأوقات نوعاً من الولاء للسلطان العثمانى .. فقد كان هذا الولاء زائفاً ، أراد به أن يلتصق له مخرجاً من أزمة قد تطيح به . لقد كان مبارك فى قرارة نفسه عميلاً مخلصاً لبريطانيا ، لصيقاً بها ، مطواعاً فى تنفيذ أولامرها . ونعود الآن إلى استئناف شرح موقف بريطانيا من الصراع السياسى الدولى ، الذى تصاعد حول الكوييت بسبب مشروع الجناح الآسيوى لطريق ب.ب.ب الحديدى ، وأريد إيصاله إلى مياه الخليج .

ولم يكن فى مقدور بريطانيا أن تعترض على مشروع الجناح الآسيوى لطريق ب.ب.ب . ب الحديدى من أساسه ، وكانت قد مرت بتجربة مماثلة فى الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر . بعد أن منح محمد سعيد باشا والى مصر عقد الامتياز الأول فى ٣٠ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٨٥٤ إلى فريديناند دى لسبس بتأسيس شركة ، تقوم بحفر قناة بحرية فى برزخ السويس ، واستغلال هذه القناة لمدة تسع وتسعين سنة . وعلى الرغم من الموقف العدائى العنيف الذى اتخذته الحكومة البريطانية من المشروع ، تحطمت معارضتها بمعنى السنوات أمام التيارات السياسية الدولية التى أحاطت بالمشروع وأصبحت قناة السويس حقيقة واقعة . ولكن الحكومة البريطانية كانت تتخفى أن تكون العقبات المالية سبباً كافياً لتوقف مشروع الجناح الآسيوى لطريق ب.ب.ب الحديدى ؛ لأن مد هذا الخط كان يتطلب رؤوس أموال ضخمة جداً . ولذلك أخذت معارضتها للمشروع يادى ذى بدء صورتين : إحداها مالية والأخرى سياسية . أما الصورة المالية فكانت تتمثل فى منع رؤوس الأموال البريطانية ورجال المال فى الدولة المتحالفة معها من الإسهام فى تمويل المشروع ، كما رفضت الموافقة على زيادة الرسوم الجمركية فى الدولة العثمانية لحرمان الحكومة من أى حصيلية جديدة توجهها لتمويل المشروع . أما الصورة السياسية فأخذت صوراً شتى ، منها : فرض معاهدة مانعة على

الكويت سفتكلم عنها ، ودعم سيطرتها على هذا الإقليم ، وتكوين جبهة معارضة دولية للمشروع تألفت من بريطانيا وفرنسا والروسيا ، وهى دول الوفاق الثلاثى ، ولكنها واجهت خصماً عنيفاً ، هو وليهم الثانى إمبراطور ألمانيا الذى أصدر إصراراً شديداً على تنفيذ الجناح الآسيوى لمشروع طريق ب. ب. ب ؛ بحيث أصبح هذا المشروع إحدى المشكلات الكبرى التى واجهتها خمس دول كبرى فى عالم ما قبل الحرب العالمية الأولى وأدى إلى تعميق الصراع بينها .. فعمدت الدبلوماسية البريطانية إلى وسيلة أخرى لمعارضة المشروع تسلبه أهم مميزاته بعدم إيصال الخط الحديدى إلى مياه الخليج ، فنجأت إلى تجزئة الخط الحديدى إلى أقسام ، وعالجت كل قسم فى ضوء مساسه بالمصالح البريطانية . كان أخطر جزء فى المشروع هو القسم الذى يمتد من البصرة إلى ساحل الخليج للأسباب التى سبق أن ذكرناها ، ولذلك رأت بريطانيا أن تمنع إنشاء هذا القسم من الخط الحديدى مهما كلفها الأمر .. أما القسم الثانى من البصرة وبغداد إلى شمالى العراق ، فقد أبدت عليه تحفظات مهمة لخليفه من احتكار ألمانيا ، وعدم مزاحمة البواخر البريطانية التى تجرى فى أنهار العراق .

أما القسم الثالث من الموصل إلى الأناضول .. فلم يكن موقع اعتراضات أو خلافات^(١) .

المطامع الروسية فى الكويت :

وإلى جانب الأخطار التى كانت تهدد المصالح البريطانية فى الكويت من جانب ألمانيا ، بسبب الخط الحديدى ، لاحت فى الأفق السياسى أخطار من جانب روسيا أيضاً ؛ إذ أبدت الأخيرة رغبتها فى إنشاء مركز لها فى الكويت ؛ بحجة اتخاذها مستودعاً للفحم تتزود به السفن الروسية التى ترفأ إلى موانئ الخليج . وكان لورد كيرزون من أشد المعارضين لهذا المشروع الروسى وهاجمه هجوماً عنيفاً سبق أن أشرنا إليه^(٢) . وكان معروفاً عنه اهتمامه الشخصى العميق بمنطقة الخليج منذ كان سفيراً لبلاده فى فارس ، واستبد به القلق على المصالح البريطانية عندما تقدم سنة ١٨٩٨ الكونت فالاديمير كابتيست Valadimir Kaptist ، وهو من كبار رجال الأعمال الروس ، وإحدى الشخصيات ذات النفوذ فى بلاد قيصر روسيا ، وشقيق السفير الروسى فى قزوين ، إلى السلطان عبد الحميد الثانى بمشروع مد خط حديدى ، يبدأ من إسكندرون أو طرابلس الشام على ساحل البحر المتوسط ويمر بالعراق وينتهى عند الخليج العربى^(٣) . وعلى الرغم من أن عبد الحميد الثانى أحال المشروع إلى وزير الأشغال لدراسته ،

(١) ساطع الحمصرى : الدولة العثمانية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٦-١٩٧ .

(٢) انظر فى هذه الدراسة ج ٢ ، الفصل التاسع .

(3) Barle E.M., Turkey etc; op. cit., p. 58.

Wilson Sir A.T., The Persian Gulf. An Historical Sketch from the earliest times to the beginning of the twentieth century. London, 1959. p. 252.

لم يرحب السلطان بهذا المشروع؛ لأنه خشى أن يكون بداية لنفوذ الروس، الذين كانوا يحاولون التوسع جنوباً إلى أفغانستان وفارس ومنطقة الخليج (١).

الحاكم العام للهند يقترح وضع الكويت تحت الحماية البريطانية :

وفى مذكرة سرية بحث بها لورد كيرزون الحاكم العام للهند فى ١٩ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٨٩٨ إلى لورد جورج هاميلتون George Hamilton، وزير الهند فى وزارة لورد سالزبرى الثالثة اقترح فيها بسط للحماية البريطانية على الكويت . وعزز اقتراحه بقوله إن الشيخ مبارك آل الصباح قد طلب هذه الحماية أكثر من مرة، ولذلك فهو سيرحب بهذه الحماية ، وإن الكويت لا تدخل فى نطاق الممتلكات العثمانية ، ولم تتأكد السيادة العثمانية على الكويت بصورة فعلية (٢) ، وليست فيها قوات عثمانية ، ولا تؤدى الكويت جزية إلى السلطان العثمانى . ومضى لورد كيرزون يقول إنه إن تكون هناك حاجة لتدخل بريطانيا فى الشؤون الداخلية للكويت فى حالة وضعها تحت الحماية ، بل يكفى بتخصيص سفينة حربية بريطانية تقوم بزيارة ميناء الكويت من وقت لآخر .. وبذلك يصبح فى مقدور بريطانيا أن تمنع أى دولة أخرى سواء ألمانيا ، أو الروسية ، أو فرنسا من مد خط حديدي إلى ساحل الخليج ، وأن تحيط أى محاولة قد تقوم بها السلطات العثمانية فى العراق لمهاجمة الكويت (٣) ، وقد وافقت الحكومة البريطانية على اقتراح كيرزون بوضع الكويت تحت الحماية البريطانية ، عن طريق اتفاقية تفرض على الشيخ مبارك آل صباح ، وأن تكون هذه الاتفاقية على غرار المعاهدات المانحة التى عقدتها من قبل مع شيوخ الخليج ، وألا يرد فى الاتفاقية أى نص على ذكر الحماية منعاً لإثارة الحكومة العثمانية والدول الأوروبية وبخاصة المهتمة بمنطقة الخليج . ولم يمض وقت طويل حتى عهد لورد كيرزون إلى الضابط (٤) ميد مالكولم جون Meade, Malcolm John المقيم البريطانى فى الخليج بالإيجار على السفينة لورانس Lawrence إلى الكويت ؛ لإجراء محادثات مع الشيخ مبارك آل صباح ، تستهدف وضع الكويت تحت الحماية البريطانية .

(١) دكتور محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدبلوماسية (١٨٩٠-١٩١٤) ص ١٠٨ .
(٢) لا ريب فى أن لورد كيرزون قد عمد إلى المغالطة بذكر هذه العبارة : لأن السيادة العثمانية على الكويت كانت قائمة عندما تولى الشيخ مبارك حكم الكويت بإرادة سلطانية ، كما ذكرنا من قبل .
(٣) دكتور محمود على الداود ، الخليج العربى والعلاقات الدبلوماسية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ملحق رقم ٧ وهو بعنوان :
(٤) يرد ذكر الرتبة العسكرية التى كان يحملها هذا الضابط بأنها «رائد» تارة ، ومقدم تارة ثانية ، وعقيد ، تارة ثالثة، وستلتزم فى هذه الدراسة بذكر رتبة «رائد» أخذاً بالأحوط .

بريطانيا تقرر على الكويت معاهدة مائة :

كانت الحكومة البريطانية قد عقدت في العقد الأخير من القرن التاسع عشر مجموعة من الاتفاقيات، التي عرفت باسم المعاهدات المانعة Exclusive Treaties مع عدد من حكام المشيخات والإمارات العربية القائمة على الساحل الجنوبي في منطقة الخليج . وقد سبق أن تكلمنا في هذه الدراسة عن تلك الاتفاقيات (١) ، ونضيف هنا أن الحكومة البريطانية نجحت في ٢٣ من شهر يناير - كانون ثان - سنة ١٨٩٩ في عقد اتفاقية على غرارها مع الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت، تعهد فيها هو وخلفه ومن يعقبه بالأيستقبلوا وكيلاً أو ممثلاً لحكومة دولة أجنبية في أرض الكويت أو سواها داخل حدودهم الإقليمية ، دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية ، كما تعهد هو وخلفاءه بالأيبيعوا ، أو يؤجروا ، أو يرهنوا أو يتنازلوا بأي شكل آخر من أشكال التنازل عن أي جزء من أراضيهم الإقليمية للاحتلال ، أو سواه من الأغراض من قبل حكومة أو رعايا أي دولة أخرى دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية على أهداف هذا التنازل (٢) . ونص أيضاً على أن تمتد أحكام هذه الاتفاقية لتشمل أي جزء من إقليم الشيخ مبارك الصباح يكون في تاريخ عقد هذه الاتفاقية في ملكية رعايا أي حكومة أخرى (٣) . ويذكر المؤرخون أن للحكومة البريطانية تعهدت في ملحق منفصل في مقابل ذلك كله بأن تدافع عن الكويت وعن الشيخ مبارك الصباح وعن ورثته في حكم الكويت ، وأرسلت ثلاث نسخ من هذه الاتفاقية إلى لورد كيرزون الحاكم العام للهند للتصديق عليها ، وسلمت للشيخ مبارك الصباح نسخة منها بعد التصديق عليها . وتسلم الشيخ مبارك خمسة عشر ألف روبية ، أسهمت فيها مناصفة الحكومة البريطانية وحكومة الهند ، ونص في ملحق خاص على أن تبقى الاتفاقية في سرية مطلقة ، وألا تعلن أو تذاع بأي شكل دون موافقة مسبقة من الحكومة

(١) انظر الجزء الثاني ، ص ١٠٥٠-١٠٥٢ .

(٢) وقع على هذه الاتفاقية نيابة عن الحكومة البريطانية الرائد م.ج. ميد المقيم السياسي في الخليج ، ووضع عليها الشيخ مبارك آل صباح خاتمه .

(٣) شرح الرائد ميد Meade المقيم السياسي البريطاني في الخليج أن المقصود من هذه العبارة هو ضمان عدم نقل ملكية المنازل التي للترك العثمانيين في الكويت ، والأراضي المقامة عليها هذه المنازل إلى الألمان أو الروس أو الفرنسيين أو غيرهم .

والنص الرسمي للاتفاقية وملحقها منشوران في لوريمر ج.ج. مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ٢ ، ص ١٥٦٨-١٥٧٠ .

وانظر أيضاً كلأ من :

دكتور سيد نوفل : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، الكتاب الأول ، مئجل عام ودراسة للكويت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٦-١٩٦٧ ، ملحق رقم ١ ، ص ٢٥٦-٢٥٧ .

Hurewitz J.C., op. cit., vol. 1, doc. no. 100, Exclusive Agreement: The Kuwaiti Shayeh and Britain, 23 January. 1899. pp., 218-219.

البريطانية ، ويلاحظ أنه لم يرد في الاتفاقية أى نص أو إشارة إلى ذكر الحماية البريطانية على الكويت .

وقد وجد الشيخ مبارك اعتراضاً قوياً من أفراد أسرته على هذه الاتفاقية، ورفضوا الاشتراك في التوقيع عليها أو وضع أختامهم عليها كمشهود . وكان سبب رفضهم يرجع إلى خوفهم على مصالحهم ، إذ كانت للأسرة ممتلكات واسعة في الأراضي العثمانية في منطقة شط العرب . وطبقاً للقوانين العثمانية تصبح ملكية مبارك وأقاربه لهذه الممتلكات ملغاة بقبول مبارك الحماية البريطانية ، وكانت هذه الممتلكات تدر على الشيخ مبارك وأسرته دخلاً سنوياً كبيراً للغاية ^(١) . ولكن الشيخ مبارك أكد للمفاوض البريطاني ، الرائد ميد ، أن موافقة أقاربه ليست أمراً ضرورياً كي تسرى هذه الاتفاقية عليه وعلى خلفائه من بعده ^(٢) ، ولم يشترك مع مبارك في التوقيع على الاتفاقية سوى صديق له من البحرين اسمه محمد رحيم بن عبداللهم ^(٣) .

دراسة تحليلية لاتفاقية ١٨٩٩ وأثرها على عدم إيصال خط حديدى إلى الكويت:

أوردت الاتفاقية المانعة قيوداً على حقوق حاكم الكويت في التصرف في الأراضي الكويتية ، وفي استقبال المبعوثين السياسيين للدول الأجنبية الأخرى وهما مسألتان تتصلان بالشؤون الداخلية والخارجية للكويت . واستطاعت بريطانيا بموجب هذه الاتفاقية أن تواجه التنافس الدولي في الكويت ، وأن تقف في وجه الدولة العثمانية وألمانيا والروسيا وغيرها من الدول ؛ لأنها سدت الباب إلى مياه الخليج عن طريق الكويت أمام مشروع الجناح الآسيوي لطريق ب. ب. ب. الحديدى، وأمام المشروع للحديدى الروسى الذى حاول تنفيذه فالاديمير كابجيتس؛ إذ إن موافقة بريطانيا قد غدت أمراً أو شرطاً ضرورياً Sine qua non لمد أى من الخططين الحديدين إلى مياه الخليج على ساحل الكويت بصفتها دولة تمارس حماية فعلية ، وإن كانت مستورة ، على الكويت (٤) .

وبهذه الاتفاقية انتقلت الكويت إلى محمية بريطانية سراً وسراً : وفي بعض المناسبات كانت الحكومة البريطانية تنفي وجود علاقة سياسية خاصة تربطها بالكويت ، ويعترف أحد الباحثين الإنجليز بقوله إن إبرام هذه الاتفاقية جعل الحكومة البريطانية تتجنب اتخاذ إجراءات صريحة وعلنية في المجالات الدولية بأنها فرضت الحماية البريطانية على الكويت (٥) ، وبذلك

(۱) دكتور جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ۲۷۲ .

(٢) لوديمر ج.ج.، مرجع سبق ذكره، القسم التاريخي، ج ٢، ص ١٥٣٣.

(٢) المرجع السابق، الجزء ذاته، ص ١٥٦٩.

(٤) دكتور عبدالعزیز سلیمان نوار : مصر والعراق ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٤٢ .

(٥) لوريمر ج.ج. ، مرجع سبق نكره ، القسم التاريخي ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ .

تعاثت المشكلات الدولية التي يثيرها الإعلان الرسمي بفرض هذه الحماية .

وأصبح المركز القانوني لإقليم الكويت شاذاً .. فكان هذا الإقليم تحت السيادة العثمانية، وكان يطلق على حاكمه لقب «قائمقام» للكويت، ويعين من قبل وإلى البصرة، ويرف العلم العثماني فوق أرض الكويت، وكانت تقوم اتصالات رسمية على نحو من الأنحاء بين الدولة العثمانية والكويت، ولكن تغير وضع الكويت بمجرد تصديق بريطانيا على الاتفاقية المانعة وأصبحت تحت حماية بريطانية مستترة . وكان مركز الكويت أكثر سوءاً من مركز مصر عقب الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢ .. فقد أصبحت هي الأخرى من ناحيته الأمر الواقع *de facto* تحت حماية مقفلة *veiled protectorate*، وفي الوقت ذاته كانت من الناحية القانونية *de juri* تحت السيادة الاسمية للدولة العثمانية، ولكن لم تفرض بريطانيا على توفيق باشا خديو مصر اتفاقية من الاتفاقيات المانعة كالتي فرضتها على الكويت . ولكن مركز الكويت كان من ناحية أخرى أفضل من مركز مصر؛ إذ لم تحتل قوات بريطانية برية أرض الكويت على عكس ما حدث في مصر، وإن كانت وحدات من الأسطول البريطاني التابع لحكومة الهند تكثر من تردها على خليج الكويت والرسو أمام ساحلها لمنع نزول القوات العثمانية أرض الكويت . وقد طعنت الحكومة العثمانية في شرعية الاتفاقية، التي فرضتها على حاكم الكويت تأسيساً على أنها عقدتها مع تابع للدولة العثمانية، ودون أن ترجع إلى الدولة صاحبة السيادة عليها . ولم تأبه بريطانيا لهذا الطعن، وأرادت للحكومة العثمانية أن تؤكد سيادتها على الكويت .. وقررت أن ترسل جيشاً لهذا الغرض وكان وجود حدود مشتركة بين الكويت والعراق أمراً يجعل إرسال حملات عسكرية من البصرة وغيرها إلى الكويت أمراً سهلاً وميسوراً . ولكن سبقتها بريطانيا وأرسلت بارجة إلى ميناء الكويت، وأعلنت أنها لن تسمح بدخول قوات عثمانية إلى هذا الإقليم . واحتجت الحكومة العثمانية على هذا التصرف، ووصفته بأنه تدخل في الشؤون الداخلية للحكومة العثمانية؛ لأن الكويت جزء من الممتلكات العثمانية، ولأن المعاهدات الدولية نصت على احترام استقلال الدولة العثمانية وسلامة ممتلكاتها ومنعت الدول من التدخل في شئونها الداخلية . ولم تأبه الحكومة البريطانية بهذا الاحتجاج وأعلنت أنها ستدافع عن الكويت تنفيذاً لاتفاقيتها مع الشيخ مبارك آل صباح، ولأنها لن تتردد في استخدام القوة إذا اقتضى الأمر، ونجحت الحكومة البريطانية في تهديدها، ولم ترسل الحكومة العثمانية جيشاً إلى الكويت . ولكنها حاولت مواجهة الموقف بطريقة أخرى؛ إذ شجعت عبدالعزيز ابن متعب آل الرشيد أمير حائل على غزو الكويت، وأفهمته السلطات العثمانية أن من يملك الرياض ونجداً، عليه أن يمتلك أيضاً الكويت ومنفذاً على الخليج، ووعده السلطات العثمانية بأن تتنازل له عن ميناء الكويت، إذا تخلص من الشيخ مبارك آل صباح واعترف بالسيادة العثمانية (١) . ووقفت

(1) Benoist. Mechin J., Arabian Destiny. Translated from the French by Denis Weaver. London. 1957, p. 73.

الحكومة البريطانية موقفاً صارماً أمام محاولات ابن الرشيد ^(١) . وبهذا أصبحت الكويت بموجب الاتفاقية المانعة بمئاًى عن أى هجوم تشنه عليها القوات العثمانية ، أو قوات ابن الرشيد ، أو غيره من خصوم حاكم الكويت .

اتفاقية ١٨٩٩ غير متكافئة :

إن الاتفاقية المانعة لسنة ١٨٩٩ تندرج تحت النوع المعروف باسم الاتفاقيات غير المتكافئة ، وقد عقدتها بريطانيا وهي دولة كبرى مع حاكم إقليم صغير ، يعوزه الإمام بقواعد القانون الدولى العام والخبرة السياسية ^(٢) . واعتمدت بريطانيا فى فرضها عليه على قواتها المسلحة وتجاهلت سيادة الدولة العثمانية على الكويت ، وقد ظلت هذه الاتفاقية قائمة إلى أن ألغيت رسمياً بموجب مذكرتين متبادلتين فى ١٩ من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٩٦١ ، بين أمير الكويت الشيخ عبدالله السالم الصباح وسير وإيم لوس المقيم السياسى البريطانى ^(٣) . وقد نص فى هاتين المذكرتين على أن إلغاء اتفاقية سنة ١٨٩٩ لا يؤثر على استعداد الحكومة البريطانية فى مساعدة حكومة الكويت إذا طلبت الأخيرة مثل هذه المساعدة ، وقد طالبت حكومة الكويت بتطبيق هذا النص فى السنة ذاتها ، والتمست المساعدة العسكرية من الحكومة البريطانية لمواجهة تهديدات العراق على عهد عبدالكريم قاسم بضم الكويت إلى العراق ، وسارعت بريطانيا بإرسال خمسة آلاف جندي من المظليين إلى الكويت ^(٤) .

العلاقات بين الدولة العثمانية والكويت وبريطانيا بعد عقد الاتفاقية :

بعد عقد هذه الاتفاقية ، أصبحت العلاقات بين شيخ الكويت مبارك آل صباح والحكومتين العثمانية والبريطانية تسودها الحساسية بل والتحدى والأزمات السياسية العنيفة بين الدولة العثمانية والكويت تارة ، وبين الدولة العثمانية وبريطانيا تارة أخرى . وكانت الأزمات بين هاتين الدولتين أشد عنفاً إذ كانت مقرونة بتحركات عسكرية وبالتهديد باستخدام القوة ، فعلى الرغم من أن الاتفاقية كانت سرية .. وقفت الحكومة العثمانية على تحركات الوفد البريطانى الذى وصل إلى الكويت ، واشتمت أن ارتباطاً معيناً قد تم بين بريطانيا والشيخ مبارك آل صباح ، وأن هذا الارتباط استهدف بسط نفوذ بريطانيا فى الكويت ^(٥) ، أو على أقل تقدير

(١) ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٧-١٩٨ .

(2) Hay R. (Sir); The Persian Gulf States. Washington, 1959 p. 15.

(٣) دكتور سيد نوزل : الأوضاع السياسية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الكتاب الأول ، للمحقق رقم ١٢ ، ١٤ ، ص ٢٧٢-٢٧٨ .

(٤) انظر تفصيلات هذه الأزمة العراقية الكويتية فى :

دكتور صلاح العقاد : معالم التفسير إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦-٤٠ .

(٥) دكتور محمود على الداود : الخليج العربى إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢١ .

فهو ارتباط موجه ضد الدولة العثمانية وضد سياستها التوسعية في الخليج (١)؛ ولذا لجأت السلطات العثمانية إلى إثارة المتاعب في وجه الشيخ مبارك. احتج الممسول العثماني الصحي المعين في الكويت لدى الشيخ على سماحه بنزول الوفد البريطاني من البصرة لورانس أرض الكويت على أساس أنه خرق للتنظيمات الصحية العثمانية، وقد أهمل هذا الاحتجاج، ثم احتجت الحكومة العثمانية لدى الحكومة البريطانية، ولم يؤد احتجاجها إلى نتيجة. وفي مارس - آذار - سنة ١٨٩٩ أمرت حكومة الهند ببقاء سفينة حربية بالقرب من ساحل الكويت. وكان الشيخ مبارك يمتلك أراضٍ زراعية واسعة وبساتين نخيل في منطقة البصرة. وساند حمدي باشا والي البصرة إخوة مبارك ضد ادعاءاته ملكية هذه الأراضي والبساتين، كما حاول الزج بأمرأه آل صباح اللاجئين في البصرة في خطط سياسية، تستهدف التخلص من الشيخ مبارك ومحاربة النفوذ البريطاني في الكويت. وأراد الشيخ مبارك أن يتحدى الدولة العثمانية، وأنشأ في مايو - آيار - سنة ١٨٩٩ إدارة جمركية في ميناء الكويت، وفرض رسوماً جمركية قدرها ٥% على جميع الواردات بما فيها القادمة من البصرة وغيرها من العوائد العثمانية، وكانت هذه الواردات تتمتع بالإعفاء للجمركي إعفاءً كاملاً (٢). وردت السلطات العثمانية عليه رداً عملياً، ففي ٢ من شهر سبتمبر - أيلول - وصل مدير عثماني لميناء الكويت يصحبه خمسة جنود ليتولى إدارة ميناء الكويت، ورفض الشيخ استقباله وأرغمه على العودة إلى البصرة في اليوم التالي (٣)، وتعددت مظاهر السياسة الاستفزازية بين الجانبين. وتدخلت الحكومة البريطانية، فوجهت سنة ١٨٩٩ إنذاراً إلى الباب العالي، قالت فيه إنه ليست لها أطماع في الكويت، فهي ترتبط بعلاقات ودية مع شيخها. وإذا قامت الحكومة العثمانية بأى محاولات لفرض سيطرتها أو رقابتها على الجمارك في الكويت دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية.. فلامفر من نشوب مشكلة خطيرة. وتراجعت الحكومة العثمانية مؤقتاً أمام هذا الإنذار، وذكر السفير البريطاني في إسطنبول في تقريره أن لهجة الإنذار البريطاني قد أزعجت السلطان عبدالحميد الثاني، الذي فسر هذا الإنذار بأن الحكومة البريطانية ماضية في تصميمها على التدخل في حرية السلطان في إدارة إقليم تابع للدولة العثمانية.

مبارك يقوم بزيارة رسمية لوالى البصرة :

وأراد السلطان عبدالحميد الثاني أن يرد على الحكومة البريطانية وشيخ الكويت معاً. فطلب من مبارك آل صباح في السنة ذاتها - التي أبرمت فيها الاتفاقية المانعة - أن يقوم بزيارة رسمية لوالى البصرة في مقر منصبه تأكيداً لخضوعه للسيادة العثمانية. وخشى الشيخ

(١) نكود السيد رجب حراز ، الدولة العثمانية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٩ .

(٢) لوريير ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .

(3) Dickson H.R.P.; Kuwait and her Neighbours, London., 1956, p. 137.

مبارك أن تكون وراء هذه الزيارة مؤامرة للتبعض عليه وخلعه من حكم الكويت بل وقته ، ومن ثم تكأ في تنفيذ أمر السلطان . ولكن كان من حسن حظ مبارك أن نقل في هذا الوقت حمدي باشا والى البصرة ، ولم تكن العلاقات بينهما ودية ، وعين مكانه في خريف سنة ١٨٩٩ محسن باشا ، وكان ضابطاً عسكرياً ذا أفق عقلى رحيب .. وكان مستعداً لأن يرفع أمور الكويت إلى الباب العالي في ضوء جديد ، وقام محسن باشا بدوره بمهارة . ومن خلال نفوذ السيد أحمد والسيد طالب ابني نقيب الأشراف في البصرة ، تم إقناع الشيخ مبارك بمقابلة والى البصرة فى الرافضية فى منزل ريفي بملكه النقيب هناك بالقرب من مدينة الزبير ، وفى يوم ١٧ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٨٩٩ وصل مبارك مع لوالى صديقه محسن باشا إلى البصرة حيث قضى فيها اليوم التالى ، وتلقى وساماً مجيداً من الطبقة الثانية مهدى إليه من السلطان رغبة منه فى استقطاب مبارك نحو الدولة العثمانية والابتعاد عن النفوذ البريطانى ، والوقوف فى الصف الإسلامى . وكانت حركة الجامعة الإسلامية التى يقودها عبد الحميد فى عنفوانها . وكان لهذا التكريم أثره فى نفس الشيخ مبارك ، أو لعله تظاهر بذلك ، ووعد بالآ يقيم أى علاقات «بالدولة الأجنبية» ، وعاد فى ٢٤ من الشهر ذاته سالماً إلى الكويت (١) .. وهكذا أَرْضَى الشيخ مبارك رغبة السلطان فى القيام بزيارة رسمية لوالى البصرة ، وظن البعض أن محسن باشا قد حقق نجاحاً بتأكيد السيادة العثمانية على الكويت . ولكن اتضح بعد قليل أن الشيخ مبارك كان يظهر غير ما يظن ، عندما زارت بعثة ألمانية الكويت لشراء أرض على ساحلها ؛ لتكون محطة لنهاية للجناح الآسيوى من طريق ب. ب. ب. الحديدى .

بعثة ألمانية تتور الكويت :

تصاعدت إلى درجة التحدى بين ألمانيا والدولة العثمانية من ناحية ، وبريطانيا من ناحية أخرى مشكلة إيصال الخط الحديدى المقترح إلى مياه الخليج على ساحل الكويت .. قامت بعثة ألمانية فنية من المهندسين والعسكريين ، وكان يرأسها الهرشتمريخ Stemrich التفتصل الألمانى العام فى إستانبول برحلة على طول الخط المقترح للخط الحديدى فى العراق ؛ للقيام بمسح شامل للمناطق التى سيمر بها الخط الحديدى والوقوف على مواردها الاقتصادية وأهميتها العسكرية ، وتحديد مسار الخط الحديدى فى ضوء هذه الدراسات (٢) . وكان يرافق البعثة الملحق الألمانى العسكرى فى السفارة الألمانية فى إستانبول ، ثم وصلت البعثة إلى الكويت فى غضون شهر يناير - كانون ثان - سنة ١٩٠٠ لاختيار موقع مناسب لنهاية الخط الحديدى على ساحل الخليج (٣) . وقابل أعضاء البعثة الشيخ مبارك فى ١٩ من الشهر ذاته ، وحاولوا أن يدخلوا معه

(١) لوريمر ج.ج. مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ٢ ، ص ١٥٣٦-١٥٣٧ ، ص ١٥٤٠ .

(2) Earle E.M.; Turkey etc., op. cit., p. 34.

(3) Wilson Sir A.T., The Persian Gulf etc., op. cit., p. 252.

في مباحثات لشراء قطعة من الأرض، تبلغ مساحتها عشرين كيلو متراً مربعاً، وكانت البعثة قد زارت كادبامه في خليج الكويت، وفضلت اختيار هذا الموقع كنهاية للخط الحديدى^(١). وكان العرض الأمانى يتناول شراء كاظمة على رأس خليج الكويت واستئجار أراضى كويكب وغاضى. ولكن مبارك رفض طلبات البعثة، واعترض على إقامة نهاية الخط الحديدى في الكويت، كما رفض قبول الهدايا التى قدمها إليه رئيس البعثة، وصرح لأعضاء البعثة أنه هو المسيطر الوحيد على الكويت، وليس لسلطان الدولة للعثمانية شأن فى بيع أو تأجير أراض فى إقليم الكويت. ولاشك فى أن الشيخ مبارك كان فى هذا الموقف معتمداً على تأييد بريطانيا الحاسم له، فالنرم التزاماً دقيقاً بأحكام اتفاقيته المانعة مع بريطانيا، وكان قد تلقى تحذيراً من قائد السفينة البريطانية «ميلبومبى»، بالألا يتخذ أى إجراءات فى شأن مطالب البعثة الألمانية قبل موافقة حكومة الهند عليها. وأخفقت البعثة الألمانية فى تحقيق أهدافها على الرغم من مساندة الحكومة العثمانية لها، وفى قمة غضبه صرح رئيس البعثة فى أثناء مروره بالبصرة فى طريق عودته إلى إستانبول بقوله إن المسؤولين عن الجناح الآسىوى لطريق ب. ب. ب. الحديدى سيهملون أمر الشيخ مبارك، وسيغافهون مباشرة مع السلطات العثمانية العليا فى إستانبول^(٢). ويلاحظ أن والى البصرة كان قد طلب من مبارك أن يستجيب لطلبات البعثة فلم يأبه لهذا الترجية.

وكان لغفل البعثة الألمانية أصداء بعيدة فى الأوساط الدبلوماسية العثمانية والألمانية.. فقد أبلغ سير أوكونور O'Connor N. السفير البريطانى فى إستانبول وزير الخارجية العثمانية أن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تظل ساكنة، تنظرون مبالاة إلى منح بعض الدول الأوروبية الأخرى حقوقاً أو امتيازات إقليمية فى أرض الكويت، وأطلعه على نصوص الاتفاقية المانعة المعقودة مع الشيخ مبارك^(٣)، وهكذا... علمت الحكومة للعثمانية بصفة رسمية بأمر هذه الاتفاقية بعد أن كانت لديها مجرد فكرة عامة عنها. وفى اليوم ذاته التقى السفير البريطانى بالسفر الأمانى، وأبلغه أن شيخ الكويت ليس حراً فى أن يبيع لشركة سكة حديد الأناضول أو يؤجر لها أى جزء من أرض الكويت دون موافقة الحكومة البريطانية، وقد اعترضت الحكومة العثمانية على الاتفاقية المانعة وعلى التبليغ البريطانى؛ تأسيساً على أن الكويت تحت السيادة العثمانية وأن الشيخ مبارك آل صباح قد عين فى منصبه حاكماً على الكويت بأمر من السلطان ومنحه لقب «قائمقام» وأنه تابع لوالى البصرة، وأنه يرفع العلم العثمانى فوق أراضى الكويت.

(١) لوريمر ج.ج.، مرجع سبق ذكره، القسم التاريخى، ج ٤، ص ٢٢٧٧.

(٢) المرجع السابق، ج ١، ص ٥٥١، ج ٢، ص ١٥٢٧-١٥٢٨.

(٣) بكتور جمال زكريا قاسم الخليج العربى إلخ (١٨٤٠-١٩١٤)، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٤ وبكتور السيد رجب حراز، الدولة العثمانية إلخ، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٥-١٩٦.

ولما نقل السفير الألماني فحوى هذا التبليغ البريطاني إلى برلين .. أبرق فون بيلوف Count and Prince von Bulow المستشار الألماني إلى سفير ألمانيا في لندن، يطلب منه تذكير لورد لانزدون وزير خارجية بريطانيا بسيادة سلطان الدولة العثمانية على منطقة الساحل العربي للخليج بما في ذلك الكويت، وأن ينقل إليه مذكره لورد كيرزون في ص ٤٦٦ من كتابه عن فارس (١) ؛ حيث أكد بوضوح «تمتع السلطان العثماني بالسيادة دون منازع، على منطقة شاسعة من الخليج، تشمل الكويت، وتعتمد من شبه جزيرة قطيف إلى ميناء الفاو عند مصب مياه الرافدين .. غير أن الحكومة البريطانية أنكرت بكل بساطة أنها بسطت حمايتها على الكويت» (٢).

مبارك يرجو بريطانيا أن تعلن حمايتها السفارة على الكويت :

واستمر الشيخ مبارك في ممارسة السياسة المزدوجة الملقوة .. فقد زار الكويت محسن باشا وإلى البصرة، وقضى فيها المدة من ١٩ إلى ٢٣ من مايو - آيار - سنة ١٩٠١، وضغط على الشيخ مبارك لقبول حامية عثمانية في الكويت . وعلى الرغم من أن الشيخ أحاطه بكل مظاهر الحفاوة في أثناء إقامته وبالتكريم الكبير عند عودته إلى مقر منصبه .. فإنه لم يستجب لطلب الدولة العثمانية، ولم يقنع بهذا الرض، بل اتصل في ٢٨ من الشهر ذاته بالمقيم البريطاني في الخليج، يرجوه أن تسارع بريطانيا إلى إعلان حمايتها الدائمة والسفارة على الكويت، واعتذرت الحكومة البريطانية عن عدم الاستجابة لرغبة الشيخ نظراً لما يجره هذا الإعلان من مشكلات دولية . وكان عبدالحميد الثاني يرأى طلبه برقية من وإلى البصرة بأن يقيم في الكويت، بالوسائل السلمية، داراً للعوائد ومكتباً للبرق كظهريين للسيادة العثمانية على الكويت . ولأذ مبارك بالسلطات البريطانية التي أصدرت أوامرها إلى قائد السفينة البريطانية المسلحة «بيرسيوس»، وكانت راسية في مياه الكويت، بأن يمنع نزول قوات عثمانية إلى الكويت ولو أدى الموقف إلى استخدام القوة، وفي الوقت ذاته، قام المقيم السياسي البريطاني في الخليج بزيارة للكويت لإبلاغ الشيخ مبارك بتوفير الحماية والمساعدة، بشرط أن يظل ملتزماً بالاتفاقية المانعة، وطبقاً للتعليمات الجديدة أصدر قائد السفينة «بيرسيوس» إنذاراً إلى القائد العثماني بعدم إنزال قوات عثمانية إلى أرض الكويت، واضطر الأخير إلى الانسحاب إلى الفاو، وهو يتهدد الشيخ مبارك بالعقاب في المستقبل . وتلقت الحكومة البريطانية احتجاجين من السفير العثماني والسفير الألماني في لندن على تصرفات قائد السفينة البريطانية . وبنت السفارة العثمانية في لندن احتجاجها على ماسبق أن ردت له الحكومة العثمانية من أن الاتفاقية المانعة

(١) كان المستشار الألماني يقصد هذا الكتاب :

Curzon G.N., Persia and the Persian Gulf, London, 1892, 2 vols.

(٢) نكتور زكي صالح : مجمل تاريخ العراق الدولي إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٨٢-٨١ .

اتفاقية باطلة ؛ لأنها عقدت مع مسرول تابع للدولة العثمانية ، وكان رد الحكومة البريطانية على السفيرين معاً أن الحكومة البريطانية لا ترغب في تغيير الوضع القائم في الكويت .

اتفاق مؤقت بين الحكومتين العثمانية والبريطانية :

وبعد أخذ ورد طويلين بين الحكومتين العثمانية والبريطانية، توصلت الحكومتان إلى الاتفاق على نقطتين مهمتين : الأولى في ٩ من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٠١ تنص على إبقاء الوضع القائم في الكويت على ما هو عليه *status quo* ، وهذا الاتفاق يمد تجميداً للموقف ، لأن كلاً من الحكومتين العثمانية والبريطانية كانت تستطيع تفسيره لمصلحتها : الأولى بحكم سيادتها على الكويت ، والثانية استناداً إلى اتفاقية سنة ١٨٩٩ مع الشيخ مبارك آل صباح . ولم تكتبه الحكومة العثمانية إلى هذه المسألة فعادت فيما بعد تقرر أن موافقتها على إبقاء الوضع الراهن في الكويت على ما هو عليه معناه الموقف قبل عقد الاتفاقية المانعة سنة ١٨٩٩ وليس الوضع الذي نجم عن عقد هذه الاتفاقية ^(١) . أما النقطة الثانية فتنص ، عند وضع الصياغة النهائية لعقد الامتياز الذي سوف تصدره الحكومة العثمانية لإنشاء الجناح الآسيوي لطريق ب. ب. الحديدى ، على عدم تحديد الموقع ، الذي ينتهى عنده الخط الحديدى على الساحل العربى للخليجة بصفة قطعية وحاسمة ، بل يكفى بذكر هذه العبارة «إنشاء فرع للخط الحديدى يخرج من الزبير إلى موقع على الخليج يتم الاتفاق عليه .. فيما بعد بين الحكومة العثمانية وأصحاب الامتياز . وفعلاً جاء عقد الامتياز الذى أصدره السلطان عبد الحميد الثانى فى اليوم الخامس من شهر مارس - آذار - سنة ١٩٠٣ بإنشاء الجناح الآسيوى لطريق ب. ب. ب. ب. الحديدى مشتملاً على هذه العبارة ^(٢) . ولا يعد هذا الاتفاق حلاً للمشكلة ، وإنما هو عبارة أكثر دقة إرجاء للمشكلة وترك الباب مفتوحاً أمام الحكومة البريطانية ؛ لوضع العراقيل أمام مد الخط الحديدى إلى مياه الخليج .

تحذير من السلطان للشيخ مبارك :

على الرغم من الاتفاق المؤقت بين الحكومتين العثمانية والبريطانية .. تجددت الأزمة بين شيخ الكويت والحكومة البريطانية من ناحية والحكومة العثمانية من ناحية أخرى فى منتصف شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٠١ ، واستمرت قائمة حتى نهاية شهر ديسمبر - كانون أول - من تلك السنة . وقد بدأت الأزمة ببرقية أرسلها الباب العالي إلى والى البصرة يأمره بإيفاد نقيب الأشراف فى البصرة لمقابلة الشيخ مبارك آل صباح ويحذره من نتائج تهوره وطيشه ، ويطلب منه أن يرجع عن غيبه ويلتزم بنفسه الأمان بالعودة إلى الصف الإسلامى

(١) نكحور جمال زكريا قاسم : الخليج العربى إلغ (١٨٤٠-١٩١٤) مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٢ .

(٢) انظر ماسبق الفصل السابع .

والخضوع للسلطان ، ولكن الشيخ مبارك رفض الاعتراف بتبعية السلطان العثماني .

السلطان يعرض على الشيخ مبارك الإقامة في إستانبول :

وإزاء هذا الرفض القاطع من جانب الشيخ مبارك، رأى السلطان عبد الحميد اتخاذ إجراء آخر لردع الشيخ .. ففي أول ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٠١ وصلت إلى ميناء الكويت السفينة العثمانية المسلحة «زحاف»، تحمل نقيب الأشراف في البصرة وشقيق والي البصرة . وكان في خليج الكويت وقتذاك من السفن البريطانية الطراد «بومون»، والقارب المسلح «رد برست»، وقدم نقيب الأشراف في البصرة إنذاراً إلى الشيخ مبارك يطلب منه إما قبول قوة عثمانية ترابط في الكويت، على أن تكون تابعة وكان السلطان عبد الحميد يفضل البديل الثاني . وقد طلب الشيخ مبارك في اليوم الثالث من شهر ديسمبر - كانون أول - إمهاله ثلاثة أيام يقدم بعدها إجابته ، واتصل من فورهِ بقائد الطراد البريطاني وأطلعهُ على تطورات الموقف . وفي صباح اليوم التالي - الرابع من ديسمبر - كانون أول - أبحر القارب المسلح البريطاني إلى بوشهر - مقر المقيم البريطاني في منطقة الخليج - يحمل رسالة إليه من الشيخ مبارك ، وشرع المبعوث العثماني بهذه الحركة فحسب المهلة ، التي كان قد أعطاهَا لمبارك وطلب منه الإجابة فوراً ، وزاغ في الاستجابة لطلبه ، وسرعان ما وصلت السفينة البريطانية «سفكنس» من بوشهر دون ضمان كتابي بالعمية من المقيم البريطاني كما كان يود الشيخ مبارك ، ولكنه رد على المبعوث العثماني بأن السلطات البريطانية تمنحه بالقوة من إيداء رأيه . فغادر المبعوث العثماني ميناء الكويت في الصباح الباكر من اليوم التالي . وقضى القائد البحري الأول في الكويت ، وأسمه الكابتن سيمس الليلة التالية في دار الشيخ مبارك من قبيل الحيلة . ثم وصل الرد البريطاني في ٦ من شهر ديسمبر - كانون أول - وفيهِ أن ما قامت به السلطات العثمانية يعد خرقاً للاتفاق المعقود بين الحكومتين العثمانية والبريطانية ، وأن الحكومة البريطانية تؤيد الشيخ مبارك ، ولن تسمح بأي هجوم برى أو بحري من جانب القوات العثمانية على الكويت ، وأنه يجب على الشيخ مبارك عدم مغادرة الكويت ، وعليه أن يستمر في الوفاء بالتزامته المنصوص عليها في الاتفاقية المانعة ، وتلقى الشيخ مبارك هذه الرسالة بمسعدة غامرة (١) .

إجراءات بريطانيا لدعم نفوذها في الكويت :

(أ) الحاكم العام للهند يزور الكويت زيارة رسمية :

قام لورد كيرزون الحاكم العام للهند بزيارة رسمية لمنطقة الخليج ، وزار فيها الكويت يومي ٢٨ و ٢٩ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٠٣ ، وكانت ترافقه سفيلته مجموعة

(۱) دکتور جمال زکریا قاسم : الخليج العربي إلخ (۱۸۴۰-۱۹۱۴)، مرجع سبق نکره، ص ۲۷۷-۲۷۸.
لوریمر ج. ج.، القسم التاریخی، مرجع سبق نکره، ج ۲، ص ۱۵۴۴-۱۵۴۵.

من وحدات الأسطول البريطاني في الهند في مظاهرة بحرية ، وسلم إلى الشيخ وشاح نجمة الهند كما تسلم سيفاً هدية من يد لورد كيروزن ، واستبدت به الخطة وقال على الفور إنه أصبح ضابطاً عسكرياً من ضباط الإمبراطورية البريطانية^(١) . ونحن لانستبعد صدور هذا التصريح الخطير من حاكم مثل الشيخ مبارك آل صباح ، وقد ترك منظر سفن الأسطول البريطاني انطباعاً قوياً في نفوس أهل الكويت وفي نفس الشيخ مبارك . ولما صعد إلى ظهر السفينة للترحيب بلورد كيروزن غمرته الدهشة ؛ إذ كانت المرة الأولى التي يصعد فيها إلى ظهر سفينة حربية كبيرة . وبعد هذه الزيارة أنشأت شركة الهند البريطانية للملاحة البحرية وكالة لها في الكويت ، وقررت أن يكون هذا الميناء من الموانئ التي ترفأ إليها بواخرها .

(ب) بريطانيا تعين وكيلاً سياسياً في الكويت :

واستكمالاً للوضع السياسي الجديد الذي أرادته بريطانيا للكويت، اتخذت إجراءً له دلالاته السياسية ، فقد جيتت في ٢٤ من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٩٠٤ وكيلاً سياسياً لها في هذا الإقليم ، هو الكابتن س.ج. نوكن Knox ، وصل الكويت في ٦ من شهر أغسطس - آب - وكان من بين التعليمات التي زودته بها حكومة لندن أن ينكر في تقاريره أولاً بأول أية أحداث تشير إلى نوايا من جانب العثمانيين ، أو دول أجنبية للتدخل في الوضع الراهن في ذلك الوقت في الكويت أو تغيير هذا الوضع ، وكذلك أية بوادر لتكشف له عن خطط لدى دول أجنبية فيما يتعلق بالموانئ الطبيعية داخل إقليم الكويت وماجاوره . وقد احتجت الحكومة العثمانية على هذا الإجراء السياسي، استناداً إلى أنه خرق للاتفاق المفقود بين الحكومتين العثمانية والبريطانية في سنة ١٩٠١ بإبقاء الوضع السياسي في الكويت على ما هو عليه . وقررت الحكومة البريطانية سحب ممثلها السياسي من الكويت بصفة مؤقتة، وبطريقة لاتتم عن أى معنى من معاني الخضوع لرغبة الحكومة العثمانية . وغادر الوكيل السياسي الكويت في ١٦ من شهر مايو - آيار - سنة ١٩٠٥ إلى إنجلترا بحجة العلاج من مرض ألم به، والحقيقة أن العلاقات بين الحكومتين العثمانية والبريطانية كانت تمر بمرحلة دقيقة ؛ إذ كانت هناك مباحثات تدور بينهما بشأن تخطيط الحدود بين قاعدة عدن البريطانية واليمن ، ثم عاد المقيم السياسي في ٢٥ من شهر أكتوبر - تشرين أول - من السنة ذاتها إلى مقر منصبه في الكويت^(٢) .

(١) دكتور جمال زكريا قاسم : الخليج العربي إلخ (١٨٤٠-١٩١٤) ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٥ وكذلك

لوردس ج.ج. مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ٢ ، ص ١٥٥٢-١٥٥٣ .

(٢) انظر كلام من :

لوردس ج.ج. مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٥٥٤-١٥٥٦ .

دكتور جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي ١٨٤٠-١٩١٤ إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٥-٢٨٦ .

(جـ) بريطانيا تسمح الكويت براً وبحراً :

أرادت بريطانيا للحصول على مزيد من المعلومات الجغرافية والطوبوغرافية الدقيقة عن منطقة الكويت لتستفيد من هذه المعلومات، إذا تطورت الأمور إلى اشتباك مسلح تخوضه القوات البريطانية ضد القوات الألمانية أو العثمانية أو الروسية . وفي ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٠٤ خرجت بعثة عن طريق البر يصحبها الوكيل السياسي ، وأجرت عملية مسح واسعة من الجهرة والسواحل الشمالية لخليج الكويت إلى موقعى صفوان وأم القصر على الحدود . وفي أبريل - نيسان - سنة ١٩٠٥ ، قامت بعثة أخرى برئاسة الوكيل السياسي بجولة جنوبى الكويت ووصلت إلى حفار على الحدود بين الكويت ووسط شبه جزيرة العرب . وفي الوقت ذاته بدأت سفينة بريطانية عملية مسح بحرى فى خليج الكويت فى نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٠٤ ، واستمرت موسماً بعد آخر حتى تم العمل فى نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٠٧ (١) .

مبارك يثير عدة مرات موضوع العلم الخاص بالكويت :

وبلغ من عمق وضراوة الجفاء بين الشيخ مبارك والدولة العثمانية أنه أثار فى سنة ١٩٠٥ موضوع العلم الكويتى .. كان مبارك قد رأى فى سنة ١٩٠١ ضرورة استخدام علم كويتى بدلاً من العلم العثمانى ، وكان من بين أسبابه فى هذا التغيير القضاء على التناقض بين منع القوات العثمانية من النزول فى أرض الكويت والاستمرار فى رفع العلم العثمانى فوق أرضها . وإذا كان سلفه - ولده وأخوه - قد رفعوا العلم العثمانى الأحمر وعليه الهلال .. فإن هذا الهلال كان رمزاً للإسلام وليس دلالة على تبعية الكويت للدولة العثمانية . ثم جاءت الاتفاقية التى عقدت فى سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٠١ بين الحكومتين العثمانية والبريطانية بإبقاء الوضع السياسى القائم فى الكويت وقتذاك، فوضعت بطريقة ضمنية حلاً مؤقتاً لهذا الموضوع . وفى سنة ١٩٠٥ أفصح الشيخ مبارك عن رغبته فى أن يكون للكويت علم مميز عن العلم العثمانى ، عليه الهلال رمزاً للإسلام ومضافاً إليه لفظ «الكويت» ، ووافقت الحكومة البريطانية على العلم المقترح للكويت (٢) . وقد سويت مسألة العلم نهائياً على هذا النحو فى الاتفاق الذى عقد بين الدولة العثمانية وبريطانيا فى ٢٩ من شهر يوليو - تموز - سنة ١٩١٣ (المادة الثانية من القسم الخاص بالكويت) .

ومن الصعب القول بأن الشيخ مبارك كان يدفعه شعور قومى بالاستقلال ، لأنه حين جاهر برفضه السيادة العثمانية على الكويت ، ارتضى فى أحضان بريطانيا وعقد معها الاتفاقية

(١) لويس ج.ج. ، القسم التاريخى ، ج ٢ ، ص ١٥٦٢ .

(٢) يكتوز جمال زكريا قاسم ، الخليج العربى (١٨٤٠-١٩١٤) ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٤-٢٦٥ ، ص ٢٨٢ وانظر أيضاً :

لويس ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ٢ ، ص ١٥٦٢-١٩٦٣ .

الممانعة سنة ١٨٩٩ ، والتي يقول عنها الذين يعبرون عن وجهة نظر الحكومة الكويتية إنها دليل استقلال آل صباح وحريتهم في عقد اتفاقيات مع الدول الأخرى (١) ، ثم طلب مبارك إعلان الحماية البريطانية السافرة والدائمة على الكويت ، ولم يشعر بشيء من المعاناة النفسية . ونكرر هنا أن المجتمعات في ذلك الوقت كانت مجتمعات دينية إسلامية ، ولم تكن قد وجدت بعد العاطفية القومية . وعلى أحسن الفروض - كما ذكرنا في عدة مواطن في هذه الدراسة - كانت العاطفتان الدينية والقومية متشابكتين ممزجتين بحيث كان يصعب الفصل بينهما . كما أنه لم يوجد حتى اليوم بين سكان الإمارات العربية المتناثرة على الساحل العربي لمنطقة الخليج «إنتماء خليجي» (٢) ، بشكل واضح وبارز ، فلا يزال يقال هذا كويتي ، وذلك قطري ، أو بحراني ، أو شارقي إلى غير ذلك من المسميات المشتقة من أسماء الكيانات السياسية العربية الصغيرة القائمة على الساحل العربي للخليج ، وكان للسياسة البريطانية اليد الطولى في هذا «التفتيت» الإقليمي حرصاً على مصالحها الاستعمارية .

الساحل الشمالي الفارسي للخليج يغدو منطقة نفوذ بريطاني :

وفي ذلك الوقت وقعت أحداث في السياسة الدولية ، ساعدت بريطانيا على دعم مركزها على الساحل الفارسي في منطقة الخليج .. فقد لقيت روسيا هزيمة منكرة في الحرب التي اشعلت بينها وبين اليابان (١٩٠٤-١٩٠٥) ، وواجهت الحكومة الروسية اضطرابات داخلية نتيجة هذه الهزيمة الأليمة . فساعد هذان العاملان - هزيمة روسيا وقيام اضطرابات داخلية فيها - على التقارب بين روسيا وبريطانيا لتسوية المشكلات التي كانت مثار النزاع بينهما في آسيا الوسطى ، وأضيف إلى هذين العاملين عامل ثالث هو الخطر الألماني المحتمل من مشروع طريق ب. ب. ب. الحديدى ، ورغبة ألمانيا في مد هذا الخط إلى مياه الخليج . وفي أواخر ربيع سنة ١٩٠٦ استؤنفت المفاوضات ، وتناولت ثلاث مشكلات : فارس ، وأفغانستان ، والتبت Tibet ، وتتهما في هذه الدراسة المشكلة الفارسية .. كانت روسيا قد وضعت يدها على منطقة كبيرة في الشمال الغربى ، وبريطانيا على رقعة أخرى في الشرق . وأسفرت المفاوضات عن معاهدة أبرمت بين بريطانيا وروسيا في سان بطرسبرج في ٣١ من شهر أغسطس - آب - سنة ١٩٠٧ ، تم بمقتضاها تقسيم فارس إلى منطقة نفوذ في الشمال تختص بها روسيا ومنطقة نفوذ أخرى في جنوب شرق فارس بما فيها كرمان وبيدر عباس ، وهو ميناء يقع على الساحل الفارسي في منطقة الخليج ويطل على خليج هرمز ، وتختص بريطانيا بهذه المنطقة . وبين منطقتي النفوذ الروسية والبريطانية منطقة محايدة تركت لفارس ، ونص في المعاهدة على

(١) دكتور صلاح العقاد : معالم التغيير في دول الخليج العربي . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢ .

ألا تشترك بريطانيا والروسيا في النشاط الاقتصادي أو السياسي في منطقة النفوذ الخاصة بالدولة الأخرى^(١)، وقد عقدت المعاهدة دون أخذ رأي محمد علي شاه فارس . وتعد هذه المعاهدة مثالا صارخا لاغتيال حقوق دولة إسلامية على يد دولتين كبيرتين ، ومثالا سينا للنفاق السياسي في أبشع صوره^(٢) . فقد جاء في مقدمة المعاهدة أن بريطانيا والروسيا قد تمهدتا سويا باحترام سلامة واستقلال فارس ، وأنهما ترغبان بكل إخلاص في المحافظة على النظام في جميع أرجاء فارس ، وعلى تحقيق مزايا متساوية فيها لجميع الدول بصفة دائمة في شتى المجالات التجارية والصناعية ، وأنه لما كانت لكل من بريطانيا والروسيا - لأسباب جغرافية واقتصادية - مصلحة خاصة في المحافظة على النظام والسلام في بعض الأقاليم الفارسية المجاورة أو المتاخمة لحدودهما .. فقد تقرر تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ ، على النحو الذي أشرنا إليه . ويلاحظ أنه لم يرد نص في مقدمة المعاهدة على تقرير سيطرة انفرادية لبريطانيا على منطقة الخليج أو على الأقل على الساحل الفارسي . ويذكر هيرويتز Hurewitz تفسيراً لإغفال إدراج هذا النص أنه وضع فعلاً ، ولكن جاء للفراغ من صياغته متأخراً بعد الانتهاء من وضع القسم الخاص بفارس في المعاهدة ، ونضيف إلى هذا التفسير أنه كان من المفهوم ضمناً أن لبريطانيا مثل هذا النفوذ الانفرادي، طالما كانت لها منطقة نفوذ تشمل جنوب شرقى فارس ويدخل فيها ميناء بندر عباس وهو من الموانئ الرئيسية الفارسية على الساحل الشمالي للخليج .. وهكذا صغت لبريطانيا منطقة الخليج بساحتها الشمالية الفارسية وساحتها الجنوبية العربية . وكان (١) تم التصديق على هذه المعاهدة في سنا بطرمبيرج في ١٠ و ٢٢ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٠٧ ، والنص الخاص بفارس منشور في :

Hurewitz J.C.; op. cit., vol. 1, pp. 265-267.

(٢) يقول الأستاذ جرانت ، وهو أحد كبار المؤرخين الإنجليز ، في معرض دفاعه عن تصرف حكومة بلاده بتمزيق وحدة فارس في هذه المعاهدة ، إنه على الرغم من أنها حصرت فارس المستقلة في حدود أضيق بكثير مما كانت عليه من قبل ، ارتضت الحكومة البريطانية هذا التقسيم سداً منيعاً ، يحول دون عدوان روسي . ويخلص من دفاعه إلى أن هذه المعاهدة كانت تدعو إلى التنازل : لأن الحكومة البريطانية كانت آمنة في رغبتها في الاحتفاظ بالوضع الراهن Status quo الجديد في فارس . ولكن كانت بريطانيا سيئة الحظ ، لأنه اتضح لها في السنوات التالية لعقد المعاهدة أن الروسيا واصلت دسائسها الخفية والظفيرة ضد وحدة فارس ، فكانت تعارض كل محاولة للنهوض بالجزء المستقل في فارس ، وكانت تحاول بكل الوسائل التوغل في الشمال الغربي من البلاد وتخلق المبررات لضمه إليها . انظر :

Grant A.J. Temperley Harold; op. cit., pp 358-359.

وانظر تعليقاً آخر على المعاهدة البريطانية الروسية في :

دنكور زكي صالح مرجع سبق ذكره ، ص ٧٩-٨٠ : حيث استند إلى آراء بعض الوزراء والمؤرخين الإنجليز واليهنات البريطانيين من هذه المعاهدة «في سنة ١٩٠٧ ، حصلت الحكومة البريطانية بمستشاريها الاختصاصيون على أكثر ما يمكن بقل ثمن ممكن في تلك الظروف» وأن رأى بريطانيا كان تليد الروسيا في وجه الخطر الألماني المتزايد .

من أثر عقد هذا الاتفاق أن تصاعدت معارضة بريطانيا والروسيا لمشروع الخط الحديدى؛ إذ إن هذا الاتفاق قد سمح للدب الروسى أن يجول حراً فى البقاع الشمالية من فارس ، ولأسد البريطانى أن يحرك حراً فى أجزائها الجنوبية (١) .

بريطانيا تتال امتيازات أخرى فى الكويت

لمنع وصول الخط الحديدى إلى مياه الخليج :

واستطاع المقيم البريطانى فى الخليج، ثم الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت أن يحصل من الشيخ مبارك آل صباح على عدة امتيازات مهمة تستهدف دعم النفوذ البريطانى فى الكويت ، ومحاربة النفوذ الألمانى المترصص ، والخط الحديدى المقترح لإصاله إلى مياه الخليج فى الكويت، وكان من بين هذه الامتيازات :

أولاً : وافق الشيخ مبارك فى ٢٨ من شهر فبراير - شباط - سنة ١٩٠٤ على إنشاء مكتب بريد بريطانى فى الكويت ، وتعهده بألا يسمح لأى دولة بأن تنشئ محطات البريد خاصة بهذه الدول (٢) .

ثانياً : تعهد مبارك بموجب اتفاق سرى مؤرخ فى ١٥ من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٠٧ بأن يؤكد ماسبق أن تعهد به للحكومة البريطانية ، بالأبتنازل عن أى جزء من أراضي الكويت لدولة أجنبية دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية . ومما استلقت النظر أن هذا الارتباط حدد الدولة العثمانية من بين الدول الأجنبية ، التى لايجوز للشيخ مبارك أن يتنازل لها عن أى قطعة من الأرض ، سواء بالبيع أو للتأجير أو أى نوع من أنواع التنازل . ولم تكن الدولة العثمانية هى المقصودة بقدر ماكان المقصود ألمانيا، التى أصبحت الدولة الأوروبية الوحيدة ، التى تكهد المصالح البريطانية فى الخليج (٣) ، بعد أن تمت تسوية المشكلات بين بريطانيا والروسيا بعقد معاهدة سان بطرسبرج فى ٣١ من شهر أغسطس - آب - سنة ١٩٠٧ ، كما سبق أن ذكرنا .

ثالثاً : وفى السنة ذاتها أجر مبارك للحكومة البريطانية مساحة كبيرة من الأرض تقع بين ميناء الكويت وبندر الشويخ لقاء ستين ألف روبية سنوياً . وكان استئجار هذه الأرض رداً أو إجراء مضاداً للخط الحديدى، الذى كان مقرراً مده إلى مياه الخليج فى الكويت . ولاريب أن تحصين هذه الأرض المؤجرة لبريطانيا، وتحويل بندر الشويخ إلى قاعدة بحرية بريطانية أو محطة فحم، كان من شأنه تمكين بريطانيا من التحكم فى ثغر الكويت ومضاحيه ، وأن يجعل بالتالى الموقع المقترح للمحطة النهائية للخط الحديدى

(١) Somervell D.C.; Modern Europe 1871-1939, p. 58.

(٢) نكتور سيد نوال ، الأوضاع السياسية إلخ الكتاب الأول ، مرجع سبق ذكره ، وثيقة رقم ٢ ، ص ٢٥٩ .

(٣) نكتور جمال زكريا قاسم ، الخليج العربى إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٨-٢٨٧ .

على الجانب الشمالى من خليج الكويت فى متناول المدفعية البريطانية (١) . وتمهدت بريطانيا بتوارث حكم الكويت فى أسرة الشيخ مبارك آل صباح ، وتمهد مبارك بالآ يفرض ضرائب أوروبياً جمركية على الأرض المؤجرة ، أو أى أرض أخرى تستأجرها بريطانيا فيما بعد من الشيخ مبارك أو من خلفائه من بعده ، واحتفظت الحكومة البريطانية لنفسها بحق إيجار منطقة بلدر الشيخ فى أى وقت تشاء (٢) .

معارضة الروسيا وفرنسا للمشروع :

كشفت الروسيا عن معارضتها الصافرة لمشروع الخط الحديدى ؛ إذ رأت فيه تهديداً مباشراً للمصالح الروسية فى أرمينيا وفى غيرها من المناطق المجاورة ؛ إذ سيكون فى مقدور الدولة العثمانية أن تنقل قواتها المسلحة بسرعة إلى آسيا الصغرى (٣) .. أما فرنسا فقد رأت أن الخط الحديدى ، الذى تقرر إنشاؤه سيؤثر على قناة السويس التى هى قبل كل شيء عمل فرنسا شامخ ، اعتمد فى أول إنشائه على رموس الأموال الفرنسية والعلم الفرنسى . واعتقدت فرنسا أن الخط الحديدى سوف يهبط بأرباح الرعايا الفرنسيين من حملة أسهم شركة القناة ، كما أن الخط الحديدى سوف يؤثر فى المدى البعيد وعلى نحو من الانحاء على الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار . وتكونت جبهة معارضة لمشروع الخط الحديدى من بريطانيا والروسيا وفرنسا وهى دول الوفاق الثلاثى ، وتوقف العمل أكثر من ست سنوات بعد أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٠٤ فى إنشاء الخط الحديدى من قونية فى اتجاه بغداد بسبب المعوقات المالية والصعاب السياسية ، التى أثارها دول الوفاق الثلاثى فى وجه ألمانيا والدولة العثمانية . وأغلقت الدول الثلاث أبواب مصارفها وأسواق بورصاتها المالية فى وجه القروض التى حاولت الشركة الألمانية أن تعقدتها لتمويل المشروع (٤) ، ونزعمت بريطانيا المعارضة ، بدوعيتها المالية والسياسية ، من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩١٠ ، وشجعت قيام حملات مكثفة وواسعة ضد المشروع ، شاركت فيها الغرف التجارية فى معظم دول أوروبا وأصحاب شركات الملاحة البحرية . ووقع عبء التصدى لهذه المعارضة على عاتق ألمانيا ، أكثر من وقوعه على عاتق الدولة العثمانية لتمييز ألمانيا فى مجالات العمل الدبلوماسى ، من حيث : الخبرة ، وتنوع الأجهزة الفنية ، وتعدد البدائل الدبلوماسية لحل المشكلات .

* * *

(١) دكتور سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .
ولم تنسحب بريطانيا من هذه المنطقة المؤجرة لها إلا بعد الحرب المالية الأولى وهزيمة ألمانيا ، ووضع خريطة سياسية جديدة لمنطقة الشرق الأوسط تمنع ظهور هذا الخط مرة أخرى .

(2) Dickson H.R.P.; op. cit., p. 141.

(٣) رنوفان بيبير : تاريخ العلاقات الدولية ، الجزء الأول ، القرن التاسع عشر (١٨١٥-١٩١٤) تعريب دكتور جلال يحيى ، دار المعارف ، الإسكندرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠ ، ص ٦٣٤ .

(٤) المرجع السابق ، ذات الصفحة .

الفصل التاسع

اتفاقات بين خمس دول كبرى حول مشروع الجناح الآسيوي لتطريق ب. ب. ب الحديدى

ألمانيا والدولة العثمانية تبدلان جهوداً دبلوماسية

حاولت ألمانيا الاقتراب دبلوماسياً من كل دولة من دول الوفاق الثلاثى على حدة للتغلب على معارضتها للخط الحديدى. ولكنها أدركت أن هذه الدول مصممة على إجراء محادثات أو مفاوضات جماعية رباعية، تكون ألمانيا طرفاً فيها، وأطلق عليها بلغة تلك الأيام *Négotiations à quatre* وإزاء هذا التكتل الدبلوماسى، لم تعد الدبلوماسية الألمانية وسيلة لإحداث ثغرة أو صدع فى وحدة الصف بين الدول المعارضة ابتغاء عقد اتفاق ثنائى مع كل منها على انفراد، كما حاولت الدولة العثمانية الاتصال بالحكومتين البريطانية والفرنسية فى هذا الصدد.

اتفاق بوتسدام سنة ١٩١١ :

لاحق الفرصة الأولى فى نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٠ فى أثناء زيارة نيقولا الثانى قيصر روسيا لولهم الثانى إمبراطور ألمانيا فى بوتسدام Potsdam^(١)، وتناولت مباحثات وزيرى خارجية الدولتين موضوعين رئيسيين : هما العلاقات الألمانية الروسية فى أوروبا وفى المنطقة العثمانية الفارسية . وحاولت ألمانيا عبثاً انتزاع الروسية من دول الوفاق فيما يتصل بالمسائل الأوروبية، وظلت متمسكة بجعل موضوعات البحث محصورة فى مسائل اتصالاً مباشراً أو غير مباشر بالخط الحديدى من الأناضول إلى بلاد الشام إلى العراق . وأسفرت المباحثات عن اتفاق عقد فى بوتسدام فى ١٩ من أغسطس - آب - سنة ١٩١١ . وقد نفذ الاتفاق بمجرد التوقيع عليه، وقام فى لحته وسداه على تبادل المصالح بين الدولتين . فتعهدت ألمانيا بالأ تقويم عراقيل فى وجه الروسى، عند حصولها على امتياز بإنشاء شبكة من الخطوط الحديدية فى فارس (إيران) . وفى مقابل ذلك جاء فى المادة الثالثة تعهد من الحكومة الروسية

(١) تقع فى بروسيا على بحيرة هافل La Havel ، وتشتهر بقصورها وحدائقها، ومن أهم قصورها Chateau Royal أى القصر الملكى ، ويطلق عليه أيضاً مقر الضيافة . ومن أشهر حدائقها «سان سوي» Parc de Sans-Souci . ويطلق البعض على بوتسدام اسماً معبراً هو فرساي بروسيا Le Versailles de la Prusse : أى إنها تضاهى فرساي ضاحية باريس بقصورها وحدائقها ومبانيها .

بألا تتخذ أى إجراء ، يكون عقبة فى إنشاء سكة حديد بغداد أو فى منع تمويل رأس المال لهذا المشروع ؛ نظراً للأهمية العامة التى يحققها إنشاء سكة حديد بغداد للتجارة الدولية ، على أن يكون مفهوماً بطبيعة الحال ألا يتسبب هذا المشروع فى أضرار مالية أو اقتصادية للروسيا . وقد جاء النص الرسمى للصياغة اللفظية لهذا التعهد الروسى باللغة الإنجليزية على النحو التالى :

In view of the general importance which the realization of the Baghdad railway has for international commerce, the Russian Government engages itself not to take any step that might prove an obstacle to the construction of the railway, or prevent the participation of capital in this enterprise. Always, of course, with the understanding that no pecuniary or economic damage would accrue thereby to Russia. ^(١)

على هذا النحو استطاعت الدبلوماسية الألمانية أن تكفل على معارضة الروسيا لمشروع الخط الحديدى .

مشروع الاتفاق على الجناح الآسيوى لطريق ب. ب. ب.

بين الدولة العثمانية وبريطانيا (٢٩ من يوليو - تموز - ١٩١٣) :

بذلت الحكومة العثمانية من ناحيتها جهوداً متواصلة للتغلب على معارضة الحكومة البريطانية لمشروع الجناح الآسيوى لطريق ب. ب. ب. الحديدى . وقد سبق أن ذكرنا أن المعارضة البريطانية قد أخذت صورتين : صورة دبلوماسية وأخرى مالية بمنع رموس الأموال البريطانية وأصحاب الأموال فى الدول المتحالفة معها من الإسهام فى تمويل المشروع ، كما رفضت الموافقة على زيادة الرسوم الجمركية فى الدولة العثمانية لحرمان الحكومة من أى حصيله جديدة توجهها لتمويل المشروع . ولم يكن يضير بريطانيا أن يتأخر تنفيذ المشروع الحديدى أو أن يوضع على الرف تمهيداً لأصرف للنظر عنه نهائياً ، على عكس الدولة العثمانية وألمانيا . وكانت بريطانيا تزدد اعتقاداً بمضى الأيام أن أمن الهند سيتأثر إذا بلغ الخط الحديدى المقترح مياه الخليج العربى ، ولذلك اتجه اهتمام الحكومة البريطانية إلى جعل نهاية الخط الحديدى عند البصرة - على أكثر تقدير - بعيداً عن الخليج العربى ، حتى تضمن عدم الإضرار بالتجارة البريطانية من ناحية ، وبمركزها الحريى فى الخليج العربى والهند والبحار الشرقية من ناحية أخرى . وكان من مظاهر مرونة الدبلوماسية البريطانية أنها تركت الباب مفتوحاً أمام مد الخط الحديدى من البصرة إلى مياه الخليج فى قابل الأيام بشروط وضعتها ، وكان رائدها فى

(1) Hurewitz J.C., op. cit., vol. i, Doc. No. 106.

Potsdam Convention on the Baghdad Railroad. Russia and Germany, pp. 267-268.

هذا المد المحتمل أنه قد تطرأ أوضاع جديدة، تجعل مد الخط إلى مياه الخليج ضرورة عسكرية أو اقتصادية وأنه في مصلحة بريطانيا اغتنامها .

ولما وافقت بريطانيا آخر الأمر على الوصول إلى تسوية لموضوع الجناح الآسيوي لطريق ب. ب. ب. للحدودي، طالبت بوضع ثلاثة اتفاقات ثنائية على النحو التالي : بين الدولة العثمانية وبريطانيا ، بين ألمانيا وبريطانيا ، بين الدولة العثمانية وألمانيا . وبعد عمل استطلاع أكثر من سنتين، كانت تجتمع لجان دبلوماسية وهندسية ومالية واقتصادية وضع الاتفاق الأول وتلاه الاتفاق الثاني ، أما الاتفاق الثالث فلم يتسع الوقت للفراغ منه بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى .

وقد وضع الاتفاق بين الدولة العثمانية وبريطانيا في ٢٩ من شهر يوليو - تموز - سنة ١٩١٣ ، وجاء في خمسة أقسام تناولت الكويت ، قطر ، البحرين ، الخليج العربي (الفارسي) وقسم أخير خاص بتشكيل لجنة التسوية لمشكلات الحدود ^(١)، وبهذا هذا القسم الخاص بالكويت.. فقد جاء فيه أن بريطانيا تعترف بسيادة الدولة العثمانية على الكويت، التي تضم الأراضي والجزر المجاورة حسب ادعاءات للشيخ مبارك آل صباح ، وتؤلف قضاء ^(٢) متمتعة بالاستقلال الذاتي ضمن الدولة العثمانية، التي تهدف ألا تتدخل في شئون الكويت ولا ترسل إليها جنوداً . وجاء في ملحق سرى أصيف إلى الاتفاق أن المقصود من عبارة عدم التدخل في شئون الكويت يشمل الشئون الداخلية والخارجية، ^(٣) . ونص ، تأكيداً لهذا المعنى ، على أن الدولة لا تتدخل في وراثته الحكم ، ولكن إذا خلا منصب حاكم الكويت بوفاته ، يصدر السلطان فرماناً بتعيين حاكماً للكويت بقلب قائم مقام خلفاً للقائم مقام المتوفى .. وللسلطان الحق في أن يبعث مندوباً ، قوميسيراً عثمانياً، لدى شيخ الكويت لرعاية المصالح العثمانية والرعايا العثمانيين التابعين لأجزاء أخرى من الدولة العثمانية ، كما نص في الاتفاق على أن تعترف الدولة بالاتفاقيات التي سبق أن عقدتها بريطانيا مع شيخ للكويت ، وجاء في صلب الاتفاق تواريخ هذه الاتفاقيات على سبيل الحصر ، وقررت الاتفاقية أنه تبعاً لهذا الاعتراف لا يطرأ أي تغيير على العلاقات البريطانية الكويتية فتستمر كما هي . وقد رأينا أن هذه الاتفاقيات قد ربطت الكويت إلى بريطانيا ربطاً محكماً ، وقد أعطت هذه الفقرة حاكم الكويت مزيداً من القوة والحصانة تجاه الدولة العثمانية وألمانيا فلا يتنازل لإحدهما أو للآخرين معاً عن أي قطعة أرض في الكويت ، سواء بالبيع أو الإيجار لبناء محطة نهائية للجناح الآسيوي لطريق ب. ب. ب.

(١) النص الكامل لمشروع هذا الاتفاق منشور في :

Hurewitz J.C.; op. cit, vol. 1, doc. no., 108, pp. 269-272.

(٢) قضاء مصطلح تاريخي معناه وحدة إدارية .

(٣) ساطع المصري : الدولة العثمانية إلخ ، مرجع سبق ذكره ص ٢٠٠ .

الحديدى ، وتعد تلك الفقرة فى المصطلح القانونى «تزيده» أريد بها تأكيد ماورد وماسيرد فى الاتفاقات الدولية الخاصة بهذا المشروع الحديدى . ونص أيضاً على أن تعترف الدولة بالتنازلات التى أقرها شيخ الكويت عن أراض فيها لبريطانيا وللرعايا البريطانيين ، وعلى ألا تنشأ فى الكويت دوائر جديدة غير دائرة البريد البريطانية الموجودة آنذاك .

وتقرر فى المادة الثامنة من القسم الخاص بالكويت أنه فى حالة موافقة الحكومتين العثمانية والبريطانية على مد الخط الحديدى بغداد - البصرة إلى ساحل البحر، لينتهى فى الكويت أو فى موقع آخر فى القسم ذاته .. فإن الحكومتين تتفقان على الإجراءات التى تتخذ بهدف حماية الخط والمحطات ، وكذلك إقامة مكاتب الجمارك ومستودعات البضائع وأى منشآت أخرى تتعلق بالطريق الحديدى .

In the event that the Ottoman Imperial Government agrees with the Government of His Britannic Majesty to prolong the Baghdad Basrah railroad to the sea at the Kuwayt terminal or to any other terminal in the autonomous territory, the two Governments will agree on the measures to be taken concerning protection of the line and the stations as well as the establishment of customs offices. merchandise depots and any other installation connected with the railroad.

وليس فى هذا النص أى التزام على الحكومة البريطانية بمد الخط الحديدى إلى ساحل الخليج العربى .. قلها أن ترفض أى عرض من الحكومة العثمانية بإيصال الخط إلى مياه الخليج، كما أنها احتاطت فحددت المنطقة التى ينتهى عندها الخط الحديدى، وهى مشيخة الكويت؛ لأنها فى منطقة النفوذ البريطانى .

مشروع الإتفاق بين فرنسا وألمانيا (١٥ فبراير - شباط - ١٩٩٤) :

كانت فرنسا إلى قيام الحرب العالمية الأولى تأتى فى المرتبة الثانية بعد ألمانيا، فى ميدان الاستثمارات المالية، فى مشروعات السكك الحديدية فى الدولة العثمانية . وقد تركزت المشروعات الحديدية الفرنسية، حتى ذلك الوقت، بوجه خاص فى سورية وفلسطين والأناضول. وكانت فرنسا فى مقدمة الدول الأوروبية التى أسهمت تلقائياً فى تمويل الجناح الآسيوى عن طريق ب. ب. ب. أو مايسمى سكة حديد بغداد ؛ لأن هذا الخط يمتد فى أرجاء قريبة من الخطوط الحديدية العثمانية ، التى أسهمت فرنسا فى تمويلها مالياً ورغبة من حكومة باريس فى دعم مركزها فى الدولة العثمانية ، ولكنها عادت فأجمعت عن المضى فى هذه السياسة بسبب المعارضة العنيفة ، السياسية والمالية ، التى رفعت بريطانيا لواءها ضد المشروع ،

ونجحت الدبلوماسية البريطانية في استقطاب فرنسا نحوها في الموقف المعارض . ولكن حدث أن تباينت الأحداث بعد ذلك سراعاً ، فقد عقد في ١٩ من شهر أغسطس - آب - سنة ١٩١١ اتفاق بوتسدام بين ألمانيا والروسيا بشأن الجناح الآسيوي لطريق ب. ب. ب. الحديدى ، وبهذا الاتفاق تخلت روسيا عن معارضتها للمشروع ، ثم استفاضت الأنباء بقرب إبرام اتفاق بين الدولة العثمانية وبريطانيا حول الموضوع ذاته ، فاجتاحت باريس في ربيع سنة ١٩١٣ موجات من القلق على مصير الاستثمارات الفرنسية في مشروعات السكك الحديدية للعثمانية في الدولة العثمانية . ومن ناحية أخرى كان مركز الدولة العثمانية حرجاً للغاية في ذلك الوقت بسبب الهزائم ، التي نزلت بها إبان العدوان الإيطالى على ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بنى غازى (١٩١١-١٩١٢) ، وسبب الهزائم التي حاقت بها في حربى البلقان الأولى والثانية (١٩١٢-١٩١٣) ، فجاءت هذه الكوارث العسكرية للمتلاحقة ، التي أصابت في الصميم سمعة النظام الجديد ، في الدولة العثمانية ، بعد عزل عبدالحميد سبياً جديداً ومهماً ، جعل فرنسا تترىث في تحديد موقفها تجاه مشروع الجناح الآسيوي لطريق ب. ب. ب. الحديدى . ولن يضير فرنسا أن ترقب عن كثب موقف الدولة العثمانية والدول الأوروبية الكبرى . أما عن الدولة العثمانية .. فقد استبان لفرنسا أن رجال الاتحاد والترقى لا يقفون تحمساً عن السلطان عبدالحميد لذلك المشروع ، وأنهم ينظرون إليه على أنه على قمة مشروعات الانفتاح الاقتصادى وتطوير المواصلات وتعزيز وسائل الدفاع ، وكانت الحكومة العثمانية قد نجحت في عقد قرض عرف باسم قرض الجمارك بإستانبول لسنة ١٩١١ ، قدمه جماعة من أصحاب الأموال الألمان ، وقد بلغت قيمته ستة وستين مليوناً من الفرنكات ، وأوعز الباب العالى إلى ألمانيا بالاتصال بفرنسا وسبر غورها وتشجيعها على الاقتراب مالياً من المشروع . ونجحت الدبلوماسية الألمانية في التقريب بين فرنسا والدولة العثمانية في موضوع المشروع وكان ولهم الثانى إمبراطور ألمانيا قد تنازل لفرنسا عن مطالبه الدينية في الأراضى المقدسة في فلسطين (١) ، وأرسل الباب العالى في صيف ١٩١٣ محمد جاويد بك (٢) ناظر المالية إلى باريس ليشارك في المباحثات ، التي انطلقت بعد ذلك إلى برلين حيث وقع للبنك الإمبراطورى العثمانى والبنك الألمانى بالأحرف الأولى على الاتفاق وملحقاته فى ١٥ من شهر فبراير - شباط - سنة ١٩١٤ بشرط الرجوع إلى الحكومات المعنية ad referendum ، وكان وجود ممثلين للحكومتين الألمانية

(١) نكتور جمال زكريا قاسم ، الخليج العربى الخ (١٨٤٠-١٩١٤) ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٢ .

(٢) رجل دولة ومن أقطاب الاقتصاد ، ولد سنة ١٨٧٥ فى سالونيك ، حيث كان أبوه تاجراً . تلقى المراحل الأولى من تعليمه فى كل من سالونيك وإستانبول ، وخرج فى المدرسة الملكية (انظر التعليم على عهد عبدالحميد) سنة ١٨٩٦ ، وعمل فى البنك الزراعى ، ثم التحق بخدمة نظارة المعارف وتدرج فى مناصبها ، واتجه إلى الاشتغال بالسياسة ، فانضم إلى «عثمانلى اتحاد وترقى جمعيتى» أى جمعية الاتحاد والترقى العثمانية . وكانت هذه الجمعية هى النواة التى تكونت فى مقدونية عن حزب تركيا الفتاة المناهضة لحكم السلطان=

والفرنسية والنص على تبادل المذكرات بين الحكومتين مما أعطى الاتفاق الطابع الرسمي ، ولكنه لم يدخل مرحلة التنفيذ ، لأنه كان يتوقف على عقد اتفاق بين ألمانيا والدولة العثمانية بشأن الجناح الآسيوي من طريق ب. ب. ب. ، ولم يتم وضعه لأن الحرب العالمية الأولى كانت قد فاجأت العالم فتوقف تنفيذ الاتفاق .

ويتكون الاتفاق من أربع عشرة مادة ومن ملحقين ، وهو يأخذ في طابعه العام صورة

= عبد الحميد . وهفت نفس جاويد إلى الجمع بين السياسة والاقتصاد فمين في سنة ١٩٠٨ محاضراً في الاقتصاد والإحصاء ، وكان له إنتاج علمي في إنشاء إقامته في سالونيك وإستانبول في تلك الفترة مثل «علم اقتصاد» أربعة مجلدات ، سنة ١٩٠٥ ، وأعيد طبعه سنة ١٩١٢ ، ونشر مجلة علمية اسمها «علوم اقتصادية واجتماعية مجموعة سى» سنة ١٩٠٩-١٩١١ ، بالاشتراك مع أحمد شبيب ورضا توفيق .

وعقب انقلاب سنة ١٩٠٨ انتخب نائباً لسالونيك من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٢ ، وبيغا (جناق قلعه ، من سنة ١٩١٢ حتى سنة ١٩١٨) ، ووقع عليه الاختيار ناظراً للمالية عدة مرات : سنة ١٩١٠ ، ١٩١٢-١٩١٤ ، ١٩١٧-١٩١٨ وعضواً في المجلس العام لحزب الاتحاد والترقي من سنة ١٩١٦ إلى سنة ١٩١٨ ، وكان مقرر اللجنة الموازنة العامة للدولة . وياشر في السنوات التي تولى فيها نظارة المالية مفاوضات دقيقة في باريس ، وغيرها من الحواضر الأوروبية لعقد قروض الدولة العثمانية .

وامتثال جاويد مع عدد من الوزراء بعد أن دخلت الدولة الحرب في ٥ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٤ اعتراضاً على سياسة أنور باشا المخاضة إلى ألمانيا ، ثم عاد وبخل الوزارة نتيجة ما أبداه طلعت باشا . وكان جاويد هو الوزير الوحيد في وزارة الحرب لحزب تركيا الفتاة ، الذي احتفظ بمنصبه في وزارة عزت باشا (١٤ من أكتوبر - تشرين أول - إلى ١٤ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٨) .

وعلى أثر إعلان الهدنة ، عمد جاويد إلى الاختفاء هرباً من موجة الاضطهادات ، التي تعرض لها رجال حزب الاتحاد والترقي . ولم يمنع اختفاؤه من محاكمته غيابياً ، وأصدرت محكمة في إستانبول حكماً عليه في يوليو - تموز - سنة ١٩١٩ بالسجن خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة . وعلى الرغم من صدور هذا الحكم تزوج عليه هانم مطلقة الأمير برهان الدين ابن السلطان عبد الحميد الثاني ، وعاد جاويد إلى إستانبول سنة ١٩٢٢ ، وعمل ممثلاً للدائنتين العثمانيين في مصلحة الدين العثماني العام . واستعانت به الحكومة التركية بزعامة مصطفى كمال : ليعمل مستشاراً للوفد التركي أمام مؤتمر الصلح في لوزان (١٩٢٢-١٩٢٣) .

وجاءت خاتمة حياة جاويد محزنة ، فقد صدر الأمر باعتقاله عقب المحاولة التي بذلت سنة ١٩٢٦ لاغتيال مصطفى كمال ، وحوكم أمام محكمة الاستقلال الخاصة في أزمير في ٦ من شهر يوليو - تموز - وأنقرة في - أب - في السنة ذاتها بتهمة التآمر لإحياء حركة الاتحاد والترقي ، ولقلب نظام الحكم . وكانت نقطة الضعف في موقفه ، ولم يستطع لها دفعاً أن زعماء حزب الاتحاد والترقي السابق اجتمعوا في منزله في إستانبول في ١٦ من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٩٢٣ ، ولكن لم ينسب إليه القيام بأعمال معينة أو محددة أو مريحة تعد خيانة علمية . ومع ذلك صدر عليه الحكم بالإعدام مع الزعماء السابقين لحزب الاتحاد والترقي ، وتم تنفيذ حكم الإعدام في محمد جاويد شنقاً في حي جيه جي ، في اليوم السادس والعشرين من شهر أغسطس - آب - سنة ١٩٢٦ .

انظر :

فريدة من الاتفاقات التي تعقد بين مؤسسات متعددة الجنسيات، يتم فيها تسجيل أهداف كل مجموعة من هذه المؤسسات وتحديد نشاطها بما لا يدع مجالاً للمناصفة بينها، ويقوم الاتفاق بين مجموعتين :

المجموعة الفرنسية : ويمثلها البنك الإمبراطوري العثماني الذي يتعاقد باسمه ، ويلوب عن ، ويتعاقد ، باسم الشركة العثمانية لسكة حديد دمشق - حماه وتعيدانها ، والشركة التي هي لاتزال في دور التكوين لإنشاء وتشغيل الخط الحديدي في منطقة البحر الأسود ، وقد سجل الاتفاق أن إنابة البنك العثماني مرخص بها قانوناً .

المجموعة الألمانية : ويمثلها البنك الألماني الذي يتعاقد باسمه ، ويلوب عن ، ويتعاقد ، باسم الشركة العثمانية لسكة حديد الأناضول والشركة العثمانية الإمبراطورية لسكة حديد بغداد ، وسجل الاتفاق أن إنابة البنك الألماني مرخص بها قانوناً .

وفي الاتفاق أفصحت كل مجموعة من هاتين المجموعتين عن المشروعات العاجلة والآجلة ، التي ينبغي تنفيذها في الممتلكات العثمانية في غربي آسيا ^(١) .

(١) أعلنت المجموعة الفرنسية أنها تسعى في ذلك الوقت (١٩١٤) للحصول على عقد امتياز من الحكومة العثمانية بمنحها حق إنشاء واستغلال خط حديدي كامل، يمتد من البحر الأسود ، ومن المواقع الآتية : سامسون Samsun ، سيواس Sivas ، خارپوت Kharput مع مده إلى بتليس Bitlis ، ووان Van في اتجاه الشرق ، وإلى كاستامونو Kastamonu ، وبولو Bolu في اتجاه الغرب .

وأعلنت المجموعة الألمانية أنها أحيطت علماً ببرنامج المجموعة الفرنسية ، ثم أعلنت أنها هي الأخرى تعتزم الحصول من الحكومة العثمانية على امتياز لإنشاء واستغلال خطوط حديدية، تستهدف ربط مجموعة سكة حديد بغداد وسكة حديد الأناضول مع مجموعة سكة حديد البحر الأسود إلى سيواس Sivas عن طريق كايسري Kayseri ، وإلى إرجاني مانن Ergani Maden عن طريق ديار بكر .

ولما كانت سكة حديد بغداد ، وهي في المجموعة الألمانية ، تتصل بحلب . وكانت سكة حديد دمشق - حماه وتعيدانها ، وهي في المجموعة الفرنسية ، تتصل بطرابلس الشام . ومنعاً لأي منافسة بين الشركتين ، فقد انتقلت المجموعتان على إجراءات معينة، ورد ذكرها في المواد من ٤ إلى ٦ .

وتعرض الاتفاق أيضاً لعمليات التمويل المالي والاتجاه إلى التحكم عند حدوث خلاف في تفسير الاتفاق ، كما نص على ضرورة موافقة الحكومتين الفرنسية والألمانية على الاتفاق . أما التصديق النهائي على الاتفاق فيتوقف على :

(أ) : عقد اتفاق بين المجموعة الفرنسية والحكومة العثمانية يتناول الخطوط الجديدة التي تطالب المجموعة الفرنسية بصور امتياز لها .

(ب) : عقد اتفاق بين المجموعة الألمانية والحكومة العثمانية، يتناول الخطوط الحديدية لسكة حديد بغداد وسكة حديد الأناضول .

(ج) : وضع اتفاق مالي بين المجموعتين الألمانية والفرنسية يتضمن تسوية مصلحة المجموعة الفرنسية في مشروع سكة حديد بغداد . وقد أفرد الاتفاق الملحق رقم ٢ لشرح قواعد هذا الاتفاق المالي =

اتفاق ألماني بريطاني يونيوي - حزيران - ١٩١٤ :

بقيت أمام ألمانيا المعارضة المتعددة لبريطانيا . وقد واجهتها الدبلوماسية الألمانية ببراعة ، على الرغم من أن الجو السياسى العام بينهما كان يزداد سوءاً بمضى الأيام ، وكانت الدولتان تسيران بخطى سريعة نحو صدام دموي رهيب ، وكانت إعادة تنظيم شركة البترول العثمانية تمثل إحدى المشكلات المعقدة بين الحكومتين العثمانية والبريطانية ؛ إذ كانت هناك حتى سنة ١٩١٣ ثلاث هيئات تتنافس على استغلال البترول في العراق^(١) ، وتدخلت الحكومة الألمانية لتسوية هذه المسألة الشائكة ، وتوجت جهودها بإبرام اتفاق في ١٩ من مارس - آذار - سنة ١٩١٤^(٢) .

وكان لهذا الجناح أثره في تسوية موضوعات للخلاف بين الحكومتين البريطانية والألمانية حول الجناح الآسيوي لطريق ب. ب. ب. الحديدى . وقبل هذا النجاح كان هناك عامل آخر ساعد على تفهم الحكومة البريطانية لحقيقة الأوضاع في مشروع الخط الحديدى ؛ إذ كان العمل في مده يسير بخطى سريعة .. كان رئيس للبنك الألماني قد أبدى في سنة ١٩٠٩ ارتياحه عن سير العمل في المسافة البالغة ٢٨٩٣ كيلو متراً من إستانبول إلى البصرة ، فقد تم فتح ٩٤٦ كيلو متراً لحركة نقل المسافرين والبضائع ، وكانت المسافة البالغة ٨٤٠ كيلو متراً عبر جبال طوروس وأمانوس تحت الإنشاء ، وأنه لم يبق سوى ما يقرب من ١,١٠٠ كيلو متر، وهى

= النص الكامل لمشروع الاتفاق بين فرنسا وألمانيا أو بين البنك الإمبراطورى العثمانى والبنك الألمانى منشور في :

Hurewitz J.C., op., vol.,I, doc. no., 110, àp. 273-276.

(١) كانت هذه الهيئات الثلاث هى :

(أ) البنك الألماني Deutsche Bank .

(ب) شركة الزيت الإنجليزية الفارسية The Anglo-Persian Oil Company ، وكانت الحكومة البريطانية تملك النصيب الرئيسى فى رأس مال هذه الشركة .

(ج) شركة الزيت الأنجلو سكسون The Anglo-Saxon Oil Company ، وكانت تتساند معها مالياً شركة شل الملكية الهولندية .

The Royal-Dutch Shell Company.

(٢) يطلق على هذا الاتفاق المصطلح التالى :

ترتيب لإعادة تنظيم شركة البترول التركية بمعرفة جماعة أرسى ، والبنك الألمانى ، وشركة البترول الأنجلوسكسون .

Arrangement for Re-organizing The Turkish Petroleum company: By The D'Arcy Group, The Deutsche Bank And The Anglo-Saxon Petroleum Company.

وانظر :

Hurewitz J.C.; op. cit., vol., 1, pp. 276-278.

Foreign Relations of the United States, 1927, vol. 2, pp. 821-822.

أسهل أجزاء الخط الحديدى . وفى مطلع سنة ١٩١٤ كان لخط يتغلغل فى العراق بإنجاز الخط الممتد من بغداد إلى سامراء ، وابتداء العمل فى المسافة بين سامراء وتكريت من ناحية ، وبين بغداد والحلة من ناحية أخرى (١) . وأدركت الحكومة البريطانية بمزيد من الوضوح عدم جدوى إثارة العراق أمام المشروع ، وأن مصلحتها تقتضى الوصول إلى اتفاق حول المشروع . وكانت الحكومة الألمانية دائماً راغبة فى التفاهم حول المشروع وانتهاج سياسة الحكمة والروية ، وقد تضافرت هذه العوامل مجتمعة على الرغبة فى تخفيف حدة التوتر الدولى ، وعلى توصيل الحكومتين البريطانية والألمانية إلى وضع اتفاق فى ١٥ من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٩١٤ ، قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بشهر وبعض شهر . وقد وقع على هذا الاتفاق بالأحرف الأولى كل من إدوارد جراى Edward Grey وزير الخارجية البريطانية ، والأمير كارل ماس ليكنوسكى Prince Karl Mas Lichnowsky السفير الألمانى فى لندن ، وألحقت بالاتفاق منكرة تفسيرية .

ويقوم هذا الاتفاق على مبادئ عامة واستبعاد بعض مواد من المشروع جاءت فى عقد الامتيازات، ورأت الحكومة البريطانية أنها تتعارض مع مصالحها فى الشرق العربى الآسيوى؛ خاصة فى منطقة الخليج العربى . ومن المبادئ العامة اعتراف الحكومة البريطانية بالأهمية العامة التى تعود على التجارة الدولية من استكمال الجناح الآسيوى لطريق ب. ب. الحديدى . وتأسيساً على هذا الاعتراف تتعهد الحكومة البريطانية بالأتخذ ولا تشجع أى إجراءات قد تعوق إنشاء أو إدارة الخط بواسطة الشركة صاحبة الامتياز ، كما تتعهد بالأتقف فى وجه عمليات تمويل المشروع ، ولكن بشرط أن تضمن الحكومة الألمانية قبول عضوين بريطانيين توافق عليهما الحكومة البريطانية كممثلين لحملة الأسهم البريطانيين فى مجلس إدارة الشركة صاحبة الامتياز . ومعنى هذا النص أن للحكومة البريطانية وافقت على الإسهام فى تمويل المشروع، سواء بالسماح للرعايا البريطانيين بشراء أسهم الشركة التى تتولى إنشاء الخط الحديدى أو بصورة أخرى من صور التمويل . وأعلنت الحكومتان الألمانية والبريطانية أنهما فيما يخصهما توافقتان على ما جاء فى عقد الامتياز، الذى أصدرته الحكومة العثمانية فى اليوم الخامس من شهر مارس - آذار - سنة ١٩٠٣ لشركة سكة حديد الأناضول، وأنهما تستخدمان أفضل جهودهما لضمان تنفيذ . وتعهدت الحكومة البريطانية بتأييد زيادة الرسوم الجمركية فى الدولة العثمانية من ١١ ٪ إلى ١٥ ٪ ، ووافقت على تخصيص هذه الزيادة لتنفيذ مشروع الجناح الآسيوى لطريق ب. ب. ب. الحديدى .

(١) دكتور زكى صالح : مجمل تاريخ العراق الدولى إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٧.

تعديل جوهرى للمشروع :

على أن أهم ماتضمنه الاتفاق بين ألمانيا وبريطانيا هو تعديل نهاية الخط الحديدى؛ بحيث تصبح هذه النهاية عند البصرة فلا يصل الخط إلى ساحل الخليج العربى . وقد نص على هذا التعديل فى أكثر من موطن من الاتفاق ، ومعنى التعديل هو بتر الجناح الآسيوى لطريق ب.ب. ب الحديدى كما خططت له السياسة العليا لألمانيا لخدمة المصالح الألمانية ومناقضة قناة السويس ، لأنه بهذا التعديل حيل بين القطارات الحديدية والوصول إلى ساحل الخليج العربى . وكان من الأهداف الرئيسية لطريق ب.ب. ب الحديدى أن يتم فى ميناء ما على ساحل الخليج العربى تفريغ القطارات الحديدية، مما تحمله من بضائع ومنتجات أوروبية، ثم شحن هذه القطارات بالبضائع الشرقية إلى أقاليم الدولة العثمانية والدول الأوروبية حتى نهاية الخط فى برلين ، وقد جاء هذا التعديل انتصاراً للسياسة البريطانية .

ويدل التعمق فى للدراسة الوثائقية لهذا الاتفاق على أن الدبلوماسية البريطانية لم تغلق الباب تماماً أمام مد هذا الخط الحديدى، فى قابل الأيام إلى ساحل الخليج العربى، وهو ماكانت تخطط له الدبلوماسية الألمانية . ولعلها أرادت أن تتقابل مع ألمانيا فى منتصف الطريق ، ومن ثم لجأت إلى أنصاف الحلول ، وهى غلق الباب فوراً على أمل فتحه مستقبلاً إذا جدت أوضاع سياسية أو اقتصادية أو عسكرية، تسمح بمد الخط إلى الساحل العربى للخليج وبناء ميناء خاص بالخط ترفاً إليه السفن . وقد وردت فى الاتفاق الفقرة الأولى من المادة الثالثة على النحو الآتى «تعطى الحكومة الإمبراطورية الألمانية وحكومة صاحب الجلالة البريطانية أنهما لن تؤيدا بأى حال إنشاء فرع يخرج من البصرة (الزبير) ، أو من أى نقطة على الخط الرئيسى لسكة حديد بغداد إلى الخليج العربى (الفارسى) ، مالم وحتى يمكن الوصول إلى اتفاق كامل على الموضوع بين الحكومة الإمبراطورية العثمانية والحكومة الإمبراطورية الألمانية وحكومة صاحب الجلالة البريطانية» .

The Imperial German Government and His Britannic Majesty's Government declare that they will in no case support the construction of a branch from Basra (Zobeir) or from any point of the main line of the Baghdad Railway, to the Persian Gulf unless and until there is complete agreement on the subject between the Imperial Ottoman Government, the Imperial German Government, and His Britannic Majesty's Government.

ومؤدى هذا النص أن مد الجناح الآسيوى لطريق ب.ب. ب الحديدى إلى ساحل الخليج العربى أمر محتمل مستقبلاً ، وأنه منوط باتفاق جماعى نصل إليه حكومات ثلاث، هى : العثمانية والألمانية والبريطانية .

من نتائج تعديل نهاية الخط :

وقد استتبعت نهاية الخط عدة نتائج ، نص عليها صراحة في الاتفاق ، نذكر من بينها :

أولاً : حرم على الحكومة الألمانية أن تنشئ - بطريق مباشر أو غير مباشر - ميناء على الساحل العربي للخليج أو بناء محطة نهائية للسكة الحديدية هناك ، إلا إذا تم اتفاق كامل على هذا الموضوع بين الحكومتين الألمانية والبريطانية . وقد جاءت الصياغة اللفظية للفقرة الثانية من المادة الثالثة على النحو التالي : « تعان الحكومة الإمبراطورية الألمانية أنها لن تؤسس في أى حال ، أو تؤدى أى ادعاء لأى أشخاص ، أو هيئات مهما كانت ، لإنشاء ميناء أو إقامة محطة نهائية للسكة الحديدية على ساحل الخليج العربي (الفارسي) ، مالم ، وحتى يحدث اتفاق تام على للموضوع بين الحكومة الإمبراطورية الألمانية وحكومة صاحب الجلالة البريطانية . »

The Imperial German Government declare tha they will in no case themselves establish or support any claim by any persons or corporations whatsoever to establish a port or railway terminus on the Persian Gulf unless and until there is complete agreement on the subject between the Imperial German Government and His Britannic Majesty's Government.

ومؤدى هذا النص أن بريطانيا حرمت على ألمانيا إنشاء ميناء على الساحل العربي للخليج أو إقامة محطة سكة حديدية على ذات الساحل ، وكان هذا التحريم يتمشى قلباً وقالباً مع السياسة العليا لبريطانيا وهى منع ، بل مطاردة ، أى دولة تزوم إنشاء قاعدة بحرية لها على ساحل الخليج العربي تحت أى اسم مسددر . وكانت تنفذ هذه السياسة تنفيذاً صارماً ، لم تعد عنه قيد أنملة مع جميع الدول ، سواء الحليفة لها مثل فرنسا والروسيا ، أو غير الحليفة مثل ألمانيا وإيطاليا .

ويبدل أيضاً النص الوثائقى الذى ذكرناه على أن الموقف فى يد بريطانيا أكثر مما هو فى يد ألمانيا .. فإن إنشاء ميناء ومحطة سكة حديدية على ساحل الخليج العربي أمر منوط باتفاق الحكومتين الألمانية والبريطانية وحدهما ، فاستبعد النص الدولة العثمانية من ضرورة موافقتها على هذا الإنشاء المزودج كل الاستبعاد ، فالأمر هنا يخلف عن مد الخط الحديدى من البصرة إلى الساحل العربى للخليج ، فقد اشترط الاتفاق ، كما مر بنا ، ضرورة الموافقة التامة للحكومات الثلاث على هذا « التمديد » للخط الحديدى .

رابعا : تقرر فى الاتفاق الألمانى البريطانى أن تحتفظ الحكومة العثمانية بحق تحويل لجنة كان قد تقرر إنشاؤها فى سنة ١٩١٣^(١) بممارسة المراقبة على ميناء البصرة إلى جانب اختصاصاتها الأخرى ، من حيث تحسين ظروف الملاحة فى شط العرب .

خامسا : أعلنت الحكومة البريطانية فى الاتفاق أنها لن تؤسس فى أى حال ، وإن تؤيد أى ادعاء لأى أشخاص أو لأى مجموعات شركات ، بتأسيس مشروعات خطوط حديدية على أرض عثمانية ، وتكون منافسة بطريق مباشر لخطوط شركة سكة حديد الأناضول أو متفقة مع الحقوق القائمة لهذه الشركة ، مالم ، وحتى ، يكون هناك اتفاق تام وكامل على هذا الموضوع بين الحكومتين الألمانية والبريطانية . وتحقيقاً للغرض المستهدف من هذه المادة .. فإن النهاية الغربية لسكة حديد بغداد تكون قرنيه ، بينما تكون البصرة هى النهاية الشرقية لهذا الخط (مادة ٣ فقرة ٣) .

سادسا : تتفق الحكومتان الألمانية والبريطانية على أن تبذل مساعيها الحميدة لدى الحكومة العثمانية ؛ من أجل المحافظة على الملاحة فى شط العرب فى مستوى عال ، بحيث تكون السفن التى تخوض البحار مطمئنة فى أثناء إبحارها فى شط العرب إلى وصولها بسلامة إلى ميناء البصرة ، ومن أجل أن تضمن ألمانيا وبريطانيا أن الملاحة فى شط العرب تظل مفتوحة دائماً أمام السفن التى تخوض أعالي البحار ، وأن تخضع السفن من جميع الجنسيات لمبدأ المساواة المطلقة فى المعاملة ، بصرف النظر عن جنسياتها أو نوعية شحناتها . ومن المتفق عليه أيضاً أنه ليس الهدف من فرض الرسوم هو مجرد السماح للسفن بالملاحة فى شط العرب ، وإنما الهدف منها هو تغطية المصاريف الإدارية التى تحملها اللجنة ، وللإنفاق على عمليات تحسين المجردى المائى لشط العرب ، وللتسهيلات التى تتم فى الميناء . ويجب ألا تتجاوز قيمة هذه الرسوم فرنكاً عن كل طن من الحمولة الرسمية للسفينة .

سابعا : أحيطت الحكومة الألمانية علماً بالاتفاق الذى عقد فى ٢٩ من شهر يوليو - تموز سنة ١٩١٣ بين بريطانيا والدولة العثمانية ، وللذى تقرر فيه تأكيد حرية الملاحة فى شط العرب وتأكيد المساواة للتامة بين سفن جميع الأمم ، وأن لجنة قد تكونت لتتفقد أو لتقيام بالأعمال الضرورية لتحسين الملاحة فى مجرى المائى ، وغير ذلك من أعمال فنية . وترى الحكومة الألمانية أن مواد هذا الاتفاق ملائمة جداً وتؤدى إلى خدمة مصالح التجارة الدولية ، وهى تؤيد هذا الاتفاق طالما أنه لم يطرأ عليه تغيير جوهري ، وطالما

(١) كان قد تقرر إنشاء هذه اللجنة فى مشروع الاتفاق ، الذى عقد بين الدولة العثمانية وبريطانيا ، بتاريخ ٢٩ من شهر يبايى - تموز - ١٩١٣ .

أن اللجنة المشار إليها تؤدى واجباتها بطريقة مرضية (١) .

ثامناً : توافق الحكومة البريطانية فيما يخصها على إجراءات ، أولهما أن يكون للقنصل الألمانى فى البصرة الحق فى الاتصال باللجنة فى المسائل التى تدخل فى اختصاصاتها . وثانيهما أنه فى أى حالة تفشل فيها اللجنة فى الاستجابة للاحتياجات المعقولة لعمليات النقل التجارى فى شط العرب ، وترفض اللجنة أن تزيل أسباب الشكوى التى يقدمها القنصل الألمانى ، ونحال المسألة موضوع الشكوى إلى خبير محايد . ويتم تعيين هذا الخبير بالاتفاق بين عضوى اللجنة والقنصل الألمانى ، وإذا حدث أن قدم قنصل آخر شكوى مشابهة أو مطابقة للشكوى الأولى .. فإن هذا القنصل يسهم فى اختيار وتعيين الخبير المحايد . وإذا تعذر الوصول إلى إتفاق يرضى عنه جميع الأطراف .. فإن حضرة صاحبة الجلالة ملكة هولندة تدعى لتعيين حكم خبير ، وتبذل الحكومة البريطانية مساعيها الحميدة مع الحكومة الألمانية ؛ لكى تضمن المراقبة على التوصيات التى يقدمها الحكم الخبير .

ثاسماً : يعرض على التحكيم أى اختلاف فى الرأى ينشأ عن تفسير مواد هذا الاتفاق أو المذكرة التفسيرية الملحقة به . وإذا اختلفت الحكومتان الألمانية والبريطانية على تشكيل محكمة خاصة أو محكم .. فإنهما تعرضان للقضية على محكمة العدل الدولية فى لاهاي بهولندة .

ملاحظات على الخط الحديدى ومصيره وبذائله :

وإذا كانت الدبلوماسية الألمانية والدبلوماسية العثمانية قد نجحنا فى التغلب على معارضة روسيا وفرنسا وبريطانيا لمشروع الجناح الآسيوى من طريق ب.ب.ب الحديدى بعقد اتفاقات متتالية مع هذه الدول .. إلا أننا نسجل بعض الملاحظات على هذا النجاح :

كان نجاح الدبلوماسية الألمانية تجاه روسيا نجاحاً كاملاً ، فلم يرد فى اتفاق بوتسدام نص يمنع إيصال الخط الحديدى ، إلى مياه الخليج على ساحله العربى ، وتعهدت الروسية بعدم إقامة عراقيل فى مد الخط الحديدى وعدم إثارة عقبات فى تمويل المشروع مالياً .

أما نجاح الدبلوماسية الألمانية مع بريطانيا فكان نجاحاً محدوداً ؛ إذ نجحت بريطانيا فى إدخال تعديل على نهاية الخط يجعل مدينة البصرة هى محطته النهائية ، بدلاً من موقع ما على الساحل العربى للخليج ؛ حرصاً على مصالحها التجارية وتفوقها العسكرية فى منطقة الخليج .

(١) النص الكامل لمشروع هذا الاتفاق ولذكرته الإيضاحية، منشور فى :

Hurewitz J.C., op. cit., vol., 1, doc. no., 113 pp. 281-206.

وكانت أصالة التقاليد البرلمانية في إنجلترا هي التي جعلت الحكومة البريطانية تنزل على رغبة أعضاء مجلس العموم في إدخال هذا التعديل على المشروع .

وقد ذهبت الجهود التي بذلتها كل من ألمانيا والدولة العثمانية في سبيل التغلب على معارضة الدول الأوروبية أدراج الرياح ؛ لأن جميع الاتفاقات التي عقدت ، باستثناء اتفاق بوتسدام ، لم تدخل مرحلة التنفيذ ؛ إذ كان يتطلب تنفيذها صدور تصديق عليها من حكومات أخرى ، أو من المجموعتين الألمانية والفرنسية ، أو إبرام اتفاق بين الدولة العثمانية وألمانيا . ولم يتم شيء من ذلك قط ، على الرغم من أن الحكومة الألمانية قد أرسلت مذكرة في ١٤ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٣ إلى الباب العالي ، تتضمن اقتراحاتها بشأن الاتفاق المطلوب عقده بين برلين وإستانبول . ولكن لم تصل الحكومتان إلى النتيجة المرجاة بسبب كثرة الإيضاحات ، التي كان يطلبها الباب العالي عن بعض الفقرات التي وردت في مشروع الاتفاق مما استغرق وقتاً طويلاً ، حتى داهمت للعالم أنباء اشتعال الحرب العالمية الأولى . وبدلاً من استكمال مشروع حضارى ، سارعت بريطانيا وفرنسا والروسيا وألمانيا والدولة العثمانية وغيرها من الدول إلى صراع دموى لم يشهد له العالم في ضراوته من قبل مثيلاً . ونجم عن ذلك عدم تنفيذ هذه الاتفاقات وأطلق عليها ، باستثناء اتفاق بوتسدام ، وصف لاحق بها هو «مشروع» avant-projet ، وأصبحت تعرف هذه الاتفاقات في مجموعة الوثائق التاريخية باسم مشروع الاتفاق بين الدولة العثمانية وبريطانيا ، ومشروع الاتفاق الفرنسي الألماني ، ومشروع الاتفاق الألماني البريطاني . والواقع أن مشروع الجناح الآسيوى لطريق ب. ب. ب الحديدى وما أثاره من أزمات حادة بين الدول الأوروبية الكبرى رغبة في السيطرة واستغلال ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً ، كان إحدى المشكلات الكبرى في عالم ما قبل الحرب العالمية الأولى . وكانت تلك الاتفاقات الدولية وقفة في ميدان الصراع الدولى للنقاط الأنفاس بين المعسكرين المتحفرزين للحرب ، قبل أن يخوضا الصراع الدموى التخرىبي للرهبى (١) .

وإذا كان نشوب الحرب العالمية الأولى قد أوقف ثم ألغى هذه الاتفاقات .. فإن الخط الحديدى الذى كان محور هذه الاتفاقات قد أصبح حقيقة قائمة ، ولكن - كما يقول الأستاذ محمد شفيق غريال - ليس شرياناً للمواصلات من إستانبول إلى الكويت في دولة عثمانية عظمى (٢) ، بل هو يجرى في ثلاث دول هي تركيا وسورية والعراق .. أما الكويت فلم يمد فيها قط إلى اليوم (١٩٨١) خط حديدى واحد يربطها بالعراق ، أو المملكة العربية السعودية (٣) ، أو

(١) الدكتور زكى صالح : مجمل تاريخ العراق الدولى إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٧ .

(٢) محمد شفيق غريال . منهاج مفصل إلخ ، مرجع سبق ذكره . ص ١٩ .

(٣) يوجد بالمملكة العربية السعودية خط حديدى واحد ، يبدأ من الرياض إلى الظهران والنام في المنطقة الشرقية .

إيران ، أو إمارات الخليج العربي ، واقتصر اتصال الكويت بالعالم الخارجي براً على وسيلة السيارات ، أو بحراً ، أو جواً .

وقد تراجعت المصالح البريطانية عن مركزها المتميز في بعض الأقاليم العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد .. فقد حارب هذا السلطان المصالح البريطانية في العراق ، وقد أشرنا إليها في مواطن سابقة^(١) وفي الخليج العربي ، واتخذ من حركة الجامعة الإسلامية أداة سياسية لكبح جماح النفوذ البريطاني في العالم الإسلامي . كان عبد الحميد ينقم على بريطانيا ضغطها عليه حين انتزعت منه جزيرة قبرص سنة ١٨٧٨ ، ثم احتلت مصر سنة ١٨٨٢ ، وكانت أول ولاية عربية يحبس عنها النفوذ العثماني المباشر بعد انقضاء ثلاثمائة وستين سنة من فتحها (١٥١٧-١٨٨٢) .

وعلى عكس المصالح البريطانية ، تصاعدت المصالح الألمانية في الدولة العثمانية ، فبعد أن كانت محصورة في نطاق ضيق تمثل في نشاط البعثات التبشيرية البروتستانتية في بلاد الشام مع شطر محدود من النشاط التجاري ، جاء مشروع طريق ب. ب. ب. الحديدى تجسيدا هائلا للمصالح الاقتصادية والسياسية والعمرانية والثقافية ، التي أرادت ألمانيا أن تصبغ بها تدخلها السلمى فى للممتلكات العثمانية فى آسيا . وكان عبدالحميد مفتوح العقل والقلب لألمانيا ، فهي التي قنمت للدولة تيسيرات لعقد قروض فى الوقت الذى امتنعت الكثير من البيوت المالية البريطانية عن تمويل المشروعات الإصلاحية فى الدولة^(٢) ، وهى التي تولت تنظيم أجهزة الدولة الداخلية وإنهاض الجيش العثمانى والسلاح البحرى تنظيميا وتقنيا وتسليحا ، وأيدت حركة الجامعة الإسلامية .. فكل هذه العوامل وغيرها مجتمعة جعلت عبدالحميد يفضل ألمانيا على سائر الدول . فالروسيا كانت تتكلم بالمسلمين فى أفغانستان وفارس ، كما أنها الدولة التي أنزلت هزيمة أليمة بالدولة العثمانية فى حرب ١٨٧٧-١٨٧٨ ، وكانت تنظر إلى شرق الأناضول على أنه منطقة نفوذ روسى مخفية فى وجه نفوذ سائر الدول الأوروبية^(٣) ، وكانت بريطانيا تحكم قرابة سبعين مليوناً من المسلمين فى الهند ، وكانت فرنسا تحكم الجزائر وتونس ، وتنتظر إلى سورية ولبنان على أنهما منطقة نفوذ فرنسى .

وعلى الرغم من أن مشروعات الاتفاقات التي عقدت تبعاً في سنتي ١٩١٣، ١٩١٤، لتجريد مشروع الخط الحديدي من أي احتمال قد يهدد المركز العسكري لبريطانيا في الخليج العربي والهند أو يضر بالتجارة البريطانية، كان رجال الحرب والسياسة في بريطانيا يتوجسون

(١) انظر في هذه الدراسة الجزء الثاني ، الفصل الثاني .

(2) Wolf John R., *The Diplomatic History of the Baghdad Railway*. Columbia, 1936, p.

(٣) ساطع الحمصى : البلاد العربية والدولة العثمانية ؛ مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٤ .

في الإضرار بالمصالح السياسية والعسكرية والاقتصادية لبريطانيا، وكانت وسيلتها لتحقيق هذه الغاية إحكام سيطرتها على الخليج والعراق وشرقي الأردن وفلسطين .

(٢) انفرادها بالسيطرة العسكرية على قناة السويس وعدم السماح لأي دولة بمناقشتها فيها : وكان من وسائلها لتحقيق هدفها إحكام قبضتها على الإقليمين المتخامين للقناة من ناحية الشرق، وهما: فلسطين وشرقي الأردن ، وعلى جزيرة قبرص من ناحية الشمال ، ومرابطة قوات عسكرية برية وجوية في منطقة القناة . وقد أضفت على وجودها العسكري في منطقة القناة الشرعية القانونية بأن فرضت على مصر في ٢٦ من أغسطس - آب - سنة ١٩٣٦ معاهدة أطلقت عليها معاهدة الصداقة والتحالف و *Traité d'Amitié et d' Alliance* ، منتهزة فرصة تهم الموقف الدولي بسبب العدوان الإيطالي على الحبشة (١٩٣٥-١٩٣٦) وعوامل أخرى (١) . وقد أطلقت المعاهدة على قناة السويس ثلاث صفات فهي جزء لا يتجزأ من مصر، طريق عالمي للمواصلات، ووسيلة أساسية للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية . وقد عصفت الصفة الأخيرة بالصفتين الأولىين . وتأسيساً على للصفة الأخيرة انتزعت بريطانيا من وفد المفاوضات المصري في المادة الثامنة من المعاهدة موافقة مصر على تخويل بريطانيا الحق في أن ترابط قواتها في الأراضي المصرية بجوار القناة في مناطق حددتها ملاحق المعاهدة (٢) .

(١) انظر عرضاً للعوامل التي أدت إلى عقد المعاهدة في كل من :

Dr. Moustapha El-Hefnaoui, Les Problèmes Contemporains posés par le Canal de Suez, Paris. 1951.

تحت عنوان :

La Pensée Politique en Egypte et les Facteurs qui ont abouti à la Conclusion du Traité, pp 77-81.

Dr. Hassan Ahmed Ibrahim; The 1936 Anglo-Egyptian Treaty. An historical study with special reference to the contemporary situation in Egypt and the Sudan. Khartoum University Press, 1976.

وهذا الكتاب هو رسالة دكتوراه من جامعة لندن، فرغ من إعدادها في شهر يونيو - حزيران - سنة ١٩٧٠ ، تحت إشراف الأستاذ هولت Prof. P.M. Holt ، وقد أفرد المؤلف في رسالته الفصلين الأول والثاني لهذا الموضوع تحت عنوان :

Factors that led to the 1936 Negotiations, pp. 18-58.

(٢) كانت هذه المناطق المخصصة لمرابطة القوات البريطانية وتدريب الجنود وإجراء المناورات الحربية، تشمل منطقة قناة السويس كلها ، وشبه جزيرة سيناء كلها ، والجزين الجنوبي والشرقي من مديرية (محافظة) الشرقية ، وتصل إلى حدود القاهرة ، ثم إلى حدود مديرية (محافظة) الجيزة ، وهذا التحديد مفصل في الفقرة ٢ من ملحق المادة الثامنة . كما نصت الفقرة الثانية عشرة من ملحق المادة ذاتها على وضع ثلة صغيرة من الجنود البريطانيين في بور سعيد والسويس لاستلام وحراسة المهمات والمؤن الخاصة بالقوات البريطانية =

وتتعاون هذه القوات مع القوات المصرية فى الدفاع عن القناة حتى يحين الوقت، الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكتل بمفرده حرية الملاحة فى القناة وسلامتها التامة . والمعانى المستفادة من هذا النص أن بريطانيا قررت أو ربت لنفسها حقوقاً خاصة تنفرد بها على سائر الدول بمرابطة قوات بريطانية فى منطقة القناة والدفاع عنها وكفالة حرية مرور السفن فيها ، وأنها بذلك انتزعت من القناة صفتها كطريق عالمى للمواصلات، وجعلتها أولاً وقبل كل شيء فى خدمة الإمبراطورية البريطانية ، وأن قواتها فى منطقة القناة ليست لها صفة الاحتلال، وإنما هى قوات صديقة وحليفة ، وعمدت إلى التعمية والخداع فأكدت هذا المعنى فى فقرة وردت فى المادة ذاتها، لتخطية موقفها ، فقررت أن وجود القوات للبريطانية ليس له صفة الاحتلال بأى حال من الأحوال ، كما أنه لا يخل بأى وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية . وحددت المعاهدة عدد القوات البريطانية البرية بحيث لا يزيد عن عشرة آلاف مقاتل وأربعمئة طيار من القوات الجوية ومعهم العدد الضرورى من المستخدمين الملحقين بهم للإدارة والأعمال الفنية ، ولا يشمل هذا العدد الموظفين المدنيين كالكتبة والصناع والعمال . وجدير بالذكر أن عدد الجنود بلغ فى سنة ١٩٥٠ أكثر من ثمانين ألف مقاتل ^(١) . وأرادت بريطانيا أن تكون مرابطة قواتها فى منطقة

عمن على ألا تنتقل القوات البريطانية إلى المناطق الجديدة، إلا بعد أن تقوم مصر ببناء الكنائس والمنشآت الصالحة فيها وفقاً لأحدث النظم لإقامة القوات البرية والجوية البريطانية مع المستشفيات الفنية، بما فيها إصمالم المياه وتوفير أسباب الراحة لأفراد القوات البريطانية، بما فيها غرس الأشجار وإنشاء الحدائق والملاعب مع بناء مساكن للمتزوجين من الضباط ومن نوتهم من مراتب الجنسية وإقامة معسكر استشفاء على ساحل البحر بالعريش ، وإنشاء أربعة طرق حربية ، هى (١) ذن الإسماعيلية إلى الإسكندرية (٢) من الإسماعيلية إلى القاهرة (٣) من بورسعيد إلى الإسماعيلية والسويس (٤) من جنوب البحيرات المرة إلى طريق السويس - القاهرة على بعد ١٥ ميلاً غربى السويس ، على أن يكون عرض هذه الطرق عشرين قدماً ، وأن تنشأ من مادة صلبة تجعلها صالحة على الدوام لاستخدامها فى الأغراض الحربية ، وتحسين وسائل النقل بالسكة الحديدية فى منطقة القناة: لتسد حاجات القوات البريطانية وتسهل النقل السريع للرجال المذائع والعربات والمهمات بما يتفق وحاجات الجيش الحديثة ، وعلى مصر أن تنشئ ثلاثة طرق حربية أخرى، هى (١) من القاهرة إلى قنا وقوس بمحاذاة النيل (٢) من قوس إلى القصير (٣) من قنا إلى الغربية . وعلى مصر أيضاً إصلاح ثلاثة طرق أخرى وجعلها طرقاً حربية، وهى (١) القاهرة - المواصلات الحديدية بين الإسماعيلية والإسكندرية ومرسى مطروح .

(١) كان تحديد عدد الجنود بعشرة آلاف مقاتل وأربعمئة طيار مقصوراً على الأوقات العادية . أما فى حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام أزمة نواتية تنذر بالحرب، فإن عدد القوات يزداد إلى الحد اللازم بدون التقيد بالعدد السابق . وقد جاء هذا التحديد فى الفقرة الأولى من ملحق المادة الثامنة . ولكن استمرت هذه الفقرة فائزدة فى صندرها عبارة «من غير إخلال بأحكام المادة السابعة» . وهى المادة الخاصة بتقديم الحكومة المصرية كامل معاونتها إلى بريطانيا فى حالة «الحرب أو خطر الحرب الدائم أو قيام حالة نواتية مفاجئة يخطى خطرها» ونص فى هذه المادة على أن المعاونة التى تقدمها مصر فى هذه الحالة تنحصر فى تقديم جميع التسهيلات التى فى استطاعتها داخل أراضيها، بما فى ذلك استخدام موانئها ومطاراتها=

القناة غير محددة زمناً . وتمسك وفد المفاوضات المصرى بأن تكون هذه المرباطة مؤقتة ، وتوصل الطرفان المتحاذان إلى نص روعيت فيه مصلحة بريطانيا بحيث يكون توقيع الجلاء فى يدها حتى ولو انقضت العشرون سنة وهى الأجل المضروب فى أقصى حدوده (١) . وقبل المفاوضات المصريون النصوص التعسفية للمادة الثامنة وملاحقها تحت ضغط تمسك بريطانيا بالاشتراك فى حماية القناة ، وتحت ضغط الاحتلال البريطانى للجائى على القاهرة والإسكندرية ومنطقة القناة وغيرها وقتذاك . فكان موقف بريطانيا هو موقف دولة كبرى تملئ رغباتها على دولة صغرى ، ولذلك فإن معاهدة ١٩٣٦ تعد ، فى القانون الدولى العام ، معاهدة غير متكافئة ، وهذه هى ترجمتنا من النص الفرنسى للمادة الثامنة :

فى طريق مواصلاتها ، وهذا كله معناه أن تحديد عدد القوات البريطانية بالشكل الوارد فى الفقرة الأولى، من ملحق المادة الثامنة مقصور على الأوقات العادية .

انظر : الدكتور محمد عبد الله ربحان : المركز الدولى لقناة السويس إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٠ .

(١) كان الجيد الأساسى الذى ورد فى المادة الثامنة يقضى بأن تظل القوات البريطانية مرباطة فى منطقة القناة إلى أن يحين الوقت، الذى يصبح فيه الجيش المصرى قادراً على أن يكفل بمفرده حرية الملاحة فى القناة وسلاستها التامة . وحددت المادة توافق هذا الشرط على اتفاق الطرفين على أن الجيش المصرى قد ارتفع إلى هذا المستوى ، ويتم جلاء القوات البريطانية متى اتفق الطرفان على هذا الرأى حتى قبل مضى المدة التى حددتها الفقرة الأخيرة من المادة السادسة عشرة، التى تنص على أن للطرفين المتحاذين النحول فى مفاوضات برضاها بعد انقضاء عشر سنوات على تنفيذ المعاهدة ، بقصد إعادة النظر فيها . ولكن يتفاهم الأمر إذا وقع خلاف بين الحكومتين على كفاءة الجيش المصرى ويلوغة المستوى المطلوب ، وهنا قررت المادة الثامنة أن الخلاف يعرض للفصل فيه على عصابة الأمم أو أى شخص أو أى هيئة ، ومع ذلك وضعت المادة قيدين جوهريين عند الالتجاء إلى التحكيم .

القيد الأول : أن تكون قد مضت عشرون سنة على بدء تنفيذ المعاهدة ، وهى المدة التى نصت المادة السادسة عشرة على أن يدخل الطرفان المتعاذان بعدها فى مفاوضات، بناء على طلب أحدهما بقصد إعادة النظر فى نصوص المعاهدة ، على أن يحال الخلاف بينهما إلى عصابة الأمم أو أى شخص أو هيئة بالشكل الذى قرره المادة الثامنة .

القيد الثانى : إذا أحيل الخلاف على عصابة الأمم يكون الفصل فيه طبقاً لأحكام ميثاق العصابة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة . وهذا قيد تعسفى ، إذ قد تعمل العصابة ميثاقها ، وعند ذاك يصعب إلزام مجلسها بالتخلى عن ميثاقه القائم والرجوع إلى نصوص قديمة يكون قد عدل عنها لعدم مسايرتها لروح العصر . ومن ناحية أخرى يفيد هذا النص بريطانيا، فيما لو رأت العصابة تعديل ميثاقها، ووضع ضمانات فعالة لإجبار الدول القوية على احترام حقوق الدول الضعيفة .

هذا عند الالتجاء إلى عصابة الأمم ، ولكن إذا رضى الالتجاء إلى شخص أو هيئة أخرى.. فإن المادة الثامنة تقرر أن هذا التحكيم، يجرى طبقاً للإجراءات التى «يتفق» عليها الطرفان ، أى إن اتفاقهما أمر ضرورى لتحكيم شخص أو هيئة . وبهذا يسهل على بريطانيا أن تعطل مثل هذا التحكيم، بالتمسك باتباع إجراءات تضمن أن تكون نتيجة التحكيم فى صالحها .

من هذا يتضح أن نص المادة الثامنة يجعل من الصعب الوصول إلى حل يجبر بريطانيا ، حتى بعد عشرون سنة ، على جلاء قواتها من منطقة القناة ، أى إن التوقيت المذكور فى هذه المادة لبقاء القوات البريطانية فى منطقة القناة لا يندى لنتيجة عملية ، إلا إذا رغب بريطانيا بمحض اختيارها فى أن تجعل لـ

«بما أن قناة السويس (١) التي هي جزء لا يتجزأ من مصر ، هي طريق عالمي للمواصلات ، كما هي في الوقت ذاته طريق أساسي للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية ، فإلى أن يحين الوقت الذي يتفق فيه الطرفان الساميان المتعاقدان على أن الجيش المصري أصبح في حالة ، يستطيع معها أن يكفل بوسائله الخاصة حرية الملاحة في القناة وسلامتها التامة ، يرخص حضرة صاحب الجلالة ملك مصر لحضرة صاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن يصنع في الأراضي المصرية بجوار القناة في المنطقة المنصوص عليها في ملحق هذه المادة ، قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القناة . ويشمل ملحق المادة الحالية تفاصيل الترتيبات الخاصة بتنفيذها ، ولن يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال بأي حال من الأحوال ، ولن يمس بأي وجه من الوجوه السيادة المصرية .

ومن المتفق عليه أنه إذا اختلف الطرفان الساميان المتعاقدان عند نهاية مدة العشرين سنة المنصوص عليها في المادة السادسة عشرة على ما إذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضرورياً ؛ لأن الجيش المصري أصبح في حالة يستطيع معها أن يكفل بوسائله الخاصة حرية الملاحة في القناة وسلامتها التامة .. فإن هذه المسألة تعرض على مجلس عصبة الأمم للفصل فيها طبقاً لأحكام الميثاق المعمول به وقت التوقيع على المعاهدة الحالية ، أو على أي شخص أو هيئة (٢) للفصل فيها ، طبقاً لإجراء آخر يتفق عليه الطرفان الساميان المتعاقدان ، .

وهذا هو النص الفرنسي لذات المادة الثامنة :

Vu que le Canal de Suez; partie intégrante de l'Egypte, est. une voie mondiale de communication en même temps qu'un moyen essentiel de communication entre les différentes parties de l'Empire Britannique, Sa Majesté le Roi d'Egypte, en attendant que les Hautes Parties contractantes conviennent que l'armée égyptienne se trouve en état d'assurer par ses propres moyens la liberté et l'entière sécurité de navigation du Canal, autorise Sa Majesté le Roi et Empereur à installer des forces en territoire égyptien, dans le voisinage du canal, dans la zone spécifiée dans l'annexe du présent article, pour assurer la

= هذه النتيجة. وفي الوقت الذي تريده .

انظر المرجع السابق ، ص ٢٨٢-٢٨٤ .

(١) جاءت في النص الرسمي العربي لمعاهدة ١٩٣٦ لفظة «قناة» ، وهذا خطأ وقع فيه المترجمون ، الذين عهد إليهم الحكومة المصرية ترجمة نصوص المعاهدة . وصحة الخطأ «قناة» .

(٢) جاء في النص الفرنسي groupe de personnes وفي النص الإنجليزي body of persons .

Dr. Moustapha el-Hefnaoui; op. cit., p. 357.

وانظر ملاحق هذه المادة (الثامنة) في المرجع ذاته ، ص ٣٥٨-٣٥٩ .

défense du Canal en coopération avec les troupes égyptiennes. Les détails des arrangements pour l'application du présent article sont contenus dans l'annexe. La présence de ces forces n'aura aucun caractère d'occupation et ne portera, en aucune façon, atteinte aux droits de souveraineté de l'Egypte.

Il reste entendu qu'à la fin de la période de vingt ans spécifiée à l'article 16, la question de savoir si la présence des forces britanniques n'est plus nécessaire du fait que les troupes égyptiennes sont à même d'assurer par leurs propres moyens la liberté et l'entière sécurité de navigation du canal, sera en cas de désaccord entre les Hautes Parties Contractantes, soumise au Conseil de la Société des Nations pour être réglée conformément aux dispositions du pacte en vigueur au moment tel groupe de personnes pour être réglée conformément à telle autre procédure qui aura été convenue par les Hautes Parties Contractantes.

نخلص من دراسة موضوع مشروع الجناح الآسيوى لطريق ب. ب. ب. للحدىدى إلى عدة حقائق رئيسية، هي :

أولاً : كان ولهم الثاني إمبراطور ألمانيا وعبد الحميد الثاني سلطان الدولة العثمانية يقفان وراء هذا المشروع .. كان الأول يؤيده بالخبرة الفنية المتقدمة ، والموارد المالية ، والنفوذ السياسى ، وكان الثاني يؤازره بالإمكانات البشرية والثروات الطبيعية المتاحة . وسعى كل منهما إلى تحقيق أهداف معينة ، سواء فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد .

ثانياً : أصبحت بريطانيا بعد حين عن مخاوفها من هذا المشروع ؛ نظراً لما يطوى عليه من سيطرة ألمانيا على الشرق الأوسط وعلى الطريق البرى عبر الأناضول وشمال الشام ، والعراق من شماليه إلى جنوبيه ، ومنطقة الخليج العربى ، وتهديد المصالح البريطانية فى معظم هذه الأقاليم وفى الهند ، فضلاً عن تعريض قناة السويس لمدافسة خطيرة تهبط بأهميتها الاقتصادية والسياسية العسكرية ، وتهدد الممتلكات البريطانية فى شرقى إفريقيا . وكانت ألمانيا تنظر إلى قناة السويس على أنها شريان حيوى للإمبراطورية البريطانية ، وأن أى عطب يلحق به يصيب بريطانيا بخسارة جسيمة .

ثالثاً : حملت هذه المخاوف بريطانيا على إقامة المراقيل المالية والسياسية فى تنفيذ المشروع حيناً من الزمن ، ونجحت فى اجتذاب بعض الدول الكبرى مثل فرنسا والروسيا إلى صفها فى معارضة المشروع . وأمام التحرك الدبلوماسى المكثف الذى قامت به ألمانيا ،

وأمام إصرار الدولة العثمانية وتحمسها لتنفيذ المشروع تم إبرام معاهدات متعاقبة مع الدول المعنية : ألمانيا ، والدولة العثمانية ، والروسيا ، وفرنسا ، وبريطانيا في الفترة من ٦ من أغسطس - آب - ١٩١١ حتى ١٥ من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٩١٤ ، ونجحت بريطانيا في الحد من بعض الأخطار ، التي كانت تتهدد مصالحها من وراء المشروع ، وعلى سبيل المثال جعلت نهاية الخط للحديدي مدينة البصرة بدلاً من مده إلى ساحل الخليج العربي . والواقع أنه لو كان الخط الحديدي مقصوراً على العراق لما أزعج بريطانيا إلى هذا الحد ، وكان يمكن اعتباره خطاً حديدياً محلياً في ولاية عثمانية .

ولكن مما أثار مخاوف بريطانيا أن هذا الخط لم تكن له الصفة المحلية ، فهو لا يجري في العراق والشام والأناضول فقط ، ولكنه كان مشروعاً استعمارياً متطوراً يشكل طريقاً حديدياً دولياً يبدأ من برلين وينتهي عند ساحل الخليج العربي .. ولذلك ، فإن إطلاق اسم سكة حديد بغداد عليه لا يمثل الحقيقة من جميع جوانبها . ولكن إطلاق الأسماء على مسمياتها وتوخي الدقة في الصياغة اللفظية يتطلبان من الباحث أن يطلق عليه : الجناح الآسوي لطريق ب. ب. ب. الحديدي ، وهو الذي يمتد في قارة آسيا ابتداء من محطة حيدر باشا على الساحل الآسوي لليوسفور عند إستانبول إلى ساحل الخليج العربي ، تمييزاً له عن الجناح الأوروبي لخط ب. ب. ب. الحديدي ، الذي يمتد في أوروبا من برلين إلى الساحل الغربي لليوسفور عند إستانبول .

وأما : استحالة تنفيذ الاتفاقيات والمعاهدات التي عقدت بين الدول المعنية بخصوص مشروع الخط الحديدي بسبب إعلان النمسا للحرب على صربيا في الثلاثين من شهر يوليو - تموز - سنة ١٩١٤ واندلاع الحرب العالمية الأولى وتسابق ألمانيا والروسيا وبريطانيا وفرنسا إلى حومة الصراع الدولي ، ثم لحقت الدولة العثمانية بركب الدول المتحاربة .

خامساً : استغلت بريطانيا انتصارها في الحرب العالمية الأولى وهزيمة ألمانيا والدولة العثمانية وغيرهما ، وبذلك خرجت بريطانيا من الحرب وهي أكثر بانساً وأشد تنكياً ، وأصبحت لها الكلمة المسموعة في السياسة الدولية وفي دوائر عصابة الأمم .

وكان مجلس الشيوخ الأمريكي قد رفض اقتراح الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون Woodrou Wilson باشتراك بلاده في عصبة الأمم ، وفضل المجلس أن تكون الولايات المتحدة بمعزل عن شئون أوروبا وغيرها . وفضل هذا المركز المتميز جعلت بريطانيا خلال العقبة التي مرت بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية منطقة الشرق العربي الآسوي ، باستثناء سورية ولبنان ، منطقة نفوذ بريطاني ، وجعلت

من نفسها دولة تدافع عن قناة السويس، بمقتضى معاهدة فرضتها على مصر سنة ١٩٣٦ ، وفي ظل النفوذ البريطانى السائد فى الشرق العربى، لم تعمل بريطانيا على إحياء الطريق البرى وهو الخليج - العراق - البحر المتوسط؛ بحيث ينافس طريق قناة السويس، وفي الوقت ذاته اطمأنت إلى سلامة القناة .

* * *

عيوب الدولة العثمانية (١)

هبوط مستوى معيشة الجماهير العربية

تحديد عناصر المسؤولية :

من المآخذ على الدولة العثمانية أن الحكم العثماني للعالم العربي قد اقتدرن بهبوط مستوى معيشة الجماهير العربية، فضلاً عن ضمور مورد الخزانة العامة لكل حكومة من حكومات الولايات العربية . وهناك شبه إجماع من المؤرخين والباحثين على إلقاء هذه التبعة كاملة على الدولة العثمانية . ولاشك أن هذه الدولة تتحمل شطراً من هذه المسؤولية ولكنها لا تتحملها كلها ، ويتطلب تحديد حجم هذه المسؤولية مناقشة عناصر خارجية وداخلية ، نشابت بعضها مع بعض ، وأنت إلى هذه المستوى الهابط في معيشة الجماهير .

مسؤولية الدول الأوروبية الاستعمارية :

كان المسئول الأول عن تدهور الحياة الاقتصادية ولقضاء على الازدهار الاقتصادي في الولايات العربية والأقاليم الإسلامية، هو الوجود العسكري البرتغالي على الساحل الغربي للهند وفي منطقة الخليج العربي، وفي معظم أقاليم شرقي الجزيرة العربية . وكانت حكومة لشبونة قد أصدرت أوامرها إلى أمراء البحر البرتغاليين بمنع وصول السفن المصرية وغيرها من السفن العربية والإسلامية إلى الهند ؛ فوضع دى جاما القائد البحرى جزءاً من أسطوله عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ابتغاء إغلاقه وطارد السفن العربية والإسلامية في المحيط الهندي . وجاء استيلاء البرتغاليين على جزيرة سوكطرة قرب مدخل البحر الأحمر عند القرن الإفريقي عاملاً حاسماً في تحكم البرتغال في الطريق البحرى المباشر بين مصر والهند ، وبالتالي في إغلاق طريق البحر الأحمر في وجه مصر ومنع السفن من نقل التجارة الهندية إليها ، ودخل الأسطول البرتغالي البحر الأحمر، وهاجم ثغر جدة مرتين، ثم قام بمحاولة لهجوم ميناء السويس، ولكنه فشل في هذه المحاولات الثلاث. وفي منطقة الخليج العربي وبحر العرب استولى البرتغاليون على مسقط، وهرمز، والبحرين، وقلعتهم على ساحل عمان، وقربات، وصحار، وجزيرة سقطرى، وضربوا ساحل عمان، واستولوا على خوربا موربا القريبة من الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية (١). وفي خلال هذه الحقبة استولى البرتغاليون أيضاً سنة

(١) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرقي الجزيرة العربية، وموقف=

١٥١١ على مالقة في الطرف الجنوبي الشرقي من آسيا ، وتعد من أعظم مراكز التجارة العالمية؛ حيث تجمع منتجات الهند الصينية^(١) ، كما استولوا على الساحل الشرقي لإفريقية المطل على المحيط الهندي الذي بدأ في كثير من أجزائه وكأنه بحيرة برتغالية كبرى . وكان من نتائج هذه الانتصارات العسكرية للبحرية أن نجح البرتغاليون في تحويل الطريقين اللذين كانت تسلكهما التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح . وكان أحد هذين الطريقين يمر بمنطقة الخليج العربي ثم العراق وبادية الشام إلى الموانئ الشامية على البحر المتوسط ثم إلى أوروبا . وكان الطريق الثاني يمر بالبحر الأحمر إلى ميناء السويس فالقاهرة ، ثم إلى الإسكندرية أو رشيد أو مياط ، ثم إلى أوروبا . ونجم عن هذا التحول أن أصبح قدر كبير جداً من تجارة الهند وإندونيسيا وجنوبي شرق آسيا والصين والساحل الشرقي لإفريقية يمر بالطريق البحري المتصل الجديد - طريق رأس الرجاء الصالح - إلى أوروبا، وأنشأ البرتغاليون خطوطاً بحرية منتظمة بين هذه المناطق الآسيوية والإفريقية وبين لشبونة في البرتغال ، وأقاموا مراكز تجارية مسلحة في البحار الشرقية . وبعد البرتغال مضت الدول الاستعمارية الكبرى مثل هولندا وفرنسا وبريطانيا التي تعاقبت على البحار الشرقية في استخدام طريق رأس الرجاء الصالح ، فتدعم هذا الخط للملاحة وازداد نشاطه ، وخيم السكون والهدوء والكساد النسبي على البلاد العربية ، التي كان يمر بها الطريقان القديمان .

وكان مرور التجارة الشرقية العالمية في الطريقين للتقليدين عبر البلاد العربية بشكل مورداً مالياً غزيراً وأساسياً لحكومات هذه البلاد اعتمدت عليه في النهوض باقتصادياتها ، وساعد السلاطين والأمراء ومن إليهم من الحكام على الإنفاق العسكري وعلى تنفيذ عديد من المشروعات العامة ، وإقامة منشآت معمارية إسلامية بلغت حدّاً كبيراً من روعة الفن بجانب ضخامتها ، ثم الإنفاق عليها بسخاء من حصيلة الأوقاف الدارة التي رصدوها ؛ كي تؤدي هذه المنشآت أغراضها الدينية ووظائفها الاجتماعية . كما أن مرور التجارة العالمية - بصورة رتيبة ومنظمة - على مدار السنة عبر الأراضي العربية كان مورد رزق لقطاعات كثيفة العدد من

= الدول الإسلامية الثلاث الكبرى منه ، مرجع سبق ذكره ، مؤتمر النوبة ، ١٩٧٧ ، ج٢ ، ص ٦١٢-٧٠١ .
وانظر أيضاً في هذه الدراسة : ج٢ ، الفصل الأول .
وانظر كذلك :

دكتور سليمان محمد القمام : الوجود البرتغالي في عمان في المصادر المحلية العثمانية . بحث منشور في دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، ج٢ جمادى الأولى سنة ١٣٩٧ ، ص ١١٥-١٢٧ ضمن الأبحاث المقدمة لثقوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في ١٠-٥ جمادى الأولى سنة ١٣٩٧ الموافق ٢٢-٢٨ أبريل - نيسان - سنة ١٩٧٧ ، مطبوعات جامعة الرياض ، المملكة العربية السعودية .

(١) لكتور إبراهيم على طرخان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٢ .

سكان الثغور العربية والمدن الداخلية، بزيادة فرص العمل أمامهم وارتفاع الدخول وإزدهار الخانات وهى أماكن مبيت للتجار وغيرهم من الوافدين ، وإتاحة عديد الفرص أمامهم للاتصال بأهالى البلاد وتبادل الخبرات والمعلومات، وما إلى ذلك من فوائد متعددة الجوانب .

وقد استهدفت الدول الأوروبية من إصرارها على استخدام طريق رأس الرجاء الصالح إنزال منبرية شديدة باقتصاديات الدول الإسلامية والعربية بحرمانها من الرسوم الجمركية، التى كانت تحصل عليها عند مرور البضائع عبر أراضيها ، ونشر البطالة بين السكان بسد أبواب الرزق أمام جموع وفيرة منهم . فالحكومات الأوروبية استحدثت وسيلة عصرية لإضعاف الدول الإسلامية والعربية ونشر الفقر بين حكوماتها وشعوبها ؛ مما يؤدى فى نهاية الأمر إلى تخلفها عن مسايرة ركب الحضارة . وقد نجحت الدول الأوروبية فى تحقيق هذا الهدف المزيج .

يتضح من هذا العرض أن الدولة العثمانية لم تكن مسئولة عن التحول إلى طريق رأس الرجاء الصالح فى نقل التجارة العالمية ؛ لأن البرتغاليين كانوا قد وصلوا إلى البحار الشرقية قبل أن يدخل العثمانيون بلاد الشام ومصر ، وقبل أن يسيطروا سيادتهم على الحجاز واليمن بتسعة عشر عاماً (١٤٩٨-١٥١٧) . وكان البرتغاليون قد سدوا منافذ البحار الشرقية إلى البلاد العربية، وانعكست آثار هذا التحول على الحياة الاقتصادية فيها ، غير أن تأخر وصول العثمانيين إلى العالم العربى لايعفيهم من مسئوليتهم عن تقاعسهم فى مسائل حيوية، عقب الفتح العثمانى لبلاد الشام ومصر، وبسط سيادتهم تلقائياً على الحجاز وبعض أجزاء من اليمن .

مسئولية الدولة العثمانية :

من للحقائق التى لا مراء فيها أن للدولة العثمانية تتحمل شطراً متعدد الصور من المسئولية عن الركود النسبى فى الحياة الاقتصادية فى مصر وأقاليم الشرق العربى الآسيوى ؛ فهى لم تتدخل تدخلاً سريعاً ومباشراً وبصورة جدية لضرب المعازل البرتغالية فى الهند والخليج العربى، إلا بعد مئى زهاء نصف قرن من الزمان على وصول البرتغاليين إلى الهند ومنطقة الخليج العربى، حيث كان البرتغاليون قد وطدوا مراكزهم فى البحار الشرقية ، وعاصر ثلاثة من سلاطين الدولة ، هم أبو يزيد الثانى (١٤٨١-١٥١٢) ، وسليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) ، وسليمان المشرع (١٥٢٠-١٥٦٦) للمراحل الأولى للوجود العسكرى البرتغالى فى تلك المناطق . قدم الأول مواد حربية متنوعة دعماً للمجهود الحربى، الذى كان يبذله السلطان المملوكى قانصوه الغورى ضد البرتغاليين ، وخاض الثانى حروباً منارية ضد الدولة الصفوية فى فارس ، ثم ضد دولة المماليك للشراكسة فى الشام ومصر ، وأهتم ببسط السيادة العثمانية على الحجاز وبعض مناطق من اليمن . وبعد أن فرغ من عملياته الحربية وعاد إلى إسطنبول،

استجاب سنة ١٥١٩ لاستغاثة سكان مدينة الجزائر لإنقاذهم من الخطر الصليبي الإسباني^(١)، ولكنه لم يتم بعمل جدى لضرب البرتغاليين فى البحار الشرقية أو على أقل تقدير لمرقلة نشاطهم التخريبى فى المناطق التى وصلوا إليها . ويلاحظ أيضاً أن سليماً لم يترك للسلطان قانسوه الغورى مواصلة الصراع البحرى ضد البرتغاليين ، بل اشتبك معه فى صراع حربى ولقى السلطان الغورى النقص حثفه فى معركة مرج دابق شمالى حلب وهى من المعارك الحاسمة فى التاريخ، وأدت فى النهاية إلى زوال دولة المماليك الشراكسة ، ولا يمكن الدفاع عن السلطان سليم فى هذا الصدد بالقول إنه كان يعترف بحاربة البرتغاليين، لولا أن فاجأه الموت؛ لأن جميع الدلائل تشير إلى أن مثل هذه المحاربة لم تكن واردة فى برنامجه الحربى . ولعل السلطان سليم قد أسدى خدمة جليلة للبرتغاليين فى هذه المرحلة بحاربة دولة المماليك الشراكسة ثم إسقاطها ، لأنه إذا كانت محاربته للدولة الصفوية فى فارس ضرورة حربية وسياسية ومذهبية لوقف تسال المذهب الشيعى - قزل باش - إلى الأناضول والشرق الإسلامى والمحافظة على سلامة الدولة العثمانية، فإن حربيه ضد دولة المماليك لم تكن لها مثل هذه الضرورة الملحة ، وكان فى الاستطاعة تسوية المشكلات مثار النزاع بين الدولتين، وهى فى جملتها تدور حول حدود الدولتين وإيواء أمراء عثمانيين خارجيين على السلطان العثمانى . وكان فى مكتة العاهلين - الغورى وسليم - تنقيح الجو وتحقيق وحدة الصف الإسلامى فى مواجهة البرتغاليين فى ذلك الوقت العصبى، بدلاً أن يقضى سليم على دولة المماليك ، وهى دولة لها تاريخ حافظ فى خدمة الإسلام .

وكان السلطان الغورى قد أبدى استعداداه للسلطان سليم لتسوية أسباب النزاع بينهما ، وذلك ليلة المعركة . ولكن «سليماً» أصر على رأيه ، وكان من نتائج سياسته أنه ترك الصفويين يأكل الحقد قلوبهم بعد أن أذلهم ، وسعى الصفويون للتحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين للانتقام منهم . أما السلطان سليمان المشرع .. فقد انصرف عقب توليه العرش إلى حروب شبه متصلة فى جوف القارة الأوروبية وفى جزيرة رودس فى البحر المتوسط ؛ لأن هذه الجزيرة كانت قاعدة صليبية خطيرة لفرسان القديس يوحنا يتصيدون منها السفن الإسلامية فى الحوض الشرقى لهذا البحر^(٢). وأخيراً فى سنة ١٥٤٦ - أى بعد انقضاء أكثر من ربع قرن على ارتفاع السلطان سليمان العرش - خرج الأسطول العثمانى من السويس متوجهاً إلى الهند لمنازلة البرتغاليين، فيما عرف فى التاريخ باسم «الحملة العثمانية الكبرى» . وقد أخفقت هذه الحملة فى

(١) انظر فى هذه الدراسة ج٢ ، الفصل الخامس .

(٢) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع المصور الحديثة ، ج ١ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ ، ص ٦٨٩-٧٧٢ تجد عرضاً للنشاط الحربى، الذى قام به السلطان سليمان المشرع فى الجبهة الأوروبية حتى سنة ١٥٤٤، وقبيل تحرك الحملة العثمانية الكبرى من السويس إلى الهند .

تحقيق أهدافها ، لأنها كما ذكرنا جاءت متأخرة جداً ، وكان الزمن حليفاً قوياً للبرتغاليين أمام العثمانيين ، ولأن المعارك التى خاضتها الدولة ضد البرتغاليين كانت معارك بحرية اعتمدت فيها البرتغاليون اعتماداً كلياً ورئيسياً على الأسطول ؛ إذ كان الصراع بين الدولتين يدور فوق البحار والمحيط الهندي ، وكان السلاح البحرى العثمانى أضعف من السلاح البحرى البرتغالى ؛ لأن الجيش العثمانى كان عماد الدولة وعصب قوائها الضارية . وكانت القاعدة الرئيسية للأسطول العثمانى موجودة فى البحر المتوسط ، فكان الاتصال بينها وبين الأسطول العثمانى مقطوعاً ، وهو يخوض المعارك ضد البرتغاليين فى بحر الهند ومنطقة الخليج ؛ لأن قناة السويس لم تكن قد أنشئت بعد ، وكانت قاعدة الأسطول العثمانى فى ميناء السويس صغيرة نسبياً . وكانت المحصلة النهائية لجهود الدولة العثمانية هى فشلها فى إيقاف تحول طريق التجارة العالمية حول رأس الرجاء الصالح وإعادة مرور هذه التجارة إلى طريقها القديم عبر البلاد العربية . وقعت الدولة العثمانية باتخاذ اليمن خط الدفاع الأول عن البحر الأحمر ، وعن الممتلكات العثمانية على ساحليه ضد الغزو البرتغالى للبحر الأحمر . ولكن لم يؤد هذا الحل إلى بعث النشاط التجارى إلى سابق عهده ، عندما كانت البلاد العربية معبراً للتجارة العالمية بين الشرق وأوروبا .

وازداد الموقف الدولى فى منطقة الخليج العربى وسائر البحار الشرقية سوءاً وتعتقداً لأن دولاً أوروبية بحرية استعمارية مثل هولنده وفرنسا وبريطانيا جاءت تباعاً إلى منطقة الخليج ، وعملت على تصفية المعازل البرتغالية أو ما تبقى منها هناك . وقد أسهم السكان العرب فى بعض مناطق الخليج فى إخراج البرتغاليين ، ولكن حل محلهم المستعمرون الأوروبيون الجدد واستمروا يستخدمون طريق رأس الرجاء الصالح فى نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، واستمر حرمان حكومات الولايات العربية من الرسوم الجمركية ، وحل بين سكانها وبين الرواج المكثف ، الذى كان يصاحب عمليات نقل وممرور البضائع فى اللغور والموانئ والمدن العربية .

وقد حدث فى القرن التاسع عشر أن أدركت بريطانيا بالذات أو مصالحها تقتضى استخدام أحد الطريقتين القديمتين ، أو كليهما فى نقل البريد والمسافرين بين أوروبا والهند وبالعكس ، وكانت تستخدمهما أيضاً فى نقل القوات البريطانية من الهند إلى أوروبا وبالعكس إبان الحروب والثورات . وعلى سبيل المثال فى أثناء حرب القرم وإبان ثورة الهند سنة ١٨٥٧ إلى أن تم افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية الكبرى سنة ١٨٦٩ ، فأصبحت الدول على اختلاف جسيماتها تستخدم القناة كمطريق ملاحى بين الشرق والغرب . ولكن كانت رسوم مرور عبور السفن فى القناة تدفع لخزانة الشركة العالمية لقناة السويس البحرية ، وهى وإن كانت شركة مصرية بحكم القانون طبقاً للمادة السادسة عشرة من الاتفاق المبرم فى اليوم الثانى

والعشرين من شهر فبراير - شباط - سنة ١٨٦٦ بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس^(١)، إلا أنها كانت شركة فرنسية لحماً ودماً، ثم أصبحت شركة فرنسية بريطانية من الناحية الفعلية بعد أن اشترى بنيامين دزرائيلي اليهودي - لورد بيكونز فيلد فيما بعد - رئيس الوزارة البريطانية أسهم مصر في شركة القناة سنة ١٨٧٥ .

انكماش موارد خزان الحكومات الولايات العثمانية :

وتضافرت عدة أسباب على انكماش الموارد المالية لخزائن حكومات الولايات العثمانية ، العربية وغير العربية ، وإن كان ضئيل الموارد العامة قد أصاب الولايات العربية أكثر من إصابته الولايات العثمانية في أوروبا؛ لأن سكان الولايات الأخيرة كانوا يمارسون نشاطاً اقتصادياً متعدد الجوانب في الزراعة والصناعة والتجارة ، وكانوا على علاقات مستمرة مع الدول الأوروبية بحكم الرابطة الدينية، وبحكم للجوار، وبحكم عدم الارتياح إلى تغفل حكم إسلامي في أقاليم أوروبية ، وكان من بين أسباب هبوط موارد خزائن الحكومات في الأقاليم العثمانية .

أولاً : الجزية السنوية :

كانت كل ولاية عثمانية تؤدي جزية سنوية إلى الباب الآلي باستثناء الحجاز ، التي كانت معفاة من هذا العبء المالي، وكذلك قائمقامية الكويت^(٢) وكان إرسال الجزية في مواعيد رتيبة من أهم واجبات الوالي . وكانت الجزية المقررة على مصر تسمى «الخزنة» ، وكانت تذهب إلى الجيب الخاص للسلطان ، وكانت تبلغ ١,٢٠٠ كيس ، كل كيس يساوي ٢٥ ألف بارة^(٣) . وكان مقدار هذه الجزية في عصر ضعف الدولة العثمانية يختلف هبوطاً وصعوداً من فترة إلى أخرى ، واضطرت الدولة في سنة ١١٨١ هـ (٣٠ مايو - آيار - سنة ١٧٦٧ إلى ١٧ مايو - آيار - سنة ١٧٦٨) إلى تحميل أسرة البكري في مصر مسئولية إرسال الجزية في مواعيدها ، ووقع كبار مشايخ هذه الأسرة تمهناً في هذا الصدد^(٤) .

(١) جاءت الفقرة الأولى من هذه المادة على النحو التالي :

«بما أن الشركة المالية لقناة السويس البحرية هي شركة مصرية ، فهي خاضعة لقوانين البلاد ومبادئها» .
"La Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez, étant égyptienne, elle est régie par les lois et usages du pays".

Voisin Bey; le Canal de Suez; op. cit., t. 1, pp 254-264.

(٢) انظر في هذه الدراسة ج ٣ ، الفصل الثامن .

(٣) إبراهيم الميولي : الأرض في العصر العثماني ، في مجلد بعنوان «الأرض والفلاح في مصر على مر العصور» ، من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢٥-٢٤٦ .

(٤) Combe Etienne; Précis de l'Histoire d'Égypte. op., cit., t. 3, pp. 72-75.

ثانياً : معاهدات إستانبول :

ويطلق عليها أيضاً معاهدات الآستانة ومصطلح تاريخى ثالث هو «الإسرائيلية»، وهى تشمل أنواعاً شتى من الهدايا الشخصية للسلطان وزوجاته وأولاده وكبار رجال الباب العالى ، وكانت الهدايا تتكون من الخزارف المصنوعة من الذهب والفضة والرمصة بأحجار اللؤلؤ ، وأقمشة حريرية وصوفية مستوردة من الخارج خصيصاً لهذه المناسبة ، وكذلك أقمشة هندية وقناطير مقلطرة من السكر المعطر بالمسك ، وكميات من المربى والشربات والعطور والعقاقير والتوابل ، ومستلزمات المطابخ السلطانية من الأرز الدميالى والقصدير لتنظيف الأوعية والأواني . وكانت الإسرائيلية تشمل أيضاً أعداداً كبيرة من الخيول العربية الأصيلة ليستخدمها فرسان الحرس السلطانى أو فى فرق الجيش ، وكذلك البغال لاستخدامها فى نقل الخيام وغيرها من مهمات القتال ، وكانت تتضمن أيضاً مطالب ترسانة الأسطول الحربى فى إستانبول من حبال القنب وأسلاك وستائر حديدية وبارود للمدفعية وكتان للقلاع للسفن وما إلى ذلك . وكانت الحكومة تشتري معظم هذه السلع من الشرق : الهند واليمن والحجاز ومن أوروبا وبخاصة فرنسا ، وتعيد إرسالها إلى إستانبول بحراً ضمن معاهدات الآستانة التى كانت تبهر بها أكثر من سفينة من رشيد أو دمياط . وكان خاير بك، الوالى العثمانى، هو أول من استن هذه العادة فأصبحت تقليداً ، فقد أرسل إلى السلطان سليم الأول فى شهر ربيع آخر ٩٢٦ (مارس - آذار - أبريل - نيسان - ١٥٢٠) «خمسين فرساً ، وفيهم بغلة قيل مشتراها خمسماية دينار ، ومن القماش الحرير والتفصيل السكندرى أشياء كثيرة ، ومن اللشاشات الماميلى أشياء كثيرة فيهم من طوله مائة وعشرون ذراعاً ، وأرسل إليه ملك الأمراء^(١) خمسماية قنطار سكر معمولة بمسك ، ومن الأشربة والمرببات أشياء كثيرة ، وأرسل إليه من الفصوص والمعادن واللؤلؤ أشياء كثيرة ، ومن الصينى للزورد والشفاف أشياء كثيرة ، وغير ذلك من التحف الغريبة أشياء كثيرة مما يهدى للملوك أمثالها»^(٢) . وقد أرسل خاير بك فى السنة التالية هدايا على غرارها إلى السلطان سليمان المشرع^(٣) ، وكان قد تبوأ العرش بعد وفاة والده . ويمضى السنوات زاد حجم هذه المعاهدات وأنواعها ، كما أضيفت إليها مواد تحتاج إليها القوات المسلحة العثمانية البرية والبحرية .

ثالثاً : تزايد الإنفاق العسكرى :

ويتمثل هذا التزايد فى نفقات القوات العثمانية، التى ترابط فى الولايات للدفاع عنها من ناحية ، وللاشتراك فى الحكم والإدارة من ناحية ثانية ، ولدعم النفوذ العثمانى فيها بالقضاء

(١) ملك الأمراء لقب كان يطلق على خاير بك عقب تعيينه والياً على مصر، مدى الحياة، من قبل السلطان سليم الأول .

(٢) ابن إياس ج ٥ ، ص ٣٢٠-٣٢١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .

على الفن والإنتفاضات التي قد تقوم فيها من ناحية ثالثة ، وللمحافظة على الأمن العام فيها من ناحية رابعة . ويتصل بالإنفاق العسكري تجهيز فرق حربية ، عثمانية ومملوكية ، وترحيلها إلى ميادين القتال في آسيا وأوروبا للاشتراك مع جيوش الدولة في حروبها ضد جمهورية البندقية والنمسا والروسيا وانتزاع جزيرة رودس وجزيرة كريت والاشتراك في حروب اليمن وما إلى ذلك . وقد أفاض ابن إياس في ذكر التضحيات البشرية والمادية التي تحملتها مصر في مساعدة الدولة العثمانية ، على عهد السلطان سليمان المشرع ، على فتح جزيرة رودس ، واختتم شرحه بهذه الجملة المعبرة «وحصل لأهل مصر بخروج هذه التجريدة غاية الضرر» وفي معرض كلامه عن عيد الفطر سنة ٩٢٨ هـ (٢٤-٢٦ من أغسطس - آب - سنة ١٥٢٢) قال إن هذا العيد جاء خافداً «إذ كان أكثر السكر مسافراً في غزوة رودس»^(١) ، ويشير الجبرتي في كتابه بأجزائه الأربعة إلى الحملات العسكرية التي أعدتها مصر للإسهام في حروب الدولة العثمانية في البلقان ووسط أوروبا والروسيا ولليمن وغيرها ، وكانت خزانة مصر تتحمل نفقات هذه القوات تجهيزاً وإعداداً وتسليحاً ، وغير ذلك من نفقات المرتبات وأجور المواصلات وما إلى ذلك .

رابعا : كثرة قدوم القابجية والطريرة :

كانت خزان حكومات الولايات العثمانية تتحمل نفقات باهظة باستضافة القابجية^(٢) والطريرة^(٣) ، الذين كان الباب العالي يكثر من إيقادهم إلى الباشوات في ولايتهم حاملين رسائل وتبليغات وفرمانات هامة : وكان هؤلاء المبعوثون يعنون إلى إستانبول محملين بهدايا ثمينة للسلطان ورجال حكومته استرضاء لهم . كما كان الباشوات يخصون هؤلاء المبعوثون بهدايا شخصية لهم ؛ خاصة إذا كانوا يحملون أنباء سارة مثل انتصار حربي أحرزته الدولة على أعدائها ، أو تجديد مدة ولاية الباشا ، أو إذا أنجب السلطان مولوداً ذكراً .

خامسا : التكاليف المالية للباشا وحاشيته :

كان الباشا - بصفته نائب السلطان العثماني ورئيس الحكومة في الولاية - يكبد خزائنها العامة أعباء مالية جسيمة . فكان يحرص - في أثناء المدة التي يقضيها في منصبه - على أن يسترد المبالغ التي دفعها للسلطان في شراء منصبه .. وعلى سبيل المثال كان الباشا يشتري باشوية مصر والتمارقاتها المتنوعة ويجمع في أثناء حكمه أكثر مما دفعه للسلطان .. كان له

(١) ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٤٦٣-٤٦٤ ك من ٤٦٦ ، ٤٧٤ ، ٤٨٨ .

(٢) القابجية ومفردها قابجي هو رسول من الباب العالي، يوفده في مهمة رسمية ويسافر بحراً ، ويعد له استقبال حافل عند بلوغه ميناء الوصول .

(٣) الطريرة ومفردها طرير ، هو رسول يوفده الباب العالي في مهمة رسمية يسافر عن طريق البر . ويعد له استقبال شبه رسمي عند وصوله إلى حدود الإقليم، ثم استقبال رسمي كبير عند بلوغه عاصمة الولاية .

مرتب سنوى ثابت يسمى «ساليانه» بصرف له من خزانة الروزنامه بالقاهرة ، وإلى جانب هذا المرتب ، كانت له إيرادات من نسب معينة من الضرائب على بعض أصناف المتاجر وعلى تولية الأمراء الصناجق ونوابهم ، وعند نقل الالتزام من شخص إلى آخر . وكان جمرك البهار التزاماً للباشا ، وكان هذا الجمرك يقع بالقرب من القاهرة على الطريق الصحراوى من السويس وكانت تدفع فيه الضرائب المقررة على السلع الواردة من الحجاز ، وكانت هذه الإيرادات وغيرها تقيد فى خزانة الباشا الخاصة المعروفة باسم «خزينة ولى النعم» ، وكان الباشا يحضر إلى مصر ومعه حاشيته ولا يقل عدد أفرادها عن ألف شخص ينزلون معه فى القلعة ، كما يقول الجبرتى . وكانت الحكومة المصرية تتحمل إعاشتهم . وخصصت حكومة إستانبول للباشا سفينة نيلية ، جمعت بين أسباب العظمة والترف والاضخامة يعمل عليها أطقم من بحارة الأسطول العثمانى ، يتناوبون العمل عليها ويختارون من بين رجال وحدات الأسطول الذى يلقى مراسيه فى مياه الإسكندرية ، وتحوى السفينة المطابخ وملحقاتها والعديد من غرف النوم وقاعات الاستقبال والصالونات وأماكن لمبيت الموظفين والعمال وغيرهم ممن يقومون على خدمة الباشا . وقد روى فى بناء السفينة وإعدادها أن تكون صورة لسفينة الصدر الأعظم ، وكان الباشا يستقل السفينة عند حضوره إلى دمياط أو رشيد فينتقل عليها إلى القاهرة ، وتسير فى حراستها عدة سفن نيلية مسلحة وتصل به إلى ميناء بولاق . كما كان يستخدمها فى تنقلاته فى حفل عيد وقاء النيل وفى سفره إلى رشيد ، وإذا كانت مصر عندما فقدت استقلالها ودخلت تحت السيادة العثمانية قد ارتاحت مالياً من النفقات الباهظة ، التى كانت تخصص للعيشة الباذخة والمترفة التى كان يحياها السلاطين المماليك ورجال البلاط السلطانى .. فإنها استبدلت بهذه النفقات أعباء مالية جديدة مختلفة الأسماء والأشكال والأوصاف ؛ فالباشا العثمانى كان ينتهج سياسة بذخ مقرونة بسياسة تحقيق مدخرات له ، ولاتعارض بين السياستين لأن الخزانة العامة للحكومة المصرية كانت تتولى تمويل السياستين فى ذات الوقت .

سادساً : زيادة اعتمادات الحرمين الشريفين :

اغبط السلطان سليم الأول بدخول الحجاز دخولاً سلمياً تحت السيادة العثمانية فأمر - وهو لا يزال فى مصر - بزيادة الاعتمادات المالية والأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وعلى أشرف مكة وفقراء الحجاز . واطرقت هذه الزيادة نمواً على مدى القرون الثلاثة التى امتد إليها الحكم العثمانى فى مصر ، وكان من التقاليد التى غرسها الدولة أنه إذا غضب السلطان على كبير الأغوات السود فى التصور السلطانية عزله من منصبه وأمر بترحيله إلى القاهرة ، على أن تتحمل خزانة الحكومة المصرية مرتبه تدفعه إليه بصفة رتيبة من ديوان الروزنامه فى القاهرة . وكثر عدد كبار الأغوات المعزولين بسبب دسائس سيدات الحرمين السلطانى . وزادت الأعباء المالية على للخزانة المصرية ، وكان عدد

كبير من هؤلاء الأغوات يفضلون الترحال إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة لقضاء بقية حياتهم هناك، بعد أن اطمأنوا إلى وجود مورد مالى محترم وثابت يأتيهم من الخزانة المصرية.

تقاعس الحكومة العثمانية عن تنفيذ مشروعات عامة :

وكان تقاعس الحكومة العثمانية عن تنفيذ مشروعات عامة جديدة أو المحافظة على المرافق العامة القديمة هو الذى جلب الركود النسبى فى الحياة الاقتصادية على مصر وأدى بالتالى إلى معاناة الجماهير . وعلى سبيل المثال كانت توجد فى مصر ترعة تصل فرع رشيد بالإسكندرية ، وتستخدم كمحلة مهمة من مراحل الاتصال النهري بين القاهرة والإسكندرية ، وكانت تسمى خليج أو ترعة الأشرفية ^(١) ، ويرد ذكرها فى بعض المراجع تحت اسم خليج الإسكندرية حيناً ، وللخليج الناصرى حيناً آخر . وقد أهملت الحكومة العثمانية وولاتها تطهير الترعة : ومضت السنون وطمرتها الرمال فى معظم أجزائها . وأصبحت رشيد ودمياط هما نافذتى مصر على البحر المتوسط ، وإن كانت معظم السفن تتجنب الاتجاه إلى رشيد لخطورة اجتياز بوغازها . أما الإسكندرية .. فقد قلت أهميتها إلى حد بعيد فى العهد العثمانى ، وكان القادمون إليها من الخارج يضطرون إلى قطع المسافة على الشريط الساحلى منها إلى رشيد على ظهور الإبل ثم يستقلون السفن النيلية إلى بولاق ميناء القاهرة النهري ، بدلاً من أن يركبوا سفناً نهرية تنقلهم من الإسكندرية رأساً إلى القاهرة وبالعكس ؛ مما كان يكبدهم متاعب كثيرة ووقتاً طويلاً ونفقات إضافية فضلاً عن انكماش الرقعة الزراعية فى مديرية البحيرة . وقد عانت قوات الحملة الفرنسية بقيادة بوناپرت عام ١٧٩٨ ، وهى فى زحفها على القاهرة أهوالاً شديداً فى تحركها من الإسكندرية إلى دمهور ثم إلى الرحمانية على فرع رشيد ؛ إذ كانت المنطقة قد غدت فى أواخر الحكم العثمانى منطقة صحراوية .

وهذا الإهمال الشديد من جانب الحكومة العثمانية فى المحافظة على ترعة الإسكندرية لتؤدى وظيفتها الرئيسيتين فى المواصلات ورى للأراضى ، كان يقابله من قبل اهتمام زائد بأمرها من جانب سلاطين دولتى المماليك البحرية والشرابية ^(٢) : ثم رأى محمد على إعادة حفر هذه الترعة ، وأن تكون فتحتها عند مدينة السلف ، بدلاً من الرحمانية التى كانت تخرج

(١) كانت الترع فى ذلك الوقت يطلق عليها مصطلح «الخلجان» ، فيقال خليج الإسكندرية بدلاً من ترعة الإسكندرية .

(٢) كان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (الأول) البندقدارى (١٢٦٠-١٢٧٧) ، أحد سلاطين دولة المماليك البحرية، قد لاحظ فى أثناء زيارته الثانية للإسكندرية عام ١٢٦٥ أن خليج الإسكندرية قد طمرته الرمال فى بعض أطرافه . فاهتم بحفره ويأمر الحفر بنفسه . وأسهم الأمراء وساندوا الناس فى هذا العمل حتى زالت الرمال، التى كانت على الساحل بين التقيدى وغم الخليج . وكان السلطان الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون قد علم فى إنشاء سلطته التالية (١٢٩٠-١٣٤١) أن هذه الترعة قد طمرتها الرمال؛ بحيث لم تعد مياه النيل تصل الإسكندرية، وأصبح سكانها يشربون من المياه المخزونة فى الصهاريج، وأن=

مدتها للترعة القديمة . ولقى تنفيذ المشروع اهتماماً زائداً من محمد علي وحرصاً بالغاً على سرعة الانتهاء منه ، واستخدم في حفرها ٣١٢,٠٠٠ فلاح وفق نظام السخرة، جرى بهم من مديريات البحيرة والغربية والشرقية والدقهلية والمنوفية والقليوبية والجيزة . وكان يتردد على ساحات الحفر في أثناء شق الترعة ، وافتتحت رسمياً في اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٢٠ ، وأطلق عليها الترعة المحمودية نسبة إلى السلطان محمود الثاني^(١) . وأحييت أموات الأراضي في إقليم البحيرة، وأعادت إلى الوجود طريقاً مائياً أصبحت تستخدمه

السفن لم تعد تصل بالمناجر إلى الإسكندرية . ومافرد متواليه الإسكندرية إلى القاهرة ، وشرح له حقيقة الموقف وأوضح له المنافع التي تعود على المدينة بخاصة وعلى الدولة بعامه لو أعيد حفر الترعة . وأعجب السلطان بالفكرة ، وعهد إلى الأمراء بالإشراف على تنفيذ المشروع ، واشترك أربعون ألف رجل فيه ، وخصص لسكان كل ناحية جزءاً من الترعة يحفرونه حتى كملت . وأطلق عليها منذ ذلك الوقت الخليج الناصري . وكان تنفيذ هذا المشروع أهم الأعمال العمرانية ، التي تمت على عهد السلطان الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون . وعظمت المنافع بإعادة حفر هذه الترعة : إذ كانت السفن تجري فيها طوال السنة، واستغنى أهل الإسكندرية عن شرب مياه الصحاريح ، وكثرت البساتين والبساتين على ضفتيها وازدادت مساحة الأراضي التي أمكن استصلاحها حتى ناهزت - كما يقول المقرئ - مائة ألف فدان ، وأنشئت ماينيف على ستمائة ساقية ولفوق الأربعين ضبعة وأكثر من ألف غيط بالإسكندرية . وظل هذا الخليج الناصري يجلب الخير تجارياً وعمرانياً على الإسكندرية ومديرية البحيرة ستين سنة كاملة أي إلى سنة ١٣٦٨ ؛ حيث قلت العناية بطهيره فطمرته الرمال ، وصار الماء لا يدخل إليه إلا في أيام الفيضان ، ثم جف زمن التحاريق ، فظفت معظم بساتين الإسكندرية وتلاشت أغلبية القرى التي قامت على ضفتيه ، وظل الخليج الناصري على هذه الحال متناً وخمسعين سنة أخرى إلى أن تداركه بغيته السلطان الملك الأشرف برسباي (١٤٢٢-١٤٢٧) من سلاطين دولة المماليك الشراكسة ، فلمر في سنة ٤٢٣ بإعادة حفر الخليج الناصري .

انتظر كلٌّ من :

المقرئ (توفي الدين أحمد بن علي) : المواقف والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٤ أجزاء ، مطبعة النيل بالقاهرة ١٣٢٤-١٣٣٦ ج .

الأمير عمر طهيمون : خليج الإسكندرية القديم وترعة المحمودية . الإسكندرية ١٩٤٢ ، دكتور جمال الدين الشبال : الإسكندرية . طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، دار المعارف بمصر ، ص ٢٣-٢٤ وانظر له أيضاً :

الإسكندرية في العصورين الأيوبي والمملوكي ، فصل في كتاب «الإسكندرية» أصدرته الفرقة التجارية بالإسكندرية . القاهرة ١٩٤٩ .

(١) من ترعة المحمودية انظر كلٌّ من :

الجبوتي ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ محمد مسعود بك : لمحة عامة إلى مصر . ج ٢ ، ص ٧٠٢-٧٠٣ وهذا الجزءان هما ترجمة كتاب :

Clot Bey: Aperçu Général sur l'Egypte. Paris. 1840

وانظر أيضاً :

Mengin Felix : Histoire de l'Egypte sous leGouvernement de Mohamed Aly; ou Récit des Evénements Politiques et Militaires qui ont eu lieu depuis le départ des=

السفن النهرية تحمل حاصلات البلاد ووارداتها، وتمخر عباها الرافصات البخارية تعمل المسافرين والبريد من الإسكندرية إلى القاهرة وبالعكس . وأدى إنشائها إلى بعث مدينة الإسكندرية وازدياد تعدادها واكتظاظها بالتجار الأجانب، وزيادة حجم النشاط الاقتصادي فيها بحيث غدت الميناء الأول لمصر .

ولا يمكن أن ينسب الفضل في حفر ترعة للمحمودية إلى الدولة العثمانية ؛ إذ إن حفرها لم يكن من تفكير السلطان محمود الثاني، أو جاء نتيجة توجيه الباب العالي وتدخله لدى محمد على كى يقوم بتنفيذ مشروعها .. ولحق أن محمد على كان يحيط نفسه بمستشارين أوروبيين يشيرون عليه بمختلف المشروعات، التي يرون فيها وسيلة للنهوض بمصر . وكان محمد على يتميز بذكاء مثقف وعزيمة قدت من حديد ، ووجد في الشعب المصري رصيداً بشرياً ذا استعداد لتقبل المشروعات الجديدة ، لأنه شعب ذو حضارة أصيلة تطاول الأزمان وجوداً ، ووجد محمد على فيه مآثله المنشودة . وهكذا اعتمد محمد على وإلى مصر على المستشارين الأجانب في التخطيط ، وعلى الشعب المصري في التنفيذ ، وعلى شخصيته القوية المتعددة الجوانب في دفع عمليات التنفيذ وفي متابعة المشروعات في مجالات التطبيق . واتخذ له في تنفيذ سياسته لإعادة بناء الإنسان المصري وتغيير وجه مصر ثلاث دعائم هي سلاح المال بتنفيذ مشروعات التنمية الاقتصادية ، وسلاح العلم بإنشاء النظام التعليمي الحديث ، وسلاح الحديد والدار ببناء القوات المسلحة المصرية البرية والبحرية . وبينما ران على مصر طوال الحكم العثماني صمت وتجمد وصلا إلى حد يقرب من السلبية في معظم ميادين مشروعات التعمير ، كان حكم محمد على يبعث بمئات المشروعات العمرانية ، لأنه إلى جانب حفر ترعة المحمودية ، قام هذا الوالي بحفر ما يقرب من خمس وثلاثين ترعة (١) . وفوق ذلك كله أنشأ القناطر الخيرية لضبط مياه النيل، والانتفاع بها زمن التحاريق وإدخال الزراعة الصيفية في الوجه البحري . وكان هذا

=Français jusqu'en 1823. Paris-1823, 2 vols. pp. 334-335.

Merruau Paul; L'Egypte Contemporaine de Mehémet-Ali à Saïd-Pacha. Paris. 1864.

(١) كان من بين هذه الترع الطماطة في مديرية البحيرة ، وامتداد ترعة الجعفرية ، وترعة مسجد الخضر (الخضراوية) ، ويجيرم في مديرية الغربية ، وترعة البوهية ، والمنصورة ، والشرقاوية ، وأم سلمة ، وبويدة في مديرية النقهلية ، وترعة التفاعية ، والسرساوية ، والباجورية في مديرية المنوفية . وترعة الوادى ، والمسلمية ، وجر مشقول ، والصادى ، وجر الرمل ، وترعة برين ، ومصرف بلبسى في مديرية الشرقية . وترعة الزعفرانية ، والباسوسية ، والقرطامية ، والبولاقية القبلية ، وترعة قنبه ، ومصرف العموم في مديرية القليوبية . وترعة البراتقة في مديرية بنى سويف ، وترعة الفشن في مديرية المنيا ، وترعة السجدة ، والمرعشلى في مديرية جرجا . وترعة المشهورة ، وتوسيع ترعة بلاجيا ، والرمادى والعقلى ، والشال ، والناية في مديرية قنا وإسنا .

انظر :

عبدالرحمن الرافعى : عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤٢ .

المشروع من أكبر أعمال الرى فى ذلك الوقت ، وأدخل زراعات جديدة زادت من ثروة مصر الزراعية^(١) ، وانتهج سياسة نشيطة خلافة فى تصنيع البلاد ، بإنشاء مصانع كبرى تدار بالآلات^(٢) وإنشاء الجيش والأسطول الحربى والتجارى ، وأقام المدارس العسكرية^(٣) والمدنية^(٤) ، وأودع البعثات العلمية إلى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا أو النمسا . ولا يمكن القول بأن

(١) أدخل زراعة القطن من نوع جديد لأن القطن الذى كان يزرع فى مصر حتى سنة ١٨٢١ من صنف رديء لا يصلح إلا للتجيد ، وأقيمت مصانع إنجلترا وفرنسا على طلب القطن الجديد ، كما أدخل شجر التوت واستكثر من زراعة الزيتون .

(٢) كان فى مقدمة هذه الصناعات مصانع الغزل والنسيج مثل مصنع الخرنفش ، استقدم له مدربين من فلورنسا بإيطاليا ، ومصنع ماطة ، وأطلق على هذا الإسم نسبة إلى العدد الكبير من العمال الذين استقدمهم من ماطة ، وبالقرب من المصنع الأخير أنشأ مصنعى إبراهيم آغا والسنية ثم مصنع المبيضة ، بين بولاق وشبرا على شاطئ النيل ، وفيه كانت تبيض الأقمشة . وبالقرب من حى السيدة زينب ، ومصنع الجوه ببلاق ، ومصنع الحرير فى الخرنفش ، ومصنع الحبال فى القاهرة ، ومصنع الصوف فيها أيضاً لإنتاج ملابس بحارة الأسطول وأغطية النوم (البطانيات) ومصنع الطرابيش فى قوه .

كما أنشأ عدداً وافراً من مصانع الغزل والنسيج ، وأتبع سياسة حكيمه بعدم تركيزها فى مدينة واحدة أو مديرية واحدة ، فأنشأها فى قليوب ، وشبين الكرم ، والمطلة الكبرى ، وزفتى ، وميت غمر ، والمنصورة ، وبمياط ، ومنهور ، وقوه ، ورشيد . وفى الوجه القبلى فى بنى سويف ، وأسيوط ، والمنيا ، وقرشوط ، وطهطا ، وجرجا ، وقنا . وكانت تصدر منتجات هذه المصانع إلى ثغور البحر الأترابى وتوسكانيا بإيطاليا ومنها إلى داخل شبه الجزيرة الإيطالية وإلى ألمانيا . وأما باقى الإنتاج فكان للاستهلاك المحلى . وأنشأ أيضاً مصنعاً لسبك الحديد فى بولاق ، ومصنعاً لعل ألواح التماس التى كانت تبطن بها السفن . وأنشأ عدة مصانع لصناعة السكر فى الوجه القبلى ، ومصانع النيلة فى شبرا وشهاب والعرازة ، وميت غمر ، والمنصورة ، ومنوف ، وإيبار ، والأشمونين ، وبركة السبع ، والمطلة الكبرى ، والجيزة ، وأبى تيج ، وملوى ، ومنفلوط ، وطهطا ، وأسيوط ، والفشن . ومصنعاً للصابون ، ومخبئة للجلود فى رشيد ، ومصنعاً للزجاج والصينى . انظر المرجع السابق ، ص ٤٥٠-٤٦١ .

(٣) من المدارس الحربية التى أنشأها محمد على مدرسة أسوان ، وهى أول مدرسة حربية أسسها وفقاً للنظام الحديث ، وأسس مدارس حربية أخرى فى قرشوط ، والنخيلة ، وأبار (جرجا) . ومدرسة المشاة - البادية - فى الخانكة وقد نقلها إلى بمياط ثم إلى أبى زعبل ، ومدرسة الفرسان بالجيزة ، ومدرسة المدفعية بطره ، ومدرسة أركان الحرب بالخانكة ، ومدرسة الموسيقى العسكرية فى الخانكة .

وأسس ترسانة القلعة لصنع الأسلحة وصب المدافع ، ومصنعاً للبنادق فى الحوض المرصود بحى السيدة زينب ، ومعامل للبارود فى المقياس بطرف جزيرة الروضة ، وفى البدرشين ، والأشمونين ، والقفيص ، وأهناسية ، والطراثة .

وأسس فى بولاق ترسانة لبناء السفن الخفيفة والبحرية . وأقام فى الإسكندرية ترسانة - دار الصناعة الكبرى - لبناء السفن الحربية وحوضاً لترميم السفن ، وأنشأ مدرسة بحرية لتخريج الضباط البحريين . وكان مقرها إحدى السفن الحربية . ولما ازداد عدد طلبتها قسمت إلى فرقتين ، اختصت كل فرقة بسفينة . انظر المرجع السابق ، ص ٣٩٨-٣٩٩ ، ٣٠٢-٣٢٨ ، ٣٤١ .

(٤) كان من بين المدارس : مدرسة الهندسة بالقلعة ، ومدرسة الهندسة فى بولاق ، ومدرسة الطب وكان=

محمد على باشا قام بهذه الإصلاحات تنفيذاً لأوامر صدرت إليه من السلطان العثماني . وقد دل تاريخ الدولة العثمانية على أن سلاطينها كانوا لا يتركون إلى قيام الولاة بإصلاحات كبرى تؤدي إلى زيادة مواردهم المالية وتساعد نفوذهم مما يدفعهم إلى شق عصا الطاعة على الدولة . وعلى سبيل المثال كان السلطان محمود الثاني ينظر شذراً إلى مشروعات الإصلاح التي نفذها محمد على في مصر ثم في الشام ، وكان هذا السلطان دائم السعي لتقليم أظافر محمد على حتى لا يطن انفصاله عن الدولة . ومن ثم كان يطلب منه دوماً تجريد حملات عسكرية تسهم في حروب الدولة ، كما حدث في الحروب الوهابية والثورة اليونانية وجزيرة كريت . وكان محمد على يستجيب على مضض لطلبات السلطان المكرورة في هذا الصدد ، وإن كان قد امتنع عن مساعدة السلطان في حربه ضد روسيا عام ١٨٢٨ . وكان محمد على يعلم علماً يقينياً أن السلطان يهدف إلى إضعافه مالياً وعسكرياً ، وانتهى الأمر بنشوب الصراع الحربي العنيف بينهما في حرب الشام الأولى (١٨٣١-١٨٣٣) ، ثم حرب الشام الثانية (١٨٣٩) وأحرزت القوات المصرية فيها نصراً مبيناً على القوات العثمانية .

والحق أن تنفيذ مشروعات الإصلاحات الكبرى التي أدخلها محمد على في ولايته تعد - دون تجهن منا - صفحة مشينة للحكم العثماني المباشر في مصر ، بقدر ما كان هذا التنفيذ صفحة وضيفة في تاريخ محمد على . والذات تاريخياً أن الدولة العثمانية لم تعمل على إدخال إصلاحات اقتصادية في ولاياتها العربية ، وإنما قنعت بوضع أنظمة لحكم هذه الولايات تقوم على هيئات متنافسة وقضمن بتعدها التوازن الذي استهدفه بين مختلف أدوات الحكم . وكان من مبادئ سياستها العليا في حكم الأقاليم التي أخضعها عدم إحداث تغييرات جوهرية أو جنزية فيها إلا فيما يمس السيادة العثمانية . ويقول الأستاذ غريال ، وهو يتكلم عن تحديد التغيير الذي أصاب الأقطار العربية بسبب خضوعها للحكم العثماني ، « والواقع أنه بالنسبة لمصر وسورية لانجد أن التغيير الذي أصابت تلك الأقطار نتيجة للفتح العثماني من شيئاً أساسياً من مقومات المجتمع . فبقية عناصره كما كانت : فلاحوه ، ويدوه ، وصناعه ، وتجاره ، وعلمائه ، وأجاده ، وأصحاب المناصب . وما بين تلك العناصر من علاقات بقي كما كان . ونظم حيازة الأرض ونظم للجباية هي هي ، والواقع الذي يحدث كل يوم هو هو ، والمثل

عمرها أول الأمر في أبي زعبل لوجود المستشفى العسكري بها من قبل ، ثم نقلت إلى القصر العيني عام ١٨٢٧ ، ومدرسة الصبيلة ، ومدرسة الولادة ، ومدرسة الآسن ، ومدرسة المعائن بمصر القديمة ، ومدرسة المحاسبة بالسيدة زينب ، ومدرسة الفنون والصنائع ، وتسمى مدرسة العمليات ، ومدرسة الزراعة في نبروه ثم نقلت إلى شبرا . ومدرسة الطب البيطري والمدرسة التجهيزية (الثانوية) في القاهرة وفي الإسكندرية . وعدد من المدارس الابتدائية في معظم مديريات الوجهين البحري والقبلي .
انظر : دكتور أحمد عزت عبدالكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد على .

الأعلى هو هو^(١) ، ومعنى ذلك أن الحياة مضنت بالمصريين والشوام في أثناء الحكم العثماني على المتوال نفسه الذي كانت عليه في أيام حكم المماليك ، ثم يتكلم الأستاذ غريال عن لبنان وغيره ، فيقول «إن علاقات أمرائه الدرور والنصارى بالدولة صاحبة السيادة وبممثلوها في الحواضر السورية كانت واحدة أيام العثمانيين وأيام المماليك . ولا يختلف النفوذ العثماني في الحرمين الشريفين وفي جدة وفي السواحل اليمنية والإفريقية في طبيعته جوهرياً عن النفوذ المملوكي في تلك الأقاليم» وقال إنه يعتقد «أن الجديد الذي نتج عن الفتح العثماني نشأه في اللبابات المغربية العثمانية - الجزائر وتونس وطرابلس - فإن تلك اللبابات في جمعها عناصر القوة البحرية وعناصر القوة البرية ، وفي طبيعة علاقاتها بالأقاليم الداخلية وأهلها ، كانت تطوراً جديداً في تاريخ المغرب^(٢) .

الفقر والثراء مسألتان نسبيتان :

الفقر والثراء وتوافر منخرات لدى الجماهير مسائل نسبية ، وتختلف من عصر إلى عصر ومن بلد إلى بلد . وقد سبق أن ذكرنا مراراً في هذه الدراسة أنه الحكم على ظاهرة عامة أو حادث معين وقع في عصر من العصور التاريخية السابقة .. يجب أن نضع في الاعتبار كافة الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك العصر؛ فقد تكون الأموال السائلة المتداولة في بلد ما وفي عصر ما قليلة ، ولكنها ذات قوة شرائية كبيرة ، وتكون السلع متوافرة تنعم الأسواق ، ويكون حصول الجماهير عليها أمراً ميسوراً في جميع الأوقات ، فلا تحدث مثلاً أزمات تمويلية أو اختناقات في بعض السلع ، وتكون الحياة سهلة ميسرة أمام الجماهير . وقد يحدث العكس في عصر آخر، حين تكون الأموال المتداولة متوفرة بسبب ارتفاع دخول الأفراد ، ولكن يحدث في معظم مثل هذه الأحوال أن تكون الأموال المتداولة والوفيرة ذات قوة شرائية ضعيفة؛ مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً ، وتكون السلع الضرورية المعروضة في الأسواق شحيحة لاتفي بحاجيات السكان ، ومن هنا تنشأ معاناة الجماهير في الحصول عليها . وتنطبق الحالة الأولى على مصر بالذات دون بقية الولايات العربية التي خضعت للدولة العثمانية مثل الشام والعراق ونيابات شمالي إفريقية وغيرها ؛ إذ كانت الأوضاع الاقتصادية في هذه الولايات تختلف عن مثيلاتها في مصر . وقد سبق أن شرحنا ظروف الشام^(٣) والعراق^(٤) في هذه الدراسة ، وكان اتصال نيابات شمالي إفريقية بأوروبا اتصالاً مستمراً وكانت قطاعات من المجتمعات الإسلامية فيها تسهم في عمليات الجهاد الديني البحري وتعود

(١) محمد شفيق غريال : منهاج مفصل إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٣) انظر ج ٩ ، الفصل الأول .

(٤) انظر ج ٢ ، الفصل الثاني ، والفصل الثالث .

محملة بالغنائم .. أما إقليم الحجاز فلم يطرأ تغيير جوهري على أوضاعه الاقتصادي بل لعلها اتجهت إلى التحسن ، فقد زادت الدولة العثمانية في أوقاف للحرمين الشريفين والأموال المرسودة على فقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة ، كما أن الحجاز كان يعتمد أساساً على موسم الحج ، وقد أعفت الدولة إقليم الحجاز من دفع للجزية التي كانت تفرضها على الولايات العربية .

حقائق عن هبوط مستوى المعيشة في مصر

ولكى تكون لدينا فكرة صحيحة عن هبوط مستوى المعيشة في مصر، يجب أن نضع في الاعتبار عدة حقائق تتصل، بالأوضاع الاقتصادية والمالية في المجتمع المصري في العصر العثماني . كانت مطالب الحياة لدى الجماهير قليلة بل محدودة جداً تتمثل في الطعام، الذي تتلجج الأرض الزراعية في داخل مصر ، وفي الملابس الذي يصنع محلياً ، وفي السكن المتواضع .. فلم تكن الجماهير تتطلع إلى أطعمة أو ملابس مستوردة من الخارج ، أو مساكن فاخرة ، وكانت وسائل المواصلات متوفرة ورخيصة وفي متناول أفراد الشعب ؛ فالانتقال من بلدة إلى أخرى كان يتم في السفن النيلية ، فإذا بدت المدينة عن مجرى النهر ركبوا الجمال . وحتى الحج كانوا يؤدون فريضته على ظهور الجمال . وفي داخل المدن كان علماء الدين يستقلون البغال وأما أفراد الشعب الآخرون فكانوا يستخدمون الوسيلة الشعبية وهي الحمير ، ولم تكن العائلات المصرية تعرف مستحضرات الحضارة الأوروبية كفن زخرفة المنازل (الديكور) أو استيراد أثاث من أوروبا اللهم إلا قلة من كبار علماء الدين . ولم تكن العائلات تعرف أعياد الميلاد أو الزواج أو الأسرة - عيد الأم - وغير ذلك من المناسبات، التي تكبد الأسر المصرية نفقات باهظة . كما لم تكن تعرف نظام التصنيف، بل كان جميع أفراد الأسرة يقضون شهر الصيف في بيوتهم ، وفيما عدا السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج انغلق المصريون جميعاً على أنفسهم ، فلم يبرح أحد منهم البلاد إلى أوروبا ، وبالتالي لم تكن أمامهم فرصة لتطوير أسلوب حياتهم والارتقاء بها ، وكان بعض أفراد قلائل جداً منهم يسافرون إلى إسطنبول على فترات متباعدة، للاتصال برجال الباب العالي لقضاء مشكلة استعصى حلها في القاهرة .

كانت الأموال قليلة بل شحيحة ، وتكلم الجبرتي في إسهاب في مواطن كثيرة من الجزئين الأولين من كتابه عن وفرة السلع في الأسواق ورخص أسعارها ، ودون سعر كل سلعة تموينية، مثل: اللحوم بأنواعها والسمن والسكر والصابون والبن المطحون والبن والعسل النحل والأرز والبصل والفحم والتمور، وعلق على أسعارها بقوله (كانت الأسعار رخيصة والأحوال مرضية،^(١) . وكان الجبرتي في الوقت ذاته يحرص على تسجيل أسعار الحاجيات في أوقات

(١) الجبرتي ج ١ ص ٢٠٣ .

الأزمات التموينية التي تحدث إذا جاء فيضان النيل منخفضاً وشرقت الأرض الزراعية . والظاهرة التي تلفت أنظار الباحث أنه في خلال مثل تلك الأزمات لم تكن تخفى السلع ، فقد نكلم عن سنة ١١١٦ هـ (٦ مايو - آيار - سنة ١٧٠٤ إلى ٢٤ أبريل - نيسان - ١٧٠٥) ، ونكر أسعار اللحوم الضأن والبقري والجاموسي والسمن والزيت والدجاج والبيض والقمح والفلول والعدس والأرز والشعير، وما إلى ذلك ^(١) .

وفي ذكر أسعار السلع التموينية ، كان الجبرتي يتخذ من نصف الفضة ، أو الفضة ، الوحدة النقدية المعمول بها في مصر إبان الحكم العثماني ، وهي قطعة صغيرة من العملة النحاسية كانت تصرب في إستانبول ومصر على السواء . وقد أطلق العثمانيون على الفضة اسم «بارة» الفارسية ، ويرادف اسم «البارة» و «الفضة» في عصر الجبرتي اسم نصف الفضة . وكان القرش يساوي أربعين نصفة فضة ^(٢) ، وقد كانت العملة الأخيرة وسيلة مهمة لتحقيق مرونة العمليات التجارية في مصر ^(٣) .

ونورد هنا نبتين أحدهما بأسعار حاجيات المعيشة ، إبان فترات الرخاء ، والآخر إبان فترة الغلاء .

أولاً : أسعار حاجيات المعيشة إبان فترات الرخاء	السعر بنصف الفضة
رطل اللحم الضأن المجزوم من عظمه	٢
رطل اللحم البقري أو الجاموسي	١
السمن البقري ١٠ أرطال	٤٠
اللبن الحليب ١٠ أرطال	٤
رطل الصابون	٥
قنطار السكر المكرر	١,٠٠٠

(١) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ٣١ .

(٢) الدكتور عبدالرحمن فهمي : النقود المتداولة أيام الجبرتي . بحث منشور في مجلد «عبدالرحمن الجبرتي . دراسات وبحوث» من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٥١ - ٥٨٤ .

(٣) ظهرت أهمية نصف الفضة في مرونة العمليات التجارية في شهر ذي الحجة ١٢١٧ (٢٥ مارس - آذار - إلى ٢٢ أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٢) حين حدث امتصاص كبير «للفضة الانصاف» من الأسواق المصرية رويداً رويداً لبيعها في الشام بسعر أزيد مما هو عليه في مصر ، «حتى شحت بيدي الناس جداً ، ووقف حالهم في شراء لوازم البيت ومحقرات الأمور» . الدكتور عبدالرحمن فهمي ، المرجع السابق .

١٢	قنطار عسل الدحل المصفى
٢٥	رطل البين
٢٥	رطل شمع العسل
٧	قنطار البصل
٤٠٠	أردب الأرز
(٤)٤٠	قنطار الفحم
السعر بنصف الفضة	ثانياً : أسعار حاجيات المعيشة إبان فترات الغلاء
٣	رطل لحم الضأن
١	رطل اللحم البقرى أو للجاموسى
٨	الدجاجة
١	ثلاث بيضات
٢٤٠	أردب القمح
٢٤٠	أردب الفول
٢٠٠	أردب العدس
١٠٠	أردب الشعير
٤٠٠	أردب الأرز
٦٠٠	قنطار السمّن
(٥) ٣٥٠	قنطار الزيت

ومع ذلك.. فالفرق ليست صارخة بين أسعار حاجيات المعيشة فى أوقات الرخاء وأثمانها فى فترات الغلاء ، وتبدو هذه الأسعار فى الحالين بمقارنتها بأسعار الوقت الحاضر (١٩٨٠) ضريباً من الخيال أو أسطورة من الأساطير ، والجبرتي معروف بدقته فى ذكر الوقائع. وتؤكد هذه الأسعار الحقيقة التى ذكرناها، وهى أن العبرة ليست فى وفرة النقود فى أيدي الجماهير أو ارتفاع الدخول لدى الأفراد، وإنما العبرة فى قوتها الشرائية وتوفر السلع المعروضة

(١) الجبرتي ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

(٢) المصدر السابق ، الجزء ذاته ، ص ٣١ .

فى الأسواق . ولا يوجد تحت يدنا فى الوقت الحاضر مرجع موثوق به عن مستوى الأجور والمرتبات فى العصر العثمانى ، ولكن يمكن أن يأخذ فكرة قريبة إذا ذكرنا مرتبات ضباط وجنود الجيش المصرى فى عصر لاحق بعيد، منذ أن أنشأ محمد على الجيش المصرى، وظلت هذه المرتبات ثابتة طوال حكمه وعلى عهود خلفائه إلى أوائل الثورة المرابية ، فزيدت هذه المرتبات بمقتضى الأمر العالى الصادر فى ٢١ جمادى الأولى سنة ١٢٩٨ (٢٠ أبريل - نيسان - سنة ١٨٨١) على النحو التالى :

الرتبة العسكرية	المرتب القديم	المرتب بعد الزيادة
الملازم	٣٥٠	٦٠٠ بالقروش
الملازم أول	٤٠٠	٧٥٠
اليزباشى (النقيب)	٥٠٠	٩٥٠
الصاغ قول أغاسى (الرائد)	١,٢٠٠	١٥٠٠
البكباشى (العقيد)	٢,٠٠٠	٢٥٠٠
القائمقام (العقيد)	٢٥٠٠	٣٥٠٠
الأميرالاي (المسيد)	٤٠٠٠	٥٠٠٠
اللواء	٦٠٠٠	٦٥٠٠
الفريق	٧٥٠٠	٨٠٠٠ ^(١)

مرتبات الجنود وضباط الصف

بارة	قروش	المرتب بعد الزيادة بالقروش
نفر	١٠	٣٠
أونباشى (عريف)	٣٠	٤٠
شاويش (رقيب)	٣٠	٥٥
بلوك امين	٤٠	٦٥
باشجاويش (رقيب أول)	٥٠	٨٠
صولغول أغاسى (مساعد)	١٣٠	٢٧٥٠ ^(٢)

(٢٣) عبد الرحمن الرافعى ، الثورة المرابية والاحتلال الإنجليزى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ١٠٣ .
(٢٤) المرجع السابق ، الصفحة ذاتها .

ولما وقع الاحتلال البريطاني.. ألغيت هذه الزيادات وعادت مرتبات الضباط وضباط الصف والجنود إلى وضعها السابق^(١)، كما ألغى للخدو توفيق جميع الزيادات، التي أضيفت إلى مرتبات الاستبداد ومعاشات التقاعد.

ونخرج من هذين التبينين بهذه الحقيقة، وهي أنه إذا كانت مرتبات الضباط العاملين في الجيش والمتخرجين في المدارس الحربية في القرن التاسع عشر وعلى عهد الخديو إسماعيل بالذات بهذا القدر المتواضع، على الرغم من الحروب الخارجية المعقدة التي خاضوها.. فلا بد أن مستوى الأجور والمرتبات والدخول إبان الحكم العثماني كانت ضئيلة جداً مع الفارق المهم، وهو متطلبات الحياة العصرية في حكم إسماعيل؛ حيث كان الأخذ بالأساليب الأوروبية - West- emization قد أشد تياره في المجتمع المصري، ووجدت منافذ لنفقات جديدة، مثل: ارتياد المسارح، وظهور الصحف السياسية والأدبية والعلمية والفكاهية، ونشر الكتب العلمية والأدبية، وزيارة المتاحف مثل المتحف المصري ودار الآثار العربية، واستخدام البرق والبريد والسكك الحديدية وعربات الركوب.. وغير ذلك من مظاهر حضارية لم يعرفها مجتمع العصر العثماني. ولانتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن دخل الفرد متوسط الحال في مصر إبان الحكم العثماني كان يتراوح بين مائة قرش ومائة وخمسين قرشاً في الشهر؛ إذ كانت الوحدة النقدية المتعامل بها في الشراء هي العملة النحاسية المسماة «نصف الفضة»؛ أي ما يعادل ١/٤٠ من القروش.

صور من تدخل السلطات العثمانية لرفع المعاناة عن الجماهير :

وكانت السلطات العثمانية في مصر لاتتخذ جهداً في الضرب على أيدي التجار الجشعين، إذا عمدوا إلى رفع أسعار السلع.. فكانت تضع «قائمة»^(٢) بثمان كل سلعة ونوعها، ويختص عليها مشايخ الحرف إقراراً منهم بأنها أسعار مجزية للبائع ومعتدلة للمشتري، ويعتمد الباشا هذه القائمة. ثم تجوب الأسواق فرقة من رجال الحكومة يرأسها قائد المستحفظان، ويضع على رأسه «البيرشانة»^(٣) ومندوب عن كل فرقة من فرق الحامية العثمانية والوالي^(٤) وأمير الحسبة ونائب القاضي، ويحمل أحد القواسم^(٥) كيساً مملوئاً بالعكاكيز الشام^(٦)

(١) عبدالرحمن الرافعي : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١٧-١٨ .

(٢) القائمة لفظ كان شائع الاستعمال في العصر العثماني بمعنى كشف بمنقولات أو سلع أو أدوات . ولا يزال يستعمل في الأوساط الشعبية .

(٣) العمامة البيوانية .

(٤) والي في هذا النص معناه رئيس الشرطة في القاهرة؛ وذلك يطلق عليه والي القاهرة ، تمييزاً له عن الباشا العثماني لمصر .

(٥) القواسم بمعنى الشرطة .

(٦) العكاكيز الشام بمعنى التبايبات الفليظة .

والمشاعلى^(١) ، ويدهد القائمة أى كشف التصيرة . ويضرب القواصة كل تاجر أو فلاح يبيع بأكثر من التصيرة ، فيقطع أرضاً ويضرب بالعكاز الغليظ ولا يترك إلا إذا أصيب إصابات جسيمة . وكان بعضهم يموت فى أثناء الضرب أو نتيجة للضرب . ويذكر الجبرتى أنه كان فى مقدمة المضروبين فى كل مدرة الجزائريون والبقالون ، وكان أغا المستحفظان لا يسمح بأن تجرى عمليات وزن السلع فى محلات الباعة ، بل عند شيخ القبانية حتى لا يعتمد التجار إلى التحايل على التصيرة بإنفاص وزن السلع التى تباع للجماهير^(٢) .

وكانت السلطات العثمانية فى مصر تقدم مساعدات اجتماعية للجماهير فى أوقات الشدائد ، فقد حدث فى شهر صفر سنة ١١٠٧ (١١ سبتمبر - أيلول - سنة ١٦٩٥ إلى ٩ أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٦٩٥) أن اجتاحت أسواق القاهرة موجة من الغلاء فى أسعار المواد التموينية ، فأمر والى مصر إسماعيل مسلم باشا بجمع الفقراء والشحاذين بقراميدان^(٣) ، فلما اجتمعوا أمر بترزيهم على الأمراء والأعيان ، كل إنسان على قدر حاله وقدرته ، وأخذ لنفسه جانباً ولأعيان دولته جانباً^(٤) ، وعين لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام صباحاً ومساءً إلى أن انقضى الغلاء^(٥) . ثم فوجئت القاهرة فى شهر شوال من ذات السنة (٤ مايو - آيار - إلى ٣ يونيو - حزيران سنة ١٦٩٦) بوباء الطاعون ، يزحف عليها ويفتك بالأهلين فتكاً ذريعاً ، فأصدر إسماعيل باشا أمراً « إلى بيت المال » أن يكفن الفقراء والغرباء ، فصاروا يحملون الموتى من الطرقات ، ويذهبون بهم إلى مغسل السلطان عند سبيل المؤمن إلى أن انقضى أمر البوباء ، خلاف من كفته الأغنياء وأهل الخير من الأمراء والتجار وغيرهم^(٦) . ولم يقف بر هذا الباشا وعطفه على الفقراء عند هذا الحد ، فقد ذكر الجبرتى أنه « عمل مهماً^(٧) عظيماً لختان ولده إبراهيم بك ، وختن معه ألفين وثلاثمائة وستة وثلاثين غلاماً من أولاد الفقراء ، ورسم^(٨) لكل غلام بكسوة كاملة ودينار^(٩) .

(١) كان من اختصاصات المشاعلية حمل المشال ليلاً .

(٢) الجبرتى ، ج ١ ، ص ١٠٢-١٠٤ وانظر أيضاً فى الجزء ذاته ص ٩٢ .

(٣) تكتب فى بعض المراجع « قرة ميدان » ومعناها الميدان الأسود ، ويقع بين قلعة الجبل ومساجد السلطان حسن والرفاعى والمحمودية ، تتوسطه حديقة صغيرة وضريح الزعيم المصرى مصطفى كامل رئيس الحزب الوطنى . وعرف أيضاً باسم سوق العصر . والاسم الرسمى له حالياً ميدان صلاح الدين ، وبالميدان مصطبة الحمل . وكان مركب الحمل الشريف يبدأ مسيرته منها إلى مسجد الإمام الصغين .

(٤) أى كبار الموظفين العثمانيين فى مصر .

(٥) الجبرتى ، ج ١ ، ص ٢٦-٢٧ .

(٦) المصدر السابق ، ذات الجزء ص ٢٧ .

(٧) أى حفلا .

(٨) أى أمر .

(٩) الجبرتى ، ج ١ ، ص ٢٧ .

وكانت الدولة العثمانية إبان نزول القحط بمصر تعتمد إلى شحن سفن بالغلل وإرسالها إلى مصر ، ونذكر على سبيل المثال ما ذكره الجبرتي عن حوادث سنة ١١٣٥ هـ (١٢ أكتوبر - تشرين أول - ١٧٣٢ حتى ٣٠ سبتمبر - أيلول - سنة ١٧٣٣) أنه وردت إلى ميناء دمياط سفينتان محملتان بالقمح ؛ بسبب قلة المعروض من القمح لهبوط النيل في العام السابق (١) ، وما ذكره عن سنة ١١٩٨ (٢٦ نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٧٨٣ حتى ١٣ نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٧٨٤) كان أشد إيلاماً في النفس «إن الغلاء مستمر والأسعار في الشدة ، وعز الدرهم والدينار من أيدي الناس ، وقل التعامل إلا فيما يؤكل ، وصار سمر الناس وحديثهم في المجالس ذكر المأكّل والقمح والسمن ونحو ذلك لا غير ، ولولا لطف الله تعالى ومجئ الغلال من نواحي الشام والروم (٢) ، لهلك أهل مصر من الجوع» (٣) .

التكافل الاجتماعي الإسلامي في مصر :

وكان مما خفف من معاناة الجماهير التكافل الاجتماعي الإسلامي بين المصريين ، ولم يكن للدولة العثمانية دخل أو فضل فيه ، وقد أعطى الجبرتي صورة حية بأسلوبه عن هذا التكافل ، وهو من أروع ماسطره الجبرتي عن المجتمع المصري إبان الحكم العثماني ، فقال تحت عنوان «كان لأهل مصر سنن وطرائق في مكارم الأخلاق» ما يلي :

«إن في كل بيت من بيوت جميع الأعيان منطبخين ، أحدهما أسفل رجال ، والثاني في الحريم ، فيوضع في بيوت الأعيان السماط في وقتي العشاء والغذاء مستطيلاً في المكان الخارج مبذولاً للناس ، ويجلس صدره أمير للمجلس ، وحوله الضيفان (٤) ، ومن دونهم مماليكه وأتباعه ، ويقف الفراشون في وسطه ، يفرقون على الجالسين ، ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايا (٥) والمحمرات ، ولا يمنعون في وقت الطعام من يريد الدخول أصلاً ، ويرون أن ذلك من المعاييب ، حتى إن بعض ذوي الحاجات عند الأمراء إذا تمجبههم الخدام انتظروا وقت الطعام ودخلوا ، فلا يمنعهم الخدم في ذلك الوقت ، فيدخل صاحب الحاجة ويأكل ، ويدال غرضه من مخاطبة الأمير ، إذا نظر على سماطه شخصاً لم يكن رآه قبل ذلك ، ولم يذهب بعد الطعام ، عرف أن له حاجة ، فيطلبه ويسأله عن حاجته ، فيقضيها له .. وإن كان محتاجاً وإساءة بشيء . ولهم عادات وصداقات في أيام المواسم ، مثل : أيام أول رجب ، والمعراج ، ونصف شعبان ، وليالي رمضان ، والأعياد ، وعاشوراء ، والموالد الشريف ، يطبخون فيها الأرز باللبن والزرده ،

(١) الجبرتي ، ج ١ ، ص ٣١ .

(٢) الروم أي بلاد الروم ويقصد بها حسب المعنى الشائع في ذلك العصر الدولة العثمانية .

(٣) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ٨٤ .

(٤) الضيفان بمعنى الضيف أو الضيفات جمع ضيف .

(٥) القلايا الطعام المقلّى أو المقلو .

ويمألون (كذا) من ذلك قصاعاً كثيرة ، ويفرقون منها على من يعرفونه من المحتاجين ، ويجتمع في كل بيت الكثير من الفقراء ، ويفرقون عليهم الخبز ، يأكلون حتى يشبعوا من ذلك الذين والزردة ويعطونهم بعد ذلك دراهم . ولهم غير ذلك ، صدقات وصلات لمن يلوذ بهم ويعرفون منه الاحتياج ، خلاف ما يعمل ويفرق من الكمك المحشو بالسكر والعجمية ، والشريك على المدافن والترب في الجمع والمواسم . وكذلك أهل القرى والأرياف فيهم من مكارم الأخلاق ما لا يوجد في غيرهم من أهل قرى الأقاليم .. فإن أقل ما فيهم ، إذا نزل به ضيف ولو لم يعرفه اجتهد ويأخذ بقره (١) في الحال ، وبذل وسعه في إكرامه ، وبذبح له ذبيحة في العشاء ، ماعدا مشايخ البلاد والمشاهير من كبار العرب والمقدام .. فإن لهم مضايف (٢) واستعدادات للصنيوف ، ومن يفلز عليهم من السفار (٣) والأجناد (٤) ، ولهم مساميح (٥) وأطياناً في نظير ذلك ، خلفاً عن سلف ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه ويسر استقصاؤه (٦) .

وكان مما جعل المصريين يرتضون الحياة المتراخعة والقائنة عمق مشاعرهم الدينية وانتشار الطرق الصوفية ، وقد شجعت الدولة العثمانية النزعات الدينية والاتجاهات الصوفية ؛ حتى لا تعتمد للجماهير إلى التمرد على السلطان العثماني المسلم - وهو ولي الأمر - وفعلًا انقضى الحكم العثماني لمصر دون أن تنشب ثورات على الدولة ، وإن كانت قد قامت انتفاضات شعبية محلية ، كانت مقصورة على بعض أحياء في القاهرة على الباشا العثماني حيناً وعلى الأمراء المماليك أحياناً .

ولكن من الثابت أيضاً أن قطاعات جديدة - وعلى مختلف المستويات - كان لديها مدخرات تمثل في مصوغات ذهبية ذات وزن ثقيل نسبياً ، وكان أهل الريف يحرسون على اقتناء كميات وفيرة منها وعلى إخفائها عن أعين رجال الحكومة ؛ خوفاً من مصادرتها تحت اسم قروض أو طلب (٧) .

(١) قراء (بالفتح والهمزة) من قرى الضيف (يفتح القاف والراء) بمعنى أحسن إليه مضاربه بقرى (يفتح الباء وسكون الراء) .

(٢) أماكن الضيافة .

(٣) المسافرين .

(٤) العسكريين . ويقال أجناد وجنود جمع جندي .

(٥) مساميح جمع مسموح ، مصطلح تاريخي . يقال مسموح الشايخ أي الأرض التي يهونها شيخ القرية ولا يملك عنها خرائب في مقابل الخدمات ، التي يؤتيها لموظفي الحكومة عند توبتهم من القاهرة أو عاصمة المدينة لإنجاز مهام مناصبهم .

(٦) الجبرتي ، ج ١ ص ٢٠٦ .

(٧) طلب (بضم الطاء وفتح اللام) مصطلح تاريخي معناه مبالغ تفرض على الأهالي لمواجهة طوارئ أو لإشباع جشع الأمراء المماليك ونزعتهم للكملة السلب والنهب .

مصدر معاناة المصريين :

والحق أن الدولة العثمانية لم تكن مصدر معاناة الشعب المصرى فى حياته المعيشية، بقدر ماكان المماليك مسئولين مسئولية مباشرة عن هذه المعاناة ؛ إذ كان لتناثر البيوت الملوكية فى مصر إبان الحكم العثمانى وانقسامهم إلى فريقين الفقارية والفاضية (١) ، وماوقع بينهم من نفور ومشاحنات وحروب لم يكن ينقطع أثرها للمباشر . وكان الأمراء المماليك كلما أعوزتهم الحاجة إلى المال والمحصولات الزراعية يزحفون مع أتباعهم إلى إحدى مناطق الريف يخطفون الماشية، وينهبون المحاصيل الزراعية، ويقترمون بيوت الفلاحين بحثاً عن النقود والمصوغات الذهبية، ويعودون بمسروقاتهم ومنهرياتهم إلى القاهرة . وتتحدد مسئولية الدولة العثمانية فى أنها أخذت يبقاء المماليك فى مصر كعصر حربى، توازن به سلطة بعض الباشوات والوقوف فى وجوهم إذا حدثتهم أنفسهم بالاستقلال بمصر .. لقد كان المماليك نقمة على مصر، وكلما أوغل العصر العثمانى فى مسيرته، ازداد أمراء المماليك وأجنادهم طغياناً حتى استطاعوا فى نهاية المطاف أن تكون كلمتهم هى العليا ، واضطرت الدولة إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة حسن باشا للجزائلى سنة ١٧٨٦ إلى مصر لدعم النفوذ العثمانى . وأخفقت الحملة فى تحقيق أهدافها ، وكان كل التغيير الذى أحدثته هو نقل السلطة من أميرين مملوكيين إبراهيم بك ومراد بك ، إلى أمير مملوكى آخر هو إسماعيل بك ، وكان ظلوماً جهولاً، ثم مالبت أن قضى الأخير نحبه فى وباء الطاعون الذى اشتعل فى مصر ، وعرف باسمه «طاعون إسماعيل بك»، وعاد الأميران إلى حكم البلاد وبقي كل شئ على حاله .

وفى تقدير الجبرتى - وهو مؤرخ محايد ومعاصر ومنطق - أن البلاد الذى نزل بالشعب المصرى كان مرده إلى عاملين : عسف الأمراء المماليك ، وهبوط النيل إذا جاء الفيضان شحيحاً .. فإذا اجتمع هذان العاملان فى وقت واحد كانت الطامة الكبرى (٢) .

ويحلو لبعض الباحثين السطحيين أن يضرب بمصر المثال على سوء أحوال العالم العربى إبان الحكم العثمانى ، وقد أخذ أحدهم على السلطان سليم الأول أنه لم ينشئ فى مصر حياة نيابية بعد أن فتحها سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) . وقد نسي أو تناسى هذا الباحث أن الدولة العثمانية ذاتها - وكذلك الغالبية العظمى من الدول الأوروبية - لم تكن تعرف فى القرن السادس عشر الميلادى المجالس النيابية المنتخبة انتخاباً مباشراً ، أو حتى على درجتين ، كما لم تكن فى مصر أحزاب سياسية تتنافس فى انتخابات عامة على الفوز بأغلبية المقاعد فى الهيئة النيابية . ومع ذلك .. فقد أنشأ العثمانيون منذ السنوات الأولى للحكم العثمانى هيئتين : أطلق

(١) الجبرتى : ج ١ ، ص ٢١-٢٤ .

(٢) انظر على سبيل المثال ماذكره الجبرتى عن الأزمات التموينية بسبب تصرفات الأمراء المماليك ج ٢ ، ص ١٢٢-١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

على الأولى «بيوك ديوان» أى الديوان الكبير ، وعلى الثانية «كوجرك ديوان» أى الديوان الصغير ، وكان جميع أعضاء هاتين الهيئتين يمارسون عضويتهم بحكم مناصبهم *ex officio* .. فلم تكونا هيئتين انتخابيتين ، وقد غابت هذه الحقيقة عن أذهان فريق آخر من الباحثين ، وأطلقوا لخيالهم العنان فوصفوا هاتين الهيئتين بأنهما نواة الحياة النيابية فى مصر ، مع أنه كان فى مقدمة أهدافهما دعم السيادة العثمانية على مصر بإيجاد رقابة مستديرة على تصرفات الباشا ؛ خشية أن يقوم بحركة انفصالية عن الدولة ، وضماناً لإرسال الجزية السنوية فى موعدها إلى السلطان .

وهكذا كان ما يراه هؤلاء الباحثون للسلطيون - وقد ضربنا صفحاً عن ذكر أسمائهم منعاً لإحراجهم لأنهم لا يزالون على قيد الحياة أو بعبارة أكثر دقة - لا يزالون موجودين على وجه الأرض - أن سوء الحكم العثمانى فى العالم العربى ، إنما يرجع إلى عدم وجود برلمانات حديثة . وفاتهم أن السبب الرئيسى هو إخفاق الدولة العثمانية فى إعادة التجارة الشرقية العالمية إلى الطريقين القديمين : البحر الأحمر ومصر ، وطريق الخليج العربى والعراق والشام ، وفاتهم أيضاً بالنسبة لمصر ، إلى جانب هذا السبب الرئيسى إهمال السلطات العثمانية المحافظة على المرافق العامة ومن أهمها تطهير النزع القائمة فطمرتها للرمال ، وزحفت الصحراء على الأراضى الزراعية فانكمشت مساحتها ، ثم سماح الدولة ببقاء المماليك كعنصر حربى مشاغب .. ينهب ثروات المصريين ، وينشر الظلم والفساد ، ويرتكب أعمال السلب . فكان المماليك مصدر شقاء الشعب المصرى ، وكانوا كالموس يخر عظام المصريين أو كالسرطان يتفشى فى جسم المريض ، وتحمل الدولة العثمانية المسؤولية كاملة عن هذه الأسباب الثلاثة فى معاناة الجماهير وهبوط مستوى معيشتها .

عيوب الدولة العثمانية (٢)

تباطؤ الدولة في حسم المذابح الدينية

بين المسلمين والمسيحيين

دراسة تحليلية لظاهرة المذابح الدينية :

برزت في تاريخ الدولة العثمانية ظاهرة المذابح الدينية بين المسلمين والمسيحيين للخاصين لحكمها . وقد اشدت هذه الظاهرة في القرن التاسع عشر بوجه خاص، حين وضع ضعف الدولة العثمانية ، وبانت الشعوب المسيحية تتطلع إلى التحرر من الحكم العثماني الإسلامي البغيض إلى نفوسها . ولم تكن الأحوال السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية التي عاشت في ظلها هذه الشعوب سبباً إلى الحد الذي يجعلها تثار على الدولة العثمانية .. كان الشعور القومي لدى الشعوب المسيحية للخاصة للدولة في دور النمو أو لطف كان في مراحل الأولى . ولكن أصابع الدولة الأوروبية، وبخاصة الروسية والنمسا، كانت تحرك هذه الشعوب وتتخذها وسيلة عملية لإثارة المتاعب في وجه الدولة العثمانية لبتغاء تفتيت ممتلكاتها . كانت تد الفوار سراً بالأسلحة والعتاد الحربي والأموال للقيام بثورات ، وتبذل لهم الوعود بتعويضهم عن الخسائر التي يتعرضون لها إبان الثورات ، فضلاً عن ظفرهم بالاستقلال . وفي هذه الحال تقدم لهم الدول الأوروبية المساعدات العسكرية واللقية وما إليها لدعم هذا الاستقلال الكامل ، أو على الأقل يظفرون باستقلال ذاتي يكون خطوة نحو الاستقلال الكامل .

وفي كلتا الحالتين تخرج هذه الشعوب بمكاسب هائلة ، وانسأقت شعوب البلقان وراء الدول المحرصة دون تدبر لعواقب هذه الثورات، دون أن تعي الأغراض الخفية التي تبطنها من وراء تحريضها . ففي حالة الانتصار ستجعل الدول المحرصة الولايات العثمانية المسيحية مناطق نفوذ عسكري أو سياسي أو اقتصادي لها ، وفي حالة إخفاق الثورات تكون هذه الدول قد حققت أحد أهدافها القريبة وهو إضعاف الدولة العثمانية . وكان الثوار في تحركهم يعتمدون على عنصرين : عنصر المفاجأة وعنصر كثافتهم العددية بالنسبة لعدد أفراد اللاميات العثمانية واللجاليات العثمانية المسلمة ، فيفتكون بهم فتكاً ذريعاً . وترد عليهم الدولة برد مماثل، وتجري المذابح العامة بين المسيحيين والمسلمين في عنف وضراوة .

وجدير بالذكر أن يهود الدولة العثمانية لم يشتركوا في هذه المذابح سواء في جانب

العثمانيين أو فى جانب الشعوب المسيحية الثائرة ، إذ كانوا منصرفين كشأنهم دائماً إلى ممارسة نشاطهم الاقتصادى والمالى المتعدد الصور فى الدولة العثمانية . وكانوا يحرصون على أن يعيشوا فى جو هادئ وعلى أن تكون علاقاتهم ودية مع الدولة . ولم تكن لهم مطامع قومية إلا بعد ظهور الحركة الصهيونية فى أواخر القرن التاسع عشر على يد هرزل Hertzl . ومع ذلك كانت قلوبهم تنجه إلى فلسطين ، دون التجاء إلى وسائل العنف ضد الأغلبية الإسلامية . ولما طرح موضوع حماية الأقليات الدينية فى دولة تركيا الحديثة على مؤتمر لوزان Lausanne (١٩٢٢-١٩٢٣) ، أعلن عصمت إيدونو وزير خارجية تركيا ورئيس وفد المفاوضات التركى فى المؤتمر أن اليهود لم يكونوا قط مصدر متاعب أيام حكم الدولة العثمانية ، وأنهم لم يقوموا بغتة أو انتفاضات أو ثورات ، ورفض أن يضعهم فى عداد الأقليات الدينية المشاغبة مثل اليونانيين أو الأرمن . وقال إن فى استطاعة اليهود أن يظلوا فى تركيا الحديثة آمدين مطمئنين (٢) .

نعود إلى موضوع المذابح الدينية فنقول إنه يؤخذ على الدولة العثمانية تبايلوها فى مواجهة هذه المذابح وعدم القضاء عليها وهى لاتزال فى مهدها ، إذ كانت تتركها متعمدة ، أو متكاسلة ، أو متجاهلة ، حتى يستفحل أمرها ويمتد لهيبها إلى مناطق فسيحة متعددة . وأمام ثورة الرأى العام الإسلامى فى الدولة ، والذى كان يطالب بالمعاملة بالمثل تبدأ القوات العسكرية النظامية وغير النظامية ، الباشى بوزوق ، فى التحرك إلى المناطق التى خضبت أراضيها بالدماء ويتطش بالمسيحيين . وفى أحوال قليلة كانت تتكل بأحد كبار المسلمين سترأ لموقفها ، وتظاهراً بأنها تلزم جادة الحق فى معالجة هذه المذابح .

لقد أساءت المذابح الدينية إلى سمعة الدولة العثمانية ، وأظهرتها بمظهر الدولة التى ترتكب جهاراً أعمالاً وحشية ضد رعاياها المسيحيين . وفى كل منبحة كانت شخصية أوروبية عامة تتصدى للدفاع عنهم ، وتسعى لإثارة الشعوب الأوروبية على الدولة العثمانية ولعطالبة حكوماتها بالتدخل لإنقاذ هؤلاء الأبرياء ، أو مانبقى منهم على قيد الحياة من حكم إسلامى متخلف ووحشى ، فى نظرم ، هو حكم الدولة العثمانية . ونذكر من هذه الشخصيات العامة الشاعر الإنجليزى الكبير لورد بيرون Byron الذى صور الثوار اليونانيين بأنهم أبطال من سلالة هوميروس ، وبركليى . وأهاب بالحكومات والشعوب الأوروبية مدهم بالسلاح وأمال والتدخل السريع لإنقاذهم . وكذلك لورد جلاستون فقد استغل رياسته لحزب الأحرار فى إنجلترا ومنصبه كرئيس وزارة سابق وبراغته الفذة فى الخطابة ، وأثار حملات إعلامية واسعة

(١) انظر فى هذه الدراسة ج ١ ، الفصل العاشر .

(2) Harry N. Howard; The Partition of Turkey.A Diplomatic History. New York, 1966, p.

الناطق ضد الدولة العثمانية فى مجلس العموم البريطانى ومجلس اللوردات والصحافة والاجتماعات العامة والكتب التى نشرها فى هذا الصدد . وكان جلاستون مدفوعاً فى حملات التشهير بمقته الشديد للإسلام وكراهيته العميقة للدولة العثمانية ، وقد طالب بطرد العثمانيين وما ملكت أيديهم Bag and Baggage من أوروبا كلية بمناسبة مذابح بلغاريا ، وقد سبق أن تعرضنا فى هذه الدراسة لنشاط هاتين الشخصيتين (١) .

ولم تكن لدى الدولة العثمانية وسائل إعلام فى أوروبا تتولى الرد على هذه الحملات التشهيرية وتفنيد ما فيها من مبالغات أو أكاذيب . والأخطر من هذا القصور فى وسائل الإعلام العثمانى أن المكاتبات الدبلوماسية ، التى تبودلت بين الحكومات الأوروبية فى صدد المذابح الدينية كانت تحوى تفاصيل كاذبة بل ومن نسج للخيال . وقد تولت وزارات الخارجية فى الدول الأوروبية طبع ونشر هذه الرسائل فى الكتب الرسمية الزرقاء والصفراء وما إليها ، وأصبحت مرجعاً تاريخياً يستقى منه الباحثون للبيباوات Les recherches perroquets مادة تاريخية صارخة أكاذيبها . لذلك كان رأى الذى ذكره الأستاذ محمد شفيق غريال ، وهو يتكلم عرضاً عن المذابح الدينية فى الدولة العثمانية ، كان رأياً غير دقيق ، فقد قال إن للدولة العثمانية كانت كلما ازدادت ضعفاً ، ازدادت اعتماداً على المذابح الدينية بين المسيحيين (٢) . ووجه عدم الدقة فى رأيه أن زمام المبادأة كان دائماً فى يد المسيحيين ، وكانت السلطات العثمانية ترد عليهم بالوسيلة ذاتها وهى المذابح . ولم ينطبق رأى الأستاذ غريال إلا على بعض الحالات فى مذابح الأرمن ، وحتى فى هذه الحالات كان سلوك الأرمن تجاه العثمانيين سلوكاً استفزازياً .

ويهمنا أن نذكر أنه نتيجة لحملات الدعاية المسمومة والنشطة فى أوروبا بشأن المذابح الدينية المسيحية ، تكونت فى بريطانيا وفرنسا وسويسرا وغيرها جماعات وجهت نداءات لجمع التبرعات المالية والعينية لإغاثة المنكوبين المسيحيين ، فتدفقت عليهم الأسلحة لمساعدتهم على حماية أرواحهم وأرواح زوجاتهم وأولادهم من سيوف العثمانيين البائرة . وكانت تتدخل الحكومات الأوروبية وتعقد المؤتمرات الدولية ، وتجزئ لنفسها حق التدخل فى الشؤون الداخلية للدولة العثمانية تحت ستار حماية الأقليات المسيحية وتحسين أحوالها ، وتقرر فى بعض الأحيان إرسال قوات عسكرية إلى مناطق الاضطرابات . وكانت بعض الدول الأوروبية تتخذ من هذه الأحداث سبباً لقيام حالة حرب casus belli على الدولة العثمانية ، التى تتعرض لكتل دولى صليبي يتوغل فى أراضي الدولة ، وتصاب القوات العثمانية بهزائم أليمة .

(١) انظر ج ٢ ، الفصل الرابع .

(٢) محمد شفيق غريال : منهاج مفصل إلخ ، مرجع سبق ذكره : ص .

كانت أهم المذابح الدينية التي مرت بتاريخ الدولة العثمانية منذ القرن التاسع عشر أربعاً، هي :

(١) المذابح الإسلامية سنة ١٨٢١ في بلاد المورة ، وقد اشترك رجال الدين المسيحي في قتل المسلمين الذين تعرضوا لمذبحة رهيبة .

(٢) الفتنة الدينية في لبنان سنة ١٨٦٠ ، وكان رجال الدين الموارنة يشجعون المسيحيين على قتل المسلمين .

(٣) مذابح المسلمين في بلغاريا منذ مايو ١٨٧٦ ، وكانت أصابع الروسية ورومانيا واضحة في تحريك هذه المذابح واشتدادها .

(٤) مذابح الأرمن ووقعت على فترات متقاربة بوجه خاص في القرنين التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكانت الروسية تعمل على إشعال هذه المذابح وتصعيدها كلما خبت جذوتها.

والباحث في تاريخ الدولة العثمانية يلمس عدة حقائق :

أولاً : كانت المذابح تبدأ بذبح المسلمين ويذال المسيحيون منهم مذابحاً عظيماً؛ بسبب تفوقهم العددي واعتمادهم على عنصر المباغلة .

ثانياً : إن هذه المذابح ، وإن أسفرت عن قتل بضعة آلاف من المسيحيين ، فلا بأس في تقدير بعض الدول ، من التضحية بهم في سبيل تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وطردها من أوروبا ، أو على أقل تقدير إنهاكها وإضعافها عسكرياً ومالياً وسياسياً .

ثالثاً : إن هذه المذابح ، وما سبقها ثم صاحبها ولحقها من تحركات دولية كانت مظهراً للروح الصليبية الكامنة في نفوس الشعوب والحكومات الأوروبية ، على حد سواء ، ضد دولة إسلامية كبرى هي الدولة العثمانية ، كانت أوروبا تنظر إليها على أنها رمز الإسلام .

رابعاً : إن هذه المذابح لم تقع إلا بعد أن تعرضت القوات العثمانية من قبل لهزائم الئيمة ، وبات واضحاً أضعف حال الدولة وقرب انهيارها .

خامساً : إن المذابح الدينية كانت طريقة عملية لفتح باب المسألة الشرقية على مصاريعه كل حين وأن . وفي معظم المرات، كانت الدولة العثمانية تخرج بخسائر إقليمية وسياسية واقتصادية فادحة .

سادساً : إذا كانت بريطانيا وفرنسا والنمسا قد تظاهرت بالوقوف إلى جانب الدولة العثمانية في حرب سنتي ١٨٧٧ ، ١٧٧٨ ، التي أعقبت المذابح الإسلامية والبلغارية .. فإن هذا التظاهر كان من قبيل المسرحيات السياسية ، لأن هذه الدول الثلاث قد خرجت

بمكاسب إقليمية هائلة .. احتلت بريطانيا جزيرة قبرص سنة ١٨٧٨ احتلالاً سمنه احتلالاً مؤقتاً ، واحتلت مصر سنة ١٨٨٢ احتلالاً سمنه أيضاً احتلالاً مؤقتاً . وظفرت فرنسا بوعد من بريطانيا وألمانيا ببسط الحماية الفرنسية على تونس ، واحتلت الإمبراطورية اللثالية - النمسا والمجر - اللواتكن العثمانيين المهمتين : البوسنة والهرسك فى غربى البلقان ووصفته بأنه احتلال مؤقت ، ولكنه لم يلبث أن تحول إلى عملية ضم نهائى فى سنة ١٩٠٨ ، ولاننسى أن بريطانيا ظاهرت اللونانيين عقب ذبحهم المسلمين سنة ١٨١٢ .

سابعاً : أفاض المؤرخون الأوروبيون فى ذكر عدد ضحايا المسيحيين فى المذابح اللدينية ، ولم يتكلموا عن عدد ضحايا المسلمين فى العجازر اللتى أوقعها بهم المسيحيون .

ثامناً : انعدام وسائل الإعلام اللعثمانى فى أوروبا ، مع توافر وسائل الإعلام الأوروبى ونجاحه فى تشويه سمعة الدولة لدى الرأى العام الأوروبى .

وقد سبق أن تعرضنا فى هذه الدراسة للمذابح الإسلامية ، اللتى وقعت فى أثناء ثورة اللونانيين وللمذابح الإسلامية اللتى حدثت إبان ثورة اللبغاربيين . وبقى أن نمر مروراً سريعاً على مذابح فتنة لبنان ، ومذابح المسلمين فى ثغر جدة بإقليم الحجاز ، ومذابح الأرمن .

عدم الدقة اللفظية فى استخدام كلمة مذابح :

وقد شاع استخدام لفظة مذابح Massacres عند ذكر أحداث الصدام المسلح الذى كان يقع بين بعض رعابا الدولة العثمانية المسيحيين والسلطات العثمانية ، من وقت إلى آخر فى غضون القرن اللتاسع عشر وأوائل القرن العشرين . ولواقع أن استخدام هذه الكلمة ينطوى على قدر كبير من المبالغة ، فالمعنى الذى يتبادر إلى الذهن عادة عند سماعها هو أن العثمانيين كانوا يأخذون المسيحيين ، رجالاً ونساءً ، ويوثقون أيديهم وأرجلهم بالحبال ثم يبطحونهم أرضاً ويفصلون رؤوسهم عن أجسامهم . ولم يكن العثمانيون جزارين ، كما أن الجزارة لم تكن مهنتهم المفضلة ، ولكلهم كانوا جنوداً بوسائل يسترخسون الموت فى سبيل الانتصار على خصومهم . ويعتمدون اعتماداً أساسياً على سلاح المدفعية فيفتك بالخصوم فتكاً ذريعاً من مسافات بعيدة . وفى حالة الاشتباك عن قرب كانوا يستخدمون أسلحة أخرى مثل السيوف والخناجر والطلاقات النارية والقنابل وغيرها . أما طريقة الذبح فى قتل خصومهم ، فكانت تستغرق وقتاً طويلاً وتتبع عديد الفرص لزملاء المسيحى للتدخل إما لترك قبوده ، وإما لقتل القائلين بعمليات الذبح . وليس بمعقول أن يعمد العثمانيون إلى ذبح عشرين ألفاً أو ثلاثين ألفاً من المسيحيين العصابة ، فى يوم أو بعض يوم ، كما يقر المؤرخون والسياسيون الإنجليز بوجه خاص . ولكن استطاب هذا الفريق استخدام لفظة مذابح إمعاناً فى تشويه صورة الدولة العثمانية أمام الرأى العام

الأوروىى . والحقيقة أن للعثمانيين كانوا يستخدمون فى الصراع الدموى الرهيب أسلحة فداكة نعصف بأرواح خصومهم العصاة عصفاً جماعياً دون التجاء إلى وسائل الذبح . وإن التعبير العلمى الدقيق الذى يستخدم فى مثل هذه الأحوال هو قتل الإرهابيين ، لا نبحهم، وإذا أريد التعبير عن جسامة الخسائر فى الأرواح فتستخدم كلمة Les Atrocités وتقابلها فى الإنجليزية لفظة Atrocities بمعنى الأهوال ، أو تستخدم عبارة Collision Armée أو Armed Collision أى الصدام المسلح ، أو Tuerie وتقابلها فى الإنجليزية murder بمعنى مقتلة . ومع ذلك فقد أثرنا فى هذه الدراسة ذكر لفظة مذابح، عملاً بالقول خطأ شائع خير من صواب نادر .

الفصل الثاني عشر

عيوب الدولة العثمانية (٣)

مذابيح لبنان وامتدادها إلى دمشق

سنة ١٨٦٠

أبعاد مأساة مذابح لبنان ودمشق :

موضوع المذابح الدينية التي خضبت أرض لبنان ثم دمشق بدماء الضحايا عن الموضوعات الشائكة والحساسة .. انقسم المؤرخون والباحثون حيالها فريقين وتناولها كل فريق متأثراً في الغالب بعقيدته الدينية والمذهب الديني الذي ينتمي إليه ، وألقى كل منها المسؤولية كاملة على أتباع المذهب الديني المخالف له ، وبالف في تقدير عدد الضحايا وحجم الخسائر المادية من مساجد وكنائس وأديرة وغيرها . ومما ساعد على استفحال هذه المذابح استفحال الدول الأوروبية لها ، فتدخلت في الشؤون الداخلية للدول العثمانية لتحقيق أغراضها الاستعمارية تحت ستار مساعدة للدولة في إخماد الفتن وتمكينها من المصنعي قداماً في سياسة الإصلاح وتنفيذ قرارات مؤتمر باريس (٣٠ من مارس - آذار سنة ١٨٥٦)^(١) ، ثم وضع نظام حكم خاص في لبنان يمنع مستقبلاً تجدد المذابح العامة بين المسلمين والمسيحيين . والواقع أن الدول الأوروبية أسهمت في زيادة حدة الصراع المسلح بين الطوائف الدينية ، وكان من بين هذه الدول بريطانيا التي وقفت إلى جان بالدروز وأمدتهم بالأسلحة بينما أيدت فرنسا الموارنة وكانت تصفهم بأنهم فرنسيو لبنان^(٢) Les Français du Liban ، وأرسلت قوات حربية احتلت لبنان ليجد الموارنة في ظل الاحتلال الفرنسي الأمن والملاذ والرعاية . ولقيت فرنسا تأييداً من روسيا التي أرادت أن تتخذ من احتلال فرنسا لأراضي لبنان ذريعة لتدخلها في بلغاريا^(٣) .

ولكن هناك حقيقة مهمة غابت عن أذهان المؤرخين والباحثين ، وتكتمل هذه الحقيقة في تباطؤ الدولة العثمانية في مواجهة هذه المذابح وسحقها قبل استفحالها وامتدادها من لبنان

(١) النص الكامل لهذه المعاهدة واتفاقياتها الثلاث المرفقة بها في :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1856, Vol. 61, pp. 19-34.

وقد تم تبادل التصديق على المعاهدة في باريس في ٢٧ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٥٦ .

(2) Poujoulat, Paptistin La Verité Sur La Syrie et l'Expédition Française. Paris, 1860, p. 21.

(٣) مشبطة جلسة مجلس اللوردات بتاريخ ٧ مارس - آذار - سنة ١٨٦١ في :

Haneard's Parliamentary Debates. Vol. 161, pp. 1525-1526.

إلى دمشق ، فوقفت سلطات الآستانة موقف المتفرج وتركزت المتصارعين يوغلون قتلاً ونهباً وتدميراً حتى إذا اشتعت هذه السلطات رائحة تدخل الدول الأوروبية في الأزمة ، وهي مسألة داخلية بين رعايا الدولة ، بدأت تتحرك لعلاجها بعد أن بلغ الموقف الذروة من الخطورة .

الجذور التاريخية لمذابح لبنان :

لمذابح لبنان التي اشتعلت في سنة ١٨٦٠ جذور تاريخية سابقة . والمعروف أن لبنان تسكته مجموعات سكانية قلوبها شتى بسبب اختلاف الأديان والمذاهب الدينية التابعة للدين الواحد ، وبسبب كثرة عدد البعثات ، للتصيرية والمعاهد التعليمية المسيحية والمؤسسات الخيرية والأديرة التي تديرها هذه البعثات وينفق عليها عدد من الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية . وقد سبق أن تعرضنا في موطن سابق في هذه الدراسة لأوجه النشاط المسيحي المتعدد الألوان في لبنان (١) .

كان من بين سكان لبنان المسلمون السنوني ويتركزون في بيروت ، والدروز ومعظمهم من الشيعة ويسكنون جبل لبنان وكانوا من عملاء بريطانيا ، والموارنة وهم نصارى يعتقدون المذهب الكاثوليكي موزعون بين بيروت وبعض المدن الساحلية وقرى الجبل . وكان الموارنة يهتمون بتعليم أبنائهم ، ولذلك كانت المدارس والمعاهد المسيحية في لبنان يؤمها عادة أبنائهم.. وبمضى الزمن أصبح الموارنة عنصراً مثقفاً ويازراً ومتميزاً بين عناصر السكان ، يقومون بدور مهم بوجه خاص في الحياة الاقتصادية في لبنان؛ مما أدى إلى وقوع التنافر ثم الشحناء والبغضاء بين السكان المسلمين والموارنة . وكانت الأسرة الشهابية إبان عهد قوتها تقيم نوعاً من التوازن بين القوى المتصارعة ، ثم جددت عوامل أنت إلى زيادة حدة التنافر . كان من بينها المحاولات ، التي بذلها الدروز الإقطاعيون من أصحاب الأراضي لاستعادة نفوذهم القديم وحقوق إقطاعية على رعاياهم من الموارنة ، واتجاه الموارنة إلى التوسع في اتجاه الجنوب على حساب القرى التي تملكها أغلبية درزية . وزاد في تفاقم الموقف أن بعض أمراء الأسرة الشهابية قد تحولوا عن الإسلام إلى المسيحية ، بعضهم جهراً والبعض الآخر في الخفاء ، فازدادت مخاوف المسلمين من بسط سيطرة الموارنة للذين كانوا يطغون بتأييد فرنسا والبابوية في روما قلباً وقالباً . وعمدت بريطانيا إلى تأييد الدروز وأمدتهم بالأسلحة لمواجهة النفوذ الفرنسي المتزايد . ولما بدأ الأمير بشير الثالث (١٨٤٠-١٨٣٤) في ممارسة سياسة الكبت ضد الدروز نشب نزاع مسلح ، وقام الدروز بفرض حصار حول عاصمتهم دير القمر في أكتوبر -

(١) انظر ج ٢ ، الفصل الأول .

وانظر أيضاً :

دكتور بدر الدين عباس الخصومي : القضية اللبنانية في تاريخها الحديث والمعاصر . القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٤٩-٩٩ .

تشرين أول - سنة ١٨٤١ ، وحاول الباب العالي إقامة حكم عثماني مباشر في جبل لبنان وعارض الدروز هذا الاتجاه وعملوا على تصعيد الموقف بمهاجمة الموارنة . واتسعت شقة الخلاف الديني المذهبي بأن زج المسيحيون الأرثوذكس أتباع الكنيسة الشرقية بأنفسهم ، فتدخلوا يؤيدون الدروز ضد المسلمين السنيين وهكذا عم التشاحن الطوائف الإسلامية والمسيحية على اختلاف مذاهبها ونهبت القرى ، وتدخلت للدول الأوروبية - بريطانيا وفرنسا والنمسا والروسيا وبروسيا - وطلبت من السلطان إدخال نظام الحكم الذاتي كعلاج لإنهاء الحرب الأهلية في لبنان . وتزعم هذه المطالبة السفير البريطاني في إسطنبول سير سترادفورد دي ردكليف Sir Stratford de Redcliffe وأعلن الباب العالي لطلب الدول الخمس^(١) أو كما قال وزير الخارجية العثماني إن الدولة العثمانية قد استجابت لتصبحة أصدقائها المبعوثين الدبلوماسيين للدول الخمس^(٢) . وبمقتضى هذا النظام الذي ولفق عليه الباب العالي في ٧ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٤٢ ، ينقسم الجبل إلى قسمين : قسم للدروز في الجنوب وآخر للموارنة في الشمال ، على طول الطريق الذي يمتد من بيروت إلى دمشق ، وأن يسمى كل قسم «قائمقامية» وبذلك كل قسم حاكم بقلب «قائمقام» يمينان من بين سكان كل قسم ، وأن يكون «القائمقامان» تابعين لوال يكون مقره في صيدا بدلاً من عكا ؛ وأن يكون هذا الوالي عثمانياً^(٣) .

تجدد الاضطرابات الدامية في لبنان :

غير أن نظام الحكم الذاتي قد تدهور في مجال التطبيق العملي ، لسببين : أولهما أن المنطقة الشمالية كان لا يسكنها الموارنة فقط بل كان يقطنها دروز بلغ عددهم فيها ١٥٠، ١٠ وكان عدد الموارنة فيها ٧٤، ٧٠ ، وكذلك كان الوضع السكاني في المنطقة الجنوبية . كان لا يعيش فيها الدروز فقط بل كان يعيش فيها موارنة بلغ عددهم ١٤٠، ٣٨ بينما كان الدروز فيها ٣٥، ٤٠٥ ، وبذلك حدث في منطقة الموارنة ومنطقة الدروز تداخل سكاني وأدى إلى تجسيد التقسيم الطائفي^(٤) . أما السبب الثاني فكان ، استمرار عملاء الدولتين الكاثوليكيين - فرنسا والنمسا - ومعهم عملاء البابوية في روما ويثرون الموارنة على الدولة العثمانية ويتهمةونها بأنها

(1) De Testa, Recueil des Traités de La Porte Ottomane-avec Les Puissances Etrangères. Paris, 1866. Vol. III, pp. 60-68.

تجد فيه النص الكامل للمنشور الذي أرسله الرئيس أفندي - وزير الخارجية العثمانية - في ٧ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٤٢ إلى رؤساء الهيئات الدبلوماسية في إسطنبول لكل من بريطانيا وفرنسا والنمسا والروسيا وبروسيا : وأقر فيه وزير الخارجية العثماني قبول الباب العالي إدخال الحكم الذاتي في جبل لبنان.

(2) Loc - cit.

(٣) دكتور بنر الدين عباس الخصمصي : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦ .

(٤) دكتور نقولا زيادة : أبعاد التاريخ اللبناني الحديث . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ - من ص ١٠٠-١٠١ .

تعاين الدروز على حساب الموارنة . وينكر بعض الباحثين أن الدولة العثمانية أوضحت للدروز أنها لن تؤيد الموارنة مندهم ، وأنها كانت مغتبطة بهذا الصراع الطائفي بين الموارنة والدروز لإضعافهم وكسر شوكتهم بأيديهم وتجلب شر الطائفتين معاً^(١) . وتجددت الاضطرابات الدامية بين الدروز والموارنة في ربيع وصيف سنة ١٨٤٥ ، وكان السبب المباشر في تجدد هذه المرة تحديد الطائفة التي تحكم بضعة قرى في الجنوب تضم مسلمين ومسيحيين . ونجح الموارنة في دعم نفوذهم بل سيطرتهم على الحكام الدروز وهاجموا الفلاحين الدروز ، ورد الأخيرون عليهم بالمثل .. كان الفريخان أكثر استعداداً عن ذي قبل ، وامتدت الفتنة فشملت جنوبي لبنان وأواسطه^(٢) .

وعادت أزمة لبنان تطل برأسها وتدخلت الدول الأوروبية التي انقسمت إلى كتلتين : كتلة قوامها فرنسا والنمسا والبابوية في روما تؤيد الموارنة ، وكتلة تتكون من بريطانيا والدروز ، وكانت هناك كتلة ثالثة هي روسيا وتحضن للمسيحيين المحليين التابعين للكنيسة الشرقية . وستلعب هذه الكتلة الثالثة دوراً بارزاً في إشعال حرب القرم ، وتعطى الأرقام التالية صورة رهيبة عن تعدد الطوائف الدينية في سنة ١٨٤٥ ، وهو بلد كان تعداده في ذلك الوقت ٢١٣,٠٧٠ نسمة موزعين على النحو التالي :

الموارنة	٩٥,٣٥٠
الدروز	٣٥,٦٠٠
المسيحيون التابعين للكنيسة الشرقية	٢٨,٠٠٠
المسيحيون الكاثوليك	٤١,٠٩٠
الشيعة	١٢,٣٣٠
اليهود	٢٠٠

وذلك عدا المسلمين السنيين . وكان الموارنة والدروز أشد الطوائف الدينية بأساً وأكثرهم نزوعاً لإحداث الاضطرابات الدينية ، وأخذت الكتلتان الأوليان تدبران المؤامرات بعضهما ضد بعض :

وإزاء تجدد الاضطرابات المسلحة بين الموارنة والدروز أرسل وزير الخارجية العثمانية منشوراً بتاريخ ٢٨ من يوليو - تموز - سنة ١٨٤٥ إلى ممثلي الدول الخمس في إستانبول على

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس . من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨ ص ٧ .
(٢) دكتور نقولا زيادة ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠١ .

قرار ماحدث في سنة ١٨٤٢ ، ثم عهدت إليه الدولة العثمانية بالسفر إلى لبنان بعد مضي سنة أسابيع من إرسال المنشور، كانت خلالها الاضطرابات المسلحة يتسع نطاقها وتزداد تفاقمًا يوماً بعد يوم . وكانت مع الوزير ثمان عشرة فرقة من القوات العثمانية لإقرار الأمن والنظام في مناطق الجبل . وشرع كخطوة أولى في تجريد أفراد الطائفتين المتصارعتين ، وبخاصة الموارنة ، من أسلحتهم .

أما المنشور - وهو صادر باسم وزير الخارجية العثمانية شكيب باشا - فقد جاء فيه أن السلطان قد قرر إيفاده إلى لبنان ليعيد الأمن والنظام والسكينة والهدوء إلى الجبل مع الإبقاء على الامتيازات التي سبق أن منحها السلطان لسكان الجبل . ومضى المنشور يقول إن القوتل العثمانية سيزداد عددها في الجبل ، وإن الأوامر قد صدرت إلى قائد القوات العثمانية في شبه الجزيرة العربية المشير نامق باشا بتعزيز فرق الجيش النظامي للذي تحت قيادته وأن يتحرك بها إلى لبنان ويرابط في المناطق العسكرية المناسبة ، وأن يقوم بالتحركات التي يتطلبها الموقف . وقال وزير الخارجية في المنشور إنه تنفيذاً لرغبة السلطان فسيقوم بدفع تعويضات مالية عن الخسائر التي لحقت بالأفراد ، مما يعد دليلاً على عطف السلطان على رعاياه ورغبته في إنهاء المشاحنات وحل المشكلة حلاً سريعاً ونهائياً . وأبدى الوزير رجاءه في ألا يتدخل فواصل الدول في هذه المشكلة ولا يتصلوا بأحد من أطرافها ، وبذلك يتسنى للدولة معالجة الموقف دون تعدد وجهات النظر أو تضاربها أو تشجيع طائفة على أخرى .

النظام المقترح في المنشور :

قال وزير الخارجية العثمانية في المنشور ذاته إنه فيما يختص «بالقرى المختلطة التي يسكنها موارنة ودروز» فإن خطة الباب العالي تقوم على ثلاثة أسس :

(١) المسائل القانونية وأطلق عليها «الحقوقية» .

(٢) المسائل الإدارية وسماها «السياسية» .

(٣) مسائل الشرطة ونعتها «الضبطية» .

وفيما يختص بالمسائل الأولى .. فإن كل قضية أو نزاع ينتمي الأطراف إلى طائفة واحدة يختص الوكيل بالفصل فيه . وإذا كان أحد الطرفين المتنازعين ينتمي إلى طائفة دينية بينما يكون الطرف الآخر من أتباع طائفة أخرى، يقوم بالفصل في النزاع الوكيل ممثلاً للموارنة «المقاطعة سى» أى رئيس المقاطعة ممثلاً للدروز أو المسيحيين الأرثوذكس أو غيرهم . وإذا تعذر الاتفاق بين الوكيل والمقاطعة سى على الحكيم، يحال الموضوع إلى القائمقام .. أما المسائل الإدارية مثل تنفيذ الأوامر التي تصدرها الحكومة أو للحاكم العام في لبنان وجمع الضرائب، فإن الوكلاء يقومون بمهمة الوسيط بين رئيس المقاطعة وأفراد الطوائف .. أما مسائل

الشرطة فينفرد بها رئيس المقاطعة . أما إذا ألقى الأخير القبض على شخص وأمر بسجنه ، فإن هذا الإجراء المزدوج يجب أن يوافق عليه الوكيل الذي ينتمي المتهم إلى طائفته ، ويشترك الوكيل مع رئيس المقاطعة في تنفيذ هذا الإجراء.. فإذا وقع خلاف بينهما حول قانونية هذا الإجراء ، رفع الأمر إلى القائمقام . وللوكلاء الحق في أن يزوروا السجون ليتحققوا من أن المسجونين يتلقون معاملة إنسانية . ويكون التفتيش مقصوراً على المتهمين الذين لم تصدر بعد أحكام نهائية في قضاياهم . واختتم وزير الخارجية منشوره بقوله إن هذه القواعد هي التي يرى السلطان أنها كفيلة بإرساء قواعد العدالة والمساواة لجميع السكان . وإن من أهداف زيارة الوزير التحقيق في جرائم القتل التي ارتكبت في الجبل وليقتص من مرتكبي هذه الجرائم . ولما كانت الدول الكبرى أصدقاؤه مخلصين للسلطان وتحذوهم أنبل المشاعر نحو الباب العالي ، فإن وزير الخارجية يرجو أن يرسل كل سفير إليه في خطاب مفتوح تعليمات تكماشى مع فحوى هذا المنشور؛ ليقوم وزير الخارجية بإرساله إلى القنصل العام في بيروت ليكون على بينة من النظام الجديد^(١) .

هذا هو ملخص منشور وزير للخارجية العثماني إلى سفراء الدول الخمس، استقيناه من المجموعة الرسمية الفرنسية التي نشرها دي تستا de Testa ولكن يضيف الأستاذ ستانفورد شو وزوجته السيدة إيزل كورال شو Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw إلى ماجاء في هذه الوثيقة الرسمية، أن الباب العالي قرر إنشاء مجلس مختلط في كل قرية تضم أعضاء من جميع المذاهب يفرغون لعملهم وينقضون مرتبات ، ويكون من بين اختصاصات هذا المجلس النظر في الأحكام السابقة التي تصدرها المحاكم والإشراف على جمع الضرائب وإنفاق حصيلها على الأوجه المخصصة لها . وتكون في الوقت ذاته بمثابة هيئة استشارية للمسائل الإدارية وبذلك تحل هذه المجالس المختلطة محل العائلات الحاكمة في القرية ، والتي كانت تعد نفسها مناطق السلطة^(٢) .

(1) De Testa, Recueil etc., op. cit., Vol. III, pp. 68-83.

(2) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p.134.

ويضيف الأستاذ محمد فريد بك أنه تقرير في هذا النظام أن يقيم في القرى المختلطة ، وكيان أحدهما من الدرر والأخر من الموارنة، ويعين لكل من القائمتين مجلس يشاركه في الإدارة مع بقائه تحت رياسته. ويشكل كل من هذين المجلسين من عشرة أعضاء ، خمسة قضاة وخمسة من المستشارين ؛ اثنان منهما من الدرر واثنان من الموارنة ، واثنان من المسلمين ، واثنان من المكيين ، واثنان من أتباع المذهب الارثوذكسي التابع للكنيسة الشرقية . ويتكون من اختصاصهما توزيع الضرائب بأسواء دون النظر إلى اختلاف الدين أو المذهب . أما جمع الضرائب، فيكون بمعرفة القائمقام ووكلائه في القرى والضياح ، وإن امتنع منوب أي طائفة عن الإقرار على قائمة توزيع الضرائب، بحجة أنها مجحفة بحق أبناء طائفته.. يرفع الأمر إلى الوالي العثماني فيحكم فيه نهائياً ويكون رأيه قطعياً . ومن اختصاص المجلسين أيضاً النظر في القضايا المدنية والجنائية . وقبل تنفيذ الأحكام يجب أن يعتمدا القائمتان ، وتقرر أن يكون مرتب كل عضو من=

وقد اعترضت فرنسا أول الأمر على هذا النظام خوفاً من أن يحد من نفوذها على الموارنة واعتزمت تقديم احتجاج عليه . ولما رأيت أن الدول الأخرى قد قبلته دون تحفظات أحجمت عن تقديم احتجاجها (١) . وتأثرت أن تكتريث سنوات ذات عدد ثم تعمل على تصعيد الموقف إلى الزوروة من الخطورة ، يحدوها الأمل في أن تدعم موقفها في لبنان وسورية ، وتجعل من هذين الإقليمين منطقة نفوذ فرنسي لها .

سار النظام الذي أدخلته الدولة العثمانية في لبنان سيراً جسداً لبضع سنوات . وساعد هذا النظام على إضعاف سلطة الأعيان المحليين ورؤساء العشائر ، على الرغم من أن الدروز ظلوا يتمتعون ، بسبب اتحادهم فيما بينهم ، بقسط وافر من السلطة في مناطقهم في ظل الحكم الذاتي ، بينما أضعفت الموارنة الانتقاسامات الداخلية فيما بينهم والناجمة عن سيطرة الموارنة الإقطاعيين ، الذين كانوا يمارسون السلطة في القرى المارونية في الشمال في ظل الحكم الذاتي دون تدخل الدولة ، طالما كانوا متمسكين بأسباب الهدوء والسلم ومواطنين على سداد الضرائب المقررة عليهم . ولكن وقعت أحداث مهمة خارجية وداخلية انصرفت إليها الدولة مثل نشوب حرب القرم وعقد معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ، وماسبقها من إصدار فرمان السلطان الذي عرف باسم «خطى شريف هيايوني» ، الذي قرر فيه السلطان المساواة بين رعايا الدولة المسلمين وغير المسلمين ، فعادت المذابح إلى سيرتها الأولى في لبنان في صور أكثر عنفاً وأشد تنكلاً .

المذابح الكبرى في لبنان ودمشق سنة ١٨٦٠ :

وضعت حرب القرم أوزارها وعقدت على أثرها معاهدة باريس في ٣٠ من مارس - آذار - سنة ١٨٥٦ ، وجاءت هذه المعاهدة في مجموعها في صالح الدولة العثمانية ؛ إذ تعهدت الدول الأطراف فيها ، وهي : بريطانيا ، وفرنسا والنمسا ، وروسيا ، والدولة العثمانية من ناحية ، والروسيا من ناحية أخرى ، باحترام استقلال الدولة العثمانية والحفاظة على سلامة ممتلكاتها ، وقررت إدخال الدولة العثمانية في حظيرة الدول الأوروبية وتمتع بكافة الحقوق في ظل القانون الدولي العام ، كما تقرر أنه إذا نشب بين الدولة العثمانية ودولة أو أكثر من دولة من الأطراف المتعاقدين سوء تفاهم قد يعرض علاقاتها إلى الخطر ، فإن الدولة العثمانية وأى دولة من هذه الدول تبذل الأطراف المتعاقدين بأمر هذا النزاع لتسويته سلمياً قبل الالتجاء إلى الحرب .

وكان السلطان العثماني عبدالمجيد الأول قد أصدر في ١٨ من فبراير - شباط - سنة

أعضاء المجلس ألفاً وخمسمائة فرنك في السنة ، ومرتب القائمقام ٤٨ ألف فرنك سنوياً . ومرتب كل من وكلائه ألفاً وثمانمائة فرنك .

انظر محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩١ .

١٨٥٦ فرماناً اشتهر باسم «الخط همايوني» . أو «خطى شريف همايوني»^(١) على غرار الفرمان الذي كان قد أصدره سنة ١٨٣٩ ، والمعروف باسم «خطى جلفخانه» ، وقد أكد الفرمان الجديد حقوق الطوائف المسيحية الموجودة في الدولة ، وأعلن المساواة التامة بين الأديان والجنسيات المختلفة ، وعزمه الأكيد على إدخال إصلاحات شتى لتطوير نظم الدولة في الحكم والإدارة والتجنيد والتعليم والمسائل المالية وغيرها ، وكان صدور هذا الفرمان في الشهر السابق لعقد معاهدة باريس قد ساعد على تهينة مناخ صحنى أمام الدول الأوروبية لعقد المعاهدة ، وكانت أول معاهدة توقعها الدولة العثمانية لا يكون فيها انتقاص لممتلكاتها أو إضعاف لقوتها^(٢) . وقد أحاط السلطان الدول علماً بأمر هذا الفرمان ، وأشارت إليه في صلب المعاهدة مشيدة به في الفقرة الأولى من المادة التاسعة التي نصت على «أن السلطان العثماني قد أصدر فرماناً معبراً فيه عن رغبته الدائمة في تحقيق رفاهية رعاياه لتحسين أوضاعهم دون تفرقة في الدين أو الجنس ، وقد سجل جلالته نواياه الطيبة نحو رعاياه المسيحيين في إمبراطوريته . ولكي يقيم دليلاً في هذا الصدد، أبلغ الدول المتعاقدة هذا الفرمان للصادر بمحض رغبته» .

وتهمنا في موضوع المذابح الفقرة الثانية من المادة التاسعة ذاتها، والتي نصت على «أن الأطراف المتعاقدين يعترفون بالقيمة السامية لهذا التبليغ . ومن المتفق عليه بوضوح أن هذا التبليغ لا يعطى بأى حال الدول المذكورة الحق في أن تتدخل مجتمعة أو منفردة في علاقات حضرة صاحب الجلالة السلطان برعاياه، أو في الإدارة الداخلية في إمبراطوريته» .

The Contracting Parties recognize the high value of this communication. It is clearly understood that it cannot, in any case, give to the said Powers the right to interfere, either collectively or separately, in the relations of His Majesty the Sultan with his subjects, nor in the internal administration of his Empire.

ولكى تثبت الدول الأوروبية الكبرى العثمانية في نفس السلطان من ناحية ، وإظهاراً لتضامن هذه الدول تضامناً وثيقاً في موقفها من الدولة العثمانية من ناحية ثانية ، عقدت بريطانيا وفرنسا والنمسا والدولة العثمانية معاهدة رباعية في ١٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٥٦^(٣) ؛ أى بعد خمسة عشر يوماً من إبرام معاهدة باريس ، تعهدت فيه الدول الثلاث

(١) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي وبكتور جلال يحيى : وثائق ونصوص إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤-١٦ .

(٢) دكتور محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢-٥٣ .
(3) Great Britain, Parliamentary Papers, 1856, Vol. 61, pp. 444-445.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في باريس في ٢٩ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٥٦ .

الأولى^(١)مجتمعة ومنفردة باحترام استقلال الدولة العثمانية، وضمان سلامة وتماسك ممتلكات هذه الدول كما قررتها معاهدة باريس . وقررت أن أى إخلال بأحكام معاهدة باريس المذكورة يعد بمعرقفة الدول الموقعة على المعاهدة الحالية سبباً لقيام الحرب Casus belli ، وعلى الدول الثلاث الأولى أن تتفق مع الباب العالي على اتخاذ الإجراءات الضرورية بواسطة القوات البرية والبحرية ، دون أدنى تأخير لإجبار الدول الأخرى على اللزأأحكام معاهدة باريس .

ولكن ثبت أن صياغة المعاهدات السياسية وإرساء القواعد والمبادئ شئاً وتطبيقها عملياً شئ آخر ، فكثيراً فى عصور التاريخ الحديث بالذات ما انتهكت معاهدات وعصاف بالقواعد والمبادئ إذا ما تعارضت مع مصالح الدول الموقعة عليها . ويتساءل أحد المؤرخين عن المزايأ التى عادت على الدولة العثمانية من معاهدة باريس ، ويقول إن كلا من الروسيا وبريطانيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا قد عملت بعد سنة ١٨٥٦ على تقطيع أوصال الدولة العثمانية وضأ أجزاء من ممتلكاتها إليها ، بحيث أصبحت عبارة «المحافظة على استقلال الدولة العثمانية» وتماسك ممتلكاتها» حبراً على ورق^(٢) .

أصداء الخط الهمايوى فى الأوساط الإسلامية والمسيحية فى الدولة :

أنار حفيظة المسلمين الفرمان السلطانى «خطى شريف همايوى» الذى أصدره السلطان عبدالمجيد الأول، قيل افتتاح مؤتمر باريس بأسبوع واحد ، وقرر فيه السلطان المساواة التامة بين رعايا الدولة المسلمين وغير المسلمين وتأنج للشعور لعثمانى الإسلامى غضباً من هذه المساواة، وهذه حقيقة لا مرأ فىها ، وجعلت المسلمين فى الدولة بصفة عامة وفى لبنان بصفة خاصة يتحفظون للانقضاء على الموارنة، ويعزو أحد المؤرخين هذا الغضب إلى طبيعة الأتراك العثمانيين من حيث استعلائهم على الأجناس والأديان والشعوب الأخرى، وإلى اعتقادهم الراسخ فى أفضليتهم على غيرهم^(٣) ، ولألق أنهم اعتادوا أن يكونوا طبقة حاكمة يصدع لهم الآخرون . ولم يستطع الأتراك العثمانيون تطوير عقليتهم بمضى العصور ؛ فكان من الصعب عليهم أن يقبلوا عن طيب خاطر مساواة الطوائف المسيحية بهم ، وكان من عيوب الدولة

(١) لم تدع بروسيا إلى الانضمام إلى المعاهدة الرباعية نظراً لأنها اتبعت سياسة الحيطة فى حرب القرم . وكانت بريطانيا قد أصرت على منعها من الاشتراك فى مؤتمر باريس . ولم توجه الدعوة إلى بروسيا إلى حضور مؤتمر باريس ، إلا بعد افتتاحه بمسفتها إحدى الدول الموقعة على اتفاقية المضائق المبرمة فى ١٢ من يوليو - تموز - سنة ١٨٤١ . وكان فى هذا التأخير فى توجيه الدعوة إلى بروسيا لعرضور المؤتمر إذلالاً لها . أما ببيمنت (ملكة سردينيا) فكانت تنزأ حركة الوحدة الإيطالية وكانت قوات النمسا تحتل أجزاء من شبه الجزيرة الإيطالية . ولم تكن العلاقات النمساوية مع ببيمنت تسمح باشتراكها معاً فى المعاهدة الرباعية ، ويرى أن تكون مقصورة على الدول الثلاث الكبرى فقط إلى جانب الدولة العثمانية .

(2) Miller W. op. cit. p. 239.

(3) Miller W. op. cit., p. 299.

العثمانية أنها فشلت في أن تجعل المسلمين والمسيحيين الخاضعين لها شعباً واحداً .

ولكن من ناحية أخرى بدأ الفلاحون الموارنة يقيمون الفلافل بتحريض رجال الدين الموارنة، الذين نشط بينهم عملاء البابوية في روما وعملاء فرنسا لإثارة المتاعب في وجه الدولة العثمانية، وإظهارها بمظهر الدولة العاجزة عن السيطرة على العناصر المسيحية وعن إيجاد توازن بين المسلمين والطوائف المسيحية، بعد أن أعطت الدولة الأوروبية في معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ الفرصة للدولة العثمانية لتطوير نظمها وإصلاح أمورها الداخلية .

إعلان قيام جمهورية الفلاحين :

قام الفلاحون الموارنة في كسروان، بثورة في سنة ١٨٥٨ بزعماء رجل ضخم الجسم يعمل حداداً^(١) ، ويسمى طانيوس من شاهين سعادة ، وأعلن قيام جمهورية الفلاحين في جبل لبنان^(٢) ؛ إذ كان الفلاحون الموارنة أشد وعياً من ذي قبل ، فأنفوا من البقاء أداة في أيدي الإقطاعيين . وكان رجال الدين الموارنة على خصومة مع زعماء الإقطاع والمشايع وعلى وفاق مصلحي مع الفلاحين الموارنة . ولذلك لما قامت الفتنة الجديدة سنة ١٨٥٨ ، كانت من لون فيه شيء من الجدة لم يشهده الموارنة من قبل ، واشتهرت هذه الحركة باسم «عامية انطلياس» لأن العامة كانوا عنصرأ بارزاً فيها ، ولأن «انطلياس» كانت نقطة الانطلاق لها ، ومركز حكومتها^(٣) ، ولقى إعلان قيام هذه الجمهورية تأييداً في الخفاء من أسقف بيروت الكاثوليكي ورجال الدين الموارنة في منطقة كسروان بصفة خاصة ، ورؤساء الأقسام في قرى الموارنة ؛ إذ رأوا في قيام هذه الجمهورية مايساعد على إضعاف نفوذ الأمراء الإقطاعيين الموارنة^(٤) . وقد رحبت فرنسا ترحيباً قلبياً بإعلان قيام هذه الجمهورية ، ووجدت فيها ركيزة لدعم النفوذ الفرنسي في لبنان . وعلى الصعيد المقابل ثارت مشاعر عدة طوائف مثل الدروز ، والمسلمين السنيين والمسيحيين الأرثوذكس التابعين للكنيسة الشرقية ، وبريطانيا ، والهندوستان بصفة عامة .

(١) يذكر بعض المؤرخين أنه لم يكن يعمل حداداً بالمعنى العام الذي يتبادر إلى الذهن ، ولكنه كان يحترف حرفة تركيب الحوة في كل قسم من أقسام الحصان . انظر المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

(2) Stanford J. Shaw and Ezal Kural Shaw, op. cit., vol. 3, p. 143.

(٣) دكتور نقولا زيادة : أبعاد التاريخ اللبناني الحديث . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٠٤ .

(٤) دكتور عبدالله حنا : الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان . دار التقدم العربي . دمشق ١٩٧٣ ، ١١٨ ، بشارة مرهج : معركة العربية والديمقراطية في لبنان . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١١٣ .

الانفجار الثورى وانتشار المذابح :

بدأ الانفجار الثورى أول الأمر بين الدروز والموارنة فى ٢٧ من مايو - آيار - سنة ١٨٦٠ ، حين هاجمت جماعات من الموارنة قرية يسكنها الدروز وأعلنت القتل فى سكانها . ويذكر فريق من المؤرخين أن الدروز كان يبدعهم زمام المبادأة ، وأنهم هم الذين بدأوا عمليات القتل . وقد تحول الانفجار الثورى من مذابح بين طائفتين إلى مذابح عامة بين المسلمين والمسيحيين الكاثوليك^(١) ، وساعد على تفاقمها تهاون السلطات العثمانية فى قمعها وهى فى مهدها^(٢) من ناحية ، وتدخل الحكومات الأوروبية من ناحية ثانية ، وتدفع الأسلحة على لبنان من بعض الحكومات الأوروبية تقدمها لأنصارها المتفانين من ناحية ثالثة ، وامتدت إلى بيروت حيث هاجم الموارنة المسلمين بنجاحهم ، وبلغ عدد عدد الأهالى الذين اشتركوا فى المذابح قرابة عشرين ألفاً^(٣) ، وسقط ضحايا كثيرون تضاربت الروايات فى ذكر أعدادهم^(٤) ، وأحرق عدد من القرى كان من بينها دير القمر وزحله وبيت مري ، كما امتدت المذابح إلى طرابلس الشام وصيدا واللاذقية^(٥) ، ودمر عدد من المساجد والكنائس والأديرة والمدارس والمؤسسات الخيرية المسيحية^(٦) ، وقيل إن الباشا العثمانى فى بيروت قد أبدى ألمه العميق لوقوع المذابح ، واستطاع بنفوذه الشخصى أن يجمع زعماء الموارنة والدروز وأن يوقعوا فى ٦ من يوليو - تموز - سنة ١٨٦٠ اتفاقاً يوقف المذابح^(٧) . ولكن لم يكن لهذا الاتفاق نتيجة عملية

(١) انظر مضبطة جلسة مجلس العموم البريطانى فى ٢٠ من مايو - آيار - سنة ١٨٦١ فى :

Hansard's Parliamentary Debates, Vol 163, 234-242.

(٢) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٨٢-٨٣ .

(٣) انظر البيان الذى ألقاه لورد جون رسل John Russel وزير خارجية بريطانيا فى مجلس العموم بجلسته ١٢ من يوليو - تموز - سنة ١٨٦١ فى :

Hansard's Parliamentary Debates, Vol. 159, p. 1772.

(٤) تراوح عدد القتلى فى الجبل وفى بيروت بين سبعة آلاف واثنى عشر ألفاً .

(٥) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٢ .

وانظر تفصيلات وافية عن مذابح سنة ١٨٦٠ فى :

لكتور بدر الدين عباس المصنوصى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٤-٦٠ .

(٦) جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٠١ الصادر فى أول سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٦٠ ، ص ٢٨٢ ، مجموعة السنة الخامسة .

ويذكر شو Shaw أن عدد المؤسسات التى دمرت بلغ ٣٠٠ قرية ، ٥٠٠ كنيسة وأربعين ديراً وثلاثين مدرسة ، ولم يذكر شيئاً عن المساجد . كما أن الأرقام التى ذكرها مبالغ فيها من ناحية ، وكلها أرقام حلقية غير مكسورة round figures بحيث يكون فى حكم الاستحالة على الباحث المحايد أن يتقبل هذه الأرقام على أنها تمثل الحقيقة . انظر :

Stanford J. Shaw, op. cit., Vol. 2. p. 143.

(7) Miller W. op. cit., p. 301.

لأن الجموع الحاشدة من الطرفين المتنازعين واصلت عمليات القتل في ضراوة بالغة، وهام الأهالي في الجبل على وجوههم، وهم في حالة شديدة من الذعر، ولجأ عدد كبير منهم إلى الإسكندرية^(١) وجزيرة قبرص وبلاد اليونان وإستانبول وغيرها^(٢). ولكن اتجهت أنظار الكثيرين من اللبنانيين المسيحيين إلى مصر للهجرة إليها^(٣)، وكانت كل سفينة تصل الإسكندرية قادمة من بيروت، نقل عدد كبير منهم^(٤)، وقد بلغت حالة أولئك اللاجئين من السوء حداً دفع البعض إلى فتح لكتتاب لمساعدتهم. وافتتح والي مصر محمد سعيد باشا قائمة الالكتتاب وقبّع أفراد أسرته بمبالغ سخية، كما تبرعت شركة قناة السويس بخمسة آلاف فرنك، والكتتب أجاناب مصر بمبالغ متفاوتة^(٥)، وأسهمت الحكومة الفرنسية بمبلغ كبير لإغاثة الموارنة^(٦).

انتقال المذابح إلى دمشق :

وكان قتل المسلمين في مدينة بيروت قد أثار مشاعر الأغلبية الإسلامية في دمشق، فهاجم المسلمون الحى للمسيحيين في العاصمة السورية وأحرقوا المتاجر في الخانات وكذلك المساكن وقتلوا ساكنيها، واستمرت عمليات القتل والنهب والتدمير في دمشق عشرة أيام من اليوم التاسع من شهر يوليو تموز - سنة ١٨٦٠، ويبدو أن كفة المسلمين فيها كانت راجحة. وبلغ عدد القتلى ٥,٥٠٠، وكان من بين ضحايا المذابح قنصل أمريكا وقنصل هولندا^(٧)، وهو أمر أدى إلى تصعيد الموقف تصعيداً خطيراً. وتذكر المراجع أن مذابح دمشق كادت تتحول إلى كارثة أشد هولاً من مذابح لبنان، لولا تدخل الأمير عبدالقادر الجزائري الذي حارب الاحتلال الفرنسي في الجزائر رداً من الزمن، ثم انتهى به المطاف منفياً أو مبعداً في دمشق. وبذل هو وأتباعه جهوداً مضنية لوقت المذابح أو تضيق نطاقها، وتعرض أكثر من مرة لرصاص المتقاتلين وأوى إلى داره جموعاً من المسيحيين في حراسة أتباعه، وأرسل أفواجاً أخرى إلى دور بعض القنصليات الأجنبية في بيروت ليكون هؤلاء المسيحيون بمثابة عن أدنى المسلمين. وقد أضافت مذابح دمشق أبعاداً جديدة لمسألة هجرة المسيحيين من أهالي دمشق

(1) Poujoulat Baptistin, op. cit., p. 308.

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(٣) المرجع السابق ، الجزء ذاته ، والصفحة ذاتها .

(٤) جريدة L'Isthme de Suez العدد ٩٩ ، الصادر في أول أغسطس - آب - سنة ١٨٦٠ ، ص ٢٤٢ ، مجموعة السنة الخامسة .

(٥) المرجع السابق ، العدد ٩٩ ، الصادر في أول أغسطس - آب - سنة ١٨٦٠ ، ص ٢٤٢ ، مجموعة السنة الخامسة .

(6) Miller W. op. cit., p. 301.

(7) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw, op. cit., Vol. 2, p. 143.

إلى مصر .. فقد هاجرت جموع غفيرة منهم إلى مصر ، وكتب أحد الفرنسيين ، جيل روزيه مقالاً عن هجرتهم جاء فيه ختامه «إن مصر الكريمة المصنيفة لترحب بهم وتفتح Jules Rosé لهم صدرها ، وسيجدون فيها ملاذاً يقيهم الاضطهاد والسوء» (١) . كان لهذه المذابح المسيحية أصدائها في أوساط الطلبة المصريين ، الذين كانوا يستكملون دراساتهم العليا في باريس ، فبرعوا بمائتين وستين فرنكاً تولى جومار بك Jomard رئيس البعثة التعليمية المصرية في فرنسا إرسالها إلى رئيس تحرير جريدة شركة قناة السويس ، وأرفقها بخطاب مؤرخ في أول سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٦٠ جاء فيه ما ترجمته «إن طلبة البعثة المصرية في فرنسا قد تأثروا أشد التأثر للكلمات التي حلت بالمسيحيين في سورية . وقد أرادوا ، استنكاراً لعمل الذين شوهوا مسمعة المعلمين بقسوتهم ، فتح اكتتاب فيما بينهم لمساعدة ضحايا هذه الاضطهادات ، وقد نشرت الجريدة أسماء الطلبة المصريين والمبالغ التي تبرعوا بها وخطاب جومار بك» (٢) .

ردود الفعل في أوروبا :

أبرق مراسلو الصحف أنباء المذابح مبالغاً فيها إلى أوروبا ، وصوروا الموارنة على أنهم ضحايا تعصب ديني غاشم من الزعايا المسلمين في الدولة العثمانية . وانتهرتها فرنسا فرصة ذهبية للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية ؛ ابتغاء فرص للحماية الفرنسية على لبنان أو لبنان وسورية معاً ، واقترح ثوفيل Thouvenel وزير الخارجية الفرنسية إرسال حملة عسكرية إلى لبنان بحجة إخماد الفتن الدينية وإنقاذ الموارنة من المسلمين ، على أساس أن فرنسا هي الحامية الخاصة للموارنة The Special Proctress of the Maronites ولقى هذا الاقتراح تأييداً حاراً من جانب إمبراطور فرنسا نابليون الثالث ؛ إذ وجد في تنفيذه دعماً لمركزه في داخل فرنسا كي يسترد بإرسال هذه الحملة عطفة وتأييد الكاثوليك ، واللذين كان قد فقدهما في العالم السابق (١٨٥٩) نتيجة تدخله الحربي في شبه جزيرة إيطاليا (٣) ، وكان اقتراح إرسال

(١) L'Isthme de Suez العدد ٩٩ المشار إليه سابقاً .

(٢) L'Isthme de Suez العدد ١٠٢ ، الصادر في ١٥ سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٦٠ ، ص ٣٠ ، مجموعة السنة الخامسة . انظر أيضاً بخصوص هذا الموضوع العدد ١٠٠ من هذه الجريدة ، الصادر في ١٥ من أغسطس - آب - سنة ١٨٦٠ ، ص ٢٥٩ مجموعة السنة الخامسة .

(٣) زج نابليون الثالث بالجيش الفرنسي في حرب سنة ١٨٥٩ في شبه الجزيرة الإيطالية . إرضاء لمشاعر الأحرار في فرنسا وانتصاراً لإيطاليا لتحريرها من الحكم النمساوي ؛ إذ كانت للنمسا أملاك في سهل لمباردي ، وكانت توقيات الوسط خاضعة للنفوذ النمساوي . وتماشياً مع هذه السياسة تمت مقابلة بين نابليون الثالث وكافور Cavour رئيس وزراء مملكة بيدمونت في حمامات بلومبيير Plombières في ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ تموز - سنة ١٨٥٨ ، وتم الاتفاق بينهما على أن تدخل فرنسا الحرب حليفة لمملكة بيدمونت ضد النمسا . وأن تقدم فرنسا ٢٠٠,٠٠٠ جندي ويتم إجلاء النمسا عن شبه الجزيرة الإيطالية ، وتؤلف في شمالها مملكة إيطاليا ، تضم بيدمونت ولبارديا والبنطية برياسة فيكتور عمانويل ، ثم ترتبط البلاد كلها بعد ذلك برباط اتحادي يرأسه البابا ، وتتخذ فرنسا في مقابل اشتراكها في الحرب نيس=

حملة عسكرية إلى لبنان وهي من الممتلكات العثمانية أمراً يتعارض مع معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ، التي منعت تدخل الدول الأوروبية مجمعة أول منفردة في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية ، وكانت مذابح لبنان هي مسألة داخلية .

الدبلوماسية البريطانية تجاه مذابح لبنان :

أما وزير خارجية بريطانية - جون رسل John Russel - فقد كان معترضاً من حيث المبدأ على إرسال حملة عسكرية إلى لبنان لعدة أسباب، منها : أن هذا التصرف يعد خرقاً للفقرة الثانية من المادة التاسعة من معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ، وأنه يرى وجوب إعطاء الدولة العثمانية فرصة لإخماد الفتنة والقضاء على الأسباب التي أدت إليها ، ولأنه يشك في أهداف فرنسا من إرسال حملة عسكرية فرنسية .. ففي تقديره للموقف كانت فرنسا تهدف إلى فرض

فسافوى ويتم زواج الأميرة كلوتده Clotilde البالغة من العمر ستة عشر ربيعاً ، وابنة ملك بيدمونت، من الأمير جيريم نابليون Jérôme Napoléon ابن عم الإمبراطور ، وكان أميراً فاسقاً خليعاً عرف بإخلاصه العميق لمخططات وعشيقاته ، وأطلق على هذه المعاهدة السرية اسم الحلف النفاقي . واشترط فيها على أن تكون النمسا هي البائدة بالعموان حتى لا يكون هناك مجال لتدخل أوروبي (ببسمير - كانون أول - سنة ١٨٥٨) ، واشتعلت الحرب في ٢٦ أبريل - نيسان - سنة ١٨٥٩ ، وأحرزت القوات الفرنسية انتصارات رائدة كان أهمها معركة ماجنتا Magenta (٤ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٥٩) ، وسولفرينو Solferi-no (٢٤ من الشهر ذاته) . ولكن أنهى نابليون الثالث الحرب فجأة ، إذ تقابل مع إمبراطور النمسا فرنسيس جوزيف في فيلا فرنكا Villafranca ، وأبرم معه هدنة في ٨ يونيو - تموز - دون أن يرجع إلى ملك بيدمونت أو كافور، ثم عقد صلح زيوريخ Zurich في ١٠ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٨٥٩ ، وقرر بمقتضاه :

- (١) تتنازل النمسا عن لمباريا إلى بيدمونت .
- (٢) تظل البندقية تحت سيادة النمسا .
- (٣) تأييد فرنسا والنمسا لقيام اتحاد إيطالي برياسة البابا الإسمية .
- (٤) حث البابا على إدخال الإصلاحات في الأراضي التابعة له .
- (٥) حرية حكام توسكانيا ، وموناكو ، وبارما ، ورومانا إلى حكمها الأصليين، وكان أهالي هذه الدوقيات قد أعلنوا رغبتهم في الانضمام إلى بيدمونت لكي يكونوا جزءاً من دولة إيطالية قوية تحت الحكم الدستوري ليفيكتور عمانويل .

وبعد آثار تصرف نابليون الثالث بدخوله الحرب في إيطاليا غضب البابا بيوس التاسع، الذي نغم على الاتهامات التحريية والقمعية والديمقراطية ، وأطلق عليها «الثورة» واعتبرها خطراً على الكاثوليكية لا يهد له سوى خطر الإسلام في العصور الوسطى . كما أغضب الكاثوليك في فرنسا إضعاف نابليون مركز البابوية في روما .

انظر كل من :

Taylor A.J.P.; The Struggle for Mastery in Europe, 1848-1918.

Oxford, 1954; pp. 99-118.

Grant A.J. and Temperley Harold; op. cit., pp. 229-235.

Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 951-954.

الحماية على لبنان كخطوة أولى يتبعها فرض الحماية على سورية مما يعصف بمبدأ التوازن الدولي في حوض البحر المتوسط . وكانت الحكومة البريطانية لاتزال متمسكة بسياستها التقليدية وهي المحافظة على استقلال الدولة العثمانية وسلامة ممتلكاتها ؛ لأن في هذه السياسة سلامة للممتلكات البريطانية في الهند وغيرها من الأقاليم الواقعة فيها وراء البحار . ولهذا أعلنت الحكومة البريطانية في مجلس اللوردات بجلاسة ١٠ من يوليو - تموز - سنة ١٨٦٠ - أى قبل أقل من شهرين من توقيع بروتوكول باريس في ٥ من أغسطس - آب - تمسكها بهذه السياسة . وكان مما قاله وتذكرون يا حضرات اللوردات أن وإلى مصر - محمد علي باشا - قد استولى على هذه البلاد - بلاد الشام - في فترة سابقة ، وأن قوات حضرة صاحبة الجلالة الملكة قد أسهمت لاعتبارات سياسية في الجهود، التي بذلت لإرجاع هذه الولاية إلى حكم الدولة العثمانية . وفي خلال الفترة التي دلت فيها للحكم المصري ظفرت هذه البلاد بأمن وحماية أكثر مما تتمتع به الآن، (١) .

وكانت الحكومة البريطانية تخشى أطماع نابليون الثالث في الشرق الإسلامي؛ إذ كان يريد أن يسير على خطى عمه الإمبراطور نابليون الأول حين قاد حملة عسكرية على مصر سنة ١٧٩٨ ، ثم قاد حملة فرعية منها على بلاد الشام في سنة ١٧٩٩ . وكان نابليون الثالث قد أبدى تأييداً عميقاً لمشروع قناة السويس وعطفاً شديداً على دى لسييس صاحب امتياز القناة إلى حد أنه نقل قنصل فرنسا العام في مصر ، ساباتييه Sabatier ؛ لأنه لم يقف إلى جانب دى لسييس دفاعاً عن مصالح الشركة في خلال أزمته يونيو - حزيران - وأكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٥٩ (٢) وأوضح وزير الخارجية الفرنسية في قرار النقل استياءه لملك القنصل العام إزاء مشروع القناة ، وأنه لم يحتج على التدابير التي اتخذت في اجتماع قناصل الدول في مصر في ٤ من أكتوبر - تشرين أول سنة ١٨٥٩ (٣) ، وكانت الحكومة البريطانية تنظر إلى مشروع قناة السويس على أنه مشروع سياسى فرنسى ، استهدف بالدرجة الأولى الإضرار بالمصالح البريطانية . وكان وزير خارجية بريطانيا لا يريد أيضاً أن يعطى الروسا فرصة للتدخل العسكرى أو السياسى في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية ؛ فهي لم تطالب بإخماد مذابح لبنان فحسب ،

(1) Hansard's Parliamentary Debates, vol. 159, p. 1648.

(٢) انظر تفصيل هاتين الأزميتين في :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : السخرة في حفر قناة السويس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢-٦٣ .
وانظر أيضاً لنفس المؤلف : قناة السويس والتغيرات السياسية التي أحاطت بإنشائها ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٢-٢٢٦ .

(3) Hallberg Charles, op. cit., pp. 169-170.

وانظر أيضاً L'Isthme de Suez العدد الصادر في ١٥ نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٨٥٠ ، ص ٢٢٨ ،
مجموعة السنة الرابعة .

بل تطلعت إلى ما أسمته تحسين أوضاع الرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية بعامه وفي البلقان بخاصة ، وستكون هذه ركائز سياستها نحو الدولة منذ السبعينيات من القرن التاسع عشر ، وقد أرسلت الروسية بعض قطع من أسطولها الحربي حيث ألقت مراسيها أمام بيروت . ورأى وزير الخارجية البريطانية أيضاً أن موضوع مذابح لبنان قد اتسعت حلقاته ، إذ عرضت اليونان إرسال قوات برية وقطعتين حربييتين من أسطولها إلى بيروت للإسهام في وقف المذابح الدينية ، وأراد جون رسل أن يقطع السبيل أمام هذه المحاولات .. فرفض الطلب الروسي والعرض اليوناني ، وأقر مبدأ للتدخل الأوروبي في أضيق نطاق شكلاً وموضوعاً ، فمن ناحية الشكل أراد أن يعطيه طابعاً قانونياً فيصدر قرار للتدخل عن مؤتمر دولي ، تشترك فيه الدول الموقعة على معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ماعدا مملكة سردينيا الإيطالية . ومعنى ذلك ضرورة الحصول على موافقة الدولة العثمانية من حيث المبدأ على الاشتراك في المؤتمر ، وأن يوافق السلطان على مبدأ للتدخل الأوروبي المقيد الذي تنصر عليه بريطانيا . ومن حيث الموضوع ، أراد وزير الخارجية البريطانية أن يقصد على فرنسا أي محاولة قد تبذلها لفرض الحماية الفرنسية على لبنان وسورية ، وأن يكون عدد القوة العسكرية الفرنسية محدوداً ، وأن تكون مرابطة موقوتة بأجل معين يتم بعده للجلاء . ويعد اتصالات مكثفة بين لندن وباريس وافقت الحكومة الفرنسية على جميع طلبات وزير الخارجية ، وتقرر عقد المؤتمر في باريس في شهر يوليو - تموز - ١٨٦٠ ، وأن تحضره ست دول ، هي : بريطانيا ، وفرنسا ، والنمسا ، والروسيا ، وروسيا ، والدولة العثمانية .

إمعان بريطانيا في دبلوماسيتها :

عقد بروتوكول انتقاء الأغراض الشخصية :

وإمعاناً من جون رسل وزير الخارجية البريطانية في الحرص على تقييد فرنسا في التحرك في المؤتمر المزمع عقده في باريس ، ورغبة منه في عدم اتخاذ فرنسا أو غيرها من الدول الأعضاء في المؤتمر الأزمة اللبنانية نقطة وثوب لتحقيق مكاسب إقليمية أو تجارية في الدولة العثمانية ، طلب - قبل الفراغ نهائياً من وضع قرارات المؤتمر - أن توقع بروتوكولاً ، أطلق عليه «بروتوكول لانتقاء الأغراض الشخصية - The Self-Denying Protocol وقد وقعه الدول في ٣ من أغسطس - آب - سنة ١٨٦٠ وجاء فيه أن الدول المتعاقدة تقرر - في أتم أسلوب قانوني - أنها لا تتبغى ولا تعزم أن تبغى ، في تنفيذ تعهداتها ، أي مزاي إقليمية أو أي نفوذ انفرادي أو أي امتياز بشأن تجارة رعاياها ؛ بحيث لا يستطيع منحها لرعايا جميع الأمم الأخرى .

In the most formal manner, the Contracting Powers do not intend to seek for, and will not seek for, in the execution of their engagements, any ter-

ritorial advantages, any exclusive influence, or any concession with regard to the commerce of their subjects, such as could not be granted to the subjects of all other nations.^(١)

حدود التدخل الدولي كما أقرها بروتوكول باريس :

وقعت الدول الست في ٥ من أغسطس - آب - سنة ١٨٦٠ في باريس بروتوكولاً يحدد ويقيّد حجم التدخل الأوروبي في مذابح لبنان ودمشق ، وقد أخذ هذا الاتفاق في أول الأمر شكل بروتوكول Protocol ولم يأخذ من الناحية الشكلية صورة اتفاق Convention ، إلا بعد ذلك بشهر في ٥ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٦٠ ؛ لأن الموقف المتأزم في بلاد الشام كان في نظر الدول الأوروبية لا يتحمل تأخيراً^(٢) . وكان وضع قراراتهم في صورة اتفاق يتطلب عدة إجراءات منها ضرورة تصديق حكومات الدول المتعاقدة على هذه القرارات^(٣) .

وكان من بين قرارات البروتوكول :

أولاً : ترسل قوات أوروبية يمكن أن يزداد عددها إلى ١٢,٠٠٠ جندي إلى بلاد الشام؛ للإسهام في إعادة الهدوء إليها (المادة الأولى) .

ثانياً : يوافق إمبراطور فرنسا على أن يرسل فوراً نصف هذا العدد إلى لبنان ، وإذا تطلب المرفق زيادة هذه القوة إلى ١٢,٠٠٠ جندي ، وهو الحد الأقصى الممنوع عليه ، فإن الدول المشتركة في الاتفاق تتفق مع الدولة العثمانية ، عن طريق القوات الدبلوماسية ودون تأخير ، على تعيين جنسيات أفراد القوة التي ترسل لتعزيز القوة الفرنسية ، على أن تكون تلك القوة الجديدة تابعة للدول المشتركة (المادة الثانية) .

ثالثاً : يتصل القائد العام للحملة الفرنسية عقب وصوله بالمبعوث العثماني فوق العادة للاتفاق معه على الإجراءات التي يطلبها الموقف، وعلى اختيار المواقع التي ترابط فيها قواته من أجل تحقيق أهداف هذا الاتفاق (المادة الثالثة) .

رابعاً : على كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا والروسيا وبروسيا إبقاء قوات بحرية كافية تسهم في نجاح الجهود المشتركة ، التي ترمي إلى إعادة الهدوء إلى ساحل بلاد الشام (المادة الرابعة) .

(1) Great Britain, Parliamentary Papers, 1861, vol. 68, pp. 8-9.

(٢) انظر تصريح لورد سترانسفورد دي ريكليف في جلسة ٣ من أغسطس - آب - سنة ١٨٦٠ بمجلس اللوردات :

Hansard's Parliamentary Debates, Vol. 160, pp. 617-618.

(٣) دكتور حامد سلطان : القانون الدولي العام في وقت السلم ، مرجع سبق ذكره ، المبحث الثالث : أنواع المعاهدات والأعمال القانونية الدولية التي تصدر عن جنبيين أو أكثر ، ص ٢٠٦-٢٠٧ .

خامساً : تعتقد الدول المتعاقدة أن ستة أشهر فترة كافية لتحقيق هدفها ، وهو إعادة الأمن والنظام والهدوء ، وتأسيساً على ذلك .. فإن فترة الاحتلال الأوروبي لبلاد الشام لا تتجاوز هذه المدة ، (المادة الخامسة) .

سادساً : يتعهد الباب العالي أن يعمل في حدود استطاعته على تسهيل تموين القوات الأوروبية بما تحتاج إليه من أغذية (١) (المادة السادسة) .

وقد وصلت الحملة الفرنسية إلى لبنان ونزلت طلائعها الأولى في بيروت في ١٦ من أغسطس - آب - سنة ١٨٦٠ ، وخرج أعيان الموارنة لاستقبالها والترحيب بها وعسكرت في مواقع متعددة في جبل لبنان (٢) . وكانت بقيادة اللواء دي بوفور دوتبول General de Beau fort d'Hautpoul ، وهو من القادة العسكريين للمتخصصين في شئون لبنان وسورية وملماً بجوانب القضية ، إذ كان ضابطاً في هيئة أركان حرب إبراهيم باشا ابن والي مصر محمد علي عند ماجرد حملته في حرب الشام الأولى ، وكان هذا القائد الفرنسي يحفظ أجمل للذكريات عن الأمراء الشهابيين الذين زار قصورهم ووقف على مجدهم ونفوذهم (٣) .

السلطان يوفد وزير خارجيته إلى بلاد الشام :

وقبل نزول القوات الفرنسية ، كان الباب العالي قد أرسل قوات كبيرة إلى دمشق وإلى مناطق جبل لبنان ، كما أوفد فؤاد باشا وزير الخارجية ، فيلغ بيروت في ١٧ من يوليو - تموز - سنة ١٨٦٠ . واتخذ تدابير صارمة للاحتصاص من الذين اشتركوا في المذابح ولإعادة الأمن إلى ربوع البلاد وبث الطمأنينة في نفوس الأهليين ، وبدأ بدمشق فأعدم مائة وأحد عشر جندياً رمياً بالرصاص وشنق سبعة وخمسين فرداً من المدنيين المسلمين ، وسمح لجميع المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام كرهاً إبان المذابح أن يرتدوا إلى دينهم ، وكان عددهم يقرب من الخمسمائة ، ونفى بعض أعيان المسلمين في دمشق إلى جزيرة قبرص وطرابلس الغرب وإستانبول ، وسبقوا سيراً على الأقدام مكبلين بالحديد إلى بيروت ومنها نقلوا إلى المنفى ، كما صادر أملاك المسلمين في الحى التجارى في دمشق ، وأعطاهم للمسيحيين الذين نهبت متاجرهم في الحى المسيحى . ومما يذكر أن اليهود اشتروا هذه المنهوبات بأبخس الأثمان من

(1) Great Britain, Parliamentary Papers, 1861, Vol. 68, pp. 5-6.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذا الاتفاق في باريس في ١٨ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٦٠ .

(2) Hanotaux Gabriel; Histoire de la Nation Française. t.

VIII. Histoire Militaire et Navale. 2 ème Volume. Du Directoire à la Guerre de 1914, par le Maréchal Franchet d'Esperey. Paris, 1937, pp. 383-384.

(٣) دكتور أحمد طرين : لبنان منذ عهد التصرفية إلى بداية الانتداب (١٨٦١-١٩٢٠) من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة - ١٩٦٨ - ص ٤ .

المسلمين . وكان والى دمشق قد أساء التصرف إيان المذابح؛ إذ قبض - فى محاولة منه لوقف المذابح - على بعض كبار المسلمين لأنهم كانوا قد أهانوا المسيحيين وقبدهم بالسلاسل وأكرههم على كس الشوارع . وقد وصفت الحكومة البريطانية هذا للتصرف بأنه إجراء كانت تعوزه الحكمة (١) وقد أمر فؤاد باشا بشق والى دمشق سراً : ومعاقبة الموظفين الأتراك العثمانيين الذين أظهروا تراخياً فى مواجهة المذابح ، أو وقفوا موقف الحيدة ، أو اتفقوا بطريق التواطؤ مع المشاغبين على التوسع فى حركة قتل المسيحيين ، وفرض فؤاد باشا غرامات مالية على المسلمين . واستغل اليهود هذه الفرصة فقدموا للمسلمين قروضاً بفوائد عالية واضطر الآخرون إلى قبول عروض اليهود حتى يتمكنوا من سداد للغرامات التى فرضت عليهم جزأاً (٢) ، وكانوا مهدين بدخول السجول أو بيع أثاث منازلهم إذا تأخروا فى دفع الغرامات المالية . وأهدى فؤاد باشا إلى الأمير عبدالقادر الجزائى الوسام المجيدى (٣) تقديراً لشهامته فى إنقاذ أرواح المسيحيين ، وأمر بتوزيع المعونات المختلفة على المسيحيين الذين أصيبوا فى مذابح دمشق . ونال الأمير عبدالقادر أيضاً وسام الشرف من الحكومة الفرنسية (٤) رمزاً وتقديراً لموقفه البطولى فى أثناء المذابح ، كما عهدت الحكومة البريطانية إلى القنصل البريطانى فى دمشق إبلاغ الأمير عبدالقادر شكرها وتقديرها لموقفه النبيل (٥) .

(١) انظر تقرير برانت Brant قنصل بريطانيا فى دمشق، تلاه لورد سترافورد دى ريد كليف فى مجلس اللوردات بجلسة ٣ من أغسطس - آب - سنة ١٨٦٠ فى :

Hansard's Parliamentary Debates, Vol. 160, p. 627.

(٢) الدكتور عبدالكريم غرايبة : سورية فى القرن التاسع عشر (١٨٤٠-١٨٧٦) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية - القاهرة ، ١٩٦١-١٩٦٢ ، ص ١٢٩ .

ومما يذكر أنه كان اليهود فى دمشق وحدها أكثر من أربع وعشرين مؤسسة تجارية، بلغ رأس مالها قرابة خمسة ملايين فرنك ، كما سيطروا على تجارة دمشق مع بريطانيا . واشتهر من تجارهم اثنان من أسرة فرحى هما مراد ، ونسيم . وكان اليهود نشاطاً بارزاً أيضاً فى بيروت وحلب وعكا وحيفا . وكان كثير من قناصل الدول فى حلب من اليهود، وتلاعبوا بشعار النقد .

(٣) ينسب هذا الوسام إلى السلطان عبدالعزیز الأول الذى أنشأه وقمه على وسام الانتصار الذى أنشأه السلطان محمود الثانى .

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٥ .

(٤) هو وسام إنشاء بوناپرت فى ١٩ مايو - أيار - سنة ١٨٠٢ ، قبل أن يصبح إمبراطوراً . وقد طرأت على نظام هذا الوسام عليه تغييرات تبعاً لتعدد نظم الحكم فى فرنسا بعد نابليون الأول ، ولكنه لا يزال باقياً لتعلق الرأى العام الفرنسى به ، لأنه يذكر الفرنسيين بأجنادهم الحربية فى أوروبا على عهد نابليون الأول .

(٥) انظر مضابط مجلس العموم البريطانى بجلسات ٢ من أغسطس - آب - سنة ١٨٦٠ ، ٦ ، ٢٥ من الشهر ذاته فى :

Hansard's Parliamentary Debates, Vol. 160, pp. 641, 696, 697 and 1816.

وانظر أيضاً : =

أما في لبنان فلم يلجأ فؤاد باشا إلى الأسلوب ذاته الذي اتبعه في دمشق من توقيع العقوبات على المشاغبين ومثيري الفتنة ، لأن الوضع في لبنان كان مختلفاً : فالفريقان : الدروز والموارنة - كانا مسؤولين ، ولم يكن في الاستطاعة تحديد المسؤولية بالنسبة إلى الأفراد. ولذلك ترك هذا الموضوع إلى لجنة دولية تجتمع في بيروت برياسته ؛ لأنه لمس من بعض الدول اتجاهات تعسفاً لإدانة الدروز وتبرئة الموارنة من مسؤولية المذابح . وكان يعلق آمالاً كباراً على الاختلافات بين الدول لتخفيف وطأة التحامل على الدروز ، كما أن قائد الحملة الفرنسية صمم على إرسال قوة من ألف وخمسمائة جندي فرنسي إلى جبل لبنان ؛ بحجة إعادة الموارنة إلى قرام وحمايتهم من اعتداءات الدروز^(١) .

لجنة دولية في بيروت :

تكونت لجنة دولية برياسة فؤاد باشا ومقرها في بيروت ، واشترك فيها ممثلون من بريطانيا وفرنسا والعمسا والروسيا وبروسيا ، وكانت مهمتها اكتشاف المحرضين على المذابح والذين اشتركوا فيها ، وبحث أسبابها ، وتقدير التعويضات عن الخسائر ، ووضع اقتراحات لتطوير أجهزة الحكم ؛ بحيث لا تتعرض مناطق الجبل لمذابح أخرى في قابل الأيام ، وعقدت اللجنة اجتماعها الأول في ٥ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٦٠ .

وقد وضعت اللجنة الدولية كشفاً بأسماء ٤,٦٠٠ درزي فحكمت على ثمانية وأربعين درزياً بالإعدام ، وعلى أحد عشر بالسجن المؤبد وعلى ثلاثة عشر بالحبس ست سنوات ، وعلى ٢٤٩ بالتحفظ عليهم أو النفي المؤقت . ولكن لم يعدم جميع الذين صدرت عليهم أحكام الإعدام .. فقد استطاع كثيرون منهم الهرب ، أو لعل السلطات العثمانية سهلت لهم سبل الهرب. وفي دمشق حكم على ثلاثمائة رجل بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وقد أحضروا مكبلين بالأغلال الحديدية سيراً على الأقدام إلى بيروت ، ومنها نقلوا إلى إستانبول . ولكن بعد غياب ستة أشهر ظهروا في أسواق بيروت وهم في طريقهم إلى دمشق^(٢) ، وقدرت اللجنة بمبالغ خيالية للتعويضات التي تدفع للموارنة^(٣) ، واقترح في اللجنة أن يقوم الدروز بدفع هذه التعويضات ، غير أن فؤاد باشا اعترض قائلاً أن الدولة العثمانية ستدفعها من خزائنها . ولكن لم يدفع الباب العالي سوى مبلغ ضئيل من التعويضات ، ثم امتنع عن الدفع بحجة أن الموضوع قد غدا

= L'Isthme de Suez العدد ١٠٢ الصادر في ١٥ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٦٠ ، ص ٢٩٧ ، مجموعة السنة الخامسة .

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٢-٣٣٤ .

(٢) لكتور نقولا زيادة ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٦ .

(٣) قدرت اللجنة هذه التعويضات بمبلغ خمسة وسبعين مليون قرش .

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٤ .

متحدثاً، وأعلن الباب العالي بعد ذلك العفو العام، على ألا يشمل العفو أولئك الموارنة الذين هربوا إلى حوران^(١) :

تيارات شتى في اللجنة الدولية ببيروت :

وقد ألقى فؤاد باشا بصفة مؤقتة قائمقامية الدروز ، فأوقف قائمقامها وأعوانه من المقاطعة الدروز ، وعندما فر الباقون أسقط حقوقهم المدنية وعزلهم من مناصبهم وأصبحوا مجردين من أي سلطات إدارية . ووضع قائمقامية الدروز مؤقتاً تحت الحكم العسكري للجيش العثماني إلى أن يتم وضع نظام جديد بالاتفاق مع الدول الأوروبية الخمس لحكم الجبل . وكان يتعذر عليه في ذلك الوقت اختيار شخصية درزية تتولى حكم قائمقامية الدروز ، فلجأ إلى تقسيمها إلى أربع دوائر إدارية وعين لكل منها مديراً . وقرر أن يقيم الجنود العثمانيون في أماكن الجبل المناسبة لحفظ الأمن العام إلى جانب جنود غير نظاميين، يوضعون تحت تصرف المديرين، ويؤخذ بعضهم على الأقل من سكان الدائرة .

أما منصب قائمقامية الموارنة .. فقد شغل بعزل قائمقامها لموقفه المريب في أثناء المذابح ولأنه أضاع نفوذه وهيبته بإدارته الضعيفة ، وتداول فؤاد باشا مع أعضاء اللجنة الدولية في بيروت في اختيار أحد الموارنة لي عين قائمقاماً مؤقتاً . واستقر رأى اللجنة على أن تعهد إلى ممثل فرنسا ، بيكلار ، وإلى قائد الحملة الفرنسية دي بوفور ، وهما يناصران الموارنة ، على اختيار قائمقام لمنطقة الموارنة ، واتضح أن وجهات نظر العضوين متباينة ، فالأول يرى وجوب تسليم مقاليد الحكم في قائمقامية الموارنة ليويسف كرم ، والثاني وهو قائد الحملة الفرنسية ، كان يرى أن يكون لبنان «مقلاً يلجأ إليه جميع مسيحيي بلاد الشام، وأن يضم جبل لبنان كلاً من صيدا وبيروت وطرابلس ، ورشح مجيد شهاب ليكون قائمقاماً ، وأن يعين الأمير عبدالقادر الجزائري والياً على ولاية سورية . وكان مجيد شهاب قد لجأ إلى مصر إبان المذابح فاستدعاه قائد الحملة الفرنسية للحضور مسرعاً إلى بيروت ، وانقسمت للجنة الدولية في بيروت أحزاباً وانضم إلى ممثل فرنسا ، بيكلار ، مددوب بريطاني وكبار ضباط الحملة ، بينما انحاز إلى رأى قائد الحملة بوفور ، كل من قنصل فرنسا للعام في بيروت ومددوب النمسا وروسيا ، وحسم الأمر بتعيين يوسف كرم قائمقاماً مؤقتاً للموارنة . وقد صاندف صعباً جمّة واضطر إلى الاستقالة في ٩ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٦١ ، وعين مكانه داود باشا وهو كاثوليكي ولد من أبوين أرمنيين في إستانبول ونشأ فيها وتلقى علومه الثانوية في كلية أزمير الفرنسية ثم التحق بكلية الحقوق الشاهانية وتدرج في مناصب السلك الدبلوماسي العثماني، حتى عين في

(١) يكثر نقولاً زيادة مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٧ .

منتصف القرن التاسع عشر قائماً بالأعمال في برلين^(١) .

وفي لجنة بيروت الدولية، استطاع فؤاد باشا إدهائه أن يسيطر على أعمال اللجنة واستغل الخلاف الذي نشب بين أعضائها . فكان يقول لهم «سأنظر إلى أن يتم الاتفاق بينكم، أو سأحيل هذه المسألة إلى حكومتى فى إستانبول وانتظر التعليمات التى تردنى منها» . وكان ممثل بريطانيا يقف إلى جانب فؤاد باشا ، ويدافع عن مبدأ استقلال الدولة العثمانية وسلامة ممتلكاتها ؛ إعمالاً للنصوص معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ، كما طالب بشدة بأن تخفف الأحكام الصادرة ضد الدروز ، ووقف إلى جانبه ممثلاً النمسا وبروسيا . أما فرنسا فكانت تدافع عن وجهات نظر الموارنة ، وحاولت الروسية أن تقف موقف الحيدة ، ولكنها كانت أقرب إلى تأييد فرنسا منها إلى الالتزام بمبدأ الحيدة . واستمرت اللجنة تمارس أعمالها إلى ٥ من مايو - آيار - سنة ١٨٦١ ، وأمضى الأعضاء الشهور الطوال فى إطالة أمد المباحثات والتسويق بحجة انتظار التعليمات من حكوماتهم . ويؤخذ على فؤاد باشا أنه أتاح الفرصة لإطالة أمد المباحثات ، لأن هذا التباطؤ جعل الدول الأعضاء تضغط على الحكومتين العثمانية والبريطانية بمد أجل الاحتلال الفرنسى للبنان . وأخيراً فرغ أعضاء اللجنة من وضع تقريرهم فى ٤ من مايو - آيار - سنة ١٨٦١ ، ووضعوا فيه أسساً جديدة لحكم لبنان واتفقوا على نقل المباحثات من بيروت إلى إستانبول لإجرائها مع الباب العالي مباشرة ، فذلك أدعى ، فى نظر الدول الأوروبية ، إلى سرعة الفراغ من وضع القانون الأساسى الجديد فى صورته النهائية والمقترح تطبيقه فى لبنان . وكان هذا الطلب ذريعة أمام معظم الدول الأوروبية باستثناء بريطانيا للمطالبة بمد أجل الاحتلال الفرنسى للبنان . وكان أجل الاحتلال الفرنسى قد انتهى فى ١٥ من فبراير - شباط - ١٨٦١ ، بعد أن انتهت الشهور الستة المحددة له ابتداء من تاريخ وصول قوات الاحتلال إلى بيروت فى ١٦ من أغسطس - آب - ١٨٦٠ ؛ طبقاً للبروتوكول الدولى المنعقد فى باريس فى ٥ من أغسطس ، والذى اتخذ شكل الاتفاق فى ٥ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٦٠^(٢) .

اتفاق دولى على مد أجل الاحتلال الفرنسى للبنان :

كانت الحكومة البريطانية قد أبدت قلقها منذ شهر يناير - كانون ثان ١٨٦١ ؛ لعدم ظهور أى بادرة تدل على قرب انسحاب القوات الفرنسية من لبنان . وقد لقى تدخل فرنسا العسكرية فى لبنان تأييداً شعبياً من رأى العام للفرنسى، وانتشرت فى فرنسا أغنية شعبية تشيد بسياسة نابليون الثالث ، وكان مطلعها «نحن راحلون إلى بلاد الشام»^(٣) Partant pour La Syrie ، وتعرضت حكومة لندن لضغط شديد من فرنسا بوجه خاص؛ للموافقة على مد أجل

(١) نكتور أحمد بطرين ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٥-١٠٦ .

(٢) انظر ماسبق .

الاحتلال الفرنسي . وقد أثير في مجلس اللوردات بجلسة ٧ من مارس - آذار - سنة ١٨٦١ موضوع ماطلة فرنسا في الجلاء عن لبنان . ونكر بعض الأعضاء أن تسويق فرنسا في الانسحاب إنما يرجع إلى أن التفاهم يزيد بين الروسيا وفرنسا بخصوص مشكلات الدولة العثمانية ، وأبدوا خشيتهم من أن تتخذ الروسيا احتلال فرنسا لبنان ذريعة لتدخلها في بلغاريا^(١) ، كما أثير هذا الموضوع في مجلس العموم بجلستي ٧ و ١٨ من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٦١ ، وصرح لورد جون رسل أن عدد القوة الفرنسية في لبنان قد زاد حقيقة عن العدد المتفق عليه ، إذ كان يتراوح وقتذاك بين سبعة آلاف وثمانية آلاف جندي^(٢) . وأخيراً وافقت الحكومة البريطانية على كره منها على الاشتراك في التوقيع على اتفاق عقد في باريس في ١٩ من مارس - آذار سنة ١٨٦١ ووقعته معها الدول للخمس الأخرى ، وتقرر بمقتضاه إطالة مدة الاحتلال الفرنسي ثلاثة أشهر وعشرين يوماً تنتهي في ٥ من يونيو - حزيران سنة ١٨٦١ واحتاطت بريطانيا حتى لاتطالب فرنسا والدول الضالعة معها بمد أجل الاحتلال الفرنسي مدة أخرى ، فنصت المادة الثانية من هذا الاتفاق الجديد على أنه إذا لم تكن النصوص الواردة في المادة الثانية من اتفاق العام السابق (٥ من سبتمبر - أيلول) قد نفذت ، فإن هذه النصوص تستمر سارية المفعول في أثناء الفترة من تاريخ توقيع الاتفاق الجديد ، وهو ١٩ مارس - آذار - سنة ١٨٦١ و٥ من شهر يونيو - حزيران - من السنة ذاتها^(٣) . والمعنى المستفاد من هذه المادة هو أنه إذا رأى من الضروري تعزيز قوة الاحتلال الفرنسي بزيادة عدها إلى ١٢,٠٠٠ جندي ، فإن هذا التعزيز الجديد لن يشمل اشتراك جنود فرنسيين ، بل يتضمن جنوداً يلتحقون إلى الدول الأخرى المتعاقدة^(٤) .

المؤتمر الدولي في إسطنبول :

لما فرغت اللجنة الدولية في بيروت في ٤ من مايو - أيار - سنة ١٨٦١ من وضع تقريرها مشتملاً على مشروع القانون الأساسي للنظام المقترح لحكم جبل لبنان قررت - كما

(1) Hansard's Parliamentary Debates, Vol., 161, pp. 1525-1526.

(2) Loc. ci., pp. 1540-1541 and 2154.

(3) Great Britain, Parliamentary Papers, 1861, Vol. 68, pp. 14-15.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في باريس في ١٨ من مايو - أيار - سنة ١٨٦١ .

(٤) بخصوص مذابح لبنان وبمشق ، انظر كلاً من :

Churchill C.H.; The Druzes and the Maronites under Turkish Rule. chaps. 4-9.

Hourani A.H.; Syria and Lebanon, pp. 27-33.

Cambridge History of British Foreign Policy, Vol, 2, pp. 451-456.

Jouplain M.; La Question du Liban, pp. 886-451.

ذكرنا - عرضه على مؤتمر دولي يعقد في إسطنبول، ويشارك فيه سفراء الدول الخمس^(١) مع الباب العالي . واجتمع المؤتمر برئاسة عالي باشا الصدر الأعظم في ٢٠ من مايو - آيار - في بك أو على إحدى ضواحي إسطنبول في حي بيررا Pera^(٢) ولم تطل فترة عقد جلساته ؛ إذ فرغ من مراجعة المشروع في الشهر التالي، وصدر في ٩ من يونيو - حزيران - ١٨٦١ القانون الأساسي لحكم جبل لبنان مكوناً من سبع عشرة مادة وبرتوكول^(٣) ، وتطلق بعض المراجع التاريخية على الاثنين معاً بروتوكول بك أوغلي^(٤) .

القانون الأساسي لحكم جبل لبنان

نصت المادة الأولى من هذا القانون على أن يقوم بإدارة جبل لبنان موظف مسيحي، يلقب باسم «متصرف» يعينه الباب العالي ويتصل هذا الموظف رأساً بحكومة إسطنبول ، وهو قابل للعزل ، ويمتدح كل حقوق السلطة التنفيذية ويسهر على حفظ النظام والأمن العام في كل أنحاء الجبل ويجمع الأموال الأميرية ، ويكون له الحق في تعيين مأموري الإدارة المحلية ، ويعين القضاة ، ويعقد المجلس الإداري الكبير ويتولى رئاسته ، وينفذ الأحكام الصادرة عن المحاكم . وكان كل عنصر من عناصر سكان الجبل وكيل يمثله لدى المتصرف ، ويعين هذا الوكيل الكبراء والوجهاء في كل طائفة .

ونصت المادة الثانية على أن يكون للجبل كله مجلس إدارة كبير، يتكون من اثني عشر عضواً: اثنين من الموارنة ، واثنين من الدرروز ، واثنين من الروم الكاثوليك واثنين من الروم الأرثوذكس ، واثنين من المتأولة ، واثنين من المسلمين . ويكون اختصاص هذا المجلس توزيع الضرائب ، والبحث في إدارة موارد الجبل ونفقاته والاستماع إلى آرائه في المسائل التي يعرضها المتصرف للاسترشاد بها .

ونصت المادة الثالثة على تقسيم جبل لبنان إلى ست مقاطعات إدارية، عينت أسماؤها وحدودها ، وأن يكون في كل مقاطعة من هذه المقاطعات مأمور إداري يعينه المتصرف ويختار من الطبقة الغالبة، سواء بعدد أفرادها أو بأهمية أملكها .

(١) كانت هذه الدول هي بريطانيا ، فرنسا ، النمسا ، روسيا ، بروسيا ، وقد انضمت إيطاليا في سنة ١٨٦٧ إلى الدول الموقعة على هذا القانون .

(٢) انظر مصطلح «بك أوغلي» في جدول المصطلحات التركية في نهاية هذه الدراسة .

(٣) نجد النص الرسمي لهذا القانون في كل من :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1861, Vol. 68, pp. 683-686.

Hurewitz J.C.; op. cit., Vol. 1, pp. 165-168.

دكتور أحمد طربين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٧٣-٢٧٩ .

Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., Vol. 2, p. 143.

وقررت المادة الرابعة أن يكون في كل مقاطعة مجلس إدارة محلي، مؤلف من ثلاثة أعضاء إلى ستة يمثلون عناصر السكان ومصالح الملكية العقارية في المقاطعة، ويجتمع هذا المجلس مرة في السنة برئاسة مدير المقاطعة ويدعوه منه . وعليه أن ينظر قبل كل شيء في الأمور القضائية الإدارية ويستمع إلى مطالب الأهالي ، ويبلغ المعلومات الإحصائية اللازمة لتوزيع الضرائب في المقاطعة ، ويبدى رأيه ، بصورة استشارية ، في كل المسائل المتعلقة بالمنافع العامة .

أما المادة الخامسة فقد قسمت المقاطعات إلى نواح ، ولا يكون في كل ناحية إلا جماعات متجانسة من السكان كلما كان ذلك مستطاعاً . وتنقسم النواحي إلى قرى ، وتتألف كل قرية من خمسمائة نسمة على الأقل ، ويكون في كل قرية موظف، يعينه المتصرف بناء على اقتراح مدير المقاطعة . وأن يرأس كل قرية شيخ ينتخبه الأهالي ويعينه المتصرف . وفي القرى المختلطة يكون لكل عنصر كافى العدد من السكان شيخ خاص ، لاشأن له إلا مع أتباع مذهبه الدينى .

وقررت المادة السادسة مساواة الجميع أمام القانون ، وإلغاء كل الامتيازات الإقطاعية ولاسيما امتيازات المقاطعية .

وتعرضت المواد السابعة والثامنة والتاسعة والعاشر والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة لإجراءات التقاضى أمام المحاكم على اختلاف درجاتها ، ومن بين المبادئ التى جاءت بها هذه المواد .

(أ) إخراج القضايا التجارية من ولاية قضاء جبل لبنان ، وتختص محكمة بيروت التجارية بنظرها وتختص كذلك بالنظر في كل قضية، ولو كانت مدنية بين أحد رعايا أو محمى دولة أجنبية وأحد أهالي الجبل .

(ب) يتقرر لجميع القضاة مرتبات ، وإذا ثبت بعد التحقيق أن أحد القضاة قد تقاضى رشوة أو قام بأى عمل لا يتناسب مع مقتضيات وظيفته ، فيجب عزله وإحاله إلى مجلس تأديب .

(جـ) جلسات كل المجالس القضائية تكون علنية .

(د) أهالي الجبل الذين يرتكبون جنابة أو جنحة فى صنjq آخر، تجرى محاكمتهم فى هذا الصنjq . وإذا ارتكب أهالي الصناjq الأخرى جنابة أو جنحة فى جبل لبنان تجرى محاكمتهم أمام محاكم الجبل . وتأسسأ على ذلك.. فالأشخاص الوطنيون أو غير الوطنيين الذين يرتكبون جنابة أو جنحة فى جبل لبنان ويلجأون إلى صنjq آخر ، فبناء على طلب حكومة الجبل تلقى القبض عليهم حكومة الصنjq الذى يكونون فيه

وتسلمهم إلى حكومة الجبل . وهكذا إذا ارتكب أهالي الجبل أو سكان ولايات أخرى جناية أو جلة في أي صندق كان غير جبل لبنان والتجأوا إليه ، فعلى حكومة الجبل أن تلقى القبض عليهم حالاً بناء على طلب الصندق صاحب الشأن وتسلمهم إلى هذه السلطة الأخيرة . وإذا أعمل مأمور والحكومة أو تراخوا ، بدون أسباب مشروعة ، في تنفيذ الأوامر بإرجاع المتهمين إلى المحاكم المختصة تجرى عليهم عقوبات طبقاً للقوانين ، كما تجرى على كل من يحاول إخفاء هؤلاء المتهمين من ملاحقات الشرطة . والخلاصة .. فإن علاقات حكومة جبل لبنان مع حكومات الصناديق الأخرى تكون العلاقات الموجودة ذاتها ، والتي يصير تطبيقها بين صناديق الدولة العثمانية .

أما المادة الخامسة عشرة ، فقررت أن حفظ النظام وتنفيذ القوانين في الأوقات العادية إنما يناط بالحاكم بواسطة هيئة شرطة محلية ، تؤلف بنسبة سبعة أنفار عن كل ألف من السكان ، ولما كان قد تقرر إلغاء طريقة التنفيذ بواسطة الحوالة ^(١) والاستعاضة عنها بطرق أخرى (كراهية كإلغاء القبض أو الحبس ، فيحرم على مأموري الشرطة أن يختصوا من الأهالي أية أجرة سواء مالاً أو عيلاً . وعندما يرى الحاكم أن الشرطة المحلية أصبحت قديرة على القيام بكل مايفرض عليها من الواجبات في الأوقات العادية فإن جنود للجيش العثماني النظامي يحتلون فقط الطرق التي بين بيروت ودمشق ، وبين صيدا وطرابلس . ويكون هؤلاء الجنود تحت أوامر حاكم الجبل . أما في الظروف غير العادية وعند الضرورة ، وبعد أخذ رأى مجلس الإدارة المركزي ، يستطيع الحاكم أن يطلب مساعدة الجنود العثمانيين النظاميين من السلطة العسكرية في سورية . وعلى الضابط قائد هؤلاء الجنود أن يتفق مع حاكم الجبل على الإجراءات التي يجب اتخاذها . وعلى حاكم الجبل أن يضع في الاعتبار جميع المسائل العسكرية البحتة كخطط الجيش ونظامه ، ولكن يكون قائد الجنود النظاميين تحت أمر حاكم الجبل طوال الوقت الذي يقضيه في لبنان ويعمل تحت مسئولية حاكم الجبل . ونصت الفقرة الأخيرة من المادة ذاتها على أن هؤلاء الجنود ينسحبون من الجبل ، عندما يقوم متصرف الجبل بإرسال تبليغ رسمي إلى قائد القوات العثمانية النظامية بانتهاء المهمة ، التي من أجلها قد قدمت هذه القوات إلى مناطق الجبل .

وكان للمادة السادسة عشرة أهميتها البالغة ؛ إذ حددت نوع العلاقة المالية بين الدولة العثمانية ومتصرفية جبل لبنان . فجاءت الفقرة الأولى من هذه المادة على النحو التالي ولما كان الباب العالي يحتفظ بحق تحصيل الثلاثة آلاف وخمسمائة كيس ^(٢) بواسطة حاكم لبنان ،

(١) الحوالة (بتشديد حرف الواو) مصطلح تاريخي معناه جماعات تتشبه بالجنود ، كانوا «يتحولون» بأمر الحاكم إلى مساكن المتأخرين عن سداد الضرائب ، ويثقلون كاهلهم بالفتقات ، لايفأرون المسكن حتى يضطروهم إلى دفع الضرائب .

(٢) الكيس يساوي خمسة جنيهاً .

وهي قيمة المبلغ المقرر على جبل لبنان حالياً ، والذي يجوز إبلاغه إلى سبعة آلاف كيس عندما تسمح الظروف .. فمن المفهوم مع ذلك أن حصيلة الضريبة تخصص للمسائل الإدارية الخاصة بالجبل ونفقات مناقعه العامة . وإذا وجد فائض فإنه يصبح إيراداً للدولة ،^(١) وإذا كانت المصروفات العامة الضرورية جداً لسير الإدارة بانتظام تزيد عن الإيراد الناجم عن الضرائب .. فإن خزانة الدولة تقوم بسداد العجز .

أما فيما يختص بالأشغال العامة والنفقات الأخرى غير الاعتيادية ، فمن المفهوم أن الباب العالي لا يكون ملزماً بها إلا إذا كان قد صدق عليها مقدماً .

وقررت المادة السابعة عشرة والأخيرة الشروع في أقرب وقت ممكن في إحصاء عدد الأمالي بلدة بلدة ، وملة ملة ، وإجراء مسح لكل الأراضي المزروعة .

بروتوكول القانون الأساسي :

والحق بالقانون بروتوكول تضمن خمس مسائل ، هي :

أولاً : يتولى إدارة جبل لبنان حاكم مسيحي يختاره الباب العالي ، ويكون له حق الاتصال المباشر به ، ويمتد رتبة مشير ، ويقدم عادة في دير القمر الذي يوضع تحت سلطته المباشرة ، وتحدد ولايته بثلاث سنوات يكون فيها قابلاً للزل . ولكن لا يتم عزله أبداً إلا بعد إجراء محاكمة له . وقبل انتهاء مدة ولايته بثلاثة أشهر ، يخطر الباب العالي ممثلي الدول ويدعوهم للاتفاق معه على مرشح جديد .

ثانياً : يعطى الباب العالي لحاكم الجبل حق تعيين الموظفين مرة واحدة ، وليس بمناسبة كل تعيين .

ثالثاً : بخصوص المادة العاشرة المتعلقة بالإجراءات بين رعايا أو محميين دولة أجنبية من ناحية ، وبين سكان الجبل من ناحية أخرى ، يعهد إلى لجنة مختلطة تقيم في بيروت بالتحقق من مستندات الحماية ومراجعتها .

رابعاً : يحتفظ الباب العالي لنفسه ، من أجل صيانة الأمن وكفالة الحرية على طريق بيروت -

(1) The Ottoman Porte reserves for itself the right to collect, through the medium of the Governor of Lebanon, the 3,500 purses which constitute at present the tax-burden of the Mountain and which may be augmented to 7.000 purses when circumstances allow it; it is understood, however, that the proceeds of the tax will first be applied to the administrative expenses of the Mountain and to its outlays for public service, only the surplus, if there is any, becoming revenue of the state.

دمشق ، بحق إقامة حصن في نقطة مناسبة على الطريق المذكور .

خامساً : يشرع حاكم جبل لبنان في إجراءات نزع السلاح من سكان الجبل ، عندما يجد أن الظروف والوقت ملائمان .

انسحاب القوات الفرنسية من لبنان :

وفي الشهر ذاته الذي تم فيه إصدار القانون الأساسي لحكم جبل لبنان ، تم جلاء الحملة الفرنسية عن لبنان وعادت إلى فرنسا . واعتقد الموارنة أن فرنسا قد أسدت إليهم خدمات جليلة بحمايتهم من الدروز . والواقع أن الحملة الفرنسية لم تقم بعمل حربي ذي شأن ، لأن فؤاد بك كان قد نجح في إخماد الفتنة الدينية قبيل وصول الحملة ؛ ولذلك يقرر أحد المؤرخين أن هذه الحملة بسفرها إلى لبنان وإقامتها فيه قرابة عشرة أشهر ، قد قامت «بنزعة خير»^(١) Une char-itable promenade . وإن كان قائدها العام وكبار ضباطها قد زجوا بأنفسهم في مناقشات لجنة بيروت الدولية وتضاربت آراؤهم ؛ مما حدا بحكومة باريس إلى المطالبة بتنسيق خططهم للمحافظة على مصالح فرنسا .

ويعد مغادرة الحملة الفرنسية ميناء بيروت بعشرين يوماً ، جاز السلطان عبد المجيد الأول إلى ربه في ٢٥ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٦١ ، بعد حكم دام زهاء اثنين وعشرين عاماً ، وكان آخر عمل له هو إصدار القانون الأساسي لحكم جبل لبنان ، ولم يشهد أصداء هذا القانون في أوساط الموارنة والدروز ، تاركاً لأخيه السلطان الجديد عبدالعزيز مواجهة موقف شائك تحف به الأخطار من يمين وشمال ؛ لأن الدروز والموارنة لم يرضوا عن هذا القانون . وكانت الدولة تعاني ارتباكات مالية نتيجة حرب القدم ، وكانت شعوب البلقان ساخطة متحفزة على الدولة . ولكن كان السلطان المتوفى من السلاطين ، الذين حاولوا السير في سياسة الإصلاح على نهج والده السلطان محمود الثاني ، غير أن الصعاب التي صادفها كانت أقوى منه ، وكان تباطؤه وتخبطه في مواجهتها من العوامل الرئيسية التي أدت إلى تصعيدها . وكان أبرز مثال لهذا التباطؤ وذلك الخبط موقفه من المشكلة اللبنانية .. فقد حاول علاجها بثلاث أنظمة متلاحقة .. كانت الأولى بعد انحسار الحكم المصري لبلاد الشام إبان الأزمة (١٨٣٩-١٨٤١) فقد حاول إدخال للحكم العثماني المباشر في جبل لبنان . ولما فشلت التجربة نتيجة تناسر الطوائف الدينية وديسانس الدول الأوروبية ، أدخل عبد المجيد سنة ١٨٤٥ نظام «القائمقاميتين» أي قائممقامية الموارنة في الشمال وقائمقامية الدروز في الجنوب . وقد أخفق هذا النظام منذ سنة ١٨٥٨ بإعلان قيام جمهورية الفلاحين ، ثم تصاعدت الأزمة إلى ذروتها بمذابح سنة ١٨٦٠ . وكانت المحاولة الثالثة والأخيرة التي قام بها السلطان عبد المجيد هي

إدخال الحكم الذاتي سنة ١٨٦١ في جبل لبنان ، وهو النظام المعروف تاريخياً باسم «نظام المنصرفية» .

دراسة تحليلية للقانون الاساسى لحكم جبل لبنان :

إن الدراسة التحليلية للقانون الاساسى الصاندر فى ٩ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٦١ لحكم جبل لبنان تكشف عن عدة حقائق، نجمت عن تدخل الدول الأوروبية فى الشؤون الداخلية للحكومة العثمانية ، نذكر منها :

أولاً : انتصرت فرنسا انتصاراً كبيراً بإيجاد سلطة واحدة ومسيحية فى جبل لبنان بدلاً من سلطين إحداهما للموارنة والأخرى للدروز . وجعلت هذه السلطة الواحدة والمسيحية مستقلة عن والى صيدا وعن والى دمشق ، ومرتبطة رأساً بحكومة إستانبول على قدم المساواة مع أى ولاية أخرى مجاورة لها، وتمتاز عنها بما تقرر لها من ضمانات دولية تجعلها بمنأى عن أى تصف أو ظلم . وجدير بالذكر أن الحكومة الفرنسية عارضت بكل عنف المشروع البريطانى، الذى كان يقوم على إنشاء منصب حاكم عام مسلم فى الجبل تعتمد بريطانيا فى ظل هذا المنصب على الدروز . وكان الباب العالي يميل إلى المشروع البريطانى ، وإذا كانت الحكومة للفرنسية قد نجحت فى معارضة الحكومة البريطانية والباب العالي فى هذا الصدد، إلا أنها غلبت على أمرها فى شأن عدم النص فى القانون على أن يكون المتصرف المسيحى من الموارنة أو أحد أهالى الجبل . وكان سفراء الدول فى إستانبول يرون أن حاكم الجبل يجب أن يكون كاثوليكياً ، وكتب هنرى بلور Bulwer السفير البريطانى إلى جون رسل وزير الخارجية البريطانية «لم يذكر فى القانون نص على أن المتصرفى يجب أن يكون من أهل الجبل أم لا . ولكن المتفق عليه ألا يكون الحاكم العام من أهالى الجبل ، ومن المرجح أنه سيكون كاثوليكياً» .

ثانياً : كان منح داود باشا رتبة «مشير» ، وهى أرفع رتبة لموظف مسيحى فى الدولة ، قد أضفى عليه مركزاً متميزاً عن سائر اللواة . وإذا كان تعيينه متصرفاً فى جبل لبنان قد صادف ارتباطاً عميقاً فى الدوائر المسيحية فى إستانبول ، فإن منحه رتبة «مشير» كان له أثر سىء فى الدوائر الإسلامية، فقد أصبح مساوياً لمركز جميع حكام الولايات العثمانيين، ويسبب الحق المخول له فى الاتصال المباشر بحكومة إستانبول .

ثالثاً : إن سلطات متصرف جبل لبنان أصبحت أوسع مما كانت عليه سلطات أسلافه حكام الجبل ، فكان له حق تعيين جميع الموظفين الذين يعاونونه فى الحكم . وتأسيساً على مسؤوليته عن توطيد الأمن والنظام ودعائم الحكم ، جمع بين يديه السلطة العسكرية ، وسواء لجأ فى الظروف العادية إلى قوة الشرطة المحلية «الضبطية» ، أو لجأ فى الظروف

الامتثالية إلى طلب مساعدة الجيش العثماني النظامي .. فإنه يحتفظ في كلتا الحالتين بالقيادة العليا ، وبذلك تكون وحدة السلطة المسيحية التي دعمتها فرنسا - سواء في جلسات اللجنة الدولية ببيروت أو في جلسات المؤتمر الدولي في إستانبول - قد أحرزت انتصارات لا يستهان بها خففت من إخفاقها في النص على أن يكون المتصرف من الموارنة .

رابعاً : قرر القانون الأساسي حق للدولة العثمانية في أن يحتل الجيش العثماني النظامي الطرق الحيوية بين الجبل وخارجة . وقد ثار حول هذا الموضوع نقاش عنيف، دافع فيه السفير البريطاني هنري بلور دفاعاً مجيداً عن حق الدولة العثمانية في حماية الطرق التي تصل بين أجزاء السلطة ، وكانت أسانيد قوية ، فهو مع تسليمه بمنع الفرق العثمانية النظامية من المراقبة في منطقة الجبل منعاً لإيذاء مشاعر السكان وحفاظاً على المركز الأدبي Le Prestige لحكومة الجبل في نظر الأهالي .. فإنه من الظلم أن تأخذ الدولة العثمانية على عاتقها مسؤولية المحافظة على سلامة ممتلكاتها، وتكر عليها الوسائل العادلة التي تؤدي إلى تحقيق هذه الغاية ، لاسيما وأنه لا توجد في منطقة الجبل سوى قوة شرطة محلية لا تستطيع مواجهة المواقف الحرجة في الظروف الاستثنائية . وكذلك كان يبدو أنه من السخف الاعتراض على الوسيلة الفعالة، التي تستطيع الدولة العثمانية الاعتماد عليها في تأمين مصالح التجارة وضمان حرية وسلامة المرور بين ساحل البحر المتوسط والمناطق الداخلية .

خامساً : حالت الجبهة العثمانية البريطانية بين فرنسا وتوسيع حدود منطقة الجبل وإدعاء حدوداً تاريخية له .. فلم يتضمن القانون الأساسي نصاً على تطبيقه على بيروت أو البقاع أو الإقليم الساحلي الذي يسكنه المسلمون مثل طرابلس وصيدا وصور ، فقد ظلت هذه المناطق خارجة عن حدود المتصرفية (١).

سادساً : على الرغم من أن القانون الأساسي لم ينص على منع رجل لبناني من شغل منصب المتصرف .. فإن جبل لبنان لم يحكمه في الفترة كلها حتى قيام الحرب العالمية الأولى رجل لبناني أو من أصل لبناني ؛ تجلباً للشحناء والبغضاء والمنافسة التي يمكن أن تنشأ بسبب ذلك (٢) .

وقد تعاقب على حكم جبل لبنان المتصرفون الآتية أسماؤهم خلال الفترة من بدء تنفيذ قانون الحكم الأساسي حتى قيام الحرب العالمية الأولى :

(١) نكتور أحمد طربين : أزمة الحكم في لبنان (١٨٤٢-١٨٦١) ، دمشق ، ١٩٦٦ ، ص ٢٦٢-٢٦٩ .

(٢) نكتور نقولا زيادة ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٧ .

- (١) كارابيت أرئين داود باشا ١٨٦١-١٨٦٨ .
- (٢) نصرى فرانكو باشا ١٨٧٣-١٨٦٨ .
- (٣) رسن مارينى باشا ١٨٨٣-١٨٧٣ .
- (٤) واصه باشا ١٨٩٢-١٨٨٣ .
- (٥) نعرم باشا ١٩٠٢-١٨٩٢ .
- (٦) مطفر باشا ١٩٠٧-١٩٠٢ .
- (٧) يوسف فرانكو باشا ١٩١٢-١٩٠٧ .
- (٨) أوهانس قيوميان باشا ١٩١٢-١٩١٥ (١) .

سابعاً : أدى هذا القانون إلى رسوخ قدم الطائفية فى جبل لبنان ، حين أوجد الباب العالى والدول الأوروبية للخمس بإصدار هذا القانون للتمثيل للطائفى فى مجلس الإدارة المركزى والمحكمة ؛ فساعد على تمزيق وحدة اللبنانيين بجعل المنازعات الطائفية تطفو على شتى نواحي الحياة اليومية المدنية . وكان هذا القانون سبباً فى هبوط مكانة الدروز بعد إسقاط امتيازاتهم الإقطاعية ، التى كانوا مدينين لها باستقلالهم تجاه إستانبول وبمركزهم الاجتماعى والعسكرى المرموق فى الجبل . وقد لجأ مايقرب من ألفين منهم إلى حوران ، وفقدوا قائمقاميتهم ، وأصبحوا تابعين لحاكم مسيحى ، وشرذ زعماؤهم ومات بعضهم فى المنفى ، ونظروا إلى متصرف لبنان على أنه مسيحى قبل كل شئ ، وعلى أنه شخص مساير وممالئ ممن تحج بهم دولر إستانبول .

أما الموارنة .. فقد ساءهم ألا يكون المتصرف من بينهم ، وكان أكثر ماضايقتهم أنهم يشكلون أغلبية عددية وكان لهم قبل ذلك أكبر القائمقاميتين ، فإذا بالقانون الجديد يضعهم على قدم المساواة مع أقل الطوائف الجبلية عدداً . وكان صدورهم مطوية على اللحقد على الدروز الفارين إلى حوران ، والذين كانوا يهددون بمواصلة للنضال (٢) ، وازداد التباعد بين المسلمين والمسيحيين .

وفى اليوم ذاته الذى صدر فيه القانون الأساسى لحكم جبل لبنان ، استقال من منصبه يوسف كرم وكيل قائمقامية الموارنة ، بعد أن أمضى فى هذا المنصب زهاء سبعة أشهر كانت مليئة بالأزمات السياسية ، وصدر بعد ذلك قرار بتعيين أرئين باشا متصرفاً لجبل لبنان . فكان أول متصرف يتقلد هذا المنصب فى ظل النظام الجديد ومنح رتبة «المشير» . ولم يكن من

(١) المرجع السابق ، ص ١٢١ .

(٢) نكتور أحمد طريبن : لبنان منذ عهد المتصرفية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ .

الموارنة ولكنه كان كاثوليكيًا على منذهبهم الديني ، وكان ذا ثقافة فرنسية ومتخرجاً في كلية الحقوق كما ذكرنا . وقد وصل داود باشا إلى بيروت في أوائل شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٦١ واحتفى به فؤاد باشا وقدمه إلى ممثلي الدول ، ثم سلمه فرمان تعيينه في حفل كبير ، أقيم في ضواحي بيروت ، ثم رافقه إلى دير القمر مقره الرسمي حيث استقبل المتصرف زعماء البلاد ووجهاءها وأخذ يباشر مهام منصبه .

وفي سنة ١٨٦٤ تقرر إطالة مدة بقاء المتصرف في منصبه من ثلاث سنوات إلى خمسين سنين ، وصدرت في العام ذاته (٦ من سبتمبر - أيلول - ١٨٦٤) تعديلات طفيفة على قانون سنة ١٨٦١ ، منها جعل المناطق التي ينقسم إليها الجبل سبعة بدلاً من ست مناطق . وأضيفت مادة جديدة تنص على أنه لا يجوز للأماكن الإكليريكية كالكنائس والأديرة وما إليها أن تأوي إليها من تتبعهم النيابة العامة ، سواء كانوا من رجال الدين أو العثمانيين (١) . وفي سنة ١٨٦٨ زيدت مدة شغل منصب المتصرف مرة أخرى من خمس سنوات إلى عشر سنين (٢) ، وقد ظل هذا النظام معمولاً به حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، فأوقفت الدولة العثمانية العمل به واحتلت القوات العثمانية جبل لبنان إلى انتهاء الحرب . وفرضت فرنسا نفسها دولة منتدبة على سورية ولبنان ، ووضعت للحكومة الفرنسية دستوراً جديداً للبنان .

مذابح جدة

وقبل أن تنتقل إلى مذابح الأرمن نمر مروراً سريعاً على مذابح دينية وقعت بين المسلمين والمسيحيين في ثغر جدة في إقليم الحجاز ؛ مما أدى إلى إيجار سفينة حربية بريطانية قصفت مدافعها المدينة إرهاباً للمسلمين في هذا الثغر . ولم تغادر السفينة مياه جدة إلا بعد تنفيذ أحكام الإعدام في المسلمين ، الذين اتهموا بالاشتراك في هذه المذابح التي وقعت على عهد ذات السلطان عبدالمجيد الأول سنة ١٨٥٨ إبان المشكلة اللبنانية .

كانت تقيم في جدة جاليات أوروبية مسيحية كثيفة العدد ؛ إذ كان ولا يزال يسمح فيها بإقامة المسيحيين على خلاف المدينتين المقدستين - مكة المكرمة والمدينة المنورة - فكانت بالتعبير الدبلوماسي الحديث العاصمة السياسية لإقليم الحجاز . وكانت مقراً لدور القنصليات الأوروبية ، وتعيش فيها جاليات مسيحية متعددة الجنسيات يعمل أفرادها في مؤسسات تجارية بمثابة وكلاء للشركات والمصانع الأوروبية . ولما أصدر السلطان عبدالمجيد الأول الخط

(١) نشر الدكتور أحمد طربين النص الكامل لقانون سنة ١٨٦٤ في كتابه لبنان من عهد المتصرفية إلخ ، ص ٢٨١-٢٨٨ .

(٢) انظر البروتوكول الصادر في ٢٨ من يوليو - تموز - سنة ١٨٦٨ بتعيين فرانكو نصرى باشا موقعاً عليه من فؤاد باشا وسفراء الدول الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٢٢٥-٢٢٦ .

الهامايوني سنة ١٨٥٦ ، مقررًا المساواة بين المسلمين والمسيحيين كان مثار استياء المسلمين الذين شعروا باستعلاء المسيحيين عليهم . ونشب في شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٥٨ نزاع بين الطرفين من سكان جدة ، انقلب إلى مذابح دينية وأصيب قنصل بريطانيا وزميله قنصل فرنسا وسكرتير القنصلية الفرنسية ، كما قُتل زوجة القنصل الفرنسي ونهبت المحلات التجارية الأجنبية ودمرت مبانها .

ذاعت أنباء هذه المذابح والاضطرابات في أوروبا التي استنكرتها ، ورمت المسلمين بالتعصب الديني والتخلف ، واتهمت الدولة العثمانية بالعجز عن الضرب على أيدي السفاحين واللصوص ، وعمدت إلى تذكيرها بأفضال أوروبا عليها حين وقفت بريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول في حرب القرم ، إلى جانبها ضد الروسيا . وأرسلت بريطانيا وفرنسا مذكرة مشتركة إلى الباب العالي ، تبلغانه أنهما قررا إرسال سفنهما الحربية إلى جدة للتدخل وحماية الجاليات المسيحية فيها .

كانت جدة تابعة لولاية مكة المكرمة^(١) ، وكان في مكة حاكمان أحدهما شريف مكة عبدالله بن محمد بن عون ، وكان من اختصاصاته الإشراف على شئون الحج والنظر في قضايا العشائر . وكان الحاكم الآخر هو والي الحجاز ، ويعين من بين كبار رجال الجيش العثماني ليجمع بين سلطة الولاية مع قيادة العسكر . وكان نامق باشا يشغل هذا المنصب وقت وقوع المذابح والاضطرابات ، فأسرع إلى جدة على رأس قوة عسكرية وقبض على القتلة وقدمهم للمحاكمة وصدرت أحكام بإعدامهم ، ولكن لم يكن في مقدور نامق باشا تنفيذ أحكام الإعدام ، إلا بعد إرسالها إلى إسطنبول للحصول على تصديق الباب العالي عليها ، ثم تعاد إليه الأوراق لتنفيذ أحكام الإعدام ، وكان من الطبيعي أن تستغرق هذه الإجراءات وقتاً طويلاً .

وكان الباب العالي من ناحية أخرى قد أرسل قائداً عثمانياً هو إسماعيل باشا ، على رأس قوة عسكرية للإسهام في إخماد الفتنة الدينية ومجازاة القتلة والحكم عليهم بالإعدام وتنفيذ الأحكام فوراً ، دون انتظار تصديق سلطات إسطنبول عليها كما يقضى القانون العثماني . وتعمرت القوة العثمانية في طريقها إلى جدة ، ورد فؤاد باشا وزير الخارجية العثمانية على المذكرة المشتركة لبريطانيا وفرنسا بيلفهما بالإجراءات التي اتخذها الباب العالي ، وأبدى استعداداً الحكومة العثمانية لدفع تعويضات لمن أضرروا في الأحداث ، وقرر أن حكومته تقبل اشتراك مندوبين إنجليز وفرنسيين في تقدير التعويضات .

وكانت الحكومة البريطانية أسرع في تحركها من غيرها ؛ فوصلت سفينة بريطانية حربية اسمها سيكلوب إلى ميناء جدة قبل وصول إسماعيل باشا ، وطلب قائد السفينة من نامق

(١) كانت جدة تتبع أول الأمر إيالة حيش .

باشا وإلى مكة المكرمة - والذي كان لا يزال موجوداً في جدة- تنفيذ أحكام الإعدام فوراً . وأمهله أربعاً وعشرين ساعة لإجابة طلبه ، فإذا انتهت المدة دون إعدام المحكوم عليهم، فإنه سيصدر أوامره بأن توجه مدافع السفينة قذائفها لضرب ثغر جدة . وعبثاً حاول باشا إقناع قائد السفينة بأن القانون العثماني لا يجيز تنفيذ أحكام الإعدام ، إلا بعد تصديق الباب العالي، وأنه أرسل الأحكام فعلاً إلى إستانبول وهو ينتظر إعادتها إليه بين يوم وآخر مشفوعة بالتصديق عليها . ولما انتهت المهلة المحددة ، تعرض ثغر جدة لقصف مدافع السفينة البريطانية ساعات طوالاً، فدمرت المنازل وسفكت دماء بريئة وأحرقت المنشآت، وصل بعدها إسماعيل باشا فتوقف الضرب . ولولا وصوله لدمر ثغر جدة عن آخره ، ونزل الجنود البريطانيون إلى جدة وكانت قد انتشرت في أرجائها القوة العثمانية المرسلة مع إسماعيل باشا . وسبق المحكوم عليهم بالإعدام ونفذت فيهم الأحكام فوراً ، وعاد الجنود البريطانيون إلى سفينتهم التي غادرت ميناء جدة ، ولم يجد قائد السفينة الحربية البريطانية سبباً لبقائه في جدة بعد أن نفذ وعيده .

ويقول زعيم مصر السياسي مصطفى كامل باشا في تعليقه على قيام السفينة الحربية بضرب جدة إن بريطانيا قد تناست للخدمة الجليلة التي أسداها إليها هذا السلطان - عبدالمجيد الأول - بناء على رجاء للحكومة البريطانية في أثناء الثورة العارمة ، التي اشتعلت في الهند في شهر مايو - آيار - من للعام السابق (١٨٥٧)، واستطالت إلى شهر ديسمبر كانون أول - سنة ١٨٥٨ وزعزعت أركان الحكم البريطاني في الهند، وقررت الحكومة البريطانية بعد إخماد الثورة لإلغاء شركة الهند لسوء تصرفها ؛ إذ وجه نداء إلى المسلمين في الهند بصفتهم خليفة الإسلام يطلب منهم الإخلاء إلى السكينة . ومضى يقول في تعليقه ومعلوم أن المسلمين في الهند أقوياء، ولهم شأن عظيم وكلمة نافذة ، وكلهم يحترمون خليفة الإسلام ويجولونه أعظم إجلال . فلما وصل إليهم منشور جلالته وضعوه على رؤوسهم وعملوا بما أمرهم به ، فألقوا أسلحتهم . وانتهت بذلك الثورة ، وتوطدت سلطة الإنجليز في الهند بعد اضمحلالها^(١) .

(١) مصطفى كامل باشا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

وانظر بخصوص هذا الموضوع أيضاً كلّا من :

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٣٠-٣٣١ .

الفصل الثالث عشر

عيوب الدولة العثمانية (٤)

مذابح الأرمن وقضيتهم (١)

الموقع الجغرافي والسطح والمناخ :

تقع أرمينية في غربي آسيا ، وهي بلاد جبلية مترامية الأطراف تحد غرباً بآسيا الصغرى ، وتحدها شرقاً هضبة أنزبيجان والساحل الجنوبي لبحر الخرز (قزوين) ، وتحدها من الشمال البلاد الواقعة على سواحل بحر قزوين (١) وبلاد القوقاز . ويحدها من الجنوب السهل الشمالي الغربي من بلاد الجزيرة - البلاد الواقعة في حوض دجلة الأعلى والزاب الأعلى - ومن ثم تقع أرمينية بين خطي طول ٣٧ ، ٤٩ شرقاً ، وخطي عرض ٣٧ ، ٤١ ، ٥ شمالاً . والجزء الأكبر من أرمينية تسوده عدة هضاب صغيرة تفصلها سلاسل من الجبال الكبيرة والصغيرة تمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي ، وتمتاز بخلوها للنام من الغابات . أما الهضاب الغنية بالمراعى الواقعة بين تلك السواحل فيتراوح ارتفاعها بين ثمانمائة متر وألفي متر (٢) ، وتقدر مساحة أرمينية بثلاثمائة ألف كيلو متر مربع .

وأرمينية بلاد الأنهار العظيمة التي تنساب في جميع الجهات ، وأشهرها الدجلة والفرات . ويتكون الفرّات من اتحاد نهرين هما : قره صو الغربي (أو الشمالي) (٣) ، ومراد صو الشرقي (أو الجنوبي) (٤) ، وكلاهما يبدأ من الهضاب الداخلية القريبة من أرضروم بایزید ، أما نهر دجلة فينبع من الجبال الواقعة في الحدود الجنوبية الأرمينية . وكما يروى دجلة والفرّات البلاد الممتدة حتى الخليج العربي (الفارسي) ، كذلك يروى نهر الرس (٥) الذي ينبع من جبال بيك كول داغی البلاد الممتدة نحو بحر قزوين ، ويتصل بنهر الكر Kyras بالقرب من هذا البحر . ويفصل القوقاز عن أرمينية وادی نهر الكر الذي تتجمع فيه مياه أرمينية الشمالية الشرقية ، ويسير بمحاذاة نحو الشمال نهیر ریونه الذي يصب في البحر الأسود .

(١) تسمى اليوم جانيق ، ولازستان .

(٢) هضبة مايزید وأرضروم ١٨٨٠ متراً ، هضبة قارص ١٨٠٠ متر ، وادی مراد صو القريب من موش ١٤٠٠ متر ، أرزنجان (يفتح آلاف وسكون الرء ، وكسر الزای وسكون النون) ١٢٠٠ متر ، إریوان ٨٥٠ متراً .

(٣) يسمى بالعربي نهر الفرّات .

(٤) يسمى بالعربية أرسناس (يفتح آلاف وسكون الرء ويفتح السين) .

(٥) يفتح الرء وتشديد السين .

والأنهار العظيمة التي تخترق الجبال في أرمينية في كثير من المواطن تهين مفاذ سهلة لمجاري المياه . وأهم بحيرات أرمينية هي : بحيرة قان (١,٥٩٠ متراً) ، ويسمى مؤرخو وجغرافيو العرب أيضاً خلاط^(١) أو أرجيش ، وبحيرة كوك جاي^(٢) .

ومناخ أرمينية قارى بصفة عامة ، وهو بذلك يختلف عن المناخ الدافئ لحوض نهر الفرات الأسفل والمناخ المعتدل للأقاليم الواقعة على سواحل البحر الأسود . ويستمر الشتاء طوال ثمانية أشهر كاملة في هذه الهضاب . أما الصيف القصير الحار فلا يزيد عن شهرين ، وهو شديد الجفاف لاتنبت فيه المزروعات إلا قليلاً وبلاستعانة بوسائل الري الصناعي . وهذا الجفاف الشديد يجعل منطقة الطلوج في أرمينية للشرقية على ارتفاع أربعة آلاف متر ، فلا يكسو الثلج ، والحال هذه ، إلا قمم جبال أرارات الكبيرة وجبال الأغوز . على أن منطقة الثلج الدائم هذه لا يزيد ارتفاعها عن ٣,٣٠٠ متر في الجبال الواقعة إلى الجنوب الممتدة إلى كردستان . وتمتاز قمم جبال بيك كول داغي عن سائر جبال أرمينية الوسطى بأن الثلج يكسوها دائماً . أما سهول نهر الرس فتختلف كثيراً عن بقية بلاد أرمينية من ناحية المناخ، فهي تمتاز باعتدال حرارتها .

ثرواتها المعدنية والصناعية والزراعية :

وأرمينية غنية بثرواتها المعدنية ؛ إذ يكثر فيها على وجه الخصوص النحاس والفضة والزنك والحديد والرصاص والزرنيخ وحجر الشب والكبريت ، كما تشتهر بصناعة النسيج والصباغة وأشغال المخزرات والتطريز . وكانت ديبيل^(٣) مركز هذه الصناعة ، وكان يصنع فيها بوجه خاص أثمن المصنوعات الخشبية ، كما كان يصنع فيها السجاد والمنسوجات والثياب الحريرية السمكة المختلفة الألوان الموشاة بالزهور ، التي كانت واسعة الزواج في داخل أرمينية وخارجها . وكان الأرمن يستخرجون مادة الصباغة من حشرة تعرف باسم القرمز^(٤) . واشتهر السجاد الأرمني مدة طويلة بأنه أرقى السجاد صناعة وصباغة . وكانت مدينة أردشاط الواقعة على بعد بضعة كيلو مترات من ديبيل ذات شهرة واسعة في الصباغة ، حتى سماها البلاذري «قرية القرمز» .

وكان السمك يكثر في بحيراتها وأنهارها ويصدر إلى الخارج مملحاً . وكانت تصاد من

(١) بكسر الفاء .

(٢) تسمى أيضاً سيونسك (بكسر حرفي السين والواو ، وفتح حرف النون ، وسكون حرف السين) . وقد نكرها جغرافيو المسلمين سنة ٧٤٠هـ (١٣٤٠م) باسم لوك جاي نكر أي البحيرة الزرقاء .

(٣) بفتح الدال وبكسر الباء والياء .

(٤) بكسر القاف وسكون الراء وبكسر الميم .

بحيرة فان بنوع خاص كميات كبيرة من السمك المعروف باسم «الطريخ»^(١) عند العرب . وكان هذا السمك في العصور الوسطى يملح ويصدر إلى جهات بعيدة كالهند . ولا يزال الناس في أرمينية وآذربيجان وبلاد القوقاز والأناضول يستطيعون هذا السمك المملح ، وكانت الغلال تزرع بوفرة وقصد إلى الخارج كبغداد .

التجارة :

كان لأرمينية في العصور الوسطى شأن اقتصادي هام ، تأسيساً على أنها كانت مرحلة من مراحل التجارة العابرة بين البحر الأسود وبلاد ما بين النهرين (العراق) ، كما كانت حداً بين الدولة البيزنطية والأجزاء الشرقية من دولة الخلافة الإسلامية العربية . ولارب في أن العدد الصغير من التجار والقوافل التي كانت تخترق أرمينية قد أسهم في تقدم الصناعة بها ، فضلاً عن أن الثروة الطبيعية في أرمينية كان لها دور عظيم في نمو تجارتها وازدهار صناعاتها . وتتضح أهمية أرمينية من الوجهة التجارية بكونها مكاناً يتخللها من طرق التجارة بين أجزائها ، وقد أسهب جغرافيو العرب في وصف هذه الطرق . ولكن العرب قد أقفصوا في وصف هذه الطرق ، لأنها كانت من الوجهة للحربية أكثر أهمية عندهم من الوجهة التجارية . ولهذا فإنهم جعلوا كل الطرق المهمة تتلقى في ديبيل ، وهي الحصن الحصين الذي كان العرب يشرفون منه على البلاد . وكان من أهم واجبات الولاة المسلمين في أرمينية الإشراف على سلامة تلك الطرق ؛ خاصة في الولاية التي تجاوز بلاداً معادية . وظلت أرزن الروم (أرضروم) ، باعتبار أنها ملتقى طرق كبيرة ، مركزاً حروبياً هاماً ومفتاحاً لآسيا الصغرى كلها .

وكانت أرمينية تتصل ببلاد الدولة البيزنطية عن طريق طرابزون^(٢) وكان هذا الثغر ، الذي يقع على الساحل الجنوبي للبحر الأسود من ناحية الشرق ، أهم مستودعات التجارة البيزنطية وخاصة للمسوجات النفيسة . وكان يؤم أسواق هذا الثغر والتي كانت تعقد عدة مرات في السنة تجار كثيرون من أنحاء العالم الإسلامي ، وكانت البضائع تنقل عادة من طرابزون إلى ديبيل ومنها إلى أرزن الروم ، وكانت الدري^(٣) أهم سوق للتجار الأرمن في فارس ، وكان هؤلاء التجار على صلة مباشرة بالأعمال التجارية في بغداد .

الفتح العثماني لأرمينية :

فتح العثمانيون القسم الغربي من أرمينية في العقد الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي على عهد السلطان أبي يزيد الأول (١٣٨٨-١٤٠٣ م) ، ثم فتحوا القسم الشرقي من

(١) بكسر الطاء .

(٢) يرد ذكر هذا الثغر في بعض المراجع الحديثة أطرابزنده أو طرابزين .

(٣) بفتح الراء وتشديد الباء .

أرمينية في القرنين التاليين أيام السلطان محمد الثاني أبى الفتوح (١٤٥١-١٤٨١) والسلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) إبان الحملة، التي قام بها السلطان الأخير ضد الشاه إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية في فارس . وقد ظل الجزء الأكبر من أرمينية في حوزة العثمانيين مايقرب من خمسة قرون ، وكانت مقسمة إلى ست ولايات ، يطلق عليها «ولايات سته» ، وكان يسكنها الأرمن ، وهى :

- (١) بدليس أو بتليس Bitlis (بالتناوب هى وموش) .
- (٢) أرزن الروم ، وتسمى حديثاً أرضروم ^(١) .
- (٣) معمورة العزيز ، ويرد ذكرها فى بعض المراجع «خربوت» .
- (٤) فان ، ويرد ذكرها فى بعض المراجع «وان» .
- (٥) جزء من ديار بكر . ولم تشمل هذه الولاية صنجقية مرعش، التي كانت جزءاً من ولاية حلب السابقة أو ولاية أطنه فيما مضى (وهى كيليكيا - قيليقية - أو أرمينية الصغرى بالمعنى اللغضى الدقيق) . ^(٢) سيواس .
- (٦) وأهم مدن أرمينية العثمانية سيواس وبلغ عدد سكانها سنة ١٨٩٧ مايقرب من ٤٣,٠٠٠ نسمة ، وأرضروم وبلغ عدد سكانها ٣٨,٩٠٠ نسمة ووان ، وأرزنجان وبلغ عدد سكان كل منهما ٣٠,٠٠٠ نسمة ، وبدليس (٢٠,٠٠٠ نسمة) ، وخربوت ، وموش ، ويايزيد .

حسن معاملة السلطان أبى الفتوح للأرمن :

وبعد أن فتح السلطان محمد الثاني أو أبى الفتوح القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، استدعى إليها أسقف بروسة الأرمنى ، واسمه يواقيم ، وأقامه فى إستانبول بطريكاً للأرمن يتمتع بالحقوق ذاتها المقررة لبطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية (اليونانية) . وقررت الحكومة العثمانية أن يكون مقر إقامة بطريرك الأرمن فى حى «قوم قابى» أحد أحياء إستانبول ، وكان للبطريرك ينتخب من بين الأحرار الذين يطون فى المرتبة الأساقفة العاديين ، ويسمون «المارخصة» ومعاها «القسيسون القديسون» ^(٣) ، وكان يعين على البطريرك الأرمنى أن يؤدى إلى الدولة ضريبة سنوية مقدارها ألف دوكة ^(٤) .

(١) انظر ثبت المصطلحات التركية فى نهاية هذه الدراسة .

(2) Streck; Encycl. of Islam, Art. Armenia.

(٣) انظر ثبت المصطلحات التركية فى نهاية هذه الدراسة .

(٤) بريكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم . تعريب دكتور نبيه أمين فارس مدير البعثى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ١١٥ .

السلطان عبدالعزيز يمنح الأرمن حكماً ذاتياً محنوياً :

وقد منح السلطان عبد العزيز في سنة ١٨٦٣ الأرمن نوعاً من الحكم الذاتي، جعل المسائل الأرمنية من اختصاص مجلس وطني عام، يجتمع مرة كل سنتين في إسطنبول برئاسة البطريرك الأرمني، مع وجود مجلسين صغيرين أحدهما للمسائل الدينية وكان أعضاؤه من القساوسة الأرمن، والآخر للمسائل المدنية وأعضاؤه من المدنيين^(١). وكانت هذه الأجهزة الثلاثة مع البطريرك والكنيسة الأرمنية الرمز للمجدد للقومية الأرمنية في الدولة العثمانية. وارتفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي للأرمن، وأصابوا نجاحاً ملحوظاً في نشاطهم الاقتصادي المتعدد الصور والأشكال. ففي أعمال الصيارف وتبديل النقود أظهروا مقدرة كبيرة في معاملاتهم مع ولاية الأقاليم والحكومة العثمانية بصفة عامة، وبرزوا في عالم التجارة وخاصة في الأقمشة، وعملوا قادة قوافل تجارية على قدر كبير من النشاط، فأقاموا علاقات بين إسطنبول والبخدان (رومانيا)، وبولندا، ونورمبرج، وبروج، وأنفوس. وكانوا يشتغلون في ميدان الصناعة مهندسي عمارة ونقاشين وطابعين وأسسوا دار طباعة أرمنية في إسطنبول عام ١٦٧٩^(٢).

وتميز الأرمن بأنهم شعب دموبي على العمل، ذوو مهارات شتى في مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والمالية.. اشتغلوا بفلاحة الأرض في المناطق الزراعية، وبالصناعة الدقيقة كالمجوهرات وبالصناعة الكبرى في أرجاء بلادهم واستغلوا الثروات المعدنية في باطن الأرض. وكان لهم نشاط تجاري مكثف بين أرمنية والعالم الخارجي، وضرروا بسهم وأفر في الأعمال المالية ومانفزع عنها من نشاط مصرفي وإدارة شركات مالية واقتصادية وغيرها، ولتشتروا في المدن الكبرى في الدولة العثمانية. وكانوا في إسطنبول في القرن التاسع عشر أكبر منافسين لليونانيين واليهود في الأنشطة التجارية والمالية وغيرها^(٣)، وكانت الجالية الأرمنية في إسطنبول من أكبر الجاليات في العالم ازدهاراً ونشاطاً وثراء.

وتقلد الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام - سواء كان إسلامهم هادفاً أو غير هادف - المناصب القيادية في الحكومة العثمانية. ووصل عدد من هذا الفريق إلى مناصب الصدارة العظمى - رئاسة الوزارة - وإلى مناصب الوزراء^(٤) وحتى الذين ظلوا على ديانتهم المسيحية تبولوا مكاناً عالياً في المناصب الحكومية، فوضعتهم للدولة على رأس بعض المصالح المهمة،

(1) Miller W., op. cit., p. 428.

(2) Deny J., Encycl. of Islam. Art. Armenia.

(٣) كارل بروكلمان، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١١٥.

(٤) نشر ثيت باسماء الأرمن الذين شغلوا المناصب الحكومية، المدنية والعسكرية، في كتاب باللغة الفرنسية سنة ١٩٨٣/١٦٠ عنوانه ==

واشتغل بعضهم في السلكين الدبلوماسي والقمصلي العثمانيين ودخل بعضهم البرلمان بمجلسيه .
وبرزت ظاهرة تقلد الأرمن المناصب القيادية والعليا في الحكومة العثمانية على عهد
التنظيمات (١٨٣٩-١٨٧٦) بوجه خاص، وبدأت بشكل ملحوظ حتى قبل ذلك الوقت حين
أقصت الحكومة العثمانية رعاياها اليونانيين عن المناصب الرفيعة التي كانوا يستأثرون بها .
وقد تم هذا الإقصاء بعد الثورة التي قاموا بها على عهد السلطان محمود الثاني؛ طلباً للاستقلال
التام عن الدولة، وظفروا بهذا الاستقلال بمساعدة الدول الأوروبية الكبرى .

وقد رأينا في الفصل السابق مدى التقدير العميق الذي كان يظفر به الأرمن من الدولة
العثمانية في القرن التاسع عشر، إلى حد أنها اختارت في سنة ١٨٦١ أحد الأرمن الكاثوليك؛
ليشغل منصب «مصرف لبنان، وهو أرثين داود باشا ومنحته رتبة المشير، وهي أرقى رتبة
عسكرية في الدولة تمنح لمسيحي . وقد تعاقب على هذا المنصب الخطير عدد من الأرمن
الكاثوليك، كان آخرهم أوهانسن قبومجيان باشا، الذي شغل هذا المنصب من سنة ١٩١٢ حتى
سنة ١٩١٥ .

نسل المذهب الكاثوليكي إلى بعض قطاعات الأرمن :

تحول أحد الأرمن الأرثوذكس واسمه ميكهيتار Mekhitar إلى المذهب الكاثوليكي في
سنة ١٧٢٧، وأُنشأ مقراً لطائفة كاثوليكية أرمنية وديراً في جزيرة سان لازار Saint Lazare
بالقرب من البندقية، وظفر بمساعدات مالية ودينية من البابوية في روما ومن حكومة
جمهورية البندقية ومن فرنسا . وأخذ هذا الأرمني يرسل تباعاً بعثات تنصيرية إلى الأرمن في
الدولة العثمانية؛ ابتغاء تحويل جموع منهم إلى المذهب الكاثوليكي .

والواقع أن النشاط الكاثوليكي قد بدأ في بعض أنحاء أرمنية في وقت مبكر سابق لزم
ميكهيتار، يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي؛ أي قبل الفتح العثماني لأرمنية بحوالي
قرنين من الزمان ، ثم تبلى قضية الأرمن الكاثوليك مجلس فلورنسه المقدس (١٤٣٨-١٤٤٥)
وبذل بابا روما سكست كانت Sixtes Quint (١٥٨٥-١٥٩٠) جهوداً كبيرة لنشر المذهب
الكاثوليكي سنة ١٥٨٧ بين أرمن الشام ، وقام للجزويت بدور فعال في هذا الصدد . وكان دعاة
المذهب الكاثوليكي يجدون استجابة سريعة بين أثرياء الأرمن وكبار مثقفهم . ولذلك كان

= Realités Exprimées

Par

Les Armeniens Turcs

دقائق يبر عنها الأرمن الأتراك، وقد نشرته جريدة يومية أرمنية تسمى جاماناك Jamanak تصدر في
إستانبول . وقد توجم إلى اللتين الإنجليزية والتركية .
انظر النص الفرنسي ، ص ٤-٥ .

الأرمن الأرثوذكس ينظرون بعين الحقد إلى مواطنيهم الكاثوليك ؛ ونظر البطريرك الأرمني في إسطنبول شذراً إلى رعايا بطريركية الأرمن ، الذين تحولوا إلى المذهب الكاثوليكي وأقام في وجوهم العقبات .

أما السلطات العثمانية .. فكانت تؤيد الأرمن الأرثوذكس وترتاب في أهداف النشاط الكاثوليكي بين الأرمن القاطنين في أراضيها ، وأطلقت على هذا النشاط «المؤامرات الإفرنجية» أي المحاولات التي تبذلها فرنسا والبابوية لتحويل الأرمن إلى المذهب الكاثوليكي . وقد سقط قتلى من الأرمن الأرثوذكس ، الذين رفضوا أن يتحولوا عن مذهبهم سنة ١٧٠٧ على عهد السلطان أحمد الثالث ، ثم وقعت مذابح أخرى بين الأرمن الكاثوليك والأرمن البروتستانت على عهد السلطان مصطفى الثالث ، ثم في سنتي ١٨١٥ ، ١٨٢٨ إبان حكم السلطان محمود الثاني . وكانت الدولة العثمانية تخشى أن تتخذ فرنسا من هذه المذابح والاضطهادات ، التي تقع بين الأرمن ، فرصة للتدخل في الشؤون الداخلية للحكومة العثمانية بحجة حماية الأرمن الكاثوليك .

وتحققت مخاوف الدولة العثمانية حين ولي الأرمن الكاثوليك وجوهم شطربايس ، يلتمسون تدخل الحكومة الفرنسية لدى الباب العالي كي يصدر فرماناً يعترف فيه بالوضع الديني والقانوني للأرمن الكاثوليك . وكان من نتائج تدخل حكومة باريس أن أصدر السلطان محمود الثاني في سنة ١٨٣٠ فرماناً بقيام «ملة كاثوليكية أرمنية» في الدولة العثمانية .

وهكذا نظرت فرنسا إلى الأرمن الكاثوليك على أنهم عملاء لها في الدولة العثمانية ، وعلى أنهم في حماية القناصل الفرنسيين ؛ تأسيساً على أنهم يعتنقون المذهب الكاثوليكي . وكانت فرنسا تعد نفسها حامية للكاثوليك في الشرق العربي الآسيوي من ممتلكات الدولة العثمانية . فكان مركز هؤلاء الأرمن في الولايات العثمانية مشابهاً إلى حد ما لمركز الموارنة في لبنان والذين كانوا ، ولا يزالون ينظرون إلى فرنسا على أنها الأم الحنون للكاثوليك .

مضى سفراء فرنسا لدى الباب العالي يتدخلون لصالح الأرمن الكاثوليك ، فقد نجح دي فيريول de Ferriol في استصدار قرار بدمي بطريرك الأرمن الأرثوذكسي ؛ بحجة أنه يقف موقفاً عدائياً من الأرمن الكاثوليك ، ثم عزل من منصبه ، وألقت السفارة الفرنسية القبض عليه وتم ترحيله إلى فرنسا حيث اعتقل في سجن إلياستيل ، وقد توفي في باريس بعد أن أطلق سراحه . ونجح الجزويت في الوقت ذاته في إغلاق المطبعة الأرمنية . ونجح سفير فرنسي آخر هو جوييمينو Guillemiot في تعيين حسون Hassoun ، الذي كان من قبل نائباً بطريركياً في إسطنبول ، في منصب البطريرك الكاثوليكي الأرمني لمنطقة كيليكيا ، وشمل سلطانه الديني أرمن جميع الدولة العثمانية .

تسلل المذهب البروتستانتي إلى قطاعات أخرى متميزة من المجتمع الأرمني :

وفي أوائل القرن التاسع عشر، وفي الوقت ذاته تقريباً أخذت البعثات التنصيرية البروتستانتية تنحدر بكثرة ملحوظة على الدولة العثمانية من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية. وأصابته هذه البعثات نجاحاً في دخول الأرمن أفواجاً في المذهب البروتستانتي . وتدخلت الحكومة البريطانية سنة ١٨٥٠ لدى الباب العالي، الذي أقر لهم كياناً دينياً وقانونياً؛ مما أدى إلى قيام «ملة أرمنية بروتستانتية» . وكان للبائع للأرمن على اعتناق المذهب البروتستانتي هو أنهم سيكونون في حماية فواصل بريطانية ، كما كان الحال مع مواطنيهم الأرمن الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكي وظفروا برعاية فرنسية . فالجانب السياسي كان أكثر بروزاً من الجانب الديني في مسألة تحول جموع كثيفة العدد، ومن الطبقات المتميزة بثرائها وثقافتها العالية من الأرمن الأرثوذكس إلى أحد المذاهب الكاثوليكي أو البروتستانتي . وكان نظام الامتيازات الأجنبية المعمول به في الدولة العثمانية وقتذاك هو البوابة الكبرى، التي كان يتدخل منها فواصل الدول الأوروبية في الشؤون الداخلية للدولة، تحت ستار حماية معنقى المذهب الرسمي لدولتهم . واعترض البطريرك الأرمني على قيام هذه الملة الجديدة، كما اعترض من قبل على قيام «الملة الكاثوليكية الأرمنية» ؛ لخروج عدة آلاف من الأرمن عن سلطانه الروحي والأدبي والمادي . وزاد من حنقه أن أثرياء الأرمن والصفوة الممتازة من مثقفيهم هم الذين استجابوا سراعاً للدعوة للكاثوليكية والدعوة البروتستانتية . وعلى الرغم من أن عددهم كان ضئيلاً بالنسبة لمجموع الأرمن الأرثوذكس .. إلا أنهم ظهروا كعنصر بارز في المجتمع الأرمني . وقام أفراد الملتين الجدينتين بحركة واسعة لنشر الوعي بين الأرمن بجنسهم وبتراثهم اللغوي والتاريخي؛ مما أدى إلى انتشار الشعور بالقومية الأرمنية ومطالبهم بالاستقلال عن الدولة العثمانية، أو على أقل تقدير قيام حكم ذاتي غير مبتور؛ بحيث يكون الوالى في كل ولاية أرمنية وللحاكم في كل «كازا»، Kaza رجلاً مسيحياً منهم .

بقطة وطنية ذات صبغة ثقافية عثمانية بين الأرمن :

وفي خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، ظهرت بوادر بقطة وطنية ذات صبغة دينية أول الأمر، ثم غلب عليها الطابع العثماني بين الأرمن الكاثوليك والبروتستانت . وكان مرد هذه البقطة إلى البعثات التنصيرية والتعليمية الوافدة من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، وعمل هؤلاء الأرمن على تطوير حياتهم الثقافية وإحياء الدراسات الأرمنية القديمة . واهتموا بنشر الإنجيل باللغة الأرمنية الوطنية بدلاً من اللغة القديمة التي كانت تنتشرها الكنيسة، وعنوا أيضاً ببحث لغة أجنبية تستطيع الجماهير تقبلها وتفهّمها .

(١) الكازا Kaza مصطلح تاريخي معناه قسم إداري أو قسم قضائي، أو إداري وقضائي معاً يتبع صنفية .

وضع أحد الأرمن البروتستانت من أعضاء البعثات التبشيرية ، واسمه الياس رجز -Eli as Riggs كتاباً في قواعد اللغة الأرمنية ، وأعدّه للأرمن الذين لم يكونوا يتكلمون سوى اللغة التركية . وتحول دير ميكهيتار في البندقية إلى مركز للدراسات الأرمنية ، وصدرت سنة ١٨٤٠ جريدة أرمنية اسمها Massis ، تولى رئاسة تحريرها أحد الأرمن في شرقي الأناضول يسمى جرابيد يوتشيان Garabed Utician ، وكان هدفها نشر الآراء السياسية الحديثة عن الحرية والنضال في سبيلها بين الأرمن في الدولة العثمانية . وأرسل كثيرون من أثرياء الأرمن من أفراد الملتين الكاثوليكية والبروتستانتية أبناءهم إلى أوروبا بعامة وفرنسا بخاصة لاستكمال دراساتهم ولاستيعاب الدراسات الحديثة من النوع ، الذي لم يكن موجوداً بعمق إلى ذلك الوقت في معاهدة ومدارس الدولة العثمانية ، وتأثروا بالثقافة الفرنسية والآراء السياسية الحرة . ولما عاد هؤلاء النارسون لم يطالبوا فقط بالإصلاح الجذري في مجتمعاتهم ، بل عملوا على نشر الأفكار السياسية الحديثة في الحكم والإدارة بين مواطنيهم . وفي خلال السبعينيات من القرن التاسع عشر.. انضم فريق من الأرمن إلى جمعية تركيا الفتاة ، وروجوا لفكرة للحكومة التمثيلية سواء داخل نظام الملل أو في المجتمع العثماني . وسرعان ماظهر أثر هذه الاتجاهات ، بالإضافة إلى النهضة الثقافية التي ظهرت بولندرها بين شباب الأرمن الأرثوذكس . وأسفرت هذه العوامل مجتمعة عن تطلعات الأرمن بادية ذى بدء لصبغ حياتهم بصبغة علمانية ، بعيدة عن تأثير الكنيسة وسيطرتها عليهم .

وكان عدد الأرمن الذين طالبوا باستقلال أرمينية استقلالاً داخلياً في نطاق الدولة العثمانية قليلاً أول الأمر ، ولقوا معارضة من الأرمن الأرثوذكس من أصحاب المهن والحرف وبعض الأغنياء ، ومن الموظفين الأرمن الذين كانوا يشغلون مناصب رفيعة في الحكومة العثمانية . وعلى ذلك كان تأثير الأرمن الكاثوليك والبروتستانت محصوراً في طبقة قليلة العدد ولكها تتمتع بثقافة رفيعة ، وقيمت الأغلبية الساحقة من الأرمن الأرثوذكس على ولائها للدولة العثمانية ؛ حفاظاً على أوضاعها الاقتصادية أو مركزها الاجتماعي المرموق .

ظهور الشقاق في صفوف الأرمن :

أدت هذه التطلعات التقدمية من ناحية وردود الفعل المضادة لها من ناحية أخرى ، إلى وقوع الشحناء والشقاق بين صفوف الأرمن على اختلاف مذاهبهم الدينية للمسيحية . وظهر هذا النزاع قبل نشوب حرب القرم وتفاقم بعد هذه الحرب .

ولم تأخذ الدولة العثمانية فيما يختص بقضية الأرمن بالسياسة الميكافيلية «فرق واحكم» والتي يعبر عنها باللغة اللاتينية ^(١) Divide ut regnes ، بل سعت إلى راب الصدع في

(١) يكتب هذا المثل اللاتيني في صيغتين آخرين وهما =

صفوف الأرمن ، وقد تدخل عالي باشا (محمد أمين) وأجبر البطريرك الأرمني على عقد مؤتمر يضم الأرمن من رجال الدين والعلمانيين . ووضع المؤتمر دستوراً أقر إسهام الأرمن العثمانيين في نظام حكم نيابى أى تمثلى . ووافق السلطان عبدالعزیز فى ٢٩ من مارس آذار سنة ١٨٦٣ على هذا النظام وتطور تنظيم الملة الأرمنية فى الدولة العثمانية تحت قيادة نظام مركزى فى إستانبول ، ويمتصنى هذا الهيكل المركزى أنشئ مجلس لكبار رجال الدين الأرمن كانت اختصاصاته مقصورة على المسائل الدينية ، ووجد إلى جانبه مجلس علمانى يختص بجمع الضرائب من الأرمن والإشراف على شئون الصحة والتعليم وشئى المرافق العامة ، ويخضع هذان المجلسان لمجلس عام جديد يتكون من ١٤٠ عضواً ، كان منهم عشرون فقط من رجال الدين مما كفل للمعصر العلمانى الأغلبية . ولما كان معظم أرمن الدولة العثمانية مستوطنين فى شرقى الأناضول ، فقد حدث العكس ؛ إذ كان معظم الأعضاء من بين أثرياء ومثقفى الطائفة الأرمنية فى إستانبول . وكان حق الانتخاب لعضوية مجلس الملة الأرمنية مقصوراً على الأرمن الذين يدفعون نصيباً معيناً من الضرائب .. أما المجالس المحلية الانتخاب يتم فى كل ولاية على حدة ، ويتناول اختصاص كل مجلس محلى المسائل المحلية نفسها التى ينظر خطوطها الرئيسية مجلس الملة الأرمنية العام فى إستانبول . وكان كل مجلس محلى يضم أحد رجال الدين المحليين كممثل دينى للبطريرك الأرمنى ، وقد دل تدخل عالي باشا على حرص الدولة العثمانية فى عهد التنظيمات (١٨٣٩-١٨٧٦) على توفير أسباب الاستقرار وإخبال نوع من الحكم المحلى للملة الأرمنية .

وبلغ من تسامح الحكومة العثمانية مع الأرمن أنها أذنت لهم فى الاشتغال بالتدريس جنباً إلى جنب مع المدرسين العثمانيين والفرنسيين واليونانيين فى المدرسة السلطانية الثانوية التى أنشأتها فى قصر جالاطة فى حى بك أوغلى ، وهو أرقى أحياء إستانبول . كما سمحت الحكومة للتلاميذ الأرمن أن ينتظموا فى عداد طلبة المدرسة ، وأن يتلقوا الثقافة الخاصة بهم إلى جانب الثقافتين العثمانية والفرنسية ، وأن تعين خريجها الأرمن فى المناصب الحكومية والمؤسسات الاقتصادية (١) .

مطالبة الأرمن بتحسين أوضاعهم السياسية :

مع تحسن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ، أشرأت أعناق الأرمن إلى تحسين أوضاعهم السياسية فى نطاق الدولة العثمانية . وقد رأوا أن شعباً مسيحياً فى أوروبا كانت خاضعة للدولة العثمانية ثم ظفرت باستقلالها التام أو الاستقلال الذاتى وتحررت من السيطرة

Divide ut imperes.=

Divide et impera.

العثمانية ، وكانت ريح القومية قد هبت بوجه خاص على الشعوب المسيحية البلقانية الخاضعة للدولة العثمانية منذ أوائل القرن التاسع عشر . واعتقد الأرمن أنهم لا يفلتون حضارياً عن كثير من هذه الشعوب ، ولكن مركز الأرمن كان يختلف اختلافاً جذرياً عن جميع العناصر المسيحية التي خضعت للدولة العثمانية . كان في مقدور اليونانيين والبلغاريين والصرب وسكان الألبانيا وغيرهم أن يطلعوا إلى تأييد الحكومات في لندن وباريس وفيينا وسان بطرسبرج وغيرها من عواصم الدول الكبرى ، وأن يظفروا بمساندتها ومساعدة الشعوب الأوروبية أيضاً بما كانت تقدمه لهم هذه الشعوب من مساعدات مالية وعينية وأدبية . ولكن لم يكن التماس المساعدات السياسية والأدبية والمالية أمراً مستطاعاً بالنسبة للأرمن ، لأن الحكومات والشعوب الأوروبية كانت تبدي اهتماماً ساخناً بقضايا الشعوب المسيحية في أوروبا . أما المسيحيون القاطنون خارج أوروبا فلم تبد الحكومات والشعوب الأوروبية نحوهم إلا قدراً يسيراً جداً من الاهتمام الشكلي ، ولم يكن اهتماماً فعالاً أو مؤثراً . ويستثنى من هذه القاعدة العامة مسألة الموارنة في لبنان؛ إذ كانوا موضع اهتمام عميق من فرنسا لأسباب سياسية ودينية ووصفتهم - كما ذكرنا في الفصل السابق- بأنهم «فرنسيو لبنان» ، والشعب الأرمني شعب مسيحي ولكنه يقطن آسيا .

أسباب ضعف الأرمن سياسياً :

على الرغم من اليقظة الوطنية التي شملت الأرمن في القرن التاسع عشر ، تصانفت عدة عوامل أدت إلى عدم تحقيق كيان سياسي مستقل استقلالاً تاماً أو استقلالاً ذاتياً قائماً بذاته في مواجهة الدول المجاورة الأرمنية ، وهي فارس ، والروسيا ، والدولة العثمانية . ونذكر من بينها أربعة عوامل :

أولاً : الانقسام الديني المذهبي بين الأرمن :

احتدم الصراع الديني بين الأرمن الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت . وقد احتضنت البابوية في روما ، وفرنسا ، والجزويت ، احتضاناً سافراً نشر المذهب الكاثوليكي بين الأرمن القاطنين في أرمينية العثمانية ، وبذلوا جهوداً مكثفة لتحويل أكبر عدد ممكن من الأرمن إلى المذهب الكاثوليكي .

أما الأرمن البروتستانت فكانوا أقلية عديدة وكانوا يجنحون للهدوء ، ولم يحاول أحد للمساس بهم ، إذ كان ينظر إليهم على أنهم في رعاية الحكومة البريطانية . وكانت فرنسا حريصة على عدم توجيه نشاطها الكاثوليكي إليهم ابتغاء المحافظة على علاقات طيبة مع بريطانيا في مسألة الأرمن . بقي أن نذكر أن الأرمن الأرثوذكس كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة بين الأرمن ، وانتشر بينهم الاستياء الشديد من إخوانهم الذين تحولوا عن الكنيسة الأرمنية إلى أحد المذهبين الكاثوليكي والبروتستانتي . ونظروا إلى هذا الانقسام الديني المذهبي

على أنه عامل ضعف وتصدع في المسألة الأرمنية، بدلاً من أن يكون عامل وحدة وتكتل وقوة ليفقروا جميعاً صفاً واحداً متراصاً . وعلى ذلك كان من سوء حظ الأرمن أنهم كانوا من الناحية الدينية المذهبية طوائف قنذا : منهم الأرثوذكس ، ومنهم الكاثوليك ، ومنهم البروتستانت . وكانت روسيا واليونان تناصران الفريق الأول ، وكانت فرنسا والبابوية في روما تقفان إلى جانب الفريق الثاني ، وكانت بريطانيا تؤيد الفريق الثالث . وكانت هذه الدول الأوروبية جميعها تعتمد على عملاء متلكرين في زى بعثات دينية تنصيرية .

ثانياً : التفقيت السياسى لأرمنية :

كان الانقسام الدينى المذهبى للأرمن يدعمه تفقيت سياسى لهم أيضاً بين ثلاث دول كبرى، هى: فارس ، والروسيا ، والدولة العثمانية . وكانت أرمنية الفارسية أصغر الأقسام الثلاثة مساحة ؛ إذ كانت رقعتها تبلغ ٥,٧٧٠ ميلاً مربعاً ، وتشمل عدداً قليلاً من النواحي ، وهى بهذه المساحة الصغيرة نسبياً لاتزيد عن كونها ملحفاً لأرمنية الروسية ، كما أنها من الناحية الإدارية جزء من ولاية آذربيجان . وكانت أرمنية الروسية تشكل الجزء الجنوبى والجنوب الغربى من ولاية ماوراء القوقاز . وتبلغ مساحتها ٣٩,٦١٥ ميلاً مربعاً . ومن أهم مدن أرمنية الروسية باطوم ، وهى ثغر على جانب كبير من الأهمية من الناحيتين الحربية والتجارية، وتقع على الساحل الشمالى الشرقى للبحر الأسود ، وعاصمة الولاية المعروفة بهذا الاسم ، ثم مدن قارص Kars وأردهان ، وأريوان . أما أرمنية العثمانية ، فتبلغ مساحتها ٧١,٧٣٠ ميلاً مربعاً فهى أكبر مساحة من أرمنية الفارسية وأرمنية الروسية مجتمعين . وقد سبق أن تكلمنا عن ملاسبات الفتح العثمانى لأرمنية وتقسيماتها الإدارية .

ثالثاً : مجاورة الأرمن لعناصر مشاغبة في أرمنية العثمانية :

إلى جانب الصراع الدينى المذهبى بين الأرمن وتفتتهم السياسى بين ثلاث دول كبرى، كان من سوء حظ الأرمن فى أرمنية العثمانية أنه كان يجاورهم الأكراد ، وهم عنصر مقاتل شرس ، وكان يجاورهم أيضاً الشراكسة وكانوا على شاكلة الأكراد . كما كان يجاورهم الألبانيين الذين نزع فريق منهم إلى الأناضول فى أثناء وأعقاب الحرب الروسية العثمانية سنتى ١٨٧٧ - ١٨٧٨ ، وكانوا لايقولون فى ضرورتهم عن الأكراد والشراكسة . ففرضت القرى الأرمنية لأعمال العنف من جانب هؤلاء المشاغبين ، إذ كانوا يهاجمون بيوت الفلاحين الأرمن وينهبون متاعهم ومحاصيلهم ويعتدون عليهم، إذا قاوموهم ، معتمدين على بعد الولايات الأرمنية عن إستانبول وصعوبة المواصلات معها . وكانت السلطات العثمانية المحلية فى أرمنية أحياناً ، والحكومة المركزية فى إستانبول حيناً ، نغمض أعينها عن هذه الاعتداءات المنكرة اعتقاداً أن هذا السلوك الإرهابى من جانب الأكراد والشراكسة والألبانيين يؤدى إلى استمرار خضوع الأرمن للحكم العثمانى .

رابعا : أما العامل الأخير فكان يرجع إلى أن الأرمن كانوا يشكلون شعباً مسيحياً يقطن آسيا ، ولم يكن يقطن أوروبا ، فلم يظفروا بمساعدة حكومات وشعوب الدول الكبرى . وقد شرحنا هذه المسألة في الصفحات السابقة .

ظهور قضية الأرمن على الصعيد الدولي :

في تطورات الأرمن نحو الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وبتأثير الدعاية الروسية الواسعة التي قام بها عملاء روسيا في أرمينية العثمانية بمساعدتهم على الحصول على الاستقلال وإنشاء دولة مستقلة لهم في شرقي الأناضول ، انضم الأرمن إلى القوات الروسية في الحرب التي اشتعلت بين الدولة العثمانية وروسيا في سنتي ١٨٧٧-١٨٧٨ . وكان الأرمن يشكلون وحدات قتالية في صفوف الجيش الروسي تشمل ضباطاً وجنوداً وإداريين . وانتهت هذه الحرب بهزائم قاذحة تعد من أشد الكوارث العسكرية هولاً في تاريخ الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر ، وطلب السلطان عبدالحميد الثاني عقد هدنة وقعت في ٣٠ من يناير - كانون ثان- سنة ١٨٧٨ في أدرنة ، حيث بدأت المفاوضات بين المندوبين العثمانيين والروس لعقد معاهدة الصلح . ومالبثت أن انتقلت المفاوضات إلى سان ستفانو ، وهي قرية ساحلية صغيرة على بحر مرمرية تبعد عشرة أميال عن إستانبول ولم يكن يسمع بها أحد من قبل .

قضية الأرمن في معاهدة سان ستفانو :

ذهب إلى قرية سان ستفانو وفد أرمني برئاسة بطريك الأرمن في إستانبول، واسمه نيرس Nerse ، يلتمس تنفيذ الوعود التي كانت الحكومة الروسية قد بذلتها للأرمن كمكافأة لهم على الخدمات التي أدوها للروس في أثناء الحرب . ولكن نكثت الحكومة الروسية بوعداتها ، وهكذا هو شأن الحكومات الروسية جميعها سواء كانت قيصرية أو شيوعية .. فقد رأت الحكومة القيصرية أن مصالحها العليا تتطلب أن يظل الأرمن خاضعين للدولة العثمانية، فيبرون في وجهها المشكلات كل حين وأن، بدلاً من تحريرهم وإنشاء دولة مستقلة لهم قد تكون سبباً في إثارة الأرمن الخاضعين للروسيا ومطالبتهم بالاستقلال، على غرار إخوانهم في أرمينية العثمانية . كما رأت أنه من المحتمل أن يكون تحريرهم باعثاً لعناصر أخرى خاضعة للروسيا على المطالبة بالاستقلال . ولذلك قررت الحكومة الروسية الإبقاء على الوضع السياسي للأرمن في أرمينية العثمانية، وأدرجت في معاهدة الصلح ، معاهدة سان ستفانو ٣ من مارس - آذار - سنة ١٨٧٨ ، المادة السادسة عشرة وقد جاء فيها أن جلاء القوات الروسية عن أرمينية العثمانية وإعادة هذه البلاد إلى الحكم العثماني قد يؤيدان إلى وقوع خلاف بين الحكومتين العثمانية والروسية . ولهذا يتعهد الباب العالي بإدخال إصلاحات طبقاً للاحتياجات المحلية في المناطق التي يسكنها الأرمن ، ويتعهد الباب العالي أيضاً بتأمين للسكان المسيحيين من اعتداءات الأكراد والشراسة .

وقد جاءت الصياغة اللفظية لهذه المادة مشوية بالغموض والتناقض ؛ فالمعنى المستفاد من الفقرة الأولى من هذه المادة أن انسحاب الروس من أرمينية العثمانية أمر غير مرغوب فيه ؛ لأنه يؤدي في قابل الأيام إلى نشوب نزاع بين الحكومتين العثمانية والروسية . والمعنى المستفاد من الفقرة الثانية هو إلقاء الأرمن خاضعين للدولة العثمانية ، التي تتعهد بإدخال إصلاحات لهم وبضمان سلامة السكان المسيحيين في الولايات الأرمنية من اعتداءات العناصر العثمانية مثل الأكراد والشراكسة .

وقد أزيلت المادة التاسعة عشرة من المعاهدة ذاتها هذا الغموض وذلك التناقض ، فقررت أن تتنازل الدولة العثمانية للروسيا - في مقابل خصم جزء من الغرامة الحربية الفادحة التي كانت تعادل أربعة أضعاف إيرادات الدولة - عن أردهان وقارص وياطوم ودوجو أبي يزيد والأراضي الملحقة بهذه المدن حتى جبل صوغانلى ، وكلها واقعة في شرق الأناضول فضلاً عن إقليم دبروجه وجزر نهر الدانوب . وبذلك امتدت الأراضي التي ذهبت إلى الروسية في آسيا إلى شمال بلاد ما بين النهرين - العراق - وشمال الشام وشرقى الأناضول فكان أصعب للروسيا أحد العناصر البارزة في مشكلة الأرمن .

وهكذا خرج الأرمن من معاهدة سان ستفانو وقد تبذرت آمالهم في الحرية والاستقلال . وقد قدر لهذه المعاهدة ألا تجد طريقها للتنفيذ ؛ إذ اعترضت عليها الدول الكبرى وبخاصة بريطانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية . ولم يكن مثار اعتراضها هو العطف على الدولة العثمانية في محنتها أو الاهتمام بقضية الأرمن ، ولكن كان السبب الأساسي هو انفراد الروسية بالمكاسب الهائلة في البلقان والقوقاز ، وانتحلت هذه الدول الذريعة الأزلية ، وهي الإخلال بمبدأ التوازن الدولي ^(١) .

قضية الأرمن في مؤتمر برلين الأوروبي لسنة ١٨٧٨ :

دعت الدول الأوروبية الكبرى إلى عقد مؤتمر لتعديل مواد معاهدة سان ستفانو ، واجتمع المؤتمر في برلين (١٣ من يونيو - حزيران - حتى ١٣ من يوليو - تموز - سنة ١٨٧٨) ، وتعلقت آمال الأرمن بمؤتمر برلين في تعديل وضعهم السياسي على نحو أفضل مما قررتهم لهم معاهدة سان ستفانو . وكونوا وفداً برئاسة الأسقف الأرمني في إستانبول وذهب أعضاء الوفد إلى العاصمة الألمانية وقدموا إلى رئيس مؤتمر برلين ، أوتو بسمارك Otto Bis-march التماساً طالبوا فيه بوضع نظام حكم للأرمن ، يكون على غرار النظام الذي وضع لحكم لبنان ويكون رئيسهم حاكماً مسيحياً ^(٢) ومن الأرمن . ومعنى هذا التماس أنهم ينشدون

(١) انظر في هذه الدراسة ج ٢ ، الفصل السابع .

(2) Miller W.; op. cit., p. 428.

المساعدة من الدول الأوروبية الكبرى المشتركة في المؤتمر؛ أي يتفقون تصعيد قضيتهم إلى أعلى مستوى دولي^(١)، وأنهم معتدلون في مطلبهم، فقد تنازلوا عن مطالبهم الأساسي وهو إقامة دولة حرة مستقلة لهم، فهم يلتمسون إقامة حكم ذاتي في نطاق الدولة العثمانية. وقد رددت الدوائر السياسية وقصدك اسم نويار باشا كأول المرشحين لشغل هذا المنصب بتأييد بريطانيا، مكافأة له على الخدمات الجليلة التي أسداها لها منذ حكم والي عباس باشا الأول ثم على عهد الخديو إسماعيل، على أن يغير اسم منصبه بعد فترة زمنية إلى أمير أرمينية^(٢) توطئة لاستقلالها. وكان نويار من عملاء بريطانيا، وهو الذي اقترح في أبريل - نيسان - سنة ١٨٧٧ على بريطانيا فرض حمايتها على مصر^(٣).

ناقش مؤتمر برلين قضية الأرمن في ثلاث جلسات^(٤)، تعرض فيها بجانب قضية الأرمن لمسائل أكثر أهمية في السياسة الدولية مثل تنظيم مرور السفن في البوسفور والدردنيل والملاحة في البحر الأسود^(٥)، وفي نهر الدانوب، وتعيين حدود رومانيا والصرب وبulgaria، وانسحاب القوات الروسية من الأراضي التي تحتلها في أوروبا وآسيا؛ مما يدل على أن المؤتمر ناقش قضية الأرمن مناقشة جانبية. ولم يأخذ المؤتمر بفضله بسمارك باقتراح الوفاء الأرمني بمنح أرمينية الحكم الذاتي وتعيين نويار باشا حاكماً على أرمينية. ولم يندج تأييد بريطانيا لقضية الأرمن، ومع ذلك فقد كافأته بعد شهر وبعض شهر^(٦)، وقّع المؤتمر بتسجيل وعد

(١) كانت الدول الأعضاء في المؤتمر: بريطانيا العظمى، فرنسا، ألمانيا، النمسا والمجر، روسيا، الدولة العثمانية، إيطاليا. أما الدول الصغرى فلم تمثل في المؤتمر، ولكنها أرسلت وفوداً لتقديم طلباتها، ولكن لم يسمح لأى وفد منها بحضور الجلسات إلا إذا طلب المؤتمر حضوره للاستفهام عن بعض نقاط تفصيلية. ومن هذه الدول والطوائف: رومانيا، والصرب، والجيل الأسود، واليونان، وبلانقتا اليهود والأرمن.

انظر: محمد فريد بك، مرجع سبق ذكره، ص ٤٦٨.

(٢) مصطفى كامل باشا: المسألة الشرقية، مرجع سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٣) لكتور محمد مصطفى صفوت، مؤتمر برلين إلخ، مرجع سبق ذكره، ص ٢-٥ القسم الإنجليزي الفرنسي.

(٤) هي الجلسة الثانية عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة المنعقدة في ٤، ٦، ٨ من يوليو - تموز سنة ١٨٧٨ على التوالي.

(٥) أيدت معاهدة برلين أحكام معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦، ومعاهدة لندن لسنة ١٨٧١ الخاصتين بنظام مرور السفن التجارية والصربية في البوسفور وبحر مرمرة والدردنيل، ونظام الملاحة في البحر الأسود. انظر في هذه الدراسة ج ١، ص ٢٢٦-٢٢٩، ٢٣١-٢٣٢.

(٦) طلبت بريطانيا من الخديو إسماعيل تعيين نويار باشا رئيساً للوزارة المصرية، وأوعزت إلى نويار بقبول المنصب، فصدر قرار من الخديو إسماعيل في ٢٨ من أغسطس - آب - سنة ١٨٧٨ بتعيين نويار رئيساً لجلس النظار ونظراً - وزيراً - للخارجية والعدل. وبقيت هذه الوزارة في الحكم حتى ١٩ من فبراير - شباط - سنة ١٨٧٩. ثم ألف نويار وزارته الثانية في ١٠ من يناير - كانون ثان - سنة ١٨٨٤ على أساس تنفيذ مطلب الحكومة البريطانية بانسحاب الجيش المصري من السودان، وأقيلت الحكومة =

على الدولة العثمانية بأن تدخل الإصلاحات التي تستلزمها حالة أرمينية وبأن تكفل لسكانها الأمن والاستقرار؛ فنصت المادة ٦١ من معاهدة برلين على أن يتعهد الباب العالي بأن يجرى دون تأخير أكثر من ذلك في الولايات التي يسكنها الأرمن، التحسينات والإصلاحات التي تحتاج إليها أمورها الداخلية، وأن يتعهد بتأمينهم من اعتداءات الشراكسة والأكراد عليهم. ويقوم بإبلاغ الدول الكبرى، المرة بعد الأخرى، بالإجراءات التي اتخذها لهذه الغاية، وعلى الدول الكبرى أن تراقب تطبيقها.

"The Sublime Porte undertakes to carry out, without further delay, the improvements and reforms demanded by local requirements in the against the Circassians and Kurds.

"It will periodically make known the steps taken to this effect to the Powers, who will superintend their application" (١)

دراسة نقدية للقضية الأرمن في معاهدة برلين :

وسجل هنا عدة ملاحظات :

أولاً : إن الفقرة الأولى من هذه المادة مأخوذة حرفياً من المادة السادسة عشرة في معاهدة سان ستافانو، مع إضافة ثلاث كلمات إليها هي «أكثر من ذلك»، وتدل هذه الإضافة على الإشارة إلى نقاس الدولة العثمانية عن إدخال الإصلاحات أو تسويقها في هذا الصدد.

ثانياً : أكدت هذه المادة التزامات الباب العالي نحو الأرمن بإدخال إصلاحات ومنع اعتداءات الشراكسة والأكراد عليهم، فلم تأت بجديد يغير من وضعهم السياسي.

ثالثاً : جاءت هذه المادة بفقرة مزيدة هي الفقرة الأخيرة، وتنص على تعهد الباب العالي بإبلاغ الدول الكبرى بمدى تنفيذه لتعهديه : إدخال الإصلاحات ومنع الاعتداءات على الأرمن، وإبلاغ الدول بالإجراءات التي اتخذها، وعلى الدول أن تراقب كيفية إجرائها وتنفيذها.

رابعاً : إن هذه الفقرة المزيدة تمثل تدخلاً صارخاً في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية من جانب الدول الأوروبية الموقعة على معاهدة برلين لسنة ١٨٧٨، فقد فرضت على

صمن الحكم في ٧ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٨٨ .
انظر :

المنظارات والوزارات المصرية، نشر وزارة الثقافة، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصرة ج ١، مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة، ١٩٦٩، ص ٧٥-٧٨، ص ١٢٧-١٢٨.

الدولة بتقديم تقارير عن الإصلاحات، التي أدخلتها ومدى نجاحها في هذا الصدد، تحت ستار رغبة الدول الكبرى في إدخال إصلاحات للأرمن وحمائيتهم من اعتداءات العناصر الإسلامية المجاورة لهم .

ويقرر أحد المؤرخين أن هذه المادة التي وردت في معاهدة برلين بشأن الأرمن لم تكن سوى وعد غامض بإدخال إصلاحات للأرمن ومنحهم الأمن ^(١) . والواقع أن هذا التعليق ينطوي على نصيب موفور من الحقيقة ، لأن معاهدة برلين اهتمت بالنص صراحة على استقلال الجبل الأسود ، والصرب ، ورومانيا ، وتعيين حدود كل منها ، كما وضعت المعاهدة أدق التفاصيل عن الوضع السياسي لبغاريا والرومالي الشرقية وإدارتهما ونظمتهما المالية ، وحجم قوات الاحتلال الروسي في بلغاريا والرومالي الشرقية ، وتطبيق الدستور الذي سبق منحه لجزيرة كريت سنة ١٨٦٨ إلى غير ذلك من مسائل عديدة ومتشعبة، شملت ممتلكات الدولة العثمانية في أوروبا وآسيا . أما قضية الأرمن فلم تظفر إلا بوعدين من الباب العالي ويتعهد من الدول الأطراف في معاهدة برلين بمراقبة تنفيذ الباب العالي لوعده . وكانت النتائج العملية لهذا الخموض تتلخص في قيام انتفاضات شعبية بين الأرمن وإنشاء الجمعيات الإرهابية الأرمنية ، وانتشار المذابح بين المسلمين والأرمن واضطراب الأمن وتشويه صورة الدولة العثمانية أمام الرأي العام الأوروبي . ولكي تكتمل الصورة عن مؤتمر برلين، نذكر أنه قرر أن تتنازل الدولة العثمانية للروسيا في آسيا عن أراضي أرمهان وقارص وباطوم وجميع الأراضي الواقعة بين الحدود الروسية العثمانية القديمة وحدود جديدة (٥٨م) ^(٢) ، ومجموع مساحة هذه البقاع يبلغ ٢٦,٥٩٠ كيلو متراً مربعاً تقريباً . وقد رسمت الحدود الجديدة بدقة وعناية ، ويقرر ميلر أيضاً أن خير تعليق على عدم جدوى هذه المادة هي هذه الأحداث الدامية، التي وقعت بعد التوقيع على المعاهدة وبخاصة المذابح ^(٣) . ويقرر أيضاً أن يكون ثغر باطوم ميناء حراً لا تفرض فيه رسوم جمركية سواء على الصادرات أو الواردات (٥٩م) ^(٤) ، وأن تسترد الدولة العثمانية من روسيا وادي الأكراد ^(٥) ومدينة درجو أبى يزيد . وكاتنا قد سلطنا للروسيا طبقاً للمادة التاسعة عشرة من معاهدة سان ستفانو ، كما تقرر في معاهدة برلين أن تتنازل الدولة

(1) Miller W., op. cit., p. 428.

(٢) هذه الحدود مفصلة في كتاب محمد فريد بك ، ص ٤٩٠ .

(3) Miller W., op. cit., p. 384.

(٤) سرعان ما منقضت روسيا هذا النص؛ إذ جعلت ميناء باطوم ميناء مطلقاً وأقامت فيه تحصينات عسكرية، مما هدد طرايزين بتهديد الحياة الاقتصادية فيها . ولم تحرك بريطانيا ساكناً وكان يقع عليها عبء فتح ميناء باطوم وإزالة التحصينات العسكرية فيه طبقاً لاتفاقية قبرص المنعقدة، قبيل اجتماع مؤتمر برلين في ١٣ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٧٨ . انظر :

Miller W., op. cit., p. 385.

(٥) يرد ذكره في بعض المراجع وادى أنتشكرد (طوبراق قلعة) .

العثمانية لغارس عن مدينة وإقليم خزر (قطور)^(١) وأراضيها (٦٠م) . وهكذا امتد النفوذ الروسي في آسيا بعد إخضاع بلاد القوقاز كلها وأصبحت حدود للروسيا متاخمة لأرمينية العثمانية ، كما غدا في استطاعة الروس القفز إلى الأناضول - المهاد الأولى للدولة العثمانية - ثم إلى شمالي بلاد ما بين النهرين (العراق) وشمالي بر الشام . واستقلت بريطانيا هذا للتخيير في الأوضاع السياسية والعسكرية في شرقي الأناضول وانتزعت موافقة السلطان عبدالحميد الثاني سنة ١٨٧٨ ، على أن تحتل بريطانيا احتلالاً مؤقتاً ، جزيرة قبرص بحجة اتخاذها قاعدة عسكرية للدفاع عن ممتلكات الدولة العثمانية ووقف الزحف الروسي نحو الشرق الأدنى ، مع أن بريطانيا أسهمت إسهاماً فعالاً في مؤتمر برلين الأوروبي لسنة ١٨٧٨ في تفتيت ممتلكات الدولة العثمانية في أوروبا وآسيا وإفريقية^(٢) .

أزمة عدم ثقة بين العثمانيين والأرمن :

لم يؤد الحكم العثماني للأرمن إلى استيعابهم ، فقد حال دون ذلك اختلاف الدين ؛ لأن الغالبية الساحقة من الأرمن ظلت متمسكة بالمسيحية لم ترض عنها بديلاً . ويقول في هذا الصدد الأستاذ سير توماس أرنولد Sir Thomas W. Arnold إن عدد الأرمن من أتباع الكنيسة الأرمنية الذين دخلوا في الإسلام كان أقل ، بالنسبة إلى عدد أفراد هذه الطائفة ، من أتباع أى كنيسة من الكنائس الشرقية التي خضعت للحكم الإسلامي واعتنق بعض أفرادها الإسلام ، وإن حياة الأرمن القومية ظلت باقية على الرغم من ضياع استقلالهم السياسي . فكانت ديانتهم وكنيستهم الوطنية مبعثاً لحماهم ووطنيتهم التي لم تفن ، كما كان الحال بالنسبة لليونانيين حين خضعوا للحكم العثماني^(٣) . وهناك باحث مصري هو دكتور حامد غنيم أبو سعيد وضع دراسة جادة وعميقة ، أتى فيها بإضافات جديدة عن موضوع عدم إقبال الأرمن على اعتناق الإسلام . فقال إنه بينما انتشر الإسلام في أنزريجان منذ أواخر عصر الخلفاء الراشدين تضافرت أسباب متنوعة : تاريخية وسياسية ودينية وأسباب أخرى متصلة بحكام الأرمن وأسباب متصلة بالعامية في أرمينية ، أعاققت انتشار الإسلام في أرمينية . وكانت النتيجة أن بقي الإسلام دين أقلية ضئيلة بحيث لم يستأهل اللغات المؤرخين إليه^(٤) ، ويمكن أن

(١) يرد نكره في بعض المراجع خواطر ، وهو إقليم أرمني ، يقع في منتصف الطريق بين فان وبحيرة أرمية .

(٢) دارت أحاديث سياسية بين لورد سالزبوري ووزير خارجية بريطانيا ونوق واندجتون وزير خارجية فرنسا ، وتم بمقتضاها صدور تصريحين بريطانيين بموافقة الحكومة البريطانية ، على أن تقوم فرنسا ببسط حمايتها على تونس (انظر ماسبق) .

(3) Sir Thomas W. Arnold; Preachin of Islam, 2nd. ed., London 1913.

تعريب الدكتورين حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد عابدين والأستاذ إسماعيل النعراوى بعنوان : الدعوة إلى الإسلام ، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١١٧ .

(٤) دكتور حامد غنيم أبوسعيد : انتشار الإسلام حول بحر قزوين ، ج ١ ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ١٩٢-٢٢٦ . وقد شرح على هذه الصفحات الأسباب التي حالت دون انتشار الإسلام في أرمينية .

يضاف إلى هذين العاملين : تمسكهم بالمسيحية وقيام الكنيسة الوطنية الأرمنية ، اللذين ذكرهما الأستاذ أرنولد ، عامل ثالث هو لخطهم القومية . فكانت هذه العناصر الثلاثة دعائم استند إليها حماسهم لوطنهم المليب في نظرهم ، وظلت جذوة قضيتهم مشتعلة في نفوسهم وبخاصة منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، بعد أن تعددت مظاهر النهوض القومي والثورات والانفصاضات الشعبية وانتصار الحرية في وسط أوروبا ومنطقة البلقان . فكانت تطلعات الأرمن السياسية لإنشاء دولة مستقلة لهم في الولايات التي يقيمون فيها في شرقى الأناضول ، أو إدخال نظام الحكم الذاتى فيها عنصراً من عناصر قضية الأرمن .

وكان الوعد الغامض الذى صدر عن مؤتمر برلين الأوروبى لسنة ١٨٧٨ بإصلاح الأوضاع السياسية لأرمن الدولة العثمانية صدمة عنيفة لهم ، عصفت بالأمال التى علّقوها على هذا المؤتمر ، وزاد من عمق الصدمة أن شعباً مثل الصرب والبلغار قد ظفرت باستقلالها فى المؤتمر . فكان مؤتمر برلين عنصراً ثانياً من عناصر القضية الأرمنية .

وكانت روسيا بعد أن تبددت آمالها فى إنشاء دولة بلغاريا الكبرى فى مؤتمر برلين قد أرادت أن تستبدل بهذا المشروع مشروعاً بديلاً لإثارة المتاعب فى وجه الدولة العثمانية ابتغاء تفقيت ممتلكاتها وإضعافها . وكان هذا المشروع البديل يتمثل فى تشجيع الأرمن من رعايا الدولة العثمانية المستوطنين الولايات الست فى شرقى الأناضول على المطالبة بالاستقلال التام أو تطبيق نظام الحكم الذاتى فيها^(١) . وكان فى يد روسيا ورقة رابحة ؛ إذ كان يسكن فى الأراضى الروسية قطاع كثيف للعدد من السكان الأرمن^(٢) ، كانت قد استخدمتهم من ناحية كمخاب القط ضباطاً وجنوداً وإداريين فى الجيش الروسى فى حربها ضد الدولة العثمانية سنتى ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ، واستخدمتهم من ناحية أخرى عملاء لها أوعزت إليهم الاتصال بإخوانهم أرمن الدولة العثمانية تنسيقاً لجهودهم فى المطالبة بالاستقلال التام أو الحكم الذاتى ، وأعدن لإياهم بمساعدات عسكرية وبتأييد سياسى من جانب الحكومة الروسية ، فكانت روسيا عنصراً ثالثاً من عناصر قضية الأرمن .

واستحباب للأرمن من خلال الأحداث التى تعاقبت بعد مؤتمر برلين أن القرار الذى أصدره المؤتمر خاصاً بقضيتهم هو مجرد قصاصة ورق ، لأنه ظل حبراً على ورق ، فلم ينفذ السلطان عبد الحميد ماعاهد عليه الدول الأطراف فى معاهدة برلين (١٨٧٨) من إصلاحات تغير الأوضاع السياسية للأرمن فى الدولة العثمانية ؛ لأنه كان متمسكاً بعباسية المركزية فى حكم الدولة من ناحية ، ولأنه بدأ يفقد ثقته فى الأرمن اللذين يشغلون مناصب فى الحكومة

(١) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 200.

(٢) انظر بياناً عن الاتهام الذى يسكنها الأرمن فى روسيا ، فى Kruger K.; *Kemalist Turkey and the Middle East*, London, 1932, pp. 124-125.

العثمانية من ناحية أخرى ؛ إذ كانت هناك صلات مريبة بين هؤلاء الموظفين وزعماء الأرمن السياسيين . وتعرض الأرمن في سنة ١٨٩١ لمذبحة في سامسون Sasson في الأناضول وقام الأكراد بدور رئيسي فيها ، وهم مشهورون بأنهم فرسان ذور شجاعة فائقة وبأس شديد . ويرى بعض المؤرخين أن شطراً كبيراً من المتاعب التي واجهها الأرمن في الدولة العثمانية إنما يرجع إلى العلاقات السيئة بينهم وبين الأكراد . فالأخيريون بصفتهم قوماً رحل كانوا قد ارتاحوا إلى ممارسة حياة الذهب من المزارعين الأرمن في الأناضول ، واستغل السلطان عبدالحميد هذه النزعة التخريبية لدى الأكراد وأنشأ منهم ومن قبائل التركمان قوات مقاتلة سميت «الفرسان الحميديّة» ، وأمدّمهم بالأسلحة ومنحهم امتيازات متنوعة واستخدمهم أداة لضرب الأرمن^(١) ، وانضم إلى الأكراد كل من الشركاسية والتركمان والأتراك العثمانيين والألبانيين . وكان الألبانيون قد هاجروا إلى الأناضول في أعقاب الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨)^(٢) وتكاتفوا جميعاً على إيذاء الأرمن وقطع الطرق والتعرض لهم ، ونزع أغلبية رهوسهم ، وخطف نساءهم وبناتهم ، والهجوم على منازلهم ، ونهب سجاجيدها ومحتوياتها الثمينة وما إلى ذلك من صور الإيذاء والتككيل . وتغاضى السلطان عبدالحميد عن هذه التصرفات مما أثار السخط الشديد لدى الأرمن . وترك الباب العالي أيضاً الموظفين العثمانيين يبتزون الأموال من الأرمن وينزلون بهم شتى المغارم ، وعلى ذلك كانت سياسة السلطان عبد الحميد الثاني وحكومته عنصراً رابعاً في القضية الأرمنية .

لهذه الأسباب مجتمعة ، ساورت الدوائر العليا والمحلية في الدولة العثمانية الشكوك حول ولاء الأرمن . واعتقدت هذه الدوائر أن بعضاً منهم يشتغلون عملاء للروسيا وبعض الدول الأخرى قصد الإضرار بالمصالح العليا للدولة ، وأن الأرمن بصفة عامة لا يكونون ولاء للدولة العثمانية ، ومن ثم نظرت إليهم على أنهم خطر يهدد الدولة في كيانها ومستقبلها . وأخذت هذه الدوائر تتكلم عما أسمته «الخطر الأرمني»^(٣) The Armenian Peril. وضغط السلطان عبد الحميد الثاني على البطريرك الأرمني ، واضطره إلى الاستقالة من منصبه ، وعهد إلى تعيين خلف له . وكانت كل حركة أو تحرك من جانب الأرمن يفسر تفسيراً يتماشى مع نظرة الدولة للأرمن بأنهم عملاء للروس أو للفرنسيين أو للبريطانيين . ومن الأسباب التي جعلت العثمانيين يأخذون بهذا التفسير أن قطاعاً من رعاياهم الأرمن قد اعتنقوا المذهب الكاثوليكي فأصبحوا تحت حماية فرنسا ، وأن قطاعاً آخر من أولئك الأرمن قد اعتنقوا المذهب البروتستانتي وغدوا تحت حماية بريطانيا . وكان عملاء هاتين الدولتين الأوروبيتين ، سواء كانوا أعضاء بعثات تنصيرية أو عملاء سياسيين محترفين متتكرين في زى أعضاء بعثات دينية ، يدخلون

(١) انظر مايلي . وانظر أيضاً المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(2) Miller W., op. cit., p. 427.

(3) Miller W., op. cit., p. 428.

في روح الأرمن أنهم سيظفرون بحماية فرنسا أو بريطانيا، إذا تحولوا عن مذهب الكنيسة الأرمنية الوطنية في إستانبول . وكان أوفر أعضاء البعثات للتصيرية نشاطاً هم المنصرون البروتستانت ، استخدموا شتى الوسائل لإغرام الأرمن على اعتناق المذهب البروتستانتي، ويمنون الأرمن الذين يعتنقون هذا المذهب بأنه سيكون في استطاعتهم الامتناع عن دفع الضرائب والاستخفاف بموظفي الحكومة العثمانية^(١) كما لم ينس العثمانيون قط موقف البطريرك الأرمني في إستانبول واسمه نرسيس Nerses أمام مؤتمر سان ستفانو ثم أمام مؤتمر برلين مندداً بالحكم العثماني للأرمن ومطالباً بمنحهم الاستقلال وملتمساً تأييد الدول الأعضاء في مؤتمر برلين، في إنشاء دولة أرمنية مستقلة في شرقي الأناضول ، وأخذت العلاقات بين العثمانيين والأرمن تزداد تقييداً وسوءاً يوماً بعد يوم .

ولم ينس العثمانيون الأوهال التي تعرضوا لها من الدول الأوروبية الكبرى في الحروب التي خاضوها منذ القرن الثامن عشر والثورات الهادرة التي قامت بها الشعوب المسيحية البلقانية طوال القرن التاسع عشر . فكل هذه الذكريات جعلت الدولة تقف موقف الشك والحيطه من البقية التي تبقت لها في أواخر القرن للتاسع عشر من الشعوب المسيحية ، وكان الأرمن من بينها ، وكانوا يشكلون في نظر الدولة «ملت مسيحية» و«رعية» من الطبقة الثانية، بعد أن كان العثمانيون يطلقون على الأرمن قبل ظهور قصيتهم ملت صادقة،^(٢) أي الملة الصادقة للواء ، لأنهم كانوا يعيشون في وئام مع العثمانيين متحابين متجارين متعاونين .

خطورة القضية الأرمنية :

والحق أن القضية الأرمنية منذ أن طفت على السطح كانت بالنسبة للأتراك العثمانيين مسألة حياة أو موت ، لأن الأرمن كانوا يطالبون بالقسم الشرقي من الأناضول ليقبوا عليه دولة أرمنية . والأناضول هي الوطن الأصلي للعثمانيين وقلب دولتهم . وإذا كان العثمانيون قد انسحبوا تبعاً ورغماً عنهم من بلاد اليونان والصرب وبلغاريا والجبل الأسود وألبانيا وغيرها قبل مؤتمر برلين الأوروبي لسنة ١٨٧٨ وبعد هذا المؤتمر ، تحت ضغط تدخل الدول الأوروبية والثورات التي قامت في هذه الأقاليم ، فإن هذا الانسحاب المتعدد المراحل لم يمس وطنهم الأصلي في الأناضول . وكل ماحدث هو أن حدودهم الأوروبية أصبحت قريبة من الأناضول . ولكن الموقف بالنسبة لقضية الأرمن كان يختلف اختلافاً جذرياً عن قضايا الشعوب المسيحية التي خضعت للدولة في أوروبا ، لأن الأرمن كانوا يقيمون في ست ولايات ، ويتنشرون عبر منطقة واسعة تبدأ من حدود القوقاز إلى سباحت البحر المتوسط^(٣) . وكانت هذه المناطق في

(١) مصطفى كامل باشا : المسألة الشرقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية ، مادة أرمنية بقلم م. كانار M. Canard .

(3) Lewis B.; op. cit., p. 356.

أعماق الوطن العثماني الأصلي ، وكان انسحاب العثمانيين من هذه الأقاليم معناه بتر قسم كبير من الوطن العثماني وضربة قاصمة تؤدي إلى ضياع الدولة العثمانية . فلما خرجت القضية الأرمنية إلى النور واحتلت مكان الصدارة بين المشكلات التي واجهتها الدولة ، كان الصراع يدور بين قوميتين : القومية العثمانية التركية والقومية الأرمنية على الاستقلال بأرض واحدة ووطن واحد . ومن هنا جاءت خطورة القضية الأرمنية ، ونجمت عن هذا الصراع عمليات ترحيل الأرمن ترحيلاً جماعياً إجبارياً في سنة ١٩١٥ من شرق الأناضول إلى الموصل في العراق وترحيل أرمن أصفه في أقصى الجنوب الشرقي من الأناضول إلى وسط بلاد الشام ؛ للقضاء على تأمر الأرمن العثمانيين مع الحكومة الروسية والأرمن المقيمين في أراضيها ولتهدية حرية الحركة للجيش العثماني ، الذي كان يخوض في تلك السنة حرباً شرسة ضد هؤلاء وأولئك ، كما سنذكر في مستهل الفصل التالي .

النشاط الإرهابي الأرمني ضد المسلمين :

لما رأى الأرمن أن الدول الأوروبية الكبرى لم تعر اهتماماً فعالاً بقصصيتهم ، انتقلوا من الأساليب الدبلوماسية إلى الوسائل الإرهابية ضد المسلمين من رعاية الدولة العثمانية ، ومن ثم كونوا جمعيات ثورية أرمنية في بعض المدن الكبرى في الدولة وولاياتها ؛ خاصة في إستانبول ، وطرابزون ، وأرضروم ، وفان وبين بعض أثرياء الأرمن في روسيا ، وكذلك في بعض المدن في أوروبا . وكانت الجمعيات الأخيرة تصدر نشرات ومجلات ترسلها إلى الأقاليم العثمانية عن طريق مكاتب البريد الأجنبية . تحرض الأرمن على القيام في وجه السلطات العثمانية ، وكانت أخطر الجمعيات السرية الإرهابية الأرمنية تلك التي أسست في بثلوس . كانت هذه الجمعية ترسل المسدسات (الطبنجات) والخناجر وسائر الأسلحة وكذلك الذخائر من ثغر باطوم إلى رايز Rize ، بينما كان الأرمن الذين يعيشون في تبريز من أعمال أرمنية الفارسية يرسلون عملاء يعبرون الحدود ، ويثيرون بعملياتهم الإرهابية دعر أهالي القرى المسلمين (١) .

وعلى الرغم من النشاط الثوري المكثف لم تكن للعمليات الإرهابية التي قام بها الأرمن نتيجة عملية لحل قصصيتهم أو حتى لتسعيدها إلى المستوى الدولي ، فظلت ذات صبغة محلية أو إقليمية . وكان من بين أسباب هذا الإخفاق عاملان مهمان: كان العامل الأول أن مركز الأرمن كان يختلف عن مركز البلغار والصرب ، فبينما كان هذان الشعبان يشكلان كثافة سكانية في بلادهما ، لم تكن توجد في جميع أنحاء الدولة العثمانية بعمامة والولايات الأرمنية بخاصة أغلبية عددية من الأرمن .. كان يشاركونهم في الاستيطان اليونانيون والأكراد والشراكسة والأتراك العثمانيون وغيرهم كما يتضح من الإحصائيتين التاليتين ، ويستثنى من هذه القاعدة العامة ولاية فان Van .

تعداد الأرمن في الولايات الست سنة ١٨٨٢

الولاية	الأرمن	الكاثوليك	البروتستانت	جميع الأرمن	الجمع الكلي السكان	نسبة الأرمن
أرضروم	١٠١,١٢٨	٦,٧٣٠	١,٩٧٠	١٠٩,٨٢٨	٦٥٩,١٥٥	٪١٦,٦
بغليس ^(١) (بغليس)	١٠١,٣٥٨	٤,٩٤٨	١,٤٠٨	١٠٧,٨٠٤	٢٧٦,٩٩٨	٪٣٨,٩
قار	٦٠,٤٤٨	—	—	٦٠,٤٤٨	٢٦٩,٨٦٠	٪٢٣,٣
نيار يكر	٤٦,٨٣٣	—	٣,٩٨١	٦٠,٧٦٩	٧٨٩,٥٩١	٪٢٠,٩٨
معنورة العزيز	٧٣,١٧٨	١,٩١٥	٤,٩٧١	٨٠,٠٦٤	٤٨١,٣٤٦	٪١٦,٦
سيلاس	١١٦,٢٤٦	٣,٢٢٣	١,٩٩٤	١٢١,٤٦٣	٩٢٦,٥٦٤	٪١٣,١ ^(١)

وبين من هذا القبيل أن الأرمن لم يشكلوا أغلبية عديدة بين سكان أي من هذه الولايات الست .

(2) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw, op. cit., p. 201.

(١) يده تكوما حيناً بغليس ، حيناً أرض بغليس (يقطع البناء وسكنه العالم) .

تعداد الأرمن في الكازات الكبرى في شرقي الأناضول سنة ١٨٨٢

اسم الكاز	الأرمن	الكاثوليك	البروتستانت	الجميع	التعداد الكلي للسكان	النسبة المئوية للسكان الأرمن
أرغمسلم (أرزن)	٩,٣٠	٧١١	٣٢٩	١٠,٨٥٠	٣٨,٦٨٤	٧٨,٠٤
أرزن (أرزنجان)	١٢,٦٨٦	—	٨٨	١٢,٧٧٤	٥٤,٥٠٣	٣٣,٤٣
أخنة Adana	٩,٦٢٢	٢٤٨	٢٣١	١٠,١٠٦	٧٠,٦٦٥	١٥
سيس Sis	١٤,٠٢١	٥٦	٨٧	١٤,١٦٩	٢٠,٥٣٣	٦٩,٠٣
حافين Hacın	١٠,٣٠٤	١٤٥	٦٨٢	١١,٠٣١	٢٤,٠٥٧	٤٥,٨٥
قيصري Kayseri	٢٥,٢٥٠	٦١٥	١,٢١٥	٢٧,٢٢٠	١٣٠,٨٩١	٢٤,٨٥
نيار يكر	١٢,٨٢	٢,٥٦٠	٩٨٣	١٥,٦٦٩	٦٢,٨٧٠	٢٥,٠٦
سيواس Sivas	٢٠,٤٦١	١,٥٩٢	٨٩	٢٢,١٤٧	٨٨,٣٧٥	٩,٣٢
طرابزون	٩,٥٤٦	١,٢٠٩	٩١	١٠,٨٤٦	١١٧,٥١٣	(١) ٦٤,٦٢
نان (فسان) Van	٣٣,٥٠٣	—	—	٣٣,٥٠٣	٥١,١٤٩	

ويوضح من هذا التبت أن الأرمن لم يكونوا يشكلون أغلبية عديدة في هذه الكازات العشر إلا في سيس ، وفان .

أما العامل الثاني.. فإن قيصر روسيا إسكندر الثالث قد أدرك أن وسائله في إضعاف الدولة العثمانية بتشجيع الأرمن كان يصحها ويلحقها نشر مبادئ ثورية . وكان من الممكن أن تؤدي إلى قيام ثورات بين رعاياه الروس أيضاً ، ولذلك كف قيصر روسيا عن تأييده للأرمن . وأمام هذين العاملين رأى الثوار الأرمن تصعيد عملياتهم الإرهابية لإجبار أغنياء الأرمن على تأييد حركتهم الثورية بدمهم بالأموال ومائر المساعدات ولا تعرضوا للقتل من بني جلدتهم ، وأن تكون مذاهبهم للمسلمين على أوسع نطاق؛ بحيث يضطر المسلمون إلى الأخذ بالتأثير مما يؤدي إلى حمل بريطانيا وروسيا على التدخل لحماية لأرمن من العمليات الإرهابية التي يقوم بها رعايا السلطان المسلمون !! وحاولوا أيضاً أن يبندوا ثقة السلطان عبد الحميد الثاني في موظفي الدولة الأرمن بالضغط على هؤلاء الموظفين لتأييد القضية الأرمنية .

اتساع نطاق ذبح المسلمين :

كون الثوار الأرمن جميعاتهم الإرهابية في شتى أنحاء الأناضول، وأخذوا يهاجمون العثمانيين من جامعي الضرائب ويستولون على حصيلتها ، كما هاجموا عمال البريد يمزقون الرسائل البريدية ، وتعرضوا للقضاة ، وقاموا بمذابح جماعية للمسلمين في عدة قرى بأكملها^(١) . وكان الإرهابيون الأرمن يجبرون مواطنيهم للفلاحين والتجار الأرمن على إزياتهم وإخفائهم في منازلهم ولا تعرضوا للقتل على أيدي الثوار الأرمن . ولكن رجال الشرطة العثمانيون كانوا من المقترة بحيث استطاعوا حصر العمليات الإرهابية في نطاق ضيق، وساعدهم على هذا النجاح في قمع حركة المذابح أن معظم الأرمن كانوا لا يتجاوبون مع الثوار، لأن الأرمن - كما يقرر أحد المؤرخين المحايدين - كانوا يتميزون عن جميع الأمم الخاضعة للدولة العثمانية بأن لهم من المصالح المشتركة مع العثمانيين أكثر من غيرها^(٢) . ولم يعمد المسلمون إلى الرد على الثوار بالمثل ، ولو أن غارات الأرمن الواسعة والشرسة قد ازددت في حدة الجور ، وجعلت من الصعوبة بمكان أن يعيش الأرمن جنباً إلى جنب مع المسلمين كما عاشوا من قبل أجيالاً متعاقبة في وئام وسلام^(٣) .

جميعتان إرهابيتان أرمنيّتان لقتل المسلمين :

ولما فشل الثوار الأرمن في نشاطهم الإرهابي داخل الدولة العثمانية، نقلوا نشاطهم إلى

(1) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op., cit., vol. 2, p. 203.

(2) Ubicini; Lettres sur le Turquie, t. 2, p. 347.

Victor Bérard; La Politique du Sultan. 1897. p. 149.

(3) Stanford etc., Loc. cit.

خارج أراضيها^(١). وتكونت جماعتان لقيادة حركة المقاومة : إحداهما جمعية الناقوس أو الجرس^(٢) Hunchak ويرد ذكرها في بعض المراجع حزب «هشاق» أو «هنتشاك» أو «هنجياق»، تكونت في سنة ١٨٨٧ في جنيف ، وقوامها طلبة أرمن يستكملون دراساتهم في سويسرا وفرنسا ، ونيط بها إصدار جريدة تحمل الاسم ذاته، وعهد بإدارتها ورياسة تحريرها إلى نزار بكيان ليرن الذي كلف بالإقامة في جنيف بسويسرا حيث بدأ في إصدارها ، ثم نقل إدارة الجريدة إلى أثينا حيث تتوفر له الوسائل لإخالتها في الأقاليم العثمانية نظراً لقربها منها . ولم تلبث أن رفضت الحكومة اليونانية بقاءها ، فذهب إلى لندن حيث واصل إصدار الجريدة . وقد نشرت لجنة الجريدة في لندن سنة ١٨٨٩ رسالة ، جاء فيها «من الواضح قبل كل شيء أننا فوضيون ، ولنا رغبة وطيدة منصوب عليها في لوائحنا ألا وهي نشر مبادئ الفوضى في الأناضول بإحداث الاضطرابات . وأن هدفنا الأساسي هو إنشاء حكومة وطنية مستقلة في تلك البلاد والحصول على الحرية السياسية في أوسع نطاق^(٣) . وقد نشر مصطفى كامل باشا مواد لائحة الجمعية^(٤) ، وكان مما جاء في المادة الثامنة النص على أن تكون وسائل إعدام المسلمين الخنجر أو المسدس أو الخنق أو دس السم . ولأجل نفس المنازل وسائر المنشآت يجب استعمال القنابل الديناميت ، أو الديناميت السائل ، أو قنابل الحريق المملوءة بالبارود^(٥) .

أما الجماعة الأخرى فيطلق عليها داشناكس^(٦) Dashnaks، ويرد ذكرها في بعض المراجع تحت مصطلح «داشناقتسونيون» . وتشير إليها المراجع الإنجليزية باسم The Armeni- an Revolutionary Federation أي الاتحاد الثوري الأرمني ، ويرمز إليها بهذه الأحرف الثلاثة A. R. F. تكونت في الروسية سنة ١٨٩٠ وضمت جميع الأرمن الروس، بعد أن تعرضوا لألوان شتى من الكبت والإضطهاد على يد قيصر روسيا إسكندر الثالث (١٨٨١-١٨٩٤) كجزء من سياسته الرامية إلى إبعاد مذهب الأحرار للمتطرفين Radicalism في الإمبراطورية

(١) يلاحظ أن الجمعيات السياسية المناهضة لسياسة الدولة العثمانية كانت تأخذ شكل الجمعيات السرية ومقرها في خارج الأراضي العثمانية . ومن أولى هذه الجمعيات تلك التي أنشأها القوميون من الأقليات المسيحية ، مثل: الجمعية الوطنية اليونانية تكونت في أوديسا في عام ١٨١٤ ، وأغلبها هذان التنظيمان السريان الأرمنيان ، بالإضافة إلى الجمعيات السياسية التي أنشأها العثمانيون الأحرار في أوديسا في القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين لإصدار الدستور ولمعارضة الحكم الفدي المطلق، الذي كان يمارسه السلاطين .

Miller W., op. cit., p. 428.

(٢) ويرد ذكرها في بعض المراجع Hindchak .

(٣) مصطفى كامل باشا ، المسألة الشرقية ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٢٠٨-٢١٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢١٠-٢١٢ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٢٢-١٢٣ .

(6) Stanford J. Shaw and Ezel Kuraj Shaw; op. cit., vol. 2., p. 203.

الروسية . وكان برنامج عمل هذه الجماعة تكوين مجموعات عمل يتسلل أفرادها الفدائيون إلى داخل الأراضي العثمانية، ويثيرون الذعر في نفوس الموظفين العثمانيين المسلمين والموظفين الأرمن على حد سواء ، ويرتكبون مذابح عامة بين المسلمين اعتقاداً منهم أن هذه الجرائم تؤدي إلى تصعيد الموقف وتدخل الدول الأوروبية لصالح القضية؛ مما يساعد في النهاية على إنشاء جمهورية أرمنية اشتراكية مستقلة *An Independent Socialist Armenian Republic* تشمل بصفة مبدئية الولايات الست في شرقي الأناضول حيث يتم طرد جميع سكانها المسلمين أو يكون القتل مصيرهم المحتوم . وقد أنشأت جمعية الداشناكس A.R.F. عدداً من الخلايا في إستانبول ، وطرابزون ، وفان . ولكن نشاطها كان محدوداً حتى عام ١٨٩٥ ، بينما أصابت جمعية الجرس نجاحاً في عمليات نهب المسلمين سواء في داخل أراضي الدولة العثمانية أو في خارجها ، وأسست لها مراكز في كل من أرضروم ، وخاربوت ، وإزمير ، وحلب ، وجنيف . وتعاون أعضاء جمعية الجرس مع المجموعات البلقانية القومية الثالثة على الحكم العثماني في مقدونيا وجزيرة كريت وألبانيا . وغمرت المدن العثمانية منشورات ثورية على الحكم العثماني، أرسلها ثوار الأرمن إلى داخل الأراضي العثمانية عن طريق مكاتب البريد الأجنبية ، وعدم الثوار إلى تفجير القنابل في الأماكن العامة ، كما لقي الموظفون مصرعهم وهم جلوس إلى مكاتبهم .

وكان السلطان عبد الحميد في مستهل حكمه على علاقة طيبة بالأرمن وقرب كثيرين منهم إليه . ولكن تغير قلبه على الأرمن بصفة عامة نظراً لعملياتهم الإرهابية وقتلهم المسلمين ، واتهم الموظفين الأرمن بالخيانة وعدم الولاء للدولة ، وأمر باتخاذ إجراءات إدارية لمضايقة التجار الأرمن في إستانبول والتضييق عليهم في نشاطهم كوسيلة للضغط على الأرمن، كما أمر بتنظيم الجندرية الحميدية المحلية في شرقي الأناضول؛ لمعاونة الجيش في القضاء على حركة الإرهاب والقتل التي رفع الأرمن لواءها (١) .

استمرار العمليات الإرهابية بين الأرمن والعثمانيين سنوات ذات عدد :

استمرت العمليات الإرهابية من الجانبين على مدى تجاوز عدة سنوات ابتداء من عام ١٨٩٠ ، وقد بدأ فرسان الأرمن في الدولة العثمانية بحادث أرضروم في ٢٥ من فبراير - شباط - سنة ١٨٩٠ (٢) ، وكانت أشد المذابح التي تعرض لها الأرمن عنفاً تلك التي وقعت في سنة ١٨٩٤ في ساسون ثم طرابزون والرها ، ويبره جك سنة ١٨٩٥ . وفي خاربوت ، ونيكسار وفان سنة ١٨٩٦ (٣) ، فضلاً عن المذابح والاضطرابات التي وقعت في إستانبول سنتي ١٨٩٥ ،

(١) انظر مايلي :

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية ، مادة أرمنية ، بقلم دني J. Deny .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية مادة أرمنية بقلم سترك Streck .

١٨٩٦ وتجددت المذابح سنة ١٩٠٤ في ولايتي فان ، وبتليس (بدليس)، وستشير هنا إلى مذابح ساسون ومذابح إستانبول كمثالين للمذابح التي وقعت بين الأرمن والمسلمين العثمانيين؛ نظراً للمضاعفات الدولية التي نجمت عنهما .

مذبحة منطقة ساسون :

دبر الأرمن في أواخر صيف ١٨٩٤ عملية انتقامية كبرى في منطقة ساسون في الجنوب الغربي من موشي في ولاية بتليس؛ حيث يقطنها كثير من الأرمن الأشداء . وكان يوجد بها قبائل رحل من الأرمن أيضاً رجالها ثوباً أسود شديداً يميلون إلى السلب والنهب . ولما أراد الوالي المحلي أن يجمع المتأخرات من الضرائب المقررة عليهم ، أصدر أعضاء جماعة الجرس أوامرهم إلى رجال القبائل الأرمن باستخدام السيوف وإطلاق الأعيرة النارية على جامعي الضرائب . وأسرت قوات الجيش العثماني النظامي وقوات الجندرية الحميدية للسيطرة على الموقف ، فهرب الثوار الإرهابيون إلى الجبال تفادياً لاشتباك حربي كانوا يعلمون نتيجته مسبقاً . وزحفوا في طريقهم على القرى يعملون في سكانها المسلمين القتل والنهب، وهم يدركون أن الأرمن الذين تركوهم وراءهم في هذه القرى سيلقون المصير نفسه . وبذلك يحقق الثوار غرضين في وقت واحد : ذبح المسلمين ، وترك بقية الأرمن يواجهون القتل مما يتيح لوسائل الإعلام المعادية للدولة العثمانية مادة خصبة للذيل من العثمانيين وتشويه سمعتهم لدى الرأي العام الأوروبي، ويدفعه إلى حمل الحكومات الأوروبية الكبرى على التدخل . وفعلاً لما وصلت القوات العثمانية بنوعيتها بقيادة المشير زكي باشا الذي عزز قواته بجموع من الأكراد ورأت ماحل بالمسلمين في ساسون والقرى المجاورة لها من مذابح، قامت بتدمير ساسون وقتل من بقي بها من الأرمن^(١) ، واستمرت هذه العمليات من الجانبين على امتداد ثلاثة أسابيع في أواخر صيف سنة ١٨٩٤ .

إسراف الدعاية الأرمنية في تقدير عدد ضحايا الأرمن :

وفي خلال هذه الأسابيع الثلاثة استطاع العثمانيون القضاء على الفتنة، وعمد العثمانيون إلى تدمير القرى الأرمنية وقتل سكانها . ونشطت وسائل الإعلام الأرمنية في إذاعة أنباء هذه المقتلة والمبالغة في ذكر خسائرها رغبة في تأييد أوروبا لهم . فقرر الأرمن أن قوات المشير زكي باشا قد ذبحت في منطقة الاضطرابات عشرين ألف أرمني، ودمرت خمسمائة وعشرين قرية^(٢)، وأن العنف البالغ للقوات العثمانية يعيد إلى الأذهان ذكرى مذبحة بتناق^(٣)

(1) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol.. z, pp. 203-204.

(2) Loc. cit.

(٣) سبق أن تعرضنا لمنجبة قرية بتناق وموقعها الجغرافي في كلامنا عن مذابح البلفار، انظر في هذه الدراسة: ج٢ ، الفصل الرابع .

فى أثناء المذابح البلغارىة (١) ، وأن الحكومة العثمانية قررت منح المشير زكى باشا وساماً من أجل هذا العمل البطولى !! .

تشكيل لجنة دولية لتقصى الحقائق فى مذابح الأرمن :

وإزاء النشاط الواسع للدعاية الأرمنية فى أوروبا بوجه عام وفى إنجلترا بوجه خاص عقدت اجتماعات سياسية فى لندن للصرة قضية الأرمن، وللمطالبة الحكومة البريطانية بالتدخل لوقف هذه المذابح فى قابل الأيام . طلبت الحكومة البريطانية من الباب العالى تشكيل لجنة دولية لتقصى الحقائق فى مقتلة ساسون ، واستجاب الباب العالى لهذا الطلب ، وتكونت لجنة دولية اشتركت فى عضويتها الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا والروسيا . وطاف أعضاء اللجنة فى منطقة الاضطرابات منذ ٢١ من يناير - كانون ثان - سنة ١٨٩٥ واستغرق تحقيقها عدة أسابيع ، وجاء فى تقرير اللجنة أن الأرمن هم الذين جنحوا إلى إشعال نار الاضطرابات نتيجة تحريض أعضاء من الجماعات الإرهابية ومن عملاء ، جاءوا من الخارج وزعوا على الأرمن أسلحة نارية منكورة الطلقات وأرتكبوا أقصى مايمكن أن يحدث من المذابح والجرائم . والمعنى المستفاد من هذه الفقرة من التقرير أن المذابح التى أوقعتها الأرمن بالمسلمين فى منطقة ساسون لم تكن عفوَ الخاطر ، وإنما حدثت نتيجة إصرار وإعداد مسبقين . ومضى التقرير يقرر حقيقة أخرى هامة ، هى أن الأرمن بعد القتل الجماعى للمسلمين كانوا يعتمسون بالجبال الشاهقة حتى يكون فى استطاعتهم التصدى للجوند العثمانيين . وأثبت التحقيق أيضاً أن الحكومة للعثمانية بإرسالها القوات العسكرية لإخماد اضطرابات الأرمن قد تصرفت بمقتضى مايقوله لها القانون من حقوق ، وأثبت التقرير أن الأرقام التى أنشيت عن عدد قتلى الأرمن مبالغ فيها إلى حد بعيد، كما برأ التقرير المشير زكى باشا من الاتهامات التى وجهها الأرمن إليه .

لم يرض الأرمن والباحثون المتحاملون على الدولة العثمانية بطبيعة الحال عن هذا التقرير . أما الأرمن فقاموا بمظاهرة صاخبة فى شوارع إسطنبول فى ٣٠ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٩٥ ، احتجاجاً على ماورد فى التقرير من إدانة لهم عقب إذاعة تقرير اللجنة الدولية ، كما سنذكر بعد حين . أما الباحثون المتحاملون .. فقد علق أحدهم على التقرير تعليقاً يفيض بالحد وتجريح الحكومة العثمانية .. انتقد الصياغة اللفظية لقرار الحكومة للعثمانية بتشكيل لجنة التحقيق الدولية ؛ إذ جاء فى هذا القرار أن على اللجنة أن تقوم بالتحقيق فى السلوك الإجرامى للأرمن قطاع الطرق ، . وخلص رأياً إلى أن هذه العبارة معناها توجيه اللجنة فى عملها وجهة تنسم بالمحاباة للعثمانيين ، وأن الحكومة العثمانية سبقت اللجنة فى حكمها قبل أن تبدأ مهمتها فى تقصى الحقائق (٢) ، وتلأسى هذا المؤرخ أن اللجنة كانت تضم أربع مجموعات : عثمانية

(1) Miller W.; op. cit., p. 429.

(2) Loc. cit.

وبريطانية وفرنسية وروسية ، أى أن الأغلبية كانت تمثل دولاً أوروبية ، وليس من المعقول أن تغلب المجموعة العثمانية على المجموعات الثلاث الأوروبية .

ظل الرأي العام فى الدول الأوروبية متعاطفاً مع الأرمن متأثراً بوسائل الإعلام الأوروبية، ويشاطر رأى رجال السياسة فى أوروبا المعادى للعثمانيين . وفى ١١ من مايو - أيار - سنة ١٨٩٥ قدم سفراء بريطانيا وفرنسا والروسيا فى إستانبول مشروع مصالحة بين الحكومة العثمانية والأرمن ، اشتمل على إدخال الإصلاحات فى الولايات الست فى شرقى الأناضول ، وتضمن العفو عن الإرهابيين الأرمن الذين صدرت عليهم أحكام بالنفى أو السجن والإفراج عن الأرمن المعتقلين السياسيين ، وإنشاء لجنة دولية لمراقبة تنفيذ الإصلاحات وعدم تجديد الاضطرابات والمذابح . وأشار سفيراً فرنسا والروسيا على السلطان بقبول هذا المشروع ، فوافق عليه فى ١٧ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٩٥ موافقة جزئية ورفض إنشاء لجنة المراقبة الدولية (١) . وكان هدف السلطان من موافقته على الإصلاحات وإصدار العفو عن الأرمن هو تهدئة رأى العام الأوروبى والحكومات الأوروبية . وفعلاً أحجمت الدول عن التدخل فى قضية الأرمن انتظاراً لعودة السلطان . ووقف تدخلها عند حد تشكيل اللجنة الدولية لتقصى الحقائق والأخذ بما جاء به تقريرها . والواقع أن مصالح الدول الأوروبية كانت متضاربة ، وكانت هذه الدول فى مجموعها منصرفة إلى مراقبة بل وصنع الأحداث الجسام التى تعاقبت سراعاً على السياسة الدولية منذ التسعينيات من القرن التاسع عشر . وجعلت أوروبا منقسمة إلى معسكرين متحيزين لخوض صراع حربى مرتقب تمثل فى نشوب الحرب العالمية الأولى (٢) ، مما جعل

(١) مصطفى كامل باشا : المسألة الشرقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

(٢) كان من بين هذه الأحداث : معاهدة التحالف الفرنسى الروسى (٢٧ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٩٣) فى مواجهة التحالف الألمانى النمساوى ، معاهدة شيمونوسيكي Shimonoseki (١٧ من أبريل - نيسان - عام ١٨٩٥) وانتهت الحرب بين الصين واليابان ، واعترفت الصين باستقلال كوريا . كما تنازلت اليابان عن جزيرة فوموزا وشبه جزيرة لياوتونج Liao-Tung بما فيها بورت آرثر ، ومانج من هذه المعاهدة من إنذار جماعى ، وجهت روسيا وألمانيا وفرنسا إلى اليابان فى ٢٢ من أبريل - نيسان - عام ١٨٩٥ للجلء عن شبه جزيرة لياوتونج وبورت آرثر ، وانصياح اليابان لهذا الإنذار مما أدى إلى تدهور العلاقات بين اليابان وألمانيا وروسيا ، وإغارة جيمسون Jameson البريطانى على جمهورية الترنسفال البويرية فى أواخر سنة ١٨٩٥ ، وانتصارها على بريطانيا التى ازداد سخط ألمانيا وفرنسا والروسيا عليها ، والبرقية التى أرسلها إمبراطور ألمانيا إلى رئيس الترنسفال كروجر Kruger فى ٣ من يناير - كانون ثان - عام ١٨٩٦ ، عشية انتصاره يهنئه على موقفه المشرف وانتصاره على القوات البريطانية ، وماكان لهذه البرقية من آثار سببت فى رأى العام البريطانى ، واقترح الروسى حلف عام من الدول الأوروبية الكبرى ضد بريطانيا المتحيزة البغيضة ، وحدث فاشوشة بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٨٩٨ ، وفشل مؤتمر السلام الأول فى لاهاي (يوليو - تموز - سنة ١٨٩٩) ، ثم أطل القرن العشرون على العالم، وتزاحمت وتلاحقت فى مطلعه الأزمات الدولية .

القضية الأرمنية تتصاعد من وجهات نظر الدول الأوروبية الكبرى، أمام هذه الأحداث الجسام .
مظاهرة صاخبة للأرمن في إستانبول سبتمبر ١٨٩٥ :

كان تقرير اللجنة الدولية لتقصي الحقائق صدمة للأرمن ، ورأوا أن اكتفاء الدول الأوروبية الثلاث الكبرى بتقرير هذه اللجنة إنما هو تدخل شكلي مبتور ، لم يعقبه تدخل عسكري أو سياسى عنيف ضد الدولة العثمانية . وفي الوقت ذاته نظروا إلى وعود السلطان والتي أعلنها عقب مذبحه ساسون على أنها على شاكلة الوعود السابقة ، وأيقنوا أنه لاخير يأتي إليهم من الدولة العثمانية . ولهذه الأسباب قرروا نقل نشاطهم الإرهابي إلى إستانبول ، وأثاروا الاضطرابات وقتلوا أعداداً من سكانها العثمانيين المسلمين ، كلما وجدوا إلى الاضطرابات والقتل سبباً .

بدأت المظاهرة في إستانبول في ٣٠ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٩٥ تحت شعار الاحتجاج على تقرير اللجنة الدولية ، وطافت للمظاهرة بدور سفارات الدول الكبرى في صاحبة جالاطه وحى بك أوغلى ، ثم اتجهت إلى مبنى الباب العالي ، وقد ألهمت المظاهرة مشاعر العثمانيين المسلمين سخطاً على الأرمن ، وأراد السلطان عبدالحميد إرسال قوات من الشرطة لتفريق المتظاهرين الأرمن وإعادة الأمن والنظام . ولكن تدخل السفراء لمنع هذا الإجراء بحجة أنه يؤدي إلى قتل الأرمن . فصرف السلطان للنظر عن هذا الإجراء . وكانت النتيجة أن ازدادت موجة الاضطرابات والمذابح في إستانبول . ومع ذلك نكر أحد الباحثين الإنجليز أن مذبحه الأرمن في إستانبول في عام ١٨٩٥ كان في الاستطاعة السيطرة عليها ، ولكن السلطات العثمانية تباطأت وتهاونت في وقفها ^(١) ، ولعل هذا الباحث قد غفل أو جهل أن سفراء الدول الأجنبية في إستانبول هم الذين حالوا بين السلطان عبدالحميد واتخاذ الإجراءات الكفيلة برؤء هذه المذبحة وهي لاتزال في مهدها . وللمهم أن مقتلة عنيفة وقعت بين الأرمن والعثمانيين المسلمين في العاصمة ، وزادها ضراوة مرور آلاف من اللاجئين العثمانيين المسلمين في شوارع إستانبول وفدوا من بلغاريا وغيرها مقدونيا وهم في طريقهم إلى غربي الأناضول . وزاد في خطورة الموقف انتشار نبأ عن مقتل أحد رجال الشرطة ، كان يحاول أن يقض جموع الأرمن المتظاهرين ، وأصبح واضحاً أن الاضطرابات ستمتد إلى الأحياء التي يسكنها الأوربيون عامة .

السلطان يعلن الأحكام العرفية :

ولما رأى السفراء أن زمام الموقف قد خرج من يد الحكومة ، اقترحوا عليها إعلان الأحكام العرفية . فأصدر السلطان أمراً في ٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٩٥ بإعلانها

Grant A.J. and Temperley Harold; op. cit., pp. 329-333.=

Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 1053-056, 1059-1062, 1069.

(١) لوريمر جج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج٤ ، ص ٢١١٢ .

فى إستانبول، وأن تنزل قوات للجيش إليها لإنهاء هذه المذابح والاضطرابات . ولما ضيق الخناق على الأرمن فى إستانبول نتيجة إعلان الأحكام العرفية فيها ، نقلوا نشاطهم الإرهابى إلى الأناضول فى أواخر شهر أكتوبر - تشرين أول - وطوال شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٨٩٥ ، وقابلت الحكومة العثمانية العنف بالعنف ، ولا تريب عليها فى ذلك ، لأن مهمة أى حكومة فى العالم هى المحافظة على النظام واستتباب الأمن العام فى بلادها ، وتعرضت مدن كثيرة فى الأناضول ومعظم القرى للتدمير . وكان يقود قوات الحكومة شاكر باشا . وبلغ من سخط الجماهير العثمانية أنها هاجمت الكاتدرائية الأرمنية فى أورفا Urfa فى صباح أحد أيام الأحد، وأعملت الجماهير العثمانية النار فى مبنى الكاتدرائية ، وأنهت حياة ثلاثة آلاف من الأرمن داخل الكاتدرائية . وامتدت حركة التدمير والقتل إلى مصانع الأقمشة التى كانت موجودة فى المدينة ، ثم انتقلت الاضطرابات وحوادث القتل إلى قان ، وهى ولاية يتمتع فيها الأرمن بكثافة سكانية تفوق تعددهم فى أى من الولايات الخمس الأخرى فى شرقى الأناضول . ومن ثم انتقلت المذابح إلى طرابزون ، والرها ، وبيره جك وغيرها من المدن ، ونقلت أسلاك البرق من إستانبول إلى أوروبا أن المسلمين دائبون على ذبح المسيحيين فى أعداد وفيرة بموافقة الحكومة العثمانية ، وأسرف البعض فى تقدير عدد القتلى الأرمن ، فذكر أن هذا العدد ارتفع إلى مائتى ألف أرمنى (١) . والتزمت الدول الأوروبية للصمت إزاء اتساع هذه الاضطرابات والمذابح ، لأنها كانت تتجنب فتح باب المسألة الشرقية وماتثيره من حساسيات وشبهات بعضها ضد البعض الآخر حول تحقيق مطامع سياسية أو عسكرية فى الدولة . فلم يحدث تدخل دولى ، وأصيب الأرمن بخيبة أمل مرة أخرى .

الصهيونيون يعرضون على السلطان مساعدته فى قضية الأرمن فى مقابل حل قضية فلسطين :

انتهاز قادة الحركة الصهيونية فرصة وقوع المذابح والاضطرابات الدامية التى قام بها الأرمن فى الدولة العثمانية ، وعرضوا فى شهر مايو - آيار - سنة ١٨٩٦ على السلطان عبد الحميد الثانى بذل مساعيهم للحميدة من أجل تسوية مشكلة الأرمن . وإذا كان المؤتمر الصهيونى الأول قد اجتمع برئاسة هرتزل فى العام التالى فى مدينة بال بسويسرا فى ٢٨ من أغسطس - آب - ١٨٩٧ ، فإن الصهيونيين كانوا يعدون عدتهم لهذا المؤتمر قبل انعقاده ، مروجين لقيام دولة يهودية فى فلسطين تجمع شتات اليهود فى العالم ، مستغلين قضية الضابط اليهودى الفرنسى دريفوس Dreyfus والذى اتهم بالخيانة العظمى ، وحكم عليه بطرده من الجيش الفرنسى وتجريده من رتبة العسكرية وسجنه مدى الحياة (٢) . كما أن هرتزل كان قد

(١) لوديمر ج.ج. مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ج ٤ ، ص ٢١٩٢ .

(٢) انظر مرضاً ضافياً لراحل هذه القضية، التى شغلت أذهان الرأى العام الفرنسى والوساط اليهودية فى العالم فى : =

ألف في سنة ١٨٩٥ كتاباً باللغة الألمانية اسمه Der Judenstaat ، وسرعان ما ظهرت لهذا الكتاب طبعات باللغات الإنجليزية والفرنسية والعبرية ، وطالب في هذا الكتاب بإنشاء دولة يهودية في فلسطين .

وكانت اللجان الأرمنية في بروكسل وباريس ولندن قد قررت تنظيم حركة إضراب ومظاهرات في هذه المدن في شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٩٦ ؛ احتجاجاً على مذابح الأرمن . ومن ناحية أخرى كان عبد الحميد الثاني قد صرح للزعماء الصهيونيين بعزمه على عدم التخلي عن مدينة القدس ، وقال لهم إن جامع عمر يجب أن يظل دوماً في أيدي المسلمين . وتظاهر الصهيونيون بقبول رأي عبد الحميد وقالوا « سندير هذا الأمر ، وسنجعل القدس خارج حدود الدولة ، وبهذا لا تكون لأحد وحده ، وتكون للجميع في الوقت ذاته المكان المقدس يمتلكه جميع المؤمنين - بلد الثقافة والأخلاق المشتركة»^(١) . ورأى الصهيونيون أن أسرع وسيلة للوصول إلى قلب عبد الحميد هي عرض مساعدتهم له في مشكلة الأرمن ؛ لأنها كانت تتفاقم يوماً بعد يوم ، وأن الدول الأوروبية الكبرى ترنو ببصرها للتدخل في شئون الدولة تحت ستار تسوية مشكلة الأرمن . وقد لقيت فكرة تدخل الصهيونيين لدى الأرمن ترحيباً من السلطان وعهد إلى نيولنسكي بالاتصال بلجان الأرمن في أوروبا ، وإقناعهم بالكف عن المذابح والأعمال الإرهابية ، فإذا ما قبلوا بمنحهم السلطان عن طيب خاطر الإصلاحات التي يرفض أن يعطيهم إياها تحت ضغط الدول الأوروبية الكبرى ، وأن على الأرمن أن يظهرُوا استعدادهم الطيب بالموافقة على هدنة والانتظار شهراً . وقد تظاهر هرثزل زعيم الحركة الصهيونية وكذلك نيولنسكي بقبول القيام بهذه المصاعى ، وأن يعملوا سراً على التصوف وأن يقوموا خلال هذه الفترة بمفاوضات مثمرة مع السلطان ، يقدم فيها الأخير تنازلات للقضية الصهيونية تتطوى على خدمات مؤكدة لها . وكان هرثزل يرى أن قضية الصهاينة لا بد أن تسبق تسوية قضية الأرمن^(٢) ، ولكن عبد الحميد كان من اللذكاء بحيث لم يسمح للصهيونيين بتحقيق أحلامهم ؛ من أجل تسوية مشكلة الأرمن وذلك فشل المخطط الصهيوني .

مذابح وعمليات إرهابية يرتكبها الأرمن في إستانبول (أغسطس ١٨٩٦)

(١) مهاجمة مقر البنك المركزي في حي السفارات :

أراد الأرمن مزيداً من التصعيد لعملياتهم الإرهابية كي يبرهنوا للدول الأوروبية على

= دكتور حسن صبرى الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين إلخ ، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا ، ١ ، ص ٥٧-٦٤ .

(١) ملف وثائق فلسطين جزآن من مطبوعات وزارة الإرشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، الجزء الأول من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٤٩ ، وثيقة رقم ٢٦٠ . يوميات هرثزل في ٧ من مايو - أيار - سنة ١٨٩٦ .

(٢) المرجع السابق .

أنهم شعب حى يبتغى التحرر من الحكم العثماني ، وأن هذا الشعب ماضى فى طريق العنف الثورى المسلح مهما كانت تضحياته حتى يظفر بالاستقلال أسوة بغيره من الشعوب . وحدث أن أصدر السلطان عبدالحميد ، إرادة ، بعزل البطريرك الأرمني فى إستانبول بسبب شبّهات قوية حامت حول تصرفاته ، وعين السلطان مكانه بطريركاً جديداً بطريقة قيل إنها غير قانونية . وانتهزها الأرمن فرصة لبدء جولة جديدة من المذابح والاضطرابات فى إستانبول ، وتكون أشد عنفاً وأكثر تحدياً للسلطان والحكومة العثمانية .

قام أربعة وعشرون إرهابياً أرمنياً فى وضح النهار من يوم ٢٦ من شهر أغسطس - سنة ١٨٩٦ بهجوم مسلح على فرع البنك المركزى العثماني فى حى بك أوغلى فى ضاحية جالاطه ، إحدى ضواحي إستانبول ، ومقر دور السفارات الأجنبية فى العاصمة ، وحاصروا البنك ، ووضعوا القنابل فى أنحاء مبنى البنك ، وأخذوا بعض مستخدميه كرهائن . واتخذوا إجراءات شتى لفرض الحصار على مبنى البنك مدة طويلة أملاً فى إثارة مخاوف الأوروبيين على أرواحهم ومصالحهم .. وفعلاً تدخل سفراء الدول الأجنبية ، وحصلوا من الباب العالي على جوار أمان شخصى *un sauf-conduit* للإرهابيين الأرمن بضمان السفراء وتحت حمايتهم لمغادرة إستانبول على ظهر باخرة فرنسية إلى الخارج . وكان هجوم الثوار الأرمن على مقر البنك العثماني فى جالاطه بإستانبول أثر سىء بالنسبة للدولة العثمانية ؛ إذ اتخذت المنظمات الإرهابية فى مقدونيا من هذا الحادث فيما بعد مثلاً ، تحذيه فى هجومها على مقر البنك العثماني فى سالونيك كما سنوضح فى موطن قادم .

(٢) الأرمن يهاجمون مقر الباب العالي والسوق القديم :

لم يكد الإرهابيون يستقلون الباخرة الفرنسية وتبحر بهم .. حتى عمد إرهابيون آخرون إلى عمليات ثورية جديدة ، فهاجموا مبنى الباب العالي وأصابوا عدداً من موظفيه بجراح بالغة نتيجة ضربهم بالهراوات . واقتحم عدد من الأرمن مكتب الصدر الأعظم ، وهم يحملون الطلبنجات (المسدسات) من قبيل التهديد بقتله ، واتجهت جموع أخرى من الإرهابيين إلى السوق القديم فى إستانبول ، وألقوا القنابل ذات اليمين وذات الشمال على المحلات التجارية ، وأطلقوا الأعيرة النارية على كل من صادفوه من المارة ، فكانت مقتلة مروعة أوقعها الإرهابيون بتجار هذا السوق ورواده (١) .

(٣) الأرمن يحاولون اغتيال السلطان عبدالحميد :

انتهز الأرمن فرصة زهاب السلطان عبدالحميد إلى جامع السلطان محمد أبى الفتوح أو الفاتح ، وكان السلطان عبدالحميد قد اعتزم أداء صلاة الجمعة فيه . وألقوا على السلطان قنبلة

نجا منها بأعجوبة ، بينما لقي عشرون من رجال الحرس السلطاني والشرطة مصرعهم ، بعد أن اشتبكوا مع الأرمن الإرهابيين في معركة ^(١) .

انتقام السلطات العثمانية من الأرمن :

عمدت السلطات العثمانية إلى عمليات انتقام واسعة ورهيبة ضد جميع الأرمن في إستانبول .. فكان الجنود العثمانيون المسلحون بالهراوات يضربون كل أرمني صادفوه ، ثم اتجهوا إلى مساكن الأرمن ، وناهموا منازل الأجانب الذين يستخدمون الأرمن خدماً لهم ، وكذلك المحلات التجارية الأرمنية أو المحلات التي يعمل فيها مستخدمون أرمن . وكان ضباط الشرطة يوجهون الجنود المهاجمين إلى أماكن تجمعات الأرمن ، سواء في محلاتهم التجارية أو للمؤسسات التي يعملون فيها أو منازلهم . وقد عدد القتل الأرمن في يومي ٢٧ ، ٢٨ من أغسطس - آب - سنة ١٨٩٦ بستة آلاف نسمة . وقد حمل الأستاذ جرانت Grant حملة عنيفة على السلطان عبد الحميد ، فقال إن هذا السلطان شرع عمداً في تدبير المذابح لارعاياه الأرمن دون أن يهتم باعتراض بريطانيا واحتجاجاتها ، وقد أنت للكتب الزرقاء البريطانية لسنة ١٨٩٦ على ذكر القصة الرهيبة لهذه الفظائع ^(٢) . وتناسى هذا المؤرخ الهجوم الذي قام به الإرهابيون الأرمن على مقر البنك العثماني في ضاحية جالاطة في إستانبول وعلى مقر الباب العالي والسوق القديم ومحاولتهم اغتيال السلطان .. تناسى هذا المؤرخ وغيره من المؤرخين والباحثين المذابح التي أوقعها الأرمن برعايا السلطان المسلمين والأعمال الإرهابية ، التي ارتكبوها في يومي ٢٧ و ٢٨ من أغسطس - آب - سنة ١٨٩٦ ، وأجمعوا رأياً على أن مذبحه الأرمن في إستانبول في هذين اليومين تشبه مذبحه الهوجونوت ^(٣) Les Huguenots يوم عيد القديس برثللميو Saint Barthelemy في ٢٤-٢٥ أغسطس - آب - سنة ١٥٧٢ في تاريخ فرنسا وراح ضحيتها ٣,٠٠٠ نفس في باريس ٨,٠٠٠ في الأقاليم ^(٤) . أما من وجهة النظر الشرقية

(1) Loc. cit.

(2) Grant A.J. and Temperley Harold; op. cit., p. 305.

(٣) الهوجونوت مصطلح تاريخي، معناه بروتستانت فرنسا، وهو مشتق من اللغة الألمانية ومعناه الحرفي «الرفاق المتعاضدين الذين أدوا القسم» . وفي مدينة جنيف أطلقت كلمة eidgenots أو eignots على المطالبين بمقد تعالف بين مدينة جنيف ومقاطعة بون السويسرية، على أساس أن طرفي التحالف المنشود يمتلكان الذهب البروتستانتي . وقد اشتقت من الكلمة الأخيرة اللفظة المشهورة هوجونوت . وقد عارض علماء لغة الفرنسية هذا التفسير لاشتقاق كلمة هوجونوت، وقالوا إنها مشتقة من كلمة فرنسية شعبية، فهي بالتالي كلمة فرنسية أصيلة .

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، الطبعة الرابعة ١٩٨٠ ، القاهرة ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٥٠٠ ، حاشية رقم (١) .

(٤) كان شارل التاسع ملك فرنسا (١٥٦٠-١٥٧٤) قرر تزويج أخته ماجريت دي فالوا Marguerite de Valois من هنري صاحب نغار Henri de Navarre رئيس الهوجونوت، الذي قدر له أن يصبح فيما =

الإسلامية المحايدة فقد أوضحها الزعيم مصطفى كامل باشا رئيس الحزب الوطني في مصر (١٨٧٤-١٩٠٨) بقوله إن أعداء الدولة العثمانية تجاهلوا ماحدث ومايحدث في كل الدول

= بعد هنري الرابع ملك فرنسا (١٥٨٩-١٦١٠) . وقد عقد هذا الزواج المخلط في ١٨ من أغسطس - آب - سنة ١٥٧٢ . وقبل عقد هذا الزواج بستتين ، كان شارل قد أبرم صلح سان جرمان Saint-Germain في أغسطس - آب - سنة ١٥٧٠ مع الهوجونوت ، وبمقتضى هذا الصلح سمح لكبار النبلاء - كما كان الحال من قبل - بأن يقيموا الصلوات طبقاً لمذهب الهوجونوت في قلاعهم ، لكل من يرغب في حضورها ، وعلى بقاء شعائر الصلاة البروتستانتية في كل المدن التي تمارس فيها فعلاً ، وفي مدينتي في كل مقاطعة إدارية في فرنسا . ووضعت ضمانات لمنع المظالم التي تتخذ شكل القانون ، كما وضعت في يد الهوجونوت لمدة سنتين أربعة أماكن ، ذات أهمية حربية عظيمة ضماناً لتنفيذ صلح سان جرمان . وهذه الأماكن هي لاروشيل La Rochelle ومونتوبا Moutauban وكونياك Cognac ولاشاريتيه La Charité وهكذا أصبح للهوجونوت كيان ديني في فرنسا تمثله هيئة ذات مصالح خاصة بها . وبما الملك إلى جانبه جاسبار كولينى L' Amiral Gaspard de Coligny زعيم الهوجونوت ، وأصبح أحب وزير الملك . وبما هو جدير بالذكر أن مربية بروتستانتية كانت قد قامت على تنشئة الملك شارل التاسع .

كان إبرام صلح سان جرمان وزواج أخت الملك من أحد كبار الهوجونوت سببين جعل كل كاثوليكي في فرنسا ، يحقد على الملك شارل التاسع . فقد تبوأ الهوجونوت مكاناً علياً في بلاط الملك ، وكانت على رأس الحاقدين والدة الملك ، وهي كاترين دي مونتشي Catherine de Medicis وهي إيطالية من أسرة مونتشي في فلورنسا ، كانت مركز قوة في فرنسا وأطلق عليها «السيدة الأفعى» Madame La Serpente وكانت في فرنسا أسرة كاثوليكية لها وزن كبير في الحياة السياسية والعسكرية والدينية ، في أسرة فرنسو دي جيز François de Guise ، وكان فرنسو هذا يعد عميد الأسرة وأحد رجالات فرنسا العسكريين ، قاد القوات المسلحة الفرنسية دفاعاً عن متز Metz ، واستولى على ثغر كاليه Calais ، وكان يتزعم هذه الأسرة أيضاً من الناحية الدينية أخوه شارل صاحب اللورين ، وكاردينال ريمز Reims فكان في استطاعة أسرة جيز أن تلغز بأن لديها جندي فرنسا الأول ، وتضم أبرز رجال الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا ، ولكن لم يقف نفوذ أسرة جيز عند هذا الحد ، فإن أختاً لفرنسو دي جيز كانت زوجة ملك أسكتلندا ، وكانت ابنة عم له تجلس على عرش فرنسا ، وهكذا كانت أسرة جيز تمثل أعرق هيئة سياسية ودينية تدافع عن المصالح الكاثوليكية في فرنسا بسبب هذه المصاهرة مع ملكين متوجين ، كما أن هذه الأسرة كانت تضع يدها على خمس عشرة أسقفية وأملاك واسعة على طول الحدود الشرقية لفرنسا . وقد تطلعت إسبانيا وروما إلى هذه الأسرة ، كي تقوم بالعهد الأكبر في الدفاع عن الكاثوليكية في فرنسا .

أما الهوجونوت فكان نفوذهم قوياً في غربي فرنسا وجنوبيها الغربي وكذلك في نورمندي واستطاعوا أن يجتذبوا إليهم كثيراً من سفار النبلاء وأعيان الريف في هذه المناطق إلى حلبة الصراع . وبما ساعد على دعم مركز الهوجونوت في مواجهة الكاثوليك في فرنسا وجود جماعة لها ثقها في وسط فرنسا بوجه خاص ، كان يتزعمها السياسي المخضرم أن مونتورنسى Anne Montmorency (١٤٩٣-١٥٦٧) . وكان أفراد هذه الجماعة مخلصين للكاثوليكية ، ولكنهم لم يكونوا يتكونون تقديراً للملكة الوالدة ولا لأسرة جيز . وانضم أبناء عمومة هذا المخضرم السياسي ، ويطلق عليهم الإخوة شاتلين Chatillon Broth-ers إلى الهوجونوت . وأصبح أحدهم وهو جاسبار كولينى ، الذي سبق ذكره ، أقرب الوزراء إلى الملك شارل التاسع ، وبالتالي أصبح الهدف الرئيسي لانتقام الكاثوليك .

وضعت الملكة الوالدة خطة لاغتيال جاسبار كولينى ، وبينما كان ماراً في أحد شوارع باريس في ٢٢ من أغسطس - آب - سنة ١٥٧٢ ، أطلق عليه أحد الكاثوليك عياراً نارياً لم يصبه في مقتل ، ولكن أصيب =

الأوروبية لو قامت فلة بالثورة في وجه الحكومة للشرعية ، وضرب الأمثلة على ذلك بثورة إيرلندا ضد إنجلترا وثورة اليهود في سنة ١٨٥٧ ضد الحكم البريطاني ، ومعاملة فرنسا ضد الجزائر . ولو أننا نرى أن التشبيهيين الآخرين غير دقيقين ، وتساءل مصطفى كامل باشا ماذا تعمل الحكومة الفرنسية لو قامت في فرنسا جماعة من اليهود وثأروا في وجه الجمهورية الفرنسية . واختتم تعليقه قائلاً إنه لا مراء في أن للعثمانيين المسلمين عذرهم إذا كانوا قد أجابوا على اعتداء الأرمن عليهم ، فهذا واجب تفرضه الوطنية للحقة ، وماثور الأرمن في نظر المنصفين إلا خونة (١) .

سجراح يقبض على الجاني . وثارت ثائرة الهوجونوت على محاولة اغتيال زعيمهم ، وكان موضع إجلالهم وتقديرهم . وعمد الملك إلى الانتقام من الجاني والتنكيل به ، وأمر بإجراء تحقيق لكشف بواعث الجريمة والحرصين عليها ، وحشيت الملكة الوالدة أن يقتضح أمرها وصممت على إعادة المحاولة في نطاق واسع بحيث لا يكون الاغتيال مقصوراً على الأميرال جاسبار كوايني فحسب ، بل يشمل أكبر عدد ممكن من الهوجونوت . وأنضت في روع الملك أنهم يدبرون مؤامرة لقتله . وبما ساعد على تصديق الملك لهذه المؤامرة المزعومة حدوث مؤامرة على عهد سلفه فرانسوا الثاني لخطف الملك ، واكتشفت المؤامرة ووقعت عقوبات قاسية على المتآمرين .

واحتدمت المناقشة بين الملكة الوالدة وابنها شارل التاسع، وتمت موافقته، بعد أن قال لها :

Vous le voulez? Eh bein qu'on les tue, mais qu'on les tue tous.

هل تريدن قتلهم ؟ فليقتلوا ، ولكن يقتلون جميعاً .

وكانت باريس تعوج في ذلك الوقت بجموع كثيفة العدد من نبلاء الهوجونوت وعامتهم، جاوا إليها من كل فج عميق ليشهدوا حفلات الزفاف الملكي . ورات الملكة الوالدة وأفراد أسرة جيز أنتهاز هذه الفرصة الذهبية لاقتناص الهوجونوت والتخلص منهم بقتلهم، وحدوا يوم ٢٤ أغسطس - آب - سنة ١٥٧٢ - وهو عيد القديس بارتلميئ موعداً لتنفيذ الجريمة الجماعية . وفي جوف الليل وضع الكاثوليك علامات على بيوت الهوجونوت المقيمين في باريس وعلى الأماكن التي نزل فيها الهوجونوت الوافدون من الأقاليم . ولما حانت ساعة الصفر - وهي الخامسة من صباح لك اليوم - نقت أجراس بعض الكنائس الكاثوليكية . وانطلق الكاثوليك في وحشية ملتعبة يقتلون الهوجونوت، دون تمييز بين الرجال والنساء والأطفال ، وكان أول القتل جاسبار كوايني . وقد عدد الهوجونوت الذين أُرِفقت أرواحهم خلال هذا اليوم بين ثلاثة وأربعة آلاف في باريس وحدها . وسرعان ما انتقلت هذه المقتلة الرهيبة إلى أقاليم فرنسا ودامت عدة أيام ، وقد فالت في قسماتها مقتلة باريس . وكان الكاثوليك يقومون بعمل بهيج وهم يقتلون بجثث الهوجونوت، وأرسل رأس كوايني إلى البابا الذي بعث «بالوردة الذهبية» The Golden Rose إلى الملك ، كما أمر بنقش ميدالية تخليداً لهذا الانتصار الديني للذهبي ، وأقيمت في كنيسة مريد صلاة شكر *te deum* رأسها ملك إسبانيا .

وتعد منجحة سان برتلميئ أبشع صورة في تاريخ التعصب الديني في فرنسا .

انظر :

Fisher H.A.L.; A History of Europe, op. cit., pp. 567-577.

(١) مصطفى كامل ، المسألة الشرقية ، ج ٢ ، ص ٢٤٢-٢٤٤ .

مطالب الأرمن في سنة ١٨٩٦ :

قدم الثوار الأرمن عقب أحداث يومي ٢٧ و ٢٨ أغسطس - آب - سنة ١٨٩٦ مذكرة إلى سفراء الدول الأوروبية في إسطنبول، تضمنت مطالبهم ، وطالبوا إبلاغها لحكوماتهم ولحكومة السلطان عبدالحميد الثاني . وكانت تشمل :

أولاً : تشكيل لجنة جديدة تتولى التحقيق أحداث المذابح، التي وقعت في الولايات الأرمنية المست .

ثانياً : تعيين ولاية مسيحيين لحكم الولايات الأرمنية ، وأن يكون نوابهم بلقب قائمقام، وأن يكونوا مسيحيين أيضاً .

ثالثاً : تشكيل قوات مسيحية من الشرطة والجندرية والمليشيا تحل محل القوات الإسلامية العثمانية في الولايات الأرمنية .

رابعاً : إعفاء الأرمن من جميع الضرائب لمدة خمس سنوات ، ثم تخفيض هذه الضرائب بعد انتضاء السنوات الخمس بنسبة ٨٠ ٪ ، ويدفع الأرمن ٢٠ ٪ من الضرائب المقررة عليهم تعويضاً للأرمن عن الخسائر الفادحة، التي تحملوها في الأرواح والأموال الثابتة والمنقولة .

خامساً : إصدار عفو عام عن جميع الأرمن مرتكبي حوادث المذابح والعمليات الإرهابية أو المتهمين فيها ، وإرجاع كافة الممتلكات التي صادرتها الحكومة إلى ذويها .

سادساً : زيادة الاعتمادات المالية التي تخصصها الحكومة المركزية في إسطنبول للإنفاق الحكومي في الولايات الأرمنية الست في مجالات إنشاء المدارس، على اختلاف درجاتها ونوعياتها وكذلك المشروعات ذات المنفعة العامة (١) .

ولاجدال في أن هذه المطالب كانت في مجموعها مطالب تعسفية . وكان الأرمن قد أصبحوا يشكلون دولة مستقلة ملتصقة تملئ شروطها على دولة منهزمة هي الدولة العثمانية، ولكن تنفيذ هذه المطالب كان يؤدي إلى قيام حكم ذاتي للأرمن في نطاق الدولة العثمانية إذا صرنا صفحاً عن مطالبهم الخاص بالإعفاء الكلي من الضرائب لمدة خمس سنوات، ثم تخفيض هذه الضرائب إلى الخمس .

لم يكن في مقدور السلطان عبدالحميد أن يستجيب استجابة كاملة لمطالب الأرمن .. وإلا اهتز مركزه اهتزازاً عنيفاً في نظر رعاياه وفي نظر الدول . واستطاعت القوات العثمانية

رفع الحصار عن البلك الذي بدأ بعد بضعة أيام يستقبل عملاءه ويمارس نشاطه المصرفى ، ولكن فى نطاق محدود أول الأمر . ولكى يخفف السلطان من حدة التوتر ويمنع وقوع مصادمات جديدة ويحول دون تدخل الدول الأوروبية ، وكان يشتم أنه وشيك الوقوع ، بدأ فى تعيين إداريين مسيحيين فى الولايات الست فى شرق الأناضول ، على الرغم من أن سكانها المسيحيين كانوا يشكلون أقلية عددية بالنسبة لغالبية السكان المسلمين .

فشل مبادرة بريطانية للتدخل :

وفى ذلك الوقت حاول لورد سالزبرى رئيس الوزراء البريطانية ووزير الخارجية فى وزارته الثالثة (١) أن يظفر بتأييد قيصر الروسيا الجديد نقولا الثانى (١٨٩٤-١٩١٧) فى إحار وحداث من الأسطول البريطانى إلى إستانبول كوسيلة للضغط على السلطان؛ كى يستجيب الأخير لمطالب الثوار الأرمن . ولكن قيصر الروسيا خشى أن يؤدى اقتراح رئيس الوزارة البريطانى إلى زيادة نفوذ بريطانيا فى الدولة العثمانية ، وانضمت فرنسا إلى القيصر تعترض على التدخل الانفرادى البريطانى للضغط على السلطان . وهكذا فشلت المبادرة البريطانية ولم يحدث تدخل أوروبى لصالح القضية الأرمنية (٢) .

تعزيز القوات الكردية والتركمانية لمواجهة اضطرابات الأرمن ومذابحهم :

ولكى يواجه السلطان عيد الحميد حوادث الاضطرابات والمذابح التى يرتكبها الأرمن فى شرقى الأناضول ، عزز فى سنة ١٨٩١ الفرسان للحميدية ، وهم قوات من الفرسان كان يجمعهم من قبائل الأكراد والتركمان . وكان إنشاؤها فى أول الأمر بهدف مراقبة الحدود العثمانية الروسية وللوقوف فى وجه قوات القوزاق فى بلاد القرم ، ولمراقبة سلوك أفراد قبائل الأكراد والتركمان يجعلها مسئولة عن تصرفاتهم ، وقد أنشئت فى ولايات قان ، وبنتليس ، وأرضروم ، وكان عددها يبلغ ٥٠,٠٠٠ فارس . ولما تفاقمت حوادث الاضطرابات والمذابح التى يقوم بها الأرمن ، امتدت هذه القوات إلى الولايات الثلاث الأخرى بحيث أصبح اختصاصها يغطى الولايات الست الأرمنية . وكانت هذه القوات مقسمة إلى مجموعات ، تتألف كل مجموعة من عدد يتراوح بين ٧٦٨ و ١١٥٢ رجلاً . وكان على كل قبيلة أن تزود الفرسان الحميدية بمجموعة واحدة أو أكثر من مجموعة تبعاً لتعداد أفرادها .. أما القبائل الصغيرة فكان

(١) ظل سالزبرى يجمع بين هذين المنصبين من تاريخ تأليف الوزارة فى شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٩٥ حتى شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٠٠ ، حين تولى لورد لانسدون Lansdowne أعباء وزارة الخارجية .

انظر :

Ensor R.C.K., op. cit.; pp. 611.

(2) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 205.

عليها أن تقدم مجموعات صغيرة العدد تلتحق بالمجموعات الكبرى . وكانت للحكومة تمنح جميع أفراد هذه القوات امتيازات متنوعة ، فكانت تعفيهم هم وأفراد عائلاتهم الذكور من الخدمة العسكرية في الجيش النظامي ، كما كانت تعفيهم من جميع الضرائب ماعدا ضريبة «خراجي مقاسمة» أي ضريبة العشور^(١) ، ومن «عديتي أغنام» أي ضريبة الأغنام^(٢) . وكانت تقدم لهم الأسلحة عند استدعائهم للخدمة ، ولكنهم كانوا يحتفظون عادة بأسلحتهم الخاصة التقليدية . وكان يرأس المجموعات رؤساء القبائل . وكان ضباط الجيش النظامي يزورون هذه المجموعات لتدريب أفرادها وللتأكد من ارتفاع مستواهم الحربي . وأنشأ عبدالحميد أيضاً «عشيرة مكتبية» أي المدرسة القبلية^(٣) ، لتدريب الضباط الأكراد والتركمان . كما كان يرسل ضباطاً من البدو إلى المدارس الحربية ومدارس الفرسان للتدريب . وبعد انتهاء دراساتهم يعودون إلى مجموعاتهم في شرقي الأناضول ، وقد نمت «قوات الفرسان الحميدية» نمواً سريعاً فكانت تضم في سنة ١٨٩٢ أربعين مجموعة موزعة على الولايات الست ، وارتفع هذا العدد في سنة ١٨٩٣ إلى ست وخمسين مجموعة ، ثم قفز هذا العدد إلى ثلاث وستين مجموعة في سنة ١٨٩٩ بهدف القضاء على المذابح والاضطرابات التي يرتكبها الأرمن^(٤) ، وظل هذا النظام قائماً إلى عزل السلطان عبدالحميد سنة ١٩٠٩ .

إيقاف مؤقت لنشاط جمعية داشناكس الإرهابية :

وقرب نهاية القرن التاسع عشر حين كان الأمير جولتزن Golitzin حاكماً عاماً لإقليم القوقاز ، حاولت السلطات الروسية وقف نشاط جمعية داشناكس الإرهابية الأرمنية ، وذهبت إلى حد إغلاق الكنائس والمدارس الأرمنية ومصادرة أموال هذه الكنائس . ويبدو أن هذا الحاكم العام أنتهج من تلقاء نفسه هذه السياسة العدائية للأرمن؛ إذ انقلبت هذه السياسة رأساً على عقب بتعيين الكونت فورونتزوف داشكوف Count Vorontzoff Dashkoff نائباً للقيصر في منطقة القوقاز سنة ١٩٠٣ ، فأعيد فتح الكنائس والمدارس الأرمنية ، وأعيدت للكنيسة الأموال التي كانت قد صودرت ، وعادت جمعية داشناكس تعيد تسليح المتطوعين الأرمن في الدولة العثمانية^(٥) إمعاناً في السياسة الإرهابية التي انتهجها الأرمن .

(١) ضريبة العشور ضريبة نوعية يقترها جامعو الضرائب وقت الحصاد ، وكانت تختلف من منطقة إلى أخرى.

(٢) ضريبة الأغنام من ضرائب المراعي ، وهي تقدر على أساس عدد الأغنام التي يسرحها الرعية .

(٣) يطلق عليها بالإنجليزية The Tribal School .

(4) Stanford I. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol 2, p. 246.

(5) Kruger K.; op. cit., p. 128.

هجوم نسبي مؤقت :

تصادف وقوع خلافات داخلية بين جموع الأرمن .. كان المتطرفون يرون المضي في العمليات الإرهابية حتى يستجيب السلطان استجابة كاملة للمطالب الأرمنية ، بينما رأى المعتدلون - وكانوا يشكلون أكثرية عددية - وقف الإرهاب وإعطاء السلطان عبد الحميد فسحة من الوقت لإخخال مزيد من الإصلاحات، يستكملون بها استقلالهم الذاتي كخطوة نحو إنشاء جمهورية أرمنية مستقلة تمام الاستقلال ، أو انتظار العون من الدول الأوروبية . ورجحت كفة الفريق المعتدل ، وكان من عوامل رجحان كفة هذا الفريق صدور فرمان بالعفو العام ، وتعيين أرمن في المناصب الحكومية في الولايات الست في شرقي الأناضول وفي الحكومة المركزية في إسطنبول ، والسماح للتجار الأرمن بمزاولة نشاطهم ، وللمزارعين الأرمن بعرض إنتاجهم الزراعي في الأسواق ، ومن ثم بدأت تهدأ قليلاً حدة المنازعات بين الأرمن والمسلمين .

هجرة جموع من الأرمن :

وآثرت جموع من الأرمن المعتدلين أن يمارسوا نشاطهم التقليدي والمكثف في جو هادئ بعيد عن الاضطرابات المتجددة والمحتملة بفعل مواطنيهم المتطرفين ، فهاجرت جموع غفيرة من الأرمن المعتدلين إلى خارج ممتلكات الدولة العثمانية : إلى مصر ، وكانت وقتذاك تحت الاحتلال البريطاني ، وإلى فارس (إيران) وإلى بعض الدول الأوروبية وإلى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا . وكانت هجرة الأرمن إلى أمريكا الشمالية من أبرز الهجرات الجماعية الأرمنية، بينما كان القرن التاسع عشر يلفظ أنفاسه الأخيرة . واستقر الأرمن في مهاجرهم الجديدة وكرسوا أوقاتهم ونشاطهم وقدراتهم المتعددة لبيدأوا حياة جديدة مثمرة لهم ولذريتهم . ومما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من هجرات الأرمن إلى خارج ممتلكات الدولة العثمانية ، أخذ تعدادهم داخل أراضي الدولة العثمانية يزداد باطراد خلال السنوات السابقة لقيام الحرب العالمية الأولى، كما يتضح من اللبث التالي :

تعداد الأرمن في الدولة العثمانية منذ سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩١٤ (١)

السنة	الأرمن في العثمانيين	الكاثوليك	البيسنتات	مجموع الأرمن	المجموع الكلي للسكان	النسبة المئوية لعدد الأرمن
١٨٨٢	٩٨٨,٨٨٧	١٠٠,١٦٠	٣٦,٣٣٩	١,١٢٥,٣٨٦	١٧,٣٧٥,٢٢٥	٦,٤٧
١٨٩٥	١,٠٤٦,٣٧٤	٨٠,٣٣٤	٤٤,٣٦٠	١,١٦٧,٠٠٨	١٩,٠٥٠,٣٠٧	٦,١٢
١٩٠٦	١,١٤٠,٥٦٣	٩٠,٠٥٠	٥٣,٨٨٠	١,٢٨٠,٤٩٣	٢٠,٩٤٧,٦١٧	٦,١٠
١٩١٤	غير معروف تماماً	غير معروف تماماً	غير معروف تماماً	١,٣٩٤,٨٣١	١٨,٥٢٠,٠١٦	٦,١١

(1) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw, op. cit. vol. 2, p. 205.

الأرمن يعلقون آمالهم على جمعية سياسية عثمانية يرأسها أمير عثماني :

فى وسط الظروف القاسية التى كانت تمر بها القضية الأرمنية فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، وفى مطلع القرن العشرين ، وأحداث الصدام المسلح والمذابح والاضطرابات تترى بعضها فى إثر بعض ، لاح بصيص من الأمل فى حل قضية الأرمن على أساس منحهم الحكم الذاتى فى نطاق الدولة العثمانية . ورأى فريق من الأرمن المعتدلين أن يستغلوا هذه الفرصة كخطوة توصلهم إلى الاستقلال التام . وتمثلت هذه الفرصة فى جمعية سياسية عثمانية أنشأها فى باريس سنة ١٩٠٢ الأمير صباح الدين (١٨٧٧-١٩٤٨) ، وهو من الأحرار ، وابن الداماد محمود جلال الدين باشا^(١)، الذى هرب فى سنة ١٨٩٩ إلى باريس مع ولديه الأميرين صباح الدين ولطف الله ، ثم هرب من بعدهم سنة ١٩٠٠ الزعيم الألبانى إسماعيل كمال بك . وكان قد سبقهم إليها ناظم السلايكي ، ورهط من الأحرار العثمانيين وتكاثروا عددهم فى باريس ، ولندن ، وبروكسل ، وجنيف ، ومصر التى كانت وقتذاك تحت الاحتلال البريطانى . وكانوا يعارضون الحكم الفردى الذى كان يمارسه السلطان عبدالحميد . وهنا وصل الداماد محمود إلى باريس ، واتصل بأقطاب الأحرار العثمانيين فى أوروبا وتبادل معهم الرسائل . واندفع فى حركة المقاومة ضد عبدالحميد ، الذى بذل عدة محاولات لإغرائه على العودة إلى إسطنبول . وكان رد الداماد أن ليس له من رغبة فى شيء ولا لأولاده إلا أن يعيد السلطان العمل بالدستور ، وسوف لا تنطأ قدما أرض الوطن إلا بعد أن يتحقق هذا الشرط^(٢) . واتجهت أنظار الأحرار العثمانيين فى أوروبا إلى الداماد محمود لتوحيد صفوفهم وتنسيق خططهم ، لأنه كان بحسب مركزه الاجتماعى فوق الخصومات . ولكنه جاز إلى ربه سنة ١٩٠٢ فحمل ابنه الأمير صباح الدين الرسالة ، ووجه نداء إلى العثمانيين الأحرار فى أوروبا ، يدعوهم إلى مؤتمر يعقد فى باريس لبحث الوسائل ، التى تؤدى إلى إعادة الحياة الدستورية إلى البلاد^(٣) .

الأرمن ومؤتمر الأحرار العثمانيين فى باريس سنة ١٩٠٢ :

اجتمع المؤتمر أولاً فى دار أحد الأحرار الأثرياء الفرنسيين فى باريس^(٤) فى الفترة من ٩ إلى ٩ فبراير - شباط - ١٩٠٢ ، وحضره ممثلون عن جميع الجنسيات والديانات والمذاهب الدينية والطوائف الخاضعة للدولة العثمانية ، وكان أول مؤتمر من نوعه فى تاريخ الدولة

(١) داماد كلمة تركية كما ذكرنا معناها صهر ، والداماد محمود جلال الدين باشا كان زوجاً لابنة السلطان عبدالحميد وأخت السلطان عبدالحميد .

(٢) توفيق على بىرو ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٣ .

(٣) Ramsaur E.E.; The Young Turks; Prelude to the Revolution of 1908. Princeton, 1957, p.

(٤) انتقل المؤتمر بعد الجلسة الأولى إلى دار الأمير صباح الدين ، حيث عقد بقية جلساته .

العثمانية يجمع هذا الخليط المتنافر من الأعضاء ، وكان من بينها الوفد الأرمني . ورأس المؤتمر الأمير صباح الدين ، وكانت من بين الموضوعات التي عرضت على المؤتمر مسألتان أثارتا كثيراً من الجدل . كانت المسألة الأولى هي التماس تدخل الدول الأوروبية الموقعة على معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ومعاهدة برلين لسنة ١٨٧٨ ، وإبلاغها أن الشعب العثماني ينظر إليها بعين من تعهدت بشرقها أن تتبني الإصلاح لمصلحة الدولة العثمانية ؛ لإقامة نظام حكم دستوري . وكانت المسألة الثانية هي الأخذ بنظام عدم المركزية في حكم الولايات العثمانية خلافاً للأسلوب ، الذي كان يتبعه السلطان عبد الحميد ويصر عليه في حكم الدولة .

وعن المسألة الأولى كان الوفد الأرمني ، في ضوء معاناته أكثر أعضاء المؤتمر تحمساً لالتماس تدخل الدول الأوروبية كضمان فعال لتنفيذ الإصلاحات في الدولة العثمانية . وكوسيلة يظفر بها الأرمن لإنشاء دولة مستقلة لهم ، تشمل الولايات الست في شرقي الأناضول ، أو على الأقل ، لتقرير الحكم الذاتي فيها . والواقع أن جميع الأقليات غير الإسلامية والطوائف غير التركية كانت لاترغب في تأييد المطالبة بإعادة الدستور أو إدخال إصلاحات تؤدي إلى تقوية الدولة العثمانية . ولكن عارض هذا الاتجاه أحمد رضا بك ^(١) ومشايعوه تأسيساً على أن المسألة في تقديرهم هي مسألة داخلية ، وأن أي تدخل خارجي قد يؤدي إلى عواقب وخيمة ، ولكن الأمير صباح الدين وقف يؤيد الاقتراح الأرمني . واتخذ المؤتمر قراراً ينص على تنكير الدول الأوروبية بأن واجبها يقضى عليها ، من أجل المصلحة العامة للإنسانية ، بأن تتأكد من

(١) كان أحمد رضا (١٨٥٩-١٩٣٠) من الأعضاء البارزين في جمعية تركيا الفتاة . ولد في إستانبول . واشتهر والده على رضا بك باسم «إنجليز علي» أي على الإنجليز لمصادقته للإنجليز في أثناء حرب القوم ، وكانت والدته سيدة نمساوية أو مجرية اعتنقت الإسلام . وقد تلقى أحمد رضا علومه في جالاطه سراي ، ثم أوفد إلى فرنسا لتلقي العلوم الزراعية . وعين بعد عودته مديراً للتعليم في بورصة ، وفي سنة ١٨٨٩ حصل على إذن في السفر إلى باريس لزيارة المعرض العالمي ، الذي أقامته الحكومة الفرنسية في تلك السنة ضمن الاحتفالات والمهرجانات والنوادي ، التي نظمتها بمناسبة مرور مائة عام على قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ . ولكن استقر أحمد رضا بك في باريس ؛ لأنه كان قد شاق ذرعاً بالحكم الفردي الذي كان يمارسه السلطان عبد الحميد . وفي باريس تأثر بالأراء الفلسفية لبيير لافيت Pierre Lafitte أحد تلاميذ أوجست كومت Auguste Comte . وقد سيطرت هذه الآراء الفلسفية على تفكيره السياسي فيما بعد ، وفي سنة ١٨٩٥ أصدر رضا ، مستعيناً بثرائه العريض وبالتعاون مع خليل غانم ، وهو من الأحرار العثمانيين المنفيين ، جريدة نصف شهرية باللغتين التركية والفرنسية باسم «مشورت» أي المشورة ، كانت تطالب السلطان بإقامة حياة دستورية ، واقتبست الآيات القرآنية الكريمة التي تحض على الشورى والاتحاد . وقد قدر له أن يكون رئيساً لأول مجلس نيابي «مجلس المبعوثان» في سنة ١٩٠٨ ، بعد أن أعيد العمل بالدستور .

انظر كلاً من :

تنفيذ ما نصت عليه المعاهدات والاتفاقات الدولية التي عقدت بين هذه الدول والباب العالي ، على أن يكون تنفيذها بطريقة تستفيد منها جميع أجزاء الإمبراطورية العثمانية ^(١) ، واعترض أحمد رضا بك وأعضاء جمعية تركيا الفتاة على هذا القرار ، وسجلوه في مضابط المؤتمر على النحو التالي :

«نحن ، الأقلية ، مقتنعون بأن الدول الكبرى تسيطر في سياستها وفقاً لمصالحها . وهذه المصالح لا تتماشى دائماً مع مصالح بلادنا . وعلى ذلك ، فنحن نرفض رفضاً باتاً أي إجراء يعرض للخطر استقلال الإمبراطورية العثمانية . ومع ذلك فنحن لسنا معادين لأوروبا كما يزعم البعض ، بل على النقيض من ذلك ، إن أحد مطالبنا الرئيسية أن نشاهد الحضارة الأوروبية قد مدت ظلالتها في بلادنا ، وبوجه خاص في مجالات التقدم العلمي وفي نظمها النافعة . ونحن نتبع الطريق الذي سلكته أوروبا . ونحن ، حتى في رفضنا قبول التدخل الأجنبي ، نستوحي الإصرار الوطني الذي أظهرته الشعوب الأوروبية الغيرة على استقلالها ، والتي هي فخورة به بحق» ^(٢) .

أما فيما يختص بالمسألة الثانية ، وهي تطبيق نظام عدم المركزية في حكم الولايات العثمانية ، فقد ظهر أيضاً اتجاهان أو تياران متعارضان أشد التعارض .. طالب الوفد الأرمني بإصرار بأن تقام في كل ولاية عثمانية حكومة مستقلة إدارياً عن حكومة إسطنبول في جميع شئون الحكم ماعدا مسائل السياسة الخارجية والعسكرية ، ويكون لكل حكومة محلية اختصاصات واسعة في مسائل الإدارة والصحة والتعليم والأمن والمواصلات وما إلى ذلك . أما التيار الثاني.. فقد تزعمه أحمد رضا بك عن جمعية تركيا الفتاة ، وطالب بالإبقاء على الحكومة ذات السلطة المركزية في إسطنبول تجمع في يديها كافة السلطات تدعياً لمصلحة العصر التركي ، أي نادى بمركزية الحكم وضرورة انصهار جميع العناصر العثمانية في وحدة تامة ، وانتهى الأمر رأياً وقراراً إلى وجوب تطبيق سياسة عدم المركزية في حكم الولايات . ومعنى هذا القرار هو تهئية الجو السياسي لصيانة وتأييد الحقوق القومية لجميع العناصر الجنسية وأتباع المذاهب الدينية والطوائف المحلية في الدولة ، وما ينبق عن هذا الوضع السياسي من حكم ذاتي ومحافظة على الدين والمذهب اللذين يعتنقهما سكان الولاية ، وكذلك النواحي الثقافية والاجتماعية والتقاليد والعادات ، وهو الاتجاه الذي نادى به الوفد الأرمني . وقد اعترض أحمد رضا بك وجماعته على هذا القرار أيضاً . ومنذ ذلك الوقت تبلور الاختلاف في الرأي بين جمعية تركيا الفتاة والأمير صباح الدين إلى صراع بين الوطنية التركية Turkish

(1) Fesch, Paul; Constantinople aux derniers jours d'Abdul-Hamid. Paris 1907, p. 371.

(2) Ramsaur E.E.; op. cit., p. 69.

Nationalism والتحرير العثماني (١) Ottoman Liberalism ، وتصعيد التنافس بين أحمد رضا بك والأمير صباح الدين وجماعتيهما : تركيا الفتاة وحزب التشبث الشخصي وعدم المركزية ،

تأليف حزب سياسي عثماني يتمشى برنامجه مع أهداف الأرمن :

شرح الأمير صباح الدين عقب المؤتمر مباشرة في تأليف حزب سياسي عثماني في باريس ، وأطلق عليه اسم تشبثي شخصي وعمدي مركزيت جمعيتي سي ، أي جمعية التشبث الشخصي وعدم المركزية الإدارية ، (٢) ويلاحظ أن لفظة «الإدارية» لم ترد في النص التركي ، ولكنها وردت في النص الفرنسي ، وهي إضافة قصد بها التزيد Société d'Initiative Per-sonnelle et de Décentralisation Administrative . أما النص الإنجليزي فلم ترد فيه أيضاً كلمة «الإدارية» ، واستعويض عن كلمة Société بكلمة أخرى هي League بمعنى عصبة أو جماعة ، فأصبح النص الإنجليزي The League for Private Initiative and Decentralization وكان قيام الأمير صباح الدين بتأليف هذا للحزب السياسي تحدياً سافراً لجمعية تركيا الفتاة ، وفيما بعد لجمعية الاتحاد والترقي .

(١) Lewis B.; op. cit., p. 203.

(٢) هذا الحزب هو غير حزب اللامركزية الإدارية العثماني ، الذي أُلّف في القاهرة في أواخر عام ١٩١٢ فريق من المفكرين النابهيين من أعضاء الجالية السورية في مصر ، كانوا أول من تنبّه إلى خطورة هزائم الدولة العثمانية في الحرب البلقانية الأولى ، فزار بعض أعضائها رؤوف باشا المفوض العثماني في مصر . منبهين إلى الخطر الذي تستهدف له سورية من هجوم فرنسي كما فعلت إيطاليا بطرابلس الغرب . وطلبوا إليه أن يكتب إلى الباب العالي لاتخاذ التدابير للدفاع عن البلاد ، واقترحوا إنشاء مستودعات للأسلحة توزع على الأهالي لاستخدامها عند الغارة فيسرعون إلى الدفاع . ثم انفقوا على تأسيس حزب سياسي علني سموه حزب اللامركزية الإدارية العثماني ، ويقوم على أن تتولى كل ولاية إدارة شئونها الداخلية ، لأن ذلك أدعى إلى نفع الخطر . وتضمن برنامج الحزب أن الهدف من تأليفه هو توضيح مزايا نظام عدم مركزية الحكم في الدولة للشعب العثماني ، المؤلف من عناصر مختلفة في الأجناس والأديان والفئات والتقاليد ، والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قاعدة عدم المركزية الإدارية في جميع ولايات الدولة ، وكان مؤسسو الحزب هم : رفيع العظم ، والصيد محمد رشيد رضا ، والكتور شيلي شميل ، وإسكندر عمون ، وسامي الكريتي ، وحقي العظم ، ومحبي الدين الخطيب . والكتور عزت الجندى ، ونعمان أبو شعر ، وبلود بركات رئيس تحرير جريدة الأهرام . واختير رفيع العظم رئيساً ، وإسكندر عمون نائب رئيس ، وحقي العظم سكرتيراً عاماً ، ومحبي الدين الخطيب مساعداً للسكرتير العام .

انظر النظام الأساسي للحزب ويتألف من ثلاث وثلاثين مادة في كل من :

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٤-١٨ توافق على برو ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣٤-٤٤٤ .

وانظر أيضاً جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٥-١٨٦ .

تشكيل أجهزة الحزب وتأسيس شعب له في مناطق تجمعات الأرمن :

شكل الأمير صباح الدين مجلس إدارة للحزب الذي أسس شعباً في كل من أرضروم ، وطرابزون ، وإزمير ، ودمشق ، واللاذقية ، وعاليه في جبل لبنان . ويلاحظ أن هذه الشعب كلها قد أقيمت في الجزء الآسيوي من الدولة العثمانية ، كما أن معظمها يضم تجمعات أرمنية . وكانت هذه الشعب يتصل بعضها ببعض وتتصل مع المركز العام للحزب في باريس . أما شعبته في إسطنبول .. فقد تعهدتها جمعية أخرى ، هي «جمعية انقلابية» ، أي الجمعية الانقلابية ، وقد تأسست فيما بعد في سنة ١٩٠٤ بمعرفة مجموعة من طلبة الكليات والمعاهد والمدارس^(١).

البرنامج السياسي للحزب :

وقد وضعت الجمعية برنامجها على أساس عدم المركزية بحيث تخول حكومات الولايات اختصاصات واسعة ، فتقوم مجالس الإدارة العمومية والبلديات ، المنتخبة انتخاباً سرياً ، بالنظر في أمور ومصالح الولايات والنواحي وتشترك في إدارتها ، ويكون لأعضاء هذه المجالس اختصاصات كاملة في الشؤون المالية لكل ولاية وفي قوانينها ونظمها ، وفي تقرير الضرائب وطريق توزيعها على الممولين وتحصيلها منهم ، وتكون مناقشات المجالس علنية ، وتشترك كل ولاية في مجلس المبعوثان (النواب) في إسطنبول بنواب ، تنتخبهم المجالس العمومية لتقوية الروابط بين مختلف الولايات بعضها ببعض من جهة ، وبينها والحكومة المركزية في إسطنبول من جهة أخرى ، وتكون لكل ولاية قوة من الشرطة المحلية لحفظ الأمن الداخلي . أما الموظفون الإداريون فالحكومة المركزية تعين للولاة والمتصرفين ورؤساء المالية (دفتر دارنر) ومديرى العدلية (دفتر حقانى مديرارى) ، ورؤساء محاكم الاستئناف والمحاكم الابتدائية والمدعين العامين . أما بقية الموظفين .. فيختارهم الولاة ، ويعيّنونهم من أفراد مختلف القوميات في الولاية ، حسب النسبة العددية لكل من هذه القوميات^(٢).

وكان من الطبيعي أن تكون غالبية أنصار جمعية التثبث الشخصي وعدم المركزية الإدارية من رجال القوميات غير التركية والطوائف غير الإسلامية ؛ لأن الأمير صباح الدين كان ينادى بالمساواة بين شعوب وأجناس الدولة العثمانية ، ولأن برنامج الجمعية يكفل لهم حقوقهم القومية وإسهامهم في إدارة شئون ولاياتهم ، كما يكفل لهم اشتراكهم في مجلس المبعوثان على قدم المساواة مع العنصر التركي . وكان الأرمن على رأس هذه الطوائف غير الإسلامية والقوميات غير التركية .

(1) Lewis B.; op. cit., p. 203.

(٢) توافق على برو ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٠٥ .

الأمير ينادى بقيام دولة عثمانية دستورية اتحادية ذات حكم غير مركزي

يرى الأستاذ برنارد لويس أن الاسم المفرد في ملوله لحزب الأمير صباح الدين يرجع إلى تأثير الأمير بكتابات المفكر الفرنسي إدمون ديمولا Edmond Demolin الذي ألف كتاباً بعنوان : *Aquoi tient la superiorité des Anglo - Saxons* سنة ١٨٨٧ ، وترجم إلى الإنجليزية فور صدوره ، وجذب انتباه الكثيرين وبخاصة في أوساط المصلحين المسلمين وأحرارهم والداعين منهم إلى الأخذ بالأساليب الحديثة ، وهم يبحثون عن أسباب تخلف المجتمعات الإسلامية .

وقد ترجم أحمد زغول باشا هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان «سر تقدم الإنجليز السكسونيين» ، وترك هذا الكتاب بصمات قوية في أذهان المفكرين العرب والأتراك . وتقوم نظرية إدمون ديمولا على أن تفوق الإنجليز السكسونيين يرجع إلى تعليمهم المتفوق الذي أدى إلى النهوض بشخصية كل فرد منهم ، والابتكار الفردي والثقة في النفس والاعتماد على الشخص ذاته ، بدلاً من الاعتماد على الروح للجماعية التي هي شائعة في المجتمعات الإنسانية الأخرى . ومن قراءات الأمير صباح الدين تبلورت فكرته عن إمكان قيام دولة عثمانية اتحادية (فيدرالية) تستند إلى الحكم المركزي *A Federalized, Decentralized Ottoman State* ، وكان من رأى الأمير صباح الدين أن دولة ذات حكم وراثي وذات حكم دستوري على غرار نظام الحكم في إنجلترا تؤدي إلى حكومة مركزية في أضيق نطاق ، وأما سائر أجزاء الإمبراطورية العثمانية .. فإن الشعوب والطوائف المتعددة فيها تستطيع إرضاء أمانيتها ، وتستطيع أن تحافظ على حقوقها عن طريق حكومات إقليمية ومحلية ، وعن طريق حياة عامة *public life* متحررة من رقابة جماعية أو حكومية (١) .

وقد عمل الأمير صباح الدين بكل نشاط على ترويج آرائه السياسية والاجتماعية بين العثمانيين الموجودين في أوروبا ، فأسس سنة ١٩٠٦ في باريس جريدة باسم «ترقي» ، وعهد بإدارتها إلى أخيه في الرضاة أحمد فضلى بك (٢) .

إصرار الأرمن على قيام دولة مستقلة لهم خارج نطاق الدولة العثمانية :

أعلن الأرمن أن اللجان الأرمنية مستعدة للتعاون مع الأحرار العثمانيين في كل عمل مشترك ، يهدف إلى تغيير الأوضاع القائمة . أما خارج العمل المشترك .. فإن اللجان الأرمنية ستستمر في عملها الخاص ، وينبغي أن يكون مفهوماً جيداً أن هذا العمل موجه ضد النظام القائم وقتذاك في الدولة العثمانية ، وليس ضد وحدة للدولة أو كيانها الحى ، وأن عملهم الخاص

(1) Lewis B.; op. cit., p. 204.

(2) Ramsaur B.E., op. cit., p. 86, 120-122.

لايستهدف سوى تنفيذ سريع للمادة ٦١ من معاهدة برلين ١٨٧٨ ، والتي تعهدت فيها الدولة العثمانية بإدخال إصلاحات في ولايات الأرمن^(١) . ثم عاد الأرمن وقرروا أن الطريقة المثلّية لتحقيق مطالبهم القومية إنما تكون بإنشاء دولة لهم خارج نطاق الدولة العثمانية^(٢) ، ولهم فقدوا كل ثقة طالما كان السلطان عبد الحميد على رأس الدولة ، وحسبهم التجارب المريرة التي عايشوها منذ مؤتمر برلين الأوروبي لسنة ١٨٧٨ من نكث بالوعود .

ومن الجانب الآخر كان الأتراك الأحرار في مجموعهم معترضين من بادئ الأمر على برنامج حزب الأمير صباح الدين ؛ خاصة فيما يتعلق بالتماس تدخل الدول الأوروبية الكبرى وقيام للحكم غير المركزي ، ورأوا في هذين المبدئين خطراً يتهدد مستقبل الدولة بل إنه عملية انتحارية . ولذلك أعرضوا عن الحزب وانصرفوا عنه إلى «عثمانلي حريت جمعيتي» أي «الجمعية العثمانية الحرة» ، وهي جمعية سرية أنشئت في سالونيك^(٣) ، واندمجت جماعة أحمد رضا بك مع جمعيات أخرى وانطبق من هذا الانتماء جمعية الاتحاد والترقي التي اتهمت الأمير صباح الدين وأعضاء حزبه بأنهم غدوا مطية للأرمن يسعون لتحقيق أهدافهم على حساب المصالح العليا للدولة . وقالت عن الأمير إنه عميل الدول الأوروبية ، ينبغي تدخلها في شئون الدولة ، وإن أنصاره الأتراك ليسوا سوى رجعيين وجواسيس باعوا أنفسهم للأجانب . ووصفت دعوة عدم المركزية بأنها لاتعنى سوى تمزيق الدولة والقضاء على السلطنة والخلافة معاً وإخضاع المسلمين للكفار والأجانب^(٤) .

الأرمن الثوريون ومؤتمر باريس الثاني سنة ١٩٠٧ :

وفي سنة ١٩٠٧ حاولت جمعية داشناكس الثورية الأرمنية ، والتي يطلق عليها أحياناً الاتحاد الأرمني الثوري ، ويرمز إليها بالأحرف الثلاثة A.R.F.^(٥) توحيد صفوف المناوئين لحكم السلطان عبد الحميد وتنسيق التعاون بينهم ، فدعت إلى عقد مؤتمر في باريس^(٦) ، اجتمع فيها لمدة ثلاثة أيام من ٢٧ إلى ٢٩ من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٠٧ . واشترك في رئاسة المؤتمر ثلاث شخصيات : الأمير صباح الدين وكان لا يزال مقيماً في باريس ، وأحمد رضا بك وكان هو الآخر مبعداً أو منفياً في العاصمة الفرنسية ،

(1) Fesch p., op. cit., rr. 370-371.

(2) Lewis B.; op. cit., p. 204.

(٣) توفيق على بوز ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦-٨٧ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) انظر ماسبق .

(٦) يقرر بعض المؤرخين أن هذا المؤتمر هو الذي دعت إليه جمعية تركيا الفتاة ، ويطلق عليه المؤتمر الثاني لجمعية تركيا الفتاة ، بينما يقرر البعض الآخر أن جمعية داشناكس الأرمنية الثورية هي التي دعت إلى عقده .

وك. مالوميان K. Maloumian الأرمني معثلاً لجمعية داشناكس ورئيساً للوفد الأرمني في المؤتمر. وكانت بعض جلسات المؤتمر سرية ، ويبدو أنه خصصها لبحث الوسائل العملية السريعة لتحقيق أهدافه. وقد حرص أعضاء المؤتمر على تجنب الخوض في المسائل الأيديولوجية والنظرية . وعلق الأرمن آمالاً كبيراً على جمعية تركيا الفتاة لمساعدتهم في تحقيق أمانهم القومية ، وكانوا مصرين هذه المرة - أكثر من ذي قبل - على وضع برنامج عمل عاجل يحقق أهدافهم . واستطاع الوفد الأرمني أن يستصدر من المؤتمر قرارات ذات طابع ثوري عنيف ، كان من بينها :

أولاً : ضرورة خلع السلطان عبد الحميد من العرش .

ثانياً : يستبدل بنظام الحكم الفردي المطلق القائم في الدولة نظام جديد ، هو قيام حكومة دستورية نيابية .

ثالثاً : استخدام كافة الوسائل ، ومن بينها العنف الثوري إذا كان ضرورياً لتحقيق هذين الهدفين .

رابعاً : تنظيم مقاومة مسلحة في داخل الدولة للمظالم القائمة . وتسير هذه المقاومة المسلحة جنباً إلى جنب مع المقاومة السلمية ، التي تأخذ شكل إضرابات والامتناع عن دفع الضرائب .

خامساً : تعزيز وسائل الإعلام ضد النظام الحميدي .

سادساً : إذا فشلت كل هذه الوسائل .. فلا مناص من قيام ثورة هادرة ، يمتد لهيبها إلى كافة أنحاء الدولة .

ويلاحظ أن هذه القرارات لاتخدم القضية الأرمنية بطريقة مباشرة ، فلم تنص على تأييد قيام دولة أرمنية في شرقي الأناضول ، ولم تنص على تشجيع مبدأ القوميات المتعددة في الدولة .. فهي تكلمت عن الوسائل ولم تتعرض للأهداف . وقد دلت الأحداث السياسية التي تلاشت بعد هذا المؤتمر على أن قيام حكومة دستورية وإنشاء نظام نيابي ذي مجلسين وخلق السلطان عبد الحميد .. كل أولئك لم يؤد إلى إيجاد دولة مستقلة للأرمن في شرقي الأناضول أو حتى منح الأرمن الحكم الذاتي في الولايات التي يقيمون فيها ؛ لأن تلك القرارات أغفلت الإشارة إلى مبدأ عدم المركزية في الحكم ، وهو المبدأ الذي كان الأمير صباح الدين لا يزال متمسكاً به ويدعو إليه .

وقد قدم أحمد رضا بك اقتراحاً أيده الأتراك الأحرار والأتراك القوميون ، هو العمل على تأكيد حقوق السلطنة والخلافة معاً ، وأصدر المؤتمر قراراً بذلك ، بالإضافة إلى القرارات

السابقة^(١) . وهو قرار غامض بعض الشيء ويتعارض مع القرارات الأولى^(٢) ، ولكن يدل على رغبة العثمانيين في المحافظة على الطابع الإسلامي للدولة وعلى تماسك أجزائها .

حل حزب التثبث الشخصي وعدم المركزية الإدارية :

وقد أوفى الأمير صباح الدين بعهده : فلم يعد إلى إستانبول إلا بعد الانقلاب الدستوري سنة ١٩٠٨ ، وصدر فرمان مؤرخ في ٢٣ من شهر يوليو - تموز - في السنة ذاتها بإعادة العمل بالدستور ، وما أعقب ذلك من رفع القيود التي كانت مفروضة على المنفيين والمبعدين . وقبول الأمير لدى عودته بحفاوة كبيرة بصفته أميراً من الأسرة الحاكمة ، كان من خصوم السلطان السياسيين ، وأبدى نشاطاً سياسياً واجتماعياً مكثفاً^(٣) ، وأخذ يلقى محاضرات عامة كانت تدور كلها حول موضوع الحكم غير المركزي في الولايات العثمانية ، وساق البراهين على أنه في حكم الاستحالة تماسك أقاليم الدولة وهي أقاليم تختلف جنساً وديناً ولغة وثقافة وتقاليد وعادات وحكمها طبقاً لقوانين واحدة .

وأحس أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ضيقاً من نشاطه وآرائه السياسية ، وكانوا يعتقدون - خطأ أو صواباً - أنهم صانعو الانقلاب الدستوري ، وأن لهم الحق الأول في التصرف في شئون الدولة ، كما سلّطوا في فصل قادم ، فشدّدوا الرقابة عليه واضطهدوه ومارسوا عليه ألواناً من الضغط حتى خضع لرغبتهم . فصرح في حفل عام أنه يؤيد برنامج جمعية الاتحاد والترقي ، وأن عدم المركزية التي نادى بها لا يختلف عن مبدأ «توسيع المأذونية» ، أي إعطاء مزيد من الصلاحيات أو الاختصاصات لحكام الولايات ، الذي تدعو هي إليه ، ثم وافق في شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٠٨ على إدماج حزبه وجمعية التثبث الشخصي وعدم المركزية الإدارية، في جمعية الاتحاد والترقي^(٤) ، وكان معنى هذا الإدماج حل حزبه وقيام مصالحه ، ولكنها كانت مصالحه شكلية ، لأنه لما وقع الانقلاب العسكري المضاد في ١٣ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٠٩ ، انتهكه رجال الاتحاد والترقي بأنه من الضالعين مع خصومهم واستجوبوه ثم اعتقلوه وأطلقوا سراحه بعد حين ، فآثر الهجرة إلى باريس لاجئاً سياسياً مرة أخرى^(٥) .

(١) عن هذا المؤتمر، انظر كلاً من :

Ramsaur E.E., op. cit., pp. 124-130.

Lewis B.; op. cit., p. 206.

(٢) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٦-١٠٧ .

(٣) كان الأمير قد أنشأ عقب عودته من باريس نادياً في إستانبول يحمل اسم «نادي النسل الجديد» .

(٤) توفيق على يور ، مرجع سبق ذكره ٩ ص ٨٧ .

(٥) Lewis B.; op. cit. pp. 208-209.

موقف الأرمن من الانقلاب الدستوري سنة ١٩٠٨ :

وقع الانقلاب الدستوري في سنة ١٩٠٨، وأصدر السلطان عبد الحميد فرماناً مؤرخاً في ٢٣ من يوليو - تموز - في السنة ذلتها بإعادة الحياة الدستورية إلى البلاد . وأعقب الانقلاب رفع القيود التي كانت مفروضة على المبعدين والمنفيين ، ولم يشترك الأرمن في الأحداث التي أدت إلى وقوع هذا الانقلاب ، بل قام به الجيشان العثمانيان في سالونيك وماناستير Manastir في مقدونيا، وأينهما الجيش الثاني في أدرنه، وقامت ثورات في فيرزوفيك Firzolvik في إقليم قونصوه (كوزنوفو Kosnovo) حيث احتشدت الجماهير وتعاهدت على العمل من أجل إعادة الدستور . وعم البلاد ابتهاج شديد بنجاح الانقلاب وبإعادة العمل بالدستور وتقييد سلطات السلطان عبد الحميد .

وقد شارك الأرمن في الحياة السياسية في ظل النظام الجديد Le Nouveau Régime على نحو ضئيل يتناسب مع تعدادهم بالنسبة لتعداد الدولة العثمانية ، وأجريت الانتخابات العامة لمجلس المبعوثان (مجلس النواب) في أواخر شهر نوفمبر - تشرين ثان - وأوائل شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٠٨ . ولم تكن انتخابات مباشرة ، وإنما كانت على درجتين واشترك فيها الأرمن ونجح فيها أربعة عشر أرمنياً^(١) ، ولمسوا عن كلب تسلط أعضاء جمعية الاتحاد والترقي على الحياة السياسية في الدولة من وراء ستار . وقد حدث أن أراد الأخيرون إسقاط وزارة محمد كاميل باشا ، واحتشد كبار رجال الجمعية وهم يحملون المسدسات في أروقة مجلس المبعوثان قبيل الجلسة التي تنظر في سحب الثقة من الوزارة؛ ليجبروا النواب على التصويت ضد الوزارة . وتقدم طلعت بك (طلعت باشا وزير الداخلية ورئيس وزارة حكومة الطغاة الثلاثة فيما بعد) نحو نائب أرمني، وهدده بإجراء مذابح جديدة للأرمن إذا هو لم يقترع ضد الوزارة . وهرب هذا النائب نحو إسماعيل كمال بك الألباني ومن زعماء المعارضة يستعطفه كي يدلي بصوته ضد وزارة كاميل باشا^(٢) ، وفعلاً سقطت الوزارة في ١٣ من فبراير - شباط - سنة ١٩٠٩ ، على الرغم من أنها لم تستمر في الحكم سوى ستة أشهر وبضعة أيام^(٣) ، وكان إسقاطها أشبه بانقلاب سياسي أكثر منه بعمل دستوري^(٤) .

(1) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 278.

ويذكر ميلر Miller W. أن اثنين فقط قد نجحا في الانتخابات ، والحقيقة أن أربعة عشر أرمنياً دخلوا مجلس المبعوثان .
انتظر :

Miller W., op. cit., p. 479.

(2) Kemal, Ismail, The Memoirs of Ismail Kemal Bey, ed. by Sommerville Story, London, 1920, p. 325.

(٣) كانت الوزارة قد شكلت في ٥ من أغسطس - آب - سنة ١٩٠٨ .

(٤) توفيق على بيو ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢١ .

موقف الأرمن من الصدمات الثلاث المتعاقبات للنظام الجديد :

أصيب النظام الجديد في مستهل عهده بصدمات ثلاث متعاقبات جاءت من جانب أوروبا ، على الرغم من أن حكومات الدول الأوروبية الكبرى رحبت بالانقلاب الدستوري ، إن صدقاً وإن نفاقاً ، فلم يعض شهران ونصف شهر على وقوع الانقلاب الدستوري .. حتى أعلنت بلغاريا استقلالها عن الدولة العثمانية في ٥ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٠٨ ، وبعد يومين أعلنت الإمبراطورية النمساوية المجرية تحويل الاحتلال المؤقت لولايتي البوسنة والهرسك ، الذي كان قد تقرر في مؤتمر برلين الأوروبي لسنة ١٨٧٨ ، إلى احتلال دائم كان في لحمة وسداه عملية ضم نهائي ودائم بعد احتلال دام ثلاثين سنة . وبعد هذا الحادث أعلنت جزيرة كريت انضمامها إلى اليونان .. حقيقة أن هذه الأقاليم الثلاثة كان يربطها خيط واه بالدولة العثمانية ، ولكن مجرد انفصالها التام عن الدولة أثار في نفوس الأرمن مزيداً من الرغبة ومزيداً من الأطماع في تحقيق أمانيتهم القومية كاملة غير منقوصة . ولكن فانت الأرمن حقيقة مهمة ، هي أن تلك الأقاليم قد تحقق لها الانفصال والاستقلال عن الدولة بفضل تأييد دول أوروبية لها مثل بريطانيا ، وألمانيا ، واليونان . وقد ذكرنا في موطن سابق في هذه الدراسة أن اهتمام الدول الأوروبية بالشعوب المسيحية في أوروبا كان يفوق اهتمامها بالشعوب المسيحية خارج أوروبا .. كما أن ضياع تلك المناطق من الدولة العثمانية جعل مركز النظام الجديد يهتز في أعين الأرمن . هدد نائب أرمني في مجلس المبعوثان ، واسمه وورنكس ، المجلس عند بحث قانون الصحافة في مستهل شهر أبريل - نيسان - سنة ١٩٠٩ ، قائلاً إنه أرسل في العهد الحميدي إلى إسطنبول ستين قبلة ، وإنه يعد القبلة الحادية ولاستين لمن يتجرأ على المساس بحرية الصحافة ^(١) . والواقع أن الأرمن ونواب مقدونيا تكتلوا في مجلس المبعوثان معلنين إصرارهم على تحقيق أمانيتهم القومية ، وكانت وسيلتهم إحداث بلبلة في أثناء الجلسات ، يحدوهم الأمل في أن الفوضى السياسية تساعدهم على تحقيق مطالبهم القومية ^(٢) .

العثمانيون يجددون مذابح الأرمن عقب الانقلاب المضاد سنة ١٩٠٩ :

اتسم الانقلاب المضاد الذي بدأ في ليلة ١٣/١٢ من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٩٠٩ بطابع ديني إسلامي بارز .. فألقى جانب العناصر العسكرية والمدنية التي أسهمت فيه ، كانت توجد بين صفوف اللقائمين به جماعات دينية إسلامية ، استهدفت إلغاء الدستور والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، واتخذت لها شعارات ، كان من بينها : نريد الشريعة الإسلامية ، واتخذت لها شعارات ، كان من بينها : نريد الشريعة الإسلامية ، تحيا الشريعة الإسلامية . ولن ننكلم هنا

(١) توفيق على يور ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٦ نقلًا عن جريدة الأهرام ، العدد ٩٤٤١ الصادر في ٧ من

أبريل - نيسان - سنة ١٩٠٩ .

(2) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 279.

عن هذه الطوائف ونشاطها المعادى وموقف السلطان عبدالحميد منها ، فستعرض لها بالبحث في فصل قادم . ولما وصلت أنباء نجاح الانقلاب المضاد في مرحلة الأولى إلى سالونيك عن طريق البرق ، أخذ كبار ضباط الجيش الثالث في مقنونيا بقيادة محمود شوكت باشا على عاتقهم القضاء على هذا الانقلاب ، وزحف الجيش على إستانبول . وكان يضم خيرة الضباط العثمانيين مثل رئيس هيئة أركان حرب الجيش مصطفى كمال ، وبعض ضباط ظهرُوا في السنوات التالية وتركوا بصماتهم قوية في تاريخ بلادهم مثل عصمت إينونو (١) .

وحاولت لجنة الاتحاد والترقي أن تجمع شتات صفوف مؤيديها من أنحاء الدولة للقضاء على الانقلاب المضاد ، واتجهت أيضاً إلى الاستعانة بالأقليات القومية لتشد أزرها في ضرب القائمين بالانقلاب . وكانت النتيجة الوحيدة لهذا الاتجاه الأخير أن قام الأرمن بانتفاضة واسعة في أضنة في ولاية كيليكيا في الجنوب الشرقي من الأناضول ، وتصدت لهذه الانتفاضة الأرمنية الحامية للعثمانية المرابطة هناك . وأعمل العسكريون العثمانيون بالاشتراك مع المدنيين القتل في الأرمن الذين عمدت جموعهم إلى الرد بالمثل ، فوقعت مذابح بين الطرفين ، وامتدت المذابح إلى طوروس وأقسام أخرى من كيليكيا كانت بعيدة عن المذابح (٢) . وكان المتظاهرون المسلمون يهتفون بحياة السلطان عبدالحميد خليفة المسلمين . وكان قد أقيم في أضنة قوس نصر تذكاري إبتهاجاً بإعلان عودة الدستور في العام السابق (١٩٠٨) فحطمه المتظاهرون المسلمون (٣) ، وبلغ عدد القتلى من جميع الأديان والمذاهب ٢٠,٠٠٠ (٤) . وكان من بينهم اثنان من أعضاء اللجنة التنصيرية الأمريكية (٥) . وكان مما ساعد على انتشار المذابح وصول قوات عثمانية من سالونيك ، وعند وصولها أطلقت النيران على الأرمن ، وأعمل المتظاهرون النيران لتسبب عمليات التدمير حلقاتها .

وخشيت الدوائر السياسية في أوروبا أن تمتد هذه المذابح إلى الإسكندرية وأنطاليا وحلب لقرىها من أماكن الاضطرابات ، ولأن هذه المدن يسكنها الأرمن واليونانيون الأرثوذكس ومستوطنون أجانب فرنسيون وإنجليز وإيطاليون وغيرهم ، فضلاً عن العرب والأكراد والأتراك والتركمان . وأرسلت فرنسا أسطولها إلى الإسكندرية ، وبعث وزير الخارجية الفرنسية مذكرة مؤرخة في ٢١ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٠٩ إلى السفراء الفرنسيين لدى الدول الأوروبية الكبرى يبلغهم نبأ تحرك الأسطول الفرنسي ، وأن التعليمات قد صدرت لقائد الأسطول بأن

(1) Lewis B.; op. cit.; p. 216.

(2) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 281.

(3) Miller W., op. cit., p. 480.

(4) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol.. 2, p. 281.

(5) Miller W., op. cit., p. 480.

يستقبل على سفنه المستوطنين الفرنسيين وغيرهم من الأجانب والوطنيين العثمانيين، سواء منهم المسلمين أو المسيحيين الذين تتعرض حياتهم للخطر، وإنزال جنوده إلى البر لحماية الأجانب إذا تعرضت حياتهم لمثل هذا الخطر، أو لحماية دور القنصليات وتوطيد الأمن في المنطقة^(١).

ولم يبذل والى أصدنه ولاقائد القوات العسكرية المراقبة بها أى مجهود لوقف المذابح . ولما قدمهما رجال الاتحاد والترقي بعد إخفاق الانقلاب المضاد لمحاكمة سريعة دافعا عن نفسيهما بأن القوة العثمانية التي خفت من سالونيك إلى مسرح الاضطرابات في ولاية كيليكيا هي التي أطلقت النيران على الأرمن . ولم يكن في وسعهما التصدي لهذه القوة، وإلا وقع صدام مسلح بين قوات عثمانية تدين بالولاء للدولة العثمانية ، وقد صدر عليهما حكم مخفف ، وصدرت أحكام بالإعدام على كثيرين من المتظاهرين المسلمين ونفذت هذه الأحكام^(٢) . وسرعان ما فشل الانقلاب المضاد ، وأعلنت الأحكام العرفية في البلاد في ٢٤ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٠٩ وصدر قرار في ٢٨ بعزل عبدالحميد وتعيين أخيه محمد الخامس بدلاً عنه ، وتم في ظلمة ليل هذا اليوم ترحيل السلطان المعزول إلى سالونيك .

بقيت مسألتان متصلان أوثق الاتصال بمذابح الأرمن في أبريل - نيسان - عام ١٩٠٩ : الأولى الوقوف على سر الاهتمام الشديد الذي أبداه الأرمن بالوقوف في وجه الانقلاب المضاد، وكان من بين سماته البارزة كما قلنا الطابع الديني الإسلامي للتحريض . اعتقد الأرمن أن الحظ قد ابتسم لهم حين استعانت بهم جمعية الاتحاد والترقي ؛ لمساندتهم في وأد هذه الحركة المضادة .. فقد سبق لهم أن حضروا مؤتمرين عقدا في باريس ، في سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٧ ، واشترك معهم في عضوية هذين المؤتمرين الأحرار العثمانيون وسائر الجمعيات التركية المناهضة لحكم السلطان عبدالحميد ، وكانت جمعية الداخاكس الإرهابية الأرمنية تعمل باتفاق وثيق من مركزها الإعلامي في جنيف بسويسرا مع أعضاء جمعية تركيا الفتاة، الذين كانوا يزاولون نشاطهم السياسي من منطلق في أوروبا ضد حكم السلطان عبدالحميد^(٣) ، وبذلك اعتقد الأرمن أنهم رفاق نضال مشترك ضد الحكم المطلق الانفرادي الذي كان يمارسه السلطان عبدالحميد .. يضاف إلى ذلك أن الانقلاب المضاد إذا نجح سيعصف بالدستور ، وكان قد دخل مجلس المبعوثان أربعة عشر نائباً أرمنياً ، كان من الممكن أن يكون لهم دور فعال في حل القضية الأرمنية . وقد سلك الأرمن في سبيل تحقيق أمانيتهم القومية خطين متزامنين : طريق العنف الثوري وطريق السلم الدستوري والدبلوماسي باشتراكهم في مؤتمر باريس، ودخولهم مجلس المبعوثان واشتركهم في جمعيات عثمانية بل وفي الإسهام في تأسيسها ، كما سئرى بعد

(١) توفيق على بريد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٤-٢٤٥ .

(2) Miller W., op. cit., p. 481.

(3) Kruger K., op. cit., p. 128.

حين ، حزب الحرية والائتلاف . وتأسيساً على زمالة النضال اعتقد الأرمن أنهم سيظفرون بالحرية والاستقلال في ظل النظام الجديد، عندما يستتب الأمر للأحرار . ولذلك كانت استجابتهم سريعة وأسهموا قبلًا وقالبًا في الوقوف إلى جانب المعارضين للانقلاب المضاد ، ومن ثم تعرضوا للمذابح ، المروعة كما تعرض لها المؤيدون لهذا الانقلاب في ولاية كيليكيا سواء بسواء .

أما المسألة الثانية فيكتنفها الغموض المتعدد ، وهي تقول إن منشوراً أخرج من إستانبول في ١٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٠٩ إلى جميع حكام الولايات ، يأمرهم بالمحافظة على الشريعة الإسلامية ، وقد فسر العثمانيون المسلمون في منطقة أصنة هذا المنشور تفسيراً تسفياً زاعمين أن في مقدورهم قراءة مابين ثنايا السطور ، وأن الهدف منه هو قتل الأرمن ، ومن ثم اندفعوا في عمليات القتل . ويلاحظ اهتمام البعض بتجهيل اسم مرسل المنشور أو اسم الذي أمر بوضعه وإرساله ، وأن الهدف من هذا التجهيل هو تبرئة ساحة السلطان عبدالحميد من اتهامه بأنه هو الذي أمر بإجراء المذابح للأرمن . ولكن تسلسل الأحداث في ذلك الوقت العصيب يدل على أن السلطان هو الذي أمر بوضع ذلك المنشور وإرساله إلى حكام الولايات ، فقد قبل في ١٣ من أبريل - نيسان - استقالة وزارة الصدر الأعظم حسين حلمي باشا ، وعين في اليوم التالي وزارة جديدة برئاسة أحمد توفيق باشا . وأعلن السلطان أنه سيحمي الشريعة الإسلامية ، وأنه سيصدر عفواً عاماً عن جميع الجنود الذين خالفوا أوامر رؤسائهم ، واشتركوا في الدفاع عن الشريعة . وقدم أحمد رضا بك استقالته من رئاسة مجلس المبعوثان وانتخب مكانه اسماعيل كمال بك الألباني . وفي وسط هذه الأحداث المتلاحقة خرج المنشور من إستانبول في ١٥ من أبريل - نيسان ، وليس من المعقول أن يصدر مثل هذا المنشور الخطير ويصدر إلى حكام الولايات دون علم السلطان وموافقة وإذنه . وقد ثارت مجادلات ضافية حول تحديد مسؤولية المذابح التي نزلت بالأرمن في شهر أبريل ، فالرأي العام الإسلامي في الدولة أكد أنها ترجع إلى سببين : وقاحة الأرمن لأنهم بدأوا بذبح المسلمين ، ونفاق أوروبا المسيحية التي قلبت الحقائق رأساً على عقب . أما الرأي العام في أوروبا فقد أرجع المذابح إلى وحشية العثمانيين^(١).

الأرمن يشتركون في حزب الحرية والائتلاف في أواخر سنة ١٩١١ :

اشترك أحد الأرمن ، وهو الدكتور داغا وإريان عضو مجلس المبعوثان عن سيواس ، في تأسيس «حزب وائتلاف فرقة سي» أي حزب للحرية والائتلاف^(٢) في ٨ من نوفمبر - تشرين

(1) Lewis B., op. cit., p. 216.

(٢) يطلق عليه بالإنجليزية اسم :

ومما عاب حزب الحرية والإئتلاف أنه كان يتكون من عناصر غير متجانسة، ولكن كانت تجمعهم فكرة واحدة هي مناورته جمعية الاتحاد والترقي، كما كانت تجمعهم رابطة الآلام والآمال المشتركة والصالح، والإيمان بعبادئ عدم المركزية في الحكم، واعتقادهم الراسخ في أنها الأساس الأصح والأقوى لحكم للعناصر المتعددة في الدولة. وكانت هذه المبادئ من القوة بحيث اكتسح الحزب الموقف السياسي بشكل متزايد، واكتسب داخل البرلمان وخارجه نفوذاً متعاضداً^(٣). ويلاحظ أن مبدأ عدم مركزية للحكم قد استهوى الأرمن، كما كان حالهم أول الأمر مع الأمير صباح الدين، كما يلاحظ أن الأرمن ابتعدوا عن الاشتراك في الجمعيات

(٢) توفيق علي يروى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠١-٣٠٢ .

(٣) كان برنامج حزب العربية والاتلاف ينص على توسيع اختصاصات حكومة كل ولاية إلا في مسائل الدفاع عن الوطن ومسائل المنافع المشتركة بين الولايات مع بقاء مبدأ الرابطة العثمانية وشجب الاعتماد على الفكرة القومية والإسلامية التي من شأنها أن تضعف هذه الرابطة وتمنع اتحاد العناصر والاتلاف الحقيقي مع ضمان حرية الحياة الاجتماعية والنشاط الطبيعي لكل عنصر ، على أن تكون لبعض الولايات إدارة خاصة تتفق مع أحوالها وشؤونها الممتازة على سواها ، وتسليم أعمال كافة الولايات المحلية ، كالتعليم والأشغال العمومية والتجارة والصناعة والزراعة للإدارات المحلية وزيادة سلطة رؤساء الحكومات المحلية ، وأن يعين المدير ومجلس إدارة الناحية بالانتخاب . وأعضاء مجالس النواحي النظر في كل ما يهم ناحيتها فقط من المسائل الإدارية والاقتصادية ، ويجوز لهذه المجالس قرض ضرائب إضافية . ويكون للولايات حق التشريع المحلي في المسائل الإدارية والاقتصادية . ويحصل مجلس إدارة الولاية لأجرة منه ، عدا أعضائها خمسة ، لتكون دائماً إلى جانب الوالي الذي يكون صله الوصل بين الحكومة المركزية ومجلس إدارة الولاية ويقتض قرارات المجلس . أما مدة الخدمة العسكرية فتكون سنتين يقضيها كل مجتد في الولاية التي يقيم فيها . ويكون التعليم في المدارس الابتدائية بالغة المحلية ويحدد امتحانات المتفوقين=

التركية الخالصة التي تألفت في الوقت ذاته تقريباً مثل «ترك درنكي» ، وقد تأسس في يناير - كانون ثان - سنة ١٩٠٩ ، و«ترك أو چاقي» ، وقد تكون في ٣ من يوليو - تموز - سنة ١٩١١ ، و«تورك بوردر جمعيتي» ، وقد أسس في ٣١ من أغسطس - آب - سنة ١٩١١ (١) .

مساعي الأرمن في مؤتمر لندن ١٩١٢-١٩١٣ للحصول على الاستقلال :

عقب انتهاء الحرب البلقانية الأولى ، وفي خلال مفاوضات الصلح التي بدأت في لندن في ١ من ديسمبر . كانون أول - سنة ١٩١٢ (٢) واشترك فيها سير إدوارد جري Edward Grey (١٨٦٢-١٩٣٣) وزير الخارجية البريطانية كوسيط بين الدول المتحاربة .. وصل إلى لندن وفد أرمني ، يلتمس تأييد الدول لحصول الأرمن على الاستقلال عن الدولة العثمانية ، ولكن لم تسفر مساعي الوفد عن نتيجة إيجابية (٣) .. فقد وقعت في لندن المعاهدة التي أنهت الحرب البلقانية الأولى في ٣٠ من مايو - أيار - سنة ١٩١٣ (٤) ولم يرد فيها ذكر لأرمنية ، وقيل تبريراً لهذا الإغفال أن المعاهدة كانت خاصة بالدول البلقانية والدولة العثمانية .

كسب سياسي تحلقه روسيا لقضية الأرمن :

مصمت روسيا في سياستها العدائية التقليدية نحو الدولة العثمانية ، وزادت هواجسها عقب إرسال ألمانيا بعثة عسكرية إلى إسطنبول (٥) برئاسة لينان فون ساندروز ، أوتو (١٨٥٥-

= منهم ومن تلاميذ المدارس الإعدادية لإرسالهم إلى المدارس الأعلى على نفقة الحكومة . وهذا البرنامج يحقق نظام عدم المركزية الإدارية أو الحكم الذاتي ، وهو ما كان يتطلع إليه الأرمن في معظم الأوقات كخطوة مرحلية في سبيل الاستقلال التام .
انظر :

توفيق على بوز : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٤-٢٠٦ .

(١) انظر ثبوت المصطلحات التركية في نهاية الدراسة .

(٢) طعنت المفاوضات في يناير - كانون أول - سنة ١٩١٢ ، واستؤنفت العمليات الحربية وتعرضت أذربية لقصف مكثف من الدفعية البلغارية ، ونجح البلغار عدة آلاف من الفلاحين العثمانيين المسلمين في إقليم تراقيا ، وأرسلوا جمعواً أخرى منهم إلى إسطنبول لإريك الحكومة العثمانية ، التي طلبت عقد هدنة في ٢٨ مايو - أيار - عام ١٩١٢ .

(3) Kruger K.; op. cit., pp. 128-129.

ويقع كروجور في خطأ إذ يقول إن الوفد الأرمني كان برئاسة نوبار باشا رئيس مجلس الوزراء في مصر سابقاً على عهد الخديو إسماعيل والخديو توفيق . والحقيقة أن نوبار باشا توفي سنة ١٨٩٩ .

(٤) تذكر بعض المراجع أن الهدنة ، وليست المعاهدة ، هي التي وقعت في ٣٠ من مايو - أيار - سنة ١٩١٣ ، وبعد عشرة أيام وقعت المعاهدة في قصر سان جيمس في لندن .

(٥) بعد الهزائم الأليمة التي تعرضت لها الجيوش العثمانية في الحرب البلقانية الأولى (١٩١٢-أيار - سنة ١٩١٣) ، أصبحت الحاجة ماسة إلى التهوؤ بالجيوش العثماني وتزويده بالأسلحة المتطورة .

١٩٢٩)^(١) Linan von Sanders, Otto وصلت العاصمة العثمانية في ١٤ من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٣ ، وكان عدد الضباط الذين يرافقون رئيس البعثة اثنين وأربعين ضابطاً ألمانيا . وقد عينت الحكومة العثمانية رئيس البعثة قائداً للجيش العثماني الأول المرابط في إستانبول مع تخويله سلطة توجيه نشاط الضباط الألمان من أعضاء البعثة . وقد أثار مجئ هذه البعثة واختصاصاتها الواسعة اعتراض كل من بريطانيا وفرنسا والروسيا أعضاء الوفاق الثلاثي ؛ إذ رأت هذه الدول أن هدف ألمانيا من البعثة العسكرية هو وضع القوات العثمانية تحت إشرافها . وتراجعت الحكومة العثمانية ، واكتفت بتعيين ليدان فون ساندرز مفتشاً عاماً للجيش العثماني الأول ، على أن يكون سائر الضباط الألمان من أعضاء البعثة خطوة أخرى ، وفي سبيل استرضاء بريطانيا ، فعينت ضابطاً بحرياً بريطانياً هو آرثر ليمبوس Rear Admiral Sir Arthur Limpus لمعاونة أحمد جمال باشا وزير البحرية في النهوض بالسلح البحري العثماني ، كما عينت ضابطاً فرنسيين لإعادة تنظيم قوات الشرطة والجندرية ، أما روسيا فلم تقع بهذا القدر من سياسة الموازنة التي اتبعتها الحكومة العثمانية بين ألمانيا من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى ، فأرادت أن تخرج هي الأخرى بمكاسب . والحق أنه لم يكن في مقدور الحكومة العثمانية أن تسند إلى أحد كبار الروس العسكريين منصباً قيادياً في القوات المسلحة العثمانية ، وأثارت روسيا اعتراضات متعاقبة على البعثة الألمانية . وذهبت إلى أن وجود رئيس البعثة في إستانبول معاه ترك قيادة الجنود المكلفين بحراسة المضائق لإشرافه مما يؤدي إلى زيادة تحصينها ، وأن هذا العمل مقصود به روسيا مما يعد إخلالاً بالتوازن الدولي . كما أن وجوده في إستانبول لا يمكن أن يحول دون تدخله في شئون الباب العالي في مسائل نخص سيادة الدولة العثمانية ووضع الهيئة الدبلوماسية المقيمة في العاصمة تحت حراسة ألمانيا ، وأظهرت تخوفها من احتمال جعل أرضروم في أرمينية العثمانية تحت إشرافه . ولهذه الأسباب

(١) كانت ألمانيا قد أرسلت من قبل ، في سنة ١٨٨٣ ، بعثة عسكرية لتتولى تنظيم الجيش العثماني وفق الأساليب الحديثة . وكان يرأس هذه البعثة فون بروجواتز (١٨٤٣-١٩١٦) Von der Goltz أحد الضباط المشهود لهم بالقدرة العسكرية الفائقة والإخلاص في العمل . وركزت البعثة جهودها على التعليم العسكري ، فأنشأت نظاماً للمعاهد العسكرية ؛ لتكون ذا مستوى علمي وتدريب رفيع . واستلمت هذه المعاهد مهلاً من الجيل الساعد من ذوي العقول المتنازعة ، وبغدا المتخرجون فيها من أبرز العناصر العسكرية ، وإن كان بعضهم قد رجوا بأنفسهم في شمار السياسة . وعملت البعثة على أن تكون الأسلحة والذخائر من نتاج المصانع الألمانية . وكان لبعض أعضائها ، بجانب واجبهم العسكري الرسمي المقرر ، نشاط امتد إلى مسائل أخرى بتوجيه من المستشار الألماني بسمارك . وكانوا يرسلون إلى ألمانيا تقارير دورية عن الأحوال السائدة وبتذك في الدولة العثمانية وعن توقعاتهم في المستقبل ، ثم أعقب مجئ البعثة وصول مندوبي الشركات والمصانع الألمانية ، وتلاه تأسيس بنوك مالية كبيرة . وقد التقى برئيس البعثة في منصبه قرابة ثلاث عشرة سنة حتى عام ١٨٩٦ . ولما قامت الحرب العالمية الأولى وقع عليه الاختيار لقيادة القوات العثمانية في جبهة العراق ضد القوات البريطانية ومنتهى ١٩١٥-١٩١٦ .

المفتعلة تقدمت الحكومة الروسية بمشروع لإدخال إصلاحات في الولايات الست في شرقي الأناضول كرد عملي على البعثة الألمانية ، وقام هذا المشروع على ضم هذه الولايات الست بعضها إلى بعض وجعلها ولاية واحدة يتولاها حاكم عام لمدة خمس سنوات بموافقة الدول الأوروبية العظمى ، على أن يكون الحاكم العام عثمانياً مسيحياً ويفضل أن يكون أوروبياً . واجتمعت في ضاحية ينى كوى لجنة من ترجمة سفارات ست دول هي : بريطانيا ، وفرنسا ، والروسيا ، وألمانيا ، والنمسا ، وإيطاليا ، ويلاحظ أن هذه الدول كانت تمثل المعسكرين المتنافرين المتحفظين لخوض صراع حرى مرير ، انتهى بنشوب الحرب العالمية الأولى .. فالدول الثلاث الأولى كانت تشكل دول الوفاق الثلاثى ، بينما كانت الدول الثلاث الأخيرة تؤلف دول التحالف الثلاثى ، على الرغم من أن إيطاليا انضمت في أثناء سير معارك الحرب العالمية إلى دول الوفاق ، كما هو شأنها في الحرب العالمية الثانية ، وكانت إيطاليا في كلتا الحربين عبداً بل عالة على ألمانيا . وفي اجتماعات اللجنة تشبث ترجمان السفارة الروسية بالحد الأعلى من مطالب حكومته وعارضه ترجمان السفارة الألمانية . واكتفى ترجمة بريطانيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا بالقيام بدور الوسيط ، وتوصل المؤتمر في ١٣ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩١٤ إلى حل وسط تقرر فيه تطبيق نظام المراقبة الأوروبية على أرمنية على غرار النظام الذى فرضته الدول الأوروبية على الولايات الثلاث في مقدونيا ، وإنشاء وظيفتين يشغلها أوروبيان من دولتين محايدتين ، هما : هولندا والنرويج ، وأن يلقب كل منهما باسم «المفتش العام» . وفي ضوء قرار اللجنة وقعت الدولة العثمانية اتفاقاً في ٨ من فبراير - شباط - عام ١٩١٤ ووقع الاختيار على وسترنك Westerneck عن هولادة ، وثيس Hof عن النرويج ليشتغلا منصبى المفتش العام . وقد زاد عقد هذا الاتفاق من تصميم وزير These الحرية أنور باشا على الانضمام إلى ألمانيا في الحرب العالمية الأولى (١) ، فأبرم معاهدة سرية في ٢ من أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ ، تقرر فيها عقد تحالف بين الدولة العثمانية وألمانيا . وكان من سوء حظ الأرمن أن تجعد اتفاق أرمنية بنشوب هذه الحرب بعد إبرامه بحوالى ستة أشهر ، فشل خلالها المفتشان العلمان في القيام بأعباء منصبيهما بسبب العقبات التى كانت تثيرها أمامهما السلطات العثمانية . وعلى ذلك .. فإن الانتصار السياسى الذى حققته روسيا لقضية الأرمن كان قصير الأمد . بقيت نقطة أخيرة تفرض نفسها فرضاً على مسألة هذا الاتفاق ، وهى معرفة الأسباب التى جعلت الحكومة العثمانية تقبل عقد اتفاق أرمنية ، والحق أن حكومة الاتصادين بعد عودتها إلى الحكم سنة ١٩١٣ أرادت أن تتفرغ لحل المشكلات

(١) عن اتفاق قضية الأرمن انظر كلاً من :

توفيق على بىو . مرجع سبق ذكره ، ص ٥٦٧-٥٦٨ .

Emin Ahmed; Turkey in the world War. USA., 1930. pp 53-58.

Kruger K., op. cit., pp. 128-129.

الداخلية الملحة المتراكمة . وكان من بين وسائلها لتنفيذ برنامجها الإصلاحي تسوية مشكلاتها مع الدول الأوروبية الكبرى؛ تجنباً لمزيد من تدخلها في المسائل الداخلية بعد أن ازداد ضغط هذه الدول في الآونة الأخيرة بدماء مشكلة مقدونيا ، والحرب الطرابلسية والحرب العثمانية اليونانية وجرى البلقان الأولى والثانية . وكانت هذه سياسة خاطئة ، لأنه في جميع المفاوضات التي دارت مع روسيا أو بريطانيا أو فرنسا أو النمسا ، كان موقف الحكومة العثمانية تسليمياً بمطالب هذه الدول . ويجزنا اتفاق قضية الأرمن إلى الحديث عن موقف الحكومات الأوروبية من قضية الأرمن بصفة عامة .

موقف الحكومات الأوروبية من مذابح الأرمن :

كان موقف الحكومات الأوروبية الكبرى من مذابح الأرمن يتسم بوجه عام بالتراخي . نظرت هذه الحكومات إليها نظرة إنسانية فحسب ، وكان المفروض - في ضوء أحداث مذابح اليونان والبلغار والموارنة في جبل لبنان - أن تدفع مذابح الأرمن بعض الحكومات إلى عمل جماعي ، عسكري أو سياسي ، تأسيساً على أن الأرمن شعب مسيحي موزع بين عدد من المذاهب المسيحية ، ودلت أحداث التاريخ الأوروبي العام على أن اهتمام الدول الأوروبية الكبرى - حسبما ذكرنا - كان مقصوراً في الأعم الأغلب على الشعوب المسيحية التي تعيش في أوروبا ، أما إذا كانت تعيش في الشرق فإن نظرة الحكومات الأوروبية تكون هابطة ، ولا تستحق أن تتحرك من أجل نصرة هذه الشعوب أساطيل بحرية أو جيوش ، أو تعقد مؤتمرات وتفرض معاهدات على الدولة العثمانية . وخرجت الحكومات الأوروبية الكبرى عن هذه القاعدة العامة في منبحة الموارنة في جبل لبنان لأسباب بسطناها من قبل . أما فيما يخص بقضية الأرمن .. فإن موقف الحكومات الأوروبية كان مقصوراً على تقديم احتجاجات إلى الباب العالي مطالبة بتنفيذ الإصلاحات التي قرر مؤتمر برلين الأوروبي لسنة ١٨٧٨ إدخالها في الولايات الست التي يسكنها الأرمن ، وتأليف لجنة تحقيق في مذابح الأرمن ، وتدخل سفراء بعض الدول الأوروبية في إسطنبول من أجل استصدار عفو شامل عن الأرمن ، الذين صدرت عليهم أحكام قضائية بسبب أعمالهم الإرهابية . وفيما عدا هذه الإجراءات الدبلوماسية الشكلية ، حددت كل حكومة أوروبية موقفها من المسألة الأرمنية في ضوء المصالح الخاصة بكل منها ، ولم تخرج عن هذا الإجماع سوى روسيا التي تدخلت في مرحلة متأخرة قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى بستة شهور .

موقف ألمانيا :

وقفت ألمانيا من الدولة العثمانية موقفاً ودياً ، وتفاقت بصفة عامة عن تصرفات السلطان عبد الحميد تجاه الأرمن .. حقيقة أنها اشتركت مع الدول الأوروبية الكبرى ، عقب تعرض الأرمن لمذابح في سنة ١٨٩٥ في طرابزون ، وأوديسا ، وبيزره ، في تقديم احتجاج إلى الدولة العثمانية على هذه المذابح ، وطالبت فيها بإدخال الإصلاحات في الولايات الست^(١) . وكان اشتراك ألمانيا في تقديم هذا الاحتجاج عملاً دبلوماسياً وشكلياً ، استهدفت منه عدم ظهورها بمظهر الدولة الخارجة عن الأسرة الدولية تجاه مسألة إنسانية . وفي ١٧ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٩٥ ، وافق الباب العالي على تنفيذ الإصلاحات^(٢) ، ومع ذلك تعرض الأرمن لمذابح في خاربوت ، وقان ، وظلت وعود الباب العالي دون تنفيذ . ولم تشارك ألمانيا في الرقابة الأوروبية التي فرضتها خمس دول أوروبية كبرى هي : بريطانيا ، وفرنسا ، والروسيا ، والإمبراطورية النمساوية المجرية ، وإيطاليا على مقدونيا العثمانية في سنة ١٩٠٠ ، حرصاً من إمبراطور ألمانيا ، غليوم الثاني ، على علاقاته الودية بالسلطان عبد الحميد الثاني ، كما سترى في موطن قادم .

ولما اشتدت وطأة حملات التشهير بالسلطان عبد الحميد من جانب الحكومة البريطانية والصحافة الإنجليزية وصحافة بعض الدول الأوروبية ، أعلن إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني (١٨٨٨-١٩١٩) «أن له في جلالة السلطان عبد الحميد الثاني ثقة تامة ، وأنه لا يمكن الاعتماد إلا على جلالاته في قمع الثورة الأرمنية وإعادة الهدوء إلى ربوع آسيا الصغرى»^(٣) . وقد أثار هذا التصريح الجمعية الأرمنية السرية «هنشاك» ، وأرسلت من مقرها في لندن مذكرة إلى الدول الأوروبية الكبرى - ما عدا ألمانيا - سجلت فيها سخطها على الإمبراطور الألماني ، ووصفته بأنه يشجع الإجرام والمجرمين ، ويعطى مصطفى كامل باشا على هذا التصرف من جانب الجمعية الأرمنية الإرهابية قائلًا إنها جعلت من بين اختصاصاتها تهذيب رؤساء الدول وتربيتهم وتعليمهم أصول السياسة الدولية^(٤) .

وكان مرد هذا الموقف الألماني الودى إلى حرص الحكومة الألمانية على دعم مصالحها السياسية والاقتصادية والعسكرية في الدولة العثمانية .. وكانت هذه المصالح هي نتائج سياسة التقارب بين برلين وإستانبول ، والتي أطلق عليها سياسة «الاتجاه نحو الشرق»^(٥) Drang Nach

(١) Kruger K.; op. cit., pp. 126-127.

(٢) Loc. cit.,

(٣) مصطفى كامل باشا : المسألة الشرقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) انظر في هذه الدراسة ج ٣ ، الفصل السابع .

Osten وكان إمبراطور ألمانيا مهتماً بتهئية الجو المناسب؛ كي تظهر حكومته بتنفيذ مشروع الجناح الآسيوي لطريق ب. ب. ب. الحديدى B.B.B Route من الدولة العثمانية^(١)، وبالتالي تجنب ما يعكر صفو العلاقات الودية مع السلطان عبد الحميد ؛ من أجل قضية الأرمن ، وهى مسألة لاتعنيها .

موقف النمسا والمجر :

أما الإمبراطورية النمساوية المجرية^(٢) .. فقد كانت لها مصالح متشعبة فى البلقان ؛ إذ قررت معاهدة برلين لسنة ١٨٧٨ أن تحصل هذه الإمبراطورية الثنائية من ممتلكات الدولة العثمانية فى غربى البلقان الولايتين المهمتين : البوسنة والهرسك وصنجق نوڤى بازار Novib-azar وأن تدبر هاتين الولايتين تحت اسم ذاع استعماله فى القرن التاسع عشر، وهو الاحتلال المؤقت وأن تظل الإدارة العثمانية باقية فى الصنجقية^(٣) على أن تخول للإمبراطورية النمساوية المجرية الحق فى أن تقدم طرقاً تجارية وعسكرية فى جميع الجهات المذكورة . وقد واجهت هذه الإمبراطورية صعباً جمة فى احتلال البوسنة والهرسك ؛ لأن أكثر من نصف سكانها كانوا مسلمين رفضوا الخضوع للحكم المسيحى . ومع ذلك فقد كانت هذه الإمبراطورية الثنائية تتطلع إلى تحويل هذا الاحتلال المؤقت إلى عملية ضم نهائى ، ونجحت رسمياً فى ضم البوسنة والهرسك إليها فى السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٠٨ بعد احتلال مؤقت استمر ثلاثين عاماً . وكانت النمسا من قبل مشكلة البوسنة والهرسك قد زجت بنفسها فى مشكلة

(١) انظر فى هذه الدراسة ج ٢ ، الفصل السابع .

(٢) تم فى فبراير - شباط - سنة ١٨٦٧ نوع من الوحدة بين النمسا والمجر ، وكانت عبارة عن نظام ثنائى خضعت له هاتان الولايتان ، وأطلق عليه Ausgleich، ويمقتضاه سميت الإمبراطورية الجديدة باسم «النمسا والمجر» . وتتألف من ولايتين مستقلتين إحداهما عن الأخرى ، وعلى قدم المساواة فى نظر القانون، ويحكمها عامل واحد بلقب «إمبراطور النمسا وملك المجر» . وقد تم فى شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٦٧ تنصيب الإمبراطور فرنسوا بتاج القديس إسطفانوس فى مدينة بست Pest عاصمة المجر . وكان لكل من شطرى الإمبراطورية برلمانها الخاص ومجالس المحلية الخاصة ولغة الرسمية الخاصة . وعلى الرغم من أنه كانت هناك وزارات إمبراطورية موحدة للخارجية والحربية والمالية ، لم يكن هناك برلمان إمبراطورى . أما المسائل ذات المصلحة المشتركة بين النمسا والمجر مثل المسائل الخاصة بعقد المعاهدات التجارية.. فكان يبحثها وإدنان يمثلان الولايتين، ويتألف كل منهما من ستمين عضواً يجتمعان بالتناوب فى فيينا وبودابست . وكانا يتداولان ويقترعان على حدة . وقد ظلت هذه الإمبراطورية الثنائية قائمة إلى نهاية الحرب العالمية الأولى .

انظر :

Taylor A.J.P.; The Struggle for Mastery in Europe; op. cit., p. 185.

Grant A.J. & Temperley Harold; op. cit., pp. 189, 265-351-352.

Fisher H., op. cit., p. 1037.

(٣) تقع هذه الصنجقية بين الصرب والجبل الأسود .

مقدونيا دفاعاً عن مصالحها . وقد استنفدت هذه المشكلة منها جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً بذلته في مفاوضاتها ، وتطلبت اجتماع وزير خارجيتها مع وزير خارجية روسيا في فيينا في شهر فبراير - شباط - عام ١٩٠٣ ثم اجتماع حضره إمبراطور النمسا فرانسيوز جوزيف وقبصر روسيا نقولا الثاني في ميرتسج Murztag في ٩ من أكتوبر - تشرين أول في السنة ذاتها ، واشترك النمسا في القوات الدولية المتعددة الجنسيات التي فرضت على ولايات سالونيك وموناستير وقوصوه ، وفي الرقابة الأوروبية المالية على هذه الولايات الثلاث . ولذلك كانت الإمبراطورية النمساوية المجرية حريصة على ألا تتخذ سياسة معينة من قضية الأرمن ، كان من الصعب التنبؤ بنتائجها ، كما أنها كانت لا تحتل مكان الصدارة بين المشكلات التي كانت تواجهها قضية الأرمن .

موقف روسيا :

أما روسيا .. فقد صرحت على لسان وزير خارجيتها لوبانوف Lobanov بأنها بعد تجربتها المريرة في أوروبا لا تريد من التدخل في مسألة الأرمن خلق أو إنشاء بلغاريا أخرى في آسيا الصغرى ، إشارة إلى فشلها في إنشاء دولة بلغاريا الكبرى التي قررتها معاهدة سان ستفانو وعصفت بها معاهدة برلين لسنة ١٨٧٨ . ولكن في حقيقة الأمر كان أعضاء الحكومة الروسية يقولون بأنستهم ماليس في قلوبهم ؛ فالاستعمار الروسى كان يهدف إلى تقسيم الأناضول إلى شطرين : شطر شرقى يقيم فيه الروس دولة أرمنية تسيطر في تلك روسيا ، وشرط غربى يقيم فيه العثمانيون .. أما الدولة الأرمنية فتكون في الوقت ذاته قاعدة حربية لهجوم القوات الروسية على بلاد الرافدين - العراق - وإن يكون في مقدور القوات البريطانية أن تواجه القوات الروسية في التحام مباشر في عمق الأراضى العراقية في ظروف عسكرية متعادلة ؛ لأن القوات البريطانية بعد إبحارها من جزيرة قبرص - التي احتلتها بريطانيا في يونيو - حزيران - سنة ١٨٧٨ واجتيازها بلاد الشام لملاقاة القوات الروسية على ثرى الأرض العراقية ستكون منهكة . وحتى إذا جاءت نجدات بريطانية من الهند عبر الخليج العربى إلى العراق .. فسيكون في استطاعة الروس استدراجها إلى داخل العراق وضربها وهى مجبهة . ومن هنا جاء تشجيع الروس للأرمن على احتضان المبادئ القومية في إنشاء دولة وطنية لهم في شرقى الأناضول . ومن ناحية أخرى كانت روسيا تعارض أشد المعارضة التدخل البريطانى المنفرد في مسألة الأرمن ؛ خشية أن يتيح لها هذا التدخل نفوذاً متميزاً في الدولة العثمانية على سائر الدول . ولذلك اتخذت روسيا لها سياسة ذات اتجاهات متشعبة : فهى تتخذ الأرمن أداة لتفتيت مرحلى للممتلكات العثمانية ، يبدأ بشرقى الأناضول ثم العراق ثم بلاد الشام وأقاليم أخرى في المدى البعيد وفقاً لما يمليه الموقف الدولى وقتذاك . وكانت وسيلة روسيا إلى تحقيق هذا الهدف المتشعب غرس الأمنى القومية في الأرمن ، مع بذل المساعدات المالية والعسكرية لهم ، وتيسير

سبل تسلل الأرمن لاجتياز الحدود العثمانية الروسية المشتركة، ويتم في الأراضي الروسية تدريب الأرمن وتسلحهم استعداداً للوقت المناسب، فيشتركون مع أرمن الروس والجيش الروسي في الزحف على شرقي الأناضول ولكتساح الولايات المت، وتشجيع أرمن الدولة العثمانية في الوقت ذاته على القيام بثورات وانتفاضات على الحكم العثماني؛ مما يزيد في متاعب الدولة العثمانية وإضعافها . وإذا كانت روسيا قد نجحت في تحقيق كسب سياسي لقضية الأرمن بعد اتفاق ٨ من فبراير - شباط - سنة ١٩١٤، فإنه كان كسباً قصير المدى، كما سبق أن أوضحنا .

موقف بريطانيا :

كانت بريطانيا أكثر الدول الأوروبية تحمساً للدفاع عن قضية الأرمن . ويلاحظ أن بريطانيا كانت قد تخلت منذ سنة ١٨٧٨ عن سياستها التقليدية وهي المحافظة على استقلال الدولة العثمانية وعلى سلامة وتماسك ممتلكاتها ، وكانت أسبق من الدول الأوروبية المشتركة في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ في انتهاج سياستها الجديدة، حين انتزعت بالضغط السياسي على السلطان عبد الحميد موافقته على أن تحتل جزيرة قبرص واحتلالاً مؤقتاً، في ٤ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٧٨، ثم احتلت مصر واحتلالاً مؤقتاً سنة ١٨٨٢ . وفي السنة السابقة (١٨٨١) أقدمت فرنسا ، بموافقة مكتوبة وصريحة من بريطانيا على احتلال نيابة (ولاية) تونس، وتدهورت العلاقات العثمانية البريطانية على أثر الاحتلال البريطاني لمصر، على الرغم من الوعود المكررة والمهذبة بأن احتلالها مصر إنما هو احتلال مؤقت، وأنها ترمع الجلاء عن مصر بمجرد زوال الأسباب التي أدت إلى هذا الاحتلال . وزاد من حرج مركز بريطانيا الدولي أنها واجهت تكتلاً دولياً ضدها يتألف من فرنسا وألمانيا والروسيا والنمسا والمجر لتدويل قناة السويس نكاية في بريطانيا^(١) ، ومعتمدت إليه هذه الدول من إثارة المتاعب في وجه سلطات الاحتلال البريطاني في مصر ، وأرادت بريطانيا بإثارة مشكلة الأرمن صرف نظر هذه الدول عن المسألة المصرية إلى المسألة الأرمنية . ولذلك كانت بريطانيا أكثر الدول ثبرة حول ما أسمنه المذابح الجماعية للأرمن على أيدي العثمانيين المسلمين ، على عكس روسيا التي كانت تعمل في صمت، في معظم مراحل القضية الأرمنية لخدمة مصالح الاستعمار الروسي .

ألقى لورد سالزبوري رئيس الوزارة البريطانية بياناً حذر فيه الحكومة العثمانية من نتائج سياستها في ذبح الأرمن ، وأشار إلى أنه ليس من المستبعد أن تلجأ الحكومة البريطانية إلى استخدام القوة لوقف هذه المذابح . وخرج لورد جلادستون زعيم حزب الأحرار من عزلته بعد

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي ، تكتل الدول لتدويل قناة السويس نكاية في بريطانيا ، حوايات كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد ٢٣ ، ج١ ، مايو ١٩٦١ والمجلد ذاته ، ج٢ ، ديسمبر ١٩٦١ ، ص ١١١-١٥٤ ، ٤٧-١ على التوالي .

سقوط وزارته^(١)، كما فعل من قبل في أثناء المذابح البلغارية، وألقى خطاباً في مدينة ليثربول، وكان آخر خطاب سياسي له. وقد وصم السلطان عبدالحميد بالعار وأطلق عليه «السفاح الأكبر»، وهاجم بعنف «فكره بالأرمن في غير رحمة أو شفقة»، وبلغ من دهاء هذا السياسي العجوز أنه صرح بأنه لا ينتصر للأرمن بصفتهم مسيحيين، بل إنه ينتصر لهم بصفتهم من النوع الإنساني، وأنه مستعد لأن يخطب في صالح المسلمين إذا لم ينصف المسيحيون المسلمين في أي بقعة من بقاع الأرض. ويلحق مصطفى كامل باشا على خطبة جلاستون بقوله إنه كتب لهذا السياسي الإنجليزي خطاباً في صيف سنة ١٩٨٦ يذكره بأنه كتب لمصطفى كامل في يناير - كانون ثان - من ذات السنة (١٨٩٦) جاء فيه «أن زمن جلاء بريطانيا عن مصر قد وافي منذ سنين، وطلب منه إلقاء خطبة في إحدى مدن إنجلترا على مسمع من رجال السياسة وأعلام الفكر لتذكيرهم بضرورة الجلاء عن مصر وبالوفاء بالوعد واحترام شرف جلالة الملكة فيكتوريا وشرف للتاج البريطاني. فأجابه جلاستون بخطاب تهرب فيه من إجابة هذا الطلب؛ إذ قال «إني نصير الجلاء عن مصر، ولكني لا أستطيع التدخل في مسألتها، لأنني لست لى سلطة في بلادى، ولست إلا أحد أبنائها الخصوصيين، وتساءل مصطفى كامل كيف يدعى جلاستون أنه عديم السلطة في بلاده، عندما يطالب بالندفاع عن المصريين ويمطالبة بريطانيا بالجلاء عن مصر، وهو بعينه وفي الوقت ذاته يثير عواطف الإنجليز ضد الدولة العثمانية وضد المسلمين، وتساءل أيضاً كيف يكون جلاستون قوى السلطة على الصوت في مسألة الأرمن، وعديم السلطة خافت الصوت في المسألة المصرية^(٢). وعلى الرغم من قوة أسانيد مصطفى كامل في هذا التعليق، فإنه غفل عن حقيقة هامة هي أن جلاستون كان إنجيليكياً متعصباً يقضى وقته في دراسات لاهوتية، وكان يشعر بكرهية عميقة للعثمانيين لأنهم مسلمون، وكان قد طالب بطردهم من أوروبا إبان المذابح البلغارية. وجدور بالذكر أن أعضاء الجالية البريطانية في إسطنبول كانوا يشاطرون لورد جلاستون آراءه فيما يخص المسألة الأرمنية، وكان من رأيهم أن في مقدور حكومة لندن أن تتدخل بشكل فعال في قضية الأرمن، وأنه لا يزال في استطاعة الحكومة البريطانية القيام بمثل

(١) كان جلاستون - بعد أن شكل وزارته الثالثة في فبراير - شباط - سنة ١٨٦٦ قد قدم مشروع قانون بمنح الحكم الذاتي Home Rule لإيرلنده في سنة ١٨٦٦، ولكن مجلس العموم رفض في ٨ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٨٦ مشروع هذا القانون، فثار جلاستون على الملكة فيكتوريا بجل مجلس العموم - وأجريت انتخابات عامة في أول يوليو - تموز - سنة ١٨٨٦ وسقط حزب الأحرار فيها. وهدم جلاستون استقالة وزارته، وشكل لورد سالزبوري وزارته الثانية في أغسطس - آب - سنة ١٨٨٦. أما جلاستون فقد عاد إلى رئاسة الوزارة للمرة الرابعة والأخيرة في أغسطس - آب - سنة ١٨٩٢. وظلت في الحكم حتى مارس - آذار - سنة ١٨٩٤. وقد توفي جلاستون في شهر مايو - أيار - سنة ١٨٩٨، كما سبق أن ذكرنا في موطن سابق في هذه الدراسة.

(٢) مصطفى كامل باشا: المسألة الشرقية، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٢-١٩٤.

هذا الدور . وكانت توجد وحدات من الأسطول البريطاني منذ سنة ١٨٨٦ في حالة استرخاء عسكري في مياه جزيرة كريت على مقربة من الدردنيل والبوسفور ؛ إذ كانت قد خدمت الحركة العسكرية في اليونان ، مما جعل سكان الجزيرة يقعون بإصدار بيان أجوف عن اتحاد الجزيرة مع اليونان ، ولم تتجدد الثورة إلا في سنة ١٨٨٩ ، وهكذا قنعت بريطانيا بالمفسدة السياسية تجاه قضية الأرمن .

موقف فرنسا :

أما فرنسا فقد وصف سياسيوها السلطان عبدالحميد بأنه « السلطان الأحمر »^(١) تعبيراً عن إصراره في قتل الأرمن ، واقترح السفير الفرنسي في إسطنبول إرسال وحدات من الأسطولين الفرنسي والبريطاني إلى منطقة المضائق لإرهاب السلطان ؛ حتى يكف عن قتل رعاياه الأرمن ويدخل الإصلاحات في الولايات الست التي يحتشدون فيها . ولكن كان لفرنسا من مشكلاتها الداخلية والخارجية ومراقبة الموقف الدولي المتدهور وانصرافها إلى تأسيس إمبراطورية استعمارية كبرى لها في إفريقية وجنوب شرقي آسيا وأمريكا الشمالية وإنشاء قواعد بحرية عسكرية لها في جزير الإقيانوسية مما جعلها تنصرف عن القضية الأرمنية ؛ خاصة عندما أدركت أن بريطانيا تروم من إثارة ضجة حول قضية الأرمن تحويل أنظار الدول عن الاحتلال البريطاني لمصر ، الذي اعتبرته الحكومة الفرنسية أكبر هزيمة سياسية حاقت بفرنسا في القرن التاسع عشر . وفيما عدا مقالات نشرت في بعض الصحف الفرنسية استنكاراً لقتل الأرمن ، قل اهتمام الدوائر الرسمية في الحكومة الفرنسية بالقضية الأرمنية .

موقف إيطاليا :

أما إيطاليا فكانت منصرفة انصرفاً كاد يكون كلياً بعد إخلاء السودان من الجيش المصري ، إلى استكمال تأسيس مستعمراتها في شرقي إفريقية ، وكذلك احتلال بعض الجزر في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وتطلع إلى اليوم الذي تستطيع فيه تحقيق أحلامها باحتلال ولاية طرابلس الغرب ومنصرفية برقة . ووجدت أن مصلحتها تقتضي ألا تبذل جهودها الدبلوماسية أو السياسية أو العسكرية في مسألة لاتخصها مباشرة وهي قضية الأرمن ، ومع ذلك .. فإن رئيس الوزارة الإيطالية فرانشيسكو كريسبي Fransico Crespi قد تظاهر بتأييد القضية الأرمنية تماشياً مع سياسة التقرب إلى بريطانيا ؛ خاصة بعد أن أعلن في ٢٥ من يوليو - تموز - سنة ١٨٨٨ تأسيس السيادة الإيطالية على مصرع في شرقي إفريقية ، وكان في حاجة إلى تأييد بريطانيا . وكان تأييد كريسبي للأرمن مسألة شكلية وعابرة لم يلجم عنها أي أثر في مسار القضية الأرمنية ؛ فلم تشترك إيطاليا في لجان تحقيق أو اتخاذ أي إجراء فعال في هذا الصدد .

(1) Roy G. Abdul Hamid le Sultan Rouge. Paris, 1897.

مشكلتان عثمانيتان توضحان سلبية موقف أوروبا من قضية الأرمن :

نسوق هنا مثالين صارخين ومعاصرين لقضية الأرمن، ويوضحان بجللاء تلك القاعدة العامة التي التزمت بها الدول الأوروبية حيال الشعوب المسيحية الأوروبية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية، وسلبية هذه الدول تجاه القضية الأرمنية، وأول هذين المثالين مسألة جزيرة كريت (١)، وثانيهما مسألة مقدونيا .

(١) مشكلة جزيرة كريت :

كانت معاهدة برلين لسنة ١٨٧٨ قد ألزمت الباب العالي بتنفيذ مواد اللائحة الأساسية The Organic Statute الصادرة في سنة ١٨٦٨ لحكم هذه الجزيرة (٢)، وسارع السلطان عبدالحميد إلى تنفيذ هذا الالتزام في السنة ذاتها، وعين قره تيودوري باشا والياً على الجزيرة (٣). واستطاع الأخير أن يصل إلى اتفاق مع فئاضل الدول الأوروبية الكبرى في ١٥ من أغسطس - آب - سنة ١٨٧٨، وتقرر بمقتضاه إدخال نظام الحكم الذاتي في الجزيرة وإنشاء مجلس شعبي موسع تكون الأغلبية فيه لليونانيين . وأبرم هذا الاتفاق نهائياً في شهر أكتوبر - تشرين أول - من ذات السنة في هاليبا (٤) Haleppa بالقرب من مدينة خانبة ، ولكن تعددت المصادمات بين المسلمين والمسيحيين من سكان الجزيرة . ونشبت ثورة سنة ١٨٨٩ ثم اشتبك المسلمون والمسيحيون في يوم عيد العنصرة في شوارع خانبة سنة ١٨٩٦ ، فأرسلت الدول الكبرى أساطيلها إلى الجزيرة وبلغتها في ٢٦ من مايو - أيار - وأعلن النواب المسيحيون في ٢٠ من يوليو - تموز - استعدادهم لقبول الحكم الذاتي على الأسس، التي يتفق عليها الباب العالي مع الدول الكبرى . ولكن الجمعية الثورية الكريتية التي كانت تجتمع في كامبي Campi رفضت هذا الاقتراح ، كما رفضه المسلمون . وفي الثالث من فبراير - شباط - سنة ١٨٩٧ استؤنف القتال في شوارع المدينة بين المسلمين والمسيحيين من سكان الجزيرة ، ووصلت في اليوم ذاته قوة قوامها ١٠,٠٠٠ جندي من بلاد اليونان بقيادة الأمير جورج اليوناني لتحتل الجزيرة ونزحت آلاف المسلمين ، وأُنزلت أساطيل الدول جنودها ، وظهر الأسطول اليوناني وهاجم إحدى سفن النقل العثمانية ، وفي سنة ١٨٩٨ سحبت ألمانيا والنمسا جنودهما . أما الدول الأخرى ، وهي : بريطانيا وفرنسا والروسيا وإيطاليا .. فقد قسمت الجزيرة إلى أربع مناطق

(١) يطلق العرب على الجزيرة اسم «إفريطش» (بكسر الالف وسكون القاف وكسر الراء والطاء) . وقسمت عقب الفتح العثماني لها (١٦٤٥-١٦٦٩) إلى خمسة مناجق ، هي : خانبة ، الخندق Candia ، ريتمنوس (بالتurكية رسمو) ، إسفاكية ، اسيتي (بالتurكية لاشيد) .

(٢) عن مواد هذه اللائحة الأساسية، انظر في هذه الدراسة ج٢ ، حاشية رقم ١ ، الفصل العاشر .

(٣) كان قره تيودوري باشا يوناني الأصل ، وكان موضع ثقة السلطان عبدالحميد الثاني ومستشاره ، عينه السلطان أحد أعضاء الوفد العثماني في مؤتمر برلين الأوروبي لسنة ١٨٧٨ .

(٤) يطلق عليها في بعض المراجع شاليبا Chalepa .

واختصت كل واحدة منها بمنطقة، وفار المسلمون في مدينة اللندني Candia وهاجموا القوة البريطانية، وتدخلت الدول مرة أخرى وفرضت هدنة ثم تسوية في ١٩ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٩٧، يتم بموجبها إدخال نظام حكم ذاتي جديد في كريت التي تظل تحت السيادة العثمانية، وأن يكون حاكمها مسيحياً يعينه السلطان، وتوافق على تعيينه الحكومة اليونانية وأن يسحب الجنود العثمانيون من الجزيرة. ومع ذلك تدخلت الدول وفاجأت السلطان بتعيين الأمير اليوناني جورج مندوباً سامياً لمدة ثلاث سنوات، وبفضله أصبحت الحكومة اليونانية تتمتع بنفوذ كبير في الجزيرة. وأعقب هذه التسوية المنظر الذي غدا مألوفاً، وهو رحيل العثمانيين من ميثراهم وهم في طريقهم إلى الأناضول، ومنذ عام ١٩٠١ زاد الاستياء وقامت فتنة جديدة سنة ١٩٠٥ وقويت نزعة الانضمام إلى اليونان. وفي أول أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٠٦ عين زاميس Zaimis الذي كان رئيس الوزارة اليونانية مندوباً سامياً لجزيرة كريت، وبفضل انتمائه إلى اليونان ومركزه السابق ونفوذه قررت الدول الأربع سحب جنودها من الجزيرة، وأعلنت الجمعية الأهلية في كريت في ١٢ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٠٨ ضم الجزيرة إلى اليونان^(١). ولولا تدخل الدول الأوروبية، العسكرية والسياسي، عدة مرات لما حقق سكان الجزيرة المسيحيون تلك الانتصارات التي توجت بضم الجزيرة إلى اليونان، ولما أخرج سكانها العثمانيون المسلمون، الذين لم يرضوا عن الجنسية العثمانية بدلاً.

(٢) مشكلة مقدونيا :

كان يطلق على مقدونيا في التاريخ العثماني اسم «إيالتى ثلاث» أي الولايات الثلاث، وهي : سالونيك، موناستير Monastir، قوصوه^(٢) Kossovo. ويطلق عليها الأوروبيون مقدونيا، وترجع المشكلة المقدونية إلى ثلاثة عوامل. كان العامل الأول أن أخلاطاً شتى من العثمانيين والبلغار واليونانيين والصرب والرومانيين (من ولاشيا أحد الأقاليم في رومانيا) كانت تقيم فيها، وكان كل جنس من هذه الأجناس يزعم أنه يشكل أغلبية عديدة توجب أن تحقق له السيطرة على مقدونيا. والواقع أن غالبية سكان المدن كانت من المسلمين واليونانيين باستثناء سالونيك التي كانت توجد بها طائفة كثيفة العدد من اليهود، وكانوا من ذراري اليهود الذين هاجروا من إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر هرباً من مظالم الاضطهاد الديني، وكان أفراد الطائفة اليهودية متعاطفين مع العثمانيين، بينما كان الزيف يسكنه العثمانيون والصقالبة. وكان العامل الثاني يتمثل في أطماع الدول والكيانات السياسية المجاورة للدولة العثمانية في

(١) انظر كلاً من :

دائرة المعارف الإسلامية، مادة إقريطش من يضعه، جيس F. Giese

Miller W., op. cit., pp. 431-441.

Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, pp. 206-207.

(٢) يطلق عليها في بعض المراجع Kosov.

شبه جزيرة البلقان وأطماع الدول الأوروبية الكبرى وعلى رأسها روسيا والإمبراطورية النمساوية المجرية . وكانت الأخيرة تطمع في مد نفوذها إلى بحر إيجه ، وتعتقد أن نجاحها في هذا الصدد يتوقف على الصرب ، ولذلك وقفت إلى جانبهم وكانت نصيرة لهم . وكانت رومانيا تتطلع إلى مد نفوذها إلى مقدونيا استناداً إلى وجود الولاخ Vlachs وتطلع الصرب والرومانيون إلى إنشاء كنيسة رومانية منفصلة وخاصة بهم على غرار الإكساركية البلغارية (١) . أما العامل الثالث والأخير، فكان يرجع إلى أهمية موقع مقدونيا الحربي بالنسبة للدولة العثمانية وللدول الأوروبية نظراً لقربها من الدرينيل والبوسفور وإستانبول ، فأى دولة أوروبية تستطيع عن طريق أحد الكيانات السياسية في مقدونيا أن تهدد المضائق وعاصمة الدولة العثمانية وبالتالي تحقق أحلامها في السيطرة على الدولة الأخيرة . كما كانت لمقدونيا أهمية خاصة للدولة العثمانية : فهي تحكم في مقدونيا أكثر من مليون مسلم ، وهي تشكل مورداً مالياً مهماً لإيرادات الدولة ، وهي تشكل دولة حاجزة état tampon بين الدولة العثمانية وأطماع اليونان في الممتلكات العثمانية من جهة الشرق .

وبينما كان التناقص يشتد بين القوى المتصارعة ، الداخلية والخارجية ، ظهرت حركة قومية مقدونية منفصلة عن الشعب الصقلي، تأسيساً على أن المقدونيين الأصليين ليسوا بلغاراً أو صرباً أو يونانيين، ولكنهم يشكلون شعباً صقلياً منفصلاً له لغته وتقاليد وعاداته مما يؤهلهم للاستقلال عن كل الذين يزعمون أن لهم الحق في حكمهم . وبالإضافة إلى هؤلاء كان هناك المسلمون ، وكثير منهم لاجئون وفدوا من أراض تقع في الشمال، وكانوا يشكلون أكبر تجمع إسلامي من أي دولة قائمة بذاتها في مقدونيا ، وعارضوا أى ادعاء أو مطلب يضعهم تحت الحكم المسيحي الذي عانوا منه كثيراً . ثم طرأ على المشكلة المقدونية عامل جديد أعطى لها أبعاداً خطيرة وأتاح للدول الأوروبية مزيداً من الفرص للتدخل الأجنبي ، هو تكوين منظمات إرهابية شكلها البلقانيون القوميون على غرار الجمعيات الأرمنية الإرهابية . وكان أكثرها عتفاً والمنظمة المقدونية الداخلية الثورية ، Or- The Internal Macedonian Revolutionary ganization ويرمز إليها في المراجع الأجنبية بهذه الحروف EMRO إمرؤ ، أسسها البلغار في مقدونيا سنة ١٨٩٣ لقيادة البلغار في صراعهم ضد العثمانيين وكل الجسديات الأخرى التي تعارض المطالب البلغارية .

وكانت هناك منظمة منافسة لها تسمى المنظمة المقدونية الخارجية الثورية The Exter- nal Macedonian Revolutionary Organization ويرمز إليها بهذه الأحرف EMRO إمرؤ . ونظراً للتشابه اللفظي بين اسمي هاتين المنظمتين .. سنشير إليهما في هذه الدراسة بالحروف اللاتينية المختصرة لاسيما . وقد تأسست المنظمة الثانية في صوفيا عاصمة بلغاريا

لتدريب المنفيين المقدونيين تدريباً عسكرياً ونفسياً وعقائدياً للأهداف نفسها، التي ترمى إليها منظمة IMRO مع اختلاف في بعض النقاط، فبينما كانت منظمة IMRO تحتض وجهة النظر المقدونية، وتهدف إلى إنشاء ولاية واحدة ذات حكم ذاتي وتضم الولايات الثلاث وتحدد اتحاداً فيديريالياً مع بلغاريا وصربيا، كانت منظمة EMRO ذات طابع بلغاري أشمل وأعمق في أهدافها؛ لأنها كانت تطالب بالاتحاد مع بلغاريا عندما يتم طرد العثمانيين من مقدونيا، وكان شعارها «مقدونيا للمقدونيين»، "Macedonia for Macedonians"، وأرسلت مذكرة إلى الدول الأوروبية في يناير - كانون ثان - سنة ١٨٩٩، طالبت فيها بتكوين ولاية مقدونية واحدة ذات حكم ذاتي، وعاصمتها سالونيك، وبحكمها حاكم تتحدد جنسيته بجنسية العنصر السكاني ذي الأغلبية العددية، وتكون مدة بقائه في منصبه خمس سنوات. وكانت المنظمة تضع في اعتبارها أن يكون هذا الحاكم بلغارياً. وكانت ترجو أن يكون إنشاء ولاية مقدونية موحدة وذات حكم ذاتي وتحت حاكم عام بلغاري بعداً لمشروع دولة بلغاريا الكبرى، الذي قررت إنشاءها معاهدة سان ستيفانو المبرمة في ٣ من مارس - آذار - ١٨٧٨، وقد أثبتت الأحداث اللاحقة أن هذه المذكرة كانت قساصة ورق. فبشرت العصابات البلغارية للحدود، ووقعت مصادمات بينها وبين العثمانيين الذين لم يكونوا هم الهدف للوحيد لعداء منظمة EMRO ففي سنة ١٩٠٠ أطلق أحد أعضاء المنظمة في بخارست عياراً نارياً على أستاذ روماني كان يصدر جريدة مؤيدة للمطالب الرومانية. ولما كانت حكومة رومانيا في نزاع مع بلغاريا حول جزيرة صغيرة في مجرى نهر الدانوب، طلبت معاقبة أعضاء المنظمة، وأيدت الحكومة العثمانية وحكومات الدول الأوروبية هذا الطلب. وألقي القبض على رئيس المنظمة، واسمه بوريس سارافوف Bor-Sarafov، وبعض الأعضاء القيادين فيها. ولكن قضت المحكم ببرائتهم، وكان للصرع وللليونانيين منظماتهم الخاصة الإرهابية، وكانت تساعد هذه المنظمات، خارج وبداخل مقدونيا، الحكومات المحلية وقناصلها؛ فكانت تمد هذه المنظمات بالأموال والأسلحة والذخائر. وفي بعض الأوقات كانت تبسط حمايتها على الإرهابيين من أعضاء هذه المنظمات.. فاشتد مساعدتهم وقاموا بمزيد من أعمال العنف المتصاعد: فقتلوا الموظفين المسلمين والمسيحيين الذين رفضوا تقبل وجهات نظرهم، وهاجموا عربات البريد وركاب القطارات الحديدية، وخطفوا الأجانب والوطنيين الأثرياء واحتفظوا بهم كرهائن، وألقوا القنابل في الكنائس لتدميرها ابتغاء إثارة الرأي العام الأوروبي والحكومات الأوروبية. وكانت الفكرة الغالبة على مقالات الصحافة الأوروبية أن مقدونيا غدت رمزاً للتخريب والإرهاب والاضطرابات؛ خاصة عندما كانت هذه الجرائم تصيب الأجانب والمسيحيين، أما للمسلمون فقلما كان ينكرهم أحد. وضغطت الدول الموقعة على معاهدة برلين لسنة ١٨٧٨ لإدخال الإصلاحات على أمل إرضاء الإرهابيين، واستجاب السلطان عبد الحميد للضغط الأوروبي المتزايد. وقسم مقدونيا إلى ثلاث ولايات وعين حسين حلمي باشا مفتشاً عاماً لهذه الولايات، وكان الأخير والياً على اليمن. وقرر أن تضع

لجنة خاصة لوائح الولايات الثلاث في ضوء بحث يقوم به حسين حلمي باشا ، وقد أوصت اللجنة بإنشاء قوات مختلطة للشرطة والجندرية ، وإنشاء إدارات تختص بالأشغال العمومية ، ومحاكم مختلطة ، وتعيين حاكم مسيحي لكل ولاية ، وأن يختص الجزء الأكبر من حصيلة الضرائب للإنفاق على تحسين الأحوال الاقتصادية في الولايات الثلاث .

لم يرض عن هذا المشروع الإصلاحى الإرهابيون، كما عارضته النمسا والروسيا .. فقامت منظمة IMRO بثورة في موناستير ، واستولت على معظم أجزاء الولاية وهرب آلاف من المسلمين إلى إستانبول، كما هرب عدد مماثل من المسيحيين إلى صوفيا . أما النمسا والروسيا فقامت معارضتهما للمشروع، على أساس أنه لا يمكن قبول أى تسوية يفرضها العثمانيون على سكان الولايات الثلاث عن طريق المفاوضات المباشرة . واجتمع وزيراً خارجية النمسا والروسيا في فيينا في شهر فبراير - شباط - عام ١٩٠٣؛ لوضع مشروع جديد للإصلاحات ينفذ في الولايات الثلاث، وأعلنه في ٢١ من ذات الشهر ونص المشروع على:

(١) إعادة تنظيم قوات الشرطة والجندرية بمساعدة ضباط أوروبيين ، وأن تشمل هذه القوات بنوعها عناصر إسلامية ومسيحية يتحدد عددها بنسبة سكان كل ولاية ودياناتهم .

(٢) تنفيذ الإصلاح الضريبي على أساس أن تحل ضريبة الأراضي محل ضريبة العشور .

(٣) وضع ميزانية مستقلة لكل ولاية من الولايات الثلاث، وأن يخصص الجزء الأكبر منها أولاً وقبل كل شيء للنفقات التى تتطلبها المشروعات العامة في الولاية ونفقات الإدارة .

(٤) تعيين مفتش عام للولايات الثلاث ومفتش لكل ولاية .

وقد وافقت الدول الأوروبية على هذا المشروع ثم وافق عليه السلطان . وعلى الرغم من أن موظفين أوروبيين سيشاركون ، تنفيذاً لهذا المشروع ، اشتراكاً جزئياً في إدارة الولايات الثلاث، لم يكن السلطان عبد الحميد معارضاً لاشتراكهم استناداً إلى أن وجودهم يمنع التدخل المباشر للدول الأوروبية في هذه الولايات الثلاث . ولكن دلت الأحداث على خطأ تقديره للموقف الدولى؛ إذ ظل الإرهابيون على رأيهم السابق وهو رفض أى تسوية تجعل للعثمانيين نصيباً في إدارة الولايات ، وإن وافقوا على مضمّن على بقاء سيادة اسمية للدولة على الولايات تصير إلى زوال بمعنى الوقت . أما رعايا السلطان المسلمون في مقدونيا فقد ساءتهم تلك التسوية ؛ لأنها جعلت الحصر الأجنبى ممثلاً في قوات الشرطة والجندرية . وزاد الموقف تفاقمًا أن الألبانيين القيمين في ولاية قوصو خشوا أن مشروع الإصلاح يتعارض مع حرياتهم ، فقاموا بثورة وأطلقوا أعيرة نارية على قنصل الروسى في مدينة متروفيتزا Mitrovitza ، واعتقلوا معوثى السلطان في إبيك Ipek وأقدم أحد رجال الجندرية على قتل القنصل الروسى في موناستير . وقد كان بين منحاي الثورة عدد كبير من المسيحيين المدنيين ، ورداً على ثورة

الألبانيين قام الإرهابيون البلغار من أعضاء منظمة IMRO بنسف عدد من كبارى السكك الحديدية، وبت الألغام فى السفن البخارية ووضع المتفجرات فى مقر البنك العثمانى فى سالونيك، على غرار ماقطه الإرهابيون الأرمن فى إستانبول . وقد قام البلغار بهذه العمليات الإرهابية، على الرغم من أن الحكومة البلغارية قد أصدرت قراراً فى شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٠٣ بحظر النشاط الإرهابى خشية أن يؤدى هذا النشاط إلى قيام حرب بينها وبين الدولة العثمانية ، ولم تكن بلغاريا مستعدة لمثل هذه الحرب ، ولكن مضمي أعضاء منظمة IMRO فى طريقهم الثورى معتصمين بمخابىء منيعة فى للجبال .. وعلى هذا النحو ازدادت الاضطرابات عنفاً ، بعد إعلان مشروع الإصلاح الذى وضعه وزيراً خارجية النمسا والروسيا .

ولمواجهة الصعاب الجديدة، اجتمع كل من إمبراطور النمسا والمجر فرانيس جوزيف وقيصر روسيا نقولا الثانى فى مدينة ميرزتيج Murztieg فى ٩ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٠٣، ووضعوا مشروعاً جديداً للإصلاح . وقد أطلق عليه «برنامج ميرزتيج» لأنه صدر فى هذه المدينة ، ويتلخص فى النقاط الآتية :

(١) يعاون المفتش العام العثمانى موظفون نمساويون وروس بصفة مستشارين ويصحبونهم فى تنقلاته .

(٢) يقوم هؤلاء المستشارون بفحص الشكايات التى يقدمها المسيحيون ويعملون على القضاء على المظالم وغيرها من مظاهر سوء الحكم .

(٣) يصدر عفو عام عن الإرهابيين .

(٤) تقدم الحكومة العثمانية مساعدات مالية إلى جميع الفلاحين المسيحيين وإعادة بيوتهم وأراضيهم إليهم .

(٥) تنشأ مجالس إدارة مختلطة من المسلمين والمسيحيين، وكذلك محاكم مختلطة فى جميع الجهات التى يشترك للمسلمون والمسيحيين فى الإقامة فيها .

(٦) يعهد بإعادة تنظيم قوات الشرطة والجندرية إلى ضابط أوروبى ذى رتبة عسكرية عالية ويساعده ضباط عسكريون تابعون للدول الأوروبية وتوزع اختصاصاتهم على مقدونيا كلها .

(٧) يقوم قنصلا النمسا والروسيا فى مقدونيا بمراقبة تنفيذ هذه الإصلاحات .

وقد حصل إمبراطور النمسا والمجر وقيصر روسيا على موافقة الدول الأطراف فى معاهدة برلين على مشروعها الإصلاحى ، أما السلطان عبد الحميد فقد قبله على مضض ، لأن هذا المشروع يتضمن مراقبة أوروبية متفاوتة الدرجات على شئون الولايات الثلاث ، ولكنه كان

فى الوقت ذاته، يخشى أن تتطور المشكلة المقدونية إلى حرب عامة . وحسبه أن ينفذ الأجانب إصلاحات كان يعلم أنها لن تكون موضع رضاه الإرهابيين . وقد بدىء فى تنفيذ هذا البرنامج بعد وقت قصير ، وتقرر تعيين ضابط إيطالى ، هو : دى جيورجيس de Giorgis لرياسة الجندرية ، ثم خلفه فى هذا المنصب ضابط إيطالى آخر هو الكونت دى روبيلانت Count di Robilant ، وأرسلت الدول الكبرى الأطراف فى معاهدة برلين لسنة ١٨٧٨ ، ماعدا ألمانيا ، مجموعات من الضباط زيدت أعدادها تباعاً وخضعت مقدونيا لقوات متعددة الجنسيات فيما يخص بحفظ الأمن ، فقسمت إلى خمسة قطاعات تختص بكل قطاع دولة من الدول الخمس ، وهى : بريطانيا ، فرنسا ، النمسا ، روسيا ، إيطاليا . واتضح أن تدبؤات السلطان قد صدقت ؛ إذ اعترض اليونانيون والولاى ، على برنامج ميرزيج ، وكانت تؤيد الأولين البطريركية اليونانية فى إسطنبول ، وساندت الآخرين الحكومة الرومانية . وأبدوا نشاطاً محموداً فاق نشاطهم السابق ؛ خشية أن تؤدى الإصلاحات الجديدة إلى محاباة الصقالية ، بينما أبرمت الدول العثمانية اتفاقاً فى ٨ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٠٤ مع بلغاريا ، التى أكدت فيه عزمها على إيقاف العمليات الإرهابية ، ولكنها لم تتوقف لعجز الطرفين عن منعها .

لم تقنع الدول الأوروبية بهذه المراقبة الإدارية والبوليسية على الولايات الثلاث ، فطلبت إصلاحات مالية، يعهد بتنفيذها إلى البنك العثمانى وفروعه فى هذه الولايات . وكان هذا الطلب فى جوهره يجعل من البنك العثمانى وفروعه عبارة عن مصالح أو إدارات مالية أجنبية فى كل ولاية من الولايات الثلاث ، ولما رفض السلطان عبد الحميد هذا الطلب .. أرسلت الدول الأوروبية الكبرى المشتركة فى القوات المتعددة الجنسيات أساطيلها البحرية لاحتلال جزيرة ميديللى Midilli الواقعة تجاه ساحل إزمير فى ٢٦ من نوفمبر تشرين ثان - سنة ١٩٠٥ . وعندما رأت الدول تمسك عبد الحميد بموقفه، اتجهت بأساطيلها لاحتلال مكاتب الجمارك فى جزيرة لمنوس Limnos الواقعة قرب مدخل الدردنيل فى ٥ من ديسمبر - كانون أول - وبذلت ألمانيا مساعيها الحميدة فى هذه الأزمة الجديدة ، فاقترحت حلاً وسطاً بحيث لا تكون اللجنة المالية الدولية ، التى تصدر الدول الخمس على إنشائها ، مكونة من مفتشين بل من مستشارين فقط، وأن تشارك الدولة العثمانية فى عضوية هذه اللجنة بمندوب يعينه الباب العالى لهذا الغرض . وتقوم اللجنة بإعداد ميزانية كل ولاية من الولايات الثلاث ، ويجب أن يوافق السلطان على هذه الميزانيات قبل الشروع فى تنفيذها .. أما الاقتراحات التى تقدم مستقبلاً لإسخال إصلاحات مالية، فيجب أن تأخذ مسيرتها عن طريق القنات التشريعية فى الدولة .

اقترحت الحكومة العثمانية زيادة الرسوم الجمركية من ٨٪ إلى ١١٪ لمواجهة العجز فى ميزانيات الولايات الثلاث، نتيجة تنفيذ المراقبة الأوروبية الإدارية والمالية على هذه الأقاليم،

وحشد عدد هائل من الموظفين الذين ينتمون إلى الدول الأوروبية الخمس التي لها قوات متعددة الجنسيات في مقدونيا، واعتترضت الدول الأوروبية على هذه الزيادة المقترحة، وكانت بريطانيا أشدها اعتراضاً استناداً إلى أن ثلث التجارة الخارجية للدولة العثمانية يجرى معها بريطانيا. ومعنى ذلك أن ثلث ما ستحصل عليه الحكومة العثمانية من زيادة الرسوم الجمركية سيخرج من جيوب الشركات والمصانع والهيئات البريطانية. وبعد مفاوضات طويلة وعسيرة، وافقت الدول على رفع الرسوم الجمركية إلى ١١٪، غير أنها حددت مدة هذه الزيادة بسبع سنوات فقط، واشترطت تخصيص حصيلة هذه الزيادة لتمويل مشروعات الإصلاح في الولايات الثلاث، وفصلاً عن ذلك طلبت بريطانيا في مقابل الزيادة منحها الحق في مد الخط الحديدي من إزمير إلى أيدين Aydin حتى سنة ١٩٤٠، كما طلبت ألمانيا زيادة الضمان المالي، الذي تدفعه الحكومة العثمانية لأصحاب البنوك الألمانية من أجل خط الأنابيب الحديدي. وبدأ تنفيذ المراقبة الأوروبية المالية بعد انسحاب أساطيل الدول الخمس من جزيرتي ميدالي وليموس، ولكن استمر نشاط العصابات الإرهابية اليونانية بموافقة حكومة أثينا. واستنفدت مقاومة هذا النشاط جزءاً كبيراً من ميزانية الولايات الثلاث، وظل هذا العنف الإرهابي الثوري يزعزع بال السلطان عبد الحميد حتى قيام الانقلاب الدستوري في سنة ١٩٠٨، ثم عزله عن العرش في السنة التالية (١).

وبعد.. فمن حق الباحث المحايد أن يقارن بين السلبية شبه المطلقة لموقف الدول الأوروبية الكبرى من مشكلة الأرمن، والإيجابية الساخنة لموقف هذه الدول من مشكلة مقدونيا. والدراسة التاريخية المحايدة لاتدافع عن الأرمن ولا تتحامل على المقدونيين، بل تتخذ بين هؤلاء وأولئك قواماً، ويتطلب منهاج البحث التاريخي تحليل الأحداث التاريخية في تسلسلها الزمني، ثم شرح الملاحظات التي أحاطت بها واستخلاص النتائج أخيراً. فالأرمن يقطنون إقليماً نائياً عن طرق المواصلات العالمية الرئيسية.. فلا تقارن أرمينية العثمانية بمصر أو بلاد الشام أو بلاد ما بين النهرين (العراق) أو منطقة الخليج العربي أو مقدونيا مثلاً. ومن هنا كان الصراع الأرملي القومي صراعاً محلياً؛ خصوصاً إذا لوحظ قصور وسائل الاتصال البرقي في ذلك

(١) عن مشكلة مقدونيا وغرض الرقابة الأوروبية عليها، انظر كلاً من:

Miller W.; op. cit., pp. 441-448.

Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, pp. 207-211.

Grant A.J. and Temperley Harold; op. cit., pp. 359-360.

Taylor A.I.J.P., op. cit., 449-451.

Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 1085-1087.

ساطع الحصري، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٤، من ص ١٤٧-١٤٩.

توفيق على يبر، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠.

الوقت، الذى طغت فيه قضية الأرمن على السطح بالنسبة لوسائل الاتصالات المتطورة الحديثة من استخدام أجهزة الاتصال اللاسلكى والتليفونات المباشرة والأقمار الصناعية والتلكس وما إليها.

وعلى النقيض من ذلك كله فيما يختص بمشكلة مقدونيا، فقد تضافرت عدة عوامل على تصعيدها من حيث إنها جزء من أوروبا، وموقعها الإستراتيجى المهم القريب من المضائق وإستانبول وبحر إيجة والبحر المتوسط، وبالتالي مجاورتها لعدة دول بلقانية وقربها نسبياً من الدول الأوروبية، وقربها من آسيا، ومرور طرق حديثة على رأسها إكسبريس الشرق السريع، وتصارع عدة قوميات على الاستئثار بالنفوذ والسيطرة، وتشابك مصالح الدول الكبرى فى هذه المنطقة، التى هى جزء من شبه جزيرة البلقان، التى قيل فى وصفها السياسى والعسكرى إنها بركان أوروبا.

وكان السلطان عبد الحميد الثانى - فى مواجهته الزحف الاستعمارى الأوروبى على الولايات العثمانية فى البلقان - مضطراً إلى إدخال الإصلاحات فى مقدونيا والتخلى عن سياسة للحكم المركزى. وقد شهد عبدالحميد منذ أن تبوأ العرش سنة ١٨٧٦ شراسة الزحف الاستعمارى، وشهد تساقط الولايات العثمانية تباعاً فى أوروبا وآسيا وإفريقية. وكان حريصاً على أن يدرأ عن الدولة مزيداً من الخسائر الإقليمية فى مقدونيا، وأدرك بما لا يدع مجالاً للشك تأليب خمس دول أوروبية كبرى عليه وتحريك أساطيلها البحرية مرة إلى جزيرة كريت ومرة إلى بحر إيجة. ولم يكن فى مكنه وقف هذا الزحف الاستعمارى الضارى، ولكنه سعى للتخفيف من وطأته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وعلى ذلك.. فإن النظرة الهادئة العميقة توضح هذا التباين الصارخ فى موقف الدول الأوروبية الكبرى من هاتين المشكلتين المعزمتين.

الفصل الرابع عشر

عيوب الدولة العثمانية (هـ)

قضية الأرمن ومذابحهم (ب)

منذ بداية الحرب العالمية الأولى حتى الوقت الحاضر

الصراع بين العثمانيين والروس على أرمينية العثمانية ١٩١٤-١٩١٥ :

وضع وزير الحرية أنور باشا في اعتباره قيام مواجهة عسكرية بين القوات العثمانية والروسية في شرقي الأناضول؛ حيث توجد الولايات الست التي يسكنها الأرمن ، قبل نشوب الحرب العالمية الأولى التي دخلتها الدولة العثمانية في ٥ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٤ منضمة إلى جانب دولتي الوسط ، ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية ضد دول الوفاق الثلاثي بريطانيا وفرنسا والروسيا . ولذلك أبدى أنور باشا اهتماماً ملحوظاً بالجبهة الشرقية في الأناضول ، ومن ثم انصرف إلى دعم الجيش الثالث المتمركز في ولاية أرضروم؛ نظراً لمرکزها الاستراتيجي المهم الذي يسيطر على الجزء الشرقي من الأناضول . وكانت تغطي لخصاصات هذا الجيش مناطق شاسعة تمتد من شمال شرقي الأناضول عند بحيرة فان حتى البحر الأسود . ووضع أنور باشا في اعتباره أيضاً احتمالاً قوياً جداً في أن ينضم فريق من الأرمن العثمانيين إلى القوات الروسية . بينما يقوم فريق آخر منهم بثورة داخلية على الحكم العثماني .

ولكن رأى أنور باشا قبل أن يلتحم للجيشان العثماني والروسي في الصدام المصلح الوشيك أن يبذل محاولة أخيرة ؛ ليكسب تأييد الرعايا الأرمن للدولة العثمانية ، فعقد اجتماعاً في أرضروم شهد زعماء أرمن الروسيا وزعماء أرمن الولايات الست في شرقي الأناضول . ولكن لم يحقق هذا الاجتماع الآمال التي كان يرتجئها أنور باشا ، فإن الروسيا كانت قد وعدت الأرمن في حالة انضمامهم إليها بإنشاء دولة أرمينية ذات حكم ذاتي ، لاتشمل فقط مناطق القوقاز الواقعة تحت حكم الروس ، ولكن تشمل أيضاً أجزاء غنية في شرقي الأناضول ، كما وعدتهم بمساعدات عسكرية روسية ، تستهدف استكمال أغراض الحرب للروسية العثمانية التي اشتعلت في سنتي ١٨٧٦ و ١٨٧٧ ، وهي التي كانت ترمي إلى طرد المسلمين من رعايا الدولة العثمانية ، والذين لايزالون يشكلون الغالبية من سكان هذه الأقاليم . وقد حاول الزعماء الأرمن في الاجتماع تضليل أنور باشا ، فأبلغوه أن رغبتهم هي التزام الحيدة في أثناء الحرب المرتقبة

ولكن كان واضحاً لأتور باشا أن عواطف زعماء الأرمن كانت متجهة نحو روسيا .

تعلق آمال الأرمن بالروسيا :

والواقع أن عدداً كبيراً من زعماء الأرمن البارزين من رعايا الدولة العثمانية - وفيهم عضو سابق في مجلس المبعوثان العثماني - قد تسلوا إلى القوقاز لتنسيق تعاون الأرمن مع السلطات العسكرية الروسية ، وأبلغوها أنهم سيبدلون قصارى جهدهم لإحباط كل مخطط عدواني عثماني . وظل أتور باشا مقتنعاً برأيه أن في مكتة القوات العثمانية التصدى لهذا المخطط الروسي الأرمني التخريبي ، ومضى في إجراءاته للقيام بهجوم عام في شتاء سنة ١٩١٤-١٩١٥ . وفي الوقت ذاته ذهب قيصر روسيا نقولا الثاني إلى القوقاز ليضع بمشاوره الأرمن الخطط الحربية لضرب العثمانيين ، وكان في صحبة القيصر رئيس المكتب القومي الأرمني في تفليس .. وتدفق الأرمن من ولايات شرقي الأناضول لينخرطو في صفوف الجيش الروسي وليسهموا بجهودهم وليبدلوا أرواحهم رخيصة في سبيل نصرة القوات الروسية؛ حتى يرفرف العلم الروسي خفياً عالياً فوق اليوسفور والدرنيل ، وجاء في أقوال زعماء الأرمن «دع يا صاحب الجلالة القيصر ، الشعوب المتبقية تحت نير الحكم العثماني تسترد حريتها ، ودع الشعب الأرمني الخاضع للدولة العثمانية ، والذي عاش متمسكاً بالعقيدة المسيحية يبعث من جديد، ويعيش حياة جديدة حرة تحت حماية روسيا» (١) .

وعاد القيصر إلى سان بطرسبرج مزهواً معتقداً أنه قد آن الأوان؛ لكي يدخل على رأس قواته المظفرة إلى إستانبول، ويقضى على الدولة العثمانية القضاء المبرم .

انتقام العثمانيين من الأرمن :

بدأ الروس عدوانهم باجتياز الحدود العثمانية في شرقي الأناضول في مستهل شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٤ ، وكان الجيش الروسي يضم في صفوفه قوة من المتطوعين الأرمن من إقليم القوقاز، وقوة أخرى من الأرمن العثمانيين الذين كانوا قد نجحوا في التسلل عبر الحدود إلى الأراضي الروسية وبذلك تحقق الشطر الأول من تنبؤات أتور باشا ، واستطاع العثمانيون بعد بضعة أيام وقف الهجوم الروسي، ورد القوات الروسية إلى الخلف . وفي ٢١ من ديسمبر - كانون أول - تولى أتور باشا قيادة الجيش الثالث في هجوم مضاد مستهدفاً قطع خطوط مواصلات العدو بين القوقاز وقاعدة الروس الرئيسية في قارص واحتلالها مع أردهان وباطوم كخطوة أولى لغزو عثماني يستهدف منطقة القوقاز ، ولكنه منى بهزيمة فادحة عند

(1) Hovannisian Richard; Aichard; Armenia on the Road to Independence.

Berkeley and Los Angeles, 1967, p. 45.

ساريكامس^(١) Sasrikams ، وهى مدينة تقع على مفترق الطريق الرئيسى بين قارص والقوقاز فى يناير - كانون ثان - سنة ١٩١٥ ، وفقد أكثر من ثلاثة أرباع قواته، سواء فى المعركة أو فى تفهقر هذه القوات ، وهبطت الروح المعنوية للعثمانيين فى الجبهة الروسية، ونالت الهزيمة من سمعتهم العسكرية ، وكانت نتيجة هذه الكارثة العسكرية أن ترك أنور باشا فى منتصف شهر يناير - كانون أول - سنة ١٩١٥ قيادة القوات المتبقية من الجيش الثالث إلى قائد آخر، وعاد إلى القيادة العامة للقوات المسلحة فى إستانبول ، وكف بعد هذه الكارثة عن قيادة تشكيلات مقاتلة فى ميادين الحرب فى أثناء الحرب العالمية الأولى . وبعد الهزيمة الثانية الساحقة فى ساريكامس، انفتح الطريق أمام الروس للقيام بهجوم آخر على شرقى الأناضول . وزاد من حرج مركز العثمانيين أن هذا الهجوم الروسى للجديد المضاد قد صاحبه ثورة داخلية عارمة، قام بها الأرمن فى ولايات الأناضول ضد السلطات العثمانية . وبذلك تحقق الشطر الثانى من تنبؤات أنور باشا ، ولكن اشتراك الأرمن فى الجيش الروسى الزحف على شرقى الأناضول وإندلاع الثورة الأرمنية فى الولايات الست قد عادا بعواقب وخيمة على الأرمن ، إذ ألهب هذان الحادثان شعور العثمانيين المسلمين .

من أسباب انتصار الروس على العثمانيين فى شرقى الأناضول سنة ١٩١٥ :

وكان من أسباب انتصار الروس فى حرب سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ البراعة التى أظهرها قيصر الروسيا نقولا الثانى فى تنظيم صفوف قواته ، فقد أصدر أوامره بإخلاء مناطق الحدود الروسية العثمانية من الأرمن . وبذلك توافرت للقادة الروس حرية الحركة والالفاف حول العثمانيين فى أثناء سير المعارك ، وغادر الأرمن عن طيب خاطر أماكن تجمعاتهم، يحدوهم الأمل فى أن انتصار الروس لايساعدهم فقط على العودة سريعاً إلى ديارهم والاستقرار فيها بأطمئنان ، ولكن ليحتلوا أيضاً المناطق العثمانية ، التى يستقرون فيها والواقعة على الحدود ودخلها .

الترحيل الإجبارى للأرمن فى شرقى الأناضول إلى العراق :

استعد أنور باشا للهجوم الروسى الجديد ، وأعلن الزعماء الأرمن صراحة أنهم يقفون إلى جانب الروس ، وأنهم لن يتخلوا قيد أنملة عن هذا المبدأ . ولم يكن فى استطاعة أنور التمييز بين الأرمن الذين سوف يضمون إلى القوات الروسية استجابة لرغبة زعمائهم والأرمن الذين يظلون على ولائهم للدولة العثمانية .. ولذلك اتخذ أنور إجراءً وقائياً تطلبه الضرورة العربية لتأمين سلامة القوات العثمانية، وهى تخوض حرباً شرسة ضد قوات الغزو الروسى لمناطق شرقى الأناضول خشية أن يعمد الأرمن ، وقد أعلنت جهاراً جموع غفيرة منهم تعاطفهم مع

(١) يطلق على هذا الاسم اللفظ التركى قمصارى قمش ، «هو إقليم فى جبال أرمينية» .

الروسيا ، إلى ضرب القوات العثمانية من الخلف ، فتعرض لحرب إبادة من القوات الروسية من الأمام وإلى مذابح أرمنية من الخلف ؛ ولذلك صدرت الأوامر في منتصف شهر مايو - أيار - سنة ١٩١٥ بإخلاء ولايات فان ، وبيتليس ، وأرضروم من سكانها الأرمن توجهاً لأى عمليات تخريبية قد يقومون بها في مؤخرة القوات العثمانية بهدف تدمير عتادها وتخاثرها ومؤنها ، على أن يتم ترحيل هؤلاء الأرمن إلى منطقة الموصل في شمالي العراق حيث أعدت لهم معسكرات يقيمون فيها بصفة مؤقتة حتى تصنع الحرب أوزارها . وبالإضافة إلى ذلك تقرر ترحيل الأرمن المقيمين في المناطق الريفية ، وليس في المدن ، في منطقة كيليكيا في جنوب شرقي الأناضول وكذلك أرمن شمالي سورية إلى المناطق الوسطى في سورية للسبب نفسه . وصدرت أوامر للقوات العثمانية في جميع هذه المناطق ببسط حمايتها على الأرمن من هجمات البدو والأكراد وغيرهم من المسلمين حتى لا يعمدوا إلى الانتقام من الأرمن لأعمالهم الإرهابية التي سبق أن ارتكبوها ضد المسلمين ، وتضمنت هذه التعليمات أيضاً تزويد الأرمن بكميات كافية من الأطعمة والسلع الأخرى ؛ لمواجهة متطلباتهم سواء في أثناء ترحيلهم أو يعد استقرارهم في مهاجرهم الجديدة . وصدر قانون بتشكيل لجنة خاصة ، تقوم بتسجيل أمتهة وممتلكات الأرمن المرحلين ، وبيعها في مزاد علني بأسعار معتدلة ورصد حصيلة هذه المبيعات في حساب خاص . وعلى المسلمين الذين يريدون شغل المساكن والمحلات التجارية التي هجرها أصحابها الأرمن أن يستخدموها كمستأجرين فقط ، وأن يخلوا هذه الأماكن بمجرد عودة أصحابها الأصليين ، وأن يقوم الجيش بحراسة وحماية الأرمن المرحلين (١) .

مناقشة مسألة ذبح الأرمن سنة ١٩١٥ :

وجد المؤرخون والباحثون المتحاملون على الدولة العثمانية في حركة ترحيل الأرمن من شرقي الأناضول إلى العراق فرصة ذهبية لطمس الحقائق وتشويه سمعة العثمانيين ، فوصفوها بأنها كانت مقبلة جماعية أو مذبة للأرمن قام بها العثمانيون ، وقرروا أن أكثر من مليون أرمني قد أزهقت أرواحهم بغير ذنب إلا أنهم مسيحيون . ذكر ميلر أن السلطات العثمانية قد أعادت في سنة ١٩١٥ تنظيم مذابح للأرمن على غرار المذابح ، التي حدثت من قبل بشرين عاماً (في سنة ١٨٩٥) ، والتي هزت الضمير الأوروبي هزاً عنيفاً . ومضى هذا المؤرخ المتحامل على الدولة العثمانية يقول إن السفير الأمريكي في إسطنبول قد وصف مقبلة الأرمن سنة ١٩١٥ بأنها مذبة شعبية (٢) ، ونشرت الحكومة البريطانية سجلاً ضخماً لهذه المذابح (٣) ،

(1) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol, 2, p. 315.

(2) Miller W.; op. cit., p. 538.

(3) His Majesty's Britannic Government, Parliamentary.

Papers; The Treatment of Armenians in the Ottoman.

Empire 1915-1916. London. 1916.

وجاء فيه أنه في أثناء عمليات الترحيل سنة ١٩١٥ لقي ثلث الأرمن العثمانيين مصرعهم ، أي حوالي ٦٠٠,٠٠٠ أرمني ، والثلث الثاني عاش بعد الترحيل ، والثلث الأخير استطاع الهرب سواء في أثناء عمليات الترحيل أو من المعسكرات التي أقيمت لهم في منطقة الموصل (١) . وهذه الأقوال من قبيل المبالغة والتحاميل على الدولة العثمانية ؛ لأن حوادث الموت ، ولانقoul حوادث القتل أو الذبح ، إنما وقعت في أثناء عمليات ترحيل الأرمن وهم يجنازون سلسلة الجبال الجنوبية في مضبة الأناضول الوعرة وهم في طريقهم إلى منطقة الموصل (٢) . وتناسى هؤلاء المغرضون أن ترحيل الأرمن كان ضرورة حربية لتأمين سلامة القوات العثمانية ، وهي نخوض معركة ضارية ضد الروسيا على مقربة من مناطق تجمعات الأرمن بل وفي هذه المناطق . وتناقلوا عن الأوامر التي أصدرها العثمانيون بتوفير الرعاية الكاملة للأرمن المرحلين ، . وتناسا أن الروس كانوا أسبق من العثمانيين في إخلاء ساحات الحرب والمناطق القريبة منها في الروسية من الأرمن ؛ فلم يكن أنور باشا هو أول من استن هذا الأسلوب الأمني . وقد أصبحت هذه المقتلة المزعومة حقيقة لا تقبل نقاشاً في أذهان الكثيرين عن وحشية العثمانيين وتخلف الإسلام عن المسيحية ، وغدا هذا الزعم بحدوث المذابح في سنة ١٩١٥ يروى للأجيال الصاعدة من الأرمن ، جيلاً بعد جيل ، حتى غدا الإرهابيون الأرمن ينظمون المظاهرات للصاخبة ويرتكبون جرائم الاغتيالات السياسية كل عام في تاريخ وقوع المذابح المزعومة ؛ كي تظل ذكراها حية في وجدان شبابهم ، وحتى يزرعوا الحقد والمودة في قلوبهم ضد أتراك الجمهورية التركية باعتبارهم ورثة وسلالة العثمانيين .

وقد تصدى أحد المؤرخين الأمريكيين وزوجته Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw لتفنيد ادعاءات الأرمن ومن اقتفى نهجهم من مؤرخين وباحثين ، واستقيا مادتهما العلمية من الوثائق المحفوظة في دار للمحفوظات التاريخية في إستانبول . وكنت حريصاً في أثناء زيارتي المكررة لهذه الدار على الإطلاع على الوثائق التي أشارا إليها ، فتبين لي أن كلا منهما كان أميناً في عرض المادة العلمية ، وكان كل منهما يمثل المؤرخ الموضوعي المحايد . قالوا إن الزعم بأن أكثر من مليون أرمني قد قتلوا في حركة الترحيل سنة ١٩١٥ قد بنى على أساس أن عدد السكان الأرمن قبل الحرب العالمية الأولى كان يصل إلى مليونين ونصف مليون ، ولكن أثبتت الإحصائيات العثمانية الرسمية أن تعداد الأرمن في الدولة العثمانية بلغ قبل الحرب مليوناً وثلاثمائة ألفاً ، وأن نصف هذا العدد كان يقيم في المناطق التي تأثرت بالحرب . ولكن إذا وضع في الاعتبار عدد الأرمن من سكان المدن والذين سمح لهم بالبقاء فيها ، لم يزد عدد الأرمن المرحلين عن ٤٠٠,٠٠٠ نسمة ، كان من بينهم عدد من الإرهابيين والثوار جيء

(1) Loc. cit.

(2) Kruger K., op. cit., p. 129.

بهم من المدن التي فرض عليها الحصار عند بداية الحرب . وبالإضافة إلى ذلك كان قد هرب تبعاً مايقرب من نصف مليون أرمني إلى القوقاز وإلى دول أخرى في أثناء المدة المتبقية من الحرب ، وأثبتت الإحصائيات أيضاً أن حوالي ١٠٠,٠٠٠ أرمني ظلوا وعاشوا في الدولة العثمانية بعد الحرب ، وأن مجموعاً من الأرمن يتراوح عددهم بين ١٥٠٠,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠ قد هاجروا إلى دول أوروبا الغربية وإلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فتكون المحصلة النهائية هي أن ماثلى ألف أرمني قد ماتوا نتيجة عدة عوامل، منها : انتشار الأوبئة والمجاعات والعمليات الحربية التي دارت رحاها بين القوات العثمانية والروسية في أثناء بدء ترحيل الأرمن إلى العراق ، وهي الظروف والعوامل نفسها التي مات بسببها وخلاها مليونان من المسلمين في الوقت نفسه . وقد أثبت الفحص الدقيق للسجلات السرية الخاصة بالوزارة العثمانية في ذلك الوقت أنه لم يصدر أحد من رجال الاتحاد والترقي أو أى مسئول آخر في الحكومة المركزية في إستانبول أوامر بقتل الأرمن ، بل على النقيض كانت تصدر الأوامر إلى القوات الإقليمية بمنع الغارات ومنع الاضطرابات التي تؤدي إزهاق الأرواح (١) .

وفي شهر أبريل - نيسان - سنة ١٩١٥ ، قبل صدور الأوامر العثمانية بترحيل الأرمن إلى العراق ، قام فريق من جماعة داشناكس Dashnaks الإرهابية ، من بين أرمن روسيا ، بإشعال ثورة في مدينة فان . وكان عدد سكانها الأرمن يبلغ ٣٣,٧٨٩ نسمة، ويشكلون نسبة مئوية قدرها ٤٢,٣ من مجموع سكانها ، وهذه النسبة كانت تشكل أكبر كثافة سكانية أرمنية في أى مدينة في الدولة العثمانية .

وقد حاول الزعماء الأرمن المحليون أن يكبحوا جماع مواطنيهم في شرقي الأناضول، ويفرضوا عليهم قيوداً لأنهم كانوا يطمون مخبة اشتباكهم مع الأغلبية الإسلامية ، وأنهم قد يتعرضون لصراع حربي محمّر وطويل المدى إذا اشتبكوا مع المسلمين . ولكنهم غلبوا على أمرهم نتيجة تسلل اللوادر الأرمن من الشمال وعملاء الروسيا من القوقاز ، وقد وعدوهم بالمساعدات العسكرية الروسية، إذا أظهروا ولاءهم لقيصر الروسيا بإسهامهم في طرد المسلمين من شرقي الأناضول .

تعليق أحد خبراء الشرق الأوسط على مذابح الأرمن سنة ١٩١٥ :

يعلق كروجر أحد خبراء شؤون الشرق الأوسط تعليقاً سياسياً على مذابح الأرمن في أعقاب الصدام المسلح بين القوات الروسية الأرمنية والقوات العثمانية في سنتي ١٩١٤ ، ١٩١٥ بقوله إنه لم يكن في مقدور أحد من الأصدقاء المخلصين للدولة العثمانية تبرير تطرفها في مسألة الأرمن . ولكن يجب الاعتراف بأن الدولة العثمانية في صراعها من أجل الإبقاء

على وجودها القومي على كل جبهة من جبهات القتال في الحرب العالمية الأولى كان العثمانيون يشعرون بالقلق والسخط ، ومن ثم كانت تضحياتهم بأرواح الأرمن إحدى النتائج المحزنة وغير المباشرة للاستعمار الروسي . وكان يجب أن تكون مأساة الأرمن في المرحلة الأولى للحرب العالمية تحذيراً كافياً للقادة الأرمن في روسيا وأوروبا الغربية وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، وأن تكون هذه المأساة مدعاة لكبح جماحهم في اعتناق الفكرة المبالغ فيها والخاصة باسترداد الحقوق للتاريخية للشعب الأرمني ، ولكن لسوء حظ هذا الجنس النحس أن قادته لم يستوعبوا هذه الحقيقة . ومن الدروس المستفادة من مذابح الأرمن أنه وقت التوقيع على معاهدة سيفر في ١٠ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٠ ، لم تكن روسيا قد منيت بالهزيمة فحسب ، بل انسحبت انسحاباً كلياً من الولايات العثمانية التي كانت تحتلها ومن إقليم القوقاز . وليس هناك من عذر للأرمن في أن روسيا هي التي أوعزت إليهم باعتناق ادعاءاتهم القومية^(١) .

ذبح المسلمين في قان وإنشاء دولة أرمنية فيها :

بدأ الجيش الروسي في القوقاز شن هجوم على ولاية قان - إحدى الولايات الست في شرقي الأناضول - وكانت بين صفوف الجيش قوت كبيرة من الأرمن المتطوعين ، وقد جمعوا من اللاجئين في الأناضول ومن المقيمين المحليين في القوقاز . وقد تحركت القوات الروسية الأرمنية المهاجمة من ولاية إريقان في ٢٨ من أبريل - نيسان - سنة ١٩١٥ متجهة إلى قان . ولدى وصولها إليها في ١٤ من مايو - آيار - سنة ١٩١٥ ، نظمت ونفذت عمليات مذابح قام بها الأرمن للمسلمين خلال اليومين المتتاليين ، قبل أن تترد الحامية العثمانية إلى الجانب الجنوبي من بحيرة قان . وأقام الروس دولة أرمنية في ولاية قان تحت حماية روسيا ، وبات واضحاً أنه - بعد إعلان قيام الدولة الأرمنية الجديدة ، وبعد اختفاء الأهالي المسلمين في المنطقة والذين ذبحوا أو نجوا من المذابح بهروبهم من المنطقة - من الممكن أن تقوم الدولة الأرمنية الجديدة دعائمها وأجهزتها الحكومية في أحد مراكز الحضارة الأرمنية القديمة ، ونظمت قوة عسكرية أرمنية لطرد العثمانيين من كل الساحل الجنوبي لبحيرة قان ، تهيئاً لغزو روسي لولاية بتليس متفق عليه من قبل^(٢) . وتدفق على الدولة الأرمنية الجديدة الآلاف من الأرمن جاءوا من موش ومن مراكز الشرق التي توجد فيها تجمعات أرمنية ، كما تسال إلى هذه الدولة عدد كبير من الأرمن المرحلين ، وهم في طريقهم إلى العراق ، استطاعوا التلخف عن طوابير الترحيل وهي في مسيرتها . وفي منتصف شهر يوليو - تموز - سنة ١٩١٥ كان هناك مايقرب من ٢٥٠,٠٠٠ أرمني ازدحمت بهم منطقة قان ، التي لم تكن تأوي وتطمع أكثر من

(1) Kruger K., op. cit., pp. 129-130.

(2) Hovannisian Richard; op. cit., p. 56.

٥٠,٠٠٠ نسمة من المسلمين وغير المسلمين .

ومع ذلك استطاعت التعزيزات العسكرية العثمانية التي أرسلت في الشهر ذاته رد الجيش الروسي الأرمني على أعقابها . وكانت القوات العثمانية تضم في صفوفها أعداداً وفيرة من الأرمن، الذين خشوا أن يوقع بهم العثمانيون أقصى العقوبات عن حوادث القتل التي ارتكبوها ، وهي المذابح التي جعلت من الممكن قيام دولة أرمنية جديدة ولكنها لم تعيش أمداً طويلاً ، إذ سرعان ما تبخرت آمال الأرمن وللروس ، وذهبت أدراج الرياح بعد الهجوم الذي قامت به القوات العثمانية بقيادة جونت بك، الذي استطاع تحرير قان من الروس والأرمن وانهارت الدولة الأرمنية الجديدة ، ولت القوات الروسية الأدبار وهرب في أثرها مائتا ألف لاجئ . وقد تعقب هؤلاء وأولئك في ارتدادهم الأكراد الذين كانوا يخرجون من مخابثهم وبيباغتون المرتدين بغارات عنيفة فتركوا متاعهم وهم يهربون طلباً للنجاة من الأكراد ، واتجهوا نحو القوقاز حيث احتشدوا فيها ^(١) ، وكان معهم نحو أربعين ألف أرمني ، مات معظمهم في أثناء هروبهم . وكان اللاجئين الذين ذكر عددهم يشمل بطبيعة الحال جميع الأرمن من سكان الولايات الأرمنية في شرق الأناضول، الذين لم يتعرضوا لعمليات الترحيل التي قامت بها السلطات العثمانية . وقد ماتوا في أثناء مرافقتهم للجيش الروسي الذي لقي الهزيمة وتراجع إلى القوقاز، ولم يكن موتهم نتيجة جهود قام بها العثمانيون لقتلهم ^(٢) .

الروس يعاودون غزو شرقى الأناضول :

قامت السياسة الروسية على إنهك القوات العثمانية حتى لا يتيح لها فرصة للاسترخاء العسكري في جبهة الأناضول . والعثمانيون من ناحية أخرى خصوم محاربون أشداء، يدركون تماماً المطامع الروسية في بلادهم ولا يترددون في انتهاز فرصة لإلحاق هزائم بالروسيا كلما وجدوا إليها سبيلاً ، وفي أقصى حدود الدولة العثمانية في الأناضول توجد ولايات ست أصبحت بحكم موقعها الجغرافي المسرح الأول للعمليات الحربية بين الدولتين المتصارعتين ، ويستوطن الأرمن هذه الولايات ، وهم وإن كانوا لا يشكلون أغلبية سكانية فيها ، كانوا يرمون إنشاء دولة مستقلة لهم فيها أو دولة ذات حكم ذاتي . واستحال عليهم تحقيق أمانهم القومية بسبب تمسك الدولة العثمانية بمبدأ تماسك أقاليمها ، واستمال الروس إليهم الأرمن المقيمين في الروسيا ، حيث بذلوا لهم الوعود بمساعدتهم على تحقيق مطالبهم إذا انضموا إلى القوات الروسية في زحفها على الأناضول . واتسم موقف الأرمن بالتذبذب في الولاء للدولة العثمانية حيناً وللروسيا أحياناً، وقد تبادلت هاتان الدولتان الهزيمة والانتصار في حرب الأناضول في سنتي ١٩١٤

(1) Loc. cit.,

(2) Loc. cit., pp. 53-58.

١٩١٥ على النحو الذى مر بنا . ولما أخفق الروس فى تحقيق انتصار حاسم فى سنة ١٩١٥ أصروا على معاودة غزو شرقى الأناضول؛ تعويضاً لهم عن خسائزهم الفادحة فى الجبهة الأوروبية^(١)، وقصوا بقية عام ١٩١٥ يستكملون استعداداتهم ويستدجرون الأرمن للوقوف حريماً إلى جانبهم مصوريين أنفسهم أنهم دعاة الحرية ومحققوا آمال الأرمن فى الاستقلال، وقد بدأ الغزو الروسى لشرقى الأناضول فى فبراير - شباط - سنة ١٩١٦ .

احتلال الروس شرقى الأناضول فى سنتى ١٩١٦ ، ١٩١٧ :

على الرغم من انتصار العثمانيين على البريطانيين فى رفع الحصار عن كوت أو كوت الإمارة كما كانت تسمى وقتذاك^(٢)، وهى تقع على نهر دجلة جنوبى بغداد، فى ٢٩ من أبريل - نيسان - سنة ١٩١٦ .. لم يكن فى مقدورهم فى ذلك الوقت ضرب الثورة العربية التى قادها شريف مكة المكرمة وأميرها للحسين بن على فى ٥ من يونيو - حزيران - عام ١٩١٦؛ لأن القوات الروسية قامت بحملة مزدوجة صوب الولايات الست فى شرق الأناضول منذ مطلع سنة ١٩١٦ .. اتجهت القوة الأولى جنوباً حول بحيرة فان وفى اتجاه موش، بينما اتجهت القوة الثانية شمالاً وتقدمت مباشرة من قارص نحو أرضروم التى استولت عليها فى ١٦ من فبراير - شباط - سنة ١٩١٦ . وقد تبع هذا الهجوم المزدوج أسوأ فاجعة ومذبحة كبرى فى الحرب؛ إذ اضطر أكثر من مليون مسلم من الفلاحين ورجال القبائل إلى الهرب؛ مما قطع الطريق أمام آلاف آخرين فى محاولتهم للحاق بالجيش العثمانى فى تقهقره نحو إرزنكان Erzincan، وقد عهد أنور باشا وزير الحرية إلى أحمد عزت باشا، وهو وزير حرية سابق، بتنظيم قوة تقوم بهجوم مضاد على القوات الروسية، فاستعان الأخير بالجنود العثمانيين الذين تصادفت عودتهم فى ذلك الوقت بعد انتصارهم فى معركة غاليبولى^(٣) . ولكن أعاق جهوده لاسترداد أرضروم نقص الذخائر والمواد التموينية . وكان كثير من الفلاحين الأتراك قد تعرضوا لعمليات الذبح من جانب القوات الروسية أو الأرمن المنضمين إليها أو من الأرمن المحليين، بينما هرب بعضهم الآخر من وجه القوات الروسية المهاجمة . واستمر الروس فى تقدمهم واكتسحوا طرابيزون فى ١٨ من أبريل - نيسان - سنة ١٩١٦، واستولوا على إرزنكان فى أواخر يوليو - تموز -، وقطعوا الطريق بين سيفاس (سيواس) وأرضروم قبل أن يحل عليهم فصل الشتاء حيث تنكأثر الثلوج وتعرقل العمليات الحربية الخاطفة .

(١) انظر فى هذه الدراسة ج ٢، الفصل الأول .

(٢) يرد لكهما فى بعض المراجع كوت الصارة .

(٣) انظر فى هذه الدراسة ج ١، الفصل الثامن .

أما في الجنوب فقد كان العثمانيون أوفر حظاً ، إذا استطاعوا أن يثأروا من القوات الروسية مثلاً عظيماً حول بحيرة فان ، على الرغم من أنهم تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح والعتاد . وأقصى الروس شتاء ١٩١٦-١٩١٧ يستعدون لهجوم عام مضاد في اتجاه خاربوت وسيواس وعلى الساحل الجنوبي للبحر الأسود ، واستأنفوا هجومهم على القوات العثمانية بحلول فصل الربيع سنة ١٩١٧ ، واستمرت الحرب سجالاً بين القوات المتحاربة . ولكن لم يستطع العثمانيون طرد الروس من شرقي الأناضول ، واستقرت دعائم الاحتلال الروسي لهذه المنطقة ، ولم يستمر هذا الاحتلال إلا شهوراً ذات عدد ، فسرعان ما انسحبت القوات الروسية من هذه المناطق بسبب قيام الثورة البلشفية في عام ١٩١٧ كما ستوضح بعد حين .

موقف الأرمن من الغزو الروسي لشرقي الأناضول ١٩١٦-١٩١٧ :

ابتهج الأرمن سواء من كانوا في الأناضول أو روسيا أو في مهاجرهم بالغزو الروسي لشرقي الأناضول ، ونظموا جمعيات تتولى تدريب كتائب أرمنية وإرسالها إلى الجبهة ؛ حيث انضمت إلى القوات الروسية الزاحفة ابتغاء الإسهام في طرد العثمانيين من شرقي الأناضول ، وإنشاء دولة أرمنية مستقلة أو على أقل تقدير يقرر لها نظام الحكم الذاتي . ويلاحظ أنه كانت في القوات الروسية أيضاً كتائب أرمنية تضم أرمن روسيا ، وكان أفرادها ضباطاً وجنوداً وإداريين خدموا بكل إخلاص وتحمس ، بل وشراسة معاً ، القضية المشتركة أملاً في أن يكون الغزو الروسي للولايات الست في شرق الأناضول سبباً في تحريرها من الحكم العثماني . ولكن كانت الحكومة الروسية قد شعرت بارتياح لانضمام الكتائب الأرمنية على اختلاف جنسياتها إلى القوات الروسية ، إلا أنها كانت تشعر بقلق لاحتمال تكوين الدولة الأرمنية المبتغاة في شرق الأناضول . وكان يعترى الحكومة العثمانية القلق نفسه ، وهي تواجه احتمالين كلاهما شر : الغزو الروسي أو قيام الدولة الأرمنية .

وتماشياً مع الاحتمالات الجديدة الناجمة عن موقف الأرمن الإيجابي في الحرب الروسية العثمانية سلكى ١٩١٦-١٩١٧ ، لم يذكر شيء ما عن أى التزام من جانب الحكومة الروسية ، يمنح الأرمن حكماً ذاتياً أو استقلالاً تاماً في المحادثات السرية التي جرت بين روسيا وكل من بريطانيا وفرنسا بشأن تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا ، وهو التقسيم الذي كان مقرراً تنفيذه عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى . وتبادلت الحكومات البريطانية والفرنسية والروسية مذكرات سياسية مؤرخة في ١٣ و ٢٦ من أبريل - نيسان - سنة ١٩١٦ و ١٠ و ٢٣ من مايو - أيار - عام ١٩١٦ و ٢٣ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩١٦ ، وعرفت هذه الاتفاقية باسم اتفاق سايكس بيكو Sykes Picot Agreement ، وقد ظفرت روسيا بمقتضاها بوعد بالحصول على إستانبول مع بضعة أميال في الداخل على جانبي البوسفور ، وشرية ضخمة تضم أربع ولايات كاملة تجاور الحدود بين الدولة العثمانية والروسيا ، وهي : أرضروم ،

وطرابيزون ، وقان ، ويتليس ، فضلاً عن بعض الأقاليم الواقعة بين البحر الأسود وإقليم الموصل - أرميا - سنتكلم عن هذا الاتفاق بشيء من التفصيل، عند تعرضنا لحكم الطغاة الثلاثة في موطن قادم في هذه الدراسة .

قلق الرأي العام العثماني الإسلامي وزيارة إمبراطور ألمانيا لإستانبول لرفع الروح المعنوية :

وفي أثناء الغزو الروسي للولايات العثمانية في شرقي الأناضول ، والتي تشكل أرمينية العثمانية .. حدثت مضاعفات داخلية ، كانت لها آثارها السيئة في الدوائر الرسمية في الباب العالي وفي الرأي العام العثماني المسلم . اقترن الغزو للروسي بالتجاه السلطات العثمانية إلى تجنيد المزارعين في هذه المناطق ، ثم انتشر وباء التيفوس بين القوات المتحاربة ، وجاء موسم هطول الأمطار في الأناضول شحياً فشرقت الأرض الزراعية ، وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى نقص خطير في الإنتاج الزراعي وبالتالي في المواد التموينية، شعر به سكان إستانبول والمدن الكبرى والصغرى على السواء . ثم جاءت الهزائم العثمانية في شرقي الأناضول ، ومن قبلها إخفاق الهجوميين العثمانيين بقيادة جمال باشا قائد الجيش الرابع على حدود مصر الشرقية في سنتي ١٩١٥ ، ١٩١٦ ، وتطور سير الحرب البريطانية في العراق لغير مصلحة العثمانيين؛ إذ استرجعت القوات البريطانية كوت الإمارة ، واستولت على بغداد في ١١ من مارس - آذار - سنة ١٩١٧ ، وانتشرت بعد سقوط بغداد في أيديها شرقاً وغرباً وشمالاً^(١) ، وهزائم الألمان في الجبهة الغربية ، ودخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب بريطانيا وحليفاتها في أبريل - نيسان - سنة ١٩١٧ . كل ذلك أدى إلى مزيد من سخط الجماهير العثمانية المسلمة لم تخفف منه شيئاً زيارة الإمبراطور الألماني ولهم الثاني لإستانبول في سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٧ وقيام ولي العهد الأمير يوسف عز الدين أفندي برد الزيارة له في ألمانيا . وعلى الرغم من صرامة الرقابة العثمانية والنشاط المكثف لأجهزة المباحث .. أخذت الجماهير تتساءل عن الأسباب التي دفعت حكومة الطغاة إلى الزج بالدولة في حرب مدمرة طويلة المدى واسعة النطاق . ولم يستطع أحد من المسئولين العثمانيين الإجابة عن تساؤلات الجماهير، وتبدئة روعها ، وفي وسط هذا الظلام ظهر بصيص من الأمل بقيام الثورة البلشيفية في روسيا وما أعقبها من انسحابها من الحرب، وعقد معاهدة مع الدولة العثمانية .

(١) محمد طاهر العمري : تاريخ مقدرات العراق السياسية ، مطبعة عيسى محفوظ ، الموصل ، ١٩٢٤ ، ص ٨٩ ومابعدها في الفصل الثالث .
وانظر أيضاً العبد طه الهاشمي : حروب العراق ، بغداد ، سنة ١٩٣٦ .

الثورة الروسية وأثرها على قضية الأرمن :

قامت في روسيا ثورة بدأت في ٨ من مارس - آذار - سنة ١٩١٧، تنادى إليها الشعب الروسى ضد المعاناة من الجوع والشفاء وسوء توزيع موارد البلاد ومنتجاتها وطرق القمع الوحشية والكوارث الحربية الرهيبة ممثلة فى أربعة ملايين من القتلى والجرحى . وأرغم القيصر نقولا الثانى (١٨٨٦-١٩١٨) (١) على النزول عن العرش فى ١٥ من الشهر ذاته، وانتخبت حكومة مؤقتة برئاسة ليفوف Levov ، وكان أبرز أعضائها إسكندر كرنسكى - Exand er Alexander Kerensky ، وهو خطيب مجلس عمال بتروجراد ووكيل لجنة السوفييت المركزية للتنفيذية ، وحاولت هذه الحكومة أن تدير دفة الحرب بعد سقوط القيصر . وصمدت الجبهة الروسية بعض الوقت ولكن الثورة أوهنت عزائم الجنود ، وتلبأ كرنسكى بأن الروسية قد تمزقت ، وأنها لن تستطيع المضى فى الحرب بعد نهاية عام ١٩١٧ ، ولكن جاءت النهاية أسبق مما توقعه . وتعرض للجيش الروسى لهزيمة اليمة فى أغسطس - آب - من السنة ذاتها . وكانت قد تألفت فى جميع أرجاء البلاد مجالس للجنود والعمال Soviets ، ثم تمثلت هذه المجالس جميعاً فى أوائل أبريل - نيسان - فى مؤتمر مركزى واتخذ بتروجراد مقراً له ، ويمكن البولشيويك (٢) Bolshevick فى مؤتمر السوفييت من استمالة الجماهير إلى جانبهم ، وكان برنامج الحزب الذى وضعه البولشيويك شديد الغلوابة ، تضمن المبادئ الآتية : توفير الطعام للجميع ، إبرام صلح عاجل ، توزيع الأراضي على الفلاحين ، إقامة ديكتاتورية عمالية ، سحق الطبقتين الغنية والوسطى ، وكان شعار الحزب البولشيويكى ، لافتوح جديدة ، ولاغرامات حربية ، ومضى هذا الحزب يضم الجماهير إليه ، وساعده على ذلك نعاسة الجماهير وسذاجتها ، وانتصارات الألمان ، وضعف الحكومة المؤقتة التى لم يكن فى جعبتها برنامج براق يستهوى الجماهير الكادحة . وضرب الحزب البولشيويكى فى ٢ من نوفمبر - تشرين ثان - ضربه التى ظل رديحاً طويلاً يعد عدتها ، وسقطت الحكومة المؤقتة بهجوم الثوار الحمر على قصر الشتاء فى بتروجراد . ونزعم الثورة اثنان من البولشيويك كانا قد عادا سراً ، كان الأول هو نقولا لينين (٣) Lenin وكان الثانى يهودياً هو تروتسكى (٤) Trotsky . ويقول فيشر إنه ، لم يحدث قط أن استولى على السلطة فى دولة حديثة مغامرون أعظم جسارة وعزماً وثباتاً من هذين المغامرين الجبارين . فلم تمض ثلاثة أشهر على توليهما زمام الحكم حتى كانا قد أخرجاها من الحرب ، وسحقا الطبقتين الغنية والوسطى ، وقضا هيئة نيابية ، كانت قد دعت لوضع دستور برلمانى

(١) تولى عرش روسيا من سنة ١٨٩٤ خلفاً للإسكندر الثالث حتى اندلاع الثورة فى سنة ١٩١٧ .

(٢) بولشيويك كلمة روسية معناها حزب الاغلبية .

(٣) كان نقولا لينين يسمى أليانوف Ulianoff .

(٤) كان تروتسكى يسمى براونشتين Braunstein .

لجمهورية روسية،^(١) . وكان من أعمال البولشيفيك الأولى أنهم نشروا في جريدة برافدا في نوفمبر وديسمبر - تشرين ثان وكانون أول - سنة ١٩١٧ نصوص المعاهدات السرية، التي كانت الروسية طرفاً فيها . وكان من بينها إتفاقية سايكس بيكو الثلاثية - Tripartite Sykes Picot Agreement المعقودة في ٢٦ من أبريل - نيسان - ٢٣ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩١٦ بين بريطانيا وفرنسا والروسيا لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ، وكان من المقرر تنفيذها عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى . وقد سبب نشر وثائق هذه الاتفاقية حرباً شديداً لبريطانيا وحليفاتها . وأعلن لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية، في محاولة لتخفيف وقعها في العالم، أن بريطانيا لم ترغب قط في حرمان الدولة العثمانية من عاصمتها (إستانبول أو من أراضيها الغنية المشهورة في آسيا الصغرى وشرقها ، وهما الموطن الأصلي للعنصر التركي . وهكذا لم يستطع هذا السياسي أن يتوصل من إتفاقية سايكس - بيكو ، أو أن يتستر على حقيقة مهمة هي تأمر بريطانيا وفرنسا والروسيا في أثناء الحرب العالمية الأولى على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية فيما بينها . ويزيد في فداحة هذا التآمر أن بريطانيا كانت قد تعهدت في سنتي ١٩١٥ ، ١٩١٦ لشريف مكة وأميرها الحسين بن علي بمنح البلاد العربية الآسيوية استقلالها، في مقابل تحريك ثورة عربية على الدولة العثمانية ، كما أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وودرو ويلسون Woodrow Wilson أنه يجب أن يتقرر للعثمانيين السيادة على الجزء التركي من الدولة العثمانية ، وأعلن أيضاً في البند الثاني عشر من برنامجه الذي اشتهر باسم النقاط الأربع عشرة (٨ من يناير - كانون ثان عام ١٩١٨) أنه يجب أن يكفل لجميع القرميات غير التركية في الإمبراطورية العثمانية المجال لاستكمال استقلالها الذاتي . وكان الروس وجددهم هم الذين أعلنوا بصراحة إلغاء حقوق الروسية التي جاءت بها إتفاقية سايكس - بيكو السرية، وقرروا في ٥ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٧ إلغاء هذه الاتفاقية التي تنص على حرمان الدولة العثمانية من أرمينية ، ولو أنهم قالوا : «إنه بعد وقف العمليات الحربية سيضمن للأرمن حق تقرير المصير فيما يختص بمستقبلهم السياسي، والتصريح الروسي يقوم على التناقض : فهو في شقه الأول يقرر إبقاء أرمينية في حوزة الدولة العثمانية ، وهو في شقه الثاني يعن إعطاء الأرمن الحق في تقرير مصيرهم ، ومعناه التهديد لسلخ أرمينية عن الدولة العثمانية ؛ مما يبعث في نفوس الأرمن مزيداً من الأمل في استغلال ظروف الحرب العالمية الأولى لحل قضيتهم على النحو الذي يبتغونه . وإذا كانت السياسة البريطانية قد اتسمت بالنفاق والخديعة والتضليل .. فإن سياسة الروسية ، سواء في العهد القيصري أو العهد البولشيفيكي أو السوفييتي ، كانت هي الأخرى على شاكلة السياسة البريطانية : مقابلة ، مأكرة ، مخادعة .

(1) Fisher H.A.L., op. cit., p. 1144.

معاهدة بيرست لينوفسك تقضى على آمال الأرمن :

عقدت الحكومة البولشيفيكية فى روسيا فى ٥ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٧ عقب خروجها من الحرب هدنة منفصلة خاصة بها مع الدولة العثمانية ودولتى الوسط (ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية) ، ولم تشترك فى هذه الهدنة بطبيعة الحال دول الوفاق وهى حليفاتها السابقات فى الحرب العالمية الأولى ، والتى وأصلت الحرب ضد ألمانيا والنمسا والمجر والدولة العثمانية . وكانت دول الوفاق قد بذلت جهوداً مكثفة بالاشتراك مع عناصر بولشيفيكية للإبقاء على روسيا فى الحرب كى تكبح جماح الأطماع الألمانية ^(١) . وبعد عقد الهدنة بدأت مفاوضات الصلح التى استطلت ثلاثة أشهر . وقد طالب المندوبون العثمانيون بإنهاء الاحتلال الروسى للولايات الواقعة فى شرقى الأناضول وإعادتها إلى حوزة الدولة العثمانية ، وعارضت ألمانيا هذا المطالب أكثر مما عارضته روسيا ^(٢) ، ولذلك نص مشروع المعاهدة على أن تسترد روسيا كلاً من قارص وأردهان ^(٣) اللتين انتزعتهما مع باطوم من الدولة العثمانية عقب الحرب التى قامت بينهما فى سنتى ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ ^(٤) . ولما فرغ المتفاوضون من بحث المشكلات بين الدولة العثمانية والروسيا اتفقوا على إبقاء المعاهدة معقولة دون توقيع حتى تنتهى مناقشة المسائل بين ألمانيا والروسيا فيتم للتوقيع فى يوم واحد ، ولذلك أخذ الجزء الخاص بالدولة العثمانية شكل مشروع معاهدة Draft Treaty ، وكان هذا الإجراء الشكلى فى مصلحة الدولة العثمانية ؛ إذ لما رضخت للروسيا البولشيفيكية لمطالب ألمانيا ^(٥) ، تدخل أنور باشا فى اللحظة الأخيرة ، وقدم مذكرة نجم عنها إدخال مادة جديدة تنص على الانسحاب الفورى للقوات الروسية من ولايات أردهان وقارص وباطوم فى شرقى الأناضول وإعادتها إلى الدولة العثمانية ، وعودة روسيا إلى خط الحدود الذى كان قائماً قبل الحرب ، فى خلال مدة تتراوح بين أربعة أسابيع وستة أسابيع من تاريخ التوقيع على المعاهدة ، وتسريح العصابات الأرمنية

(1) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol 2 P. 325.

(2) Loc. cit.,

(3) Hurewitz J.C.; Diplomacy in the Near and Middle East; op. cit., vol. 2 pp. 31.

(٤) انظر فى هذه الدراسة ج ٣ ، الفصل الثالث .

(٥) تنازلت روسيا لآلانيا عن بولande الروسية ، وأوكرانيا ، وفنلندة ، وإستونيا ، وإتوانيا ، وإيفونيا Livonia وكورلاند Courland .

انظر كلاً من :

Taylor A.J.P.; The Struggle for Mastery in Europe, op. cit., p. 566.

Fisher H.A.L.; A History of Europe, op. cit., p. 1144.

ومن قلندة ، وإستونيا ، ولاتفيا ، وإتوانيا ، انظر :

Grant A.J. and Temperley Harold; op. cit., 442-444.

Hurewitz J.C.; Diplomacy etc., op. cit., vol. 2, pp. 31-33.

سواء الموجودة في روسيا أو في الولايات العثمانية المحتلة في شرقي الأناضول ، كما وافقت روسيا على الانسحاب من منطقة القوقاز والمناطق التي كانت تحتلها من فارس (إيران) ، وتم التوقيع على المعاهدة في ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩١٨ (١) ، وسميت معاهدة برست ليتوفسك القانونية والسياسية Legal and Plitical Brest-Litovsk Treaty ، وفي الوقت ذاته اتفق أنور باشا مع الألمان على إطلاق يده في القوقاز وشمال غربي فارس ليتابع سياسته المحببة إلى نفسه ، وهي سياسة التتريك - Pan - Turkism في معظم هذه المناطق .

وقد جلبت معاهدة برست ليتوفسك على روسيا المذلة والامتهان ، ولم يشعر لينين بأى خجل أو يحس بأى أسف أو ندم (٢) . كما أن المعاهدة قضت على آمال الأرمن ، الذين كانوا يعلقون أعذب الآمال على العون العسكى وللتأييد السياسى من روسيا . ولذلك لم تلق هذه المعاهدة أى ترحيب في روسيا أو في دوائر الأرمن ، وأصبحت الدولة العثمانية تسيطر على شرقي الأناضول وفي مقدورها أن تقف في وجه تطلعات الأرمن لإنشاء دولتهم المرتجاة . أما ألمانيا .. فأصبحت صاحبة النفوذ في شرقي أوروبا وفي دول بحر البلطيق .

العلاقة بين الدولة العثمانية وأرمن جمهورية عبر القوقاز :

كان من بين خطط أنور باشا وزير الحربية إنشاء إمبراطورية تركية تمتد عبر منطقة القوقاز إلى القرم وآسيا الوسطى ، وكان أنور من أنصار سياسة تتريك الدولة العثمانية ، ومن ثم تحمس لهذا المشروع ، ولسبب آخر هو أن يكون هذا المشروع تعويضاً جزئياً عن الولايات العربية في حالة ضياعها من الدولة . ولكن الجماعات القومية من أهالى القوقاز وجورجيا وأذربيجان - وهي مناطق يسكنها أتراك مسلمون وأرمن - قد نجحت في شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٧ في إنشاء جمهورية مستقلة ، سميت «جمهورية عبر القوقاز المستقلة» - The Independen dent Transcaucasian Republic . واتخذت من نقليس عاصمة لها ، وشكلت حكومة وجيشاً خاصين بهذه الجمهورية (٣) . وكانت لبريطانيا وألمانيا مطالعتهما في السيطرة على الثروة البترولية الموجودة في باكو ، وعلى المنجنيز وغيره من المعادن المنوفرة في إقليم جورجيا . واستبان لرجال السياسة في ذلك الوقت أن الجمهورية الوليدة ستكون في دائرة النفوذ الروسى بحكم الجوار .

الأرمن يقتلون الأتراك في جنوبى القوقاز وشرقى الأناضول :

وتماشياً مع السياسة العليا للحكومة الروسية برئاسة لينين بعد الثورة البولشيكية ، عقدت هذه الجمهورية هدنة مع الدولة العثمانية ، وتم التوقيع عليها في إرزنكان في ١٨ من

(١) وتم تبادل وثائق التصديق عليها في برلين في ١٢ من يوليو - تموز - سنة ١٩١٨ .

(2) Fisher H.A.L., op. cit., p. 1144.

(3) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 325.

ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٧ ، ولكن لم تلق هذه الهدنة ترحيباً من الأرمن الذين قاموا بمذابح عامة بين من تبقى من المزارعين الأتراك المسلمين في جنوبي القوقاز وشرقي الأناضول ، وأصبح فيهما أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ لاجئ من بين مجموع سكانها السابقين ، قبل الغزو الروسي بشرقي الأناضول في سنتي ١٩١٦ ، ١٩١٧ ، وكان تعدادهم يبلغ وقتذاك ٢,٢٩٥,٧٠٥ من الأتراك في ولايات أرضروم ، إرزنكان ، طرابيزون ، فان ، بختيس ، وبهذه المذابح الجماعية نقض الأرمن اتفاقية الهدنة (١) .

العثمانيون يكتسحون قارص وأردهان وباطوم وأرضروم وفان :

أجاب أنور باشا على انتهاك الأرمن لأحكام الهدنة بهجوم عام ، اشتركت فيه قوات عثمانية من الجيش الثالث المرابط في ديار بكر وموش ، ويقودها على إحسان صائب ، وقوات عثمانية من إرزنكان يرأسها كاظم قره بكير . واستطاع الأخير في ١٤ من فبراير - شباط - سنة ١٩١٨ أن يطرد جميع السكان الأرمن من إرزنكان ، وأن يجبرهم على اللحاق بجيشهم في ارتدادهم إلى القوقاز ، ولما جاءت الأنباء بعقد معاهدة برست ليتوفسك في ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩١٨ ، عهد أنور باشا إلى كاظم قره بكير باشا بمهمة القيام بتحرير المسلمين الأتراك ، فأنجبه لاحتلال قارص ، وأردهان ، وباطوم بعد أن انسحب الروس منها . ولما رفض الأرمن الانسحاب من أرضروم ، أوقع بهم كاظم قره بكير هزيمة أليمة ، واستولى على منطقة أرضروم في ١٢ من مارس - آذار - سنة ١٩١٨ . وبذلك قطع الاتصال مع الأرمن المرابطين في الشمال ، وأجبر الأرمن المحتشدين في فان على الجنوب على الارتداد دون مقاومة .

الأرمن يرفضون مطالب العثمانيين في مؤتمر طرابيزون :

وبدأت مفاوضات الصلح بين الدولة العثمانية وجمهورية عبر القوقاز في طرابيزون ، وعرض أنور باشا أن يتنازل عن كل مطالبه أو مطامحه في القوقاز ، في مقابل الاعتراف بحق الدولة العثمانية في استرجاع الولايات الست الواقعة في شرقي الأناضول ، تنفيذاً لمعاهدة برست ليتوفسك . واعتقد الأرمن أن تنازل أنور باشا عن مطالبه دليل على الضعف . وصفت زعمائهم على الدوائر العليا في جمهورية عبر القوقاز لرفض مطلب أنور باشا ، واستأنفت العمليات القتالية ، واضطر الأرمن إلى الارتداد خلف خطوط القتال يحذرهم الأمل في أن يظفروا - بعد أن أرهقت القوات العثمانية في ظلمهم - بانتصار لاحق قريب يساعدهم على الاستيلاء والاستقرار في الولايات الست في شرقي الأناضول ، ولكنهم لم يجدوا لهم ملاذاً سوى الهروب إلى أرمينية الأصلية ولزحمت بهم إربقان ، التي انتشرت فيها المجاعة والأوبئة والفوضى .

الأرمن يرفضون مطالب العثمانيين في مؤتمر باطوم :

وعقد مؤتمر آخر للسلام في باطوم في ١١ من مايو - أيار - سنة ١٩١٨ وتقدم العثمانيون بمطالب جديدة، تجاوزت أحكام معاهدة برست ليتوفسك، لتشمل عدداً من المناطق حول تفليس ، والكسندروبول (١) Alexandropol وإشميادزين (٢) Echmiadzin، ومطالب أنور باشا أيضاً بأن يمنح التجار العثمانيون الحق في المرور عبر منطقة القوقاز ، وأن تخفض الجمهورية قواتها المسلحة، ليحول هذا التخفيض دون تجدد التهديدات الأرمنية للأناضول . ورفض أعضاء الوفد الأرمني ووفد أذربيجان في المؤتمر مطالب العثمانيين، مما أدى إلى زحف الجيش العثماني على مناطق في أرمينية الروسية، لم تكن تحت حكم الدولة العثمانية منذ القرن السابع عشر . وكان السكان الأتراك المسلمون قد أرسلوا استغاثات متعاقبة إلى الحكومة العثمانية، يطلبون إنقاذهم من المذابح وشتى صور الاضطهادات الأرمنية ، وقد أعطت هذه الاستغاثات لأنور باشا تبريراً كافياً للعمليات الحربية التي قام بها الجيش العثماني .

الأرمن يستغيثون بألمانيا :

لجأ الأرمن إلى وسيلة جديدة ومبتكرة لطلب نقيدهم في ساعة العسرة ، فوجهوا استغاثات متتالية إلى الحكومة الألمانية يلتمسون إنقاذهم من أخطار الهجوم العثماني ، على أساس أن الدولة العثمانية وألمانيا حليفتان في الحرب الأولى، وبعثوا بهذه الاستغاثات عن طريق أعضاء البعثات التنصيرية الألمانية؛ مما يعد خروجاً من هؤلاء الأعضاء عن رسالتهم الدينية وزجاً بأنفسهم في غمار السياسة الدولية ، وكان هؤلاء المنتصرون الألمان يطمون جيداً أن حكومتهم ترنو بأبصارها نحو مناطق جورجيا وباكو . واستجابت ألمانيا لاستغاثات الأرمن وضغطت على أنور باشا كي يستبقى قواته في شرق الأناضول، لمواجهة أي هجوم بريطاني محتمل على شمال العراق بعد سقوط بغداد ، وعلى بلاد الشام من مصر . وقد حاول الألمان أكثر من ذلك ، وضغطوا على أنور باشا كي يسحب القوات العثمانية من باطوم بصفتها نهاية خط أنابيب البترول من باكو، فتصبح باطوم مركزاً لشحن المواد الخام من آسيا الوسطى وإرسالها إلى المصانع الألمانية (٣) .

(١) تسمى بالتركية جومرو Gumru أو كومرو ، وتسمى الآن لينينا كان Leninakan ، ويجدر التمييز بين لفظة إسكندر وبوبل وكلمة إسكندر وبوليس Alexandropolis ، فالأخيرة تطلق على ميناء في إقليم ترافيا الغربية في البلقان، ويسمى بالتركية ديبياغاشي Dedeagac أو ديبياغاشي .

(٢) كان هدف أنور باشا من هذا الطلب هو إنشاء خط حديدي في المستقبل، يربط قارص وجولفا Julva مع باكو ، وهي مفتاح آسيا الوسطى .

(٣) وفي النهاية ، ويتشجع من ألمانيا ، انفصل إقليم جورجيا عن جمهورية عبر القوقاز في ٢٦ من مايو -

استسلام الدولة العثمانية للحلفاء :

وإذا كان أنور باشا قد أحرز انتصارات محدودة في جبهة شرقي الأناضول.. إلا أن هذه الانتصارات كانت على حساب الجبهات الأخرى للحرب ؛ خاصة في العراق وبلاد الشام ؛ حيث تساقطت المدن تباعاً في أيدي القوات البريطانية . واحتل الأسطول الفرنسي مدينة بيروت في ٦ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩١٨ ؛ وسقطت في يد الجنرال اللنبي Allenby حلب وحمص وطرابلس الشام وحلب وإسكندرونه في ١٤ من أكتوبر ، وتراجعت القوات العثمانية إلى الأناضول لتستقر في أضنة ، وبات الموقف الحربي بالنسبة للدولة العثمانية ميئوساً منه . وكانت قوات بلغاريا قد استسلمت لبريطانيا وحليفاتها في ٢ من أكتوبر ، وقطعت طرق المواصلات المباشرة بين الدولة العثمانية وألمانيا . واستطاعت بريطانيا أن تظفر بموافقة حليفاتها ، على أن ترسل قواتها من سالونيك عبر قراقيا إلى الجزء الأوروبي من إستانبول مع قوات صغيرة رمزية لحليفاتها . وقد خولت هذه الموافقة لبريطانية الحق في السيطرة على المضائق التركية وإستانبول براً وبحراً بمجرد عقد الهدنة التي بدت لجميع المراقبين السياسيين والعسكريين في ذلك الوقت أنها لامناص منها ، وأن وفاة رجل أوروبا المريض قد أصبحت وشيكة .

وفي وسط هذه الهزائم المتلاحقة ، جاز السلطان محمد الخامس (رشاد) في ٢٨ من

=أيار - سنة ١٩١٨ ويكون سكان هذا الإقليم دولة مستقلة خاصة بهم بضمانة ألمانيا . واقتفى أثرهم كل من الأرمن وأتراك أنديجان بمدة قصيرة . ثم حدث أن انتقلت ألمانيا مع روسيا البولشفكية في ٢٧ من أغسطس - آب - سنة ١٩١٨ ، على أن يخرج العثمانيون من إقليم جورجيا وبأكو في مقابل إرسال البترول لإمداد السفن الحربية الألمانية بهذه السلعة المهمة . وفي ذلك الوقت ، جات قوة بريطانية بقيادة دنسترفيل Dunsterville من فارس (إيران) لإخراج الألمان والعثمانيين من إقليم القوقاز ، ووصلت هذه القوة إلى بأكو في منتصف أغسطس - آب - وأصبح الموقف يموج بشتى الاحتمالات . وفي هذا الوقت خضع طلع باشا للضغط الألمانى ، ووقع في ٢٢ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٨ اتفاقاً ينص على انسحاب القوات العثمانية من القوقاز ، وأن تكون جمهورية أنديجان الوليدة منطقة نفوذ ألماني ؛ خاصة في المجالات الاقتصادية والسياسية . واضطر الألمان ، إزاء وجود دنسترفيل في بأكو أن يتخلوا عن معارضتهم لزحف عثمانى . وأرسل أنور باشا قوة جديدة زحفت على القوقاز ، واستولت على ديربند Derbend في ١٠ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٨ ، وقطعت اتصال بأكو مع المناطق الشمالية ، واضطر القائد البريطاني دنسترفيل إلى العودة من حيث أتى . وهذا ما مضى الروس المحليون والأرمن الذين اضطروا إلى الهرب إلى إريغان ؛ إذ احتل العثمانيون المدينة وجعلوها عاصمة لجمهورية أنديجان . وكما ظهر للاحتجاج الذى الروس البولشفيك معاهدة يرست ليتوفسك في بنودها الخاصة بالعثمانيين . ولم يكن لهذا الإنهاء نتيجة تذكر بعد أن أصبح البولشفيك ، وباست لديهم قوة عسكرية لتنفيذ مطالبهم .
انتظر :

يونيو - حزيران - سنة ١٩١٨ إلى ربه، وخلفه على عرش آل عثمان السلطان محمد السادس (وحيد الدين) أحد إخوة السلطان عبدالحميد الثاني والسلطان محمد الخامس . وسرعان ما غدا السلطان الجديد ألمعية في يد الطغاة الثلاثة، كما كان أخوه محمد الخامس من قبل . وكانت الأخطار الخارجية والداخلية تنصر الدولة عسراً ، واستألت إسطنبول باللاجئين الجياع ، وعانت العاصمة نقصاً خطيراً في المراد الغذائية ، وانتشر التيفوس بين سكانها ، وزاد من خطورة الموقف أن الأسطول البريطاني شدد حصاره على الدردنيل .

اتفق رئيس الوزارة العثمانية ، طلعت باشا ، مع الألمان على التماس وساطة الرئيس الأمريكي ولسن لمعد هدنة مع بريطانيا وحليفاتها في ٥ من أكتوبر - تشرين أول - في ضوء النقاط الأربع عشرة، التي أعلنها هذا الرئيس؛ حتى لا تتعرض الدولة العثمانية وألمانيا لشروط قاسية تفرضها بريطانيا ، كما التمس طلعت باشا من جهات عسكرية وسياسية أخرى التوسط في عقد الهدنة . وحولت هذه الطلبات إلى قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط أدميرال كالثورب Admiral Calthorpe ، فذهب إلى ميناء مدروس في جزيرة لمнос Lemnos في بحر إيجة في ١١ من أكتوبر ليضع الشروط العسكرية للهدنة ، وكانت حكومة الطغاة الثلاثة قد استقالت في ٨ من أكتوبر، وبقيت البلاد دون وزارة لمدة أسبوع؛ إذ لم يجرؤ أحد على تشكيل وزارة في مثل هذه الملامسات المتناهية في ظلها وقسوتها، حتى قبل أحمد عزت باشا تشكيل وزارة جديدة في ١٤ من أكتوبر، تكون مهمتها الأولى عقد الهدنة المبتغاة . ونسأل الطغاة الثلاثة لو أن خارج البلاد هرباً وفرعاً وجبناً ، وطلب الأدميرال البريطاني حضور وفد عثماني لتوقيع شروط الهدنة ، وكان هذا الوفد برئاسة وزير البحرية حسين رموف بك أورباي (١) Or-bay وتم التوقيع على الهدنة في ٣٠ من أكتوبر ، وعرفت باسم هدنة مدروس Armistice of Mudros . وكانت في شروطها القاسية تسليماً كاملاً غير مشروط لمطالب بريطانيا ، وتفوق في قسوتها المعاهدات التي فرضت على الدول المسيحية الأعضاء في دول الوسط (٢) ، وهي الدول

(١) كان حسين رموف بك أورباي من مواليد سنة ١٨٨١ ، وعمل ضابطاً بحرياً في الأسطول العثماني، واشتهر كبطل قومي بشجاعته ومثابرته الفذة في أثناء قيادته للطراصة «حمينية» ، وقام بنور اتسم ببعض الأهمية في الصراع العربي، الذي قاده بعد ذلك مصطفى كمال باشا في الأناضول .
انظر :

Lewis B.; op. cit., p. 239, f.n.2.

(2) "The (Mudros) Armistice provided for a total and unconditioned surrender, a considerably harsher arrangement than that imposed on the Christian members of the Central Powers".

See :

Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 328.

التي كانت حليفة للدولة العثمانية في الحرب ، وهي ألمانيا ، والإمبراطورية النمساوية المجرية ، وبلغاريا ، مما يدل على أن الروح الصليبية كانت لا تزال مشتعلة متأججة في الدول الأوروبية الكبرى ، وفي مقعدها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، على الإسلام والدول الإسلامية . هذا وقد نجم عن عقد هدنة مدروس أن سقطت معاهدة برست ليتوفسك المبرمة في ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩١٨ بين روسيا البولشييفية والدولة العثمانية وألمانيا سقوطاً تلقائياً .

قضية الأرمن في هدنة مدروس :

نصت هدنة مدروس على الإطلاق للفروق لسراح جميع أسرى دول الحلفاء ، وكذلك المسجونين والأسرى الأرمن مهما كانت نوعية الجرائم التي ارتكبوها (١) ، كما ورد فيها نص يخص بأرمنية جاء فيه : إنه في حالة وقوع اضطراب في الولايات الأرمنية الست (٢) ، يحتفظ الحلفاء لأنفسهم بحق احتلال أى جزء منها ، مع سيس Sis ، وهاشين Hasin ، وزيتين Zeytin ، وعتاب Ayintap فتصبح تحت الاحتلال الفوري ، .

شماتة الأرمن بالأتراك العثمانيين :

دخلت قوت الحلفاء أراضي الدولة العثمانية طبقاً لأحكام هدنة مدروس ، وكان يسيطر عليها اعتقاد لا يتزعزع في صدق الدعاية المعادية للدولة العثمانية في أنها دولة متعصبة تعصباً دينياً صارخاً . أوفعت مذبح جماعية بملايين المسيحيين دون أدنى سبب ، سوى اختلاف الدين ، وأن المسيحية تفوق الإسلام في تمسكها بالرحمة وحرصها على عدم سفك دماء الأبرياء ، وصرح المندوب السامي للخلفاء في إستانبول أميرال كالثورب (٣) Admiral Cal- thorpe بقوله : إن خطتنا الثابتة هي ألا تظهر أى مجاملة مهما كانت ضئيلة لأى تركى . وقد منعنا جميع أفراد قوات الاحتلال منعاً باتاً من أن يتبادلوا التحية مع الأتراك أو قيام أى صداقة ، أو غير ذلك من أنواع السلوك الاجتماعى معهم .

كان عقد الهدنة وتجميد معاهدة برست ليتوفسك قد بعثا الآمال في نفوس الأرمن ، وباتوا يطلقون آمالهم على بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة . واتخذ الأرمن من هذه الدول الثلاث القيلة السياسية التي يولون وجوهم شطرها ، وعولوا على بذل جهود مستميتة في مؤتمر الصلح في باريس لتحقيق آمالهم الوطنية .

وفي هذا الجو المعادى للأتراك ، أظهر الأرمن شماتة سافرة بهم وترحيباً حاراً بقوات

(١) Loc. cit.

(٢) عرفت أرمنية العثمانية باسم «الولايات الست في شرق الأناضول» .

(٣) كانت تساعد المندوب السامي للحلفاء لجنة ثلاثية من ثلاثة أعضاء ، أولهما بريطاني ، وثانيهما فرنسي ، وثالثهما إيطالي .

الاحتلال الدولي المشترك . صنع الأرمن في المدن الكبرى والصغرى على السواء كميات وافرة من الأعلام البريطانية والفرنسية والإيطالية ، ورفعوها فوق مساكنهم وأمام محلاتهم التجارية وغيرها . وكانوا يلوحون بأعلام صغيرة منها كلما مرت أمامهم كتيبة أو سرية أو فصيلة من قوات الاحتلال ، وكانوا يتدافعون على أفراد هذه القوات يقبلونهم ويحيونهم ، ويطلقون عليهم اسم المنقذين ، وكان اليونانيون يشاطرون الأرمن في إظهار شعورهم العدائى نحو الأتراك . وقام الأرمن واليونانيون تحت سمع قوات الاحتلال ويصرها بذبح الجنود الأتراك المسرحين منذ عقد الهدنة ، كما ذبحوا آلافاً من المدنيين المسلمين دون أن تبذل سلطات الاحتلال أى جهود للتدخل من أجل وقف هذه المذابح . ولم يشذ عن موقف قوات الاحتلال سوى القوات الإيطالية، التي استطاعت أن تسيطر في مناطقها على الأقليات غير الإسلامية وحماية السكان المسلمين ^(١) . وظهر بجلاء التمييز الدينى بين المسيحيين والمسلمين، عندما فحقت المدارس التي تعطلت في الشهور التي تلت عقد الهدنة ، فلم يسمح إلا للتلاميذ والطلبة المسيحيين باستئناف دراستهم . أما زملاؤهم المسلمون فقد تركوا في الشوارع ^(٢) ، وقام أعضاء البعثات التنصيرية في أقاليم الدولة بدور بارز ، ولكنه مزر ومشين ، حين عهد إليهم بالإشراف على ملاجئ الأيتام المسلمين الذين فقدوا آباءهم في أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد طردوا منها آلافاً من هؤلاء الأيتام ووضعوا في أماكنهم أيتاماً مسيحيين من الأرمن واليونانيين ^(٣) .

تحيز الحلفاء الصارخ للأرمن :

وما أن بدأ الاحتلال المختلط للأناضول وتراقيا الشرقية وغيرها من الأقاليم العثمانية، حتى وضع بجلاء تام أن نية بريطانيا وحليفاتها متجهة إلى منح الأرمن حكم الولايات الست في شرقى الأناضول . ولم تقف هذه الدول عند هذا الحد ، بل منحتهم أيضاً الأقسام الثلاثة وهي قارص ، وأردهان ، وباطوم ، وكانت تعيش في هذه المناطق الثلاث أقليات أرمنية بالنسبة لتعداد سكانها ، وكانت الدولة العثمانية قد نجحت في استردادها من الروس طبقاً لمعاهدة برست ليتوفسك . ووضع هذا الاتجاه في السياسة البريطانية نحو الأرمن منذ شهر فبراير - شباط - سنة ١٩١٩ ، حين عزلت سلطات الاحتلال البريطاني الموظفين العثمانيين في الولايات الست والمناطق الثلاثة وعينت مكانهم موظفين أرمن ، كما صبغت الشرطة المحلية - ضباطاً وجنوداً - بالصبغة الأرمنية تمهيداً لإقامة الدولة الأرمنية . وحتى تعقد معاهدة مع الدولة العثمانية، تقرر اقتطاع هذه الأقاليم من الدولة العثمانية وإنشاء دولة أرمنية مستقلة ، واعتقد الأرمن أنهم أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أمنيتهم الوطنية .

(1) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, pp. 329-330.

(2) Loc. cit.

(3) Hovannissian Richard; The Republic of Armenia, vol. I. pp. 276-283.

الوفد الأرمني أمام مؤتمر الصلح في باريس سنة ١٩١٩ :

لم يترك الأرمن فرصة لعرض قضيتهم على الصعيدين الدولي، إلا وانتهزوها . وكان اجتماع ممثلي دول العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في مؤتمر الصلح في باريس، والذي افتتح جلساته في ١٨ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩١٩ فرصة ذهبية للأرمن . وعلى الرغم من أن جمهورية أرمنية قد تأسست في سنة ١٩١٨، وعرفت باسم جمهورية إريغان ، لم يقنع الوفد الأرمني بها ، وتقدم إلى المؤتمر مطالباً بالاستقلال التام لدولة تمتد من البحر الأسود إلى البحر المتوسط تماشياً مع المبدأ القائل «لا يدرك كله لا يترك كله» . وقد أسس الوفد طلبه على أنه تعويض عن التضحيات والمظالم التي تحملها الأرمن قروناً متعاقبة ، ومكافأة لهم على مساعدتهم لقضية الحلفاء بالوقوف إلى جانب القوات الروسية في الحرب ضد الدولة العثمانية^(١)، ويقرر أحد المؤرخين للمحايدين أن مطالب الأرمن كانت تتسم بقسط كبير من المغالاة^(٢) .

كان للجو السياسي في المؤتمر في مصلحة الأرمن بصفة عامة . كان رئيس الوفد البريطاني في هذا المؤتمر هو لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ، وكان يمقت الدولة العثمانية مقتاً شديداً لأنها دولة إسلامية^(٣) انضمت إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية ، وسببت لبريطانيا قبل الحرب مشكلات عديدة ، ولو أن الأخيرة خرجت من هذه الأزمات بمكاسب سياسية وعسكرية وإقليمية كبيرة^(٤) . فضلاً عن ذلك .. رأى لويد جورج أن تحقيق المطالب الأرمنية يخدم المصالح البريطانية ؛ فإن إنشاء دولة أرمنية في الأناضول ، أو على الأقل في شرقي الأناضول ، تكون هذه الدولة صديقة لبريطانيا وتدور في فلك السياسة البريطانية يجعلها سداً منيعاً في وجه أي زحف، قد تقوم به القوات الروسية السوفيتية نحو البحر المتوسط ؛ ولذلك ظفر الوفد الأرمني بتأييد بريطانيا في مؤتمر الصلح . ووقفت فرنسا في المراحل الأولى للمؤتمر تؤيد الأرمن في تحقيق مطالبهم . ولكن سرعان ما انقلبت عليهم عندما طالب الوفد الأرمني بأن تمتد الدولة الأرمنية المرتجاة لتشمل منطقة كيليكيا في الجنوب الشرقي من الأناضول والتي تحتلها فرنسا . ومما زاد الموقف تعقيداً أمام المؤتمر أن الأكراد وسكان جورجيا وأذربيجان طالبوا بمناطق تدخل في الدولة التي يبتغى الأرمن إنشاءها، وطالبت فارس أيضاً بأقاليم القوقاز التي كانت الروسية قد استولت عليها في القرن التاسع عشر،

(١) M. Cilbert, Winston S. Churchill, vol. 4, 1916-1922. London, 1975, pp. 472-489.

(٢) Stanford. J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 330.

(٣) Loc. cit.

(٤) ظفرت بريطانيا بعدن سنة ١٨٢٩ ثم جزيرة قبرص سنة ١٨٧٨ ، ثم مصر سنة ١٨٨٢ ، ثم أقامت حكماً ثانياً مع مصر في السودان سنة ١٨٩٩ .

وكانت تشمل معظم أرمينية الفارسية والمنطقة التي يسكنها الأكراد في الجنوب الشرقي . أما جمهورية آذربيجان .. فطالبت بالقسم الجنوبي والأجزاء الجنوبية من بابليليس ، وإريفان ، وباكو Baku ، وباطوم ، وقارص^(١) ، وبينما كان هذا التزامم بين شتى الدول والموافق قائماً على قدم وساق لاقتسام الأسلاب .. طالب الأرمين بمنع عودة أى شخص تركى أو كردى إلى شرقى الأناضول ، وأن يحل الفلاحون الأرمين محل المطرودين حتى تتحقق للسكان الأرمين فى هذه المنطقة الأغلبية العدية . وعمدت بريطانيا وحليفاتها إلى التظاهر بإبداء العطف على مطالب الأرمين ، ولكنها رأت إرجاء بحث قضية الأرمين حتى يتم الفراغ من وضع ميثاق عصبة الأمم ، وفرض شروط الصلح فى معاهدات تعقد مع ألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا ، ثم تنفرغ بريطانيا وحليفاتها إلى وضع شروط معاهدة عامة ، تفرض على الدولة العثمانية ، ويتقرر فيها مصير قضية الأرمين لتحقيق آمالهم القومية .

إخفاق مشروع تعيين الولايات المتحدة دولة منتدبة على أرمينية :

ولما كانت المطالب التي تقدم بها الأرمين لمؤتمر الصلح فى باريس تتعارض مع مبدأ تقرير المصير ، الذى كان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وودرو ولسن Woodrow Wilson قد أعلنه وأخذ به المؤتمر فى بعض الحالات^(٢) .. فقد قام الأرمين فى الولايات المتحدة الأمريكية بجملة واسعة لتأييد قضيتهم ، ولحمل الرئيس الأمريكى على ترك الأربع عشرة نقطة التي أعلنها وسيلة للتسويات السياسية التي يضعها المؤتمر . وحاول لويد جورج رئيس الوفد البريطانى حلاً وسطاً لإرضاء الأرمين بتطبيق نظام الانتخاب على الولايات الأرمينية المتنازع عليها أوكل الأناضول إذا كان ذلك فى الاستطاعة ، وأن يكون تقرير نظام الانتخاب على الأرمين فى شرقى الأناضول فى الوقت ذاته ، الذى يضع فيه تحت الانتخاب البلاد العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية مثل العراق وسورية ولبنان ، وأن تكون الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة المنتدبة على الولايات الأرمينية . وكان الرئيس الأمريكى ولسن غير معترض على هذه الفكرة ، وأرسل لجلتين إحداهما إلى بعض البلاد العربية^(٣) والأخرى إلى الأناضول . وكان يرأس اللجنة الثانية جيمس هاربرد Major General Jamws G. Harbord ، وطافت بالأناضول فى صيف سنة ١٩١٩ ، ووضعت تقريرها فى أكتوبر - تشرين أول -

(1) Hovannisian Richard; Republic of Armenia. vol. 1, pp. 283-291.

(٢) طبق مؤتمر الصلح مبدأ تقرير المصير عندما قرر إنشاء دولة بولندية حرة، ذات اتصال بالبحر، وعند إنشاء جمهورية تشيكوسلوفاكيا :

Fisher H.A.L.; op. cit., p. 1160.

(٣) عرفت اللجنة الأولى باسم لجنة كنج - كرين King-Crane لجنة نشاطها وتقريرها ، انظر : دكتور حسن صبرى الخولى : موقف الاستعمار الصهيونية .. إلخ ، مرجع سبق ذكره ، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا ، ج ١ ، ص ٣٤٢-٣٦٥ .

سنة ١٩١٩ ، وجاء فيه أن الغالبية العظمى من السكان في الأناضول هم من الأتراك ، ورأت اللجنة في تقريرها أنه بالنسبة لمطالب الأقليات أن تنشأ منطقة انتداب واحدة وتشمل أيضاً القوقاز لتحقيق وحدة سياسية واقتصادية ، وتمهد الطريق بعد ذلك لوضع تسوية نهائية بعد فترة زمنية . ولما كانت الولايات المتحدة الأمريكية قررت عدم الانضمام إلى عصبة الأمم ، على الرغم من اهتمام ولسن بإنشائها^(١) ، ولما كان نظام الانتداب منبثقاً عن العصبة .. فقد سقط بالتالي مشروع الانتداب الأمريكي على أرمينية تلقائياً^(٢) . وفكر لويد جورج في مشروع بديل أفضل من الانتداب ، وهو إنشاء دولة مستقلة للأرمن ، وأن يدرج قرار إنشائها في صلب معاهدة الصلح مع الدولة العثمانية .

بداية المقاومة العثمانية للأرمن عقب عقد الهدنة :

تطورت حركة المقاومة التي قادها مصطفى كمال في الأناضول بعد إعلان هدنة مديروس إلى حرب حقيقية أطلق عليها حرب التحرير تارة ، وحرب الاستقلال تارة أخرى . وبدأت مقدمات حركة المقاومة على يد بعض قادة الجيش العثماني في الأناضول قبيل وصول مصطفى كمال إليها من إسطنبول ، ثم تعاونوا معه قلباً وقالباً في صراعه الحربي المرير ضد قوات الاحتلال البريطانية والفرنسية والإيطالية واليونانية والأرمنية . وحسبنا أن نذكر في هذا المقام قائدين ، أحدهما على فؤاد باشا سيبسوى Cebesoy أحد قادة الجيش العشرين في أنقرة ، الذي قام في شهر مارس - آذار - سنة ١٩١٩ بإرسال مندوبين عنه ليتعاونوا مع قوات الدفاع

(١) كانت نقطة الضعف الوحيدة في مركز الرئيس الأمريكي وإسن أنه لم يكن يمثل جميع مواطنيه في الولايات المتحدة .. فقد كان رئيس الحزب الديمقراطي، بينما كانت الحزب الجمهوري أغلبية في مجلس الشيوخ، الذي يهيمن في النهاية على السياسة الخارجية للولايات المتحدة . ولما قرر الرئيس ولسن الذهاب إلى باريس، كان من سداد الرأي لو أنه دعا إلى مرافقة بعضاً من الأعضاء البارزين في الحزب الجمهوري . ولكن الرئيس وإسن كان بطبعه أوتوقراطياً . وكان في الشئون الداخلية شديد التحيز ، فذهب إلى باريس من غير أن يصحب أحداً من أعضاء الحزب الجمهوري ، فثار هؤلاء منه بأن أحبطوا جميع خطته ، ونجحوا في حمل مجلس الشيوخ على عدم التصديق على معاهدات الصلح .

ويبلغ من حماس الرئيس الأمريكي وإسن لقيام عصبة الأمم أنه ترأس بنفسه اللجنة، التي وضعت الصياغة اللغوية لميثاق عصبة الأمم ، بعد أن أمر على أن يدرج موضوع العصبة على رأس المسائل، التي تعرض على المؤتمر . ويفضل نفوذه العظيم ، أنجز هذا العمل وأقر ميثاق العصبة في وقت قصير . وجعل موضوع العصبة جزءاً لا يتجزأ من معاهدة فرساي ، وبذلك أضاع على مؤتمر الصلح شهرين ثمينين، قبل أن ينظر المؤتمر في عمله الأساسي، وهو وضع معاهدات الصلح .

انظر :

Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 1160-1161.

(2) Howard Harry N.; Turkey, the Straits and the U.S. Policy.

Baltimore and London. 1974, pp. 51-129.

الوطنية في المنطقة على تنسيق حركة المقاومة العسكرية والشعبية . وكان القائد الآخر هو كاظم قره بكير باشا ، وهو أحد الأبطال في المعارك التي دارت رحاها في منطقة القوقاز ضد الأرمن على عهد حكومة الطغاة الثلاثة (أنور وطلعت وجمال) ، وكان أحد قادة الجيش الخامس عشر في ولاية أرضروم ، وعهد إليه أيضاً في ١٣ من أبريل - نيسان - سنة ١٩١٩ بولايي فان وطرابزون ؛ أي إنه كان يشرف على ولايات ثلاث من الولايات الست في شرقي الأناضول والتي يدعيها الأرمن لأنفسهم . وقد صحت عزيمته هذا القائد على أن يجعل همه الأول تحرير الأناضول واسترداد قارص وأردهان وباطوم والأجزاء التركية في منطقة القوقاز ، ويصبح هذان القائدان في معظم الأوقات من أقرب المقربين إلى مصطفى كمال .

تعيين مصطفى كمال مفتشاً عاماً للجيش في شرقي الأناضول :

وجاء الحادث الثالث والأكثر أهمية ، وهو قرار أصدرته حكومة إستانبول في ٥ من مايو - آيار - سنة ١٩١٩ بتعيين مصطفى كمال مفتشاً عاماً للجيش التاسع ، وكانت اختصاصاته واسعة تشمل شرقي الأناضول . وكان مقر وظيفته سامسون Samsun على الساحل الجنوبي للبحر الأسود في الأناضول . وكان مصطفى كمال مقيماً في إستانبول دون عمل منذ ١٣ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٨ بعد عقد الهدنة ، وتسريح جيش الصاعقة الذي كان قد تولى قيادته خلفاً للقائد الألماني لينان فان ساندريس Linan van Sanders ، وفي أثناء إقامته في إستانبول شاهد عن كثب التصرفات المثانة للسلطان محمد السادس وحيد الدين وأعضاء الوزارة ، الذين كانوا يعترضون على أي حركة للمقاومة ضد قوات الاحتلال ، قد تعرض مراكزهم للخطر وتساء إلى مشاعر بريطانيا وحليفاتها، وعملوا بإخلاص على تجريد القوات العثمانية المرابطة في إستانبول من أسلحتها، ونهبوا في استسلامهم إلى حد أنهم أصدروا الأوامر إلى القوات العثمانية في إزمير بعدم التعرض لليونانيين في تلك المنطقة . وخلص مصطفى كمال رأياً إلى أنه لا فائدة ترجى من بقاءه في إستانبول ، وأن الواجب الوطني يفرض عليه الانتقال إلى الأناضول؛ حيث ظهرت فيها مبادرات طيبة لمقاومة قوات الاحتلال (١) . ولذلك جاء تعيينه في منصب مفتش عام الجيش في الأناضول في الوقت المناسب وفرصة ذهبية لمغادرة إستانبول والتوجه إلى الأناضول للإقامة فيها ومباشرة نشاطه الثوري في أرجائها ؛ ولذلك حرص مصطفى كمال على سرعة مغادرته إستانبول، قبل أن يصل نأب تعيينه إلى سلطات الاحتلال .

وكانت التعليمات التي زودته بها حكومة إستانبول هي إعادة النظام والأمن إلى المناطق التي تدخل في اختصاصاته في الأناضول ، وتسوية الخلافات وفرض الاضطرابات بين المسلمين والمسيحيين فيها ، وتجريد العصابات شبه العسكرية من سلاحها وتشطيت شملها ،

والإشراف على تجريد القوات العثمانية في هذه المناطق من أسلحتها وتسريح أفرادها طبقاً لبنود هدنة مدروس . وعلى النقيض من معظم هذه التعليمات .. شرع مصطفى كمال منذ اليوم الأول لوصوله إلى سامسون في إنشاء وحدات اتصال عسكرية بين مجموعات المقاومة ، التي كانت قائمة وقتذاك والتي كانت لا تزال في مراحلها الأولى ، كما عمل على إنشاء مجموعات مقاومة جديدة ، وإعداد وسائل الدفاع المسلح عن الوطن التركي الأصيل ، وهو الأناضول وتطهيره من الغزاة المحتلين أو الذين يتهددونه بالاحتلال (١) .

وتذكر أسباب متضاربة لتعيين مصطفى كمال في هذا المنصب الخطير .. فيقول البعض إن تعيينه جاء عفو الخاطر ووليد المصادفة ، فقد كان هذا المنصب شاغراً في ذلك الوقت . ويقول البعض الآخر إن السلطان ووزراءه كانوا يهدفون إلى إبعاده عن إستانبول ؛ لأنه كان يجاهر بمعارضته لهذنة مدروس وشروطها القاسية . ويرى البعض الثالث أن تعيين مصطفى كمال في هذا المنصب صدر بعد تدبير محكم ابتغاء تدمير شهرته كقائدة فذ ، اكتسبها منذ أن انتصر على بريطانيا وفرنسا في معركة غاليبولي في حملة الدردنيل ، وأنهم كانوا يتوقعون فشله في مهمته المتعددة الجوانب في الأناضول . وهناك رأى رابع يقول إنه قد وقع عليه اختيار رؤسائه في وزارة الحربية والصدر الأعظم والسلطان ؛ لأنهم توقعوا أنه هو القائد الوحيد الذي يستطيع تنظيم مقاومة عسكرية وشعبية في الأناضول ضد قوات الاحتلال الدولي (٢) ، وهذا الرأي الرابع رأى ضعيف لأن ماضى وتصرفات السلطان والصدر الأعظم وسائر الوزراء دل على أنهم لم يكونوا جادين في مقاومة الاحتلال أو إغضاب المنتصرين . ويبدو أن الرأي الثاني هو الذي يصور الملابسات التي أحاطت بتعيينه .

قضية الأرمن في مؤتمر أرضروم أغسطس - آب - ١٩١٩ :

ولإزاء تزايد أطماع الأرمن في إنشاء دولة خاصة بهم في الولايات الست في شرقي الأناضول ، كون الأتراك القاطنون في هذه المنطقة تنظيماً سرياً عسكرياً وسياسياً في الثالث من مارس - آذار - سنة ١٩١٩ ، وجعلوا مقره في أرضروم ، وأطلقوا على هذا التنظيم اسم «شرقي أناضولو مدافعي حقوق جمعيتي» ؛ أي جمعية المدافعين عن حقوق شرقي الأناضول ، وقد دعت هذه الجمعية إلى اجتماع عقد في أرضروم في ٢٣ من يوليو - تموز - سنة ١٩١٩ ، لبحث موضوع تهديدات الأرمن لشرقي الأناضول ، وحضر الاجتماع مصطفى كمال باشا الذي انتخب رئيساً للمؤتمر منذ اليوم الأول . وكان وزير الحربية قد قام بزيارة مصطفى كمال باشا في الأناضول ، بعد أن بلغت مسامع الدوائر الرسمية في في إستانبول أنباء نشاطه في الأناضول وطلبه إليه الوزير العودة معه إلى العاصمة . فلما رفض مصطفى كمال صدرت «إرادة» سلطانية

(1) Loc. cit.

(2) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 342.

بعزله من منصبه كمفتش عام للجيش التاسع فى سامسون على الساحل الجنوبى للبحر الأسود فى الأناضول^(١) ، ونفذ مصطفى كمال الأمر السلطانى وخلع زيه العسكرى وارتنى ملابس مدنية ؛ رغبة منه فى تحاشى أى صدام ثورى سافر مع حكومة إستانبول ، التى كانت لا تزال هى الحكومة الشرعية فى البلاد ، وفى أثناء انعقاد المؤتمر الذى استمرت جلساته حتى ٧ من أغسطس - آب - ١٩١٩ صدر الأمر من إستانبول إلى كاظم قره بكير باشا قائد الجيش الخامس عشر فى أرضروم بالقبض على مصطفى كمال وزميله حسين رؤوف أورباى orbay ، ولكن كاظم باشا رفض تنفيذ الأمر . وعلى الرغم من أن المحافظة على وحدة الولايات الست فى شرقى الأناضول وإيقاعها فى حظيرة الوطن التركى كانا على رأس للموضوعات المدرجة فى جدول أعمال المؤتمر .. تطرقت البحوث إلى موضوعات ذات صبغة سياسية عامة ، تتصل بالأوضاع التى آلت إليها الدولة العثمانية بعد استسلامها ومقاومة أطماع الدول المنتصرة فى توزيع الأقاليم العثمانية فيما بينها ، واتخذت فيها قرارات ، أصبحت فيما بعد جزءاً من الميثاق الوطنى ، «ملى ميثاقى» .

وقد أصدر المؤتمر عدة قرارات ، كانت الأساس الذى قامت عليه حرب التحرير أو حرب الاستقلال . ونذكر هنا مايتصل منها بموضوع الأرمن :

أولاً : «إن ولاية طرابزون ، وقسم سامسون ، وولايات أرضروم ، وسبواس ، وديار بكر ، والإزيج Elazig ، وغان ، وبتليس ، وهى الولايات التى يطلق عليها أحياناً الولايات الست ، هى فى مجموعها جزء لايفصل بعضها عن بعض ، كما أنها لا تنفصل عن الأقاليم التركية لأى سبب من الأسباب» .

ثانياً : «من الضرورى ، من أجل المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية واستقلالنا الوطنى وحماية السلطة والخلافة ، أن يعهد إلى القوات الوطنية للقيام بهذه الواجبات . ولا بد أن يعترف بإرادة الشعب على أنها مصدر السيادة فى الإمبراطورية» .

ثالثاً : «كل احتلال أجنبى وكل تدخل أجنبى يحدثان من أجل إنشاء دولة أرمينية أو دولة يونانية فى الأناضول ، يجب التصدى لهما بالدفاع الموحد والمقاومة الموحدة . وإن يسمح بمنح امتيازات جديدة للمسيحيين بطريقة تغير الرقابة السياسية والتوازن الاجتماعى» .

رابعاً : «فى حالة إكراه الحكومة المركزية فى إستانبول ، تحت الضغط الأجنبى ، على التنازل عن أى جزء من الإمبراطورية العثمانية ، نتخذ بمعرفتنا الإجراءات والقرارات للدفاع عن حقوقنا القومية وعن حقوق السلطة والخلافة» .

(١) أطلق على هذا الجيش فيما بعد اسم الجيش الثالث .

خامساً : تكون جمعية الدفاع عن حقوق شرقي الأناضول هي أداة الاتصال بين الجمعيات التي انبثقت عن المعاناة والكوارث التي حاقت بالإمبراطورية العثمانية .

سادساً : تقوم لجنة تمثيلية يختار المؤتمر أعضاها بالعمل باسمه لإرساء قواعد الوحدة الوطنية بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة على جميع المستويات من القرية إلى الولاية^(١) .

وكان اجتماع المؤتمر في أرضروم ، وهي إحدى الولايات الست في شرقي الأناضول تحدياً صريحاً وسافراً للأرمن ، الذين كانوا يرمون إلى إنشاء دولة أرمنية تكون هذه الولاية جزءاً منها . كما تعد القرارات التي أشرنا إليها تحديداً واضحاً لموقف الحكومة التركية الجديدة بقيادة مصطفى كمال باشا ، الذي أخذ ينظمها في الأناضول بأنها لن تتنازل عن شبر واحد من الأراضي الواقعة في شرقي الأناضول ، والتي يريد الأرمن إقامة دولتهم عليها . كما يعد مؤتمر أرضروم دليلاً عملياً على اهتمام الثورة الكمالية ، وهي لا تزال في مهدها بإبعاد الخطر الأرمني .

قضية الأرمن في مؤتمر سيواس ، سبتمبر - أيلول - ١٩١٩ :

اجتمع مؤتمر وطني آخر في سيواس - إحدى الولايات الست في شرقي الأناضول - في ٤ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٩ ، وكان اجتماعه في هذه الولاية تحديداً آخر للأرمن . وافتتح مصطفى كمال المؤتمر وانتخب رئيساً له ، وهو الذي أدار مناقشاته . واختلف هذا المؤتمر عن سابقه مؤتمر أرضروم ، إذ شهد مندوبون عن كل بقاع الأناضول وإقليم تراقيا Thrace في أوروبا ، بينما كانت عضوية المؤتمر الأول مقصورة على مندوبي شرقي الأناضول . وتماشياً مع تنوع الجهات التي جاء منها أعضاء مؤتمر سيواس ، تقرر تغيير اسم جمعية الدفاع عن حقوق شرقي الأناضول إلى اسم جديد أعم وأشمل هو «أناضول ورومللي مدافعي حقوق جربو» أي جماعة المدافعين عن حقوق الأناضول والرومللي^(٢) ، مع قيام لجنة تمثيلية دائمة يرأسها مصطفى كمال . وقد أصبح هذا التنظيم الجديد هو أداة النضال السياسي بعد ذلك من أجل تحرير الأناضول وتراقيا في أوروبا . وكان من أهم قرارات المؤتمر أن يمتد إلى جميع أنحاء البلاد تنفيذ قرارات المؤتمر السابق في أرضروم ، وقد أدخلت عليها بعض تعديلات تجعلها أكثر إيجابية . وأثار بعض الأعضاء موضوع تعيين الولايات المتحدة الأمريكية دولة مندوبة على

(١) انظر جميع قرارات مؤتمر أرضروم في :

Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol.; 2, pp. 344-345.

(2) Anadolu ve Rumeli Mudafaa - i Hukuk Grebu

ويرد ذكر اسم هذه الجماعة في المراجع الإنجليزية .

Group for the Defense of the Rights of Anatolia and Rumelia

والرومللي مصطلح تاريخي، معناه تركية أوروبا .

الأناضول ، وكان هذا الاقتراح يلقى تأييداً من بعض الدوائر فى إستانبول وقد رفضته أغلبية المؤتمر جملة وتفصيلاً . وأعلن المؤتمر ضرورة العمل على تماسك أجزاء الإمبراطورية العثمانية والمحافظة على الاستقلال الوطنى، واستخدام القوات المسلحة الوطنية عند الضرورة فى وجه قوات الاحتلال الأجنبى^(١) ولم يرد ذكر للولايات العربية الخاضعة للدولة العثمانية ، واقتصرت القرارات على تحرير الأناضول وإقليم قراقيا .

وحدث فى أثناء انعقاد المؤتمر وجود اللجنة الأمريكية لتقصى الحقائق - والتى أوفدها الرئيس الأمريكى ولسن إلى الأناضول، وكانت برئاسة جيمس ج. هاريسون، كما سبق أن ذكرنا- أن تمت مقابلتان فى سيواس فى يومى ٢٢ و ٢٣ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٩ بين رئيسها ومصطفى كمال ، الذى أكد لرئيسها تأكيداً قاطعاً أن الأناضول إقليم تركى ، وأنه - أى مصطفى كمال- ان يقبل أو يسمح بأى انتخاب يقرر بالنسبة للنظام السياسى فى الأناضول^(٢) .

أدرك الأرمن أن الكماليين هم العدو للدود لهم ، ولأنهم يقفون فى وجه تحقيق أمانيهم الوطنية بإنشاء دولة مستقلة فى الأناضول ، وأنهم يتهددون الأرمن بشن حرب عليهم للحيلولة بينهم ومايشتهون ، ولكن الأرمن كان يظنون آمالاً كبيراً على بريطانيا وعلى الحكومة المركزية فى إستانبول فى تحقيق أهدافهم . ولم يكن السبب رجوعاً إلى أن حكومة إستانبول كانت تنسم بالخيانة ، ولكن لأنها كانت حكومة متناهية فى ضعفها وتدهورت أوضاعها إلى حد أنها أصبحت ألعوبة فى يد المندوب السامى للحلفاء ؛ خاصة سلطات الاحتلال البريطانى التى كثيراً ماخرقت أحكام هدنة مدروس لمصلحة بريطانيا دون أن تحرك حكومة إستانبول ساكناً . ولم يستطع الأرمن اصطناع الصبر حتى تفرغ بريطانيا وحليفاتها من وضع معاهدة صلح مع الدولة العثمانية، وتفرضها عليها مقرررة فيها إنشاء دولة للأرمن فى شرقى الأناضول ، فشنوا حرباً على الكماليين فى شهر مايو - أيار - سنة ١٩٢٠ ، قيل أن يوقع مندوبو الحكومة المركزية فى إستانبول مكرهين على معاهدة سيفر Sévres فى ١٠ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٠ . وقد حاول الأرمن استغلال حرج مركز القوات الكمالية فى صراعها العربى ضد الغزاة اليونانيين ، وعملوا على تصعيد قضيتهم وإقناع بريطانيا بأنها قضية عاجلة وملحة لاتحتمل تأخيراً ، واستمرت الحرب الكمالية الأرمنية سنتى ١٩٢٠ و ١٩٢١ وانتهت بهزيمة ساحقة للأرمن ، شنير إليها بعد عرض معاهدة سيفر .

الحلفاء يقررون فى معاهدة سيفر إنشاء دولة حرة مستقلة للأرمن :

لم تقنع بريطانيا وحليفاتها بعد انتصارها فى الحرب العالمية الأولى بانتزاع البلاد

(1) Lewis B.; op. cit., pp. 248-249.

(2) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 346.

العربية وفصلها فصلاً تاماً عن الدولة العثمانية ، في معاهدة سيفر^(١) Sévres ، ولكن أملت الدول المتحالفة المنتصرة في سياسة تغليب هذه الدولة ، فقررت في المعاهدة ذاتها إنشاء دولة حرة مستقلة A Free and Independent State للأرمن (المادة ٨٨ من المعاهدة) ، وسجلت المعاهدة أيضاً موافقة الدولة العثمانية وأرمينية والأطراف المتعاقدين ، على أن يهدوا إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بمهمة تعيين الحدود بين الدولة العثمانية وأرمينية في ولايات أرضروم ، وطرابزون ، وفان ، وبتليس ، وأن يقبلوا القرار الذي يتخذه في هذه المسألة وأي قرارات أخرى يرى الرئيس الأمريكي إضافتها لضمان إيجاد طريق يصل أرمينية بالبحر ، ولتجريد أى جزء من الأراضي العثمانية المتاخمة لهذه الحدود من السلاح (المادة ٨٩) . وإذا كان تعيين الحدود يتطلب نقل جميع أجزاء الأراضي من ولاية من الولايات المذكورة في المادة السابقة أو نقل جزء منها .. فإن الدولة العثمانية تتنازل ، من تاريخ صدور هذا القرار عن جميع حقوقها على الأراضي ، التي تنتقل إلى الدولة التي تتعهد بها الدولة العثمانية للدولة الأرمينية ، ونصت الفقرة الثالثة على أن تعقد عند الضرورة اتفاقات لاحقة تتناول كافة المسائل ، التي لم تشملها معاهدة سيفر^(٢) ، والتي يمكن أن تنشأ عن نقل الأقاليم المذكورة إلى السيادة الأرمينية (المادة ٩٠) .

وإذا حدث ضم أى جزء من الأقاليم العثمانية لدولة الأرمن .. فإن لجنة حدود تقرير تعيين الحدود على الطبيعة بين الدولة العثمانية وأرمينية ، ويصدر قرار بتشكيل هذه اللجنة في خلال ثلاثة شهور من إبلاغ قرار رئيس الولايات المتحدة للأطراف المتعاقدين وأرمينية ، ويكون تعيين هذه الحدود في ضوء قرار الرئيس الأمريكي (المادة ٩١) ، أما مسألة الحدود بين أرمينية ، وأذربيجان ، وجورجيا فتقرر في اتفاق مباشر بين الأطراف المتعنيين . وقررت الفقرة الثانية من هذه المادة أنه في أى حالة تفشل الدول المختصة في تعيين الحدود عن طريق اتفاق في تاريخ القرار المشار إليه في المادة (٨٩) .. فإن خط الحدود مثار النزاع تقرره الدول الكبرى الرئيسية المتحالفة ، وتقوم أيضاً بتحديد على الطبيعة (المادة ٩٢) .

وقد قررت المعاهدة أن توافق أرمينية على عقد معاهدة مع الدول الكبرى الرئيسية المتحالفة ، ترى هذه الدول أنها ضرورية لحماية مصالح سكان أرمينية الذين يختلفون في الدين واللغة والجنس عن الأرمن . وجاء في الفقرة الثانية أن أرمينية توافق على وضع معاهدة مع الدول الكبرى الرئيسية المتحالفة ، ترى هذه الدول أنها ضرورية لضمان حرية المرور والمساواة في المعاملة ، فيما يختص بتجارة الشعوب الأخرى .

(١) انظر القسم السادس من معاهدة سيفر والخاص بأرمينية ، في :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1920, Treaty Series No. 11, Cmd. 964, pp. 16-32.

(2) Lewis B.; op. cit., p. 241.

الأرمن يشنون الحرب على الكماليين سنتي ١٩٢٠-١٩٢١ :

أظهر الأرمن شماعة بالدولة العثمانية عقب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وعقد هدنة مدروس Mudros الجائرة في ٣٠ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩١٨ كما سبق أن ذكرنا ، ومن ثم أرادوا أن يكشفوا عن حقدهم للدين ، يحدهم الأمل في إثارة اهتمام بريطانيا- وحليفاتها المنتصرات - بقضيتهم في المعاهدة المتوقع إبرامها لتصفية الدولة العثمانية . ولم يكن في مقدور الجالية الأرمنية أو فروع العصابات الأرمنية الثورية أن تبأشر نشاطها الإرهابي في إستانبول بذبح المسلمين ، ومهاجمة المنشآت العامة بها بإلقاء القنابل عليها كما كانت تفعل من قبل ؛ لأن قوات مشتركة من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا كانت تحتل إستانبول وتتحمل مسؤولية المحافظة على الأمن العام ، وتشرف على قوات الشرطة والجندرية ووسائل المواصلات العامة بها . وأدرك الأرمن أن الطريق أمامهم مسدودة في العاصمة ، ولذلك نقلوا نشاطهم المعادي إلى الأناضول للاستيلاء على شرقي هذا الإقليم . واعتقدوا أن الفرصة مواتية لهم ؛ إذ كان الكماليون منصرفين قلباً وقالباً إلى محاربة اليونانيين وإجلائهم عن الأناضول ، بعد أن نزلوا في ثغر إزمير ، تحت حماية الأساطيل الأمريكية والبريطانية والفرنسية في ١٥ من مايو- آيار - سنة ١٩١٩ .

تحالف الأرمن مع فرنسا التي كانت تحتل منطقة كيليكيا في الجنوب الشرقي من الأناضول ، وشن الأرمن حرب عصابات على القرى التركية بقتل سكانها ونهب محاصيلها ، وكانت حرب استنزاف . أما للحرب النظامية فقد شنتها جمهورية إريفان Brivan الأرمنية التي أنشئت حديثاً في القوقاز ، ولم تقنع هذه الجمهورية بأراضيها التي حصلت عليها سنة ١٩١٩ ، وتطلعت إلى توسعات إقليمية على حساب الكماليين .

بدأ هجوم الأرمن في مايو - آيار - سنة ١٩٢٠ ، وسارعت حكومة الكماليين إلى تعيين قائد قدير يسمى كاظم قره بكير في ١٥ من يونيو - حزيران - سنة ١٩٢٠ قائداً للجبهة الشرقية في الأناضول ، وأعد جيشاً لطرد الأرمن من الأراضي التي استولوا عليها ، وطلب مراراً من المجلس الوطني الكبير في أنقرة أن يأذن له في التحرك بقواته ناحية الشرق وإنقاذ الفلاحين الأتراك من الكوارث التي ينزلها الأرمن بهم .

ولكن المجلس الوطني تردد في اتخاذ قرار في هذا الصدد نظراً لحرص مركز الكماليين أمام تقدم القوات اليونانية الشرسة ، ورأى أنه من الحكمة تأجيل الهجوم المضاد على القوات الأرمنية في ذلك الوقت الحرج ، الذي استأنف فيه اليونانيون هجومهم المدمر في يونيو - حزيران - سنة ١٩٢٠ من غربي الأناضول في اتجاه الشرق إلى وسطه ، وكانت وجهة نظر الكماليين في هذا التأجيل أن القوات الكمالية في حاجة إلى تعزيز أمام الزحف اليوناني الكاسح

== ٤٢٠ == عيوب للدرلة العثمانية (٥) فضية الأرمن ومناجمهم (ب) منذ بداية الحرب العالمية الأولى حتى الوقت الحاضر ==

بدلاً من تشتيتها بين الجبهتين اليونانية والأرمنية . ولهذا اكتفى المجلس الوطني الكبير في أنقرة بتقديم احتجاجات دبلوماسية إلى حكومة جمهورية إريغان .

وتحسن الموقف العسكري بالنسبة للكماليين في صراعهم ضد اليونانيين الغزاة ؛ إذ استطاع عصمت باشا أن يحرز انتصاراً رائعاً عليهم في معركة دارت في ١٠ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢١ في وادي إيلونو شمالي كوتاهية ، ثم أباد قوات يونانية أخرى في مدينة إيلونو في ٣١ من مارس - آذار - وهي لا تفل في أهميتها عن المعركة السابقة . وتوج هذا النجاح العسكري المزدوج بانتصار حربي ثالث ، قادة مصطفى كمال بشخصه في معركة نهر سفاري في ٢٤ من أغسطس - آب - في السنة ذاتها ، واضطر اليونانيون إلى الانسحاب إلى خط دفاع جديد في غربي الأناضول^(١) .

انصرف المجلس الوطني الكبير في أنقرة إلى مسألة الأرمن ، بعد أن اطمأن مؤقتاً إلى الموقف الحربي ضد اليونانيين ، فأذن للقائد التركي قرة بكير في التحرك بقواته ضد الأرمن في ٧ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢١ ، ولكن بشرط ألا يتوغل في زحفه أكثر من مدينة قارص Kars ؛ لأنه كان من المتوقع أن يستأنف اليونانيون هجوماً جديداً . ولكن قرة بكير كان يضمر أمراً آخر هو التوغل في أراضي الأرمن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وقد سقطت قارص في يده في ٣٠ من أكتوبر - تشرين أول - ومضى يتوغل في المناطق الأرمنية فيما وراء الحدود التي رسمت سنة ١٨٧٧ ، وأمام الزحف السريع للقوات الكمالية طلبت حكومة جمهورية إريغان عقد هدنة أعقبتها معاهدة صلح في ليلة ٢-٣ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢١ وقد وقعت المعاهدة في إسكندروبول^(٢) Alexandropol .

ويعتصني هذه المعاهدة ، تنازل الأرمن عن كل ادعاء لهم في الأراضي التركية ، ووافقوا على إنقاص حجم قواتهم المسلحة ، وعلى السماح لتركيا باستخدام الطرق الحديدية التي تفر في أراضيهم في اتجاه الشمال ، وعلى أن تستولي تركيا على إسكندروبول ، وبذلك كسب الكماليون مركزاً حروبياً في كل للمعاهدات التي عقدها مع الروسيا السوفيتية . ومن ناحية أخرى قام الكماليون بنقل الأسلحة التي استولوا عليها من الأرمن إلى الجبهة الغربية لاستخدامها في الهجوم المرتقب لليونانيين في الأناضول . ولكن من الأهمية بمكان أن هذه المعاهدة قد أرست الحدود الشرقية لتركيا الحديثة في جميع المعاهدات اللاحقة دون تغيير تقريباً إلى الوقت الحاضر . ولكن لم يتم التصديق على هذه المعاهدة سواء من جانب حكومة أنقرة أو جمهورية

(1) Lewis B. erred; op. cit., p. 253.

Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, pp. 356-357.

(٢) تسمى أيضاً لينينخان Leninakan وفي اللغة التركية جومرو Gumru .

إريغان ، لأن هذه الجمهورية سرعان ما ابتلعها البلاشفة .

وجدير بالذكر أن الهجوم الذي قام به الكماليون ضد الجمهورية الأرمنية لم يتم بالاشتراك مع الجيش الأحمر ، كما تزعم بعض المراجع التاريخية ، وكل ماحدث أن البلاشفة قد غزوا آذربيجان بينما كان الكماليون بحاريون الأرمن . وبعد أن عقدت معاهدة إسكندروبول ، زحف البلاشفة على جمهورية إريغان الأرمنية وصبروها بالصيغة الشيوعية .

وقد مهدت الحرب التركية الأرمنية وما أعقبها من إبرام معاهدة إسكندروبول الطريق لعقد معاهدة تركية سوفيتية في ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢١^(١) وقد اعترفت هذه المعاهدة بالحدود الشرقية لتركيا طبقاً لما ورد في معاهدة إسكندروبول ، وأدخلت استثناءين ، هما :

الأول : تنازلات تركيا عن سيادتها على مدينة وثغر باطوم Batum لجمهورية جورجيا ، على أن يكون لتركيا الحق في استخدام هذا الميناء استخداماً حراً في نقل جميع صادراتها و واردتها دون دفع ضرائب أو رسوم جمركية ، وأن تتمتع الطوائف المقيمة هناك بقدر كبير من الحكم الذاتي بحيث يضمن لكل طائفة الاحتفاظ بحقوقها الدينية والثقافية (المادة الثانية بفقرتيها الأولى والثانية) .

الثاني : يكون إقليم ناكيشفان Nakhichevan^(٢) جمهورية سوفيتية ذات حكم ذاتي تحت حماية آذربيجان ، بشرط ألا تنقل آذربيجان الحماية لدولة أخرى ، وأن تحدد حدود هذا الإقليم بمعرفة لجنة ، يشترك فيها مندوبون عن تركيا وآذربيجان وأرمينية^(٣) .

(١) بالإضافة إلى الحرب التركية الأرمنية .. كانت هناك أسباب أخرى قربت بين الكماليين واتحاد الجمهوريات السوفيتية وأدت إلى عقد المعاهدة . وكان من بينها رغبة الكماليين في كسر العزلة التي فرضتها بريطانيا وليفانتا على حكومة الكماليين ، واستغلال الاتحاد السوفيتي للكرامية الشديدة التي كان يشعر بها الكماليين نحو بريطانيا وليفانتا بسبب احتلالهم لأجزاء مهمة وعديدة من بلادهم ، ولتاينيدهم المسافرين للحصون اليوناني لتمكين اليونانيين من إنشاء دولة يونانية كبرى ، تضم الأناضول أو على الأقل الجزء الغربي من الأناضول . وكان الاتحاد السوفيتي يرجو أن يتسلل من خلال هذا التقارب لنشر الشيوعية في أوساط الكماليين ، ويؤيد هذه الحقيقة الأخيرة أن السوفيت في أثناء مفاوضات لمقد معاهدة لاحقة أعربوا لمسطفى كمال عن رغبتهم في إدخال الشيوعية إلى تركيا ، فلجأ بقاءه بفعل تأجيل بحث هذا الموضوع إلى مابعد الفراغ من إنهاء الاحتلال الأجنبي لجميع أنحاء تركيا .

(٢) يقع إقليم ناكيشفان بين وادي أراكس Araxes وجبل داجنا Daghna في شرق الأناضول .

(٣) النص الرسمي للمعاهدة التركية السوفيتية هي :

British and Foreign State Papers, vol., 118, pp. 990-996.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في مدينة قارص ، في ١٢ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢١ .

== ٤٢٢ == عريب الدولة العثمانية (٥) قضية الأرمن ومذابحهم (ب) مذ بديعة الحرب العالمية الأولى حتى الوقت الحاضر ==

بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تقترح في مؤتمر لندن ١٩٢٣ إنشاء دولة أرمنية مستقلة تقطع من الدولة العثمانية :

وعلى الرغم من انتصار الكماليين في المرحلة الثانية من حرب التحرير ضد اليونانيين، وهي المرحلة التي توجت بانتصار الأولين في معركة سقارية (٢٤ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢١)، اجتمع وزراء خارجية بريطانيا وفرنسا وإيطاليا في لندن في مارس - آذار - سنة ١٩٢٢، وعقدوا عدة اجتماعات، اقترحوا في نهايتها عقد هدنة بين الكماليين واليونانيين، تعقبها معاهدة سلام شامل تقوم على المبادئ الآتية :

- (١) إنشاء دولة أرمنية مستقلة في الولايات الست في شرقي الأناضول .
- (٢) تنازل الدولة العثمانية لليونان عن أزمير وراقية الشرقية، بما فيها أدرنة العاصمة السابقة للدولة العثمانية، قبل أن يتخذ السلطان محمد أبو الفتح من إسطنبول عاصمة لها .
- (٣) إبقاء الرقابة الدولية على المضائق التركية - للبوسفور ، والدردنيل ، وبحر مرمرة - وإبعاد العثمانيين عنها .
- (٤) الإبقاء على نظام الامتيازات الأجنبية ولجنة الدين العام .
- (٥) إلغاء الرقابة المالية الأوروبية على الحكومة العثمانية .
- (٦) رفع الحد الأقصى للجيش العثماني إلى ٨٥,٠٠٠ مقاتل .

والمعنى المستفاد من هذه الاقتراحات أن الدول الأوروبية الكبرى - وهي تخطط لمشروع خريطة سياسية جديدة لأجزاء من منطقتي الشرق الأدنى والشرق الأوسط - كانت تضع مسألة إنشاء دولة مستقلة جديدة للأرمن، تقطع من الأقاليم العثمانية في شرقي الأناضول في عداد المسائل الكبرى، التي كانت تعلق عليها آمالاً كبرى، مثل: تدويل المضائق وتجريد منطقتها من السلاح ، ودعم الأطماع اليونانية في إنشاء إمبراطورية هيلينية يتوسطها بحر إيجة من ساحليه الشرقي والغربي وتشمل - فيما تشمل - إزمير والنصف الغربي من الأناضول، فضلاً عن راقية الشرقية ، والإبقاء على نظام الامتيازات الأجنبية الدولة العثمانية ولجنة الدين العام . وكانت كل هذه التنازلات في مقابل إنهاء حالة الحرب في الأناضول وإلغاء الرقابة المالية الأوروبية ، ورفع الحد الأقصى للجيش العثماني إلى ٨٥,٠٠٠ مقاتل بدلاً من ٥٠,٠٠٠ الذي قرره معاهدة سيفر ، وبذلك تحقق بريطانيا وحليفاتها أهدافها وهي الهبوط بالدولة العثمانية إلى ظل دولة ، أو كما يسمى a shadow-State .

وقد رفض المجلس الوطني الكبير في أنقرة قبول الهدنة وما اقترنت به من اقتراحات؛ لأنها تتعارض تعارضاً صارخاً مع الميثاق الوطني ، وقرر الموافقة على طلب مصطفى كمال

بإتمام الجلاء الكامل قبل البدء في مفاوضات الصلح ، وبذلك تساقط مشروع الهدنة والمبادئ التي قامت عليها تساقطاً تلقائياً . وانصرف مصطفى كمال وقواته للمضي في الصراع الحربي لطرد اليونانيين عن بكرة أبيهم من الأناضول وتراقية الشرقية في حرب التحرير والاستقلال .

الاتجاه إلى وضع معاهدة جديدة بدلاً من سيفر

كان تنفيذ معاهدة سيفر في حكم الاستحالة ، على الرغم من أن عدة دول أوروبية اشتركت في التوقيع عليها وظلت المعاهدة مجمدة . وكان من المظاهر الأولى لعدم تنفيذها أن رفض التوقيع عليها رئيس الولايات المتحدة ، ويوغوسلافيا ، والشريف الحسين بن علي ملك الحجاز . ولكن كان السبب الأهم في تجميد المعاهدة هو موقف مصطفى كمال ورفاقه ؛ فقد رفضوا المعاهدة رفضاً باتاً ووصموا بالخيانة العظمى كل مواطن يقبلها ، وجعلوا ذكرى التوقيع عليها يوم حداد عام في أنحاء البلاد ، وخاض الكماليون بقيادة مصطفى كمال صراعاً حروبياً مريراً ضد الغزاة اليونانيين والفرنسيين والإيطاليين والأرمن لطرد هؤلاء المغيرين من الأناضول . وكانت قوات بريطانية مع قوات رمزية من حليفاتها تحتل إسطنبول ، وكانت أساطيل الحلفاء تقي مراسيها في المضائق التركية وفي موانئ تركيا على البحر الأسود ، واستطاع مصطفى كمال بعد جهاد شاق استطال سنين عدداً تحرير الأناضول وإقليم تراقيا الشرقية في أوروبا .

ورأى الحلفاء أن مصالحهم السياسية والاقتصادية والعسكرية تقتضي إنهاء حالة الحرب في منطقة الشرق الأدنى ؛ لأن كثيراً من الدوائر السياسية في العالم الإسلامي والقطاعات الشعبية كانت ساخطة على سياسة الحلفاء تجاه الدولة العثمانية وتفتيتها على هذا النحو المزرى . وكان الحلفاء يخشون قيام حرب عامة جديدة ، يلضم فيها الاتحاد السوفيتي إلى تركيا بمقتضى المعاهدة المعقودة بينهما بتاريخ ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢١ ، وكانت هذه المعاهدة هي الورقة الراححة في يد مصطفى كمال ، وقد قررت في مانتها الأولى عدم الاعتراف بأى معاهدة فرضت على تركيا لم تعترف بها الحكومة الوطنية في تركيا . وانتهى الحلفاء رأياً إلى عقد مؤتمر دولي ، يجتمع في فيينا لوضع معاهدة جديدة مع تركيا بدلاً من معاهدة سيفر ، ثم اتجه رأيهم إلى عقده في لوزان بمويسرا تأسيساً على أنها دولة محايدة .

لم يكن من مصلحة الأرمن على الإطلاق القرار ، الذي اتخذته الحلفاء بعقد مؤتمر لوزان ليعيد النظر في كافة المسائل التي اشتملت عليها معاهدة سيفر ؛ لأنه على الرغم من أن المعاهدة الأخيرة لم تنفذ ، كان الأرمن يطمحون آمالهم على أن إنشاء دولة حرة مستقلة لهم - كما قررتها معاهدة سيفر - إنما هو قرار سيتخذ طريقه إلى التنفيذ العاجل أو الأجل وسواء طالبت مدة الانتظار أو قصرت . ولذلك انتابتهم الهواجس خوفاً من المؤتمر الجديد ، الذي سيعيد بحث

المسائل التي سبق تقريرها ، وأن هذا البحث سيؤدي حتماً إلى إحدى نتائج ثلاث ، إما الإبقاء عليها أو تعديلها أو إلغاؤها ، وكان الأرمن يخشون إحدى النتيجتين الأخيرتين .

إرهابيان أرمنيان يقاتلان أحد قادة الجيوش العثمانية :

بينما كانت الدول الأوروبية قد صحت عزميتها على عقد مؤتمر دولي يضع معاهدة جديدة ، بدلاً من معاهدة سيفر مع الدولة العثمانية ، وتتضمن المعاهدة الجديدة تسوية مشكلات هذه الدولة والمشكلات المتفرعة عنها مثل قضية الأرمن ، وقع حادث غتيال جمال باشا حين تربص أرمنيان إرهابيان هما : كركين لاليان ، وسرجو فارتيان ، في مدينة بتليس بأرمينية ، وأطلقا عليه عدة أعيرة نارية أرذته قتيلاً في ٢١ من يوليو - تموز - عام ١٩٢٢ (١) ، وكان جمال باشا قائداً للجيش العثماني الرابع إبان الحرب العالمية الأولى ، تولى قيادته من شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٤ إلى ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٧ ، واتخذ دمشق مقراً لقيادته . وكانت اختصاصاته العسكرية والإدارية تمتد عبر منطقة واسعة ، تبدأ من جنوبى طوروس فى آسيا الصغرى حتى اليمن ، وشملت ولايات أضنه ، وحلب ، ودمشق ، وبيروت ، ومتصرفية جبل لبنان ، و متصرفية القدس (فلسطين) ، وولاية الحجاز . ويلاحظ أن المناطق الخمس الأولى كانت تقم فيها جموع كثيفة العدد من الأرمن ، ولعل تصرفاته معهم فى أثناء قيادته للجيش الرابع قد أوعرت صدر الأرمن عليه ، ولما انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة الدولة العثمانية ، هرب منها وطاف ببعض دول إلى أن انتهى به الأمر بتعيينه مفتشاً عاماً للجيش الأفغانى . وقد تم هذا التعيين بناء على تدخل قوميسر الشؤون الخارجية السوفيتى شتيرين ، وفى عودة جمال باشا من أفغانستان تعرض للاغتيال ويبدو أن قتله كان جزءاً من حملة الاغتيالات نفسها التى دبرت لطلعت باشا وسعيد حليم باشا ، اللذين سقطا صريعين من قبله . وقد دفن جمال باشا فى بتليس ثم أعيد دفنه فى أرضروم ، وقد وقع حادث اغتياله قبل عقد مؤتمر لوزان بأربعة أشهر . وبصرف النظر عن أن القتيلى كان وزيراً للبحرية العثمانية وقائداً للجيش العثماني الرابع وعضواً فى حكومة الطغاة وعضواً بارزاً فى حزب الاتحاد والترقى ، فإن حادث الاغتيال فى حد ذاته أساء إلى قضية الأرمن ، لأنه أعطى للعالم صورة كريمة عن الأرمن ، وأكد أنهم لايزالون إرهابيين ، كما أفاد مقتله مصطفى كمال ورفاقه ، إذ زادهم إصراراً فى مؤتمر لوزان على عدم إنشاء دولة لهم فى شرقى الأناضول .

مؤتمر لوزان يناقش قضية الأرمن مع قضايا الأقليات :

افتتح المؤتمر فى ٢٠ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ ، وقسمت أعماله بين ثلاث لجان .. كان يرأس اللجنة الأولى لورد كيرزون خارجية بريطانيا ورئيس الوفد البريطانى

فى المؤتمر ، واختصت هذه اللجنة ببحث موضوع نظام الملاحة فى البوسفور وبحر مرمورة والدردينل والبحر الأسود والمساائل العسكرية ومساائل الأقليات والمساائل الإقليمية ، وكانت هذه اللجنة هى أهم لجان المؤتمر ^(١) .

بدأ المؤتمر منذ جلسة أول ديسمبر - كانون أول - يناقش قضية الأرمن مع قضايا الأقليات الدينية والقومية فى دولة تركيا الحديثة مثل اليونانيين والأكراد والأشوريين واليهود ، وألقى لورد كيرزون خطاباً صافياً تناول فيه موضوع الأقليات بشكل عام ، وأشار إلى اهتمام حكومات العالم بهذا الموضوع ، وقال إن الرأى العام العالمى يعلق أعذب الآمال على المؤتمر لإيجاد حل عادل يضمن للأقليات فى تركيا المحافظة على حياتها وحريتها وممتلكاتها . واقترح لورد كيرزون وضع ضمانات معينة للأقليات ، على غرار الضمانات الممنوحة للأقليات فى الدول التى أنشئت فى وسط أوروبا عقب الحرب العالمية الأولى ، كما طالب بإنشاء لجنة من قبل عصابة الأمم للإشراف على تنفيذ هذه الضمانات .

وقد رد عليه عصمت باشا وزير للخارجية التركية ورئيس الوفد التركى فى المؤتمر قائلاً إن وجود أقليات دينية وقومية فى الدولة العثمانية كان أمراً طبيعياً ؛ لأن الدولة كانت مترامية الأطراف وتمتد أقاليمها فى ثلاث قارات . ولكن تدخل الدول الأوروبية فى موضوع الأقليات هو الذى أعطى المسألة أبعاداً كبيرة وخطيرة ؛ فالدول الأوروبية كانت تشجع الأقليات على إثارة الاضطرابات فى وجه الحكومات العثمانية ، فإذا تفاقم الاضطرابات أرسلت هذه الدول قوات عسكرية بحجة حماية الأقليات ، وخرجت الدول من هذا التدخل بمكاسب سياسية وإقليمية كانت تزيد الدولة العثمانية وهذا على وهن . وأصبح تدخل الدول الأوروبية فى شئون الدولة العثمانية سمة بارزة فى تاريخها فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وخرج عصمت باشا من مقدمته إلى أن زوال الدولة العثمانية لابد أن يؤدى إلى تغيير وجه موضوع الأقليات تغييراً جذرياً ، لأن دولة تركيا الحديثة لا تقبل على أى نحو من الأنحاء أن يكون وجود الأقليات فى

(١) كانت اللجنة الثانية يرأسها الماركيز جيرينى Marquis Geroni ، وزير خارجية إيطاليا ورئيس الوفد الإيطالى فى المؤتمر ، وتختص بنظر مسألة الأجانب المقيمين فى تركيا . أما اللجنة الثالثة فكان يرأسها بارير Barrère رئيس الوفد الفرنسى فى المؤتمر ، وكان اختصاصها النظر فى المسائل الاقتصادية والمالية ، انظر :

Ministère des Affaires Étrangères. Documents Diplomatiques. Conférence de Lausanne sur les affaires de Proche-Orient 1922-1923.

Recueil des Actes de la Conférence. Première Série, tomes I-17 Deuxième Série, tomes I-II.

وهذان المجلدان يشملان مضاميل جلسات المؤتمر والتقارير ، التى وضعت فى أثناء انعقادها ، أو التى قمتها وفود الدول المشتركة فيه كما يتضمن معاهدة الصلح والاتفاقات والبروتوكولات والتصريحات المرفقة بها .

بلاذها سبباً في المماس بالسيادة التركية على أراضيها أو تمزيق هذه السيادة ، وخلص من خطابه المستفيض إلى رفض فكرة إشراف عصبة الأمم ، لأن هذا الإشراف نوع من التدخل الدولي في الشؤون الداخلية ، وقال إن أحسن ضمان للمستقبل هو القوانين التي تضعها الحكومة التركية والسياسة الحرة التي تنتهجها الحكومة التركية ، وإن الحل الأمثل لمسألة اليونانيين هو تبادل إجباري للسكان الأتراك المسلمين والسكان اليونانيين ؛ بمعنى أن يعود جميع الأتراك المسلمين المستوطنين في بلاد اليونان إلى تركيا ويغادر تركيا إلى بلاد اليونان جميع اليونانيين المستوطنين في الأناضول وثرافيا للشرقية ، وذكر أن حكومة أنقرة مصممة على إبعاد اليونانيين من الوطن التركي لأنهم عنصر مشاغب ويتمتعون بامتيازات سياسية وإدارية ، مستلذين إلى وجود البطريركية اليونانية في إسطنبول حيث يمارس البطريرك اليوناني سلطات واسعة ، ويتدخل في المسائل السياسية والإدارية إلى جانب المسائل الدينية ، وطالب عصمت باشا أيضاً بنقل مقر البطريركية اليونانية من إسطنبول (١) .

ولم يوافق لورد كيرزون على طلبات عصمت باشا ، وقال ريتشارد تشايلد Richard Washburn Child المراقب الأمريكي (٢) إنه يجب اتخاذ إجراءات حازمة لتأمين سلامة الأقليات الدينية والقومية في تركيا ، وأيد مندوبو فرنسا وإيطاليا ويوغوسلافيا واليونان اقتراحات رئيس الوفد البريطاني .

وفي جلسة ١٣ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٢ استأنف المؤتمر مناقشة موضوع الأقليات ، وأعطيت الكلمة لعصمت باشا ، فشرح الفظائع التي ارتكبتها اليونانيون ضد الأتراك في الأناضول من إحراق القرى وذبح سكانها وتدمير مساكنهم ، وأصر على تبادل السكان ونقل مقر البطريركية اليونانية من إسطنبول ، ووصف هذه الإجراءات بأنها ضرورية مؤلمة ولكنها منطقية ، (٣) a painful necessity, but logical ويعد مناقشات طويلة وساخنة اشترك فيها أعضاء المؤتمر ، انتهى الرأي إلى حل قبله اليونانيون على مضض ، وهو التبادل الإجباري

(1) Harry N. Howard; The Partition of Turkey. A Diplomatic History 1913-1923. New York, 1966., p. 301.

(٢) لم تشارك حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في مؤتمر لوزان ، واكتفت بإرسال ثلاث مذكرات إلى الدول الداعية وهي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا أوضحت فيها وجهات نظرها في المسائل التي يبحثها المؤتمر ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذه المذكرات الثلاث في ملون سابق في هذه الدراسة (ج ١ ، ص ٢٨٠-٢٩١) ، كما اكتفت بإرسال «مراقبية» يحضرون جلسات المؤتمر ويشتركون في مناقشاته ويوضحون موقف حكومتهم في المسائل المعروضة ويخطر عليهم بموقف الدول الأعضاء . واستندت الحكومة الأمريكية في امتناعها عن الاشتراك في المؤتمر إلى أنها لم تكن في حالة حرب مع تركيا ، ولم تكن أحد الأطراف في هيئة مدروس ، ولا ترغب في التوقيع على المعاهدة الجديدة المقترحة .

(3) Harry N. Howard; op. cit., p. 303.

للسكان المسلمين الأتراك من جانب واليونانيين من جانب آخر، على أن يستثنى من هذا التهجير الإجبارى اليونانيون ، الذين استوطنوا إستانبول قبل ٣٠ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩١٨ . ولم يستطع عصمت باشا أن يفوز بموافقة المؤتمر على نقل مقر البطركية اليونانية من إستانبول، بعد أن تعهد لورد كيرزون أمام المؤتمر بأن البطرك اليونانى فى إستانبول لن يمارس أى نشاط سياسى أو إدارى، وأن عمله سيكون مقصوراً على المسائل الدينية . وتم التوقيع فى ٣٠ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٣ على مشروع الاتفاق بين الوفدين التركى واليونانى على أن يكون تنفيذه اعتباراً من أول مايو - أيار - سنة ١٩٢٣ ، وتم التوقيع على الاتفاق النهائي فى ٢٤ من يوليو - تموز - سنة ١٩٢٣ ، وأرفق بمعاهدة لوزان على أن يكون مرفقاً بها وجزءاً لا ينفصل عنها (١) .

ويلاحظ أن مسألة اليونانيين قد استغرقت من المؤتمر وقتاً طويلاً ، وكانت لها الصدارة على مسألة الأرمن .. أما مسألة اليهود فلم تأخذ من المؤتمر وقتاً ولا جهداً ؛ لأن عصمت باشا حسنها بقبوله الإبقاء على اليهود فى تركيا الحديثة لأسباب، سبق أن ذكرناها فى الفصل السابق .

وانتقل المؤتمر فى الجلسة ذاتها إلى مناقشة قضية الأرمن واقترح الحلفاء إنشاء وطن قومى للأرمن داخل تركيا بدلاً من دولة حرة مستقلة ، واعترض عصمت باشا على هذا الاقتراح ، وقال إنه لا يستطيع أن يوافق على هذا الاقتراح الجديد لتمزيق وحدة تركيا الحديثة من أجل الأرمن ، فلهم جمهورية إريفان ، كما أن حكومة أنقرة لا يمكن أن توافق على إنشاء لجنة دولية ؛ لأن من شأن هذا اللجنة بكل تأكيد التدخل فى الشؤون الداخلية لتركيا . ومع ذلك .. فإن الحكومة التركية تستطيع أن تولفق على منح ضمانات على غرار الضمانات، التى أدرجت فى معاهدات الدول التى أنشئت حديثاً فى أوروبا عقب الحرب العالمية الأولى . ووصف عصمت اقتراحه بأنه آخر مدى يمكن أن تصل إليه تركيا ، واقترح أيضاً منحهم حرية

(١) كانت معاهدة لوزان تضم إلى جانب معاهدة الصلح عدة اتفاقات وبروتوكولات، مثل: اتفاق المضائق التركية، واتفاق تهجير السكان المسلمين الأتراك والسكان اليونانيين فى اليونان وتركيا ، واتفاق حدود تراقيا ، واتفاق من شروط الإقامة والتجارة والقضاء ، وتصريح بالعمو العام عن المتهمين السياسيين ، وتصريح عن الأمور المسحية فى تركيا ، وتصريح عن إدارة العدالة فى تركيا ، وبروتوكول عن انضمام بلجيكا والبرتغال إلى بعض مواد المعاهدة ، وبروتوكول عن انسحاب القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية عن الأراضى التركية المحتلة ، وبروتوكول عن أراضى قره غانش وجزيرتى إمبريس Imbros وتينيدوس Tenedos، وبروتوكول عن توقيع يوغوسلافيا لمعاهدة الصلح .
انظر كلاً من :

La Conférence de Lausanne sur les Affaires du Proche-Orient 1922-1923, op. cit.,
Great Britain, Parliamentary Papers, 1923, Treaty Series No. 16, Cmd. 1929, Treaty of Peace with Turkey and other Instruments. signed at Lavsanne on July 24, 1923.

الانتقال والحركة في أقاليم الدولة ، ولكنه رفض إعفائهم من الواجبات العسكرية ^(١) .

وعمد لورد كيرزون في رده على أقوال عصمت باشا إلى تذكيره بأن أنظار العالم متجهة إلى الأتراك وماسيغولون مع الأرمن ، وحجج إحالة قضية الأرمن إلى عصبة الأمم لعلها تجد حلاً يتناول المسألة الأرمنية من جميع جوانبها . وقد أجاب عصمت باشا بجملة ١٤ من ديسمبر - كانون أول - بأن حكومته ترفض رفضاً باتاً منح الأرمن وطناً قومياً في تركيا ، كما ترفض تماماً تشكيل لجنة دولية تشرف على الأقليات ، وستمنح الحكومة التركية عفواً عاماً عن الجناة الذين ارتكبوا جرائم في السنوات القليلة السابقة ، وسوف نضع قوانين لحماية الأقليات الدينية والقومية في تركيا . وهنا نساءل لورد كيرزون عن جدوى القوانين أو المعاهدات التي تضمن حقوق الأقليات ، واقتراح إجراء دراسة أخرى عن قضية الأرمن بإحالتها إلى لجنة الأقليات ، بأمل التوفيق بين الآراء المتضاربة حولها .

إخفاق قضية الأرمن في مؤتمر لوزان :

قدم تقرير اللجنة الفرعية عن الأرمن إلى المؤتمر بجملة ٩ من مايو - آيار - سنة ١٩٢٣ ، متضمناً إدراج نصوص في معاهدة الصلح مع تركيا ، تختص بضمانات للأقليات في الدولة التركية الحديثة . ورفض التقرير فكرة إنشاء لجنة دولية ، تشرف على تنفيذ هذه الضمانات ، وكان هذا الرفض انتصاراً للوفد التركي ^(٢) . وعلق عليه لورد كيرزون بإبداء أسفه على رفض وفد تركيا وجود مندوب عن عصبة الأمم يقيم في إسطنبول ، وقال إنه متألم لتشدد الوفد التركي في قضية الأرمن ، ونفى الاتهام الموجه إلى الحلفاء والخاص بإنشاء وطن قومي للأرمن في تركيا ، ولم يبدد هذا النفي مخاوف الوفد التركي فلم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة . والحق أن عصمت باشا وزملاءه - أعضاء الوفد التركي في المؤتمر - كانوا على حق في معارضة إنشاء وطن قومي للأرمن في الجزء الشرقي من تركيا الحديثة ، لأن هذا مثل الوطن القومي national home وهو تعبير استعارته بريطانيا من تصريح بالفور وزير الخارجية البريطانية في ٢ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٧ بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين - كان سيؤدي إن عاجلاً وإن أجلاً إلى قيام جمهورية أرمنية ، تقطع من جسم الوطن التركي في الأناضول .

على هذا النحو أسقطت مسألة الأرمن من مناقشات مؤتمر لوزان ، وأدرجت في صلح معاهدة الصلح مع تركيا المواد من ٣٨ إلى ٤٤ ، وهي مواد إضافية تنص في مجموعها على أن تضمن الحكومة التركية حماية أرواح وممتلكات وحرية سكان تركيا دون تمييز في جنسية السكان ، أو دينهم ، أو لغتهم ، أو مكان مولدهم . وقررت لأعضاء الأقليات الدينية غير

(1) Harry N. Howard; op. cit., pp. 303-304.

(2) Loc. cit.

الإسلامية للحق في ممارسة شعائهم الدينية في السر والعلن، بشرط أن تكون هذه الممارسة متماشية مع النظام العام والأخلاق العامة، ولهم الحق في الهجرة وحرية الحركة في تركيا . ويكون لهم الحق في جميع الحقوق المدنية والسياسية المقررة للرعايا المسلمين في الدولة ، والمساواة التامة مع المسلمين أمام القانون، كما يكون لهم الحق في إقامة المنشآت الخيرية والدينية والاجتماعية والتعليمية ، وأن تكون لغة التعليم في مدارسهم بلغاتهم ، وأن يمارسوا داخل هذه المؤسسات أيضاً شعائهم الدينية دون قيد ، وتضمن الحكومة التركية حماية هذه المنشآت بكافة أنواعها . وفيما يختص بالتعليم العام، تعهدت للحكومة التركية بأن تمنح في المدن وأقسام المدن التي تقيم فيها نسبة كبيرة من رعايا الدولة غير المسلمين تسهيلات مناسبة، تضمن أن يكون التعليم في المدارس الابتدائية لأطفال هؤلاء الرعايا غير المسلمين بلغتهم القومية ، ولا تمنع هذه التسهيلات الحكومة التركية من جعل تعليم اللغة التركية إجبارياً في مثل هذه المدارس . وإلى جانب ذلك كله تتعهد الحكومة التركية عند النظر في قضايا الأحوال الشخصية المتعلقة بأفراد الأقليات الدينية غير الإسلامية، باتخاذ إجراءات تنص على أن يكون الفصل في هذه القضايا طبقاً لعاداتهم وتقاليدهم ، وأن يعهد إلى لجنة خاصة تشكل من عدد متساو من ممثلي الحكومة التركية وممثلين عن الأقليات الدينية بوضع هذه الإجراءات . وإذا تعذر الاتفاق بين أعضاء اللجنة .. فإن الحكومة للتركية وباتفاق مجلس عصبة الأمم يعهدان إلى أحد المحامين الأوروبيين كحكم للفصل في هذا الاختلاف في وجهات النظر ، كما تضمنت المعاهدات ضمانات أخرى .

وهكذا انفض مؤتمر لوزان، دون أن يحصل الأرمن على كيان سياسي خاص بهم . وتحققت مخاوفهم من عقد هذا المؤتمر ليعيد النظر في معاهدة سيفر .. فقد استبعد مؤتمر لوزان ماجاء في هذه المعاهدة من إنشاء دولة حرة مستقلة لهم في شرقي الأناضول ، ولما عرضت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا على المؤتمر إنشاء وطن قومي للأرمن لدخل الأراضي التركية ، اعترض الوفد التركي بشدة على هذا الاقتراح، ونجح في استبعاد المشروع البديل . ويلاحظ أيضاً أن عصمت باشا لم يطالب بإخراج الأرمن من تركيا، كما فعل مع اليونانيين الذين استوطنوا تركيا . وسمح لهم بالبقاء في أراضي الجمهورية التركية كأقلية دينية غير إسلامية، تمارس نشاطها الاقتصادي والمالي والتعليمي والاجتماعي في ظل القوانين التركية ، ووافق على الضمانات، التي وضعتها لهم لجنة الأقليات في المؤتمر وأدرجتها في معاهدة الصلح .

ويقول الدكتور نانسن - تطبيقاً على النتيجة التي انتهت إليها قضية الأرمن^(١) - إن مؤتمر لوزان قد ضحى بالأرمن ، وهم شعب موهوب ذو نشاط خارق للعادة ، وهم لا يملكون آبار بترو ولا مناجم ذهب . وكان من الأفضل لو ألغزم أعضاء مؤتمر لوزان الصمت التام إزاء

== ٤٣٠ == عيوب الدولة العثمانية (٥) قضية الأرمن ومذابحهم (ب) منذ بداية الحرب العالمية الأولى حتى الوقت الحاضر ==

قضية الأرمن ولم يرد على ألسنتهم ذكر لكلمة الأرمن. وكان نانس قد أوفدته عصبة الأمم قبل عقد مؤتمر لوزان إلى منطقة الشرق الأدنى؛ لدراسة مشاكل الأقليات في أرجائه ، وأسهم في مناقشات المؤتمر بعد عودته .

موقف الأرمن من ثورة الأكراد سنة ١٩٢٥ :

وقف الأرمن بصفتهم مواطنين أتراك موقفاً اتسم بالولاء والإخلاص للجمهورية التركية سنة ١٩٢٥ ، حين قام الأكراد بثورة عارمة في الجنوب الشرقي من الأناضول متأثرين بالدعاية الشيوعية التي روج لها الشيوعيون في الاتحاد السوفيتي ، ومتأثرين أيضاً بالمحافظين الأتراك وجماعات الدراويش الذين كانوا يعارضون السياسة العثمانية التي انتهجها كمال أتاتورك ، وكانوا ينظرون إليها على أنها تتعارض مع مبادئ الإسلام . ويرى البعض أن ثورة الأكراد هي حركة قومية انفصالية، تزعمها كبارؤهم الذين حلوا محل طبقة أعيان الوادي Derabeyس في الأناضول ، وكانت هذه الطبقة قد اختفت قبل عهد للجمهورية (١) .

قام الأكراد بعمليات تخريبية في ديار بكر بزعامة الشيخ سعيد ، ونهبوا ثم أحرقوا عدداً من المدن الكبيرة والصغيرة والقرى ، ولقيت الثورة عطفاً عليها من المواطنين الأتراك المحافظين المتمسكين بالإسلام في إسطنبول وغيرها ، وكذلك من أصحاب الطرق الصوفية والدراويش ومن إليهم . وعلق الشيوعيون والأكراد آمالاً كباراً على انضمام الأرمن في تركيا إليهم ؛ فقد كان الروس (السوفييت) حلفاء للأرمن في الحرب العالمية الأولى . وكان الأكراد يغيرون الأرمن بالعمل على تحسين أوضاعهم السياسية في الأناضول ، ولكن لم يجد الشيوعيون والأكراد استجابة من الأرمن ، إما خوفاً من بطش قوات الجمهورية التركية بهم ، وإما رضاهم بوضعهم بعد أن فقدوا الأمل بعد كفاحهم المرير من أجل الاستقلال أو الحكم الذاتي . وكانت ثورة الأكراد عارمة واجهها كمال أتاتورك بعنف متزايد ، فعين عصمت إينونو رئيساً للوزارة بدلاً من علي فتحي في ٣ مارس - آذار - سنة ١٩٢٥ ، واستصدر من المجلس النيابي في أنقرة في اليوم التالي قانون إعادة النظام ، وتقرر بموجبه منح الحكومة سلطات استثنائية واسعة ، وإنشاء محاكم الاستقلال (استقلال محكمة سي) في أنقرة والولايات الشرقية في الأناضول لمحاكمة وسجن أو إعدام الثوار تبعاً لجسامه الجريمة التي يرتكبها كل منهم ، وقبضت السلطات التركية على الشيخ سعيد وكبار مساعديه في ١٥ من أبريل - نيسان - عام ١٩٢٥ ، وقدمتهم لمحكمة الاستقلال في ديار بكر في ٢٥ من مايو - آيار - ونفذ فيهم حكم الإعدام في ٢٩ من يونيو - حزيران - في ذات السنة .

الأرمن بعد مؤتمر لوزان (١٩٢٢-١٩٢٣) :

ونأتى إلى الفصل الأخير من قضية الأرمن استكمالاً لها في هذه الدراسة .. احتوى الأرمن شعور من الأسى العميق للنتيجة السلبية، التي انتهت إليها قضيتهم في مؤتمر لوزان لسنة ١٩٢٣ ، وارتضوا على مضض الوضع السياسى الذى تقرر لهم : أقلية دينية غير إسلامية تعيش جنباً إلى جنب ، وعلى قدم المساواة مع أغلبية إسلامية ساحقة هي الشعب التركى (١) ، وأخذوا إلى السكنى والهدوء . ولوقت للحكومة التركية بعهدوها ، وانتهجت معهم سياسة التسامح ومنحتهم حريات سياسية واقتصادية وثقافية ودينية وغيرها ، وأخذت تجد شبابهم فى القوات المسلحة التركية أسوة بالمسلمين ، ونجح بعض منهم فى الانتخابات العامة ، وغدوا أعضاء فى البرلمان التركى ، ونقلد بعض آخر مناصب قيادية فى الحكومة . وانصرف الأرمن فى مجموعهم إلى مزاوله نشاطهم التجارى والصناعى والمصرفى المكلف فى الجمهورية التركية؛ بحيث أمسى الأرمن من أبرز الأقليات الدينية غير الإسلامية فى المجتمع التركى . أما فى المجالات الدينية والثقافية، فكانت لهم ثلاثون كنيسة وأكثر من ثلاثين مدرسة فى مختلف درجات التعليم، ووقف الأرمن موقفاً وطنياً تركيا رلتعاً حين أدخلت الحكومة التركية فى ١٧ من فبراير - شباط - سنة ١٩٢٦ القانون المدنى على غرار القانون المدنى السويسرى؛ لتنظيم حياة الأسرة ومنع تعدد الزوجات وتنظيم مسائل الطلاق، وغير ذلك من مسائل . فطلب الأرمن فى تركيا للتنازل عن الحق الذى قرره لهم معاهدة لوزان (المادة ٤٢) فى أن يكون الفصل فى قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بهم طبقاً لثقافتهم وعاداتهم ، وطالبوا بتطبيق القانون المدنى التركى الجديد عليهم ، ووافقت الحكومة التركية على طلب الأرمن دعماً للوحدة الوطنية وتعميقاً للشعور الوطنى بين رعايا الجمهورية (٢) .

(١) كان حزب الشعب الجمهورى، والذي كان يرأسه بصفة دائمة كمال أتاتورك، قد وافق فى ٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٢٨، من حيث المبدأ على عثمانية الدستور التركى؛ أى تجريد من أحكام الشريعة الإسلامية . وأحال المشروع فى اليوم ذاته إلى المجلس الوطنى الكبير الذى أحاله بدوره إلى لجنة الشئون الدستورية بالمجلس لدراسته . وفى اليوم التاسع من الشهر ذاته وافق جميع الأعضاء الحاضرين - وكان عددهم ٢٦٩ عضواً - على مشروع القانون بإدخال التعديلات المقترحة ، وكان من بينها - إلغاء المادة الثانية من الدستور، والتي تنص على أن الدين الإسلامى هو دين الحكومة التركية، وكان هذا النص موجوداً فى الدستور العثمانى، الذى أصدره السلطان عبد الحميد الثانى سنة ٨٧٦ مع تعديل طفيف، تطلبه تغيير الوضع القانونى لتركيا بعد إعلان النظام الجمهورى بها . واستبدل المجلس تلك العبارة عبارة جديدة هي أن الجمهورية التركية دولة علمانية ، وفى الجلسة ذاتها، أدخل المجلس ثلاثة تعديلات على الدستور، نصت على استبعاد التصويص البتية الإسلامية الواردة به .

انظر :

Ataturk. Biography; published by the Turkish National Commission for UNESCO, Istanbul, 1981, p. 151.

(2) Ataturk. Biography, op. cit., p. 150.

وإحفاقاً.. للحق آثرت مجموعة من الأرمن مغادرة الأراضي التركية ، إما خوفاً من أن تنكث الحكومة التركية بعهودها مما يعرضهم للاضطهاد ، وإما طمعاً في تحقيق ثروات ضخمة في دول أخرى، فهاجرت جموع منهم إلى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ورومانيا وبلغاريا ومصر وسورية ولبنان والعراق . ولكن اتجه معظمهم إلى كندا والولايات المتحدة الأمريكية وبخاصة الأجزاء الشمالية منها ، ويبلغ عدد الأرمن في تركيا في الوقت الحاضر (١٩٨٠) أكثر من سبعين ألف نسمة .

عودة إلى النشاط الإرهابي الأرمني :

عادت جماعات من الإرهابيين الأرمن منذ سنة ١٩٦٥ ينظمون صفوفهم، وكونوا جمعيات إرهابية لعلها كانت بعتاً لجمعية داشناكس Dashnaks أو الاتحاد الثوري الأرمني A.R.F.، وزاولوا نشاطهم الإرهابي خارج أراضي الجمهورية التركية ضد أعضاء السلكين الدبلوماسي والقنصلي التركيين ، وبدأ نشاطهم الثوري في صورة متواضعة نسبياً، حين أعلن أسقف الأرمن في بيروت اعتبار يوم ٢٤ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٦٥ يوم حداد عام للأرمن في لبنان، بمناسبة مرور خمسين عاماً على مذابح الأرمن في مثل هذا اليوم من سنة ١٩١٥ ، والذي قامت فيه السلطات العسكرية العثمانية بترحيل الأرمن من شرقي الأناضول إلى معسكرات الترحيل في الموصل؛ لتأمين سلامة القوات العثمانية التي كانت تخوض معارك صارية ضد الروس . واتجه تفكير الأرمن في لبنان إلى تنظيم مظاهرة ضخمة وصاخبة، تطوف بأحياء العاصمة اللبنانية تمجيداً لذكرى شهداء الأرمن . وقد استلكر كبير أساقفة الأرمن في إسطنبول، بوغوص كيرشيان Bogos Kirechyan هذا للتصرف وأدان المحرضين عليه والمنضمين إليه . وذلك في بيان رسمي نشرته جريدة Hurriyet أي «الحرية» التي تصدر في إسطنبول في عندها الصادر في ٦ من أبريل - نيسان - ١٩٦٥ . وكان هدف الأرمن المتطرفين من هذا التصرف بشقيه - إعلان الحداد العام وتنظيم المظاهرة - هو جعل هذه المذابح حية في أفئدة الأجيال الصاعدة من شباب الأرمن ، فضلاً عن إثارة الأحقاد على الأتراك عن مذابح قديمة، تعرض لها الأرمن في القرنين التاسع عشر والعشرين وطواها التاريخ . ولم يذكر هؤلاء المحرضين شيئاً عن المذابح التي أوقفها الأرمن بالمسلمين العثمانيين .

ولم يلبث أن عمد المتطرفون الأرمن بعد حادث بيروت إلى توسيع نطاقهم الإجرامي، بعد أن تحولوا إلى إرهابيين ضد الأتراك منذ سنة ١٩٧٥ في العواصم الأوروبية : باريس ، لندن فينا ، مدريد ، الفاتيكان .. فكانوا يتصيدون أعضاء السلكين الدبلوماسي والقنصلي الأتراك؛ ويمسكون بالضحية وينهالون عليها في لحظات معدودة بوابل من الطلقات النارية ثم يولون الأدبار ، ولقي فريق من الدبلوماسيين الأتراك مصرعهم وأصيب آخرون بجراح خطيرة . واتخذت الحكومة التركية بالتعاون مع حكومات الدول الأجنبية إجراءات أمن مشددة؛ للحفاظ

على أرواح مبعوثيها السياسيين وعن سلامة دور السفارات والقنصليات التركية .

الأرمن الأتراك ينددون بالإرهابيين الأرمن :

وقد صدر في سنة ١٩٨٠ كتاب باللغة الفرنسية، عنوانه : «حقائق يعبر عنها الأرمن الأتراك» ، وقد سبق أن أشرنا إليه ، وقد نشرته جريدة يومية أرمنية تسمى جاماناك تصدر في إسطنبول ، وترجم إلى اللغتين الإنجليزية والتركية .

وقد كشف هذا الكتاب بصراحة عن أسرار خطيرة وراء العمليات الإرهابية التي قام بها أرمن أترك مخدوعون بدعاية بعض الدول الأجنبية ؛ خاصة من الحكومة اليونانية ومن الشيوعيين ، فالعلاقات السياسية بين الحكومتين التركية واليونانية تمر بأزمات سياسية معاقبة بسبب جزيرة قبرص، حيث تحتل القوات التركية الجزء الشمالي من الجزيرة وبسبب الأقلية الإسلامية التركية في تراقيا الغربية، حيث يعيش أكثر من مائة ألف تركي مسلم، يتعرضون من الحكومة اليونانية لسياسة التمييز العنصري ومايجبها من وسائل الاضطهاد والضغط والكتبت^(١) . ومن المعروف أن تراقيا كانت تابعة لبيلغاريا .. فلما دخلت الحرب العالمية الأولى إلى جانب دولتي الوسط والدولة العثمانية، وتعرضت هذه الدولة للهزيمة فرضت بريطانيا وحلفائها على بلغاريا معاهدة نويلى Neuilly في ٢٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٩، وبمقتضاها تنازلت بلغاريا عن تراقيا الغربية لليونان^(٢) . وفي معاهدة سيفر Sèvres (١٠ من أغسطس - آب - ١٩٢٠ حصلت اليونان على تراقيا للشرقية بما فيها أدرنة من الدولة العثمانية. ولما اجتمع مؤتمر لوزان (١٩٢٢-١٩٢٣) قرر تقسيم تراقيا إلى قسمين : تراقيا الشرقية وكانت من نصيب تركيا ، وتراقيا الغربية وظلت على وضعها السياسي الجديد بعد الحرب تابعة لليونان. وطالب عصمت باشا في مؤتمر لوزان بإجراء استفتاء بين الأقلية الإسلامية التركية في تراقيا الغربية ، ولكن المؤتمر رفض طلب عصمت باشا ، واكتفى بإدراج المادة ٣٩ في معاهدة لوزان التي نصت على تمهد اليونان بأن تعامل جميع المواطنين دون تفرقة دينية ، وأن يكونوا جميعاً متساوين أمام القانون .. أما الشيوعيون فكانوا ولايزالون إلى اليوم (١٩٨٢) يحقدون على الجمهورية التركية معاردينهم وزجهم في المعتقلات .

(١) نشرت منظمة تضامن أترك تراقيا الغربية كتاباً سنة ١٩٧٩، عنوانه :

How the West Thrace Moslem Turks are annihilated.

أي كيف يباد المسلمون الأتراك في تراقيا الغربية ؟ وقد سجل مصفاً رهيباً للاضطهاد العنصري والسياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الذي يواجهه الأتراك المسلمون في تراقيا الغربية . والكتاب مطبوع في شركة مطابع ألتينوك Altinok .

(٢) انظر بنود معاهدة نويلى في :

وذكر الكتاب المذكور أن مخطط الأرمن الإرهابيين المدفوعين من عملاء الحكومة اليونانية ومن الشيوعيين كان يتضمن قيام الأرمن بتخريب كنيسة أو كنيسةين أرمنيتين، وبضعة مدارس أرمنية في تركيا، وأخذ صور لهذه المنشآت بعد تخريبها لاستخدامها كنوع من الدعاية لتشويه صورة الجمهورية التركية أمام دول العالم . وقد تلبّثت الحكومة التركية لخطورة هذا المخطط التخريبي، واتخذت إجراءات أمن مشددة لحماية المؤسسات الأرمنية في تركيا ، وكان هؤلاء الأرمن يأملون أن تكون عملياتهم الإرهابية والتخريبية مدعاة لأن تتخذ الحكومة التركية إجراءات مضادة تحد من نشاط رعاياها الأرمن وحريقتهم ، ولكن الجمهورية التركية أخذت نفسها بسياسة ضبط الأعصاب ، فلم تتخذ تدابير انتقامية ضد رعاياها الأرمن الأبرياء المقيمين في الوطن التركي .

الأرمن الأتراك يشرحون حقيقة أوضاعهم في تركيا :

واشتمل الكتاب أيضاً على أكثر من ثلاثين اقتباساً من مقالات، ونشرتها الصحافة الأرمنية والتركية وبيانات أذاعها رجال الدين الأرمن والمحامون والأطباء والمهندسون ورؤساء النقابات والاتحادات الأرمنية ، وكلها تشير إلى أن الأرمن منذ إعلان قيام الجمهورية التركية يتمتعون بالطمأنينة والحرية والمساواة مع المسلمين الأتراك أمام القانون، ويباشرون نشاطهم في شتى المجالات دون أي قيود ، ويجندون في القوات المسلحة التركية أسوة بالأتراك المسلمين للدفاع عن سلامة الجمهورية التركية ووحدة أراضيها ، ويدفعون الضرائب أسوة بهم ، وأن بعضاً منهم دخل البرلمان التركي ، وأن البعض الآخر يشغل مناصب مرموقة في الحكومة والمصارف المالية ، وأن جميع الأرمن الأتراك لا يفكرون في الهجرة إلى دول أخرى ، وأن الحقوق التي يتمتعون بها في تركيا لا مثيل لها في أي بقعة في العالم ، وأن الأرمن المقيمين في أرمينية السوفيتية ينظرون إلى الأرمن المستوطنين تركيا على أنهم أتراك .. ومجمل قولهم إن الجمهورية التركية لانمارس تفرقة بين رعاياها بسبب الجنس أو الدين أو اللغة . ويفضل هذه السياسة الرشيدة اقتبس الأرمن الأتراك العادلات والتقاليد التركية ، وأصابوا نجاحاً كبيراً في الحياة الاقتصادية ، ولذلك فهم لا يسمحون بإفساد جو الأخوة بينهم وبين الأتراك المسلمين .. فهم رعايا يعيشون تحت العلم التركي الأحمر ذي الهلال والنجمة الواحدة، والذي يرفرف عالياً في سماء جميع أرجاء الجمهورية التركية .

حادث مطار أنقرة :

قام بعض أفراد من منظمة إرهابية أرمنية تسمى أسالا ASALA بهجوم مسلح على مطار إيسينبوجا Esenboga في أنقرة في ٧ من أغسطس - آب - سنة ١٩٨٢ ، وقد صاح أحد أفراد المنظمة بقوله «نحن أرمن» ، ولقي قنبلة على أرض صالة المطار المخصصة للرحلات

الخارجية ، بينما اندفع زميل له يطلق من منفع سريع الطلقات أعيرة نارية ، واشتبكت قوات الأمن التركية مع المهاجمين ، وأسفر الاشتباك عن قتل تسعة أشخاص وإصابة اثنين وسبعين شخصاً بجراح متفاوتة الدرجات وتحطيم نوافذ ومكاتب صالة المطار . وكان من بين القتلى أحد الأرمن المهاجمين ، والقائد المساعد لقوات الأمن واثنان من رجاله ، ومدير المطار ، ومهندس ألماني ، وسيدة أمريكية ، واثنان آخريان . وهذه هي أول عملية إرهابية كبيرة قام بها الأرمن داخل تركيا ، وزاد من فداحتها أن البلاد تحت حكم عسكري صارم ، وأنها ارتكبت في العاصمة وفي أحد مطاراتها وفي وضع النهار ؛ إذ اختير لها وقت مناسب هو الساعة الرابعة بعد الظهر حين كانت صالة المطار تزدحم بالمسافرين القادمين على طائرة شركة لوفتهانزا-Lufthansa ينهون إجراءاتهم الجمركية ، بينما كان فوج آخر مكتظاً في صالة المطار لإنهاء إجراءات سفرهم على طائرة شركة ك. ل. م. KLM . وقد أدى هذا التوقيت إلى كثرة وقوع القتلى والجرحى ، وكان للدافع على ارتكاب هذه الجريمة هو الانتقام لما وصفه الأرمن بالمنذبة التي ارتكبت ضد مليون ونصف مليون أرمني في سنة ١٩١٥^(١) في أثناء ترحيلهم من شرقي الأناضول إلى معسكرات الترحيل في منطقة الموصل بشمال العراق ، إبان الحرب العالمية الأولى . ويبدو أن عدد الأرمن الذين اشتركوا في الهجوم على المطار لم يكن اثنين فقط كما أذاعت الحكومة التركية ؛ لأن المهاجمين استطاعوا حجز خمسة وعشرين من الركاب في مطعم المطار ، وكانت النية متجهة إلى نقلهم إلى مكان سحيق مجهول لولا أن أنقذتهم قوات الأمن التركية . وبعد مضي نصف ساعة على ارتكاب حادث الهجوم أذاعت المنطقة الإرهابية الأرمنية رسالة إلى حكومة من الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وسويسرا ، وكندا ، والسويد تطلب فيها من هذه الحكومات أن تطلق في خلال سبعة أيام سراح الإرهابيين الأرمن المحتجزين في هذه الدول . وقد بلغ عددهم في سجون جميع هذه الدول خمسة وثمانين أرمنياً ، وهددت المنظمة هذه للحكومات بتسلل جماعات من الكوماندوس الإرهابيين إلى تلك الدول الأوروبية والأمريكية ونسف المنشآت الحربية فيها . وقد وجه رئيس الدولة في تركيا الجنرال إيفرن Le Général Evren رسالة إلى مواطنيه الأتراك ندد فيها بهذا العدوان ، وقال

(١) انظر الرسالة التي وجهها رئيس الدولة التركية الجنرال إيفرن ، والبيان الذي أذاعه رئيس الوزارة التركية بولند الووز ، وبيان وزير الداخلية صلاح الدين سبتينر . وقد نشرت جميعها في الطبعة الفرنسية لجريدة New Spot ، التي تصدر بالإنجليزية في أنقرة . وتطبع في مطابع Turkish Daily News ، العدد ٨٢٠٨٢ وملحقه الصابان في ١٢ من أغسطس - آب - ١٩٨٢ .

وانظر أيضاً جريدة الأهرام :

العدد ٢٤٩٣٧ الصادر في ٨ من أغسطس - آب - سنة ١٩٨٢ ، ص ٤ .

والعدد ٢٤٩٣٨ الصادر في ٩ من أغسطس - آب - سنة ١٩٨٢ ، ص ٤ ، ويقول الجريدة إن عدد القتلى قد ارتفع إلى أحد عشر قتيلاً .

إن منظمة إرهابية دولية أرمنية قامت به، وأكد أن قوات الأمن التركية ستواصل الصراع ضد المنظمات الإرهابية الدولية بكل إصرار وعنف، وأنها مهتمة بالكشف عن الشبكات الداخلية والخارجية التي تغذى هذا الإرهاب، وناشد الدول التي تحترم حقوق الإنسان مكافحة الإرهاب الدولي عدم التدخل في الشؤون الداخلية لتركيا أو المساس بحقوق سيادتها على أراضيها ومحاربا وأجوائها، وقال إن حساب الأنفس التي أزهقت والدماء التي أريقت لن تورث للتاريخ. كما وجه رئيس الوزارة التركية بولند ألويز Bulend Ulusu رسالة بهذا المعنى، وكذلك فعل وزير الداخلية صلاح الدين سيتير Salihattin Setiner، ويتضح مما جاء بين ثنايا سطور هذه الرسائل أن الحكومة التركية تنهم إحدى الدول الأجنبية المعادية لتركيا بتشجيع منظمة أسالا الإرهابية وتزويدها بالأسلحة ورسم خطط للهجوم، وكان مما جاء في رسالة رئيس الدولة مايلي :

أيها المواطنون الأعزاء

من الصعب أن يدرك الإنسان بواعث كل من جماعة دأسالاه التي تتكون من حفنة من الأشقياء المجرمين، والمنظمات الإرهابية الدولية التي على شاكلتها، في سعيها لشل نشاط الشعب التركي وإرهابه بمثل هذه الأعمال الهجومية الوحشية وغير الإنسانية والتي تؤدي إلى إزهاق أرواح كثيرين من الأبرياء وإراقة دماء غيرهم .

إن الأرمن - وهم يتمتعون بحماية وضمان دول مختلفة هم فيها مواطنون - يتورطون في قضايا ومغامرات أو مغامرات من كل نوع تحت مظهر برئ . وهذه الدول تقدم لتلك المنظمات تأييدها المادي والأدبي أو تشجيعها، كما أن هذه الدول تتيح للجماعات الإرهابية إمكانية الإقامة في أقاليمها، وتضفي عليها هوية شخصية شبه قانونية خوفاً من أن تری أقاليمها الخاضعة لها مسرحاً لهذه الأعمال الإرهابية، وبلغ الأمر إلى حد تدليل هؤلاء الوحوش المتعطشين لسفك الدماء . ويجب على هذه الدول أن تدرك أن الشعب التركي يشبه صخرة من الجرانيت، تتحطم عليها أمواج بحر لحي، تهدر فيه الأمواج الصاخبة العاتية . فالشعب التركي هو الحارس العظيم لوحدة الأراضي التركية وتماسكها داخل الحدود، التي قررها الميثاق الوطني بموجب حرب الاستقلال .

إن الشعب التركي الذي قدم على امتداد قرون أعدداً لا تحصى من الشهداء في سبيل هذه القضية، مصمم أيضاً على أن يقدم مزيداً من الشهداء .

وستواصل قوات الأمن التركية الصراع ضد هذه المنظمات الإرهابية الدولية بكل إصرار وعنف، وستبذل جهودها للكشف عن الشبكات الداخلية والخارجية لهذه المنظمات .

وإني حريص على أن أؤكد مرة أخرى للدول، التي جعلت من نفسها مدافعة عن احترام

حقوق الإنسان وللأنظمة الدولية التي أنشأتها ، ضرورة بذل جهود أكثر إنسانية وأكثر تحمضاً لتهجير العالم من الإرهاب الدولي ، الذي أصبح كارثة ، بدلاً من أن توجه نشاطها إلى أغراض سياسية ، تذهب إلى حد التدخل في الشؤون الداخلية لدولة وانتهاك حقوقها في السيادة .

إن الشعب التركي لحزين ، ولكن حسابات الأنفس التي أزهقت ، والدماء التي أريقت ، لن تترك للتاريخ ، فسنتخلص لها اقتصاصاً صارماً .

Chers Concitoyens,

Il est difficile de comprendre devant quoi L'ASALA, composée d'une poignée de vilains criminels et les organisations terroristes internationales similaires cherchent à faire plier la Nation Turque par de telles agressions inhumaines et féroces faisant perdre la vie de tant d'innocents ou couler le sang.

Les Arméniens, jouissant de la protection et de la garantie des différents pays dont ils sont citoyens, impliqués dans des affaires et intrigues de toutes sortes, sous une apparence innocente et qui apportent leur soutien matériel et moral à ces organisations ou les encouragent, et les pays qui donnent à ces groupes de terroristes la possibilité de s'abriter dans leur territoires, leur accordent une personnalité quasi juridique et qui, par peur de voir leurs propres territoires gagnés par ces actes de terrorisme, vont jusqu' à choyer ces monstres extasiés par le sang, devront savoir que la Nation Turque, pareille à un rocher en granit brisant toutes les vagues d'une mer déchaînée malgré les infimes morceaux qui lui sont arrachés, est le gardien majestueux de l'Unité et de l'intégrité du pays à l'intérieur des frontières du Pacte National tracées par la guerre d'indépendance.

La Nation Turque, qui au long des siècles, a donné d'innombrables martyrs pour cette cause, a juré d'en donner encore davantage.

Les forces de Sécurité turques continueront à lutter contre ces organisations terroristes internationales d'une manière résolue et rigoureuse et s'efforceront de découvrir les réseaux intérieurs et extérieurs de ces organisations.

Je tiens à réaffirmer une fois de plus la nécessité pour les pays, champions du respect des droits de l'homme, et les institutions internationales qu'ils

ont mises en place, de déployer des efforts plus humaines et civilisés pour nettoyer le monde du terrorisme international, devenu un fléau, au lieu de mener des activités intéressées dans des buts politiques allant jusqu'à l'ingérence dans les affaires intérieures d'un pays, et même la violation de des droits de souveraineté.

La Nation Turque est profondément affligée Les comptes de tant de vies éteintes et de tant de sangs coulés ne seront pas lugués à l'histoire.

وما هو جدير بالذكر أن أرمينيا تركياً له من العمر إحدى وستون سنة، أقدم على الانتحار في ١٠ من أغسطس - آب - سنة ١٩٨٢ استنكاراً لحادث الهجوم على المطار؛ فصب كميات من البنزين على ملابسه، وأشعل فيها النار بجوار نمثال الجمهورية في ميدان تقسيم، وهو أكبر ميادين إستانبول. وأنتج لى في أثناء وجودى في تركيا في هذا الشهر أن أعثر على الطبعة الفرنسية لجريدة New Spot وهي تصدر بالإنجليزية في أنقرة، وقد أصدرت عدداً خاصاً وملحقاً خاصاً عن حادث الهجوم الإرهابى على المطار وحادث الانتحار، مع مجموعة من الصور توضح معالم التخريب في المطار وصور القتلى والجرحى والآباء وهم يبكون أبناءهم وذويهم من القتلى. وقد اتخذت الحكومة التركية إجراءات أمن مشددة لمواجهة أى تجدد للنشاط الإرهابى الأرمنى؛ فعززت قوات الحراسة في شتى مدن تركيا. ولمست هذه الظاهرة منذ هبوطى في مطار إستانبول في صباح ٢٥ من أغسطس - آب - حتى مغادرتى تركيا في ٢٣ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٨٢، وبعد أن كانت الجمهورية التركية قد أعلنت أن قضية الأرمن ليس لها وجود فيما يخصها، غدا الإرهاب الأرمنى يتهدد المواطنين الأتراك الأبرياء في أرواحهم، بفعل إرهابيين أرممن، تحت ستار بحث صفحة من التاريخ في سنة ١٩١٥ سبق أن أوضحنا زيفها.

عملية إرهابية أخرى :

لم نكد تمر خمسة أشهر على حادث الهجوم على مطار إيسينبرجا في أنقرة، حتى شن اثنتان من أعضاء الجيش السرى الأرمنى لتحرير أرمينية هجوماً بالقابل في ٢٣ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٨٣ على مكتب الخطوط الجوية التركية بميدان الأوبرا في قلب باريس؛ مما أسفر عن إصابة ثلاثة أشخاص بجراح. وذكر متحدث باسم الشرطة الفرنسية أن شخصين مجهولين ألقيا قنبلتين يدويتين داخل مكتب الخطوط الجوية التركية، وألقى القبض على أحدهما في حين لاذ زميله بالفرار، وذكرت وكالات الأنباء العالمية أنه بعد ساعات من هذا الحادث أبطأ خبراء المفرقات مفعول قنبلة، أخفيت داخل طرد ملغم بالقرب من مكتب

الخطوط الجوية التركية في مطار أورلي من باريس جنوبى العاصمة (١) .

ويتضح من هاتين العمليتين التى قام بهما الأرمن أن نشاطهم الإرهابى يتصاعد، ويتم على فترات متقاربة سواء داخل أراضى الجمهورية التركية أو فى خارجها على مؤسسات تركية . والهدف من هذا النشاط الإرهابى هو حمل الحكومة التركية على الإنذعان للمطالب الأرمنية ، وهو هدف يبدو أنه بعيد التحقيق ، إن لم يكن فى حكم الاستحالة ، أمام إصرار الحكومة التركية على عدم التخلّى عن مناطق فى شرقى الأناضول ، وهى مناطق تعد من صميم الوطن التركى .

مراحل قضية الأرمن :

يمكن مما سبق تلخيص المراحل التى مرت بها قضية الأرمن منذ مؤتمر برلين الأوروبى لسنة ١٨٧٨ حتى الوقت الحاضر (١٩٨٣) على النحو التالى (٢) :

(١) من مؤتمر برلين حتى قيام الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ أعمال إرهابية قامت بها الجمعيات الثورية الأرمنية ، وعود مكرورة من السلطان عبد الحميد الثانى إبان حكمه بإدخال الإصلاحات التى نص عليها مؤتمر برلين فى الولايات الست فى شرقى الأناضول، والتى يحتشد فيها الأرمن ، وسلبية شبه مطلقة من الدول الأوروبية الكبرى باستثناء روسيا ، ونشاط عثماني فى الضرب على أيدى الإرهابيين الأرمن ابتغاء وقف المذابح التى يرتكبها الأرمن بالعثمانيين المسلمين ، وكان السبب فى بقاء قضية الأرمن تزرق السلطات العثمانية، إنما يرجع إلى تمسك السلطان عبد الحميد بسياسة الحكم المركزى بوجه عام .. ولكن يخفف من مسؤوليته تجاه تمسكه بالإبقاء على الوضع القائم فى الولايات الست فى شرقى الأناضول أن قضية الأرمن كانت مسألة حياة أو موت بالنسبة للعثمانيين، كما أوضحنا فى الفصل السابق . ولاتزال سياسة عدم شطر الأناضول إلى دولتين هى سياسة الجمهورية التركية، لاتحيد عنها ولا تقبل المناقشة فيها .

(٢) فى الحرب العالمية الأولى، احتضنت روسيا قضية الأرمن احتضاناً سافراً ، ثم رقت بريطانيا وحليفاتها إلى جانب الأرمن فى معاهدة سيفر التى قررت إنشاء دولة أرمنية ، بعد إخفاق مشروع تعيين الولايات المتحدة الأمريكية دولاً منتدبة عليها .

(٣) إسقاط قضية الأرمن فى مؤتمر لوزان لسنة ١٩٢٣ ، والذى قرر التعايش السلمى بين الأرمن والأتراك، مع منحهم حقوق الأقليات التركية غير الإسلامية ومساواتهم بالأتراك

(١) جريدة الأهرام ، العدد ٤٥١٠ ، الصادر فى ٢٣ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٨٢ ، ص ٤ .

(٢) انظر الملحق الفرنسى للعدد الصادر فى ١٣ من أغسطس - آب - سنة ١٩٨٢ .

== ٤٤٠ == عريب الدولة العثمانية (٥) قضية الأرمن ومذليحهم (ب) منذ بداية الحرب العالمية الأولى حتى الوقت الحاضر ==

أمام القانون، وتهئية فرص النمو الاقتصادى والثقافى والاجتماعى والدينى للأرمن .
(٤) محاولة بعث العنف الإرهابى الأرمنى عن طريق منظمة آسالا ASALA باغتيال بعض أعضاء السلكين الدبلوماسى والقنصلى الأتراك فى الدول الأجنبية ، وكان آخر هذه الأحداث الهجوم الغادر على بعض المطارات التركية وقت هبوط وإقلاع الطائرات ، والهجوم على مكاتب الخطوط التركية فى مطار باريس .

* * *

THE OTTOMAN EMPIRE **An ISLAMIC MALIGNED STATE**

By

Abdel Aziz M. El-Shennawy

M.A., Ph. D.

Professor of Modern and Contemporary History,

Member of the Supreme Council of Islamic Affairs

Member of History Committee, the Supreme Council of Culture.

Former Professor and Head of the History Department,

Al-Azhar University, Cairo.

Volume III

Publisher : Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo.

هذا الكتاب

دائماً ما ينظر إلى التاريخ باعتباره حافظة الوعي الإنساني ، وحاوية نتاج هذا الوعي من سابق وحاضر ومستقبل الأمم والشعوب .. وفي هذه السلسلة ، التي تتكون من أربعة أجزاء متكاملة ، تحكى قصة الدولة العثمانية من منظور أنها دولة إسلامية لم تأخذ حقها من الإنصاف والعدل والرؤية الموضوعية الحيادية .. تأتي محاولة المؤلف الجادة والرائعة في هذا التتبع التاريخي الدقيق ، في طرح كل قضايا هذه الدولة ومتاعبها ونجاحاتها وإخفاقاتها .. تأتي هذه المحاولة من منظور أن التاريخ يفسر الإنسان للإنسان .. تتكامل هذه الأجزاء الأربعة لتشكل دافعاً منطقياً للقارئ لأن يعيد تشكيل ثوابته ومعارفه التاريخية ، على أساس من البحث والموضوعية ..

السلسلة جديرة بأن يقرأها كل متخصص في الدرس التاريخي ، وكل غير متخصص راغب في أن يعرف تاريخ أمته وعلاقتها بغيرها من الأمم .. لأن ماورد أجزائها الأربعة ، " في ثلاثة وستين فصلاً كاملة تتجاوز ألفي صفحة " ، هو محاولة رائعة لوضع الأمور في نصابها الصحيح ، تجعلنا أمام تاريخ غير مزيف ، غير مدفوع بهوى شخصي ، غير مدفوع بانهياز مسبق ..

الناشر

